

التَّبَيَّاتُ

في

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

مُؤَلَّفِ

١٤٤٠ هـ

شَيْخِ الطَّائِفَةِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الطُّوسِيِّ

لِجَمْعِ السَّالِفِينَ

مُتَّفِقِينَ

مِنْ سُلَالَةِ الْأَوَّلِيْنَ

الْمُتَابِعَةِ لِمَجْلَعَةِ الْمُتَسَلِّطِينَ بِمَعْرِفَةِ الْمَشْرِفَةِ





٦٥٥

التَّبَيَّاتُ

في

تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

تأليف

شَيْخِ الطَّائِفَةِ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الطُّوسِيِّ

الْحُجَّةُ السَّالِصَةُ

مُجْتَمِعُ

مُؤَسَّسَةُ النِّشْرِ الْأِسْلَامِيِّ

الَّتَايِعَةُ لِمَجْمَاعَةِ الْمَدِينَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسَةِ

شابك (ج ٦) - ٥٢٠ - ٤٧٠ - ٩٦٤
ISBN 964 - 470 - 530 - 0

شابك الدورة ٨ - ٠٧٠ - ٤٧٠ - ٩٦٤
ISBN 964 - 470 - 070 - 8



التيان في تفسير القرآن (ج ٦)

- | | |
|----------------|---|
| ■ تأليف: | شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي رحمه الله |
| ■ الموضوع: | التفسير |
| ■ تحقيق و نشر: | مؤسسة النشر الإسلامي |
| ■ عدد الصفحات: | ٧٠٠ |
| ■ الطبعة: | الأولى |
| ■ المطبوع: | ١٠٠٠ نسخة |
| ■ التاريخ: | ١٤٢٦ هـ . ق |

مؤسسة النشر الإسلامي
التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم: إِنَّ سورة الأنعام مَكِّيَّة. وقال يزيد بن رومان: بعضها مَكِّي وبعضها مدني. وقال شَهْر بن حَوْشَب: هي مَكِّيَّة إِلَّا اثْنَتَيْنِ منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ عَلَيْكُمْ مَا حَرَّمَ﴾^(١) والتي بعدها.

وَرُوي عن ابن عباس أَنَّهُ قال: نزلت سورة الأنعام جملةً بَمَكَّةَ معها سبعون ألف مَلَكٍ يجذون^(٢) حولها بالتسبيح والتهليل والتحميد.

وهي مائة وخمس وستون آية كوفي، وستٌ في البصري، وسبع في المدنيّين. وَرُوي عن ابن عباس أَنَّهُ قال: هي مَكِّيَّة غير ست آيات منها فَأَتَتْهَا مدَنِيَّاتٌ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ﴾ وآيتان بعدها، وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٣) إلى آخرها، والآية التي بعدها ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾^(٤) إلى آخرها.

(١) الآية: ١٥١.

(٢) جذا جذواً - بالفتح - وكُشِّمُوا: ثبت قائماً، كأجذى أوجثا، أو قام على أطراف أصابعه.
القاموس المحيط (جذو). (٣) الآية: ٩١. (٤) الآية: ٩٣.

وَرُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَا نَزَلَ عَلَيَّ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ جَمَلَةٌ غَيْرُ سُورَةِ الْإِنْعَامِ، وَمَا جَمَعْتَ الشَّيَاطِينَ لِسُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ جَمْعَهَا لَهَا، وَلَقَدْ بُعِثَ بِهَا إِلَيَّ مَعَ جِبْرَائِيلَ مَعَ خَمْسِينَ مَلَكًا أَوْ قَالَ: خَمْسِينَ أَلْفَ مَلَكٍ - شَكَّ الْوَاقِدِيُّ - نَزَلَ بِهَا وَتَحَقَّقَهَا حَتَّى أَقْرَافَهَا فِي صَدْرِي كَمَا يَقَرُّ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ، وَقَدْ أَعَزَّنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِهَا عَزًّا لَا يَذُنَّا بَعْدَهُ أَبَدًا، فِيهَا دَحْضُ حُجَجِ الْمُشْرِكِينَ، وَوَعْدُ مِنَ اللَّهِ لَا يَخْلِفُهُ^(١).

وَرُوِيَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ أَنَّهُ قَالَ: افْتَتِحَتِ التَّوْرَةُ بِ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ وَخُتِمَتِ بِ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾^(٢) إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

قوله تعالى:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

أَلْخُذْ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ .

آية في الكوفي والبصري، وآيتان في المدنيين، قوله: ﴿والنور﴾ آخر الأولى .

أخبر الله تعالى في هذه الآية أَنَّ المستحقَّ للحمد مَن ﴿خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾ أي: خلقهما لما اشتملا عليه من عجائب الخلق ومُتَّفَنِّ الصنع، ثُمَّ عجب مَن جعل له شركاء مع ما ترى في السموات والأرض من الدلالة على أَنَّهُ الواحد الَّذي لا شريك

(٢) الإسراء: ١١١.

(١) تفسير الفخر الرازي ١٢: ١٤١.

له، وقد بيّنا فيما تقدّم وجه دلالة ذلك على أنّه واحد ليس باثنين. وقوله: ﴿يَرْبَهُمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يجعلون له مثلاً يستحقّ العبادة، مأخوذ من قولك: لا أعْدِلُ بفلان أحداً، أي: لا نظير له عندي ولا أحد يستحقّ ما يستحقّه. قال الكسائي: يقال: عَدَلْتُ الشيء بالشيء أعْدِلُهُ عُدُولاً إذا ساوَيْتُهُ، وعَدَل في الحكم يَعْدِلُ عَدْلاً. وقال الحسن ومجاهد: معنى ﴿يعدلون﴾: يشركون. وإنّما ابتدأ تعالى هذه السورة بالحمد احتجاجاً على مشركي العرب، وعلى من كَذَبَ بالبعث والنشور، فابتدأ فقال: ﴿الحمد لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ فذكر أعظم الأشياء المخلوقة، لأنّ السماء بغير عمَدٍ ترونها، والأرض غير مائدة بنا، ثم ذَكَرَ الظلمات والنور، وذكر الليل والنهار، وهما ممّا به قوام الخلق، فأعلم الله تعالى أنّ هذه خلق له، وأنّ خالقها لا شيء مثله.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: إنّ الأنعام نزلت جملة، وشيعها سبعون ألف ملك حين أنزلت على رسول الله ﷺ، فعظّموها وبجلّوها، فإنّ اسم الله تعالى فيها في سبعين موضعاً، ولو يعلم الناس ما في قراءتها من الفضل ما تركوها^(١).

قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ آية بلا خلاف .

أقول: معنى قوله: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أي: أنشأكم واخترعكم ﴿من طين﴾ ومعناه: خلق أباكم - الذي هو آدم وأنتم من ذريته، وهو بمنزلة الأصل لنا -

(١) رواه الكليني في الكافي: ج ٢ ص ٦٢٢ ح ١٢، والصدوق في ثواب الأعمال: ج ١ ص ١٣١ كلاهما بالإسناد عن الحسن بن علي بن أبي حمزة رفعه عنه عليه السلام.

من طين، فلمّا كان أصلنا من الطين جاز أن يقول ﴿خلقكم من طين﴾.
وقوله: ﴿ثمّ قضى﴾ معناه: حكم بذلك، والقضاء يكون حُكماً، ويكون
أمراً، ويكون الإتمام والإكمال.

[وقوله]: ﴿أجلاً وأجل مسمّى عنده﴾ قيل في معناه قولان:
أحدهما: قال أبو علي: كتب لكم أجلاً في الدنيا، وحكم بأنّه أجل لنا،
وهو الأجل الذي يحيى فيه أهل الدنيا إلى أن يموتوا، وهو أوقات حياتهم،
لأنّ أجل الحياة هو وقت الحياة، وأجل الموت [هو وقت الموت] ﴿وأجل
مسمّى عنده﴾ يعني: آجالكم في الآخرة، وذلك أجل دائم ممدود لا آخر
له، وإتّما قال له: ﴿مسمّى عنده﴾ لأنّه مكتوب في اللوح المحفوظ، في
السماء، وهو الموضع الذي لا يملك فيه الحكم على الخلق سواه.
وقال الزجاج: أحد الأجلين أجل الحياة، وهو الوقت الذي تحدث فيه
الحياة، ويحيون فيه ﴿وأجل مسمّى عنده﴾ يعني: أمر^(١) الساعة والبعث.
وبه قال الحسن وسعيد بن جبّير ومجاهد وعكرمة والضحاك. وقال
بعضهم^(٢): ﴿قضى أجلاً﴾ يعني: أجل من مضى من الخلق ﴿وأجل مسمّى
عنده﴾: أجل الباقيين.

والذي نقوله: إنّ الأجل هو الوقت الذي تحدث فيه الحياة أو الموت
ولا يجوز أن يكون المقدّر أجلاً، كما لا يجوز أن يكون ملكاً، فإن سمي
ما يعلم الله تعالى أنّه لو لم يُقتل فيه لعاش إليه أجلاً كان ذلك مجازاً، لأنّ
الحيّ لم يَعْشَ إليه. ولا يمتنع أن يعلم الله من حال المقتول أنّه لو لم يقتله
القاتل لعاش إلى وقت آخر، وكذلك ما روي: أنّ الصدقة وصلة الرحم

(١) في الحجرية: ان، والظاهر: أن. (٢) كابن شجرة. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٩٣.

تزيدان في الأجل^(١) وما رُوي في قصّة قوم يونس، فإنّ الله صرف عنهم العذاب وزاد في آجالهم لا يمنع منه مانع، وإنّما منع من التسمية لما قلنا [ه]. وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ خطاب للكفّار الذين يشكّون في البعث والنشور، احتجّ الله بهذه الآية على الذين عدّلوا به غيره، فأعلمهم الله أنّه خلقهم من طين، ونقلهم من حال إلى حال، وقضى عليهم الموت، فهم يشاهدون ذلك، ويقرّون بأنّه لا محيص منه. ثمّ عجّبهم من «امترائهم» أي: من شكّهم في أنّه الواحد القادر على ما يشاء، وفي أنّه لم يعبث بخلقهم وإبقائهم وإماتتهم بعد ذلك، وأنّه لا بدّ من جزاء المُسيء والمُحسن، ومثله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنَبَيِّنَ لَكُمْ﴾^(٢) إنّ الذي قدر على ذلك قادر على أن يبعثكم بعد أن تكونوا تُرَاباً. وقوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ رفع على الابتداء، وتَمّ الكلام عند قوله: ﴿ثُمَّ قُضِيَ أَجَلٌ﴾.

قوله تعالى:

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٢﴾ آية إجماعاً.

أقول قوله: ﴿وهو الله في السموات وفي الأرض﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: قال الزجاج والبلخي وغيرهما: إنّهُ المعبود في السماوات والأرض، والمتفرّد بالتدبير في السماوات وفي الأرض، لأنّ حلوله فيهما أو في شيء منهما لا يجوز عليه، ولا يجوز أن تقول: هو زيد في البيت

(١) راجع الكافي: ج ٢ ص ١٥٠ باب صلة الرحم، وج ٤ ص ٢ أبواب الصدقة.

(٢) الحجّ: ٥.

والدار، وأنت تريد: أنه يدبرهما، إلا أن يكون في الكلام ما يدل على أن المراد به التدبير، كقول القائل: فلان الخليفة في الشرق والغرب، لأن المعنى في ذلك: أنه المدبر فيهما. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، كأنه قال: إنه هو الله وهو في السماوات وفي الأرض، ومثل ذلك قوله: ﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾^(١).

والوجه الثاني: قال أبو علي: إن قوله: ﴿وهو الله﴾ قد تم الكلام. وقوله: ﴿في السماوات وفي الأرض﴾.

لأن الخلق: إما أن يكونوا ملائكة فهم في السماء، أو البشر والجن فهم في الأرض، فهو تعالى عالم بجميع ذلك لا يخفى عليه خافية، ويقويه قوله: ﴿ويعلم ما تكسبون﴾ أي: يعلم جميع ما تعملونه من الخير والشر فيجازيكم على حسب أعمالكم، ولا يخفى عليه شيء منها، وفي ذلك غاية الزجر والتهديد.

وفي الآية دلالة على فساد قول من قال: إنه تعالى في مكان دون مكان، تعالى الله عن ذلك.

قوله تعالى:

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤١﴾ آية بلا خلاف. أقول: إخبار من الله تعالى أنه لا يأتي هؤلاء الكفار المذكورين في أول الآية ﴿آية من آيات ربهم﴾ وهي المعجزات التي يُظهرها على رسوله، وآيات القرآن التي كان ينزلها على نبيه ﷺ [إلا كانوا عنها مُعْرِضِينَ] لا يقبلونها، ولا يستدلون بها على ما دلهم الله عليه من توحيده

وصدق رسوله محمد ﷺ .

قوله تعالى:

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتْؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾
آية.

أقول: في هذه الآية إخبار منه تعالى: أَنَّ الكفَّار قد كَذَّبُوا بالحقَّ الَّذي أَتَاهُم به محمد ﷺ لَمَّا جَاءَهُم بالقرآن وسائر أمور الدين، وأنه سوف يَأْتِيهِم خبر العذاب الَّذي يُنْزِلُهُ بِهِمْ عقوبةً على كفرهم، وهذا العذاب هو الَّذي ﴿كانوا به يستهزءون﴾ بإخبار رسول الله ﷺ إياهم به وبنزوله بهم. فبيِّن أَنَّ ذلك سيحلَّ بهم وَسَيَقْفُونَ على صحَّته. ودلَّ ذلك على أَنَّهُم كانوا يستهزئون وإن كان لم يذكره هاهنا وذكره في موضع آخر، ومثل ذلك قول القائل للجاني عليه: سيُعَلِّمُ عَمَلُكَ، وإنَّما يريد: ستُجَازَى على عملك.

وقال الزجاج: معنى ﴿أَنبَأُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: تأويله، والمعنى: سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم.

قوله تعالى:

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ خطاب للغائب، وتقديره: أَلَمْ يَرَ^(١) هؤلاء الكفار، أي أَلَمْ يَعْلَمُوا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ ثم قال: ﴿ما

(١) في الحجرية: أَلَمْ يَرَوْا .

لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ ﴿ فخطب خطاب المواجه، فكأنه أخبر النبي ﷺ ثم خطبه معهم، كما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ ^(١) فذكر لفظ الغائب [بعد] خطاب المواجه.

ومعنى ﴿مَنْ قَرْنٍ﴾ من أمة. قال الحسن: القرن: عشرون سنة. وقال إبراهيم: أربعون سنة. وقال أبو ميسرة: هو عشر سنين. وحكى الزجاج والفراء: أنه ثمانون سنة. وقال قوم: هو سبعون سنة. وقال الزجاج: عندي أن القرن هو أهل كل مدة كان فيها نبي أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلت السنون أو كثرت، فيسمى ذلك قرناً، بدلالة قوله ﷺ: «خيركم قرني» يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: تابعي التابعين. قال: وجائز أن يكون القرن جملة الأمة، وهؤلاء قرون فيها. واشتقاق «القرن» من الاقتران، وكل طبقة مقترنين في وقت قرن، والذين يأتون بعدهم ذوو اقتران: قرن آخر.

وقوله: ﴿مَكَتَاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: جعلناهم ملوكاً وأغنياء، تقول: «مكتتك» و «مكنت لك» واحداً.

وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً﴾ معناه: أرسلنا عليهم مطراً كثيراً من السماء، يقول القائل: أصابتنا هذه [السماء]، و: ما زلنا نطأ السماء حتى أتيناكم، يعنون: المطر. وقوله: ﴿مِدْرَاراً﴾ يعني: غزيراً دائماً كثيراً، وهو قول ابن عباس وأبي رزق، و «مفعال» من ألفاظ المبالغة، يقال: ديمة ^(٢) مِدْرَاراً إذا كان مطرها غزيراً دَاراً، كقولهم: امرأة مذكّار إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، ومثناة في الإناث. و «مفعال» لا يُؤنث،

(١) يونس: ٢٢.

(٢) الديمة: مطر يدوم في سكون بلا رعد ولا برق، جمعها: ديم ودُيوم. (لسان العرب).

يقال: امرأة مِغْطَار ومِثْنَات ومِذْكَار، بغير هاء.

يَبِّنُ الله تعالى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آتَاهُمُ اللهُ هَذِهِ الْمَنَافِعَ، وَأَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمُ، وَمَكَّنَهُمْ فِي الْأَرْضِ، لَمَّا كَفَرُوا بِنِعْمِ اللهِ وَارْتَكَبُوا مَعَاصِيَهُ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ أَنْشَأَ قَوْمًا آخَرِينَ بَعْدَهُمْ. يقال: أَنْشَأَ فُلَانٌ يَفْعَلُ كَذَا، أَي: ابْتَدَأَ فِيهِ.

وموضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ لِأَنَّ لَفْظَ الاسْتِفْهَامِ لَا يُعْمَلُ فِيهِ مَا قَبْلَهُ، فَلِذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِـ ﴿يُرَوُّ﴾.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ قَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ وَالْقَوْمُ كَانُوا غَيْرَ مُقَرَّرِينَ بِمَا أُخْبِرُوا بِهِ مِنْ شَأْنِ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ؟

قِيلَ: كَانَ الْكَثِيرُ مِنْهُمْ مُقَرَّرًا بِذَلِكَ، مَا عَرَفَهُ غَيْرُهُ.

قوله تعالى:

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ فَتْرَةٍ لَّفَلَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّهُ لَوْ نَزَّلَ عَلَى نَبِيِّهِ ﴿كِتَابًا﴾ يَعْنِي: صَحِيفَةً مَكْتُوبَةً ﴿فِي قِرْطَاسٍ﴾ حَتَّى يَلْمُسُوهُ ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ وَيَدْرِكُوهُ بِحَوَاسِهِمْ، لَأَنَّهُمْ لَوْ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِكِتَابٍ يَقْرَؤُونَهُ مِنْ اللَّهِ إِلَى فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ: أَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ، وَأَنَّهُ لَوْ أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ لَمَّا آمَنُوا، وَنَسَبُوهُ إِلَى السَّحْرِ لِعِظَمِ عِنَادِهِمْ وَقَسَاوَةِ قُلُوبِهِمْ وَعِزْمِهِمْ عَلَى أَنْ لَا يُؤْمِنُوا عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَعَرَفَهُ أَنَّ التَّمَاثُلَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ضَرْبٌ مِنَ الْعَنَتِ، وَمَتَى فَعَلُوا ذَلِكَ اصْطَلَمَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ، وَلَيْسَ تَقْتَضِي الْمَصْلَحَةِ ذَلِكَ، لَمَّا عَلِمَ فِي بَقَائِهِمْ مَصْلَحَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَعَلِمَهُ بِمَنْ يَخْرُجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّ فِيهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ فِيمَا بَعْدَ، فَلَا يَجُوزُ اخْتِرَامُ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ،

عند أبي عليّ والبلخي.

وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا﴾ معناه: ليس هذا إلا.

واحتجّ أبو عليّ بهذه الآية على أنّه شيء كان في معلوم الله تعالى أنّه لو آتاهم الآيات التي طلبوها [لما آمنوا] أي: إنّما منعهم إياها لأنّهم كانوا لا يؤمنون، ولو آتيتهم إياها لكانوا يقولون: إنّها سحر مبین.

وبهذا تبين بطلان قول من قال: اللطف ليس بواجب، وأنّه يجوز أن يمنعهم الله ما طلبوا وإن كانوا يؤمنون لو آتاهم ذلك ويكفرون لو منعهم إياه. قوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلِيسُونَ ﴿٩﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار أنّهم قالوا: ﴿لولا﴾ ومعناه: هلا ﴿أنزل عليه﴾ يعنون: على محمد ﴿ملك﴾ يشاهدونه فيصدّقه. ثمّ أخبر عن عظم عنادهم: أنّه لو أنزل عليهم الملك على ما اقترحوه لما آمنوا به، واقتضت الحكمة استئصالهم وألا ينظرهم ولا يمهلهم، وذلك بخلاف ما علم الله تعالى من المصلحة على ما بيّناه.

ومعنى ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: أتمّ إهلاكهم، [و] «قُضِيَ» على ضروب كلّها ترجع إلى معنى: تمام الشيء وانقطاعه، في قول الزجاج، فمنه: ﴿قُضِيَ أَجْلاً وَأَجْلاً مَسْمُومٌ عِنْدَهُ﴾ ^(١) معناه: ثمّ ختم بذلك وأتمّه، ومنه: الأمر نحو قوله: ﴿وَقُضِينَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ ^(٢) أي: أعلمناهم إعلاماً قاطعاً، ومنه: الفصل في الحكم نحو قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

إلى أَجَلٍ مَّسْمُومٍ لِّقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿١١﴾ أَي: لَفُصِّلَ الْحُكْمُ بَيْنَهُمْ، ومنه: قولهم: قَضَى الْقَاضِي، ومن ذلك: قَضَى فُلَانٌ دَيْنَهُ، أَي: قطع ما لغريمه عليه وأَدَّاهُ إِلَيْهِ وقطع ما بينه وبينه، وكلَّمَا أَحْكَمَ فَقَدْ قَضَى، تقول: قَضَيْتَ هَذَا الثَّوبَ وَهَذِهِ الدَّارَ، أَي: عَمِلْتَهَا وَأَحْكَمْتَ عَمَلَهَا، قال أَبُو دُوَيْبٍ:
وَعَلَيْهِمَا مَشْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا دَاوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغَ تُبِعُ ﴿١٢﴾
وقال مجاهد: معنى ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ يريدون: في صورته.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أُنْزِلْنَا مَلَكَ﴾ في صورته ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أَي: لَقَامَتِ السَّاعَةُ أَوْ وَجِبَ اسْتِثْصَالُهُمْ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَّجَعَلْنَاهُ﴾ في صورة رَجُلٍ، لَأَنَّ أَبْصَارَ الْبَشَرِ لَا تَقْدِرُ عَلَى النَّظَرِ إِلَى صُورَةِ مَلَكٍ عَلَى هَيْئَتِهِ، لِطُفِّ الْمَلَكِ وَقَلَّةِ شِعَاعِ أَبْصَارِنَا، وكذلك كان جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ﴿٣﴾ وكذلك الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ دَخَلُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ فِي صُورَةِ الْأَضْيَافِ حَتَّى قَدَّمَ إِلَيْهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ، وكذلك لَمَّا تَسَوَّرَ الْمِحْرَابَ عَلَى دَاوُدَ الْمَلِكُ كَانَ فِي صُورَةِ رَجُلَيْنِ يَخْتَصِمَانِ إِلَيْهِ. وقال بعضهم ﴿٤﴾: المعنى: ولو جعلنا مع النبي مَلَكَاً يَشْهَدُ بِتَصْدِيقِهِ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا. وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ.

وقوله: ﴿وَلَلْبَشَرِ الْأَكْثَرُ عَلَيْهِنَّ﴾ قَالَ: لَبَسَتْ الْأَمْرَ عَلَى الْقَوْمِ

(١) الشورى: ١٤.

(٢) راجع ديوان الهذليين: ص ١٩، وقد تقدّم ذكره في: ج ٢ ص ٤٩٦.

(٣) هو دِحْيَةُ بْنُ خَلِيفَةَ بْنِ فُرُوءَةَ بْنِ فَضَالَةَ الْكَلْبِيِّ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، شَهِدَ أَحَدًا وَمَا بَعْدَهَا، كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي حَسَنِ الصُّورَةِ. (أسد الغابة: ج ٢ ص ١٣٠).

(٤) كالمأورد في تفسيره: ج ٢ ص ٩٦.

أَلَيْسَ إِذَا شَبَّهْتَهُ عَلَيْهِ، وَ: لَيْسَتْ الثَّوبُ أَلْبَسُهُ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكُفَّارِ يَلْبَسُونَ عَلَى ضُعَفَائِهِمْ أَمْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فيقولون: هو بشر مثلكم، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَآ﴾ فرأوا الْمَلَكَ رجلاً ولم يُعْلِمْهُمْ أَنَّهُ مَلَكٌ لَكَانَ يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْلبِيسِ مَا يَلْبِسُ ضُعَفَاءُهُمْ مِنْهُمْ. وَاللَّبُؤُسُ: مَا يُلْبَسُ مِنَ الثِّيَابِ، وَاللِّبَاسُ: الَّذِي قَدْ لَبِسَ وَاسْتَعْمَلَ.

فإن قيل: قوله: إنه لو جعل الْمَلَكَ رجلاً لَلَبِسَ عَلَيْهِمْ، يدلّ على أن له أن يَلْبَسَ بِالْإِضْلَالِ والتلبيس؟

قلنا: ليس ذلك في ظاهره، لأنّه لم يخبر أنّه لَبِسَ عَلَيْهِمْ، وإنّما قال: لو جعلته مَلَكًا لَلَبِسْتُ، ولم يجعله مَلَكًا فإِذَا مَا لَبَسَ، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾^(١) وليس يجوز عليه اتِّخَاذُ^(٢) الولد ولا الاصطفاء له بحال، فسقط ما قالوه.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: لما أخبر الله تعالى أنّه لو أنزل الآيات التي اقترحوها وامتنعوا عند ذلك من الإقرار به وتصديق نبيّه اقتضت المصلحة استئصالهم، كما اقتضت المصلحة استئصال مَنْ تقدّم من الأُمَمِ [الماضية] عند نزول الآيات المقترحة، كما فعل بقوم صالح وغيرهم من [أُمَمِ] الأنبياء، قال [ذلك] تسليّةً لنبيّه ﷺ من استمرارهم على الكفر.

ومعنى «الحقيق»: ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعّله، كما قال:

﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ ^(١١) أي: لا ترجع عاقبة مكروهه إلا عليهم، والمعنى: فحاق بالساخرين منهم ﴿ما كانوا به يستهزءون﴾ من وعيد أنبيائهم بعاجل العقاب في الدنيا، نحو: ما نزل بقوم عادٍ وثمود وغيرهم من الأمم. وقال أبو علي: حاقَّ وحقَّ بمعنى واحد، والمعنى: أنه لما نزل بهم العذاب حقَّ بذلك عندهم: الخبر الذي كان أخبرهم به النبي ﷺ.

قوله تعالى:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقَةُ الْمَكْذِبِينَ ﴿١٢﴾ آية [بلا خلاف].

أقول: أمر الله تعالى في هذه الآية نبيه ﷺ أن يأمر هؤلاء الكفار أن يسيروا في الأرض لينظروا إلى آثار تلك الأمم، فإنها مشهورة [و] متواتر خبرها، معلوم مساكنها، وأراد بذلك زجر هؤلاء الكفار عن تكذيب محمد ﷺ والتحذير لهم من أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بالمكذبين للرسل من قبلهم.

قوله تعالى:

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْلِقَاءِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُ مَّا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٤﴾ آيتان إجماعاً.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار مقررًا لهم وموضحًا على كفرهم: ﴿لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ثم أمره ﷺ أن

يقول لهم: إِنَّ ذَلِكَ ﴿لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ قسم، وتقديره: والله ليجمعنكم، ولذلك نصب لام ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ لأنَّ معنى ﴿كَتَبَ﴾ اليمين.

﴿وقال الزَّجَّاجُ: يجوز أن يكون ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ بدلاً من ﴿الرَّحْمَةَ﴾ مفسراً لها، لأنَّه لما قال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ فسَّرَ رحمته بأنَّه يُفْهِلُهُمْ إلى يوم القيامة.

وقال الفراء: يجوز أن يكون قوله: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ غايةً، ثمَّ استأنف قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ ... لا ريب فيه﴾ تمام.

ومعنى ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي: كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَسْتَأْصِلَكُمْ، ولا يعجِّل عقوبتكم، بل يعذر وينذر، ويجمع آخركم إلى أولكم قرناً بعد قرْنٍ إلى يوم القيامة، وهو الذي لا ريب فيه.

وفي قوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إلى يوم القيامة﴾ احتجاج على مَنْ أنكر البعث والنشور فقال: لِيَجْمَعَنَّكُمْ إلى اليوم الذي أنكرتموه، كما تقول: جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ إلى هَؤُلَاءِ، أي: ضَمَمْتُ بَيْنَهُمْ في الجمع.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قال الأخفش: ﴿الَّذِينَ﴾ بَدَلٌ مِنَ الْكَافِ وَالْمِيمِ، والمعنى: لِيَجْمَعَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ إلى هذا اليوم الذي يجحدونه ويكفرون به. وقال الزَّجَّاجُ: هو في موضع رفع على الابتداء، وخبره: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مشتمل على سائر الخلق على الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وغيرهم.

وقوله: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: ما اشتمل عليه الليل والنهار، فجعل الليل والنهار كالمَسْكَنِ لِمَا اشتملا عليه، لأنَّه ليس يخرج منهما شيء، فجمع كلَّ الأشياء بهذا اللفظ القليل الحروف، وهذا من أفصح

ما يكون من الكلام.

وقال النابغة:

فإنك كالليل الذي هو مُدْرِكِي

وإن خِلْتُ أَنَّ المِثْنَى عنك واسعٌ^(١)

فجعل الليل مُدْرِكاً إذا كان مشتملاً عليه.

وفي هذه الآية وفي التي قبلها احتجاج على الكفار الذين عبدوا من دون الله تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكانوا لا يشركون بالله في خلق السماوات والأرض وما بينهما أحداً وإنما كانوا يشركون في العبادة، ويقولون: آلهتهم تقربهم إلى الله زُلفى، لا أنها تخلق شيئاً، ثم قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ فإنهم لا ينكرون ذلك، وهو كقوله: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنَّ الله﴾^(٢) وقوله: ﴿ولئن سألتهم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ليقولنَّ الله﴾ فذكرهم ما هم به مقرّون ليتنبهوا ويشهدوا بالحق ويتركوا ما هم فيه.

ومعنى ﴿خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾: أهلكوا [ها] باستحقاق المصير إلى العذاب الأليم الدائم الذي لا ينتفعون معه بنفوسهم إذ كانوا لا يؤمنون، ومَن أهلك نفسه فقد خَسِرَها.

وإنما قال: ﴿وله ما سَكَنَ في الليل والنهار﴾ لأنَّ في الحيوان ما يسكن في الليل، وفيه ما يسكن بالنهار، وخصَّ السُّكُون بالذِّكْر، لأنَّ الساكن أكثر من المتحرِّك، ولأنَّ الآية العجيبة في قيام الساكن بلا عَمَدٍ أعظم.

(١) من قصيدة يمدح النعمان ويعتذر إليه. راجع ديوان النابغة الذبياني: ص ٨٤.

(٢) الزخرف: ٨٧.

قوله تعالى:

قُلْ أَغْنِيَ اللَّهُ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أجمع القراء على ضم الياء وفتح العين من قوله: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ وقرئ في الشواذ بفتح الياء والعين معاً^(١). فمن ضم الياء أراد: أن غيره لا يطعمه في مقابلة قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ ومن فتح الياء أراد: أنه نفسه لا يطعم. والمعنى: هو يَرْزُقُ الخلق ولا يَرْزُقُهُ أحد.

والطُعْمَةُ والطَّعْمُ والإطعام: الرِّزْقُ، قال امرؤ القيس:

مُطْعَمٌ لِلصَّيْدِ لَيْسَ لَهُ غَيْرُهَا كَسْبٌ عَلَى كَيْبِهِ^(٢)

وقال علقمة بن عبدة^(٣):

وَمُطْعَمُ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعَمُهُ أَنَّى تَوَجَّهَ وَالْمَخْرُومُ مَخْرُومٌ^(٤)
ألا ترى أنه وضع الجِزْمَان في مقابلة الإطعام، كما يوضع أبداً^(٥) مقابلاً للرِّزْق. وقيل: إنه ذكر الإطعام لأن حاجة العباد إليه أشد، ولأن نفيه عن الله أدل على نفي شبهه بالمخلوقين، لأن الطعام لا يجوز إلا على الأجسام. والاختيار في ﴿فَاطِرُ﴾ الخفض، لأنه من صفة ﴿الله﴾ والرفع والنصب جائزان على المدح، فمن رفع فعلى إضمار «هو»، وتقديره: هو فاطر السماوات والأرض وهو يطعم ولا يطعم، ومن نصب فعلى معنى: اذكروا عني.

(١) وهي قراءة الأعمش، نسب إليه ابن خالويه في مختصر الشواذ: ص ٤٢.

(٢) من قصيدة يصف صيداً. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٠٣.

(٣) في بعض النسخ عَرِي.

(٤) أنشده الأزهري في التهذيب: ج ١٥ ص ٥٥٢ مادة «أنى».

(٥) في الحجرية بدل «أبداً»: امل.

ومعنى ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: خالقهما، كما قال: ﴿وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾^(١) أي: خلقي. وقال ابن عباس: ما كنت أدري ما معنى «فاطر» حتّى اختصم إليّ أعربيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرته أي: ابتدأتها^(٢). وأصل الفطر: الشقّ، ومنه: قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾^(٣) أي: انشقت، ومعنى ﴿فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(٤): خَلَقَهُمَا خَلْقًا قَاطِعًا، و «الانفطار» و «الفطور»: يقع في تشقّق.

وفي الآية دلالة [وحجّة] على الكفّار، لأنّ من خلق السماوات والأرض وأنشأ ما فيهما، وأحكم تدبيرهما، وأطعم من فيهما، فهو الذي ليس كمثله شيء، وأنّ الخلق فقراء إليه وهو الغنيّ القادر [القاهر] فلا يجوز لمن عرف ذلك أو جعل له السبيل إلى معرفته أن يعبد غيره.

وقوله ﴿أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ معناه: أن أكون أوّل من خضع وآمن وعرف الحقّ من قومي، وأن أترك ما هم عليه من الشرك، ومثله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾^(٥) بأنّه لم يكن للرحمان ولد، يعني: من هذه الأمّة، لأنّه قد عبد الله النبيّون والمؤمنون قبله، ومثله قوله: ﴿سَبْحَانَكَ تَبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) ممّن سألك أن تربيه نفسك بأنك لا ترى، وقول السحرة: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٧) بأنّ هذا ليس بسحر، وأنّه الحقّ، أي: أوّل المؤمنين من السحرة.

ومعنى «الوليّ» ها هنا: الإله الذي أعبدته ليتولّاني ويحفظني.
وقوله: ﴿وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

(١) يس: ٢٢. (٢) نقله أبو عبيد في فضائله: ص ٣٦. (٣) الانفطار: ١.

(٤) الآية: ١٧٩ الآتية. (٥) الزخرف: ٨١. (٦) الأعراف: ١٤٣. (٧) الشعراء: ٥١.

أي: أمرت بالأمرين معاً: أن أكون أوّل مَنْ أسلم من هذه الأمة وألا أكون من المشركين، والمعنى: أمرت بذلك ونُهيته عن الشرك، لأنّ الأمر لا يتناول ألا يكون الشيء، لأنّه لا يكون أمراً إلا بإرادة المأمور، والإرادة لا تتعلّق بالأمر لا يكون الشيء، وإنّما المراد ما قلناه: أنّه كره منّي الشرك. قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ آية بلا خلاف. أقول: أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار: إنّه يخاف إن عصاه عذابه وعقوبته في ﴿يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة، ومعنى «العظيم» هاهنا: أنّه شديد على العباد، وعظيم في قلوبهم. وفي هذه الآية دلالة على أنّ مَنْ زعم أنّ مَنْ علّم الله أنّه لا يعصي فلا يجوز أن يتوعّده بالعذاب، وعلى مَنْ زعم أنّه لا يجوز أن يقال فيما قد علم [الله] أنّه لا يكون: إنّه لو كان وجب فيه كيت وكيت، لأنّه كان المعلوم لله تعالى أنّ النبي ﷺ لا يعصي معصيةً يستحقّ بها العقاب يوم القيامة، ومع هذا فقد توعّده به.

قوله تعالى:

مَنْ يُضِرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ وَذَلِكَ الْقُورُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً ويعقوب ﴿مَنْ يُضِرِفْ﴾ بفتح الياء وكسر الراء، الباقون بضمّ الياء وفتح الراء.

وفاعل ﴿يُضِرِفْ﴾ ^(١) هو الضمير العائد إلى ﴿رَبِّي﴾ من قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ ويكون حذف الضمير العائد إلى «العذاب»،

(١) يظهر من المصنّف رحمه الله هنا أنّه يميل إلى قراءة فتح الياء وكسر الراء، بل ويصرّح بها فيما بعد.

والمعنى: مَنْ يَصْرِفُه عنه، وكذلك هو في قراءة أبيّ.

قال أبو عليّ: وليس حذف الضمير بالسهل، لأنّه ليس بمنزلة الضمير الذي يُحذف من الصلّة، لأنّ «مَنْ» جزاء ولا يكون صلّةً، على أنّ الضمير إنّما يحذف من الصلّة إذا عاد إلى الموصول، نحو: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾^(١) و ﴿سَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ﴾^(٢) أي: بعثهم واصطفاهم، ولا يعود الضمير المحذوف هاهنا إلى موصولٍ، ولا إلى «مَنْ» التي للجزاء، وإنّما يرجع إلى «العذاب» من قوله: ﴿... إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتَ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وليس هذا بمنزلة قوله: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾^(٤) لأنّ هذا فعل واحد قد تكرر، وعُدّي الأوّل فيهما إلى المفعول، فَعَلِمَ بتعدية الأوّل أنّ الثاني بمنزلته.

والذي يحسن قراءة من قرأ ﴿يَصْرِفُ﴾ بفتح الياء أنّ ما بعده من قوله: ﴿فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ فعل مسند إلى ضمير اسم «الله»، فقد اتّفق الفعلان في الإسناد إلى هذا الضمير فيمن قرأ ﴿يَصْرِفُ﴾ بفتح الياء. و يقوّيه أيضاً أنّ الهاء المحذوفة من «يصرف» لما كان في حيّز الجزاء، وكان ما في حيّزه في أنّه لا يتسلّط على ما تقدّمه بمنزلة ما في الصلّة في أنّه لا يجوز أن يتسلّط على الموصول، حَسُنَ حَذْفُ الهاء منه كما حَسُنَ حَذْفُهَا من الصلّة.

ومن ضمّ الياء فالمسند إليه الفعل المبني للمفعول ضمير «العذاب».

وقال الزجاج: التقدير: مَنْ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنْهُ الْعَذَابَ، فيمن فتح الياء،

ومن ضمّ الياء تقديره: وَمَنْ يُصْرِفُ عَنْهُ الْعَذَابَ.

(٢) النمل: ٥٩.

(٤) الأحزاب: ٣٥.

(١) الفرقان: ٤١.

(٣) في الحجريّة: بعثه .

قوله تعالى:

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٨﴾ آيتان بلا خلاف. أقول: معنى الآية الأولى: أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ النِّفْعَ وَالضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى أَوْ مَنْ يَمْلِكُهُ اللَّهُ ذَلِكَ، فَيَبَيِّنُ تَعَالَى أَنَّهُ إِنْ نَالَكَ السُّوءُ مِنْ جِهَتِهِ ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ وَلَا يَمْلِكُ كَشْفَهُ سِوَاهُ مِمَّا يَعْبُدُهُ الْمُشْرِكُونَ وَلَا أَحَدٌ سِوَى اللَّهِ، وَأَنَّهُ إِنْ أَنَالَهُ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى ذَلِكَ قَادِرٌ.

وقوله: يَمْسَسْكَ بِسُوءٍ أَوْ بِخَيْرٍ، معناه: يَمْسُكُ ضَرَّهُ أَوْ خَيْرَهُ، ففعل المسَّ لله على وجه المجاز، وهو في الحقيقة للخير والضرر، وهو مجاز في الخير والضرر أيضاً، لِأَنَّهُمَا عَرَضَانِ لَا تَصَحُّ عَلَيْهِمَا الْمِمَاسَّةُ، وَأَرَادَ تَعَالَى بِذَلِكَ التَّرْغِيبَ فِي عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكَ عِبَادَةِ سِوَاهُ، لِأَنَّهُ الْمَالِكُ لِلضَّرِّ وَالنِّفْعِ دُونَ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَيْهِمَا.

والقاهر: هو القادر على أَنْ يَقْهَرَ غَيْرَهُ، فَعَلَى هَذَا يَصَحُّ [وصفه] ^(١) فيما لم يزل بَأَنَّهُ قَاهِرٌ. وَفِي النَّاسِ مَنْ قَالَ: لَا يَسْمَى قَاهِراً إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَقْهَرَ غَيْرَهُ، فَعَلَى هَذَا لَا يَوْصَفُ تَعَالَى فِيْمَا لَمْ يَزَلْ بِذَلِكَ.

ومثل قوله: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ قوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ^(٢) والمراد: أَنَّهُ أَقْوَى مِنْهُمْ، وَأَنَّهُ مُقْتَدِرٌ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ الارتفاعَ فِي الْمَكَانِ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْسَامِ، فَإِذَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ: أَنَّهُ مُسْتَعِلٌّ عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرٌ عَلَيْهِمْ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَهَرٌ شَيْئاً فَهُوَ مُسْتَعِلٌّ عَلَيْهِ، وَلَمَّا كَانَ الْعِبَادَةُ تَحْتَ تَسْخِيرِهِ وَتَذَلِيلِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَصَفَ بَأَنَّهُ فَوْقَهُمْ.

وقوله: ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ معناه: أنه مع قدرته عليهم لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة، ولا يفعل ما فيه مفسدة أو وجه قبح، لكونه عالماً بقبح الأشياء وبأنه غني عنها.
قوله تعالى:

قُلْ أُمِّي شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَبَيْنُكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) آية واحدة بلا خلاف.
أقول: اختلفوا في الهمزتين إذا كانت الأولى مفتوحة والثانية مكسورة من كلمة واحدة نحو: ﴿أَنْتَكَ﴾ و ﴿أَإِذَا﴾ و ﴿أَمَّا﴾ و ﴿أَفْكَأ﴾ فقرأ ابن عامر وأهل الكوفة وروّح بتحقيق الهمزتين حيث وقع، إلا في قوله: ﴿أَنْتَكَ لَتَشْهَدُونَ﴾ هاهنا، وفي الأعراف: ﴿أَنْتَ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ (١) و (٢) ﴿أَنْ لَنَا لَأَجْرًا﴾ (٣)، و ﴿أَمَّا﴾ حيث وقع، و ﴿أَنْتَ لَأَنْتَ يَوْسُفَ﴾ (٤) و ﴿أَإِذَا مَا مَتَّ﴾ (٥)، وفي العنكبوت ﴿أَنْتَ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ (٦) و ﴿أَنَا لَمُغْرَمُونَ﴾ في الواقعة (٧) والاستفهامين (٨) في الرعد (٩) وبني إسرائيل (١٠) والمؤمن (١١) والنمل (١٢) والسجدة (١٣) ولقمان (١٤) والصافات (١٥) والواقعة (١٦) والنازعات (١٧) وسنذكر الخلاف فيها في مواضعها.

(١)، (٣) الأعراف: ٨١، ١١٣، ولا يوجد في الآيتين همزة الاستفهام.
(٢) الظاهر أنه معطوف على قوله: ﴿أَفْكَأ﴾. (٤) يوسف: ٩٠. (٥) مريم: ٦٦.
(٦) العنكبوت: ٢٩. (٧) الواقعة: ٦٦، ولكن ليست في الآية همزة الاستفهام.
(٨) أي: في آية واحدة. (٩) الرعد: ٥. (١٠) بني إسرائيل: ٤٩.
(١١)، (١٤) ليست السورتان مشتملة على الهمزتين. (١٢) النمل: ٦٧.
(١٣) السجدة: ١٠. (١٥) الصافات: ١٦. (١٦) الواقعة: ٤٧. (١٧) النازعات: ١٠-١١.

الباقون بتحقيق الأولى وتليين الثانية، وفَصَلَ بينهما بألفٍ أهلُ المدينة -إِلَّا وَرَشَاءَ- وأبو عمرو والحُلَواني عن هشام، وافقهم الداجوني عن هشام على الفَصْل في قوله: ﴿أَنْتَنَا لَتَارِكُوا الْهَيْتَا﴾^(١) و﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ في ق^(٢). فأما قوله: ﴿أَنْتَكُمْ﴾ هاهنا فقراءة ابن عامر وأهل الكوفة إلَّا الكسائي عن أبي بكر وروُح بتحقيق الهمزتين، إلَّا أنَّ الحُلَواني عن هشام يفصل بينهما بألف. الباقون بتحقيق الأولى وتليين الثانية، وفَصَلَ بينهما بألف أهل المدينة إلَّا وَرَشَاءَ وأبو عمرو والكسائي عن أبي بكر، وقد روي عن الكسائي عن أبي بكر أنَّه لا يفصل.

أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ لأنَّهم كانوا مقرِّين بأنَّه لا شيء أكبر شهادة من الله، وإذا أقرُّوا بأنَّه الله حينئذٍ أمره أن يقول لهم: هو الشهيد بيني وبينكم على ما بلَّغتمكم ونصحتكم وقرَّرت عندكم من أن إلهكم إِلَهُ وَاحِدٌ وعلى براءتي من شرككم.

والوقف على قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ وقف تام.

وفي الآية دلالة على من قال: لا يوصف تعالى بأنَّه شيء، لأنَّه لو كان كما قال لما كان للآية معنى، كما أنَّه لا يجوز أن يقول القائل: أيُّ الناس أصدق؟ فيجواب بـ «جبرائيل» لما لم يكن من جملة الناس، بل كان من الملائكة.

فإن قيل قوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ تمام، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ ابتداء وليس بجواب، ولو كان جواباً كان ما بعده من قوله: ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي

وَيَبْنِيَكُمْ ﴿ لا ابتداء له ولا معنى له.

قيل: لسنا ننكر ذلك، إلا أن هذا وإن كان هكذا لولا أنه كان متقررًا عند السائل والمسؤول أن الله شهيد ما كان للكلام معنى، ولكان قوله: ﴿قُلْ أَى شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً﴾ لغواً وحشواً، وذلك منزّه عن كلامه تعالى. وقوله: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ وقف تام، أي: من بلغه القرآن الذي أنذرتكم به فقد أنذرتكم كما أنذرتكم، وهو قول الحسن رواه عن النبي ﷺ أنه قال: مَنْ بَلَغَهُ أَنِّي أَدْعُو إِلَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَدْ بَلَغَهُ ^(١) يعني: بلغته الحجة وقامت عليه. وقال مجاهد: ﴿لَا تُنذِرُكُمْ بِهِ﴾ يعني: أهل مكة ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ من أسلم من العجم وغيرهم.

وقوله: آلهة أخرى ولم يقل: «آخر» لأن «الآلهة» جمع، والجمع يقع على التأنيث، كما قال: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ وقال: ﴿فَمَا بِالْقُرُونِ الْأُولَى﴾ ولم يقل: الأولى.

والشاهد: هو المبين لدعوى المدعي، وقال الحسن: قال المشركون لرسول الله ﷺ: من يشهد لك؟ فنزلت هذه الآية.

وقوله: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ أي: أني أخوفكم به، لأن الإنذار هو الإعلام على وجه التخويف ﴿وَمَنْ بَلَغَ﴾ يعني: القرآن، و﴿مَنْ﴾ في موضع نصب بالإنذار، ثم قال موبخاً لهم: ﴿أَتُنْكُمُ لِلشَّهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ ثم قال لنبيه: ﴿قُلْ﴾ أنت يا محمد: لا أشهد بمثل ذلك، بل أشهد أنه ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بعبادته مع الله باتخاذها إلهاً.

قوله تعالى:

الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ خبره.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أيضاً رفع، ويحتمل رفعه وجهين: أحدهما: أن يكون نعتاً لـ ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، ويحتمل أن يكون رفعاً على الابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فإن حملته على النعت كان المعنى به أهل الكتاب، وإن حملته على الابتداء يتناول جميع الكفار.

وقال بعض المفسرين^(١): ما من كافر إلا وله منزلة في الجنة وأزواج، فإن أسلم وسعد صار إلى منزله وأزواجه، وإن كفر صار منزله وأزواجه إلى من أسلم، فذلك قوله: ﴿الَّذِينَ يَرْتُوثُونَ أَفْرَدَوْسَ﴾^(٢) وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٣).

وهذه الآية لا بد أن تكون مخصوصة بجماعة من أهل الكتاب، وهم الذين عرفوا التوراة والإنجيل فعرفوا صحة نبوة محمد ﷺ بما كانوا عرفوه من صفاته المذكورة ودلائله الموجودة في هذين الكتابين كما عرفوا أبناءهم، وشبه معرفتهم لمحمد بمعرفتهم أبناءهم في أنها صحيحة لا مرية فيها، ولم يرد أنهم عرفوا نبوته اضطراراً كما عرفوا أبناءهم ضرورة، على أن أحداً لا يعرف أن من ولد على فراشه ابنه على الحقيقة، لأنه يجوز أن يكون من غيره وإن حكم بأنه ولده لكونه مولوداً على

(١) كالطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٠٥، والماوردي أيضاً في تفسيره: ج ٢ ص ١٠١.

(٢) المؤمنون: ١١. (٣) الزمر: ١٥، والشورى: ٤٥.

فراشه، فصار معرفتهم بالنبي ﷺ أكد من معرفتهم بأبنائهم لهذا المعنى، ولم يكن جميع أهل الكتاب يعرفه كذلك، فلذلك خصصنا الآية. فإن قيل: كيف يصح - على مذهبكم في الموافاة - أن يكونوا عارفين بالله وبنبيّه ثم يموتون على الكفر؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أن لا يكونوا عارفين بذلك، بل يكونوا معتقدين اعتقاد تقليد، ويعتقدون مع ذلك أنهم عالمون به، فقال الله [تعالى]: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ في اعتقادهم، لا أنهم يعرفونه على الحقيقة كما قال: ﴿دَقِ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(١) يعني: عند نفسك وقومك.

الثاني: أن يكونوا عرفوا ذلك على وجه لا يستحق به الثواب، لأنهم يكونون نظروا في الأدلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم، فولد لهم المعرفة لكن لا يستحق بها الثواب. وقد بيّنا مثل ذلك فيما مضى في عدة مواضع^(٢) فسقط السؤال.

وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ يعني: بكفرهم بمحمد ﷺ على وجه المعاندة ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وخسائرهم أنفسهم: إهلاكهم لها بهذا الكفر، ومصيرهم لها إلى أن لا ينتفعوا بها، ومن جعل نفسه بحيث لا ينتفع بها فقد خسر نفسه.

قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِسَائِتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ^(٣) آية .

أقول: أخبر الله تعالى: أن من افترى على الله الكذب فوصفه بخلاف

(٢) كما في تفسير الآية: ٤٢ من سورة البقرة.

(١) الدخان: ٤٩.

صفاته، وأخبر عنه بخلاف ما أخبر به عن نفسه وعن أفعاله، أنه لا أحد أظلم لنفسه منه، إذ كان بهذا الفعل قد أهلك نفسه، وأوقعها في العذاب الدائم في النار.

ثم أخبر أن الظالم لا يفلح، أي: لا يفوز برحمة الله وثوابه ورضوانه، ولا بالنجاة من النار، لأن الظلم هاهنا هو الكفر بنبوّة محمد ﷺ، وذلك لا يُغفر بلا خلاف.

قوله تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ آية .

أقول: قرأ يعقوب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالياء فيهما، الباقون بالنون فيهما.

من قرأ بالياء رده إلى الله تعالى في قوله: ﴿عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وتقديره: يوم يحشرهم الله فيقول. ومن قرأ بالنون ابتداءً، وتقدير الآية أذكروا يوم نحشرهم جميعاً، يعني: يوم القيامة، لأنهم يُحشرون فيه جميعاً من قبورهم إلى موضع الحساب، وأنه يقول^(١) للذين أشركوا بالله وعبدوا معه إلهاً غيره في هذا اليوم: أين الذين كنتم تزعمون أنهم شركائي؟! وأين شركائي في زعمكم؟! وإنما يقول هذا توبيخاً لهم وتبكيثاً على ما كانوا يدعون أنهم يعبدونه من الأصنام والأوثان، ويعتقدون أنها شركاء لله، وأنها تشفع لهم يوم القيامة، فإذا لم يجدوا لما كانوا يدعونه صحةً، ولم ينتفعوا بهذه الأوثان ولا بعبادتهم، فيعلمون أنهم كانوا كاذبين في أقوالهم.

(١) والأنسب بدل «وأنه يقول»: ثم نقول.

قوله تعالى:

ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ آيتان عند الجميع.
أقول: قرأ حمزة والكسائي والعليمي ويعقوب ﴿ثُمَّ لَمْ يَكُنْ﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحفص إلا ابن شاهين^(١) ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالرفع، الباقون بالنصب. وقرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا﴾ بنصب الباء، الباقون بكسرها.

من قرأ بالتاء ورفع «الفتنة» أثبت علامة التانيث، ويكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، وتقديره: لم تكن فتنتهم إلا قولهم.

وقد روى شبل عن ابن كثير ﴿لَمْ تَكُنْ﴾ بالتاء ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ نصباً، مثل قراءة نافع وأبي عمرو وأبي بكر عن عاصم، ووجهه: أَنَّهُ أَتَتْ ﴿أَنْ قَالُوا﴾ لما كانت «الفتنة» في المعنى، كما قال: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢) فَأَنْتَ لما كانت «الأمثال» في المعنى «الحسنات» ومثله كثير في الشعر. قال أبو علي: والأوّل أجود من حيث كان الكلام محمولاً على اللفظ.

ويقوي قراءة من قرأ: ﴿فِتْنَتُهُمْ﴾ بالنصب أَنْ قَوْلُهُ: ﴿أَنْ قَالُوا﴾ أَنْ يكون الاسم دون الخبر أولى، لأنَّ «أَنْ» إِذَا وُصِلَتْ لم توصف، فأُشِبِهُتْ بامتناع وصفها المضمّر، فكما أَنَّ المضمّر إِذَا كان مع المظهر كان «أَنْ يكون» الاسم أحسن، كذلك إِذَا كانت «أَنْ» مع اسم غيرها كانت «أَنْ يكون» الاسم أولى.

(١) ابن شاهين هو الحافظ الكبير أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي صاحب الترغيب والتفسير الكبير، توفي عام ٣٨٥ هـ (طبقات الحفاظ: ص ٣٩٢).
(٢) آية: ١٦٠ التالية.

ومن قرأ ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا﴾ بكسر الباء فعلى جعل الاسم المضاف وصفاً للمفرد، لأنّ قوله: ﴿وَاللَّهُ﴾ جَزَّ بواو القَسَم، ولو أَسْقَطَ لقال: «الله» بالنصب، ومثله: قولهم: رأيت زيداً صاحبنا وبكراً جارك، ويكون قوله: ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ جواب القَسَم.

ومن نصب الباء يحتمل أمرين:

أحدهما: أن ينصبه بفعل مقدّر، وتقديره: أعني ربّنا.

والثاني: على النداء، ويكون قد فصل بالاسم المنادى بين القَسَم والمقسَم عليه، وذلك غير ممتنع، لأنّ النداء كثير في الكلام. وقد جاء الفصل بين الصلة والموصول وهو أشدّها، قال الشاعر:

ذَاكَ الَّذِي وَأَيْكَ يُعْرِفُ مَالُكَ وَالْحَقُّ يَدْفَعُ تُرْهَاتِ الْبَاطِلِ^(١)

قال أبو عُبَيْدَة: من قرأ بالتاء المعجّمة من فوقها ونصب ﴿فِشْتَهُمْ﴾ أضمر في ﴿يَكُنْ﴾ اسماً مؤنثاً، ثمّ يجيء بالتاء لذلك الاسم، وإنّما جعله مؤنثاً لتأنيث [الضمير] كما قال لبيد:

فَمَضَى وَقَدَّمَهَا وَكَانَتْ عَادَةً مِنْهُ إِذَا هِيَ عَرَدَتْ إِقْدَامُهَا^(٢)

فَأَنْتَ «الْإِقْدَام» لتأنيث «عادة».

وقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتَهُمْ﴾ أي: لم تكن ملتهم التي ألزمتهم الحجّة وزادتهم لائمة.

ومعنى الآية: أنّه تعالى لما ذكر قصص هؤلاء المشركين الذين كانوا مفتنين بشركهم، أعلم النبي ﷺ أنّ افتنانهم بشركهم وإقامتهم عليه لم يكن إلا أن تبرّأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا: أنّهم ما كانوا مشركين، كما

(١) لجرير من قصيدة يهجو الفرزدق. راجع ديوان جرير: ص ٣٢٥.

(٢) من معلقته المشهورة. راجع ديوان لبيد: ص ١٧٠، وعُرِدَتْ: تركت الطريق وعدلت عنه.

يقول القائل إذا رأى إنساناً يحبّ غاوياً فإذا وقع في هلكة تبرأ منه فيقول له: ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه.

فإن قيل: كيف قالوا وحلفوا أنهم ما كانوا مشركين وقد كانوا مشركين، وهل هذا إلا كذب، والكذب قبيح، ولا يجوز من أهل الآخرة أن يفعلوا قبيحاً، لأنهم ملجؤون إلى ترك القبيح، لأنهم لو لم يكونوا ملجئين وكانوا مختارين وجب أن يكونوا مزجورين عن فعل القبيح، وإلا أدى إلى إغرائهم بالقبيح، وذلك لا يجوز، ولو زجروا بالوعيد عن القبائح لكانوا مكلفين، ولوجب أن يتناولهم الوعد والوعيد، وذلك خلاف الإجماع، وقد وصفهم الله تعالى أيضاً بأنهم كذبوا على أنفسهم، فلا يمكن جحد أن يكونوا كاذبين، فكيف يمكن دفع ذلك، وما الوجه فيه؟

والجواب عن ذلك من وجوه:

أحدها - ما قاله البلخي - : إن القوم كذبوا على الحقيقة، لأنهم كانوا يعتقدون أنهم على الحق، ولا يرون أنهم مشركون، كالنصارى ومن أشبههم، فقالوا في الموقف وقبل أن يقع بهم العذاب فيعلموا بوقوعه أنهم كانوا على باطل: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وهم صادقون عند أنفسهم، وكذبهم الله في ذلك، لأن الكذب هو الإخبار بالشيء لا على ما هو به، علم المخبر بذلك أو لم يعلم، فلما كان قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ كذباً في الحقيقة جاز أن يقال لهم: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾. قال البلخي: ويدل على ذلك قوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ أي: ذهب عنهم وأغفلوه، لأنهم لم يكونوا نظروا صحيحاً، ولم يجانبوا في نظرهم الإلف والعادة، فيعلموا في هذا الوقت أن قولهم شرك، ولو صاروا إلى العذاب لعلموا أنهم كانوا مشركين، واستغنوا بذلك. لكن هذا القول يكون

عند الحشر وقبل الجزاء بدلالة أول الآية. وقال مجاهد: قوله ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ تكذيب من الله إياهم.

وقال الجبائي: قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ إخبار منهم أنهم لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا، لأنهم كانوا يظنون أنهم على الحق، فقال الله تعالى مكذباً لهم: ﴿أَنْظُرْ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ في دار الدنيا، لا أنهم كذبوا في الآخرة، لأنهم كانوا مشركين على الحقيقة وإن اعتقدوا أنهم على الحق. وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ضلَّت عنهم أوثانهم التي كانوا يعبدونها ويفترون الكذب بقولهم: إنها شفعاؤنا عند الله غداً، فذهبت عنهم في الآخرة فلم يجدوها، ولم ينتفعوا بها.

وقال قوم: إنه يجوز أن يكون يكذبوا يوم القيامة للذهول والدّهش، لأنهم يصيرون كالصبيان الذين لا تمييز لهم ولا تحصيل معهم، اختاره أحمد بن علي بن الإخشاذ^(١). وأجاز النجار أن يكفروا في النار فضلاً عن وقوعه قبل دخولهم فيها. وهذا بعيد، والوجهان الأولان أقرب.

وقيل فيه وجه آخر، وهو: أنهم أملوا أملاً فخاب أملهم ولم يقع الأمر على ما أرادوا، لأن من عادة الناس أنهم إذا عوقبوا بعقوبة فتكلموا واستعانوا وصاحوا فإن العذاب لسهل عليهم بعض السهولة، وظنوا أن عذاب الآخرة كذلك، فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾^(٢) وقالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِفَؤُنَا﴾^(٣) وقالوا: ﴿رَبَّنَا أَرَنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾^(٤) فأملوا أن

(١) ويقال: ابن الإخشيد معجم المؤلفين ١: ٣٢٠.

(٤) فصلت: ٢٩.

(٣) المؤمنون: ١٠٦.

(٢) الأعراف: ٢٣.

يخفّ عنهم العذاب بمثل هذا الكلام على عادة الدنيا، فلم يخفّ ولم يكن لهم فيه راحة، فقال الله: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: خابوا فيما أمّلوا من سهولة العذاب، وذلك مشهور في كلام العرب، قال الشاعر:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَأْخُذُونَهَا مُرَاعِمَةً مَا دَامَ لِلْسَيْفِ قَائِمٌ^(١)

وقال آخر:

كَذَبْتُمْ وَبَيْتَ اللَّهِ لَا تَنْكِحُونَهَا بَنِي شَابَ قَرْزَانَا تُصَرُّ وَتُحَلَبُ^(٢)

أي: كذبكم أمّلكم. وقال أبو داود الأزدي:

قُلْتُ لِمَا نَصَلَا مِنْ قُتَيْةٍ كَذَبَ الْعَبْرُ وَإِنْ كَانَ بَرَخُ^(٣)

والمعنى: أنّه أمل أن يتخلّص بشيء فكذّبه أمله، لأنّه ظنّ أنّه إذا مرّ بارحاً - وهو أن يأخذ في ناحية الشمال إلى ناحية اليمين - لم يتهبأ لي طعنه، فلمّا قلب رمحاه وطعنه قال: «كذب العير» أي: كذب أمله.

و «الفتنة» في الآية معناها: المَعذرة في قول قتادة، لأنّها اعتذار عن الفتنة، فسُمّيت باسم الفتنة. وقال قوم: هي المحنة، وقال قوم: تقديره: عاقبة فتنهم. ﴿وَفَسَّنَتْهُمْ﴾ يجوز أن تكون بمعنى: اغترارهم، أي: اغتروا بهذا الكذب وظنّوا أنّه سينجيهم. و﴿كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ لمّا رجعت مضرتهم إليهم صار عليهم وإن قصدوا أن يكون لهم.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضروريّة، لأنّ الله تعالى أخبر عنهم أنّهم قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فلا يخلو أن يكونوا صادقين أو كاذبين، فإن كانوا صادقين لأنّهم كانوا عارفين في دار

(١) أنشده السيّد المرتضى في الأمالي: ج ٢ ص ٢٧٣ ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده الجوهري في الصحاح: مادّة «قرن» ونسبه إلى الأسدي.

(٣) ذكره في اللسان: مادّة «كذب».

الدنيا فقد كَذَّبَهُم الله في ذلك بقوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَّبُوا﴾ وإن كانوا كاذبين لَأَنَّهُمْ كانوا [لم يكونوا، ظ] عارفين فقد وقع منهم القبيح في الآخرة، وذلك لا يجوز.

ومعنى الآية على ما بيَّناه من أَنَّهُمْ أخبروا أَنَّهُمْ لم يكونوا مشركين عند أنفسهم في دار الدنيا، وأنَّ الله كَذَّبَهُمْ، وَأَنَّهُمْ كانوا كاذبين على الحقيقة وإن اعتقدوا خلافه في الدنيا، فأما معارفهم في الدنيا فضرورية عند البصريين، وعند البلخي ومن وافقه، حاصلة على وجه هم مُلَجَّوُونَ إليها، فعلى الوجهين معاً لا يجوز أن يقع منهم القبيح لا محالة.

قوله تعالى:

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قال مجاهد: قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني: قريشاً. وقال البلخي: أي: من أهل الكتاب والمشركين من يجالسك ويريد الاستماع منك والإصغاء إليك.

وفي قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةٌ أي لا يفقهون، لَأَلْفِهِمُ الكفر، وشدة عداوتهم حتَّى إِذَا صار الأمر إلى الجدال أظهروا الكذب وعاندوا فقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ فهو [أي، ظ] أحاديث الأولين .

وكل شيء في القرآن «أساطير» فهو أحاديث.

والأكِنَّة: جمع كَنَان بكسر الكاف، وهو كالإِطاء والأغطية ﴿وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: ثقلاً، والوَقْر بكسر الواو: الحِمل، يقال: وَقَرَتِ الأُذُن

تَوْقَر، قال الشاعر:

وكلامٌ سيِّءٌ قَدِ وُقِرَتْ أُذُنِي مِنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمٍّ^(١)
ونخلة مؤقِّرة وموقر، ونخيل مَوَاقِير. قال يونس: سَأَلْتُ رُؤْبَةً، فَقَالَ: وَقِرَتْ
أُذُنُهُ بِضَمِّ الْوَاوِ وَكَسْرِ الْقَافِ تَوْقَر - بفتح التاء والقاف - إِذَا كَانَ فِيهَا الْوَقْرُ.
وقال أبو زيد: سمعت العرب تقول: أُذُنٌ مُوقَّرة، بِضَمِّ الْمِيمِ وَفَتْحِ
الْقَافِ. وَمِنْ الْجِثْلِ يُقَالُ: أَوْقَرَتِ الدَّابَّةُ فَهِيَ مُوقَّرة. وَمِنْ السَّمْعِ: وَقَرَتْ
سَمْعُهُ - بِتَشْدِيدِ الْقَافِ - فَهُوَ مُوقَر، قال الشاعر:

وَلِي هَامَةٌ قَدْ وَقَرِ الصَّوْتُ سَمْعَهَا^(٢)

وأساطير: واحدها أُسْطُورَةٌ وإِسْطَارَةٌ، مأخوذ من: سَطَرَ الكتاب، قال
الراجز:

إِنِّي وَأُسْطَارٍ سَطْرُنَ سَطْرًا لِقَائِلُ: يَا نَصْرُ نَصْرًا نَصْرًا^(٣)
وأُسْطَار: جمع سَطْر، ومن قال في واحدة: سَطْر، قال في الجمع:
أُسْطُر، وجمع الجمع: أُسَاطِير، ومعناها: التُّرَّهَاتُ الْبَسَاسِيسُ، يعني: ليس له
نظام. وقال الْأَخْفَشُ: أُسَاطِيرُ جَمْعُ لَا وَاحِدَ لَهُ، نَحْوُ: مَذَاكِيرُ، وَأَبَابِيلُ.
وقال بعضهم: واحد الأبَابِيلِ: إِبْتِيلُ، بِالتَّشْدِيدِ وَكَسْرِ الْأَلْفِ.

ومعنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ قد مضى نظائره
في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾^(٤) أي: منعناهم الألفاظ التي تبسط

(١) أنشده في اللسان: مَادَّةُ «زَعَم» ونسبه إلى المثقَّب العبدِي.

(٢) ذكره الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٠٨ وفيه: وَقَرِ الضَّرْب.

(٣) لرؤبة بن العجاج من أبيات يعترض حاجب نصر بن سيار أمير خراسان في الدولة الأموية
حينما منعه من الدخول. وروي «نصر» الأولى بالرفع. راجع خزنة الأدب: ج ٢ ص ٢١٩
وما بعده. (٤) المائدة: ١٣.

المؤمنين وتبعثهم على الازدياد من الطاعة، لأن الله تعالى لما أراح علتهم بالدعاء والبيان والإنذار والترغيب والترهيب فأبوا إلا كفراً وعناداً وتمرداً على الله وإعراضاً عنه وعمّا دعاهم إليه، منهم أطافه عقوبة لهم حيث عَلِمَ أَنَّهُمْ لا ينتفعون بذلك ولا ينتهون إليه، وألقوا الكفر وأحبّوه حتّى صاروا كالصمّ عن الحقّ، وصارت قلوبهم كأنّها في أكنّة، فجاز أن يقال في اللغة: جعل على قلوبهم أكنّةً وفي آذانهم وقراً، كما يقول القائل لغيره: أَفْسَدْتَ سَيْفَكَ إِذَا تَرَكَ اسْتِعْمَالَهُ حَتَّى تَصْدَى، وَجَعَلْتَ أَظْفِيرَكَ سِلَاحاً إِذَا لَمْ يَقْلَمْهَا. ويقال للرجل إذا أيس من عبده أو ولده بعد الاجتهاد في تأديبه فخلّاه وأقصاه: قد جَعَلْتَهُ بحيث لا يفلح أبداً، وتركته أعمى أصمّ وجعلته ثوراً وحماراً، وإن كان لم يفعل به شيئاً من ذلك ولم يرده بل هو مهموم به محبّ لخلافه.

ولا يجوز أن يكون المراد بذلك لكان كلّهم ما لا يطيقونه، وذلك لا يليق بحكمته، ولكانوا غير مَلُومين في ترك الإيمان حيث لم يَمَكَّنُوا منه، وكانوا ممنوعين منه، وكانت تكون الحجة لهم على الله تعالى دون أن تكون الحجة له، وذلك باطل، بل لله الحجة البالغة.

قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي: كلّ علامة ومعجزة تدلّهم على نبوة النبي ﷺ لا يؤمنون بها لعنادهم.

قال الزجاج: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْهُ﴾ في موضع نصب لأنّه مفعول له، والمعنى: جعلنا على قلوبهم أكنّةً لكراهية أن يفقهوه، فلمّا حُذِفَت اللام نصب «الكراهية» ولمّا حُذِفَت «الكراهية» انتقل نصبها إلى «أن».

قال أبو علي: كانوا إذا سمعوا القرآن من النبيّ آذوه ورجموه وشغلوه عن صلاته، فحال الله بينهم وبين استماع ذلك في تلك الحال التي كانوا

يمنتع النبي من قراءة القرآن خوفاً من أذى الكفار فيفوت المؤمنين سماعه فيغتمون لذلك وتفوتهم مصلحته، بل حثه الله على قراءته وضمن له المنع من أذاهم.

وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كالتعليل لجعله قلوبهم في أكنة، والوقر في آذانهم، فقال: إنما فعلت هذا ليعلمي بأنهم لا يؤمنون، وأنه ليس في سماعهم ذلك إلا تطرق الأذية به عليك منهم، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

وتحتمل الآية وجهاً آخر وهو: أنه يقال يعاقب هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بعقوبات يجعلها في قلوبهم من نحو الضيق الذي ذكر أنه يخلقه فيها، ويجعل هذه العقوبات دلالة لمن شاهد قلوبهم واستماعهم من الملائكة، وشاهد منها هذه العقوبات، على أنهم لا يؤمنون من غير أن يكون ذلك حائلاً بينهم وبين الإيمان، ثم أخبر أنها بمنزلة الأكنة على قلوبهم عن فقه القرآن، وبمنزلة الوقر في الآذان على وجه التمثيل له بذلك تجوزاً واستعارةً، ووجه الشبه بينهما: أن من كانت في نفسه هذه العقوبات معلوم أنه لا يؤمن كما أن من على قلبه أكنة لا يؤمن، وكما سمي الكفر عمى، وسماه باسم العمى على وجه التشبيه.

ويحتمل أيضاً أن يكون الكفر الذي في قلوبهم من جحد توحيد الله وجحد نبوة نبيه سماء كنأ تشبيهاً ومجازاً، وإعراضهم عن تفهيم القرآن والإصغاء إليه على وجه الاستعارة وقرأ توسعاً، لأن مع الكفر والإعراض لا يحصل الإيمان والفهم، كما أن مع الكين والوقر لا يحصلان، ونسب هذا الجعل إلى نفسه لأنه الذي شبه أحدهما بالآخر، وذلك سائغ في اللغة، كما يقول القائل لغيره إذا أثنى على إنسانٍ وذكر فضائله ومناقبه: جعلته فاضلاً

خَيْرًا عَدْلًا وَإِنْ كَانَ لَمْ يَفْعَلْ بِهِ ذَلِكَ. وبالعكس من ذلك إذا ذكر مقابحه ومخازيه وفسقه يحسن أن يقال له: جعلته فاسقاً شريراً وإن لم يفعل في الحاليين شيئاً من ذلك، وكلّ ذلك مجاز، ومنه: قولهم: جعل القاضي فلاناً عدلاً، وجعله ثقةً وجعله ساقطاً فاسقاً، كلّ ذلك يراد به الحكم عليه بذلك والإبانة عن حاله، كما قال الشاعر:

جَعَلْتَنِي بَاخِلًا كَلَّا وَرَبِّ مَنَى إِنِّي لِأَسْمَحَ كَفًّا مِنْكَ فِي اللَّزَبِ
أَي: سَمِّيتَنِي بَاخِلًا.

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ...﴾ فكُنِيَ عنها بلفظ الواحد حملاً له على اللفظ، فلما قال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ رَدَّه إلى المعنى فعامله معاملة الجمع، لأن لفظة «مَنْ» تقع على الواحد وعلى الجمع حقيقة. قوله تعالى:

وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿وَهُمْ﴾ كناية عن الكفار الذين تقدّم ذكرهم عند أكثر المفسرين: الجُبَّائِي والبلخي وغيرهم.

وقال قوم: نزلت في أَبِي لَهَبٍ، لأنّه كان يتبعه في المواسم فينهي الناس عن أذاه وينأى عن أتباعه. والأوّل أشبه بسياق الآية.

وقيل: نزلت في أَبِي طَالِبٍ، وهذا باطل عندنا، لأنّه دلّ الدليل على إيمانه بما ثبت عنه من شعره المعروف وأقاويله المشهورة الدالة على اعترافه بالنبي ﷺ. وقال مجاهد: نزلت في قريش.

بيّن الله تعالى أنّ هؤلاء الكفار الذين ذكرهم كانوا ينهون عن اتباع القرآن وقبوله والتصديق بنبيّه، ويبعدون عنه، لأنّ معنى ﴿يَنْهَوْنَ﴾: يبعدون أي

حيث لا يسمعون خوفًا من أن يسري إلى قلوبهم الإيمانُ به والعلمُ بصحته.
 وقوله: ﴿وَأِنْ يُّهْلِكُونِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه: ليس يُهْلِكُونِ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ
 ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنهم ما يهلكون بتهييم عن قبوله ويُعْدهم عنه إِلَّا أَنْفُسَهُمْ،
 لأنهم لا يعلمون إهلاكهم أعظم من ذلك؟!

والنَّاي: البُعد ﴿يَنْتَوْنَ﴾ أي: يتباعدون عنه، تقول: نَأَيْتُ عن الشيء
 أَنَا نَائِيًا إِذَا بَعُدْتُ عنه، والنُّوي: حَاجَزٌ يُجْعَلُ حَوْلَ الْبَيْتِ مِنَ الْخَوْفِ لِأَنْ
 لَا يَدْخُلَهُ الْمَاءُ مِنْ خَارِجٍ، يُخَفَّرُ حَفْرَةً حَوْلَ الْبَيْتِ فَيُجْعَلُ تَرَابُهَا عَلَى
 شَفِيرِ الْحَفِيرَةِ، فَيَمْنَعُ التَّرَابُ الْمَاءَ أَنْ يَدْخُلَ مِنْ خَارِجٍ، وَهُوَ مَأْخُذٌ مِنْ
 «النَّاي» أي: تَبَاعُدِ الْمَاءِ عَنِ الْبَيْتِ.

وفي الآية دلالة على بطلان [قول] من قال: معرفة الله ضرورة، وأن
 من لا يعرف الله ولا يعرف نبيّه لا حجة عليه، لأن الله بيّن أن هؤلاء الكفار
 قد أهلكوا أنفسهم بتهييم عن قبول القرآن وتباعدهم عنه، وأنهم
 لا يشعرون ولا يعلمون بإهلاكهم أنفسهم بذلك، فلو كان من لا يعرف الله
 ولا نبيّه ولا دينه لا حجة عليه لكانوا هؤلاء معذورين ولم يكونوا
 هالكين، وذلك خلاف ما نطق به القرآن.

قوله تعالى:

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوُا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَتْ نَارُ وَلَا تُكَذِّبُ بَيِّنَاتٍ رَبِّنَا وَتَكُونُ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ حمزة وبعقوب وحفص ﴿وَلَا تُكَذِّبُ ... وَتَكُونُ﴾ بالنصب
 فيهما، وافقهم ابن عامر في ﴿وَتَكُونُ﴾ الباقيون بالرفع فيهما^(١).

من قرأ بالرفع احتمال قراءته أمرين:

أحدهما: أن يكون معطوفاً على ﴿نُرَدُّ﴾ فيكون قوله: ﴿نُرَدُّ وَلَا نَكْذِبُ ... وَنَكُونُ﴾ داخلاً في التمني، ويكون قد تمنى الردّ وألا نكذب وأن نكون من المؤمنين، وهو اختيار البلخي والجبائي والزجاج.

والثاني: أن يكون مقطوعاً عن الأوّل، ويكون تقديره: يا ليتنا نردّ^(١) ولا نكذب، كما يقول القائل: دعني ولا أعود، أي: فإني ممن لا أعود، فإنما يسألك الترك، وقد أوجب على نفسه ألا يعود، ترك أو لم يترك، ولم يقصد أن يسأل أن يجمع له الترك وأن لا يعود. هذا الوجه الذي اختاره أبو عمرو في قراءة جميع ذلك بالرفع، فالأوّل الذي هو «الردّ» داخل في التمني وما بعده على نحو: دعني ولا أعود، فيكونون قد أخبروا على البتات أن لا يكذبوا ويكونوا من المؤمنين.

واستدلّ أبو عمرو على خروجه من التمني بقوله: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ فقال: ذلك يدلّ على أنّهم أخبروا بذلك عن أنفسهم ولم يتمنّوا، لأنّ التمني لا يقع فيه الكذب، وإنّما يقع في الخبر دون التمني.

ومن نصب ﴿نُكْذِبُ... وَنَكُونُ﴾ أدخلهما في التمني، لأنّ التمني غير موجب، فهو كالاستفهام والأمر والنهي والعرض في انتصاب ما بعد ذلك كلّ من الأفعال إذا دخلت عليها الفاء أو الواو على تقدير ذكر المصدر من الفعل الأوّل، كأنّه قال: يا ليتنا يكون لنا ردّ وانتفاء للتكذيب ونكون من المؤمنين. ومن نصب ﴿وَنَكُونُ﴾ فَحَسْبُ، ورفع «نردّ ولا نكذب» يحتمل أيضاً وجهين:

(١) في الحجرية: نحن .

أحدهما: أن يكون داخلاً في التمني، فيكون في المعنى كالنصب.
والثاني: أنه يخبر على البتات أن لا يكذب، ردّ أو لم يردّ.
ومن نصب ﴿وَلَا تُكْذِبْ ... وَتَكُونُ﴾ جعلهما جميعاً داخلين في التمني، كما أن من رفع وعطفه على التمني كان كذلك.
فإن قيل: كيف يجوز أن يتمنوا الردّ إلى الدنيا وقد علموا عند ذلك أنهم لا يُردّون؟
قيل عن ذلك أجوبة:

أحدها: قال البلخي: إنّنا لا نعلم أنّ أهل الآخرة يعرفون جميع أحكام الآخرة، وإنّما نقول: إنهم يعرفون الله بصفاته معرفة لا يتخالجهم فيها الشكّ لما يشاهدونه من الآيات والعلامات الملجئة لهم إلى المعارف، وأمّا التوجّع والتأوّه والتمني للخلاص والدعاء بالفرج يجوز أن يقع منهم، وأن تدعوهم أنفسهم إليه.

وقال أبو عليّ الجبائي والزجاج: يجوز أن يقع منهم التمني للردّ، ولأن يكونوا من المؤمنين، ولا مانع منه.

وقال آخرون: التمني قد يجوز لما يعلم أنه لا يكون، ألا ترى أن المتمني يتمني أن لا يكون فعل ما قد فعله ومضى وقته، وهذا لا حيلة فيه. فعلى هذا قوله في الآية الثانية: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ يكون حكاية حال منهم في دار الدنيا، كما قال: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ﴾ ^(١) وكما قال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ ^(٢) وإنّما هو حكاية للحالة الآتية.

وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ أمال الموضعين أبو عمرو

وغيره، وهي حسنة في أمثال ذلك، لأنّ الرءاء بعده الألف مكسورة وهو حرف، كأنّه مكرّر في اللسان، فصارت الكسرة فيه كالكسرتين، فَحَسَنَ لذلك الإمالة.

وقوله: ﴿إِذْ وَقَفُوا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون عاينوها ووردوها قبل أن يدخلوها، ويجوز أن يكون أقيموا عليها نفسها.

والثاني: أن يكونوا عليها وهي تحتهم. وثالثها: أن يكون معناه: أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، كما يقول القائل: قد وَقَفْتُ على ما عند فلان، أي: فهمته وتبيّنته. قال الكسائي: يقال: وَقَفْتُ الدابةَ وغيرها إذا حبستها، بغير ألف، وهي لغة القرآن، وهو الأوضح، وكذلك وَقَفْتُ الأرض: إذا جعلتها صدقة. وقال أبو عمرو: ما سمعت أحداً من العرب يقول: أَوْقَفْتُ الشيء، بالألف، إلّا أنّي لو رأيت رجلاً بمكانٍ فقيل [له]: ما أَوْقَفَكَ ها هنا؟ لرأيتَه حسناً.

واستدلّ أبو عليّ بهذه الآية على أنّ القدرة قبل الفعل، خلافاً للمجبّرة بأن قالوا: تمنّوا الرّدّ إلى دار الدنيا إلى مثل الحالة التي كانوا عليها، ولا يجوز من عاقلٍ أن يتمنّى أن يردّ إلى الدنيا ويخلق فيه القدرة الموجبة للكفر، لأنّ ذلك لا يخلصه من العذاب بل يؤدّيه إلى حالته التي كان عليها. وهذا ضعيف، لأنّ لقائلٍ أن يقول: إنهم تمنّوا الرّدّ ورفع التكذيب وحصول الإيمان بأن تحصل لهم قدرة الإيمان، ولا تحصل لهم قدرة التكذيب، وليس في الآية أنّهم سألوا الرّدّ إلى الحالة التي كانوا عليها، فلا متعلّق في ذلك.

واستدلّ أيضاً على أنّه إذا كان المعلوم من حال الكافر أنّه يؤمن

وجب تبيقيته، بأن قال: أخبر الله أنه إنما لم يردّهم لأنهم ﴿لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ وظاهر ذلك يقتضي أنه لو علم أنه لو ردّهم لآمنوا لَوَجَبَ أن يردّهم، وإذا وجب أن يردّهم إذا علم أنهم يؤمنون بأن [فأن، ظ] يجب تبيقيتهم إذا عَلِمَ أنهم يؤمنون أولى.

وهذا أيضاً ضعيف، لأنّ الظاهر أفاد أنهم لو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه، وليس فيه أنهم لو ردّوا لآمنوا أو ما حكمهم، بل هو موقوف على الدلالة، لأنّه دليل الخطاب على أنّ غاية ما فيه أنه يفيد أنه لو علم من حالهم أنه متى ردّهم آمنوا أن يردّهم، فمن أين أن ذلك واجب عليه؟! وهل هذا إلا كقوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى تَبْعَثَ رَسُولًا﴾^(١) في أنه لا خلاف بين أهل العدل أنه كان يجوز له أن يعذب وإن لم يبعث رسولاً بأن لا تقتضي المصلحة بعثته ويقتصر بهم على التكليف العقلي، فإنهم متى عصوا كان له أن يعذبهم، فلا شبهة في الآية.

قوله تعالى:

بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ آية .

أقول: قوله: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ معناه: من عقاب الله، فعرفوه وعرفه من كانوا يسترونه عنه. وقال قوم^(٢): بدأ لبعضهم من بعض ما كان علماءهم يخفونه عن جُهاّهم وضعفائهم ممّا في كتبهم، فَبَدَأَ للضعفاء عنادهم. وقيل^(٣): معناه بل بدأ من أعمالهم ما كانوا يخفونه، فأظهره الله وشهدت به جوارحهم. وقال الزجاج: ظهر للذين اتبعوا العوّة

(١) الإسراء: ١٥. (٢) كالحسن البصري في تفسيره: ج ١ ص ٣٥١.

(٣) قاله السدّي وقتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١١٢.

ما كان الغواة يخفونه من أمر البعث والنشور، لأنّ المتّصل بهذا قوله: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا مَوْتٌ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ لنجرى^(١) على المعاصي.

وقوله: ولورّدوا ﴿لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ قال بعضهم: لو ردّوا ولم يعانوا العذاب لعادوا، كأنّه ذهب إلى أنّهم لم يشاهدوا ما يضطرّهم إلى الارتداع. وهذا ضعيف، لأنّ هذا القول يكون منهم بعد أن يُبْعَثُوا ويعلموا أمر القيامة ويعانوا النار، بدلالة قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ﴾ وهذه الآيات كلّها في المعاندين، لأنّه قال في أولها: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ ثمّ قال بعد ذلك: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾. وقال أبو عليّ الجبائي: الآية مخصوصة بالمنافقين، وظهر لهم ما كانوا يخفونه من كفرهم الذي كانوا يضمرونه. قال: والآية الأولى وإن كان ظاهرها يقتضي جميع الكفّار والمنافقون داخلون فيهم فيجوز أن يخبر عنهم بهذا الحكم. قال: ويحتمل أن يكون أراد بها الكافرين الذين كان النبيّ يخوّفهم بالعذاب على كفرهم فلم يؤمنوا بذلك لكن دخلهم الشكّ والخوف وأخفوه عن ضعفائهم وعوامهم، فإذا كان يوم القيامة ظهر ذلك وإن أخفوه في الدنيا، فيتمنّون حينئذٍ الرّدّ إلى حال الدنيا.

وقيل: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ معنى ﴿يُخْفُونَ﴾: يجدونه خافياً، ومعنى ﴿بَلْ﴾ أنّه ليس تمنّيهم الرجعة وإظهار الإنابة حقّاً للإيمان الصحيح، بل لما شاهدوه من العذاب الأليم.

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ معناه: أنّهم لو ردّوا إلى حال

التكليف وإلى مثل ما كانوا عليه في الدنيا من المهلة والتمكين من الإيمان والتوبة والقدرة على ذلك لعادوا لمثل ما كانوا عليه من الكفر الذي نُهوا عنه. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ قد بيّنا أن المراد به الحكاية عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا فيها كاذبين في كفرهم وتكذيبهم رسول الله والقرآن. وقال البلخي: هذا الكذب وقع منهم في الحال وإن لم يعلموه كذباً، لأنهم أخبروا عن عزمهم أنهم لو رُدُّوا لكانوا مؤمنين، وقد علّم الله أنهم لو عادوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم، وكان إخبارهم بذلك كذباً وإن لم يعلموه كذلك، لأنّ مخبره على خلاف ما أخبروه.

وهذا الذي ذكره ضعيف، لأنهم إذا أخبروا عن عزمهم على الإيمان إن رُدُّوا وكانوا عازمين عليه لا يكونون كاذبين، لأنّ مخبر خبرهم العزم، وهو على ما أخبروا، فكيف يكذبون فيه؟! والأوّل أقوى.

فأمّا الكذب مع العلم بأنّه ليس كذلك، فلا خلاف بين أبي عليّ وأبي القاسم أنّه لا يجوز أن يقع منهم في الآخرة، لأنّ أهل الآخرة مُلَجَّؤُونَ إلى ترك القبيح، لأنهم لو لم يكونوا مُلَجَّيْن لَوَجَبَ أن يكونوا مُزْجُورِينَ من القبيح بالأمر والنهي والثواب والعقاب، وذلك يوجب أن يكون ذاك التكليف، ولا خلاف أنّه ليس هناك تكليف، وإن لم يُزَجَّرُوا ولم يُلَجَّؤُوا إلى تركه كانوا مُغرِّين بالقبيح، وذلك فاسد، فإذا لا يجوز أن يقع منهم القبيح بحال.

وقال بعض المفسرين: سئل النبي ﷺ فقيل له: ما بال أهل النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار فخلّدوا في النار؟ وأهل الجنة عملوا في عمر قصير بعمل أهل الجنة فخلّدوا في الجنة؟! فقال: إنّ الفريقين كان

كَلِّ وَاحِدَ مِنْهُمَا عَازِماً عَلَى أَنَّهُ لَوْ عَاشَ أَبَداً عَمِلَ بِذَلِكَ^(١).
قوله تعالى:

وَقَالُوا إِنِ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية عن الكفار الذين ذكرهم في الآية الأولى، وبيّن أنهم قالوا - لما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان والإقرار بالبعث والنشور، وخوفهم من العقاب في خلافة، وحذرهم عذاب الآخرة والحشر والحساب - على سبيل الإنكار لقوله والتكذيب له: ما ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ وعَنَوْا: أَنَّهُ لَا حَيَاةَ لَنَا فِي الْآخِرَةِ عَلَى مَا ذَكَرْتَ، وإِنَّمَا هِيَ هَذِهِ [حياتنا] الَّتِي حِينِنَا بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّا لَسْنَا ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ إِلَى الْآخِرَةِ بعد الموت.

ثم خاطب نبيه ﷺ فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعني: على ما وعدهم ربهم من العذاب الذي يفعله بالكفار في الآخرة والثواب الذي يفعله بالمؤمنين، وعرفوا صحة ما كان أخبرهم به من الحشر والحساب، وقال لهم ربهم عند مشاهدتهم ووقوفهم عليه: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ مقرّين بذلك مدعين له وإن كانوا قبل ذلك في الدنيا ينكرونه، قال لهم حينئذٍ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بذلك. ويحتمل أن يكون معنى ﴿إِذِ وَقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أَنَّهُمْ حُسِسُوا يُسْتَنْظَرُ بِهِمْ مَا يَأْمُرُ، كقول القائل: احبسْه عليّ.

وقد ظن قوم من المشبهة أن قوله: ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ﴾ أنهم يشاهدونه! وهذا فاسد، لأنّ المشاهدة لا تجوز إلّا على الأجسام أو على ما هو حالّ في الأجسام، وقد ثبت حدوث ذلك أجمع، فلا يجوز أن يكون تعالى بصفة ما هو محدث، وقد بيّنا أن المراد بذلك: وقوفهم على عذاب ربهم وثوابه، وعلمهم بصدق ما أخبرهم به في دار الدنيا، دون أن يكون المراد به رؤيته تعالى ومشاهدته، فبطل ما ظنّوه.

وأيضاً: فلا خلاف أن الكفار لا يرون الله، والآية مختصة بالكافرين، فكيف يجوز أن يكون المراد بها الرؤية؟! فلا بدّ للجميع من التأويل الذي بيّناه. ويجوز أن يكون المراد بذلك إذا عرفوا ربهم، لأنّه سيعرّفهم نفسه ضرورةً في الآخرة، وتسمّى المعرفة بالشيء وقوفاً عليه، يقول القائل: وقفتُ على معنى كلامك، لمعنى علمته، وإذا كان الكفار لا يعرفون الله في الدنيا وينكرونه، عرّفهم الله نفسه ضرورةً، فذلك يكون وقوفهم عليه، فإذا عرفوه قال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يعني: ما وعدهم به، فيقولون: ﴿بلى﴾ لأنّهم شاهدوا العقاب والثواب ولم يشكوا فيها.

قوله تعالى:

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَّا عَلَىٰ مَا قَرَرْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى أنّه ﴿خَسِرَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ يعني: الذين كذبوا بما وعد الله به من الثواب والعقاب، وجعل لقاءهم لذلك لقاءً له تعالى مجازاً، كما يقول المسلمون لمن مات منهم: قد لقي الله وصار إليه، وإنّما يعنون: لقي ما يستحقّه من الله وصار إلى الموضع الذي

لا يملك الأمر فيه سواه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾^(١) والموت لا يُشاهد، وإنما أراد: أنكم كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوا أسبابه، فقد رأيتم أسبابه وأنتم تنظرون، فجعل لقاء أسبابه لقاءه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ كل شيء أتى فجأة فقد بَغَتْ، يقال: قد بَغَتْه الأمر يَبْغَتْه بَغْتًا وَبَغْتَةً إِذَا أَتَاهُ فُجْأَةً، قال الشاعر:
ولكنهم باتوا ولم أخش بَغْتَةً

وأفطع شيءٍ حين يَفْجُؤُكَ البَغْتُ^(٢)
وقوله: ﴿قَالُوا يَحْسِرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ قد علم أن الحسرة لا تُدعى، ودعاؤها تنبيه للمخاطبين، والحسرة: شدة الندم حتى يحسُر النادم كما يحسُر الذي تقوم به دابته في السفر البعيد.

قال الزجاج: العرب إذا اجتهدت في المبالغة في الإخبار عن أمر عظيم يقع فيه جعلته نداءً، فلفظه لفظ ما ينبه، والمنبه به غيره، كقوله: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَىٰ الْعِبَادِ﴾^(٣) وقوله: ﴿يَحْسِرَتُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ﴾^(٤) و﴿يَوَيْلَتِي ۖ أَلِدُّ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾^(٥) [و] ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا﴾^(٦) فهذا أبلغ من أن يقول: «أنا حَسِرٌ»^(٧) على العباد، وأبلغ من أن يقول: الحسرة علينا في تفریطنا، قال سيبويه: إِذَا قُلْتَ: يَا عَجَبَاهُ، فكأنك قلت: احضُرْ وتعالَ يا عجبُ، فإنه من أزمانك، وتأويل «يا حسرتنا»^(٨):

(١) آل عمران: ١٤٣.

(٢) ليزيد بن ضَبَّة الثَّقَفِي. ذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ١٩٣.

(٥) هود: ٧٢.

(٤) الزُّمَر: ٥٦.

(٣) يس: ٣٠.

(٨) في المصدر: «يا حسرتاه».

(٧) في الحجرية: أتحسّر، ل.

(٦) يس: ٥٢.

انتبهوا على أَنَا قد حسرنا.

وقوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ يعني: [ما] قَدَمْنَا العجز، وقيل: معناه: ما ضيَّعنا فيها يعني: في الساعة، وإِنَّمَا يَحْسُرُوا على تفريطهم في الإيمان والتأهَّب لكونها بالأعمال الصالحة.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ يعني: ثَقُلَ ذُنُوبُهُمْ، وهذا مَثَلٌ، جائز أن يكون جعل ما ينالهم من العذاب بمنزلة أثقل ما يُتَحَمَّلُ، لأنَّ «التَّثْقِلَ» قد يُستعمل في الوزن^(١) وقد يستعمل في الحال، تقول في الحال: قد ثَقُلَ عليَّ خطابُ فلان، ومعناه: كرهتُ خطابه كراهةً اشتدَّت عليَّ. ويحتمل أن يكون المراد بـ «الأوزار»: العقوبات التي استحقَّوها بالذنوب، والعقوبات قد تسمَّى أوزاراً، فبيَّن أَنَّهُ لثِقْلُهَا عليهم يحملونها على ظهورهم، وذلك يدلُّ على عِظَمِهَا.

و«الْوِزْرُ»: الثِّقْلُ في اللغة، واشتقاقه من «الْوَزَرَ» وهو الحبل الذي يُعْتَصَمُ به، ومنه قيل: وزير، كأنَّه يُعْتَصَمُ الْمَلِكُ به، ومنه: قوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰزِرُونَ أَخِي﴾^(٢) وقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُ أَخَاهُ هَٰزِرُونَ وَزِيْرًا﴾^(٣). وقوله: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِيْرُونَ﴾ يعني: بُئْسَ الشَّيْءُ شيئاً يزرونه أي: يحملونه، وقد بيَّنا عمل «بُئْسَ» و«نِعْمَ» فيما مضى^(٤). ومثله: ﴿سَاءَ مَثَلًا أَلْقَوْمُ﴾^(٥) ومعناه: ساء مثلاً مَثَلُ القوم.

وقال بعضهم: معنى ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ يصف [وصف، ظ] افتضاحهم في الموقف بما يشاهدونه من حالهم وعجزهم عن عبور الصراط كما يعبره المخفون من المؤمنين، ومعنى قوله: ﴿أَلَا سَاءَ﴾:

(٣) الفرقان: ٣٥.

(٢) طه: ٢٩ و ٣٠.

(١) في نسخة: الوزر.

(٥) الأعراف: ١٧٧.

(٤) عند تفسير الآية: ٩٠ من سورة البقرة.

ما ينالهم جزاءً لذنوبهم وأعمالهم الرديئة، إذ كان ذلك عذاباً ونكالاً.
وقوله: ﴿يَزِرُونَ﴾ من: وَزَرَ يَزِرُ وَزْراً إذا أثم، وقيل أيضاً: وَزَرَ فهو مؤزور إذا فُعل به ذلك، ومنه الحديث في النساء يتبعن جنازة قتيلٍ لهن: «إِزِجْنَ مَوْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ»^(١) والعامة تقول: مَأْزُورَات.

قوله تعالى:

وَمَا لِحَيَوٰةِ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر «وَلَدَارِ الْآخِرَةِ» بلام واحدة مع تخفيف الدال وخفض «الآخرة» على الإضافة، الباقون بلامتين وتشديد الدال وضَمَّ «الآخرة». وقرأ أهل المدينة وابن عامر وحفص ويعقوب ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء هاهنا وفي «الأعراف»^(٢) و«يوسف»^(٣) وافقهـم يحيى والغليـمي في «يوسف».

ومن قرأ بلامتين وشدّد الدال جعل ﴿الْآخِرَةَ﴾ صفة لـ «الدار» وأجراها في الإعراب مجراها، واستدلّ على كونها صفة لـ «الدار» بقوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾^(٤) فإقامتها مقامها يدلّ على أنها هي وليس غيرها. فيجوز أن يضيف إليها، وقووا ذلك بقوله: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾^(٥) وقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾^(٦).

ومن قرأ بلام واحدة وخفّف الدال فإنه لم يجعل ﴿الْآخِرَةَ﴾ صفة لـ «الدار» لأنّ الشيء لا يضاف إلى نفسه، لكنّه جعلها صفة للساعة، وكأنّه

(١) أخرجه ابن ماجة في السنن: ج ١ ص ٥٠٢ ح ١٥٧٨ بإسناده عن عليّ بن أبي طالب.

(٤) الضحى: ٤.

(٣) يوسف: ١٠٩.

(٢) الأعراف: ١٦٩.

(٦) القصص: ٨٣.

(٥) العنكبوت: ٦٤.

قال: ولدار الساعة الآخرة، وأجاز وصف الساعة بـ «الآخرة» كما وصف اليوم بـ «الآخر» في قوله: ﴿وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١). وحسن إضافة «الدار» إلى «الآخرة» ولم يقبح من حيث استقبح إقامة الصفة مقام الموصوف، لأن «الآخرة» صارت كالأبطح والأبرق، ألا ترى أنه قد جاء ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ واستعمل استعمال الأسماء ولم تكن مثل الصفات التي لم تستعمل استعمال «الآخرة» ومثل «الآخرة» في أنها استعملت استعمال الأسماء قولهم: الدنيا، لما استعملت استعمال الأسماء حسن أن لا تلحق لام التعريف في نحو قول الشاعر:

في سعي دنيا طالما قد مدت^(٢)

وقال الفراء: جعلت «الدار» ها هنا اسماً و «الآخرة» صفتها، وأضيفت في غير هذا الموضع، ومثله مما يضاف إلى مثله قوله: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾^(٣) والحق هو اليقين، ومثله قولهم: بارحة الأولى، و: يوم الخميس، فيضاف الشيء إلى نفسه إذا اختلف اللفظ، وإذا اتفق لم يحز ذلك، لا يقولون: حَقُّ الحق، ولا: يقينُ اليقين، لأنهم يتوهمون إذا اختلفا في اللفظ أنهما مختلفان في المعنى.

بين الله تعالى في هذه الآية أن ما يتمتع به في الدنيا بمنزلة اللعب واللهو للذين لا عاقبة لهما في المنفعة، ويقتضي زوالهما عن أهلها في أدنى^(٤) مدة وأسرع زمان، لأنه لا ثبات لهما ولا بقاء، فأما الأعمال الصالحات فهي من أعمال الآخرة وليست بلهو وبلعب.

وبين أن الدار الآخرة وما فيها من أنواع النعيم والجنان ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ

(٢) للعجاج. راجع خزنة الأدب: ج ٨ ص ٢٩٦ وما بعده.

(١) العنكبوت: ٣٦.

(٤) في نسخة: «أقصى» بدل أدنى.

(٣) الواقعة: ٩٥.

يَتَّقُونَ ﴿مَعَاصِيَ اللَّهِ، لَأَنْهَا بَاقِيَةٌ دَائِمَةٌ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ نَعِيمُهَا، وَلَا يَذْهَبُ عَنْهُمْ سُرُورُهَا.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ ذَلِكَ كَمَا وَصَفْتَ لَهُمْ، فَيَزْهَدُوا فِي شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَيَرْغَبُوا فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ بِفَعْلٍ مَا يُؤَدِّيهِمْ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ. وَمَنْ قَرَأَ «بَالِيَاءَ فِي يَعْقِلُونَ»، فَلَأَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْغَيْبَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أَيِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ أَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ هَذِهِ الدَّارِ فَيَعْمَلُوا بِمَا يَنَالُونَ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الدَّائِمِ. وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ قَصْدَ خُطَابِ جَمِيعِ الْخَلْقِ الْمُوَاجِهِينَ بِهِ.

والعقل: هُوَ الْإِمْسَاكُ عَنِ الْقَبِيحِ، وَقَصْرُ النَّفْسِ وَحَبْسُهَا عَلَى الْحَسَنِ، وَالْحِجَى أَيْضاً: احْتِبَاسٌ وَتَمَكُّثٌ، قَالَ الشَّاعِرُ:

فَهَنْ يَعْكُفْنَ بِهِ إِذَا حَجَا^(١)

وَأَنشُدِ الْأَصْمَعِي:

حَيْثُ تَحَجَّى مُطَرِّقٌ بِالْفَالِقِ^(٢)

حَجَا: أَقَامَ بِالْمَكَانِ، وَ «الْحِجَا» مَصْدَرُ كَالشَّبَعِ، وَمِنْهُ: الْحُجَيَّا: لِلغَزَى، لَتَمَكَّتِ الَّذِي يَلْقَى عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَخْرِجَهَا. قَالَ أَبُو زَيْدٍ: حَجَّ حَجِيَّاكَ، فَجَاءَتِ الْحُجَيَّا مَصْفُورَةً كَالثَّرِيَّا وَالْجُدَيَّا. وَالنُّهْيُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ جَمْعاً بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿لِأَوَّلَى النُّهْيِ﴾^(٣) لِأَنَّهُ أَضَافَهُ إِلَى الْجَمْعِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُفْرَداً فِي مَوْضِعِ الْجَمْعِ، وَهُوَ فِي مَعْنَى «ثَبَاتٍ» وَ «حَسَنٍ»^(٤). وَمِنْهُ: النَّهْيُ، وَالنَّهْيَةُ لِلْمَكَانِ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ الْمَاءُ فَيَنْتَقِعُ فِيهِ لَتَسْقُلَهُ

(١) لِلْعَجَاجِ، وَعَجَزُهُ، كَعَفِ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَرْجَا. رَاجِعْ دِيوانَ الْعَجَاجِ: ص ٨.

(٢) أَنشَدَهُ فِي اللِّسَانِ: مَادَّةُ «حَجَا» وَنَسَبَهُ إِلَى عَمَّارِ بْنِ أَيْمَنِ الرِّيَّانِيِّ.

(٣) طه: ٥٤ و١٢٨. (٤) فِي نَسْخَةِ: «حَبَسَ» بِدَلِّ حَسَنٍ.

ويمنعه ارتفاع ما حوله من أن يسيح فيذهب على وجه الأرض.
قوله تعالى:

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ أَظْهَلِينَ
بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ نافع والكسائي والأعشى إلا النفار ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ بسكون
الكاف وتخفيف الذال، وهو المروي عن علي عليه السلام وعن أبي عبد الله عليه السلام^(١)
الباقون بفتح الكاف وتشديد الذال من «التكذيب». وقرأ نافع ﴿إِنَّهُ
لَيَحْزُنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، الباقون بفتحها وضم الزاي.

قال أبو علي الفارسي «فعل وفعلته» جاء في حروف، والاستعمال في
«حَزَنْتُهُ» أكثر من «أَحْزَنْتُهُ» فإلى كثرة الاستعمال ذهب عامة القراء، وقال
تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾^(٢) ويقال: حَزَنَ يَحْزُنُ حُزْنًا وَحَزَنًا،
قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) ثم قال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ﴾^(٤) قال سيبويه: قالوا: حَزَنَ الرجلُ، وَحَزَنْتُهُ، قال: وزعم الخليل
أَنَّكَ حَيْثُ قُلْتَ: «حَزَنْتُهُ» لَمْ تُرِدْ أَنْ تَقُولَ: جَعَلْتُهُ حَزِينًا، كَمَا أَنَّكَ حِينَ
قُلْتَ: «أَدْخَلْتُهُ» أَرَدْتَ: جَعَلْتُهُ دَاخِلًا، وَلَكِنَّكَ أَرَدْتَ أَنْ تَقُولَ: جَعَلْتَ فِيهِ
حُزْنًا، كَمَا قُلْتَ: «كَحَلْتُهُ» أَي: جَعَلْتَ فِيهِ كُحْلًا، وَ «دَهَنْتُهُ»: جَعَلْتَ فِيهِ
دُهْنًا، وَلَمْ تُرِدْ بِ «فَعَلْتُهُ» هَاهُنَا تَغْيِيرَ قَوْلِهِ: حَزَنَ، وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ لَقُلْتَ:
أَحْزَنْتُهُ، وَمِثْلَ ذَلِكَ: شَتَرَ الرجلُ وَشَتَرْتُ عَيْنَهُ، فَإِذَا أَرَدْتَ تَغْيِيرَ «شَتَرَ
الرجلُ» قُلْتَ: أَشْتَرْتُهُ كَمَا تَقُولُ: فَرَعَ وَأَفْرَعْتُهُ^(٥).

(١) رواه عنهما عليه السلام العياشي في تفسيره: ج ١ ص ٣٥٩ ح ٢٠ و ٢١.

(٢) يوسف: ١٣.

(٣) الحجر: ٨٨، والنحل: ١٢٧، والنمل: ٧٠.

(٤) البقرة: ٦٢ و ١١٢ وغيرهما.

(٥) الحجة في علل القراءات: ج ٢ ص ٣٩٨، وراجع الكتاب لسيبويه: ج ٤ ص ٥٦.

وحجة نافع أنه أراد تغيير «حَزَن» فنقله بالهمزة. وقال الخليل: إذا أردت تغيير «حَزَن» قُلْتُ: «أَحَزَّنْتُهُ» فدل ذلك على أن «أَحَزَن» مستعمل وإن كان «حَزَّنْتُهُ» أكثر. وحكى أبو زيد: أَحَزَّنِي الأمرُ إْحْزَانًا، وهو يُحْزِنُنِي، ضَمُوا الياء.

وقال سيبويه: قال بعض العرب: أَفْتَنْتُ الرَّجُلَ وَأَحَزَّنْتُهُ وَأَرْجَعْتُهُ وَأَعَوَزْتُ عَيْنَهُ، أَي: جَعَلْتُهُ حَزِينًا وَفَاتِنًا، فغَيَّرُوا ذَلِكَ كَمَا فَعَلُوا بِالْبَابِ الْأَوَّلِ^(١).

وقوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ﴾ إِنَّمَا كُسِرَتِ الهمزة لِأَنَّ فِي خَبَرِهَا لَامًا لِلتَّأْكِيدِ. لَمَّا عَلِمَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَحْزُنُهُ تَكْذِيبُ الْكُفَّارِ لَهُ وَجَحْدُهُمْ نُبُوءَتِهِ سَلَاهُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّ قَالَ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

ومن قرأ بالتخفيف قال: معناه لَا يَلْقُونُكَ^(٢) كاذبًا، كما يقولون: سألتَه فَمَا أَبْخَلْتُهُ، وَقَاتَلْتَهُ فَمَا أَجَبْتُهُ، أَي: مَا وَجَدْتُهُ بَخِيلًا وَلَا جَبَانًا. وقال أبو عبد الله عليه السلام: معنى ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: لَا يَأْتُونَ بِحَقٍّ يَبْطُلُونَ بِهِ حَقُّكَ^(٣).

وقال الفراء: معنى التخفيف: لَا يَجْعَلُونَكَ كَذَّابًا، وَإِنَّمَا يَرِيدُونَ: أَنَّ مَا جُئْتُ بِهِ بَاطِلٌ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَجْزُوا عَلَيْهِ كَذِبًا فَيَكْذِبُوهُ ﷺ وَإِنَّمَا قَالُوا: إِنَّمَا جُئْتُ بِهِ بَاطِلٌ لَا نَعْرِفُهُ مِنَ النُّبُوءَةِ، فَأَمَّا التَّكْذِيبُ بِأَنَّ يُقَالُ لَهُ: كَذَّبْتَ، وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: هَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ، لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدَقُوهُ وَيَكْذِبُوا

(١) الكتاب: ج ٤ ص ٥٧.

(٢) رواه عنه القمي في تفسيره: ج ١ ص ١٩٦، وفي الكافي: ج ٨ ص ٢٠٠ ح ٢٤١ مسنداً عن علي عليه السلام.

ما جاء به، وهو أن الله أرسلني إليكم وأنزل عليّ هذا الكتاب وهو كلام ربّي. ومن قرأ بالتشديد احتمل وجوهاً:

أحدها: أنّهم لا يكذبونك بحجة يأتون بها أو برهان يدلّ على كذبك، لأنّ النبي ﷺ إذا كان صادقاً فمحال أن يقوم على كذبه حجة، ولم يرد: أنّهم لا يكذبونه سفهاً وجهلاً به.

والثاني: أنّه أراد: فإنّهم لا يكذبونك بل يكذبونني، لأنّ من كذب النبي ﷺ فقد كذب الله، لأنّ الله هو المصدّق له، كما يقول القائل لصاحبه: فلان ليس يكذبك وإنّما يكذبني دونك، يريد: أنّ تكذيبه إياك راجع إلى تكذبي، لأنّي أنا المخبر لك وأنت حاك عني.

وثالثها: أن يكون أراد: أنّهم لا ينسبونك إلى الكذب، لأنّك كنت معروفاً عندهم بالأمانة والصدق، فإنّه ﷺ كان يدعى فيهم: «الأمين» قبل الوحي، وكان معروفاً بينهم بذلك، لكنّهم لما أتيتهم من آيات [بآيات، ظ] جحدوها بقصدتهم التّكذيب بآيات الله، وجحدوها لا لتكذيبك، قال أبو طالب:

إنّ ابن آمنّة الأمين محمداً^(١)

ورابعها: أن تكون الآية مخصوصة بقوم معاندين، كانوا عارفين بصدقه ولكنّهم يجحدونه عناداً وتمرداً. وقال الحسن: معناه: [قد] نعلم أنّه ليخزّنك الذين يقولون: إنّك ساحر وإنّك مجنون، فإنّهم لا يكذبونك، لأنّ معرفة الله في قلوبهم بأنّه واحد، ولكنّ الظالمين بآيات الله يجحدون.

(١) وعجزه: عندي بمثل منازل الأولاد. من قصيدة تروي خبر رحلته إلى الشام برفقة ابن أخيه محمداً ﷺ وكان عمره الشريف اثنتي عشرة سنة، وكيف أنّ بحيرا أكرمهم وأطعمهم وأوصاه بمحمداً ﷺ. راجع ديوان أبي طالب: ص ٣٨ وفيه: إنّ الأمين محمداً في قومه.

وخامسها: قال الزجاج: ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾ لا يَقْدِرُونَ أن يقولوا لك فيما أنبأت به بما في كتبهم: كذبت. قال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى - فيمن ثقل - قلت له كذبت، مثل: زنيته وفسقته إذا نسبته إلى الزنا والفسق، و «فعلت» جاء على وجوه نحو: خطأته أي: نسبته إلى الخطأ، وسقيته ورعيته، أي: قلت له: سقاك الله ورعاك، [وقد جاء في هذا المعنى «أفعلته» قالوا: أسقيته، أي: قلت له: سقاك الله ظ،] قال الشاعر:

وَأُسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أُبْتُهُ تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ^(١)

فيجوز على هذا أن يكون معنى القراءة الواحدة وإن اختلف اللفظان، كما تقول: قللت وكثرت، وأقللت وأكثرت بمعنى واحد، حكاه سيبويه^(٢). وقال الكميت:

فَطَائِفُهُ قَدْ أَكْفَرُونِي بِحُبِّكُمْ وَطَائِفُهُ قَالَتْ: مُسِيءٌ وَمُذْنِبٌ^(٣)

وحكى الكسائي عن العرب: «أكذبت الرجل إذا أخبرته أنه جاء بكذب» و: «كذبتته أخبرته أنه كذاب» فقوله: «أكذبتته إذا أخبرته أنه جاء بكذب» كقولهم: أكفرتهم إذا نسبوه إلى الكفر، و«كذبتته أخبرته أنه كذاب» مثل: فسقته إذا أخبرته أنه فاسق.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني: هؤلاء الكفار ﴿بِأَيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن والمعجزات ﴿يَجْحَدُونَ﴾ ذلك بغير حجة، سفهاً وجهلاً وعناداً.

(١) لذي الرمة من قصيدة طويلة. راجع ديوان ذي الرمة: ص ٢٨٧.

(٢) الكتاب: ج ٤ ص ٤٨ - ٥٩.

(٣) من قصيدة يمدح آل محمد عليهم السلام. راجع القصائد الهاشميات للكميت بن زيد الأسدي: ص ٢٩ وفيه: كُفِّرْتِي.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: سأل الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ بأن أخبره أن الكفار قد كذبوا رسلاً ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ وصبر الرسل على تكذيبهم وعلى ما نالهم من أذاهم، وتكذيب الكفار لهم، حتى [إذا] جاء نصر الله إياهم على المكذبين، فمنهم مَنْ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِم بِالْحَرْبِ وَمَكَّنَّهُمْ مِنَ الظَّفَرِ بِهِمْ حَتَّى قَتَلُوهُمْ، ومنهم مَنْ نَصَرَهُمْ عَلَيْهِم بِأَنْ أَهْلَكَهُمْ وَاسْتَأْصَلَهُمْ، كما أهلك عاداً وِثْمُودَ وَقَوْمَ نُوحٍ لَوُطٍ وَغَيْرِهِمْ، فأمر الله نبيه ﷺ بالصبر على كفار قومه وأذاهم إلى أن يأتيه نصره كما صبرت الأنبياء.

وقوله: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ معناه: لا أحد يقدر على تكذيب خبر الله على الحقيقة، ولا على إخلاف وعده، فإن ما أخبر الله به أن يفعل بالكفار فلا بد من كونه لا محالة، وما وعدك به من نصره فلا بد من حصوله، لأنه لا يجوز الكذب في إخباره، ولا الخلف في وعده. وقيل: معناه: أنه لا يبطل لحججه وبراهينه، ولا يفسد لأدلته.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّئِ الْمُرْسَلِينَ﴾ معناه: أنه لا تبديل لخبر الله ولا خلف لذلك ولا تكذيب، وأن ما أخبر الله به أن ينزله بالكفار فإنه سيفعل بهم، كما فعل بأمم من تقدم من الأنبياء الذين أنزل الله عليهم العذاب واستأصلهم بتكذيبهم أنبياءهم، وعرفك أخبارهم على صحتها.

قوله تعالى:

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ

الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ آية.

أقول: خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ فقال له: إِنْ كَانَ اشْتَدَّ عَلَيْكَ وَعَظُمَ عِنْدَكَ إِعْرَاضُ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ عَمَّا أُتِيَتْهُمْ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْمُعْجَزَاتِ، وَامْتِنَاعُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِكَ وَالتَّصَدِيقِ لَكَ، وَكُنْتَ حَزِينًا لَذَلِكَ وَقَدَرْتَ أَوْ تَهَيَّأَ لَكَ أَنْ تَتَّخِذَ ﴿فِي﴾ جَوْفِ ﴿الْأَرْضِ﴾ مَسْكِنًا، وَهُوَ النَّفَقُ فِي الْأَرْضِ إِذَا كَانَ لَهُ مَنَفَذٌ وَأَنْ تَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ بِسَلَمٍ ﴿فَتَأْتِيَهُمْ بَأْيَةٌ﴾ يَعْنِي: بِآيَةٍ تُلْحِثُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ وَتَجْمَعُهُمْ عَلَيْهِ وَعَلَى تَرْكِ الْكُفْرِ فَافْعَلْ ذَلِكَ.

وحذف «فافعل» لدلالة الكلام عليه، كما تقول: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَقُومَ، ومعناه: فَاقْمُ، وَإِنْ أَرَادَ غَيْرَ ذَلِكَ لَمْ يَجْزِ أَنْ يَسْكُتَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ بِالْجَوَابِ، لِأَنَّهُ إِنْ أَرَادَ: «إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَقُومَ تُصِْبْ خَيْرًا» فَلَا بَدَّ مِنَ الْجَوَابِ، وَلَمْ يَرُدْ بِذَلِكَ: آيَةٌ يُؤْمِنُونَ عِنْدَهَا مَخْتَارِينَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى فَعَلَ بِهِمُ الْآيَاتِ الَّتِي تَرَاهُ عَلَيْهِمْ بِهَا، وَتَتِمَكَّنُونَ مَعَهَا مِنْ فَعْلِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا فَعَلَ بِهِمُ آيَةً مِنَ الْآيَاتِ يُؤْمِنُونَ عِنْدَهَا مَخْتَارِينَ وَجَبَ أَنْ يَفْعَلَهَا بِهِمْ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ لَوْ فَعَلَ بِهِمْ جَمِيعَ مَا لَا يَنَافِي التَّكْلِيفَ لَا يُؤْمِنُونَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمْ أَلْمَلَكَةَ﴾ ^(١) الْآيَةَ، وَكَمَا قَالَ: ﴿وَلَكِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا أَلْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ ^(٢).

وإنما لم يفعل ما يُلْحِثُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ لِأَنَّ ذَلِكَ يُنَافِي التَّكْلِيفَ، وَيُسْقِطُ اسْتِحْقَاقَ الثَّوَابِ الَّذِي هُوَ الْغَرَضُ بِالتَّكْلِيفِ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَبَيِّنَ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ هَذَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْزَمَ نَفْسَهُ الْغَمُّ وَالْجَزَعُ لِكُفْرِهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالتَّصَدِيقِ بِهِ، وَجَعَلَ ذَلِكَ عِزًّا

لنبيِّهِ ﷺ وتسليةً له.

ثم أخبر أنه لو شاء أن يجمعهم على الإيمان على وجه الإلجاء لكان على ذلك قادراً، لكنه ينافي ذلك الغرض بالتكليف، وجرى ذلك مجرى قوله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾^(١) فإنه أراد بذلك الإخبار عن قدرته، وإنه لو شاء إلجاءهم إلى الإيمان لكان عليه قادراً.

ولا يدل ذلك على أنه لم يشأ منهم الإيمان على وجه الاختيار منهم، أو: لم يشأ أن يفعل ما يؤمنون عنده مختارين، لأن الله تعالى قد شاء منهم الإيمان على هذا الوجه، وإنما أفاد نفى المشيئة لما يلجئهم إلى الإيمان، لأنه متى ألجأهم إليه لم يكن ذلك إيماناً والغرض بالآية أن يبين تعالى أن الكفار لم يغلبوا الله بكفرهم، ولا قهروه بخلافه، وأنه لو أراد أن يحول بينهم وبينه لفعل، لكنه يريد أن يكون إيمانهم على وجه يستحقون به الثواب ولا ينافي التكليف.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إنما هو نهي مخض عن الجهل، ولا يدل ذلك على أن الجهل كان جائزاً منه ﷺ بل يفيد كونه قادراً عليه، لأنه تعالى لا يأمر ولا ينهى إلا بما يقدر المكلف عليه، ومثله قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾^(٢) وإن كان الشرك لا يجوز عليه، لكن لما كان قادراً عليه جاز أن ينهأ عنه.

والمراد هاهنا: فلا تجزع ولا تحزن لكفرهم وإعراضهم عن الإيمان، وأنهم لم يجمعوا على التصديق بك، فتكون في ذلك بمنزلة الجاهلين

الَّذِينَ لَا يَصْبِرُونَ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَيَأْتُمُونَ لَشِدَّةِ الْبَرَزِ. وَالنَّفَقَ: الطريق النافذ في الأرض، والنافقاء - ممدوداً - : وَجَرُ جُحْرُ اليربوع يحفره من باطن الأرض إلى جِلْدَةِ الأرض، فإذا بَلَغَ الْجِلْدَةَ أَرْقَاهَا، فإذا رَآهُ رَيْبٌ وَقَعَ بِرَأْسِهِ هَذَا الْمَكَانَ وَخَرَجَ مِنْهُ، وَمِنْهُ: سَمِيَ الْمَنَافِقَ مَنَافِقاً، لِأَنَّهُ أَبْطَنَ غَيْرَ مَا أَظْهَرَ. وَالسُّلَمَ: مُشْتَقٌّ مِنْ «السَّلامَةِ» لِأَنَّهُ يَسْلَمُكَ إِلَى مُصْعَدِكَ.

قوله تعالى:

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الوقف عند قوله: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ ومعنى الآية: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ يَسْمَعُ كَلَامَكَ وَيَصْغِي إِلَيْكَ وَإِلَى مَا تَقْرَأُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ وَمَا تُبَيِّنُ لَهُ مِنَ الْحُجَجِ وَالْآيَاتِ وَتَتَفَكَّرُ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّهُ لَا يَبَيِّنُ الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ إِلَّا لِمَنْ تَفَكَّرَ فِيهِ، وَاسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَا يَسْمَعُ أَوْ يَعْرِفُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَدَلَّةِ عَلَى صِحَّتِهِ، وَجَعَلَ مَنْ لَمْ يَتَفَكَّرْ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِالْآيَاتِ بِمَنْزِلَةٍ مَنْ لَمْ يَسْمَعِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

لَقَدْ أَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي ^(١)
وَكَذَا جَعَلَهُ الشَّاعِرُ بِمَنْزِلَةِ الْأَصَمِّ فِي قَوْلِهِ:

أَصَمَّ عَمَّا سَاءَ سَمِيعُ ^(٢)

وقوله: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ معناه: أَنَّ الَّذِينَ لَا يَصْغُونَ إِلَيْكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ وَلَا يَسْمَعُونَ كَلَامَكَ إِنْ كَلَّمْتَهُمْ، وَلَا يَسْمَعُونَ مَا تَقْرَأُ عَلَيْهِمْ

(١) تقدّم في ج ١ ص ٢٨٥.

(٢) ذكره الزّجاج في المعاني: ج ٢ ص ٢٤٥ ولم ينسبه لأحد.

وتبيّنه لهم من حُجَجِ الله وآياته، وينفرون عنه إذا كلمتهم بمنزلة الموتى، فكما أنَّ الموتى لا يستجيبون لمن يدعوهم إلى الحقِّ والإيمان فكذلك هؤلاء الكفَّار لا يستجيبون لك إذا دعوتهم إلى الإيمان، فكما أيسّت أن يسمع الموتى كلامك إلى أن يبعثهم الله وإلى أن يرجعوا إليه فكذلك فأيس من هؤلاء أن يسمعوا كلامك وأن يستجيبوا لك.

وبيّن أنَّ الموتى إذا بعثهم الله - بمعنى: أحياهم - أنهم يرجعون بعد الحشر والبعث إلى الموضع الذي لا يملك الحكم فيه عليهم غير الله تعالى، ولا يملك محاسبتهم وضرّهم ونفعهم غيره، فجعل رجوعهم إلى ذلك الموضع رجوعاً إلى الله، وذلك مستعمل في اللغة.

وقال مجاهد ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ يعني: المؤمنين يسمعون الذكر ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: المشركين الصمَّ ﴿يَسْبَعُهُمُ اللَّهُ﴾ فيخيّبهم من شركهم حتّى يؤمنوا ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة. قوله تعالى:

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

أقول: قرأ ابن كثير «يُنْزِلَ» بالتخفيف، الباقون بالتشديد. معنى ﴿وَقَالُوا﴾: إخبار عمّا قاله الكفَّار من أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا﴾ ومعناه: هلا أنزل ﴿عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ يعني: الآية التي سألوها واقترحوا أن يأتيهم بها من جنس ما شاؤوا لما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾^(١) يعنون: فلق البحر وإحياء الموتى، وإنما قالوا ذلك حين أيقنوا بالعجز عن

معارضته فيما أتى به من القرآن، فاستراحوا إلى أن يلتبسوا مثل آيات الأولين، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ ^(١) وقال هاهنا: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ ءَايَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما في إنزالها من وجوب الاستئصال لهم إذا لم يؤمنوا عند نزولها، وما في الاقتصار بهم على ما أوثوا من الآيات المصلحة لهم.

وبيّن في آية أخرى أنّه لو أنزل عليهم ما أنزل لم يؤمنوا، وهو قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ^(٢) أن يكرههم، وقال: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ^(٣) يعني: الآيات التي اقترحوها إنّما لم نأتهم بها، لأنّ لو أتيناهم بها ولم يؤمنوا وجب استئصالهم، كما وجب استئصال من تقدّمهم ممن كذب بآيات الله. وقال في سورة العنكبوت ^(٤): ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَّا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الآية، فبيّن أن الآيات لا يقدر عليها إلا الله، وقد أتاهم بما فيه كفاية وإزاحة لعلّتهم وهو القرآن، وغيره ممّا شاهدوه من المعجزات والآيات ولا يلزم إظهار المعجزات بحسب اقتراح المقترحين، لأنّه لو لزم ذلك لوجب إظهارها في كلّ حال ولكلّ مكلف، وذلك فاسد.

وقد طعن قوم من الملحدين، فقالوا: لو كان محمد قد أتى بآية لما قالوا له: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ ولما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ ءَايَةً﴾. قيل: قد بيّنا أنّهم التمسوا آية مخصوصة، وتلك لم يؤثروها وإن كان الله

تعالى قادراً عليها، وإنما لم يؤثوها لأن المصلحة منعت من إنزالها، وإنما أتى بالآيات الأخر التي دلت على نبوته من القرآن وغيره على ما اقتضته المصلحة، ولذلك قال فيما تلوناه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ فبين أن في إنزال الكتاب كفاية ودلالة على صدقه، وأنه لا يحتاج معه إلى أمرٍ آخر، فسقط ما قالوه.

قوله تعالى:

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ آية.

أقول: الوقف عند قوله: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وقف تام.

ابتدأ الله تعالى بهذه الآية فأخبر بشأن سائر الخلق، وبإزاحة علة عباده المكلفين في البيان، ليعجب عباده في الآية التي بيّنها^(١) من الكفار وذهابهم عن الله تعالى، فقال: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ فجمع جميع الخلق بهذين اللفظين، لأن جميع الحيوان لا يخلو: من أن يكون مما يطير بجناحيه أو يدب ﴿إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أي: هم أجناس وأصناف، كل صنف يشتمل على العدد الكثير والأنواع المختلفة، وإن الله خالقها ورزقها، وإنه يعدل عليها فيما يفعله، كما خلقكم ورزقكم وعدل عليكم، وإن جميعها دالة وشاهدة على مدبرها وخالقها، وأنتم بعد ذلك تموتون وإلى ربكم تُحْشَرُونَ، فبين بهذه العبارة أنه لا ينبغي لهم أن يتعدوا في ظلم شيء منها، فإن الله خالقها وهو الناهي عن ظلمها والمتصف لها.

وفي قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أقوال:

أحدها: إنَّ قوله: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ تأكيدٌ، كما يقولون: رأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني، وربّما قالوا: رأْتُ عيني وسمعتُ أذني، كلُّ ذلك تأكيد.
وقال الفراء: معنى ذلك أنّه أراد ما يطير بجناحيه دون ما يطير بغير جناحين، لأنّهم يقولون: قد مرَّ الفَرَسُ يطير طيراً، و: سارتِ السفينة تطير طيراً، فلو لم يقل: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لم يعلم أنّه قصد إلى جنس ما يطير بجناحيه دون سائر ما يطير بغير جناحين.

وقال قوم: إنّما قال: ﴿بِجَنَاحَيْهِ﴾ لأنَّ السمك عند أهل الطبع طائر في الماء، ولا أجنحة لها، وإنّما خرج السمك عن الطائر لأنّه من دوابّ البحر وإنّما أراد ما في الأرض وما في الجوّ، ولا حيوان موجود غيرهما.
وقال قوم: إنّما قال ذلك ليدلّ على الفرق بين طَيْران الطيور بأجنحتها وبين الطَيْران بالإسراع، تقول: طُرْتُ في جناحين إذا أسرعت، قال الشاعر:

فَلَوْ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ أَدْرَكَتْ

وَلَكِنَّهَا تَهْفُو بِتَمَثَالِ طَائِرٍ

وأنشد سيبويه:

فَطِرْتُ بِمُنْصَلِي فِي يَعْمَلَاتٍ دَوَامِ الْأَيْدِ يَحْبِطُنَ السَّرِيحَا^(١)

وقال المغربي: أراد أن يفرّق بين الطائر الذي هو الفائزُ الفالِحُ في القسَم، قال مُزَاهِمُ الْعُقَيْلِي:

(١) في الكتاب: ج ١ ص ٢٧. وفي أمالي ابن الشجري: ج ٢ ص ٧٢ نسبه إلى مضر بن ربيعة الفقمسي.

وَطِيرِي بِمِخْرَاقٍ أَشَمَّ كَأَنَّهُ

سَلِيلُ جِيَادٍ لَمْ يَنْتَلُهُ الزَّغَايِفُ [تب] (١)

أي: فُوزِي واغنمي.

وقوله: ﴿مَافَرَطُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ قيل: ﴿مَافَرَطُنَا﴾ معناه: ما

تركنا، وقيل: ما قصرنا.

وفي ﴿الْكِتَابِ﴾ قولان:

أحدهما: إِنَّهُ أَرَادَ الْكِتَابَ الْمَحْفُوظَ عِنْدَهُ مِنْ آجَالِ الْحَيَوَانِ وَأَرْزَاقِهِ
وَأَثَارِهِ، لِيَعْلَمَ ابْنُ آدَمَ أَنَّ عَمَلَهُ أَوَّلَى بِالْإِحْصَاءِ وَالِاسْتِقْصَاءِ، ذَكَرَهُ الْحَسَنُ.
الثاني: مَا فَرَطْنَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ شَيْءٍ يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا
إِلَّا وَقَدْ بَيَّنَّاهُ: إمَّا مُجْمَلًا أَوْ مُفَصَّلًا، فَمَا هُوَ صَرِيحٌ يَفِيدُ لَفْظًا، وَمَا هُوَ
مُجْمَلٌ يَبَيِّنُهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ وَأَمْرٌ بِاتِّبَاعِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (٢) وَدَلَّ بِالْقُرْآنِ عَلَى صِدْقِ نُبُوَّتِهِ وَوُجُوبِ
اتِّبَاعِهِ، فَإِذَا لَا يَبْقَى أَمْرٌ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا إِلَّا وَهُوَ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا
الْوَجْهَ اخْتَارَهُ الْجُبَّائِيُّ.

وقال البلخي: ﴿مَافَرَطُنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لَمْ نَدَعِ
الاحتجاج بما يوضح الحق، ويدعو إلى الطاعة والمعرفة ويزجر عن
الجهل والمعصية، وتصريف الأمثال، وذكر أحوال الملائكة وبني آدم
وسائر الخلق من أصناف الحيوان، وكلّ جنس من الحيوان أمة، لأنّ الأُمَّة:
الجماعة، ويقال للصبيان: أُمَّة وإن لم يجب عليهم التكليف.

(١) أنشده في اللسان: مادّة «خرق» بلفظ: وطيري لمخراق أشمّ كأنه سليم رماح لم تنتله
الزعانف.

(٢) الحشر: ٧.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معناه: يُحْشَرُونَ إلى الله بعد موتهم يوم القيامة كما يُحْشَر العباد، فيعوض الله تعالى ما يستحقّ العوّض، ويتنصف لبعضها من بعض، فإذا عوّضها قال قوم: إنّها تصير تراباً فحينئذٍ يتمنّى الكافر فيقول: ﴿يا ليتني كنتُ تراباً﴾^(١). وقال قوم: يُديم الله أعواضها ويخلقها على أحسن ما يكون من الصور فيسرّ بها المثابون، ويكون ذلك من جملة ما ينعمون به، ذكره البلخي.

وقال قوم: ﴿يُحْشَرُونَ﴾ معناه: يموتون ويفنون. وهذا بعيد، لأنّ «الحشر» في اللغة هو: بَعَثٌ من مكانٍ إلى غيره، وهاهنا لا معنى للحشر الذي هو الفناء، وإنّما معناه: أنّهم يصيرون إلى ربّهم ويُبْعَثُونَ إليه.

واستدلّ قوم من التناسخيّة بهذه الآية على أنّ البهائم والطيور مكلفّة، لأنّه قال: ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ وهذا باطل، لأنّا قد بيّنا من أيّ وجهٍ قال: إنّها ﴿أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ ولو وجب حملها على العموم لوجب أن تكون «أمثالنا» في كونها ناساً وفي مثل صورنا وأخلاقنا، فمتى قالوا: لم يقل أمثالنا في كلّ شيء، قلنا: وكذلك الامتحان والتكليف، على أنّهم مقرّون بأنّ الأطفال غير مكلفين ولا ممتحنين، فما يحملون به امتحان الصّبيان بعينه نحمل بمثله امتحان البهائم، وكيف يصحّ تكليف البهائم والطيور وهي غير عاقلة، والتكليف لا يصحّ إلّا لعاقل؟ على أنّ الصّبيان أعقل من البهائم ومع هذا فليسوا مكلفين، فكيف يصحّ تكليف البهائم؟! وأمّا قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾^(٢) فإنّه مخصوص بالمكلفين العقلاء من البشر والجنّ والملائكة، بدلالة أنّ الأطفال أمم وليس فيها نذير.

واستدل أبو القاسم البلخي بهذه الآية على أن العوض دائم، بأن قال: بين الله تعالى أنه يحشر الحيوان كلها ويعوضها، فلو كان العوض منقطعاً لكان إذا أماتها استحققت أعواضاً أخر على الموت، وذلك يتسلسل، فدل على أنه دائم. وهذا ليس بشيء، لأنه يجوز أن يميت الله الحيوان على وجه لا يدخل عليهم الألم، فلا يستحقون عوضاً ثانياً، فالأولى أن يقول: إن دام دام تفضلاً منه تعالى.

وقوله: ﴿وَلَا طَبِيرٌ﴾ فإنه جرّ، عطف على ﴿ذَابَّةٌ﴾ وتقديره: ولا من طائر، وكان يجوز أن يُقرأ بالرفع حملاً على المعنى، كما تقول: ما جاءني من رجلٍ ولا امرأة، وتقديره: ما جاءني رجلٍ ولا امرأة، ومثله: قوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ في موضعٍ بالنصب^(١) وفي موضع آخر بالرفع^(٢) على ما قلناه.

قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَن يَشَأِ يُجْعَلُهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الوقف التام^(٣) عند قوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

وقوله: ﴿صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يراد أن هؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله صُمُّ وَبُكْمٌ في الظُّلُمَاتِ في الآخرة على الحقيقة عقوبة لهم على كفرهم، لأنه ذكرهم عند ذكر الحشر.

والثاني: أن يكون عَنَى أَنَّهُمْ صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ في الدنيا. فمتى

(١) كما في يونس: ٦١.

(٢) كما في سبأ: ٣.

(٣) في الحجرية: التمام.

أريد الأول كان ذلك حقيقة، لأنه تعالى لا يمتنع أن يجعلهم صُماً بكماء في الظلمات، يضلُّهم بذلك عن الجنة وعن الصراط الذي يسلكه المؤمنون إليها ويصيرهم إلى النار، وإن أريد به الوجه الثاني فإنه يكون مجازاً وتوسعاً. وإنما شبههم بالصُّم والبُكم الذين في الظلمات، لأنَّ المكذِّبين بآيات الله لا يهتدون إلى شيءٍ ممَّا ناله المؤمنون من منافع الدين ولا يصلون إلى ذلك، كما أنَّ الصُّم البُكم الذين في الظلمات لا يهتدون إلى شيءٍ من منافع الدنيا ولا يصلون إليها، فتشبيهم من هذا الوجه بالصُّم البُكم. وقال البلخي: ﴿صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ معناه: في الجهل والشرك والكفر.

وقوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ لا يجوز أن يكون على عمومه، لأنَّا قد علمنا أنَّ الله تعالى لا يشاء أن يضلَّ الأنبياء والمؤمنين، ولا يهدي الكافرين، لكن قد بيَّن تعالى في موضع آخر مَنْ الذي يشاء أن يضلَّه، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(١) وقال: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾^(٢) وقال: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾^(٣) وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾^(٤) وقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾^(٥).

وقوله: ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ﴾ هاهنا يحتمل أمرين: أحدهما: مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلُّهُ، أي: من يشأْ يخذله بأن يمنعه لطائفه وفوائده، وذلك إذا واطر عليه الأدلَّة وأوضح له البراهين فأعرض عنها ولم يُنعم

(٣) محمد: ١٧.

(٢) إبراهيم: ٢٧.

(١) البقرة: ٢٦.

(٥) العنكبوت: ٦٩.

(٤) المائدة: ١٦.

النظر فيها، فصار كالأصم الأعمى، فحينئذ يشاء أن يضلّه بأن يخذله.
والثاني: من يشأ الله إضلاله عن طريق الجنة، ونيل ثوابها يُضِلُّه على وجه العقوبة ﴿وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومعناه: من يشأ أن يرحمه ويهديه إلى الجنة ونيل الثواب يجعله على الصراط الذي يسلكه المؤمنون إلى الجنة، ويعدل الكافرين عنه إلى النار، ولا يلحق الإضلال إلا الكفار والفساق المستحقين للعقاب، وكذلك لا يفعل الثواب والخلود في الجنة إلا بالمؤمنين، لأنه ثواب لا يستحقّه سواهم.

قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ الكسائي وحده ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ - وما جاء منه ^(١) إذا كان استفهاماً - بحذف الهمزة التي بعد الراء، والباقون بثباتها وتخفيفها ^(٢)، إلا أهل المدينة فإنهم جعلوها بين بين، فإن كان غير استفهام اتفقوا على ثبات الهمزة وتخفيفها إلا ما رواه ورش ^(٣) في تحقيقها ^(٤) في ستة مواضع ذكرت في باب الهمزة في القراءات.

من حَقَّق الهمزة، فلأنه «فَعَلْتُ» من الرؤية، فالهمزة عين الفعل، ومن خَفَّف فإنَّه جعلها بين بين، وهذا التخفيف على قياس التحقيق، ومن حذف

(١) أي: من هذا اللفظ.

(٢) ورش هو عثمان بن سعيد القرشي المصري القيرواني، ولد عام ١١٠ هـ بمصر وتوفي بها

عام ١٩٧ م، تتلمذ على نافع، وإليه انتهت رئاسة الإقراء في الديار المصرية. (غاية النهاية

لابن الجزري: ج ١ ص ٥١ - ٥٢).

(٤) في الحجرية: تخفيفها.

الهمزة فعلى غير مذهب التخفيف، لأنّ التخفيف القياس فيها أن تجعل بين بين
كما فعل نافع، وهذا حَذَفٌ، كما قالوا: وَيُلْمُهُ^(١) وكما أنشد أحمد بن يحيى:
إن لم أقاتل فالبُسُوني بُزُقعا^(٢)
وقال أبو الأسود:

يا با المغيرة رَبُّ امرٍ مُّعْضِلٍ

وذكر أن عيسى كذلك كان يقرأها^(٣) ويقوّي ذلك قول الراجز:

أَرَيْتَ إن جاءت به أُمْلُودا مُرَجَّلًا ويلبس البرودا^(٤)

وقال الفراء: العرب لها في «أَرَيْتَ» لغتان:

أحدهما: أن يسأل الرجل: أَرَيْتَ زيداً بعينك؟ فهذه مهموزة، فإذا
أَوْقَعْتَهَا على الرجل منه قُلْتَ: أَرَأَيْتَكَ على غير هذه الحال؟ تريد: هل
رَأَيْتَ نفسك على غير هذه الحال؟ ثم يُشْتَى ويجمع، فتقول للرجلين:
أَرَأَيْتُمَا كُما، وللقوم: أَرَأَيْتُمُوكُم، وللنساء: أَرَأَيْتُكُنَّ، وللمرأة: أَرَأَيْتِكَ
بخفض التاء، لا يجوز إلّا ذلك.

والآخر: أن تقول: أَرَأَيْتَكَ. وأنت تريد: أخبرني، فتهمزها وتنصب التاء
منها وتترك الهمز إن شئت، وهو أكثر كلام العرب، وتترك التاء مفتوحة
للوّاحد والجمع: مؤنّثة ومذكّرة تقول للمرأة: أَرَأَيْتَكَ زيداً، وللنساء:
أَرَأَيْتُكُنَّ زيداً ما فعل، وإنّما تركت العرب التاء واحدة لأنّهم لم يريدوا أن

(١) وَيُلْمُهُ - بضمّ اللام وكسرهما -: كلمة مركّبة من كلمتين: «ويل» و «لأُمّه» وتعني الدعاء على
الشخص، ثم استعملت في التعجّب والاستحسان.

(٢) أنشده ابن جنّي في الخصائص: ج ٣ ص ١٥١.

(٣) ذكره النحّاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص ٦٦.

(٤) نسبة البغدادى إلى رجلٍ من هذيل. راجع خزّانة الأدب: ج ١١ ص ٤٢٠.

يكون الفعل منها واقعاً على نفسها، فاكْتَفَوْا بذِكْرِها في الكاف، ووجَّهوا التاء إلى المذكر والتوحيد، إذا لم يكن الفعل واقعاً على نفسها.
واختلفوا في هذه الكاف، فقال الفراء: موضعها نصب وتأويلها رفع، مثل قولك: دُونَكَ زيداً، فموضع الكاف خفض، ومعناه الرفع: لَأَنَّ المعنى: خُذْ زيداً.

قال الزجاج: هذا خطأ ولم يقله أحد قبله، قال: لَأَنَّ قولك: أَرَأَيْتَكَ زيداً ما شَأْنُهُ؟ تصير «أَرَأَيْتَ» قد تعدَّت إلى الكاف وإلى «زيد» فنصب «أَرَأَيْتَ» اسمين، فيصير المعنى: أَرَأَيْتَ نَفْسَكَ زيداً ما حاله؟ وهذا محال، قال: والصحيح الَّذي عليه النحويون: أَنَّ الكاف لا موضع لها، والمعنى: أَرَأَيْتَ زيداً ما حاله؟ والكاف زيادة في بيان الخطاب، وهو المعتمد عليه في الخطاب، ولذلك تكون التاء مفتوحة في خطاب المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، فتقول للرجل: أَرَأَيْتَكَ زيداً ما حاله؟ بفتح التاء والكاف، وللمرأة: «أَرَأَيْتَكَ» بفتح التاء وكسر الكاف لَأَنَّها صارت آخر ما في الكلمة، وللاتنين: أَرَأَيْتُكُمَا، وللجمع: أَرَأَيْتُكُمْ، فتَوَحَّدَ التاء، فكما وجب أَن تَوَحَّدَها في التثنية والجمع كذلك وجب أَن تذكرها مع المؤنث، فإن عَدَّيْتَ الفاعل إلى المفعول في هذا الباب صارت الكاف مفعوله، تقول: رَأَيْتُنِي عالماً بفلانٍ، فإذا سَأَلْتَ على هذا الشرطِ قُلْتَ للرجل: أَرَأَيْتَكَ عالماً؟ وللاتنين: أَرَأَيْتُكُمَا، وللجمع: أَرَأَيْتُكُمْ، لَأَنَّ هذا في تأويل: أَرَأَيْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، وللمرأة: أَرَأَيْتِكَ، وللتثنية: أَرَأَيْتُكُمَا، وللجماعة: أَرَأَيْتُكُمْ، فعلى هذا قياس هَذَيْنِ البَآئِيَيْنِ^(١).

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٧ ويريد بالباينين: باب أَرَأَيْتُكُمْ، وباب رَأَيْتُنِي كما ذكر.

قال أبو عليّ الفارسي: لا يخلو أن يكون الكاف للخطاب مجرّداً، ومعنى الاسم مخلوعاً منه، أو يكون دالاً على الاسم مع دلالته على الخطاب، والدليل على أنّه للخطاب مجرّداً من علامة الاسم: أنّه لو كان اسماً وجب أن يكون الاسم الذي بعده في نحو قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾^(١) وقولهم: أرايتك زيداً ما صنع؟ هو الكاف في المعنى، ألا ترى أنّ «رأيت» يتعدّى إلى مفعولين يكون الأوّل منهما هو الثاني في المعنى، وإذا لم يكن المفعول الذي بعده هو الكاف في المعنى وإنّما هو غيره وجب أن يدلّ ذلك على أنّه ليس باسم، وإذا لم يكن اسماً كان حرفاً للخطاب مجرّداً من معنى الاسمية، كما أنّ الكاف في «ذلك» و «هنالك» للخطاب، ومثله: التاء في «أنت» لأنّه للخطاب معرّئ من معنى الاسم، فإذا ثبت أنّه للخطاب معرّئ من معنى الأسماء ثبت أنّ التاء لا يجوز أن تكون بمعنى الخطاب، ألا ترى أنّه لا ينبغي أن يلحق الكلمة علامتان للخطاب، كما لا يلحقها علامتان للتأنيث، ولا علامتان للاستفهام، فلمّا لم يجز ذلك أفردت التاء في جميع الأحوال لما كان الفعل لا بدّ له من فاعل، وجعل في جميع الأحوال على لفظ واحد، لأنّ ما يلحق الكاف من معنى الخطاب يبيّن الفاعلين، فيخصّص التأنيث من التذكير، والثنائية من الجمع، فلو لحق علامة التأنيث والجمع التاء لاجتمع علامتان للخطاب لما كان يلحق التاء وما يلحق الكاف، وذلك يؤدّي إلى ما لا نظير له، فرفض لذلك. أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بهذه الآية أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام ﴿أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ﴾ كما أتى الكافرين من

قبلكم كَعَادٍ وَتَمُودَ وَغَيْرَهُمْ ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ وهي القيامة. قال الزجاج: «الساعة» اسم للوقت الذي يُصَعَّقُ فيه العباد، واسم للوقت الذي يُبْعَثُ فيه، والمعنى: أَرَأَيْتُمْ الساعةَ الَّتِي وُعِدْتُمْ [وعدكم خ ل] فيها بالبعث والفناء، لأنَّ قبل البعث يموت الخلق كلُّهم، أَدْعُونَ فيها لكشف ذلك عنكم هذه الأوثان الَّتِي تعلمون أَنَّها لا تقدر أن تنفع أنفسها ولا غيرها؟! أو تدعون لكشف ذلك عنكم الله تعالى الَّذِي هو خالقكم ومالككم ومن يملك ضَرْكَمَ ونفعكم؟ ودلَّهم بذلك على أَنَّهُ لا ينبغي لهم أن يعبدوا ما لا يملك لهم نفعاً ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً، وأن يعبدوا الله وحده الَّذِي هو خالقهم ومالكهم والقادر على نفعهم وضررهم.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: في أَنَّ هذه الأوثان آلهة لكم، فبيَّن الله لهم بذلك أَنَّها ليست آلهة، وأنَّهم في هذا القول غير صادقين.

وقوله: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ معنى «بل» استدراك وإيجاب بعد نفي، تقول: ما جاءني زيدٌ بل عمرو. أعلمهم الله تعالى أَنَّهُمْ لا يَدْعُونَ في حال الشدائد إِلَّا إِيَّاهُ، لأنَّه إذا لحقتهم الشدائد والأحوال في البحار والبراري القفار، التجأوا فيه إليه وتضرَّعوا لديه، كما قال: ﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ ^(١) وفي ذلك أعظم الحُجَجِ عليهم، لأنَّهم عبدوا الأصنام.

وقوله: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ معناه: يكشف الضرَّ الَّذِي من أجله دعوتهم، وهو مجاز كقوله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ ^(٢) ومعناه: واسأل أهل القرية.

وقوله: ﴿وَتَنْسَوْنَ مَا تَشْرِكُونَ﴾ معنى ﴿تَنْسَوْنَ﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون بمعنى: تتركون ما تشركون بالله. الثاني: أنكم في تزكيتكم دعاءهم بمنزلة مَنْ نَسِيَهُمْ. وهذا الذي احتجَّ الله به على الكفار دلالة على صحة الاحتجاج في الدين على كلِّ من خالف الحقَّ، لأنَّه لو كان الاحتجاج لا يجوز ولا يفضي إلى الحقِّ لما احتجَّ به على عباده في كتابه. وإِثْمًا قال: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ لأنَّه ليس كلُّ ما يدعون لكشفه يكشفه عنهم، بل يكشف ما يشاء من ذلك ممَّا تقتضيه المصلحة وصواب التدبير، وتوجبه الحكمة. والاستثناء راجع إلى «العذاب» دون «الساعة» لأنَّها لا تُكشَف ولا مَحِص عنها.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ
يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ آيتان.

أقول: أعلم الله تعالى نبيَّهِ ﷺ بهذه الآية أنَّه قد أرسل الرُّسُل قبله إلى أقوام بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلُّوا لأمر الله، لأنَّ القلوب تخشع والنفوس تضرع عند ما يكون من أمر الله في البأساء والضراء، وقال قوم^(١): البأساء: الجوع، والضراء: النقص في الأموال والأنفس. والبأساء: من البأس والخوف، والضراء: من الضر، وقد يكون البأساء من البؤس، فأعلمه الله: أنَّه أرسل إلى أُمَّم وأخذها بالبأساء والضراء فلم تخشع ولم تضرع.

وقال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ ومعناه: لكي يتضرَّعوا، وقيل: معناها الترجي للعباد، كما قال: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(١) قال سيويوه^(٢): المعنى: إذ هبنا أنما على رجائكما والله عالم بما يكون من وراء ذلك. وقوله: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ معناه: هلاً إذ جاءهم بأسنا تضرَّعوا ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: أقاموا على كفرهم. قال الفراء: كلما رأيت في الكلام «لولا» ولم تر بعدها اسماً فهي بمعنى «هلاً» كقوله: ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾^(٣) و ﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾^(٤) وإذا كان بعدها اسم فهي بمعنى «لو» التي تكون في جوابها اللام، و «لوما» فيها ما في «لولا» من الاستفهام والخبر^(٥).

وقد أخبر الله في هذه الآية أنَّ الشيطان هو الذي يزيِّن الكفر للكافر، بخلاف ما يقول المجبِّرة من أنَّ الله هو المزيِّن لهم ذلك. وفيها حجة على من قال: إنَّ الله لم يرد من الكافر الإيمان، وإنَّه أرسل الرُّسل ينبِّه عليهم، وعلى من زعم أنَّ أخذه الكافرين بالبأساء والضراء في الدين ليس كما أراد من صلاحهم، لأنَّه بيَّن الله إنَّما فعل بهم ذلك ليتضرَّعوا، وهذه لام الغرض، لأنَّ الشك لا يجوز عليه تعالى.

و ﴿يَتَضَرَّعُونَ﴾ معناه: يتذلَّلون، يقال: ضَرَعَ فلانٌ لفلانٍ إذا بَخَعَ له وسأله أن يعطيه، و فلانٌ ضارِعٌ أي: نحيف.

قوله تعالى:

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) المنافقون: ١٠.

(٢) الكتاب: ج ١ ص ٣٣١.

(٣) طه: ٤٤.

(٤) معاني القرآن: ج ١ ص ٣٣٤.

(٥) الواقعة: ٨٦.

أَلْعَلَّيْمِينَ ﴿٤٥﴾ آيَتَانِ.

أقول: قرأ ابن عامر وأبو جعفر وورّش «فَتَحْنَا» وفي الأعراف^(١): «لَفَتَحْنَا» وفي الأنبياء^(٢): «فَتَحَتْ» وفي القمر^(٣): «فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ» بالتشديد فيهنّ، وافقهم رَوّح في الأنبياء والقمر، الباقون بالتخفيف فيهنّ. مَنْ ثَقُلَ أراد التكثير، وَمَنْ خَفَّفَ أراد الفعل مرّة واحدة.

بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ لَمَّا لَمْ يَنْتَفِعُوا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ عَلَى مَا اقْتَضَتْ مَصْلَحَتُهُمْ، وَنَسَوْهَا أَي: تَرَكُوهَا فَصَارَتْ فِي حَكْمِ الْمُنْسِيّ ابْتِلَانَهُمْ بِالتَّوَسُّعَةِ فِي الرِّزْقِ لِيَرْغَبُوا بِذَلِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ، وَيَتَنَبَّهُوا عَلَيْهِ، فَيَطِيعُوا وَيَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ، فَلَمَّا لَمْ يَنْجِعْ ذَلِكَ فِيهِمْ وَلَمْ يَزِيدُوا عَلَى^(٤) الْفَرَحِ بِمَا أُوتُوا، وَلَمْ يَتَّعِظُوا وَلَمْ يَنْفَعَهُمُ الزَّجْرُ بِالضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ وَلَا التَّرْغِيبُ بِالتَّوَسُّعَةِ وَالرِّخَاءِ أَحْلَلْنَا بِهِمُ الْعُقُوبَةَ ﴿بَغْتَةً﴾ أَي: مَفَاجَأَةً مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: «الْمُبْلِسُ» الشَّدِيدُ الْحَسْرَةِ، وَ«الْبَائِسُ» الْحَزِينُ. وَقَالَ الْبَلْخِي: يَعْنِي: أَذْلَةٌ خَاضِعِينَ. وَقَالَ الْجُبَّائِي: مَعْنَى ﴿مُبْلِسُونَ﴾: آيِسُونَ. وَقَالَ الْفَرَّاءُ: «الْمِبْلَسُ» الْمُنْقَطِعُ الْحِجَّةُ. قَالَ رُوْبَةُ: وَخَضَرَتْ يَوْمَ خَمِيسِ الْأَخْمَاشِ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلَاشٌ^(٥) وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْإِبْلَاشُ: السَّكُوتُ مَعَ اكْتِنَابِ.

وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ المراد به التكثير دون العموم، وهو مثل قوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٦) وكقول القائل: أكلنا عنده كل شيء، و: رأينا معه [منه] كل خير، وكما يقال: هذا قول أهل العراق وأهل الحجاز، ويراد

(١) الآية: ٩٦. (٢) الآية: ٩٦. (٣) الآية: ١١. (٤) في المطبوع: ولم يردعوا عن.

(٥) أنشده أبو عبيدة في المجاز: ج ١ ص ١٩٢. (٦) النمل: ٢٣.

به قول أكثرهم، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾^(١) وكل ذلك يراد به الخصوص وموضوعه التكثير والتفخيم. وإذا علمنا في الجملة - بالعقل - أن هذه الآيات مخصوصة فلا ينبغي أن يعتقد فيها تخصيص شيء بعينه، وليس علينا أكثر من أن نعتقد أنهم أوتوا خيراً كثيراً، وفتح عليهم أبواب أشياء كثيرة كانت متعلقة عليهم، وليس يلزمنا أكثر من ذلك.

فإن قيل: الذي يسبق إلى القلوب غير ما تأولتم عليه، وهو: أن الله إنما فتح عليهم أبواب كل شيء ليفرحوا ويمرحوا ليستحقوا العقاب!!

قلنا: الظاهر وإن كان كذلك انصرفنا عنه بدليل، كما انصرفنا عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) وعن قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٣) وعن قوله: ﴿ءَامِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾^(٤) فكما يجب أن نترك هذه الآيات وإن كان ظاهرها التشبيه فكذلك ترك ما ظاهره يوجب إضافة القبيح إليه تعالى وينافي عذله، ونعدل إلى ما يليق بحكمته وعذله.

وقوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه: أخذ الذي يذبرهم ويذبرهم، لغتان بضم الباء وكسرهما، وهو الذي يكون في أعقابهم.

وروي عن عبدالله أنه قال: «من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دُبرياً» بضم الدال، يعني: في آخر الوقت، هذا قول أصحاب الحديث^(٥) وقال أبو زيد: «إلا دُبرياً» بفتح الدال والباء^(٦).

ثم حمد الله تعالى نفسه بأن استأصل شأفتهم^(٧) وقطع دابرهم بقوله: ﴿وَأَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه تعالى أرسل إليهم وأنظرهم بعد

(١) طه: ٥٦. (٢) طه: ٥. (٣) الفجر: ٢٢. (٤) الملك: ١٦ و ١٧.

(٥) ذكره ابن الأثير في النهاية: ج ٢ ص ٩٧ و ٩٨.

(٦) النوادر في اللغة: ص ٢٥٨. (٧) استأصل الله شأفته، أي أزاله من أصله.

كفرهم، وأخذهم بالبأساء والضراء والنعمة والرخاء، فبالغ في الإنذار والإمهال، فهو محمود على كل حال.

قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِقُونَ ﴿٤٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: روى وَرَش: ﴿بِهِ أَنْظِرْ﴾ بضم الهاء، الباقون بكسرها.

قال أبو علي: مَنْ كسر الهاء حذف الياء التي تلحق الهاء في نحو: «بِهِ أَنْظِرْ»^(١) لالتقاء الساكنين وألفاً من «انظر» وَمَنْ قرأ بضم الهاء فهو على قول من قال: ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارَهُو﴾^(٢) فحذف الواو لالتقاء الساكنين، كما حذف الياء في «بِهِ» لذلك، فصار ﴿بِهِ أَنْظِرْ﴾ ومما يحسن هذا الوجه أَنَّ الضمة فيه مثل الضمة في ﴿أَنْ أَقْتُلُوا﴾^(٣) ﴿أَوْ انْقُصْ﴾^(٤) ونحو ذلك. وقوله: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ ثم قال: ﴿يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ قال أبو الحسن^(٥): هو على السمع أو على ما أخذ منكم^(٦). وقال الفراء: الهاء كناية عن «الهدى».

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أَنْ يقول لهؤلاء الكفار: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ﴾ أي: أصمكم ﴿وَأَبْصَرَكُمْ﴾ أي: أعماكم، تقول العرب: أخذ الله سمع فلان وبصره، أي: أصمه وأعماه ﴿وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ بأن سلب ما فيها من العقول التي بها يتهيأ لكم أَنْ تؤمنوا بربكم وتتوبوا من ذنوبكم.

(٢) القصص: ٨١.

(٤) المزمل: ٣.

(١) في الحجرية: «بِهِ عيب».

(٣) النساء: ٦٦.

(٥) وهو الأخفش سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي النحوي المعروف.

(٦) في الحجرية كتب بين السطور: كناية عن السمع أو عما أخذ منكم.

وَوَسَّيْهَا بِسْمَةِ مَنْ يَكُونُ خَاتِمَةً أَمْرُهُ الْمَصِيرَ إِلَى عَذَابِ النَّارِ، فَلَوْ فَعَلَ ذَلِكَ بِكُمْ، هَلْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهَذَا الَّذِي سَلَبَكُمْ اللَّهَ إِيَّاهُ؟! وَهَلْ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟! [فَكَمَا لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ اللَّهِ] ^(١) فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يَعْبُدُوا سِوَاهُ، الْقَادِرُ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْأَيَّاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ تنبيه للعباد على هذه الآية وعلى أمثالها من الآيات التي بَيَّنَّ فيها أَنَّهُ لَا يَسْتَحَقُّ الْعِبَادَةُ سِوَاهُ تَعَالَى، ثُمَّ يَبَيِّنُ أَنَّهُمْ مَعَ ظُهُورِ هَذِهِ الْآيَاتِ ﴿يَصْدِفُونَ﴾ أَيُّ: يُعْرِضُونَ عَنْ بَاطِنِهَا وَالفكر فيها، يقال: صَدَفَ عَنْهُ إِذَا مَالَ عَنْهُ.

وفي الآية دليل على أَنَّ اللَّهَ قَدْ مَكَّنَّهُمْ مِنَ الْإِقْبَالِ عَلَى مَا وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَيَانِ، وَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ فِيهِمُ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ وَلَا إِحْمَلَهُمْ عَلَيْهِ، وَلَا أَرَادَهُ مِنْهُمْ، وَلَا زَيَّنَّهُ لَهُمْ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ فَعَلَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لَتَعْجِيبِهِ مِنْ ذَلِكَ مَعْنًى.

قوله تعالى:

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْأَظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ آية.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أَنْ يَخَاطِبَ كِفَّارَ قَوْمِهِ، وَيَقُولَ لَهُمْ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ وَالْبَغْتَةُ: الْمَفْاجَأَةُ، وَهُوَ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ غَافِلُونَ غَيْرَ مُتَوَقِّعِينَ لِذَلِكَ ﴿أَوْ جَهْرَةً﴾ أَيُّ: وَهُمْ شَاهِدُونَ لَهُ وَمُعَانِيُونَ نَزْوِلَهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْبَغْتَةُ: أَنْ يَأْتِيَهُمْ لَيْلاً، وَ﴿جَهْرَةً﴾ نَهَاراً.

ثُمَّ قَالَ: ﴿هَلْ يُهْلَكُ﴾ بهذا العذاب ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الكافرون الذين يكفرون بالله ويفسدون في الأرض، وهل ينجو منه إلا المؤمنون العابدون لربهم، ومتى هلك فيهم أطفال أوقوم مؤمنون فإنما يهلكون امتحاناً، ويعوّضهم الله على ذلك أعواضاً كثيرة يصغر ذلك في جنبها، فجعل ذلك تحذيراً من المقام على الكفر، وترغيباً في الإيمان والنجاة من العذاب.
قوله تعالى:

وَمَا نُزِّلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: بين الله تعالى في هاتين الآيتين أنه لا يبعث الرُّسل أرباباً يقدرّون على كل شيء يُسألون عنه من الآيات أو يخترعون، بل إنّما يرسلهم لما في ذلك من المصلحة لهم ^(١) منبّهين على ما في عقولهم من توحيد الله وعدله وحكمته، مبشرين بشواب الله لمن آمن به وعرفه، ومخوفين لمن أنكره وجحد.

ثم أخبر أنّ المرسل إليهم ممكنون غير مُجبرين ولا مضطرين، ودلّ على أنّه غير مُحدّثٍ لشيء من أفعالهم فيهم، وأنّ الأفعال لهم، هم يكتسبونها بما خلق الله فيهم من القدرة، وأنّه قد هداهم وبين لهم وبشّرههم وأنذرهم، فَمَنْ آمَنَ أثابه ومن عصاه عاقبه. ولو كانوا مجبورين على المعاصي مخلوقاً فيهم الكفر ولم يجعل فيهم القدرة على الإيمان لما كان للآية معنى.

قوله تعالى:

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا بِمُؤَيَّدٍ إِلَيْنِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥﴾ آية بلا خلاف. أقول: أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لعباده: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أغنيكم منها ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ الذي يختص بعلمه الله تعالى فاعرفكم مصالح دنياكم، وإنما أعلم قدر ما يعلمني الله من أمر البعث والجنة والنار وغير ذلك، ولا أدعي ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ لأنني إنسان تعرفون نسبي، لا أقدر على ما يقدر عليه الملك، وما ﴿أَتَيْتُ إِلَّا مَا﴾ يوحى الله به ﴿إِلَيَّ﴾.

وبين لهم أن الملك من عند الله، والوحي: هو البيان الذي ليس بإفصاح الإشارة والدلالة لأن كلام الملك كان له على هذا الوجه، وإنما أمره بأن يقول ذلك لئلا يدعوا فيه ما ادّعت النصارى في المسيح، ولئلا ينزلوه منزلة خلاف ما يستحقه.

ثم أمره بأن يقول لهم: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ أي: هل يستوي العارف بالله تعالى وبدينه العالم به مع الجاهل به وبدينه، فجعل «الْأَعْمَى» مثلاً للجاهل، و«الْبَصِير» مثلاً للعارف بالله ونبيه، هذا قول الحسن والجبائي.

وقال البلخي: معناه: هل يستوي من صدق على نفسه واعترف بحاله التي هو عليها من الحاجة والعبودية لخالقه، ومن ذهب عن البيان وعمي عن الحق ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنصّفوا من أنفسكم وتعملوا بالواجب عليكم من الإقرار بوحدانيته تعالى ونفي الشركاء والتشبيه عنه، وهذا وإن كان لفظه لفظ الاستفهام فالمراد به الإخبار أي: أنهما لا يستويان.

وقال مجاهد: ﴿الْأَعْمَى﴾ الضالّ ﴿وَالْبَصِيرُ﴾ المهتدي.
ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ تنبيهاً لهم على أنّ الفكر في ما يدعوهم إلى معرفته ويدلّهم عليه من آياته وأمثاله التي بيّنها في كتابه، للفرق بين الحقّ والباطل، والكافر والمؤمن.

وقال الحسن ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ يعني: حزائن الغيب الذي فيه العذاب لقولهم: إئتنا بعذاب الله ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ متى يأتيكم العذاب ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ من ملائكة الله، وإنما أنا بشر تعرفون نسبي، ولكنّي رسول الله يوحي إليّ، ولا ﴿اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ ولا أؤدّي إلا ما يأمرني بأدائه.

واستدلّ الجُبائي والبلخي وغيرهما بهذه الآية على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء، لأنّه قال: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فلو لا أنّ الملائكة أفضل وأعلى منزلةً ما جاز ذلك. وهذا ليس بشيء، لأنّ الفضل الذي هو كثرة الثواب لا معنى له هاهنا، وإنما المراد ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ فأشاهد من أمر الله وغيبه عن العباد ما يشاهده الملائكة المقربون المختصّون بملكوت [الملكوت، خ ل] السماوات وإن لم يكن في ذلك استحقاق ثواب زائد.

قوله تعالى:

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن ينذر بهذه الآيات أي: يخوف بها من هو مقرّ بالبعث والنشور من المؤمنين، ومن يقرّ بذلك من الكفار ويعتقد أنّه لا معونة عند الشركاء يومئذٍ، لأنّ الأمر هناك له تعالى وحده، وقد كان خلق من مشركي العرب يعتقدون ذلك، فأمر الله أن يخصّ هؤلاء بالإنذار،

لأنَّ الحجةَ لهم ألزم وإن كانت لازمةً للجميع.

وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعلمون ذلك، فهم خائفون منه، أي: عاملون بما يؤدِّبهم إلى السلام عنده.
وقال الفراء: يخافون الحشر إلى ربهم علماً بأنَّه سيكون، فلذلك فسّر المفسِّرون ﴿يَخَافُونَ﴾ بمعنى: يعلمون.

وقال الجُبَّائي: أمر الله أن يخوِّف بالعقاب مَنْ هو خائف، لأنَّه ﷻ لما أعلمهم أنَّ الله يعذبهم بكفرهم إذا حُشِرُوا كانوا يخافون الحشر، لكونهم شاكِّين فيما أخبرهم به النبي ﷺ من الحشر والعذاب، وكانوا يخافون ذلك لشكِّهم فيه وإن كانوا غير مؤمنين. والأوَّل قول البلخي والزجاج.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾ ومَنْ يدفع عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من عذابه وعقوباته ﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، يدفع بشفاعته عنهم ما يريد الله إنزاله بهم من ذلك على ما قالت النصارى: إنَّهم أبناء الله وأحبَّاءه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: لكي يتَّقُوا معاصيه. والهاء في قوله: ﴿يَه﴾ قال الزجاج: راجعة إلى القرآن. وقال الجُبَّائي: راجعة إلى العذاب. وقال البلخي: راجعة إلى الإنذار.

قوله تعالى:

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر بِالْغَدَاةِ هنا وفي الكهف^(١) بضم الغين وإسكان

الدال وإثبات واو بعدها، الباقون بفتح الغين والدال وإثبات ألفٍ بعد الدال. سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن مسعود وغيره: أَنَّ مَلَأً مِنْ قَرِيْشٍ^(١) وَقَالَ الْفَرَاءُ: مِنَ الْكُفَّارِ، مِنْهُمْ عُيَيْنَةُ بْنُ حَصِينٍ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ نَحَيْتَ هَؤُلَاءَ عَنْكَ لَأَتَاكَ أَشْرَافُ قَوْمِكَ وَأَسْلَمُوا، وَكَانَ ذَلِكَ خَدِيعَةً مِنْهُمْ لَهُ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَالِماً بِبَوَاطِنِهِمْ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ أَنْ ﴿لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يعني: أَنَّهُ نَهَاهُ عَنْ طَرْدِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ بِإِسْلَامِهِمْ وَدَعَائِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ.

قال الضحَّاك: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ يعني بذلك الصلاة المفروضة في هَؤُلَاءِ الْوَقْتَيْنِ. وقال إبراهيم: هم أهل الذِّكْرِ. وقال قوم: الدعاء هاهنا هو التَّحْمِيدُ والتَّسْبِيحُ.

وقوله: ﴿يَرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ شهادة للمُعْنَيْنِ بِالْآيَةِ بِالْإِخْلَاصِ، وَأَنَّهُمْ يَرِيدُونَ بَعَادَتَهُمْ اللَّهَ خَالِصاً.

وقال البلخي: قراءة ابن عامر غلط، لأنَّ العرب إذا أَدَخِلَتْ الْأَلْفَ وَاللَّامَ قَالَتْ: الْغَدَاةُ، يَقُولُونَ: رَأَيْتُكَ بِالْغَدَاةِ، وَلَا يَقُولُونَ: بِالْغُدُوَّةِ، فَإِذَا نَزَعُوا الْأَلْفَ وَاللَّامَ قَالُوا: رَأَيْتُكَ غُدُوَّةً، وَإِنَّمَا كُتِبَتْ بِالْوَاوِ فِي الْمَصْحَفِ كَمَا كَتَبُوا «الصلوة» و «الزكوة» و «الحيوة» كذلك.

قال أبو عليِّ الفارسي: الوجه «الغداة» لأنها تستعمل نكرة وتتعرف باللام، فأما «غُدُوَّة» فمعرفة أبداً، وهو عَلِمَ صِيغَ لَهُ. قال سيبويه: «غُدُوَّة» و «بُكَرَّة» جُعِلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا اسماً لِلْجِنْسِ^(٢) كَمَا جَعَلُوا «أُمَّ حُبَيْن»

(١) في مخطوطة: أو من الكفار منهم عيينة بن حصين الفزاري دخلوا على النبي وعنده بلال وسلمان وذهيب وعمار، فقال عيينة: يا رسول الله ...

(٢) في المصدر: للحين .

اسماً لدابةٍ معروفةٍ^(١) كذلك هذا^(٢).

ووجه قراءة ابن عامر: أن سيويوه قال: زعم الخليل أنه يجوز أن تقول: أتيئك اليوم غُدُوَّةً وبُكْرَةً، فجعلها بمنزلة «ضَحْوَةٍ»^(٣).
وقوله: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ﴾ نصب الدال لأنه جواب التَّفِي في قوله: ﴿ما عليك من حسابهم﴾ ونصب ﴿فَتَكُونُ﴾ لأنه جواب لقوله: ﴿ولا تَطْرُدِ الَّذِينَ ... فتكون من الظالمين﴾.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء﴾ قال قوم: يعني: من حساب رزقهم في الدنيا، ليس رزقهم في يدك، ولا رزقك في أيديهم، بل الله رازق الجميع. وقال الجُبَّائي - وهو الأظهر - : ما عليك من أعمالهم، ولا عليهم من أعمالك، بل كل واحدٍ يواخذ بعمله، ويُجازى على فعله، لا على فعل غيره.
وقوله: ﴿فَتَطْرُدْهُمْ فتكون من الظالمين﴾ إخبار منه تعالى أنه لو طرد هؤلاء تقريباً إلى الكُبراء منهم كان بذلك ظالماً، والنبِيُّ ﷺ وإن لم يُقدِّم على القبيح جاز أن يُنهى عنه، لأنه قادر عليه ولمكان النهي والزجر يمتنع منه، كما قال تعالى: ﴿لئن أشركت ليحبطنَّ عملك﴾^(٤) وإن كان الشرك مأموناً منه.

قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى الآية: أنه تعالى أخبر أنه يمتحن^(٥) الفقراء بالأغنياء، والأغنياء بالفقراء، فيختبر صبر الفقراء على ما يرون من حال الأغنياء

(٢) الكتاب: ج ٣ ص ٢٩٣.

(٥) في نسخة: «ابتلى».

(٤) الزمر: ٦٥.

(١) في المصدر: «لدابةٍ معرفة».

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩٤.

وإعراضهم عنهم إلى طاعة الرُّسل، ويختبر شكر الأغنياء وإقرارهم لمن يسبقهم من الفقراء والموالي والعبيد إلى الإيمان بالرياسة في الدين والتقدم فيه. وقوله: ﴿لَيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فليس المراد باللام لام الغرض، لأنَّ الله لو قصد ذلك لكان قد قصد بما فعل أن يقولوا بهذا القول فيكفروا به ويعصوا، ويتعالى الله عن ذلك فكيف يقصده؟! وقد عبَّاه ولا عبَّاهم به، لكن اللام لام العاقبة، والمعنى: أني فعلت ذلك بهم ليصبروا ويشكروا، فكان عاقبة أمرهم أن قالوا: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ ومثله قوله: ﴿فَالْتَقِطْ آلَ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾^(١) وقال الشاعر:

فَأَمَّ سِمَاكَ فَلَا تَجْزَعِي فَلِلشَّكْلِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ^(٢)

والذي قال: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو عُيَيْنَةُ بن حصين وأصحابه، وقال الرَّجَّاج: أي: ليقول الكُبراء: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: ليكون ذلك آيةً بَيِّنَةً أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا الرِّسُولَ وصبروا على الشدة في حال شديدة.

وقال أبو عليّ الجُبَّائي: معنى قوله: ﴿فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي: شدّدنا التكليف على أشرف العرب وكُبرائهم بأن أمرناهم بالإيمان برسول الله، وبتقديم هؤلاء الضعفاء على نفوسهم لتقدّمهم إياهم في الإيمان، وكونهم أفضل عند الله، وهذا أمر كان شاقًّا عليهم، فلذلك سمّاه الله فتنة.

وقوله: ﴿لَيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: فعلنا هذا بهم ليقول بعضهم لبعض على وجه الاستفهام منه لا على وجه الإنكار:

(١) القصص: ٨.

(٢) لِسِمَاكَ بن عمرو الباهلي من أبيات قالها لَمَّا خُيِّرَ بين أن يُقتل هو أو أخوه مالك. راجع خزنة الأدب: ج ٩ ص ٥٣٤ وفيه:

﴿أَهْؤَلَاءَ مَنْ أَلَّهَ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ يعني: بالإيمان، إذ رَأَوْا النَّبِيَّ ﷺ يَقْدَمُ هَؤُلَاءَ عَلَيْهِمْ وَيَفْضَلُهُمْ، وليرضوا بذلك من فعل رسول الله، ولم يجعل هذه الفتنة والشدة في التكليف ليقولوا ذلك على وجه الإنكار، لأنَّ إنكارهم لذلك كُفْرٌ بالله ومعصيته له، والله تعالى لا يريد ذلك ولا يرضاه، لأنَّه لو أراد ذلك منهم وفعلوه كانوا مطيعين له لا عاصين، وقد ثَبَّتْ خلافه.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ معناه: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ لَهُ وَلِنِعْمِهِ مِنْ خَلْقِهِ فَيَجَازِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَسْتَحِقُّونَهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالتَّعْظِيمِ وَالْإِجْلَالِ. وَالشَّاكِرُونَ الْمَعْنِيُّونَ بِالْآيَةِ هُم هَؤُلَاءِ الضَّعَفَاءُ، وَيَدْخُلُ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ سَائِرُ الْمُؤْمِنِينَ.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه الذي ذكرتموه قد وجد من الكفار القول على ما أراده فيجب أن يكونوا مطيعين!

قلنا: ليس في الآية ذلك وأَنَّهُمْ عَلَى أَيِّ وَجْهِ قَالُوهُ: عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ أَوْ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِفْهَامِ، وَإِنَّمَا بَيَّنَّ أَنَّهُ فَعَلَ بِهِمْ لِيَقُولُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الِاسْتِفْهَامِ لَا عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ، فَإِنْ كَانُوا قَالُوهُ عَلَى مَا أَرَادَهُ اللَّهُ فَهُمْ مَطِيعُونَ، وَإِنْ قَالُوهُ مُنْكَرِينَ فَهُمْ عُصَاةٌ، فَلَمَّا عَلِمْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ بِهَذَا الْقَوْلِ عَلِمْنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوهُ عَلَى وَجْهِ الْمَرَادِ مِنْهُمْ، إِنَّمَا قَالُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا أُرِيدَ مِنْهُمْ.

قوله تعالى:

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمْتُ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾ آية .

أقول: قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ ... فَأَنَّهُ غَفُورٌ

رحيم ﴿ بفتح الهمزة فيهما، وافقهم أهل المدينة في الأولى منهما، الباقون بالكسر فيهما.

قال أبو عليّ الفارسي: مَنْ كسر ﴿أَنَّهُ﴾ الأولى جعلها تفسيراً ﴿للرحمة﴾ كما أَنَّ قوله: ﴿لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ ^(١) تفسيرٌ للوَعْد، وأما كسر «إِنَّ» في قوله: ﴿فَإِنَّهُ غفور رحيم﴾ فلأنَّ ما بعد الفاء حكمه الابتداء، ومن ثَمَّ حمل قوله: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِنْهُ﴾ ^(٢) على إرادة المبتدأ بعد الفاء وحذفه.

وَمَنْ فتح «أَنَّ» في قوله: ﴿أَنَّهُ﴾ ﴿فَإِنَّهُ﴾ جَعَلَ «أَنَّ» الأولى بدلاً من ﴿الرحمة﴾ كأنَّه قال: كَتَبَ رَبِّكُمْ على نفسه الرحمة: أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ. وأما فتحها بعد الفاء ﴿فَإِنَّهُ غفور رحيم﴾ فعلى أَنَّهُ أضمر له خبراً تقديره: فله أَنَّهُ غفور رحيم، أي: فله عُفْرَانُهُ، أو أضمر مبتدأً تكون «أَنَّ» خبره، كأنَّه قال: فَأَمْرُهُ أَنَّهُ غفور رحيم.

وأما قراءة نافع كتب ﴿أَنَّهُ﴾ ﴿فَإِنَّهُ﴾ [بفتح الأولى وكسر الثانية] فالقول فيهما ﴿أَنَّهُ﴾ أبدل من ﴿الرحمة﴾ واستأنف ما بعد الفاء. قال سيبويه: بَلَّغْنَا أَنَّ الْأَعْرَجَ قرأ: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ ... فَإِنَّهُ غفور رحيم﴾ ونظيره قول ابن مُقْبِلٍ:

وَأَتَيْ إِذَا مَلَّتْ رِكَابِي مُنَاخَهَا فَإِنِّي على حَظِّي من الْأَمْرِ جَامِعٌ ^(٣) يريد: أَنَّ قوله: «وَأَتَيْ إِذَا مَلَّتْ رِكَابِي» محمول على ما قبله، كما أَنَّ قوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ﴾ محمول على ما قبله، وقوله: «فَإِنِّي على حَظِّي» مستأنف مثل قوله: ﴿فَإِنَّهُ غفور رحيم﴾ مستأنف به، منقطع عما قبله.

قال الفراء - واختاره الزجاج - : ويجوز أن يحمل ﴿فَأَنَّهُ﴾ على التكرار، قال: لأنَّ «الكتاب» يحتاج إلى «أَنَّ» مرّة واحدة، ولكنّ الخبر هو موضعها، فلمّا دخلت في ابتداء الكلام أُعيدت إلى موضعها، كما قال: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ﴾^(١) فلمّا كان موضع «أَنَّ»: ﴿أَيَعِدْكُمْ أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ إِذَا مِتُّمْ﴾ دخلت في أوّل الكلام وآخره، ومثله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ بالفتح^(٢) ومثله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ﴾^(٣) قال: لك أن تكسر «أَنَّ» بعد الفاء في هذه الأحرف.

قال أبو عليّ: هذا غير صحيح، لأنَّ «مَنْ» لا يخلو من أن تكون للجزاء الجازم الذي في اللفظ عليه [علته] أو تكون موصولة، ولا يجوز أن يقدر التكرار مع الموصولة لو كانت موصولة لبقاء المبتدأ بلا خبر، ولا يجوز ذلك في الجزاء الجازم، لأنّ الشرط يبقّى بلا جزاء على ثبات الفاء العاطفة ولا آتية للجزاء فإن قيل: هي زائدة، بقي الشرط بلا جزاء، فإذا بطل الأمران ثبّت ما قدّمناه.

وأما من كسرهما فعلى مذهب الحكاية، كأنّه لما قال: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بالكسر، ودخلت الفاء جواباً للجزاء.

هذه الآية متّصلة بالأوّل، نهى الله تعالى النبيّ ﷺ في الأوّل عن أن يطردهم، ثمّ أمره في هذه أن يقول لمن ورد عليه منهم - أعني: المؤمنين المصدقين بآيات الله وحججه وبراهينه، عربياً كان أو عجمياً، ضعيفاً كان

أو قوياً - : ﴿سلام عليكم﴾ فيبدأهم بالتحية، ويبشّرهم بالرحمة، ويقوّي قلوبهم، ويعرفهم أنّ مَنْ أذنب منهم ثمّ تاب فتوبته مقبولة، كلّ ذلك خلافاً على الكافرين فيما أرادوه عليه من طردهم والغلظة عليهم.

وقال محمّد بن يزيد ^(١): «السلام» في اللغة أربعة أشياء: أحدها: «سَلَّمْتُ سلاماً» مصدر، وثانيها: «السَّلَام» جَمْعُ سَلَامَةٍ، وثالثها: «السَّلَام» من أسماء الله، ورابعها: «السَّلَام» شجر. ومعنى «السَّلَام» الذي هو مصدر «سَلَّمْتُ: دعاء للإنسان أن يَسَلِّمَ في دينه ونفسه، ومعناه: التخليص، و«السَّلَام» الذي هو اسم الله معناه: ذو السَّلَام، أي: الذي يملك السلام الذي هو تخليص من المكروه، و«السَّلَام» الذي هو الشجر، فهو شجر عظيم سمّي بذلك لسلامته من الآفات و«السلام»: حجارة صلبة لسلامتها من الرخاوة، ويُسمّى الصُّلْح: السَّلَام والسِّلْم والسَّلَم بهذا لأنّ معناه: السلامة من الشين [الشرّ، ظ]، و«السلام»: ركولها عُروّة واحدة نحو ذلّو السقّائين، والسلام: السبب إلى الشيء، والسِّلْم: الذي يُزْتَقى عليه أنّه من عمل منكم سوء، لأنّه ^(٢) لو أتى المسلم ما يجهل أنّه سوء لكان كَمَن لم يتعمّد سوءاً ولم يوقع سوءاً. وتحتمل الآية أمرين:

أحدهما: أنّه عَمِلَهُ وهو جاهل بالمكروه فيه، أي: لم يعرف أنّ فيه مكروهاً، والآخر: أنّه أقْدَم مع علمه أنّ عاقبته مكروهة فآثر العاجل، فَجُعِلَ جاهلاً بأنّه آثر القليل على الراحة الكثيرة والعاقبة الدائمة.

ويحتمل عندي: أن يكون أراد ﴿مَنْ عَمِلَ منكم سوءاً بجهالة﴾ بمعنى أنّه لا يعرفها سوءاً، لكن لما كان له طريق إلى معرفة [فته، ظ] وَجَبَ

(١) المعروف بالمبرّد، النحويّ البصري المشهور.

(٢) راجع الكامل: ج ٣ ص ١١٤٦، ومعاني الزّجاج: ج ٢ ص ٣٥٢ و ٣٥٣.

عليه التوبة منه، فإذا تاب قَبِلَ الله توبته.

فإن قيل: قوله: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ هل فعل الصلاح شَرَطٌ في قبول التوبة أو لا؟ فإن لم يكن شرطاً فَلِمَ عُلِقَ العُقْرَانُ بمجموعهما؟
 قيل: لا خلاف أن التوبة متى حصلت على شرائطها - التي قَدَمْنَا ذكرها في غير موضع - فَإِنَّهُ يَقْبَلُ التوبة ويسقط العقاب، وإن لم يعمل بعدها عملاً صالحاً غير أنه إذا تاب وبقي بعد التوبة، فإن لم يعمل العمل الصالح عاد إلى الإصرار، لأنه لا يخلو في كل حال: من واجب عليه أو نَدْبٍ، من تحديد [تجديد، ظ] معرفة الله ومعرفة نبيه وغير ذلك من المعارف وكثير من أفعال الجوارح، فأما إن قَدَرْنَا اختراعه عقيب التوبة من غير فعل صلاح فإن الرحمة بإسقاط العقاب تلحقه بلا خلاف.
 قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتُنْذِرَ السَّيِّئِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة إِلَّا حَفْصاً: ﴿ولستبين﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وقرأ أهل المدينة ﴿سبيل﴾ بالنصب، الباقون بالرفع.
 مَنْ قرأ بالتاء ورفع الـ ﴿سبيل﴾ فلأن «السبيل» يُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فالتذكير لغة تميم، والتأنيث لغة أهل الحجاز فَأَنَّثَ هاهنا، كما قال: ﴿قل هذه سبيلي﴾^(١) ومن قرأ بالياء فإنه ذَكَرَ «السبيل» لأنه «الطريق» وهو يُذَكَّرُ، كما قال: ﴿وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً﴾^(٢) فَذَكَرَ.

وَمَنْ قرأ بالتاء ونصب الـ ﴿سبيل﴾ أراد أن يكون خطاباً للنبي ﷺ، كأنه قال: ولستبين أنت يا محمد سبيل المجرمين، والنبي ﷺ وإن كان

مستبيناً لطريق المجرمين عالماً به فيجوز أن يكون ذلك على وجه التأكيد، ولأن يستديم ذلك. ويحتمل أن يكون المراد به الأمة، فكأنه قال: ليزدادوا استبانةً.

ولم يحتج أن يقول: «ولتستبين سبيل المؤمنين» لأن سبيل المجرمين إذا بانث فقد بان معها سبيل المؤمنين، لأنها خلافها. ويجوز أن يكون المراد: ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيل المؤمنين، وحذف إحدى الجملتين لدلالة الكلام عليه، كما قال: ﴿سراييل تقيكم الحرّ﴾^(١) ولم يقل: تقيكم البرد، لأن الساتر يستر من الحرّ والبرد، لكن جرى ذكر «الحرّ» لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناةً له من البرد، وكذلك «سبيل المجرمين» خص بالذكر لأن الكلام في وصفهم، وترك ذكر «المؤمنين» لدلالة الكلام عليه.

وهذه الآية معطوفة على الآيات التي احتج الله بها على مشركي العرب وغيرهم، فلذلك قال: ﴿وكذلك﴾ أي: كما قدمنا ﴿نفصل الآيات﴾ أي: نُميّزها ونُبَيِّنُها ونُشَرِّحها لتلزمهم الحجّة، و «لتستبين سبيل» من عائد بعد البيان، أو ذهب عن فهم ذلك بالإعراض عنه لمن أراد التفهّم منهم ومن المؤمنين ليجانبوها ويسلكوا غيرها.

قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: زوي^(٢) عن يحيى بن وثّاب أنه قرأ: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بكسر اللام، والقراء

كلّهم على فتحها، وهما الفتان. فَمَنْ كسر اللام فتح الضاد من «يَضَلَّ» ومن فتح اللام كسر الضاد يقال: «يَضَلَّ». وقال أبو عُبَيْدَةَ: اللغة الغالبة بالفتح^(١).
وَرَوَى أبو العالية: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قرأ هذه الآية عند الكعبة وأظهر لهم المفارقة.

وهذه الآية فيها خطاب للنبي ﷺ وأمر له بأن يقول للكافرين: إِنَّ اللَّهَ قد نهاني ﴿أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه الأوثان التي تعبدونها ﴿من دون الله﴾ وتدعونها آلهة، وأنها تقرّبكم إلى الله زُلْفَى، وأن يقول لهم: إِنِّي ﴿لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ في عبادة الأوثان، وإني لو فَعَلْتُ ذلك لَكُنْتُ ﴿قد ضَلَلْتُ﴾ عن الصواب، وبعدت عن الرشد ولم أكن ﴿من المهتدين﴾ إلى الخير والصلاح، ومعناه معنَى الشرط، وتقديره: قد ضَلَلْتُ إِنْ عَبَدْتُهَا. وقال الزجاج: ﴿وما أنا من المهتدين﴾: وما أنا من النبيين الَّذِينَ سَلَكَوا طريق الهدى.
قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ ۖ مَا عِندِيَ مَأْتَسَفٌ لَّوْنَ بِهِ ۚ إِنِّي أَلْحُكُمُ إِلَّا لِلَّهِ يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الحجاز وعاصم: ﴿يُقْضَىٰ الْحَقُّ﴾ وهو خيرٌ من «الْقَصَص» وهو المروي عن ابن عباس ومجاهد، الباقون بالضاد المعجمة من فوقها من «القضاء». وكان أبو عمرو يقوِّي القراءة بالضاد بقوله: ﴿وهو خير الفاصِلِينَ﴾ ويقول: الْفَصْلُ في الْقَضَاءِ لا في الْقَصَصِ، قوِّوا ذلك بقوله: ﴿والله يقضي الحق وهو يهدي السبيل﴾^(٢).

(١) مجاز القرآن: ج ١ ص ١٩٣.

(٢) كذا، والآية في الأحزاب: ٤ هكذا: ﴿والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ وفي غافر: ٢٠ هكذا: ﴿والله يقضي بالحق والَّذِينَ يدعون من دونه...﴾.

وحجة من قرأ بالصاد قوله: ﴿نَقَصَّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(١) وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ﴾^(٢). وأما الفضل الذي قرأ به^(٣) أبو عمرو قراءته فقد جاء الفضل في القول كما جاء في الحكم والقضاء في نحو قوله: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ﴾^(٤) وقال: ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْتَ﴾^(٥) وقال: ﴿نُفَضِّلُ الْآيَاتِ﴾^(٦) وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٧) فذكر في القصص أنه تفصيل.

و ﴿الحق﴾ في قوله: ﴿يَقْصُصُ الْحَقُّ﴾^(٨) يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون صفة لمصدر محذوف، وتقديره: يقضي القضاء الحق، أو: يقص القصص الحق. والثاني: أن يكون مفعولاً به مثل يعجل الحق^(٩) كقول الهذلي: وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع^(١٠) أي: صنعهما داود. وفي هذه الآية أمر من الله لنبيه أن يقول للكفار: إنه على بينة من ربه، أي: على أمر بين من معرفة الله وصحة نبوته، لا متبع للهوى.

وقوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ الهاء راجعة إلى «البيان» لأن البينة والبيان واحد، وتقديره: وكذبتم بالبيان الذي هو القرآن. وقال قوم: «بينة من

(١) يوسف: ٤. (٢) آل عمران: ٦٢. (٣) كذا في الحجرية، والظاهر: قوى به. (٤) الطارق: ١٣. (٥) هود: ١. (٦) تقدم هنا الآية: ٥٥، والأعراف: ٣٢ و١٧٤ وغيرها. (٧) يوسف: ١١١. (٨) في الحجرية: «يقضي الحق».

(٩) كذا، وفي مجمع البيان: مثل: يفعل الحق. (١٠) لأبي ذؤيب الهذلي. تقدم ذكره في ج ٢ ص ٤٩٦.

رَبِّي ﴿من نبؤتي﴾ وكذبتكم به﴾ يعني: بالله. وعلى الأول يكون تقديره: كذبتكم بما أتيتكم، لأنّه هو البيان.

وقوله: ﴿ما عندي ما تستعجلون به﴾: «ما» بمعنى «ليس». و «الذي استعجلوا به» يحتمل أمرين:

أحدهما: العذاب، كما قال: ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾^(١). والثاني: أن يكون استعجلوا الآيات التي اقترحوها عليه، فأعلمهم الله أن ذلك من عند الله، وأن الحكم له تعالى.

﴿يَقْضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾^(٢) وكُتِبَتْ «يقضي» بغير ياء لأنها سقطت في اللفظ لالتقاء الساكنين، كما كتبوا ﴿سَدَّ الزَّبَانِيَةَ﴾^(٣) بغير واو. ومن قرأ بالصاد من «القَصَص» حملة على أن جميع ما أنبأ به وأمر به فهو من أقاصيص الحق.

وقال الحسن: «البيّنة» النبوة، و ﴿كذبتكم به﴾ بالنبوة التي جاءت من عند الله، و ﴿ما تستعجلون به﴾ من العذاب^(٤) [جواب لقولهم: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ بِعَذَابِ اللَّهِ﴾^(٥)] ^(٦). وفي قراءة ابن مسعود «يقصّ بالحق» ولم يقرأ به أحد. وقوله: ﴿يقضي بالحق﴾ يدلّ على بطلان قول من يقول: إن الظلم والجور بقضاء الله، لأنّ ذلك كلّه ليس بحق.

قوله تعالى:

قُلْ لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ، لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ آية .

(١) الحج: ٤٧، والعنكبوت: ٥٣. (٢) يظهر أن المصنّف رحمه الله يميل إلى القراءة بالصاد.

(٣) العلق: ١٨. (٤) في الحجريّة: ما تستعجلونك بالعذاب .

(٥) العنكبوت: ٢٩. (٦) لم يرد في الحجريّة .

أقول: أمر الله تعالى نبيه أن يقول للكفار: لو كان ﴿عندي ما تستعجلون به﴾ من كون العذاب وإنزاله بكم برأيي وإرادتي لفعلت ذلك بكم، ولأنزلته عليكم، و﴿لَقَضِي الأمر بيني وبينكم﴾ بذلك وانفصل وانقطع، ولكن ليس ذلك إليّ، وإنما هو إلى الله ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ ومن ^(١) ينبغي إمهاله منهم ومن يجب معاجلته بالعقوبة، فهو يدبر ذلك بحسب ما يعلم من وجه الحكم والصواب.

قوله تعالى:

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾ آية بلا خلاف، وهي تمام السبع المثاني.

أقول: ﴿مفاتيح الغيب﴾ معناه: الأمور التي بها يستدل على الغائب فيعلم حقيقته، يقال: فُتِّحَتْ على الرجل، أي: عرفته أولاً، ويستدل به على آخر، وجملة يعرف بها التفصيل، ومنه: قولهم: افْتَحَ عليّ، أي: عَرَفَنِي، قال الزَّجَّاج: معناه: وعنده الوصلة إلى علم الغيب، وكلّ ما لا يُعْلَمُ إذا اسْتُعْلِمَ. وروى عن ابن عمر: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: إِنَّ اللَّهَ عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت ^(٢).

ومعنى الآية: أَنَّ اللَّهَ تعالى عالم بكلّ شيء من مبتدئات الأمور وعواقبها، فهو يعجل ما تعجّله أصلح وأصوب، ويؤخر ما تأخيره أصلح

(١) كذا في الحجرية، والظاهر: وبمن.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ٧١ و٩٩، وأحمد في المسند: ج ٢ ص ٢٤ و٥٢.

وأصوب، وأنه الذي يفتح باب العلم لمن يريد إعلامه شيئاً من ذلك من أنبيائه وعباده، لأنه لا يعلم الغيب سواه، فلا يتهيأ لأحد أن يعلم العباد ذلك، ولا أن يفتح لهم باب العلم به إلا الله، ويبين أنه ﴿يعلم ما في البر والبحر﴾ من الحيوان والجماد، ويبين أنه ﴿ما تسقط من ورقة﴾ من شجرة ﴿إلا يعلمها ولا حبة﴾ في جوف الأرض وفي ظلماتها إلا يعلمها ﴿ولا رطب ولا يابس﴾ جميع أصناف الأجسام، لأنها أجمع لا تخلو من إحدى هاتين الصفتين.

وقوله: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، كما تقول: ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، معناه: إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه.

﴿ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس﴾ جرّ على تقدير «من» ويجوز الرفع فيها على معنى: ولا تسقط ورقة ولا حبة، ويجوز أن يرفعه على الابتداء، ويقطعه عن الأول ويكون خبره: ﴿إلا في كتاب مبين﴾. وقوله: ﴿في كتاب مبين﴾ يحتمل أمرين أحدهما أن يكون معناه في علم الله مبين. وثانيهما: أن يكون ﴿في كتاب مبين﴾: أن يكون الله تعالى أثبت ذلك في كتاب قبل أن يخلقه^(١) كما قال: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها﴾^(٢) ويكون الغرض بذلك إعلام الملائكة أنه علام الغيوب، ليدلّ على أنه عالم بالأشياء قبل كونها، ويجوز أن يكون المراد بذلك: أنه كتب جميع ما يكون ثم امتحن الملائكة بكتبه وتعبدهم بإحصائه، كما تعبد سائر خلقه

(١) في الحجرية: «يُخلَق».

(٢) الحديد: ٢٢.

بما يشاء ممّا فيه صلاحهم.

وقال البلخي: «في كتاب مُبين» أي: هو محفوظ غير مَنسِيٍّ ولا مغفول، كما يقول القائل لصاحبه: ما تصنعه عندي مُسَطَّر مكتوب، وإنّما يريد بذلك أنّه حافظ له يريد مكافأته عليه، قال الشاعر:

إِنْ لَسَلِمَى عِنْدَنَا دِيوانا^(١)

ويجوز أن يكون المراد بذِكر «الورقة» و«الحبّة» و «الرطب» و«اليابس» التوكيد في الزجر عن المعاصي، والحثّ على البرّ، والتخويف لخلقه بأنّه إذا كانت هذه الأشياء التي لا ثواب فيها ولا عقاب عليها مُحصّاةً عنده محفوظةً مكتوبةً فأعمالكم التي فيها الثواب والعقاب أولى، وهو قول الحسن.

وقال مجاهد: «البرّ» الفقار «والبحر» كلّ قرية فيها ماء. وعن أبي عبد الله عليه السلام: الورقة: السِقْط، والحبّة: الولد، وظلمات الأرض: الأرحام، والرطب: ما يبقى ويحيى واليابس: ما تغيض^(٢). قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ آية بلا خلاف. أقول: قوله: «وهو» كناية عن الله تعالى، و«الذي» صفة له. «يتوفاكم بالليل» قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال الجُبَّائي: يقبضكم. وقال الزجاج: يُنيمكم بالليل

(١) وعجزه: يُخزّي فلاناً وابنه فلاناً. من أبيات لرجلٍ من بني ضَبّة. راجع النوارد في اللغة: ص ١٥ وفيه: «لُسَعْدَى».

(٢) رواه العياشي في تفسيره: ج ١ ص ٣٦١ عن أبي الربيع الشامي.

فيقبضكم الله إليه، كما قال: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾^(١).
وقال^(٢) البلخي - واختاره الحسين بن عليّ المغربي - : ﴿يتوفاكم﴾
بمعنى: يُحصيكم عند منامكم واستقراركم، قال الشاعر:
إِنَّ بَنِي الْأُذْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدٍ لَيْسُوا إِلَى قَيْسٍ وَلَيْسُوا مِنْ أَسَدٍ
وَلَا تَوَفَّاهُمْ قَرِيشٌ فِي الْعَدَدِ^(٣)

معناه: لا يحصيهم في العدّد وقوله: ﴿ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ أي:
كسبتم، تقول: فلان جارحة أهله، أي: كاسبهم، ومنه قوله: ﴿وما علّمت
من الجوارح مكلّبين﴾^(٤) أي: من الكواصب التي تكسب على أهلها، وهو
قول مجاهد.

وقوله: ﴿ثمّ يبعثكم فيه﴾ أي: في النهار، فجعل انتباههم من النوم بعثاً
﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ ليستوفى الأجل المسمّى للحياة إلى حين الموت.
﴿ثمّ إليه مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني: يوم القيامة، فيحشرهم الله إلى حيث لا يملك فيه
الأمر سواه ﴿ثمّ يَنْبِئُكُمْ﴾ يعني: يخبركم ويُعلمكم ﴿بما كنتم تعملون﴾ في
الدنيا فيجازيكم على أعمالكم. وفيها دلالة على خزيمهم وحاجتهم، واحتجاج
عليهم أنّه لا يستحقّ العبادة سواه، إذ هو الفاعل لجميع ما يستحقّ به
العبادة ممّا عدّده، والقادر عليه دون من يعبدونه من الأوثان والأصنام.
قوله تعالى:

وَهُوَ أَقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ
تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿١١﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ
وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿١٢﴾ آيتان عند الجميع.

(١) الزُمَر: ٤٢.

(٢) وهذا هو القول الثاني.

(٣) لَمْ تَطُورِ الزُّبَيْرِي. أنشده أبو عبيدة في المجاز: ج ٢ ص ١٣٢.

(٤) المائدة: ٤.

أقول: كلَّهم قرأ: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ بالتاء إلَّا حمزة فَإِنَّه قرأ: ﴿تَوَفَّاه﴾.
حجّة مَنْ قرأ بالتاء قوله: ﴿كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾^(١) وقوله: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢) و ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾^(٣) و ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾^(٤).

وحجّة حمزة أَنّه فعل متقدّم مُسْنَدٌ إِلَى مؤنَّث غير حقيقي، وإِنّما التأنيث للجمع، فهو مثل قوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ﴾^(٥) وما أشبه ذلك ممّا يَأْتِيهِ تَأْنِيثُ الجمع، قال: وليس ذلك خلافاً للمصحف، لأنّ الألف الممالّة تُكْتَبُ ياءً.

قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ معناه: والله المقتدر المستعلي على عباده الَّذِينَ هو فوقهم، لا على أَنّه في مكانٍ مرتفعٍ فوقهم وفوق مكانهم، لأنّ ذلك لا يجوز عليه، لأنّه صفة للأجسام، ومثله في اللغة: أمرُ فلانٍ فوق أمرِ فلان، يُراد به: أَنّه أعلى أَمراً وأنفذ قولاً، ومثله: قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٦) والمراد: أَنّه أقوى وأقدر منهم، وأنّه القاهر لهم.

وقوله: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ يعني: يُرْسِلُ عليكم ملائكةً يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ويكتبونها، ليعلموا بذلك أنّ عليهم رقيباً من عند الله ومحصياً عليهم فينجزوا عن المعاصي، ويبيّن أنّ هؤلاء الحَفَظَةَ هم شهداء عليكم بهذه الأعمال يوم القيامة.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ يعني: وقت الموت ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ يعني: قبضت الملائكة روح المتوفّى، وهم رُسُلُ الله الَّذِينَ عَنَاهُمْ الله بهذه الآية، وقال الحسن: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ قال: هو مَلَكُ الموت

(١) الأنعام: ٣٤، فاطر: ٤٠. (٢) فصلت: ١٤. (٣) الأعراف: ١٠١، ويونس: ١٣ وغيرهما.

(٦) الفتح: ١٠.

(٥) يوسف: ٣٠.

(٤) إبراهيم: ١٠.

وأعوانه، وأنهم لا يعلمون آجال العباد حتى يأتيهم علم ذلك من قبْلِ الله يقبض [يقبض ظ] أرواح العباد.

وقوله: ﴿توفّته رسلنا﴾ أي: تقبضه، والتوفّي: هو القبض على ما بيّناه. ثم إنّ هؤلاء الرُّسل ﴿لا يفرطون﴾ أي: لا يقصّرون - في قول الزّجاج - ولا يغفلون ولا يتوانون، وقال الجُبائي: لا يأخذون روحه قبل أجله، [ويبادرون، ظ] إلى ما أمروا به من غير تقصير ولا تفريط. والمعنى في التوفّي أن يعلم العباد أنهم يُخصّصون إذا ماتوا، فلا يَرَوْن أنهم يُهمَلون إذا ماتوا، وأنّ أحداً منهم لا يثبت ذكره ليجزى بعمله.

ثم بيّن أنّ هؤلاء الذين تتوفّاهم رُسُلنا يُردّون بعد الوفاة إلى الله، فيردّهم إلى الموضع الذي لا يملك الحكم عليهم فيه إلّا الله، ولا يملك نفعهم ولا ضرّهم سواء، فجعل ردّهم إلى ذلك الموضع ردّاً إلى الله، وبيّن أنّه هو ﴿مولاهم الحقّ﴾ لأنّه خالقهم ومالكهم، والظاهر عليهم القادر على نفعهم وضرّهم، ولا يجوز أن يوصف بهذه الصفة سواء، فلذلك كان مولاهم الحقّ. وقال البلخي: ﴿الحقّ﴾ اسم من أسماء الله، وهو خفض لأنّه نعت لـ ﴿الله﴾ ويجوز الرفع على معنى: الله مولاهم الحقّ، ويجوز أن يُنصب على معنى: [يعني، ظ] مولاهم، والقراءة بالخفض.

وقوله: ﴿ألّا له الحكم﴾ معناه: ألّا يعلمون، أو: لا يقرّون أنّ الحكم يوم القيامة هو له وحده، ولا يملك الحكم في ذلك اليوم سواء، كما قد يملك الحكم في الدنيا غيره بتمليك الله إيّاه؟!

وقوله: ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ روي: أنّه تعالى يحاسب عباده على مقدار حلب شاة، وذلك يدلّ على أنّه لا يحتاج أن يكلفهم مشقّة وآلّة على ما يقوله المُشَبِّهة، لأنّه لو كان كذلك لاحتاج أن يتناول زمان

محاسبته، أو أنه يشغله محاسبته عن محاسبة غيره.

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قيل له: كيف يحاسب الله الخلق وهم لا يرونه؟ قال: كما يرزقهم وهم لا يرونه ^(١).

والمعنى في الآية: أنه تعالى أخصى الحاسبين لما أخصى الملائكة وتوفوا من الأنفس، [لا يخفى، ظ] عليه من ذلك خافية، ولا يحتاج في عده إلى فكرٍ ونظر.

قوله تعالى :

قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتٍ الَّتِي وَلَّيْتُمْ وَأَلَيْسَ لَهُ تَدْعُوهُ تَضُرُّعًا وَخُفْيَةً لَكُمْ أَنْجَسْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٤﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ يعقوب: ﴿قل من يُنجيكم﴾ مخففاً، الباقون بالتشديد. وقرأ أبو بكر: ﴿وخفية﴾ بكسر الخاء هاهنا وفي الأعراف ^(٢). وقرأ أهل الكوفة إلا ابن شاهي: ﴿أنجانا﴾ على لفظ الإخبار عن الواحد الغائب، وأماله حمزة والكسائي وخلف ^(٣) الباقون: ﴿أنجيتنا﴾ على وجه الخطاب. وقرأ أهل الكوفة إلا العبسي وهشام وأبو جعفر: ﴿قل الله يُنجيكم﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف. يُقال: نجا زيدٌ ينجو، قال الشاعر:

نجا سالمٌ والنفسُ منه لِشِدْقِهِ ^(٤)

فإذا نقلت الفعل حسن أن تنقله بالهمزة فتقول: أنجيتته، ويجوز أن

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم، رقم (٣٠٠).

(٢) في الحجريّة بدل «خلف»: خفّفه .

(٣) وعجزه: ولم ينج إلا جفن سيفٍ ومثّرا. أنشده في اللسان: مادّة «نجا» ونسبه إلى الهذلي

وفيه: «عامر» بدل: سالم.

تنقله بتضعيف العين فتقول: نَجَّيْتَهُ، ومثله: فَرَّخْتَهُ وَأَفَرَّخْتَهُ، وَعَرَّضْتَهُ وَأَعَرَّضْتَهُ، قال الله تعالى: ﴿فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾^(١) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾^(٢) وقال: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ﴾^(٣) فلَمَّا استوت اللغتان وجاء التنزيل بهما تساوت القراءتان.

ووجه قراءة مَنْ قرأ: ﴿لئن أنجانا﴾ أَنَّهُ حمله على الغيبة، كقوله: ﴿تدعونه ... لئن أنجانا﴾ وكذلك ما بعده: ﴿قل الله ينجيكم ... قل هو القادر﴾ فهذا كله أسماء غيبة، فـ ﴿أنجانا﴾ أولى من ﴿أنجيتنا﴾ لكونه على ما قبله وما بعده من لفظ الغيبة.

وموضع ﴿تدعونه﴾ نصب على الحال، وتقديره: قل من ينجيكم داعين وقائلين: «لئن أنجيتنا».

وَمَنْ قرأ من الكوفيّين: ﴿لئن أنجانا﴾ طلب المشاكلة، وَمَنْ قرأ بالتاء وجّه [واجّه، خ] بالخطاب ولم يراعِ المشاكلة. ويقوّي ذلك قوله في أخرى: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لتكوننّ من الشاكرين قل الله ينجيكم﴾ فجاء «أنجيتنا» على الخطاب وبعده اسم غيبة.

وأما إمالة حمزة والكسائي فحسنة، لأنّ هذا النحو من الفعل إذا كان على أربعة أحرف استمرّت فيه الإمالة، لانقلاب الألف ياءً في المضارع. وَمَنْ قرأ: ﴿خَفِيَّةٌ﴾ بكسر الخاء، فلأنّ أبا عُبَيْدَةَ قال: خَفِيَّةٌ تُخْفُونَ في أنفسكم. وحكى^(٤) غيره^(٥) خُفِيَّةٌ وخَفِيَّةٌ لغتان، وحكى: «خُفْوَةٌ» و«خُفْوَةٌ» بالواو، كما قالوا: حلّ حُبُوتِهِ وَحَبِيَّتِهِ. ولا يُفْرَأُ بذلك. فأما قوله:

(١) العنكبوت: ٢٤. (٢) الأعراف: ٦٤ و ٧٢. (٣) فصلت: ١٨.

(٤) في الحجرية بدل «حكى»: خفى. (٥) وهو الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٣٨.

﴿تَضَرَّعاً وَخِيفَةً﴾^(١) ففعلة من «الخوف» وانقلبت الواو للكسرة، والمعنى: ادعوا خائفين خفيين^(٢) قال الشاعر:

فَلَا تَفْعُدَنَّ عَلَى زَحَةٍ وَتُضْمِرْ فِي الْقَلْبِ وَجْداً وَخِيفاً^(٣)
يريد: جمع «خيفة».

أمر الله تعالى نبيه أن يخاطب الخلق ويقول لهم على وجه التقرير لمن يعبد الأصنام منهم: ﴿من ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحر﴾ ومعناه: شدائد البرِّ والبحر، تقول العرب لليوم الذي تلقى فيه الشدة: يومٌ مُظْلِمٌ، حتَّى أَنَّهُمْ يقولون: يومٌ ذو كواكب، أي: قد اشتدتْ ظلمته حتَّى صار كالليل، قال الشاعر:

بني أسدٍ هل تَعْلَمون بلاءنا إذا كان يوماً ذا كواكبٍ أَسْنَعاً^(٤)
وقال آخر:

فَدَى لَبْنِي دُهْلٍ بِنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي

إذا كان يوماً ذو كواكبٍ أَشْهَبُ^(٥)
فمعنى ﴿ظُلُمَاتِ البرِّ والبحر﴾: شدائدهما. وقوله: ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرَّعاً وَخُفْيَةً﴾ أي: مُظْهِرِينَ الضَّرَاعَةَ، وهي شدة الفقر إلى الشيء والحاجة، و﴿تَدْعُونَهُ ... خُفْيَةً﴾ أي: تدعونه في أنفسكم بما تضرعون من حاجاتكم إليه كما تظهرون.

(١) الأعراف: ٢٠٥. ويذكر أَنَّ الْأَعْمَشَ كان يقرأ ما في الأنعام هنا: «خيفة» بدل «خفية» بتقديم الياء قبل الفاء، رواه النحاس.

(٢) لصخر الغي: أنشده ابن سيده في المخصص: ص ١٢٨.

(٣) لعمر بن شأس. أنشده سيبويه في الكتاب: ج ١ ص ٤٧.

(٤) لمقاس العاندي، وقيل: العاندي، و: مقاس العاندي. أنشده سيبويه أيضاً في الكتاب.

وقوله: ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ أي: في شدة وقعتهم فيها، يقولون: ﴿لئن أنجيتنا من هذه﴾ لنشكرنك، فأمر الله أن يسألهم على وجه التوبيخ لهم والتقرير بأنه ينجيهم، وأنه القادر على نفعهم وضرهم، ثم أعلمهم أن الله الذي أقروا بأنه ينجيهم هو ينجيهم، ثم هم يشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها من صفتهم [صنعهم، ظ] وأنها لا تضر ولا تنفع، وأنه تعالى على تعذيبهم قادر.

قوله تعالى:

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ۚ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْأَيَّاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: إن الله قادر ﴿على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم﴾ نحو الحجارة التي أمطرها على قوم لوط، والطوفان الذي غرق به قوم نوح ﴿أو من تحت أرجلكم﴾ نحو الخسف الذي قال قارون ومن خسف به ﴿أو يلبسكم شيعاً﴾ معنى ﴿يلبسكم﴾: يخلط أمركم خلط اضطراب، لا خلط اتفاق، يقال: لبست عليه الأمر ألبسه إذا لم تبيته وخلطت بعضه ببعض، ومنه قوله: ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾^(١) ويقال: لبست الثوب ألبسته.

ومعنى ﴿شيعاً﴾ أي: يجعلكم فرقاً^(٢)، وهو معنى قوله: ﴿ويذيق بعضكم بأس بعض﴾.

وإنما يلبسهم الله شيعاً بأن يكلهم إلى أنفسهم، ولا يلطف لهم اللطف

(١) الآية: ٩ المتقدمة. (٢) في الحجرية زيادة: مختلفي الأهواء يضرب بعضكم بعضاً، ظ.

الَّذِي يُؤْمِنُونَ عنده، ويخْلِيهِمْ من الطَّافِهِ بِذُنُوبِهِم السَّالِفَةِ، فَيَلْبِسُ عند ذلك عليهم أمرهم فيختلفوا حتَّى يذوق بعضهم بأس بعض، ثمَّ أَكَّدَ الاحتجاج عليهم فقال: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَصْرَفَ الْآيَاتِ﴾ ليفقهوا.

وقال الحسن: الآية متناولة لأهل الكتابين في التهديد بالخسْف وإنزال العذاب ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا﴾ يتناول أهل الصلاة.

وقال: قال رسول الله ﷺ سألت رَبِّي أَنْ لَا يُظْهِرَ عَلَى أُمَّتِي أَهْلَ دِينٍ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِي، وسألته أَنْ لَا يَهْلِكَهُمْ جُوعًا فَأَعْطَانِي، وسألته أَنْ لَا يَجْمَعَهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ فَأَعْطَانِي، وسألته أَنْ لَا يَلْبِسَهُمْ شَيْعًا فَمَنْعَنِي ذَلِكَ ^(١). وفي الآية دلالة على أَنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ مِنَ الْكُفَّارِ الْإِيمَانَ، لِأَنَّهُ قَالَ: فَعَلْتُ هَذَا بِهِمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ومعناه: لكي يفقهوا، لِأَنَّ مَعْنَى الشَّكِّ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهَا دَخَلَتْ لِلْغَرَضِ ثَبَتَ أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَيُوحِّدُوهُ، وَيَفْقَهُوا أَدْلَتَهُ وَيَعْرِفُوهَا.

وَرَوَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: مَعْنَى ﴿عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ السُّلْطَانُ الْجَائِرُ ﴿وَمَنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ﴾ السَّفَلَةُ وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شَيْعًا﴾ قَالَ: الْعَصْبِيَّةُ ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمْ بِأَسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ: سَوَاءُ الْجَوَارِ. وَيَكُونُ مَعْنَى التَّبْعُثِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ التَّمْكِينُ وَرَفْعُ الْحِيلُولَةِ دُونَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ أَوْ يَأْمُرَ بِهِ، يَتَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ.

قوله تعالى:

وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ .

آية بلا خلاف في المدنيّين والبصري، وآيتان في الكوفي، في آخر الأولى ﴿بوكيل﴾.

أقول: قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ أي: بما صرّف من الآيات التي ذكرها في الآية الأولى، في قول البلخي والجُبّائي. وقال الأزهري^(١): الهاء راجعة إلى القرآن.

ثم أخبر تعالى فقال: ﴿وهو الحق﴾ وأمره أن يقول لقومه ﴿لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لم أؤمّر بمنعكم من التكذيب بآيات الله وأن أحفظكم من ذلك وأن أحول بينكم وبينه، لأنّ الوكيل على الشيء هو القائم بحفظه، والذي يدفع الضرر عنه.

وقال البلخي: هذه نزلت بمكة قبل أن يؤمّر بالقتال، ثم أمر فيما بعد بذلك.

وأمره أن يُخبرهم أنّ ﴿لكلّ نبأ﴾ يُخبرهم به ﴿مستقرّ﴾ وهو وقته الذي يعلمون فيه صحّة ما وعدكم [هم، ظ] به وحقيقته، وذلك عند كون خبره: إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ﴿وسوف يعلمون﴾ فيه تهديد لهم بكون ما أخبرهم به من العذاب النازل بهم في الدنيا والآخرة، ووقت كون هذا العذاب هو مستقرّ الخبر. وقال بعضهم: أنبأه الله بالوقت الذي يظفّره فيه بهم.

وقال الزجاج: يجوز أن يكون أراد وقت الإذن في محاربتهم حتّى يدخلوا في الإسلام أو يقبلوا الجزية إن كانوا أهل كتاب. وقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ﴾ المراد به الخصوص، لأنّ في قومه جماعة

(١) وهو اللغوي المعروف صاحب «تهذيب اللغة» توفي بهراة سنة ٣٧٠ هـ.

صَدَقُوا بِهِ، وهو كما يقول القائل: هؤلاء عشيرتي، يشير إلى جماعة وإن لم يكونوا جميع عشيرته.

قوله تعالى:

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾
آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ﴾ بتشديد السين، الباقون بالتخفيف. خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بهذه الآية فقال له: ﴿إِذَا رَأَيْتَ﴾ هؤلاء الكفار ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قال الحسن وسعيد بن جبّير: معنى ﴿يَخُوضُونَ﴾: يكدّبون بآياتنا وديننا، والخَوْضُ: التخليط في المفاوضة على سبيل العبث واللعب، وترك التفهّم واليقين، ومثله: قول القائل: تركت القوم يخوضون، أي: ليسوا على سداد، فهم يذهبون ويحيثون من غير تحقيق ولا قصدٍ للواجب، أمره حينئذٍ أَنْ يُعْرِضَ عَنْهُمْ ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ لَأَنَّ مَنْ حَاجَّ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ وَأَرَادَ التَّبَيُّنَ لَهُ فَقَدْ وَضَعَ الشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَحَطَّ مِنْ قَدْرِ الدَّعَاءِ وَالْبَيَانِ وَالْحِجَاجِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ ﷺ: إِنْ أَنْسَاكَ ﴿الشَّيْطَانُ﴾ ذَلِكَ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى﴾ وَالذِّكْرِى وَالذِّكْرُ وَاحِدٌ ﴿مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ذِكْرِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ.

ثُمَّ رَخَّصَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ ^(١) بَأَنْ يَجَالِسُوهُمْ إِذَا كَانُوا مَظْهَرِينَ لِلتَّكْبَرِ عَلَيْهِمْ، غَيْرَ خَائِفِينَ مِنْهُمْ ﴿وَلَكِنْ ذِكْرِى﴾ يَذْكُرُونَهُمْ، أَي: يَنْهَوْنَهُمْ أَنْ ذَلِكَ يَسُوؤُهُمْ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ثُمَّ

نسخ ذلك بقوله: ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهم﴾^(١) وبهذا قال سعيد بن جُبَيْر والسُّدِّي وجعفر بن مِشَرٍّ، واختاره البلخي وقال: في أول الإسلام كان ذلك يختص النبي ﷺ ورخص للمؤمنين فيه، ثم لما عز الإسلام وكثر المؤمنون نهوا عن مجالستهم ونُسخت الآية.

واستدل الجُبائي بهذه الآية على أنه لا يجوز على الأئمة المعصومين - على مذهبنا - التقية.

[وهذا القول غير صحيح ولا مستقيم لأن الإمامية لا تجوز التقية على الإمام، ظ^(٢)] فيما لا يُعرف إلا من جهته كالنبي وإنما تجوز التقية عليه فيما يكون عليه دلالة قاطعة موصلة إلى العلم، لأن المكلف علته مزاحة في تكليفه، وكذلك يجوز في النبي ﷺ أن لا يبين في الحال لأئمة ما يقوم منه بيان منه أو من الله، أو عليه دلالة عقلية، ولذلك قال النبي ﷺ لِعُمَرَ حين سأله عن الكَلَالَة فقال: يكفيك آية الصيف^(٣) وأحال آخر في تعرف الوضوء على الآية، فأما ما لا يُعرف إلا من جهته فهو والإمام فيه سواء، لا يجوز فيهما التقية في شيء من الأحكام.

واستدل الجُبائي أيضاً بالآية على أن الأنبياء يجوز عليهم السهو والنسيان قال: بخلاف ما يقوله الرافضة - بزعمه - من أنه لا يجوز عليهم شيء من ذلك.

وهذا ليس بصحيح أيضاً، لأننا إنما لا نجوز عليهم السهو والنسيان فيما

(١) النساء: ١٤٠. (٢) أثبتناه من هامش الحجرية.

(٣) رواه البيهقي في السنن: ج ٦ ص ٢٢٤ بسنده عن معدان بن أبي طلحة اليعمرى عن عمر. ويريد بآية الصيف آية الكَلَالَة في آخر سورة النساء المباركة.

يُؤَدُّونَهُ عَنِ اللَّهِ، فَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ فَأِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَنْسُوهُ أَوْ يَسْهُوا عَنْهُ مِمَّا
لَمْ يُؤَدِّ ذَلِكَ إِلَى الْإِخْلَالِ بِكَمَالِ الْعَقْلِ، وَكَيْفَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ وَهُمْ
يَنَامُونَ وَيَمْرَضُونَ وَيُغْشَى عَلَيْهِمْ، وَالنَّوْمُ سَهْوٌ، وَيَنْسَوْنَ كَثِيرًا مِنْ
مُتَصَرِّفَاتِهِمْ أَيْضًا وَمَا جَرَى لَهُمْ فِيهَا مَضَى مِنَ الزَّمَانِ وَالَّذِي ظَنَّهُ فَاسِدٌ.
وَقَالَ أَيْضًا: فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى وَجوبِ إنْكَارِ الْمُنْكَرِ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُ
بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ وَالْإِزْرَاءِ لِفَعْلِهِمْ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَجِبُ عَلَيْهِ
ذَلِكَ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ ﷺ.

قوله تعالى:

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾
آية بلا خلاف.

أقول: لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: قَالَ الْجُبَّائِيُّ وَالزَّجَّاجُ وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ: إِنَّ الْمُرَادَ: لَيْسَ عَلَى
الْمُتَّقِينَ مِنْ حِسَابِ الْكَافِرِينَ وَمَا يَخُوضُ فِيهِ الْمُشْرِكُونَ، وَلَا مِنْ مَكْرُوهِ
عَاقِبَتِهِ شَيْءٌ ﴿وَلَكِنْ ذِكْرٌ﴾ أَي: نُهِوا عَنْ مُحَاسِبَتِهِمْ [مَجَالِسَتِهِمْ، ظ]
لِيَزْدَادُوا تَقِيًّا، وَأَمَرُوا أَنْ يَذْكُرُوهُمْ وَيَنْبَهُوهُمْ عَلَى خَطِيئَتِهِمْ، لِكَيْ يَتَّقِيَ
الْمُشْرِكُونَ إِذَا رَأَوْا إِعْرَاضَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ وَتَرْكَهُمْ مَجَالِسَتَهُمْ،
فَلَا يَعُودُونَ لِذَلِكَ.

والثاني: قَالَ الْبَلْخِي: لَيْسَ عَلَى الْمُتَّقِينَ مِنَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
مَكْرُوهُ وَلَا تَبْعَةٌ، وَلَكِنَّهُ أَعْلَمَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُحَاسِبُونَ، وَحُكِمَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ لِكَيْ
يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحَاسِبُهُمْ فَيَتَّقُوا. فَعَلِيَ الْأَوَّلُ الْهَاءُ وَالْمِيمُ كُنَايَةً عَنِ الْكُفَّارِ،
وَعَلَى الثَّانِي عَنْ الْمُؤْمِنِينَ.

و ﴿ذِكْرٌ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ وَنَصْبٍ، فَالنَّصْبُ عَلَى

تقدير: ذكّرهم ذكرى، والرفع على وجهين:
أحدهما: ولكن عليكم أن تذكروهم، كما قال: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا
الْبَلَاغُ﴾^(١). والثاني: على تقدير: ولكن الذي يأمرونهم به ذكرى ليتقوا
عذاب الله.

وقال أبو جعفر عليه السلام: لما نزلت ﴿فَلَا تَقْعُدُوا عَنْ الذِّكْرِ﴾ مع القوم
الظالمين قال المسلمون: كيف نصنع إن كان كلّا استهزأ المشركون
بالقرآن قمتا وتركناهم، فلا ندخل إذا المسجد الحرام [و] لا نطوف بالبيت
الحرام؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾
وأمرهم بتذكيرهم وتبصيرهم ما استطاعوا.

قوله تعالى:

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ
تُسْأَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ
لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ آية عند الجميع.

أقول: معنى قوله: ﴿ذَرِ﴾: دَعْ، يُقال: وَذَرِ يَذِرُ مثل: وَدَعَ يَدَعُ، فإذا
أمرت منه قلت: ذَرْ كما قال: ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا﴾^(٢).

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ يعني: هؤلاء الكفار الذين وصفهم
أنهم اتَّخَذُوا دِينَ اللَّهِ لَعِبًا وَلَهْوًا، لأنه لا معنى لمحاكاة مَنْ كانت هذه
سبيله، لأنه لا عِبَّ عَابِتٌ لا يصغي لما يُقال له، فالمكلم له والمحتج عليه
غير منتفع ولا نافع، وقد قطع الله عذر هؤلاء الذين يذهبون مذهب اللعب

بما أدركوه بقولهم، وما شاهدوه من آياته ﴿وَعَرَّثَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾. ثُمَّ أَمَرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَذْكُرَ ﴿بِهِ﴾ يعني: القرآن، وقيل: الحساب، لكي لا ﴿تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: تُدْفَع إلى الهلكة على وجه الغفلة، وتُسَلَّم لعملها غير قادرةٍ على التخليص [التخلص، ظ] قال الشاعر في الغريب المضيّف^(١):

وَإِسْلَامِي بَنِي بَغَيْرِ جُزْمٍ بَعُونَاهُ وَلَا يَدِمُ مُرَاقٍ^(٢)
أي: إسلامي إياهم، بَعُونَاهُ: اجترأناه، والبَعُو: الجناية.

وقيل^(٣): معنى ﴿تُبْسَلَ﴾: تُزْهَنَ وَيُسَلَّم لعمله. قال الأخفش: معنى ﴿تُبْسَلَ﴾: تُجَازَى، من: أُبْسَلَ إِنْسَالاً، ومنه قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾. قال الكسائي: ﴿تُبْسَلَ﴾ تُجْزَى، يعني: في الكلام.

وقال الفراء: معناه: تُسَلَّم، ويقال: أُعْطِيَ الرَّاقِي بُسْلَتَهُ أي: أُجْرَتَهُ على رقيقته، ويقال: أَسَدٌ بَاسِلٌ، معناه: أَنَّ معه من الاقدام ما يستبسل له قِرْنُهُ، ويُقال: هَذَا بَسْلٌ أي: حَرَام، وهو بَسْلٌ أي: حلال، وهو من الأضداد.
﴿شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قال الضحَّاك: الحميم هو الماء الذي أحمي حتَّى انتهى غَلْيَانُهُ.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدَّلْ كُلَّ عَدَلٍ﴾ قال بعضهم^(٤): إِنْ يَفْقِدَ كُلَّ فِذْيَةٍ، يريد: أَنْ يجعلها عَدْلًا لَهَا من قوله: ﴿لَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾^(٥) وقال غيره^(٦):

(١) في الحجرية: المضيّف.

(٢) لعوف بن الأحوص الكلابي من أبيات له. راجع النوادر في اللغة: ص ١٥١.

(٣) قاله الفراء في المعاني: ج ١ ص ٣٣٩.

(٤) كقتادة والسُّدِّي وابن زيد. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ١٣١. (٥) البقرة: ١٢٣.

(٦) وهو أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ١٩٥.

معناه: وإن تَقَسَّطَ كُلِّ قِسْطٍ لَا يُقْبَلُ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، لِأَنَّ التَّوْبَةَ إِنَّمَا هِيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ لَيْسَ لَهُؤُلَاءِ الْكَفَّارِ ﴿وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعَ﴾ أَي: لَا نَاصِرَ لَهُمْ، وَلَا مَنْ يَسْأَلُ فِيهِمْ. وَأَخْبَرَ أَيْضاً أَنَّ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ هُمُ الَّذِينَ يُجَازُونَ بِمَا كَتَبُوا، وَأَنَّ لَهُمْ شِرَاباً مِنْ حَمِيمٍ وَعِقَاباً أَلِيماً ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْهَا.

وقيل: مَا مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا وَلَهُمْ عِيدٌ يَلْعَبُونَ فِيهِ وَيَلْهَوْنَ، إِلَّا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ فَإِنَّ أَعْيَادَهُمْ صَلَاةٌ وَتَكْبِيرٌ وَدَعَاءٌ وَعِبَادَةٌ^(١).

قوله تعالى:

قُلْ أَتَدْعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنًا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْاَعْلَمِينَ ﴿٧١﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ حمزة: ﴿استهواه الشياطين﴾ بِأَلْفِ مُمَالَةٍ، الْبَاقُونَ بِالْتَاءِ الْمَعْجَمَةِ مِنْ فَوْقِ.

قال أبو عُبَيْدَةَ: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ أَي: اسْتَمَالَتْ بِهِ، أَي: ذَهَبَتْ بِهِ، وَبَعَلِمَهُ: ﴿فَازَلَهُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا﴾^(٢) وَكَذَلِكَ: «هَوَى: وَ أَهْوَى غَيْرُهُ» قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى﴾^(٣) يقال: أَهْوَيْتُهُ وَاسْتَهْوَيْتُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿فَازَلَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ وَ «إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ»^(٤) فَكَمَا أَنَّ «أَزَلَّهُ» بِمَعْنَى «اسْتَزَلَّهُ» كَذَلِكَ «اسْتَهْوَاهُ» بِمَنْزِلَةِ: «أَهْوَاهُ» وَكَمَا أَنَّ مَعْنَى اسْتَجَابَةِ [اسْتَجَابَهُ]: بِمَعْنَى إِجَابَةِ [أَجَابَهُ] فِي قَوْلِهِ:

(١) قاله الكعبي، راجع تفسير السمرقندي: ج ١ ص ٤٩٣.

(٤) آل عمران: ١٥٥.

(٣) النجم: ٥٣.

(٢) البقرة: ٣٦.

فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(١)

وقرأ حمزة هاهنا مثل قراءته: ﴿تَوْفَاهُ﴾ وكلاً المذهبين حسن.
وقوله: ﴿استهواه﴾ إنما هو من قولهم: هَوَى من حَالِقٍ إِذَا تَرَدَّى مِنْهُ،
ويشبهه به الَّذِي زَلَّ عن الطريق المستقيم، كما أَنَّ «زَلَّ» إنما هو من العباد
والمكان.

أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يقولوا لهؤلاء الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ إِلَى
عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ: ﴿أَنْدَعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا﴾ إِنْ عَبَدْنَاهُ
﴿وَلَا يَضُرُّنَا﴾ إِنْ تَرَكْنَا عِبَادَتَهُ ﴿وَتُرَدَّ عَلَى أَعْقَابِنَا﴾ بَعْدَ الْهُدَى وَالرَّشَادِ،
وبعد معرفتنا بالله وتصديق رُسُلِهِ فِي الضَّلَالِ، وَذَلِكَ مَثَلٌ يُقَالُ فِي مَنْ رَجَعَ
عَنْ خَيْرٍ إِلَى شَرٍّ: رَجَعَ عَلَى عَقْبَيْهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا خَابَ مَنْ مَطْلَبُهُ يُقَالُ: رُدَّ
عَلَى عَقْبَيْهِ، وَيَصِيرُ فِي الْحَيْرَةِ ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ
خَيْرَانَ﴾ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقٍ وَلَا مَعْرِفَةٍ ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى﴾
الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ وَهُوَ ﴿الْهُدَى﴾ وَيَقُولُونَ لَهُ: ﴿أَتَيْنَا﴾ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ
وَلَا يَصِيرُ إِلَيْهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُ لَذَهَابَ عَقْلِهِ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ، فَيَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ حَيْثُ
عَلَيْهِ، وَلَا يَقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ لِحَيْرَتِهِ.

شبهه الله به الكافر الَّذِي يَرْجِعُ عَنْ إِيْمَانِهِ وَهَدَاهُ إِلَى الضَّلَالِ. قَالَ:
وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ عَلَى إِذْهَابِ عَقْلِ أَحَدٍ، لِأَنَّهُمْ لَوْ قَدَرُوا عَلَى
ذَلِكَ لَسَلَبُوا عُقُولَ الْعُلَمَاءِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ، فَلَمَّا لَمْ يَقْدَرُوا عَلَى
ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا اللَّهُ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ لَهُؤُلَاءِ الْكَافَرُ: ﴿إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أَي:

(١) وصدرة: وداع دعا يا من يجب إلى الندى. لكعب بن سعد الغنوي، من قصيدة يرثي بها
أخاه. راجع الأصمعيات: ص ١٤ وقد تقدّم ذكره في: ج ٣ ص ٢١٢.

دلالة الله لنا على توحيده وأمر دينه هو الهدى الذي يؤدي المستدل به إلى الفلاح والرشاد في دينه، وهو الذي يجب أن يعمل عليه ويستدل به دون ما يدل عليه غيره من سوى أمور الدين.

وقوله: ﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ معناه: أُمِرْنَا أَنْ نُسَلِّمَ أُمُورَنَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنْ نَفُوضَهَا إِلَيْهِ وَنَتَوَكَّلَ، ظ [عليه لا على غيره مما يعبد المشركون].

و ﴿حَيْرَانٌ﴾ نصب على الحال، وتقديره: كالذي استهوته الشياطين في حال حيرته.

وقوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ قيل: نزلت في عبدالرحمن ابن أبي بكر، كان أبواه يدعوانه إلى الإيمان ويقولان له: أَمَّا أَيُّ: تابعنا في إيماننا.

﴿وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تقول العرب: أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ، وَأَمَرْتُكَ لِنَفْعَلِ، وَأَمَرْتُكَ بِأَنْ تَفْعَلَ. فَمَنْ قَالَ: «أَمَرْتُكَ بِأَنْ تَفْعَلَ» فالباء للإلصاق، والمعنى: وقع الأمر بهذا الفعل، وَمَنْ قَالَ: «أَمَرْتُكَ أَنْ تَفْعَلَ» حَذَفَ الْبَاءَ، وَمَنْ قَالَ: «أَمَرْتُكَ لِنَفْعَلَ» المعنى: أُمِرْنَا لِلْإِسْلَامِ^(١) قَالَ الزَّجَّاجُ: يَكُونُ اللَّامُ لَامَ التَّعْلِيلِ، وَالتَّقْدِيرِ: أُمِرْنَا كَيْ نُسَلِّمَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

أُرِيدُ لَأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلَ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلٍ^(٢)
أَيُّ: كَيْ أَنْسَى. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: مَعْنَاهُ: وَأُمِرْنَا لِنَخْضَعَ لَهُ بِالذَّلَّةِ وَالطَّاعَةِ، وَنَخْلُصَ ذَلِكَ لَهُ دُونَ مَا سِوَاهُ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَلْهَةِ^(٣).

(١) في المجمع: المعنى: أَمَرْتُكَ لِلْفِعْلِ.

(٢) لَكثِيرٌ عَزَّةٌ مِنْ قَصِيدَةِ طَوِيلَةٍ. رَاجِعُ دِيوَانِ كَثِيرٍ: ص ١٧٦.

(٣) تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٥٥.

قوله تعالى:

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: تحتل هذه الآية وجهين:

أحدهما: أن يكون التقدير: أمرنا لأن نُسَلِّمَ، ولأن نُقيم الصلاة.

والثاني: أن يكون محمولاً على المعنى، لأنَّ معناه: أمرنا بالإسلام وإقامة الصلاة^(١) وموضع ﴿أَنْ﴾ نصب، لأنَّ الباء لَمَّا أُسْقِطَ أَفْضَى الفعل فنصب. ويحتمل أن يكون محمولاً على قوله: ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى اثْنَا... وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ويدعونه أن أقيموا الصلاة.

وهذه الآية موصولة بالتي قبلها، أي: ﴿أَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقيل لنا: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ﴾ أي: اتَّقُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ بِأَنْ تَجْتَنِبُوا مَعَاصِيهِ وَتَتَّقُوا عِقَابَهُ، ثُمَّ بَيَّنَّ أَنَّهُ ﴿هُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُخْشَرُونَ﴾ أي: تُجْمَعُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَجَازِي كُلَّ عَامِلٍ مِنْكُمْ بِعَمَلِهِ، وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ.

قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَنِلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾.

آيتان في البصري والمدنيتين، وآية في الكوفي.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين يعبدون الأصنام، ويدعون المؤمنين إلى عبادتها: ﴿وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ... الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾. وفي معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ قولان: أحدهما: قال الحسن والبلخي والجُبَّائِي والزَّجَّاج والطبري: إِنَّ مَعْنَاهُ:

(١) في الحجرية: أمرنا بإسلام وإقامة.

خَلَقَهُمَا لِلْحَقِّ لَا لِلْبَاطِلِ، ومعناه: خَلَقَهُمَا حَقًّا وَصَوَابًا لَا بَاطِلًا وَخَطَأً، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾^(١) وَأُدْخِلْتَ الْبَاءَ وَالْأَلْفَ وَاللَّامَ كَمَا أُدْخِلْتَ فِي نَظَائِرِهَا، يَقُولُونَ: فَلَان يَقُولُ بِالْحَقِّ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ، لَا أَنَّ الْحَقَّ مَعْنَى غَيْرِ الْقَوْلِ، بَلِ التَّقْدِيرُ: أَنَّ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حِكْمَةً وَصَوَابًا مِنْ حِكْمِ اللَّهِ، وَهُوَ مُوصَوَفٌ بِالْحِكْمَةِ فِي خَلْقِهِمَا وَخَلَقَ مَا سِوَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ، لَا أَنَّ هُنَاكَ حَقًّا سِوَى خَلْقِهِمَا خَلَقَهُمَا بِهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ مَا يَقُولُهُ الْمَجْبُورَةُ أَنَّ كُلَّهُ بَاطِلٌ وَسُفْهُ وَمَا يَخَالِفُ الْحِكْمَةَ مِنْ فِعْلٍ، اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ^(٢).

وَالثَّانِي: قَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى ذَلِكَ: أَنَّهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِكَلَامِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّي طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾^(٣) قَالُوا: فَالْحَقُّ هُوَ كَلَامُهُ، وَاسْتَشْهَدُوا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ إِنَّ [الْحَقَّ هُوَ قَوْلُهُ وَكَلَامُهُ، قَالُوا: وَاللَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ بِكَلَامِهِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ قَدِيمًا غَيْرَ مَخْلُوقٍ. وَقَدْ بَيَّنَّا فُسَادَ هَذَا الْوَجْهِ فِيمَا تَقَدَّمَ، وَالْمُعْتَمَدُ الْأَوَّلُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ نَصَبَ ﴿يَوْمَ﴾ عَلَى وَجْهِ: أَحَدُهَا: عَلَى مَعْنَى: وَاتَّقُوا يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، نَسَقًا عَلَى الْهَاءِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾^(٤).
وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ عَلَى مَعْنَى: وَاذْكُرْ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، لِأَنَّ بَعْدَهُ:

(١) ص: ٢٧.

(٢) فِي هَامِشِ الْحَجَرِيَّةِ هَكَذَا: إِمَّا أَنْ سَقَطَ مِنَ الْعِبَارَةِ شَيْءٌ نَحْوُ «لَيْسَ» وَإِمَّا أَنْ يَقْرَأَ مِنْ فِعْلِ بِالتَّنْوِينِ وَيَجْعَلُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ خَبْرًا لِقَوْلِهِ: وَمَا يَخَالِفُ الْحِكْمَةَ، وَعَلَى هَذَا فَكَانَ الْأَوَّلِيُّ أَنْ يَزَادَ فِيهِ الْفَاءُ بَأَنَّ يُقَالَ: فَاللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، حَتَّى لَا يَتَشَبَّهُ الْأَمْرُ عَلَى النَّاطِرِ.

(٤) الْبَقَرَةُ: ٤٨.

(٣) فَصَّلَتْ: ١١.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ والمعنى: واذكر يومَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ، واذكر إذ قال إبراهيم، وهو الذي اختاره الزَّجَّاج.

والثالث: أن يكون معطوفاً على ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِالْحَقِّ﴾: وَخَلَقَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ. فَإِنْ قِيلَ: إِنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَمْ يُخْلَقْ بَعْدُ؟ قِيلَ: مَا أُخْبِرَ اللَّهُ بِكَوْنِهِ فَحَقِيقَتُهُ وَاقِعٌ لَا مُحَالَةٍ، وَقَالَ قَوْمٌ^(١): التَّمَامُ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿كَنْ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿فَيَكُونُ﴾ قَوْلُهُ الْحَقُّ ابتداءً، أَي: مَا وَعَدُوا بِهِ مِنَ الثَّوَابِ وَخُذُّوا بِهِ مِنَ الْعِقَابِ كَائِنْ حَقَّ قَوْلُهُ بِذَلِكَ.

وقوله: ﴿كَنْ فَيَكُونُ﴾ قال قوم: هو خطاب للصُّور، المعنى: ويوم يقول للشَّيء كُنْ فَيَكُونُ. وَقَدْ بَيَّنَّا فِيْمَا مَضَى أَنَّ ذَلِكَ عِبَارَةٌ عَنْ سُرْعَةِ الْفِعْلِ وَتَيْسِيرِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بِمَنْزِلَةٍ أَنْ يَقُولَ: كُنْ فَيَكُونُ، لِأَنَّ هُنَاكَ أَمْرًا عَلَى الْحَقِيقَةِ، وَكَيْفَ يَكُونُ هُنَاكَ أَمْرٌ وَالْأَمْرُ لَا يَتَوَجَّهُ إِلَّا إِلَى الْحَيِّ الْقَادِرِ، وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجُمَادَاتِ لَا يَحْسُنُ أَمْرُهَا وَلَا خُطَابُهَا؟ وَالْغَرَضُ بِالْآيَةِ: الدَّلَالَةُ عَلَى سُرْعَةِ أَمْرِ الْبَعْثِ وَالسَّاعَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَيَوْمَ يَقُولُ لِلْخَلْقِ: مُوتُوا فَيَمُوتُونَ، وَانْتَشِرُوا فَيَنْتَشِرُونَ، أَي: لَا يَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ وَلَا يَتَأَخَّرُ عَنْ وَقْتِ إِرَادَتِهِ.

وقيل: ﴿يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ أَي: بِأَمْرِ فَيَقِيعُ أَمْرَهُ، وَ﴿الْحَقُّ﴾ مِنْ صِفَةِ ﴿قَوْلِهِ﴾ كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: قَدْ قُلْتُ فَكَانَ قَوْلُكَ، وَالْمَعْنَى لَيْسَ أَنَّكَ قُلْتَ فَكَانَ الْكَلَامُ، وَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَنَّهُ كَانَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ.

وعلى القول الأول يرفع ﴿قَوْلِهِ﴾ بِالْإِبْتِدَاءِ وَ﴿الْحَقُّ﴾ خَبَرُ الْإِبْتِدَاءِ.

وَحُكِّيَ عَنْ قَوْمٍ مِنَ السَّلَفِ ﴿فَيَكُونُ﴾ بِالنَّصْبِ بِإِضْمَارِ «أَنْ» وَتَقْدِيرِهِ:
كُنْ فَإِنْ يَكُونُ، وَهَذَا ضَعِيفٌ.

وقوله: ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾^(١) يَحْتَمِلُ نَصْبَ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ:

أحدها: أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقاً بِ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ وَالتَّقْدِيرُ: الْمَلِكُ لَهُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، وَإِنَّمَا خَصَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِأَنَّ الْمُلْكَ لَهُ كَمَا خَصَّهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢).

وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ^(٣): ﴿يُنْفَخُ﴾ بِفَتْحِ الْيَاءِ، وَ﴿عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فَاعِلٌ
﴿يُنْفَخُ﴾ وَهُوَ شَاذٌّ، رَوَى^(٤) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ذَلِكَ، وَالْوَجْهُ: أَنَّهُ لَا يَبْقَى
مُلْكٌ مَنِ مَلَكَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ، بَلْ يَتَفَرَّدُ هُوَ تَعَالَى بِالْمُلْكِ.
وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ مَبِيناً عَنْ^(٥) قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ كُنْ
فَيَكُونُ﴾.

الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ مَنْصُوباً بِ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾. وَالْمَعْنَى: وَقَوْلُهُ الْحَقُّ يَوْمَ
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ. وَالْوَجْهُ فِي اخْتِصَاصِ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِالذِّكْرِ مَا بَيَّنَّاهُ فِي
الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

وَفِي مَعْنَى ﴿الصُّورِ﴾ قَوْلَانِ:

أحدهما: هُوَ مَا عَلَيْهِ أَكْثَرُ الْمَفْسِّرِينَ مِنْ أَنَّهُ اسْمُ لَقْرَنِ يُنْفَخُ فِيهِ الْمَلَكُ
فَيَكُونُ مِنْهُ الصَّوْتُ الَّذِي يَصْقُقُ لَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ، ثُمَّ يُنْفَخُ
فِيهِ نَفْخَةٌ أُخْرَى لِلنُّشُورِ، وَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ الْبَلْخِيُّ وَالْجُبَّائِيُّ وَالزَّجَّاجُ

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: وَيَحْتَمِلُ. (٢) غَافِرٌ: ١٦.

(٣) وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي عَمْرٍو بِرَوَايَةِ عَبْدِ الْوَارِثِ عَنْهُ. رَاجِعْ شَوَازَّ الْقُرْآنِ لِابْنِ خَالَوَيْهِ: ص ٤٤.

(٤) رَوَاهُ عَنْهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ج ٧ ص ١٥٧ مُسْتَدًأ. (٥) فِي الْحَجَرِيَّةِ: مَبِيناً عَلَى.

والطبري وأكثر المفسرين.

والثاني: أنه جمع «صورة» مثل قولهم: سورة وسور، اختاره أبو عبيدة. وقرأ بعضهم^(١) في الشواذ: ﴿في الصور﴾ بفتح الواو، وذلك يقوي ما قاله أبو عبيدة، ويكون تقديره: يوم يُنفخ في الأموات. ويقوي الأول قوله تعالى ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات﴾ ثم قال: ﴿ثم نفخ فيه أخرى﴾^(٢) ولم يقل: فيها أخرى أو فيهن، وذلك يدل على أنه واحد.

وروى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن وحنى جبينه وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ؟! قالوا: فكيف نقول يا رسول الله؟ قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(٣).

والعرب تقول: نفخ الصور، ونفخ في الصور، قال الشاعر:

لولا ابن جعدة لم يفتح قهئذركم

ولا خراسان حتى ينفخ الصور^(٤)

وروي عن ابن عباس: أن «الصور» يعني به النفخة الأولى^(٥).

ثم بين أنه «عالم الغيب والشهادة» أي: ما يشاهده الخلق وما لا يشاهدونه، وما يعلمونه وما لا يعلمونه، ولا يخفى عليه شيء من ذلك. وبين أنه «الحكيم» في أفعاله «الخبير» العالم بعباده وبأفعالهم.

ورفع «عالم الغيب» لأنه نعت لـ «الذي» في قوله: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق عالم الغيب والشهادة﴾ ويحتمل أن يكون اسم

(١) منهم الحسن البصري. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٤٤. (٢) الزمر: ٦٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ١٦ ص ٢٤، وفي ج ٢٩ ص ٩٥ مسنداً عن ابن عباس.

(٤) أنشد الفراء في المعاني: ج ١ ص ٣٤٠ ولم ينسبه لأحد.

(٥) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٥٧ - ١٥٨ مسنداً عن علي بن أبي طلحة.

ما لم يسم فاعله، كما يقولون: أَكَلَ طَعَامُكَ عَبْدُ اللَّهِ، فيظهر اسم الآكل بعد أن قد جَرَى الخبر بما لم يسم فاعله، والأوّل أٌجود. فأما من فتح الياء ﴿يَتَفَخَّ﴾ فإنه جعل ﴿عالم الغيب﴾ فاعله مرتفعاً به.
قوله تعالى:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّي أَرَنكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أكثر القراء ﴿آزَرَ﴾ بنصب الراء، وقرأ أبو بريد المدني [أبو يزيد المَدَنِي، ظ] ^(١) والحسن البصري ويعقوب بالضم. فَمَنْ قرأ بالنصب جعل ﴿آزر﴾ في موضع خَفَضٍ بدلاً من ﴿أبيه﴾ وَمَنْ قرأ بالضم جعله مُنَادًى مفرداً، وتقديره: يا آزَرُ.

وقال الزجاج: لا خلاف بين أهل النَّسَب أن اسم أبي إبراهيم «تارخ» والذي في القرآن يدل على أن اسمه: «آزر». وقيل: «آزر» عندهم ذمٌّ في لُغَتِهِمْ، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه يا مَخْطِئُ اتَّخِذْ أُصْنَامًا؟! فعلى هذا قال الزجاج: الاختيار الرفع، قال: ويجوز أن يكون وَضْفاً له، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه المَخْطِئُ، قال الزجاج: وقيل: «آزر» اسمُ صَنَمٍ، فموضعه نَصَبٌ على إضمار الفعل، كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه اتَّخِذْ آزَرَ، وجعل ﴿أصناماً﴾ بدلاً من ﴿آزر﴾ وأشباهه، فقال - بعد أن قال: اتَّخِذْ آزَرَ إِلَهًا - اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً.

والذي قاله الزجاج يقوي ما قاله أصحابنا: إن «آزر» كان جدّه لأُمّه أو كان عمّه ^(٢) لأن أباه كان مؤمناً من حيث ثبت عندهم أن آباء

(١) في الطبري: أبي يزيد المدني.

(٢) لرواية الصادق عليه السلام الذي رواها القطب الراوندي في قصص الأنبياء: ص ١٠٣ ح ٩٥ عن أبي بصير.

النَّبِيِّ ﷺ إِلَى آدَمَ كُلَّهُمْ كَانُوا مُوَحِّدِينَ لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ كَافِرٌ، وَحُجَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ إِجْمَاعُ الْفِرْقَةِ الْمُحَقِّقَةِ [الْمُحَقَّةِ، ظ] وَقَدْ ثَبَّتَ أَنَّ إِجْمَاعَهَا حُجَّةٌ لِدُخُولِ الْمُعْصُومِ فِيهَا، وَلَا خِلَافَ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ.

أَيْضاً رَوَى عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَقْلَنِي اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ إِلَى أَرْحَامِ الطَّاهِرَاتِ، لَمْ يَدْخُلْ بَيْنِي وَبَيْنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ نَقَلَهُ مِنْ أَصْلَابِ الطَّاهِرِينَ، فَلَوْ كَانَ فِيهِمْ كَافِرٌ لَمَا جَازَ وَصْفُهُمْ بِأَنَّهُمْ طَاهِرُونَ، لِأَنَّ اللَّهَ وَصَفَ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّهُمْ أَتَجَاسُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾»^(١) وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ أُدْلَةٌ لَا نَطُولُ بِذِكْرِهَا الْكِتَابَ لئَلَّا يَخْرُجَ عَنِ الْغُرُضِ.

وَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَى «أَزَرَ» هَلْ هُوَ اسْمٌ أَوْ صِفَةٌ؟ فَقَالَ السُّدِّيُّ وَمُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالْجُبَّائِيُّ وَالبُلْخِيُّ: إِنَّهُ اسْمٌ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَهُوَ «تَارِخٌ»^(٢) كَمَا قِيلَ لِيَعْقُوبَ: «إِسْرَائِيلُ» قَالُوا: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِقَباً غَلِبَ عَلَيْهِ. وَقَالَ مُجَاهِدٌ: لَيْسَ «أَزَرَ» أَبَا إِبْرَاهِيمَ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْمٌ صَنَعَ. وَقَالَ قَوْمٌ^(٣): هُوَ سَبٌّ وَعَبَثٌ بِكَلَامِهِمْ، وَمَعْنَاهُ: مُعَوَّجٌ.

و﴿إِذْ﴾ فِي الْآيَةِ مُتَعَلِّقَةٌ بِقَوْلِهِ: وَاذْكُرْ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً. الْأَلْفُ^(٤) أَلْفُ انْكَارٍ لَا اسْتِفْهَامٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ خَرَجَ مَخْرَجَ الْاسْتِفْهَامِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يَعْنِي: فِي ضَلَالٍ عَنِ الصَّوَابِ،

(١) ذَكَرَ الرَّوَايَةَ الْفَخْرُ الرَّازِي فِي تَفْسِيرِهِ: ج ١٣ ص ٣٩، وَالسِّيُوطِيُّ فِي الْحَاوِي: ج ٢ ص ٣٦٨.

(٢) التَّوْبَةُ: ٢٨. (٣) فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ ٢: ٢٦٥ «تَارِخٌ» بِالْمُهْمَلَةِ.

(٤) مِنْهُمْ الْمُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِيهِ. حَكَاهُ النَّحَّاسُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ: ج ٢ ص ٧٦.

(٥) فِي قَوْلِهِ: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾.

وقوله: ﴿مبين﴾ يدلّ على أنّه قال ذلك مُنْكَرًا، والمبين: هو البينّ الظاهر.
والغرض بالآية حثّ النبي ﷺ على محاكاة قومه الذين يدعونه إلى
عبادة الأصنام، والإزراء على فعلهم، والافتداء في ذلك بأبيه إبراهيم عليه السلام
وصبره على محاكاة قومه العابدين للأصنام، ليتسلّى بذلك ويقوّي دواعيه
إلى ذلك.

والأصنام: جمع صنم، وهو مثال من حَجَرٍ أو خَشَبٍ أو من غير ذلك
في صورة إنسانٍ، وهو الوثن، وقد يقال للصورة المصوّرة على صورة
الإنسان في الحائط وغيره: صنم ووثن.
قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَيَكُوْنُ مِنْ ٱلْمُؤَقِّنِينَ ﴿٧٥﴾
آية بلا خلاف.

أقول: معنى قوله: ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت﴾ أي: مثل ما وصفنا
من قصّة إبراهيم من قوله لأبيه ما قالَ نُرِيهِ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ، أي: إنّما
أريناه أنّ قومه في عبادة الأصنام ضالّون كذلك نُرِيهِ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ
والأرض.

وقيل في معنى «الملكوت» أقوال:

قال الزجاج والفراء والبلخي والجُبائي والطبري، وهو قول عِكْرَمَة: إنّ
الملكوت بمنزلة المُلْك، غير أنّ هذه اللفظة أبلغ من «المُلْك» لأنّ الواو
والتاء يُرَادَانِ للمبالغة. ومثل «المَلَكُوت»: الرَغَبُوت والرَهَبُوت ووُزْنُه:
«فَعْلُوت» وفي المَثَل «رَهَبُوت خيرٌ من رَغَبُوت» أي لأنّ ترهب خير من
أن ترحم، ومن روى «رَهَبُوتي خيرٌ من رَحْمُوتي» معناه: أن يكون له
هيبة يرهّب بها خيرٌ من أن يُرَحِّم.

وقال مجاهد: ﴿مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مُلْكُهُمَا بِالنَّبْطِيَّةِ.
وقال الضحاك: يعني: خَلَقَهُمَا، وبه قال ابن عباس وقَتَادَةَ. وَرُوي عن مجاهد أيضاً: أَنَّ معناه: آيات السماوات والأرض.
ورُوي عن مجاهد وابن عباس أيضاً: أَنَّهُ أراد بذلك ما أخبر الله أَنَّهُ رآه من النجوم والشمس والقمر حين خرج من المغارة، وبه قال قَتَادَةَ.
وقال الجُبَّائِي: المعنى: إِنَّا كُنَّا نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْحَوَادِثَ الدَّالَّةَ عَلَى أَنَّ اللهَ مَالِكٌ لَهَا وَلِكُلِّ شَيْءٍ بِنَفْسِهِ، لَا يَمْلِكُهُ سِوَاهُ، فَأَجْزَى «الملكوت» على المملوك الَّذِي هو فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَجَازاً.

وقوله: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ أَي: أَرَيْنَاهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ لِيَسْتَدِلَّ بِهِ عَلَى الله، وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ أَنَّ اللهَ هو خَالِقُ ذَلِكَ وَالْمَالِكُ لَهُ. وَالْمُوقِنُ: هو الْعَالِمُ الَّذِي يَتَيَقَّنُ الشَّيْءَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُشْتَبَهاً، وَلِهَذَا لَا يُوَصَفُ تَعَالَى بِأَنَّهُ مُتَيَقَّنٌ كَمَا يُوَصَفُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ، لِأَنَّهُ تَعَالَى عَالِمٌ بِهَا فِيمَا لَمْ يَزَلْ.

وقال أبو جعفر عليه السلام: كَشَطَ الله لَهُ الْأَرْضَ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ ^(١) وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢).

فإن قيل: كيف يجوز أَنْ يَرَى مَا تَحْتَ الْأَرْضِينَ، وَالْأَرْضُ حِجَابٌ لِمَا تَحْتَهَا، وَكَذَلِكَ السَّمَاءُ لِمَا فَوْقَهَا؟!

(١) كَذَا فِي الْحَجَرِيَّةِ، وَفِي مَخْطُوطَةٍ: لَهُ الْأَرْضِينَ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَمَا تَحْتُهُنَّ إِلَى الْهَوَاءِ بَعْدَ الْمَاءِ، وَكَشَطَ الله لَهُ عَنِ السَّمَاوَاتِ حَتَّى رَأَاهُنَّ وَمَا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَحَمَلَةِ الْعَرْشِ.

(٢) وَنَحْوَهُ رَوَى الْعِيَّاشِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ج ١ ص ٣٦٣ - ٣٦٤ ح ٣٦ - ٣٤.

قلنا: لا يمتنع أن يجعل الله تعالى منها خروفاً ومنافذ، ويقوِّي شعاعه حتى ينفذ فيها فيرى ما فوقها وما تحتها، ولا يمنع من ذلك مانع. ومثل هذا روي^(١) عن مجاهد والسدي وسعيد بن جبير وسلمان. قوله تعالى:

فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى الْكُوكَبَ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ إِلَّافِلِينَ ﴿٧٦﴾
فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ
الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا
أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ أربع آيات بلا خلاف.
أقول: قرأ ابن ذكوان^(٢) وحزمة والكسائي وخلف ويحيى^(٣)
والكسائي عن أبي بكر بكسر الراء وإمالة الهمزة منه ومن قوله: ﴿رَأَى
أَيْدِيَهُمْ﴾ في هود^(٤) و ﴿رَأَى قَمِيصَهُ﴾ و ﴿رَأَى بَرَهَانَ رَبِّهِ﴾ في يوسف^(٥)
و ﴿رَأَى نَارًا﴾ في طه^(٦) و ﴿مَا رَأَى﴾ و ﴿لَقَدْ رَأَى﴾ في النجم^(٧) سبعة
مواضع، وهو ما لم يلقه ساكن ولم يتصل بمكني، وافقهم العلّيمي في
﴿رَأَى كُوكَبًا﴾ حسب. وقرأ أبو عمرو بفتح الراء وإمالة الهمزة فيهنّ.
الباقون بفتح الراء والهمزة.

فإن لقي ﴿رَأَى﴾ ساكناً، وهو ستّة مواضع: هاهنا: ﴿رَأَى الْقَمَرَ﴾

(١) رواه عنهم الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٦٠ - ١٦١.

(٢) هو عبدالله بن أحمد الفهري الدمشقي، شيخ الإقراء بالشام وإمام جامع دمشق، توفي سنة ٢٤٢ هـ. (غاية النهاية للجزري: ج ٢ ص ١٦٨).

(٣) هو يحيى بن آدم، روى القراءة عن أبي بكر بن عياش وروى عنه الإمام أحمد، توفي سنة ٢٠٣ هـ. (غاية النهاية: ج ٢ ص ٣٦٣). (٤) الآية: ٧٠.

(٥) الآية: ٢٤ و ٢٨ على الترتيب. (٦) الآية: ١٠. (٧) الآية: ١١ و ١٨.

و﴿رَأَى الشَّمْسُ﴾ وفي النحل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ و﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾^(١) وفي الكهف: ﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ﴾^(٢) وفي الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٣)^(٤) بكسر الراء وفتح الهمزة فيهن حمزة وخَلَف وبصير^(٥) وأبو بكر إلا الأعشى والبرجُمي، الباقون بفتح الراء والهمزة. فإن اتَّصل ﴿رَأَى﴾ بِمَكْنِيٍّ نحو: «رَأَاه» و«رَأَاكَ» و«رَأَاهَا» فكسر الراء وأمال الهمزة من حيث وقع حمزة والكسائي وخَلَف ويحيى والكسائي عن أبي بكر.

وقرأ أبو عمرو والداجوني عن ابن ذَكْوَان بفتح الراء وإمالة الهمزة، الباقون بفتحهما. قال أبو عليّ الفارسي: وجه قراءة من لم يُملِّهما^(٦) أَنَّهُ ترك الإمالة كما ترك الإمالة في قولهم: «دعا» و«رمى» فلمَّا لم يُجِلْ الألف لم يُجِلْ الألف التي قبلها، كما أمالها مَنْ يَرَى الإمالة لِيُجِلْ الألف نحو الياء.

وَمَنْ قرأ بين الفتح والكسر - كما قرأ نافع - فلا يخلو أن يريد الفتحَيْن اللَّتَيْنِ على الراء والهمزة، أو الفتحة التي على الهمزة وحدها. فإن كان يريد فتحة الهمزة فإنَّما أمالها نحو الكسرة ليميل الألف التي في ﴿رَأَى﴾ نحو الياء، كما أمال الفتحة التي على الدال من «هدى» والميم من «رمى» وإن كان يريد أَنَّهُ أمالَ الفتحَيْن جميعاً التي على الراء والتي على

(١) الآية: ٨٥ و٨٦. (٢) الآية: ٥٣. (٣) الآية: ٢٢.

(٤) يظهر من سياق الجملة أَنَّهُ ينبغي هاهنا إضافة - كلمة «قرأ» وكذا استظهره محشي النسخة - الحجرية.

(٥) كذا، وفي نسخة: «مُصَر» وكلاهما تصحيف «نُصِير» وهو نُصَيْر بن يوسف الرازي ثمَّ البغدادي، من جُلَّة أصحاب الكسائي والراوين عنه.

(٦) كذا في الحجرية، وفي المطبوع: لم يملها.

الهمزة، فإمالة فتحة الهمزة على ما تقدّم ذكره، وأمّا إمالة الفتحة التي على الراء فإنّما أمالها لاتباعها إمالة فتحة الهمزة، كأنّه أمال^(١) الفتحة في قولك: «من عامر» لكسرة الراء كذلك أمّلت فتحة الراء من «رأى» لإمالة الفتحة التي على الهمزة، والتقديم والتأخير في ذلك سواء.

ومن كسر الراء والهمزة فالوجه فيه: أنّه كسر الراء من «رأى» لأنّ المضارع منه على «يَفْعَل» وإذا كان المضارع منه على «يَفْعَل» كان الماضي على «فَعِلَ» ألا ترى أنّ المضارع في الأمر العامّ إذا كان على «يَفْعَل» كان الماضي على «فَعِلَ» وعلى هذا قالوا: «إيتِ بيّننا» فكسروا حرف المضارعة، كما كسروه في نحو: «يَعْلَم» و «يَفْهَم». وكسروا الياء أيضاً في هذا الحرف، فقالوا: «إيتنا» ولم يكسروها في «يَعْلَم» وإذا كان الماضي على «فَعِلَ» فيما يُترك كسر الراء التي هي فاء، لأنّ العين همزة، وحروف الحلق إذا جاءت في كلمة على زنة «فَعِلَ» كُسِرَتْ فيها الفاء لكسر^(٢) العين في الاسم والفعل، نحو قولهم: «عَيَّرَ قَعِرٌ» و «رَجُلٌ حَبِيرٌ» و «فَجِلٌ» وفي الفعل نحو: «شَهَدَ» و «لَعِبَ» و «نَعِمَ». فكسرة الياء على هذا كسرة مخلصه محضة، وليست بفتحة مُمالة، وأمّا كسرة الهمزة فإنّه يُراد به إمالة فتحها إلى الكسرة، ليميل الألف نحو الياء.

ومن ترك الإمالة إذا لَقِيَهَا ساكنٌ فإنّهم كانوا يُميلون الفتحة ليميل الألف نحو الياء، فلمّا سقطت الألف التي كانت الفتحة الممالة يميلها نحو الياء في مثل: «رأى الشمس» و «رأى القمر» ونحوهما في جميع القرآن، ومن وافق في بعض ذلك دون بعضٍ أحبّ الأخذ باللبس.

(٢) في الحجرية: كسرت.

(١) وأيضاً في الحجرية: فكما أنّه أمّلت، ظ.

ووجه قراءة أبي بكر وحمزة في ﴿رَأَى الشمس﴾ و ﴿رَأَى القمر﴾ بكسر الراء وفتح الهمزة في جميع القرآن: أن كسر الراء إنما هو للتنزيل الذي ذكرناه، وهو معنى منفصل من إمالة فتحة الهمزة، ألا ترى أنه يجوز أن يعمل هذا المعنى من لا يرى الإمالة كما يجوز أن يعمل من يراها، وإذا كان كذلك كان انفصال أحدهما من الآخر سائغاً غير ممتنع.

فأما رواية يحيى عن أبي بكر بكسر الراء والهمزة معاً فإنما يريد بكسرة الهمزة إمالة فتحتها فوجه كسر الراء، وذكروا إمالة فتحها مع زوال ما كان يوجب إمالتها من حذف الألف، فلأن الألف محذوفة لالتقاء الساكنين، وما يحذف لالتقاء الساكنين نزل تنزيل المثبت، ألا ترى أنهم أنشدوا:

ولا ذاكر الله إلا قليلاً^(١)

فنصب الاسم بعد «ذاكر» وإن كانت النون محذوفة لما كان الحذف لالتقاء الساكنين، والحذف لذلك في تقدير الإثبات من حيث كان التقاؤهما غير لازم، ولذلك لم يرد الألف في نحو: رمت المرأة، ويشهد لذلك أنهم قالوا: «شهد» فكسروا الفاء لكسر العين، ثم أسكنوا فقالوا: «شهد» فبقوا الكسرة في الفاء مع زوال ما كان أصلها، وأنشد قول الأخطل: إذا غاب عنا غاب عنا قرائنا وإن شهد أجدى فضله وجداوله^(٢) وقالوا: «صعق» ثم نسبوا إليه فقالوا: «صعقي» فأقروا كسرة الفاء مع زوال كسرة العين التي لها كسرت الفاء. وزعم أبو الحسن: أن ذلك لغة مع ما فيه من وجوه التلبيس، وأنها قراءة.

(١) لأبي الأسود الدؤلي، وصدرة: فالفيتة غير مستعتب. راجع ديوان أبي الأسود: ص ٤٩.

(٢) من قصيدة طويلة يذكر أهله ودياره. راجع ديوان الأخطل: ص ١٢٦.

يقال: جَنَّ عليه الليلُ، وجَنَّهُ الليلُ، وأَجَنَّهُ، وأَجَنَّ عليه. ومع حذف «على» فأَجَنَّهُ - بالالف - أفصح من جَنَّهُ الليل، وكلُّ ذلك مسموع، فَلُغَةُ أَسَد: جَنَّهُ الليلُ، ولغة تميم: أَجَنَّهُ، والمصدر من «جَنَّ عليه»: جَنَّا وَجُنُونًا وَجَنَانًا، و «أَجَنَّ»: إِجْنَانًا، ويُقال: أَتَانَا فَلَانٌ فِي جِنِّ اللَّيْلِ. و «الْجِنُّ» مشتقٌّ من ذلك، لأنَّهم استَجَنُّوا عن أعين الناس فلا يُرَوْنَ، وكلُّ ما تَوَارَى عن أبصار الناس فَإِنَّ الْعَرَبَ تقول: قد جَنَّ، ومنه قول الهذلي:

وماءٍ ^(١) وَرَدْتُ قَبِيلَ الْكَرَى وقد جَنَّهُ السَّدْفُ الْأَذْهَمُ ^(٢)

وقال عبيد:

وَخَزَقِي يَصِيحُ النُّومُ فِيهِ مَعَ الصَّدَى

مَخُوفٍ إِذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ مَرَهُوبٍ ^(٣)

وتقول: أَجَنَّتْ الْمَيِّتَ إِذَا وَارَيْتَهُ فِي اللَّحْدِ وَجَنَّتْهُ، وهو مثل جُنُونِ اللَّيْلِ فِي مَعْنَى: غَطَّيْتَهُ وَسَمَّيْتُ التَّرْسَ مَجَنًّا لِأَنَّهُ يَجَنُّ أَي: يَغْطِي، وقال الشاعر: فَلَمَّا أَجَنَّ اللَّيْلُ بَشْنَا كَأَنَّا عَلَى كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ مُحْتَزِّسَانِ ^(٤) قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أَي: أَظْلَمَ، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفْلَ﴾ معناه: غَابَ، يُقَالُ: أَفْلَ يَأْفُلُ أَفُولًا، وتقول: أَيْنَ أَفَلْتَ عَنَّا، وَأَيْنَ غِبْتَ عَنَّا، قال ذو الرُّمَّة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نُجُومٌ وَلَا بِالْأَفَلَاتِ الدَّوَالِكِ ^(٥)

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: وَلَمَّا وَرَدَتْ.

(٢) لَعِيَاضُ بْنُ خُوَيْلِدٍ الْخَنَاعِي، وَقِيلَ لغيره. رَاجِعْ دِيوانَ الْهَذَلِيِّينَ: ج ٣ ص ٥٦.

(٣) مِنْ قَصِيدَةٍ يَذْكُرُ فِيهَا أَهْلَهُ وَيُبْكِي عَلَيْهِمْ. رَاجِعْ دِيوانَ عَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ: ص ٣٨ وفيه: وَخَزَقِي تَصِيحُ الْهَامِ. (٤) أَنشَدَهُ الْأَخْفَشُ فِي الْمَعَانِي: ج ٢ ص ٤٩٤ وَلَمْ يَنْسِبْهُ لِأَحَدٍ.

(٥) مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ يَصِفُ إِبِلًا. رَاجِعْ دِيوانَ ذِي الرُّمَّةِ: ص ٥٨٣.

وقوله: ﴿رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا﴾ أي: طالعا، يُقال: بَزَغَتِ الشمسُ بُزُوعًا إذا طَلَعَتْ، وكذلك القمر. وقوله للشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وهي مؤنثة معناه: هذا الشيء الطالع ربِّي، أو على: أَنَّهُ حين ظَهَرَتِ الشمس وقد كانوا يذكرون الربَّ في كلامهم، فقال لهم: هذا ربِّي.

وقيل في معنى هذه الآية وجوه أربعة:

أحدها - ما قاله الجُبَّائي - : إِنَّ ما حكى الله عن إبراهيم في هذه الآيات كان قبل بلوغه، وقبل كمال عقله ولزوم التكليف له، غير أَنَّهُ لمقارنته كمال العقل خَطَرَتْ له الخواطر، وحرَّكته الشبهات والدواعي عن الفكر فيما يشاهده من هذه الحوادث، فلَمَّا رأى الكوكب - وقيل: إِنَّه الزهرة - [و] بَانَ نوره مع تنبُّهه بالخواطر على الفكر فيه وفي غيره ظَنَّ أَنَّهُ رَبَّهُ، وَأَنَّهُ هو المُخَدِّثُ لِمَا يشاهده من الأجسام وغيرها ﴿فلَمَّا أَقْلَ قال لا أَحَبَّ الْآفَلِينَ﴾ لَأَنَّهُ صار منتقلا من حال إلى حال، وذلك منافٍ لصفات القديم ﴿فلَمَّا رأى القمر بازغًا﴾ عند طلوعه رأى كبره وإشراق ما انبسط من نوره في الدنيا ﴿قال هذا رَبِّي﴾ فلَمَّا راعاه وجده يزول ويأفل، فصار عنده بحكم الكوكب الَّذي لا يجوز أن يكون بصفة الإله لتغييره وانتقاله من حال إلى حال ﴿فلَمَّا رأى الشمس بازغًا﴾ أي: طالعة قد مَلَأَتِ الدنيا نوراً ورأى عظمها وكبرها ﴿قال هذا رَبِّي هذا أكبر فلَمَّا أَقْلَتْ﴾ وزالت وغابت فكانت شبيهةً بالكوكب والقمر قال حينئذٍ لقومه: ﴿إِنِّي بريء ممَّا تشركون﴾ فلَمَّا أكمل الله عقله ضبط بفكره النظر في حدوث الأجسام بأن وجدها غير منفكة من المعاني المحدثه، وَأَنَّهُ لا بدَّ لها من مُخَدِّثٍ، قال حينئذٍ لقومه: ﴿إِنِّي وجَّهْتُ وجهي للَّذي فطر السموات والأرض﴾ إلى آخرها.

والثاني: ما قاله البلخي وغيره من أنَّ هذا القول كان من إبراهيم في زمان مهلة النظر، لأنَّ مهلة النظر مدَّة الله العالم بمقدارها، وهي أكثر من ساعة، وقال البلخي: وأقلَّ من شهر، ولا يدري ما بينهما إلاَّ الله، فلمَّا أكمل الله عقله، وخطر بباله ما يوجب عليه النظر، وحَرَكَته الدواعي على الفكر والتأمُّل له قال ما حكاه الله، لأنَّ إبراهيم عليه السلام لم يُخلَق عارفاً بالله، وإنَّما اكتسب المعرفة لمَّا أكمل الله عقله، وخوَّفه من ترك النظر بالخواطر، فلمَّا رأى الكوكب - وقيل ^(١): هي الزُّهرة - رَأَى عِظَمَهَا وإشراقها وما هي عليه من عجب الخلق، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويزعمون أنَّها آلهة ﴿قال هذا ربِّي﴾ على سبيل الفكر والتأمُّل لذلك، فلمَّا غابت وأقَلَّت، [و] علم أنَّ الأُقول لا يجوز على الله عِلْمُ أنَّها مُحَدَّثَةٌ متغيِّرة لتقلُّبها، وكذلك كانت حاله في رؤية القمر والشمس، وأنَّه لمَّا رأى أُفولهما قطع على حدوثهما واستحالة إلهيَّتهما، وقال في آخر كلامه: ﴿إني بريء ممَّا تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾ وكان هذا القول منه عقيب معرفته بالله وعلمه بأنَّ صفات المُحدَّثين لا تجوز عليه.

فإن قيل: كيف يجوز أن يقول: ﴿هذا ربِّي﴾ مُخْبِراً، وهو يجوز أن يكون مُخْبِره لا على ما أخبر، لأنَّه غير عالم بذلك، وذلك قبيح في العقول، ومع كمال عقله لا بدَّ أن يلزمه التحرُّز من الكذب؟! قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما: أنَّه قال ذلك فارضاً مقدَّراً لا مُخْبِراً، بل على سبيل الفكر

والتأمل، كما يقول الواحد منا لغيره إذا كان ناظراً في شيء ومُحْتَمِلاً^(١) بين كونه على إحدى صفتَيْهِ، إِنَّا نفرضه على إحداهما للنظر فيما يُوَدِّي ذلك الفرض إليه من صحّةٍ أو فسادٍ، لا يكون بذلك مُخَيِّراً، ولهذا يصحّ من أَحَدِنَا إذا نظر في حُدُوث الأجسام وقَدَمِهَا أن يفرض كونها قديمة ليتبين ما يُوَدِّي إليه ذلك الفرض من الفساد.

والثاني: أَنَّهُ أخبر عن ظنّه، وقد يجوز أن يكون المفكّر المتأمل ظانّاً في حال نظره وفكره ما لا أصل له ثم يرجع عنه بالأدلة والعلم، ولا يكون ذلك منه قبيحاً.

فإن قيل: ظاهر هذه الآيات يدلّ على أن إبراهيم ما كان رأى هذه الكواكب قبل ذلك، لأنّ تعجّبه منها تعجّب من لم يكن رآها، فكيف يجوز أن يكون إلى مدّة كمال عقله لم يشاهد السماء وما فيها من النجوم؟! قلنا: لا يمتنع أن يكون ما رأى السماء إلّا في ذلك الوقت، لأنّه رُوي أن أمّه ولدته في مغارة لا يَرَى السماء، فلَمَّا قارب البلوغ وبلغ حدّ التكليف خرج من المغارة ورأى السماء وفكّر فيها. وقد يجوز أيضاً أن يكون رآها غير أَنَّهُ لم يفكّر فيها ولا نظر في دلالتها، لأنّ الفكر لم يكن واجباً عليه، فلَمَّا كَمُلَ عقله وحركته الخواطر فكّر في الشيء الَّذي كان يراه قبل ذلك ولم يكن مفكراً فيه.

والثالث: أن إبراهيم لم يقل ما تضمّنته الآيات على وجه الشكّ، ولا في زمان مهلة النظر، بل كان في تلك الحال عالماً بالله وبما يجوز عليه، فإنّه لا يجوز أن يكون بصفة الكواكب، وإنّما قال ذلك على سبيل

(١) في الحجرية: ممثلاً.

الإنكار على قومه، والتنبيه لهم على أن ما يغيب وينتقل من حالٍ إلى حال لا يجوز أن يكون إلهاً معبوداً، لثبوت دلالة الحدّث فيه. ويكون قوله: ﴿هذا ربّي﴾ محمولاً على أحد وجهين:

أحدهما: أي: هو كذلك عندكم وعلى مذهبكم، كما يقول أحدنا للمشبه على وجه الإنكار عليه: «هذا ربّي جسم يتحرّك ويسكن» وإن كان عالماً بفساد ذلك.

والثاني: أن يكون ذلك مستفهماً، وأسقط حرف الاستفهام للاستغناء عنه، كما قال الأخطل:

كَذَّبْتَكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلَامُ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالاً^(١)
وقال آخر:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيّاً

بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الْجَمْرَ أَمْ بِثَمَانٍ^(٢)

وقال ابن أبي ربيعة:

ثُمَّ قَالُوا: تَحِبُّهَا؟ قُلْتُ: بَهْرًا عَدَدَ الْقَطْرِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ^(٣)
وقال أوس بن حَجَر^(٤):

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيّاً

شُعَيْبُ بْنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْبُ بْنُ مَنَفَرٍ

(١) من قصيدة يهجو جريراً ويمدح قومه. راجع ديوان الأخطل: ص ٢٤٦.

(٢) لعمر بن أبي ربيعة. ويروى الصدر: فوالله ما أدري وإنّي لحاسب. راجع ديوان ابن أبي ربيعة: ص ٢٦٦. (٣) من قصيدة له. راجع ديوان ابن أبي ربيعة: ص ٤٣١. فيه: عدد النجم.

(٤) كذا تبعاً للطبري، ولم نجده في ديوانه، وفي كتاب سيبويه: ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ منسوب إلى الأسود بن يَغْفَر نقل عنه: شُعَيْثُ بْنُ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْثُ بْنُ مَنَفَرٍ.

وإنما أراد: أشعيبُ بن منقر.

فإن قيل: حذف حرف الاستفهام إنما يجوز إذا كان في الكلام عوضاً منه نحو: «أم» الدالة عليه، ولا يستعمل مع فقد العوض، وفي الأبيات عوض عن حرف الاستفهام وليس ذلك في الآية.

قلنا: قد يحذف حرف الاستفهام مع ثبوت العوض تارة وأخرى مع فقدّه إذا زال اللبس، وبیت ابن أبي ربيعة ليس فيه عوض ولا فيه حرف الاستفهام، وأنشد الطبري:

رَفَوْنِي وَقَالُوا: يَا خُوَيْلِدُ لِمَ تُرْعُ

فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوَجُوهَ: هُمْ هُمْ؟^(١)

أي: أهُم هُمْ؟ ورؤي عن ابن عباس في قوله: ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ [أنه] قال: معناه: أفلا اقتحم العقبة؟^(٢) وحذف حرف الاستفهام. وإذا جاز أن يحذفوا حرف الاستفهام لدلالة الخطاب جاز أن يحذفوه لدلالة العقل، لأنّ دلالة العقل أقوى من غيرها.

والرابع: أن إبراهيم قال ذلك على وجه المحاجة لقومه بالنظر، كما يقول القائل: إذا قلنا: إن الله ولدنا لزمنا أن نقول: له زوجة، وأن يطاء النساء ... وأشبه ذلك، وليس هذا على وجه الإقرار والإخبار والاعتقاد بذلك، بل على وجه المحاجة، فيجعلها مذهباً ليرى خصمهُ المعتقد لها فسادها.

وكلّ هذه الآيات فيها تنبيه لمشركي العرب، وزجر لهم عن عبادة الأصنام، وحثّ على الأخذ بدين إبراهيم أبيهم وسلوك سبيله في النظر والفكر والتدين، لأنهم كانوا قوماً يعظمون أسلافهم وآباءهم، فأعلمهم الله

(١) البيت منسوب لأبي خراش الهذلي. راجع ديوان الهذليين: ج ٢ ص ١٤٤.

(٢) راجع تفسير ابن عباس: ص ٥١١. والآية: ١١ من سورة البلد المباركة.

تعالى أَنْ اتَّبَعَ الْحَقُّ مِنْ دِينِ أَبِيهِمُ الَّذِي يَقْرُونَ بِفَضْلِهِ أَوْجِبَ عَلَيْهِمْ إِنْ كَانَ بِهِمْ تَعْظِيمُ الْآبَاءِ وَالْكَرَاهَةُ لِمَخَالَفَتِهِمْ.

وفي الآية دلالة على أَنَّ معرفة الله ليست ضرورية، لأنها لو كانت ضرورية لما احتاج إبراهيم إلى الاستدلال على ذلك، ولكان يقول لقومه: كيف تعبدون الكواكب وأنتم تعلمون حدوثها وحدوث الأجسام ضرورة؟ وتعلمون أَنَّ لها مُخْدِثاً على صفات مخصوصة ضرورة؟ وما كان يحتاج إلى تكلف الاستدلال والتنبيه على هذا.

وقوله: ﴿لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ معناه: لئن لم يلطف بي ويسدّني ويوقّني لإصابة الحقّ في توحيده ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ الَّذِينَ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ وَأَخْطَأُوا طَرِيقَهُ، فلم يصيبوا الهدى. وليس الهداية هاهنا الأدلّة، لأنّ الأدلّة كانت سبقت حال زمان النظر، فإنّ التكليف لا يحسن من دونها ولا يصحّ مع فقدها.

وقوله في الشمس: ﴿هَذَا أَكْبَرُ﴾ يعني: من الكواكب، وحُذِفَ لدلالة الكلام عليه.

وقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ معناه: أَخْلَصْتُ عِبَادَتِي وَقَصَدْتُ بِهَا إِلَى اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وفيه إخبار عن إبراهيم وإقرار منه واعتراف منه بأنّه عليه السلام خالف قومه أهل الشرك، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قول الحقّ لقلة تابعيه، وقال لهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ مع الله - الَّذِي خَلَقَنِي وَخَلَقَكُمْ - في عبادته من آلهتكم، بل ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ في عبادتي إِلَى الَّذِي خَلَقَ ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الَّذِي يَبْقَى وَلَا يَفْنَى، الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوت.

وأخبر أنه يوجّه^(١) عبادته ويخلصها له تعالى، و^(٢) الاستقامة في ذلك لربه على ما يجب من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجّه له من حيث ليس بحنيف. ومعنى «الحنيف»: هو المائل إلى الاستقامة على وجه الرجوع فيه ﴿وما أنا من المشركين﴾ إني لست منكم، ولا ممن يدين بدينكم ويتبع ملتكم أيها المشركون.

قوله تعالى:

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ آية عند الجميع. أقول: قرأ أهل المدينة وابن ذكوان: ﴿أتحاجوني﴾ بتخفيف النون، الباقون بتشديدها. وقرأ الكسائي والعيسوي ﴿وقد هداني﴾ بالإمالة، الباقون بالتفخيم.

قال أبو علي: من شدد فلا نظر في قوله، ومن خفف فإنه حذف النون الثانية لالتقاء النونين، والتضعيف يكره، فيتوصل إلى إزالته تارةً بالحذف نحو: علماء بني فلان^(٣) وتارةً بالإبدال نحو: لا أملاه^(٤) حتى تفارقا، ونحو: «ديوان» و «قيراط» فحذفوا الثانية منهما كراهية التضعيف، ولا يجوز أن يكون المحذوفة الأولى لأن الاستثقال يقع بالتكرير في الأمر الأعم، وفي الأولى - أيضاً - أنها دلالة الإعراب ولذا حذفت الثانية^(٥) كما

(١) في الحجرية: يوحد.

(٢) في الحجرية زيادة: «يؤثر» تصحيحاً.

(٣) في نسخة: «علم أني فلان». ولا يخفى أن أصله: «بني فلان» بياء ين.

(٤) وأصله: «أملله» بلامين.

(٥) وتقرير كلامه ﷺ هو: أنه لا يجوز أن تكون المحذوفة الأولى لأن الاستثقال بها حصل، وأيضاً: فإن الأولى علامة الرفع، وعلامة الرفع لا تحذف إلا بعامل.

حذف الشاعر في قوله:

لَيْتِي

أُصَادِفُهُ وَأَقْفُدُ [يذهب، خ] بَعْضَ مَالِي^(١)

وقال بعضهم: حذف هذه النون لغة غَطَفَان. وحكى سيبويه^(٢) هذه القراءة مستشهداً بها في حذف النونات كراهية التضعيف.

وأما إمالة ﴿هَذَانِي﴾ فحسنة، لأنه من: هَدَى يَهْدِي، فهو من الياء، وإذا كانوا أمالوا «عَزَاء» و «وعاء» لأنه قد يصير إلى الياء في «عزى» و «وعى» فهذا لا إشكال في حسنه.

قوله: ﴿وَحَاجَّهَ قَوْمَهُ﴾ يعني: في وجوب عبادة الله وترك عبادة آلهتهم، وخوفوه مِنْ تَرْكِهَا، وَأَنْ لَا يَأْمَنَ أَنْ يَحِيلَهُ آلِهَتُهُمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، فَقَالَ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ بِأَنْ وَقَفَنِي لِمَعْرِفَتِهِ، وَلَطَّفَ بِي فِي الْعِلْمِ بِتَوْحِيدِهِ وَتَرْكِ الشَّرِكِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرَكُونَ بِهِ﴾ أَي: لَا أَخَافُ مِنْهُ ضَرَرًا إِنْ كَفَرْتُ بِهِ، وَلَا أَرْجُو نَفْعًا إِنْ عَبَدْتُهُ، لِأَنَّهُ بَيْنَ صَنْمٍ قَدْ كُسِرَ فَلَمْ يَدْفَعْ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ نَجْمٍ دَلَّ أَقْوَلُهُ عَلَى حَدَثِهِ، فَكَيْفَ تَحَاجُّونِي وَتَدْعُونِي إِلَى عِبَادَةِ مَنْ لَا يُخَافُ ضَرْرَهُ وَلَا يُرْجَا نَفْعُهُ؟!

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ فِيهِ قَوْلَان:

أحدهما: إِلَّا أَنْ يَقْلِبَهَا اللَّهُ فِيحْيِيهَا وَيَقْدِّرَهَا فَتَضُرَّ وَتَنْفَعُ، فَيَكُونُ ضَرَرُهَا وَنَفْعُهَا إِذْ ذَاكَ دَلِيلًا عَلَى حَدَثِهَا أَيْضًا، وَعَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ الْمُسْتَحَقُّ لِلْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَلِكِهِ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيْهِ

(١) وصدر البيت هكذا: كُئِنِّي جَابِرٌ إِذْ قَالَ لَيْتَنِي. أنشده أبو زيد في نوادر اللغة: ص ٦٨ ونسبه إلى زيد الخيل الطائي.
(٢) في الكتاب: ج ٣ ص ٥١٩ - ٥٢٠.

تعالى فأخبر بأنه عالم بكل شيء، وأمرهم بالتذكّر والتدبّر لِمَا أورده عليهم ممّا لا يدفعونه، ولا يقدرّون على إنكاره إن أنصفوا.

الثاني: قال الحسن: قوله: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي: لا أخاف الأوثان ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أستوجبُهُ على الله تعالى، ويشاء الله أن يدخلني في ملككم ^(١) بالكفر. والأوّل هو الأجود.

﴿أَتُحَاجُّونِي﴾ أصله: «أَتُحَاجُّونِي» بنونين: إحداهما للجمع والأخرى لاسمة، فأذغمت إحداهما في الأخرى، فشدّدت، ومثله: ﴿تَأْمُرُونِي﴾ ^(٢) وقد يُخَفَّف مثل هذا في بعض المواضع، قال الشاعر:

أَبَا الْمَوْتِ الَّذِي لَا بَدَّ أَتَيْ مَلَاقٍ لَا أَبَاكَ تُخَوِّفِينِي ^(٣)

فجاء بنونٍ واحدةٍ وخفّفها، والأوّل أجود وأكثر في العربيّة.
قوله تعالى:

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية احتجاج من إبراهيم عليه السلام على قومه وتأكيّد لما قدّم من الحجاج، لأنّه قال لهم: ﴿وكيف﴾ تلزموني أن ﴿أخاف ما أشركتم﴾ به من الأوثان المخلوقة وقد تبين حالهم، وأنهم لا يضرّون ولا ينفعون ﴿و﴾ أنتم ﴿لا تخافون﴾ من هو القادر على الضّر والنفع، بل تجترّئون عليه وتتقدّمون بين يديه بأن تجعلوا له شركاء في ملكه وتعبّدونهم من دونه ﴿فأَيُّ الفريقين أحقّ بالأمن﴾ نحن المؤمنون الذين

(٢) الزمر: ٦٤.

(١) في المطبوع: ملّكنكم.

(٣) أنشده في مجاز القرآن: ج ١ ص ٣٥٢ ونسبه إلى حيّة النُميري.

عرفنا الله بأدلته ووجهنا العبادة نحوه، أم أنتم المشركون بعبادته ^(١) غيره من الأصنام والأوثان؟ ولو أطرحت الميل والمحبة والعصبية لما وجدت لهذا الحجاج مدفعاً.

وقوله: ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، لأن «السلطان» هو الحجة في أكثر القرآن، وذلك يدل على أن كل من قال قولاً واعتقد مذهباً بغير حجة مبطل.

وقوله: ﴿إن كنتم تعلمون﴾ معناه: إن كنتم تستعملون عقولكم وعلومكم، وتحكمونها على ما تهوونه وتميل إليه أنفسكم.

وفي الآية دلالة على فساد قول من يقول بالتقليد وتحريم النظر والحجاج، لأن الله تعالى مدح إبراهيم لمحاجته لقومه، وأمر نبيه بالاعتداء به في ذلك فقال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ ^(٢) ثم قال بعد ذلك: ﴿أولئك الذين هدى الله فيهداهم اقتده﴾ ^(٣) أي: بأدلتهم اقتده.

قوله تعالى:

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾
آية عند الجميع.

أقول: تحتل هذه الآية أن تكون إخباراً عن الله تعالى دون الحكاية عن إبراهيم، بأنه قال تعالى: إن من عرف الله تعالى وصدق به وبما أوجب عليه ولم يخلط ذلك بظلم فإن له الأمن من الله بحصول الثواب والأمان من العقاب، وهو المحكوم له بالاهتداء، وهو قول ابن إسحاق وابن زيد والطبري والجبائي وابن جرير.

وقال البلخي: إنَّ ذلك من قول إبراهيم، لأنَّه لمَّا قطع خصمه وألزمه الحجَّة أخبر أنَّ الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ فَإِنَّهُمْ الْآمِنُونَ المهتدون، قال: وكذلك يفعل مَنْ وضحت حجَّته وانقطع بعد البيان خصمه. والظُّلم المذكور في الآية هو الشُّرك عند أكثر المفسِّرين: ابن عباس وسعيد بن المسيَّب وقَتَادَة ومجاهد وحَمَّاد بن زيد وأبي بن كَعْب وسلمان رحمة الله عليه قال: ألَمْ تسمع قوله: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) وهو قول حُذَيْفَة.

ورُوِيَ عن عبدالله بن مسعود أنَّه قال: لمَّا نزلت هذه الآية شقَّ على الناس وقالوا: يا رسول الله وأَيْنَا لا يظلم نفسه؟ فقال: إِنَّه ليس الَّذي تعنون، ألَمْ تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

وقال الجُبَّائي والبلخي وأكثر المعتزلة: إِنَّه يدخل فيه كلَّ كبيرة تحبط ثواب الطاعة، قال: مَنْ هذه صورته لا يكون آمناً ولا مهتدياً. قال البلخي: ولو كان الأمر على ما قالوه إِنَّه يختصُّ الشُّرك لَوَجَبَ أَنْ يكون مرتكب الكبيرة إذا كان مؤمناً يكون آمناً، وذلك خلاف القول بالإرجاء.

وهذا الَّذي ذكروه خلاف أقاويل المفسِّرين من الصحابة والتابعين، وما قاله البلخي لا يلزم، لأنَّه قول بدليل الخطاب، لأنَّ المشرك غير آمن بل هو مقطوع على عقابه بظاهر الآية، ومرتكب الكبيرة غير آمن لأنَّه يجوز العفو ويجوز المؤاخظة وإن كان ذلك معلوماً بدليل. وظاهر قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وإن كان عاماً في كلِّ ظلمٍ فلنا أن نخصَّه

(١) لقمان: ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ٧١، والترمذي في السنن: ج ٥ ص ٢٦٢ ح ٣٠٦٧.

بدليل أقوال المفسرين وغير ذلك من الأدلة الدالة على أنه يجوز العفو من غير توبة.

وروي عن عليّ عليه السلام: أَنَّ الآية مخصوصة بإبراهيم ^(١).

وقال عكرمة: مختصة بالمهاجرين ^(٢).

وأما «الظلم» في أصل اللغة فقد قال الأضمعي: هو وضع الشيء في غير موضعه ^(٣). قال الشاعر يمدح قومًا:

هُرْتُ الشَّقَاشِقَ ظَلَامُونَ لِلْجُزْرِ ^(٤)

فوصفهم أَنَّهُمْ ظَلَامُونَ لِلْجُزْرِ، لَأَنَّهُمْ عَزَبَوْهَا فَوَضَعُوا النَّخْرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وكذلك الأرض المظلومة سَمِيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ صُرِفَ عَنْهَا الْمَطَرُ، ومنه قول الشاعر:

والتَّوْيُّ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلَدِ ^(٥)

سَمَّاها «مظلومة» لَأَنَّهُمْ كَانُوا فِي سَفَرٍ فَتَحَوَّضُوا حَوْضًا لَمْ يَحْكُمُوا صَنَعَتَهُ، وَلَمْ يَضَعُوهُ فِي مَوْضِعِهِ.

قوله تعالى:

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ

حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٢﴾ آية بلا خلاف.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٧٠، والحاكم في المستدرک: ج ٢ ص ٣١٦ بالسند عن زياد بن حرمة عنه عليه السلام.

(٢) حكى القول عنه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٧١ مسنداً.

(٣) حكاه عنه الأزهري في التهذيب: ج ١٤ ص ٣٨٣.

(٤) وصدده: عاد الأدلة في داروكان بها. أنشده في تهذيب اللغة: مادة «ظلم» ونسبه إلى ابن مقبل.

(٥) وصدده: إلا الأواري لاياً ما أبتئها. للنابعة الذبياني من قصيدة يمدح بها النعمان والتي اعتبرت من المعلقات العشر. راجع ديوان النابعة: ص ١٩.

أقول: قرأ أهل الكوفة ويعقوب: ﴿درجاتٍ مَن نشاء﴾ وَمَن نَّوْنُ أَرَادَ أَنَّ المرفوع «صاحب الدرجات» وتقديره: نرفع مَن نشاء درجاتٍ. و«الدرجات» معناها: المراتب وفي أصل اللغة هي المراقي، فشبه علو المنازل بها.

أخبر الله تعالى أَنَّ الحُجَجَ الَّتِي ذَكَرَهَا إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ لِقَوْمِهِ إِتَاهَا^(١) وَأَعْطَاهَا إِتَاهُ، بمعنى: أَنَّهُ هَدَاهَا لَهَا، وَإِنَّهُ احْتَجَّ بِهَا بِأَمْرِ اللَّهِ، وَرَضِيَهَا مِنْهُ وَصَوَّبَهَا فِيهَا، وَلِهَذَا جَعَلَهَا حُجَّةً عَلَى الْكَفَّارِ.

وقوله: ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ من المؤمنين الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَيُطِيعُونَهُ، وَيَبْلُغُونَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالِدَعَاءِ إِلَى اللَّهِ مَنْزِلَةً عَظِيمَةً أَعْلَى دَرَجَةً مِّمَّنْ لَمْ يَبْلُغْ مِنَ الْإِيمَانِ مِثْلَ مَنْزِلَتِهِمْ، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ ﴿حَكِيمٌ﴾ فِيمَا يَدْبُرُهُ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ ﴿عَلِيمٌ﴾ بِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ.

وفي ذلك دلالة على صحّة المحاجة والمناظرة في الدين، والدعاء إلى توحيد الله والاحتجاج على الكافرين، لأنّه تعالى مدح ذلك واستصوبه، وَمَن حَرَّمَ الْحِجَاجَ فَقَدْ رَدَّ صَرِيحَ الْقُرْآنِ. قوله تعالى:

وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَهُدًى وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُؤْثِرُوا بِهَا كُفْرَ الَّذِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْسِهِمْ افْتَدَاهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾ سبع آيات.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿الْيَسَعَ﴾ بتشديد اللام وفتحها وسكون الياء هاهنا وفي ص^(١) الباقون بسكون اللام وفتح الياء. قال الزجاج التشديد والتخفيف لغتان.

وقال أبو علي: الألف واللام ليستا للتعريف بل هما زائدتان، وكان الكسائي يستصوب القراءة بلامين ويخطئ من قرأ بغيرهما، كأن الاسم عنده «لْيَسَعَ» ثم يدخل الألف واللام، قال: ولو كانت «يَسَعَ» لم يجز أن يدخل الألف واللام، كما لا يدخل في «يَزِيد» و«يَحْيَى». قال الأصمعي: فقلت له: فـ «الْيَزْصَع» من الحجارة، و«الْيَعْمَلَةَ» من الإبل، و«الْيَحْمَد» حي من اليمن، فكأنما ألقمته حَجَرًا، وبعدها فإنما قد سمعناهم يُسْمُون بـ «يَسَعَ» ولم نرهم يُسْمُون بـ «لْيَسَعَ».

وقال الفرّاء: القراءة بالتشديد أشبه بالأسماء العجميّة من التخفيف، قال: لأنّهم لا يكادون يدخلون الألف واللام في ما لا يُجْرى، مثل: «يَزِيد» و«يَعْمُر» إلّا في الشعر، أنشدني بعضهم:

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مَبَارَكًا شَدِيدًا بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كَاهِلُهُ^(٢)

(١) الآية: ٤٨.

(٢) لابن ميادة الرماح بن أبرد، من قصيدة يمدح الوليد بن يزيد الاموي. راجع خزنة الأدب: ج ٢ ص ٢٢٦ وما بعده.

قال: وإِنَّمَا دَخَلَ الْأَلْفُ وَاللَّامُ فِي «يَزِيد» لدخولهما فِي «الوليد» فإذا فعلوا ذلك فقد أَمَسُوا الحرف مدحاً.

قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ الهاء فِي ﴿له﴾ كناية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿كَلَّا هَدَيْنَا﴾: نصب ﴿كَلَّا﴾ بـ ﴿هَدَيْنَا﴾ و ﴿نوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ معناه: هَدَيْنَاهُ قَبْلَ إِبْرَاهِيمَ.

وقوله: ﴿وَمَنْ ذَرِّيَّتَهُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ تقديره: وهَدَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ نَسَقاً عَلَى «نوح» ويحتمل أَنْ يَكُونَ قوله: ﴿وَمَنْ ذَرِّيَّتَهُ﴾ الهاء راجعة إِلَى «نوح» لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ كُلَّهُم مِّنْ ذَرِّيَّتِهِ.

قال الزَّجَّاجُ: ويجوز أَنْ يَكُونَ مِّنْ ذَرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ، لِأَنَّ ذِكْرَهُمَا جَمِيعاً قَدْ جَرَى، وَأَسْمَاءُ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي جَاءَتْ بَعْدَ قوله: ﴿وَنوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ نَسَقٌ عَلَى «نوح» نصب كُلِّهَا، وَلَوْ رَفَعْتَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ كَانَ صَوَاباً.

قال أَبُو عَلِيٍّ الْجُبَّائِيُّ: الهاء لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ كِنَايَةً عَنِ «إِبْرَاهِيمَ» لِأَنَّ فِيمَنْ عَدَّدَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ: «لوطاً» وَهُوَ كَانَ ابْنُ أُخْتِهِ - وَقِيلَ: ابْنُ أُخِيهِ - وَلَمْ يَكُنْ مِّنْ ذَرِّيَّتِهِ.

وهذا الَّذِي قَالَه لَيْسَ بِشَيْءٍ، لِأَنَّهُ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ غَلَبَ الْأَكْثَرِ. وَجَمِيعٌ مِّنْ ذِكْرِ مَن نَّسَلَ إِبْرَاهِيمَ، عَلَى أَنَّهُ قَالَ - فِيمَا رُوِيَ عَنْهُ - ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ إِبِلَاسَ إِدْرِيسَ ^(١) وَهُوَ جَدُّ نوحَ، وَلَمْ يَكُنْ مِّنْ ذَرِّيَّتِهِ، وَمَعَ هَذَا لَمْ يَطْعَنْ عَلَى قَوْلٍ مِّنْ قَالَ: إِنَّهَا كِنَايَةٌ عَنِ نوحَ. وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: إِبِلَاسُ هُوَ ابْنُ أَخِي مُوسَى ^(٢).

ويجوز أَنْ تَكُونَ الهاء كِنَايَةً عَنِ «إِبْرَاهِيمَ» وَيَكُونَ مِّنْ سَمَائِهِم

(١) رواه عنه الطبري فِي تفسيره: ج ٧ ص ١٧٢ مسنداً.

(٢) حكاه عنه الطبري أيضاً فِي تفسيره.

إلى قوله: ﴿وَكُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ من ذرّيته، ثم قال: ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً﴾ فعطفهم على قوله: ﴿ونوحاً هدينا﴾.

وفي الآية دلالة على أنّ الحسن والحسين من ولد رسول الله ﷺ، لأنّ «عيسى» جعله الله من ذرّية إبراهيم أو نوح، وإنّما كانت أمّه من ذرّيتهما. والوجه في الآيات أنّ الله تعالى أخبر أنّه رفع درجة إبراهيم بما جعل في ذرّيته من الأنبياء، وجزاه بما وصل إليه من السرور والابتهاج عندما أعلمه عن ذلك، وبما أبقى له من الذكّر الرفيع في الأعقاب، والجزاء على الإحسان لذّة وسرور، ومن أعظم السرور وأكثر اللذات علّم الإنسان بأنّه يكون من عقبه وولده المنسوبين إليه أنبياء يدعون إلى الله ويجاهدون في سبيله، ويكونون ملوكاً وخلفاء يطيعون الله ويحكمون بالحقّ في عباد الله. ثمّ أخبر أنّه جَزَى نوحاً بمثل ذلك على قيامه في الدعاء إليه والجهاد في سبيله.

و«الهداية» في الآيات كلّها هو الإرشاد إلى الثواب دون الهداية التي هي نصب الأدلّة، لأنّه تعالى قال في آخر الآيات: ﴿وكذلك نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ فبيّن أنّ ذلك جزاء، ولا يليق إلّا بالثواب الذي يختصّ به المحسنون، دون الهداية التي هي الدلالة ويشترك فيها المؤمن والكافر، وهو قول أبي عليّ الجبائي والبلخي.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ إشارة إلى مَنْ تقدّم ذكره من الأنبياء.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ﴾ يعني: الكفّار الذين جحدوا نبوّة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ معنى ﴿وَكَّلْنَا بِهَا﴾ أي: وكّلنا بمراعاة أمر النبوة وتعظيمها، والأخذ بهدي

الأنبياء قوماً ليسوا بها بكافرين. وإنّما أضاف ذلك إلى المؤمنين وإن كان قد فعل بالكافرين أيضاً إزاحة العلة في التكليف من حيث إنّ المؤمنين هم الذين قاموا بذلك وعملوا به فأضافه إليهم، كما أضاف قوله ﴿هُدًى للمتقين﴾ وإن كان هداية لغيرهم.

وقيل في المعنيين بقوله: ﴿ليسوا بها بكافرين﴾ ثلاثة أقوال: أحدها: إنّهُ عَنَى بذلك الأنبياء الذين جرى ذكْرهم، آمنوا بما أتى به النبي ﷺ في وقت مبعثهم [مبعثه، ظ] وهو قول الحسن والزجاج والطبري والجُبائي، قال الزجاج: لقوله تعالى: ﴿أولئك الذين هدى الله فيهداهم اقتده﴾ وذلك إشارة إلى الأنبياء الذين ذكرهم ووصفهم وأمر النبي ﷺ بالاعتداء بهداهم.

والثاني: إنّهُ عَنَى به الملائكة، ذهب إليه أبو رجاء العطاردي. وقال قوم: عَنَى به مَنْ آمَن من أصحاب النبي ﷺ في وقت مبعثه. وقال الفراء والضحاك: قوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء﴾ يعني: أهل مكة ﴿فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين﴾ يعني: أهل المدينة، والأول أقوى. وفي الآية دلالة على أنّ الله تعالى يتوعّد من يعلم أنّه لا يشرك ولا يفسق، وأنّ الوعد والوعيد قد يكونان بشرط.

وقوله: ﴿أولئك الذين هدى الله﴾ معناه: أولئك الذين حكم الله لهم بالهدى والرشاد، وزادهم هدى حين اهتدوا، والمراد به: الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم الثمانية عشر، وأمر النبي ﷺ بأن يسلك سبيلهم، ويأخذ بهداهم في تبليغ الرسالة والصبر على المحن، وأن يقول لقومه: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ يعني: على الأداء والإبلاغ، ولكنّه يذكر به العالمين وينبئهم على ما يلزمهم من عبادة الله والقيام بشكره.

وقوله: ﴿فَبِهَذَا هُمْ اقْتَدَوْهُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ويعقوب والكسائي عن أبي بكر بخذف الهاء في الوصل وإثباتها في الوقف، الباقون بثباتها في الوصل والوقف وسكونها، إلا ابن ذكوان فإنه كسرهما ووصلها بياء في اللفظة، وإلا هشاماً فإنه كسرهما من غير صلة بياء، ولا خلاف في الوقف أنها بالهاء ساكنة.

قال أبو علي الفارسي: الوجه الوقف بالهاء لاجتماع الكثرة، والجمهور على إثباته، ولا ينبغي أن يوصل والهاء ثابتة، لأن هذه الهاء في السكت بمنزلة همزة الوصل في الابتداء في أن الهاء للوقف كما أن همزة الوصل للابتداء بالساكن، فكما لا تثبت الهمزة في الصلة كذلك ينبغي أن لا تثبت الهاء.

قال أبو علي: وقراءة ابن عامر بكسر الهاء وإشمام الهاء الكسرة من غير بلوغ ياء ليس يغلط، وجهها: أن يجعل الهاء كناية عن المصدر لا التي تلحق للوقف. وحسن إضماره لذكر الفعل الدال عليه، ومثل ذلك قول الشاعر:

فَجَالَ عَلَى وَخْشِيَّةٍ وَتَخَالَهُ

على ظهره شيئاً (سبأ، خ) جديداً يمانياً
كأنه قال: تخال خيلاً على ظهره سبأً جديداً، ومثل ذلك قول الشاعر:
هَذَا سُرَاقَةٌ لِلْقُرْآنِ يَدْرُسُهُ

والمرء عند الرُشى إن يَلْقَهَا ذِيبٌ^(١)
فالهاء كناية عن المصدر، ودل «يدرسه» على الدرس، ولا يجوز أن يكون ضمير «القرآن» لأن الفعل قد تعدى إليه باللام، فلا يجوز أن

(١) أنشده سيبويه في الكتاب: ج ٣ ص ٦٧ ولم ينسبه لأحد.

يَتَعَدَّى إِلَيْهِ وَإِلَى ضَمِيرِهِ، كَمَا أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: «أَزِيدُ» ضَرَبْتَهُ «لَمْ يَنْصَبْ (زَيْدًا) بِـ» ضَرَبْتَ «لَتُعَدِّيهِ إِلَى الضَمِيرِ. وَقِيَاسُهُ: إِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: «أَقْتَدِهِ» فَيَكْسِرُ هَاءَ الضَمِيرِ، كَمَا تَقُولُ: «أُسْرِهِ» فِي الْوَقْفِ، وَفِي الْوَصْلِ: «أُسْرِهِي يَا هَذَا».

وَاسْتَدَلَّ قَوْمٌ بِقَوْلِهِ: ﴿فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ مُتَعَبِّدًا بِشَرِيعَةٍ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ! وَهَذَا لَا دَلَالَةَ فِيهِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿فِيهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ﴾ مَعْنَاهُ: فَبَادَلْتُهُمْ أَقْتَدِهِ ^(١) وَالدَّلَالَةُ: مَا أَوْجِبَتْ الْعِلْمَ، وَيَجِبُ الْاِقْتِدَاءُ بِهَا لَكُونِهَا مُوجِبَةً لِلْعِلْمِ لَا غَيْرِ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فَنَسَبَ «الْهُدَى» إِلَى نَفْسِهِ، فَعَلِمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَرَادَ مَا قُلْنَاهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْهُدَى فِي قَوْلِهِ ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ﴾ هِدَايَةُ الثَّوَابِ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، لِأَنَّ الثَّوَابَ عَلَى الْأَعْمَالِ هُوَ الَّذِي يَتَحَبَطُ تَارَةً وَبَقِيَتْ أُخْرَى، دُونَ الْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ الْأَدْلَةُ الْحَاصِلَةُ لِلْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَلَّا فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يَعْنِي: عَلَى عَالَمِي زَمَانِهِمُ الَّذِينَ لَيْسُوا أَنْبِيَاءَ.

وَإِنَّمَا دَخَلَتْ «مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿مَنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ لِلتَّبْعِيضِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَبَعْضُ آبَائِهِمْ وَبَعْضُ ذُرِّيَّاتِهِمْ وَبَعْضُ إِخْوَانِهِمْ هَدَيْنَاهُمْ، وَلَوْ لَمْ تَدْخُلْ «مِنْ» لَاقْتَضَى أَنَّهُ هَدَى جَمِيعَهُمُ الْهِدَايَةَ الَّتِي هِيَ الثَّوَابُ، وَالْأَمْرُ بِخِلَافِهِ.

(١) لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ: «فَبَادَلْتُهُمْ أَقْتَدِهِ» وَفِي هَامِشِهِ هُنَا مَا يَلِي: وَرَدَ فِي مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ وَذَلِكَ لَا يَلِيقُ إِلَّا بِالتَّوْحِيدِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فَأَمَّا الشَّرَائِعُ فَإِنَّهَا تَخْتَلِفُ وَلَا يَصَحُّ بِجَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ فِيهَا الْاِقْتِدَاءُ، ط.

وقوله: ﴿اجتنبناهم﴾ معناه: اخترناهم.

وقوله: ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ لا يدل على صحة ثواب طاعاتهم التي أشركوا في توجيهاها إلى غير الله، لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه الذي يستحق به الثواب، فأما ما تقدم فليس في الآية ما يقتضي بطلانه، غير أننا قد علمنا أنه إذا أشرك لا ثواب معه أصلاً، لإجماع الأمة على أن المشرك لا يستحق الثواب، فلو كان معه ثواب وقد ثبت أن الإحباط باطل لكان يؤدي إلى أن معه ثواباً وعقاباً، لأننا قد بينّا بطلان القول بالتحباط في غير موضع، وذلك خلاف الإجماع.

قوله تعالى:

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يُّبَدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يجعلونه قراطيس يبدونها ويخفون كثيراً﴾ بالياء فيهن، الباقون بالتاء فيهن.

ومن قرأ بالياء حملة على أنه غيب [غيبية، ظ] بدلالة قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ... يجعلونه﴾ فيحملة على الغيبة لأن ما قبله غيبية. ومن قرأ بالتاء حملة على قوله: ﴿وعلمتم ما لم تعلموا﴾ فجاء على الخطاب، وكذلك ما قبله.

ومعنى ﴿يجعلونه قراطيس﴾: تجعلونه ذوي قراطيس، أي: تودعونه إياها ﴿وتخفون﴾ أي: تكتُمونه. وموضع قوله: ﴿تبدونها وتخفون كثيراً﴾

يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: أن يكون صفة لـ ﴿قَرَاتِيسٍ﴾ لأنَّ النكرة توصف بالجمَل. والآخر: أن نجعله حالاً من ضمير ﴿الكتاب﴾ من قوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاتِيسٍ﴾ على أن تُجْعَلَ «القَرَاتِيس»: «الكتاب» في المعنى، لأنَّه مكتوب فيها.

رُوي: أن سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ رأى حَبْرًا من أخبار اليهود سميناً يقال له: مالك بن الضيف [الصيف، خ] - وقيل^(١): فَتَحَاص - فقال له النبي ﷺ: أليس في التوراة: أن الله يبغض الحَبْرَ السمين؟ فغضب وقال: ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء، فلعلته اليهود وتبرأت منه، فنزلت هذه الآية ذكر ذلك عِكْرَمَةَ وَتَنَادَةَ.

وقال مُحَمَّد بن كَعْبٍ القُرْظِي: نزلت في جماعةٍ من اليهود. ورُوي مثل ذلك عن ابن عباس.

وقال مجاهد: نزلت في مشركي قريش، ورُوي ذلك عن ابن عباس أيضاً، وهو أشبه بسياق الآية، لأنَّهم الَّذِينَ أنكروا أن يكون الله أنزل كتاباً على بَشَرٍ، دون اليهود والنصارى.

ومعنى قوله: ﴿وما قدرُوا الله حقَّ قدره﴾ أي: ما عرفوه حقَّ معرفته، وما وصفوه بما هو أهل أن يُوصَف به ﴿إِذ قالُوا ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء﴾ أي: ما أرسل الله رسولاً، ولم ينزل على بَشَرٍ من شيء، مع أن المصلحة والحكمة يقتضيان ذلك، ودلَّت المعجزات الباهرة على بعثة كثيرٍ منهم.

ثم أمر الله نبيّه أن يقول لهم: ﴿مَنْ أنزل الكتاب الَّذي جاء به موسى

(١) قاله السُّدِّي. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٧٦.

نوراً وهدى للناس ﴿ فَإِنَّهُمْ يَقَرُّونَ بِذَلِكَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ وَبَعَثَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ نَبِيًّا، وَإِنْ لَمْ يَقْرَأُوا بِذَلِكَ فَقَدْ خَرَجُوا مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى قَوْلٍ مِنْ يَنْكَرُ النُّبُوتَ، وَالْكَلَامَ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ أَصْلًا مَذْكَورَ فِي النُّبُوتِ مُسْتَوْفَى لَا نَطْوُلُ بِذِكْرِهِ هَاهُنَا.

وعلى ما قلناه: من أَنَّ الْآيَةَ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى مُشْرِكِي قَرِيشٍ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ إِلَى هَاهُنَا فِي الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَوَّلُ الْآيَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَعْتَقِدُونَ التَّوْحِيدَ وَيَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ الْأَصْنَامَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا بِخِلَافِ ذَلِكَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ التَّوْحِيدَ، فَلَا يَلِيقُ بِهِمْ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ الْيَهُودُ - عِنْدَنَا - أَيْضًا غَيْرَ عَارِفِينَ بِاللَّهِ عَلَى وَجْهِهِ يَسْتَحَقُّونَ بِهِ الثَّوَابَ. وَالْقَوْلُ الْآخِرُ أَيْضًا مُحْتَمَلٌ.

فعلى ما اخترنا يكون قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، لِأَنَّهُمْ الْمَقْرُونُونَ بِذَلِكَ دُونَ قَرِيشٍ وَمُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَنَاوِلًا لِلْمُشْرِكِينَ أَيْضًا، وَيَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْاِحْتِجَاجِ عَلَيْهِمْ، وَالتَّنْبِيهِ لَهُمْ عَلَى مَا ظَهَرَ مِنْ مُعْجَزَاتِ مُوسَى وَظُهُورِ نُبُوَّتِهِ، وَهَذَا الَّذِي اخْتَرْنَاهُ قَوْلَ مُجَاهِدٍ، وَاخْتَارَهُ الطَّبْرِيُّ وَالْجُبَّائِيُّ.

وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأِيسَ﴾ أَي: تَقْطَعُونَهُ فَتَجْعَلُونَهُ كُتُبًا مُتَفَرِّقَةً وَصُحُفًا تَبْدُونَ بَعْضُهَا وَتَخْفُونَ بَعْضُهَا، يَعْنِي: مَا فِي الْكُتُبِ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَالْبَشَارَةِ بِهِ.

ثُمَّ عَظَفَ عَلَى مَا ابْتَدَأَ بِهِ مِنْ وَصْفِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، وَأَنَّهُ نُورٌ وَهُدًى، فَقَالَ: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ أَجَابَ عَنِ الْكَلَامِ الْأَوَّلِ فَقَالَ: ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ وَهَذَا مَعْرُوفٌ فِي

كلام العرب، لأنَّ الإنسان إذا أراد البيان والاحتجاج بما يعلم أنَّ الخصم مقرُّ به ولا يستطيع دفعه ذكر ذلك، ثمَّ تولَّى الجواب عنه بما قد علم أنَّ لا جواب له غيره.

وقوله: ﴿ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ يقال لمن قامت عليه الحجة الواضحة التي لا يمكنه دفعها، وليس على إباحة ترك الدعاء والإنذار بل على ضَرْبٍ من الوعيد والتهديد، كأنَّه قال: دَعَهُمْ فسيعلمون عاقبة أمرهم. ويجوز أن يكون أراد: دَعَهُمْ^(١) فلا تقَاتِلْهُمْ، ولا تعمل على قهرهم على قبول قولك إلى أن يُؤدَّن لك في ذلك، فيكون إنَّما أباح ترك قتالهم، لا ترك الدعاء والتحذير وترك البيان والاحتجاج.

و ﴿يَلْعَبُونَ﴾ رفعه لأنَّه لم يجعله جواباً لقوله: ﴿ذَرَهُمْ﴾ ولو جعله جواباً لجزمه، كما قال: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾^(٢) وكان ذلك جواباً، وموضع ﴿يَلْعَبُونَ﴾ نصب على الحال، وتقديره: ذَرَهُمْ لاعبين في خوضهم. وقال قوم^(٣): إنَّ هذه الآية مدنيَّة مع الآيتين اللتين ذكرناهما في أوَّل السورة، ويجوز أن يكون ذلك بمكَّة أيضاً.

قوله تعالى:

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو بكر وحده ﴿ولينذر﴾ بالياء، الباقون بالتاء. ومن قرأ بالتاء فلقوله: ﴿إنَّما أنت منذرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾^(٤) وقوله:

(١) في الحجرية: ردعهم.

(٢) الحجر: ٣.

(٤) النازعات: ٤٥.

(٣) منهم مقاتل. راجع تفسير السمرقندي: ج ١ ص ٥٠٠.

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾^(١). وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ جَعَلَ «الكتاب» هو المنذر، لَأَنَّ فِيهِ إِنْذَارًا، لَأَنَّهُ قَدْ خَوَّفَ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾^(٢) وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾^(٣) فلا يمتنع إسناد الإنذار إليه على وجه التوسّع.

قوله: ﴿وهذا كتاب﴾ إشارة إلى القرآن الذي أنزله الله على نبيه مُحَمَّد ﷺ، فعطف هذه الآية على ذِكْرِهِ الْكِتَابِ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَلَمَّا وَصَفَهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك﴾ وَصَفَهُ بِأَنَّهُ ﴿مبارك﴾ وَأَنَّهُ ﴿مصدق﴾ لما ﴿بين يديه﴾ يعني: ما مضى من كتب الأنبياء كالطوراة والإنجيل وغيرهما، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا أَنْزَلَهُ لِتَنْذَرُ بِهِ أَهْلَ مَكَّةَ وَهِيَ ﴿أُمُّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: ﴿أُمُّ الْقُرَى﴾ مَكَّةَ ﴿ومن حولها﴾ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلِّهِمْ.

وإِنَّمَا خَصَّ أَهْلَ مَكَّةَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا أَعْظَمُ قَدْرًا، لَأَنَّ فِيهَا الْكَعْبَةَ، وَلَأَنَّ النَّاسَ يَقْصِدُونَهَا بِالْحَجِّ وَالْعَمَرَةِ مِنْ جَمِيعِ الْأَفَاقِ. وَإِنْذَارُهُ بِالْقُرْآنِ: هُوَ تَخْوِيفُهُ إِيَّاهُمْ بِالْوَأْدِ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ إِنْ أَقَامُوا عَلَى كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ وَبِرَسُولِهِ.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ يعني: بِالْقُرْآنِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ كُنَايَةً عَنْ مُحَمَّد ﷺ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَهَذَا يَقْوِي مَذْهَبَنَا فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا بِبَعْضِ مَا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ دُونَ بَعْضٍ. وَبَيَّنَّ أَنَّهُمْ ﴿على صلاتهم﴾ يعني: على أوقات صلاتهم ﴿يحافظون﴾ بمعنى: يراعون أوقاتها ليؤدّوها في الأوقات، وَيَقِيمُوا [يقوموا، ظ] بِإِتِمَامٍ

ركوعها وسجودها وجميع فرائضها.

وقيل: سميت مكة أم القرى لأنها أول موضع سكن في الأرض.
وقيل: إن الأرض كلها دحيت من تحتها فكانت أمًا لها. وقال الزجاج:
سميت بذلك لأنها أعظم القرى شأنًا.

قوله تعالى:

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ
وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ
وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ
تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: اختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية، فقال أكثر المفسرين: إن
قوله: ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ نزلت في مسيئة الكذاب [حيث ادعى النبوة]. وقال: إنه يوحى إليه، وإن قوله: ﴿ومن قال سأُنزلُ مثل ما أنزل الله﴾ نزلت في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فإنه كان يكتب الوحي للنبي ﷺ، وكان إذا قال له: اكتب عليمًا حكيمًا، كتب: غفوراً رحيمًا، وإذا قال: اكتب غفوراً رحيمًا، كتب: عليمًا حكيمًا، وارتدَّ ولحق بمكة وقال: إني أنزل مثل ما أنزل الله، ذهب إليه عكرمة وابن عباس ومجاهد والسدي والجبائي والفراء والزجاج وغيرهم.

وقال قوم^(١): نزلت في مسيئة خاصة.

وقال آخرون^(٢): نزلت في ابن أبي سرح خاصة. والأول هو المروي

(١) منهم قتادة. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٨٢.

(٢) كالسدي. راجع المصدر السابق: ص ١٨١.

عن أبي جعفر عليه السلام (١).

وقال البلخي: قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ هم الَّذِينَ ادَّعُوا النُّبُوَّةَ بغير برهان وكذبوا على الله ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ هم الَّذِينَ قالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢) فادَّعَوْا ثُمَّ لَمْ يَفْعَلُوا، وَأَعْرَضُوا وَبَذَلُوا الْأَنْفُسَ وَالْأَمْوَالَ، وَاسْتَعْمَلُوا فِي إِطْفَاءِ نُورٍ مِنْ جَاءَ بِالْكِتَابِ سَائِرَ الْحِيلِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حَالِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [وحذف جواب ﴿لو﴾ وتقديره: ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت] (٣) لَرَأَيْتَ عَذَاباً عَظِيماً، وَكُلٌّ مِنْ كَانَ فِي شَيْءٍ كَثِيرٍ يُقَالُ لَهُ: غَمَرٌ فَلَاناً ذَلِكَ، وَيُقَالُ: قَدْ غَمَرَ فَلَاناً الدِّينُ، مَعْنَاهُ: كَثُرَ فَصَارَ فِيمَا يُعْلَمُ بِمَنْزِلَةِ مَا يُبْصَرُ قَدْ غَمَرَ وَغَطَّى مِنْ كَثْرَتِهِ.

[وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسُطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: بَاسُطُوا أَيْدِيَهُمْ بِالْعَذَابِ، وَقِيلَ: يَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْكَفَّارِ] (٤) (٥).

وقوله: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ﴾ يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ تَقْدِيرُهُ: «يَقُولُونَ: أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» كَمَا تَقُولُ لِلَّذِي تَعَذَّبُهُ: لَا زَهْقَنَ نَفْسِكَ، وَلَا خَرَجَنَ نَفْسِكَ، فَهَمَّ يَقُولُونَ لَهُمْ: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ عَلَى مَعْنَى الْوَعِيدِ وَالتَّهْدِيدِ، كَمَا يَدْفَعُ الرَّجُلُ فِي ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَيُكْرِهُهُ عَلَى الْمَضِيِّ بِأَنْ يَجْزِيَهُ أَوْ بغير ذلك، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَقُولُ:

(١) رواه في الكافي: ج ٨ ص ٢٠١ ح ٢٤٢، وتفسير العياشي: ج ١ ص ٣٦٩ ح ٦٠ عن أحدهما عليه السلام، وفي تفسير القمي: ج ١ ص ٢١٠ عن الصادق عليه السلام.

(٢) الأنفال: ٣١.

(٣) ما بين المعقوفين لم يرد في الحجرية.

(٤) لم يرد في الحجرية.

(٥) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٤٥.

امضِ الْآنَ لَتَرَى مَا يَحْلُلُ بِكَ.

وَالْغَمَرَات: جمع غَمْرَة، وَغَمْرَة كُلُّ شَيْءٍ: كَثْرَتُهُ وَمَعْظَمُهُ، وَأَصْلُهُ: الشَّيْءُ [الَّذِي] يَغْمُرُ الْأَشْيَاءَ فَيَغْطِيهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «غَمَرَاتُ الْمَوْتِ» سَكَرَاتُهُ. وَبَسَطُ الْمَلَائِكَةِ أَيْدِيهَا: فَهُوَ مَذَّهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ [أَيْضاً]: الْبَسَطُ: الضَّرْبُ، يَضْرِبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَمَلَكَ الْمَوْتُ يَتَوَفَّاهُمْ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: بَسَطَهَا أَيْدِيهَا بِالْعَذَابِ.

والثاني: أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: خَلَّصُوا أَنْفُسَكُمْ، أَي: لَسْتُمْ تَقْدِرُونَ عَلَى الْخَلَّاصِ «الْيَوْمَ تَجْزُونَ عَذَابَ الْهُونِ» أَي: الْعَذَابَ الَّذِي يَقَعُ بِهِ الْهُونُ الشَّدِيدُ، وَالْهُونُ - بَفَتْحِ الْهَاءِ وَسُكُونِ الْوَاوِ - : مِنْ الرِّفْقِ وَالذَّعَةِ، كَقَوْلِهِ: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا»^(١) وَقَالَ الشَّاعِرُ:

هَوْنًا كَمَا لَا يَرُدُّ الدَّهْرُ مَا فَاتَا لَا تَهْلِكُنَّ أَسْفًا فِي إِثْرِ مَنْ مَاتَا^(٢)
وَقَدْ رَوَى فَتَحُ الْهَاءِ فِي مَعْنَى «الْهُونِ» قَالَ عَامِرُ بْنُ جُوَيْنٍ:
يُهَيِّنُ [تَحِينٌ، ظ] النُّفُوسَ وَهَوْنَ النُّفُوسِ

سِ عِنْدَ الْكَرِيهَةِ أَغْلَى لَهَا^(٣)
وَالْمَعْرُوفُ ضَمُّ الْهَاءِ إِذَا كَانَ بِمَعْنَى «الْهُونِ». قَالَ ذُو الْإِصْبَعِ الْعَدَوَانِي:
أَذْهَبَ إِلَيْكَ فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ

تَزَعَى الْمَخَاضَ وَلَا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ^(٤)
يَعْنِي: عَلَى الْهُونِ. وَعَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: «عَذَابُ الْهُونِ» يَعْنِي: الْعَطَشُ^(٥).

(١) الفرقان: ٦٣. (٢) في الطبري: «هَوْنُكُمَا» و «لا تهلكا» ولم ينسبه لأحد.

(٣) وفي الأغاني: ج ١٣ ص ١٤٤ نسبه إلى الخنساء وفيه: «أبقى» بدل «أغلى».

(٤) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٨٤.

(٥) رواه العياشي في تفسيره: ج ١ ص ٣٧٠ ح ٦٢ عن سلام عنه عليه السلام.

وقوله: ﴿ومن قال سأُنزل مثل ما أنزل الله﴾ في موضع جرٍّ، كأنه قال: ومن أظلم ممن قال ذلك.
قوله تعالى:

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٤﴾ آية .

أقول: قرأ أهل المدينة والكسائي وحفص: ﴿بينكم﴾ بنصب النون، الباقون برفعها. «البين» مصدر بانَ يبين: إذا فارق، قال الشاعر:

بَانَ الْخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا أَوْ كُلَّمَا طَعَنُوا لَبِينَ تَجَزَّعُ^(١)

وقال أبو زيد: بانَ الحيَّ يَبْنُونَهُ وَيَبْنَأُ: إذا طَعَنُوا، وَتَبَايَنُوا تَبَايَنًا: إذا كانوا جميعاً فتنفَرَقُوا، قال: والبين: ما ينتهي إليه بصرك من حائطٍ أو غيره^(٢). واستعمل هذا الاسم على ضربين:

أحدهما: أن يكون اسماً منصرفاً كالافتراق، والآخر: أن يكون ظرفاً. فَمَنْ رفعه رفع ما كان ظرفاً استعمله اسماً، ويدلُّ على جواز كونه اسماً قوله: ﴿هذا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾^(٣) وقوله: ﴿ومن بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾^(٤) فلَمَّا اسْتُعْمِلَ اسماً في هذه المواضع جاز أن يُسندَ إليه الفعل الذي هو ﴿تَقَطَّعَ﴾ في قراءة مَنْ رفع.

ويدلُّ على أنَّ هذا المرفوع هو الذي اسْتُعْمِلَ ظرفاً أنَّه لا يخلو من: أن يكون الذي هو ظرف اتَّسع فيه أو يكون الذي هو مصدر، ولا يجوز أن يكون الذي هو مصدر، لأنَّ التقدير يصير: لقد تقطَّع افتراقكم، وهذا خلاف

(١) لجرير من قصيدة يهجو الفرزدق. راجع ديوان جرير: ص ٢٥٦.

(٤) فصلت: ٥.

(٣) الكهف: ٧٨.

(٢) النوادر في اللغة: ص ٣٣.

المعنى المراد، لأنَّ المراد: لقد تقطَّعَ وَصْلُكُمْ وما كنتم تتألفون عليه.
فإن قيل: كيف جاز أن يكون بمعنى الوصل وأصله: الافتراق والتباين،
وعلى هذا قالوا: بَانَ الخليطُ إذا فارقَ، وفي الحديث: «ما بَانَ من الحيِّ
فهو ميتة»؟!

قيل: إنَّه لما استُعْمِلَ مع الشيئين المتلاسيئين نحو: بيني وبينك شِرْكَةٌ،
وبيني وبينه صَدَاقَةٌ وَرَحِمٌ، صارت لذلك بمنزلة الوُصْلَةِ وعلى خلاف
الفُرْقَةِ، فلذلك صار ﴿لقد تقطَّعَ بينكم﴾ بمعنى: لقد تقطَّعَ وَصْلُكُمْ.
ومثل «بَيْنَ» في أَنَّهُ يجري ظرفاً ثمَّ يُسْتَعْمَلُ اسماً «وَسَطٌ» ساكن
العين، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ يقولون: جَلَسْتُ وَسَطَ الْقَوْمِ، فيجعلونه ظرفاً،
لا يكون إلَّا كذلك، وقد استعملوه اسماً، كما قال الشاعر:

مِنْ وَسَطٍ جَمَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَمَا هَتَفْتُ رَبِيعَةً يَا بَنِي خَوَاتِ
وحكى سيبويه: هو أحمر بين العينين [أعم من المعنيين، ظ].

وأما من نصب ﴿بينكم﴾ ففيه وَجْهَان:

أحدهما: أَنَّهُ أضر الفاعل في الفعل، ودلَّ عليه ما تقدَّم من قوله:
﴿وما نرى معكم شفعاءكم الَّذِينَ زعمتم أَنَّهُم فيكم شُرَكَاء﴾ لأنَّ هذا
الكلام فيه دلالة على التقاطع والتهاجر، وذلك المضمر هو الأصل، كأنَّه
قال: لقد تقطَّعَ وَصْلُكُمْ بينكم.

والثاني: أن يكون على مذهب أبي الحسن: أن يكون لفظه منصوباً معناه
مرفوعاً، فلمَّا جرى في كلامهم منصوباً ظرفاً تركوه على ما يكون عليه
في أكثر الكلام، وكذلك تقول في قوله: ﴿يوم القيامة يفصل بينكم﴾^(١)

وكذلك قوله: ﴿وإِنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾^(١) فـ ﴿دُونَ﴾ في موضع رفع عنده وإن كان منصوب اللفظ، كما تقول: مِنَّا الصَّالِحُ وَمِنَّا الطَّالِحُ، فترفع. وقال الزَّجَّاج: الرفع أجود، وتقديره: لقد تقطَّع وصلُّكم، والنصب جائز على تقدير: لقد تقطَّع ما كنتم فيه من الشُّرْكَة بينكم.

وقال الفراء: في قراءة عبدالله: ﴿لقد تقطَّع ما بينكم﴾ وهو وجه الكلام، إذا جعل الفعل لـ «بين» ترك نصباً في موضع رفع، لأنَّه صفة، فإذا قالوا: هذا دون من الرجال، فلم يضيفوه رفعوه في موضع الرفع، وكذلك تقول: بين الرجلين بين بعيد وبؤن بعيد، فإذا أفردته أجرته في العربية وأعطيته الإعراب. قال مهلهل:

كَأَنَّ رِمَاحَهُمْ أَشْطَانُ بِئْرِ
بَعِيدٍ بَيْنَ جَالَيْهَا جَرُورٍ^(٢)
فرفع «بين» حيث كانت اسماً.

وقال مجاهد: معنى ﴿تقطَّع بينكم﴾ أي: تواصلكم، وبه قال قتادة وابن عباس.

فمعنى الآية: الحكاية عن خطاب الله تعالى يوم القيامة لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله أنداداً وشركاء، وأنَّه يقول لهم عند ورودهم: ﴿لقد جئتمونا فرادى﴾ وهو جمع فرْدٍ وفرِيدٍ وفرْدَانٍ، قال الأزهري: لا يجوز «فرْد» على هذا المعنى. والعربُ تقول: فرَادَى وفَرَادَى فلا يصرفونها، يشبهونها بثلاث ورُبَاع، قال الشاعر:

(١) الجن: ١١.

(٢) أنشده القاضي البغدادي في أماليه: ج ٢ ص ١٣٢. والمهلهل هو لقب امرئ القيس بن ربيعة أخي كليب، والبيت من قصيدة يرثي أخاه. (٣) في الحجرية: حالها جزور.

تَرَى السُّعْرَاتِ الرُّزْقَ تَحْتَ لَبَانِهِ فُرَادَى وَمَتْنَى أَضْعَفَتْهَا صَوَاهِلُهُ^(١)
وقال نابغة بني دُبَيَّان:

مَنْ وَخَشَ وَجْرَةَ مُوشِيٍّ أَكَارِعُهُ

طاوِي المصيرِ كَسَيْفِ الصَّيْقَلِ الْفَرْدِ^(٢)

وكان يونس يقول: «فُرَادَى» جمع «فَرْد» كما قيل: تُؤَام وتُؤَم. ومثل:
الفُرَادَى الرُّذَافَى والقُرَانَى، ورجل أَفْرَدَ وامرأة فَرْدَاء: إذا لم يكن لهما أخ،
وقد فَرَدَ الرجل فهو: يَفْرُدُ فُرُوداً، يُرَاد به تَفَرَّدَ فهو قَارِد.

فمعنى قوله: ﴿جئتمونا فُرَادَى﴾ أي: وحداناً لا مال لكم ولا أثاث،
ولا رقيق ولا شيء مما كان الله خولكم في الدنيا ﴿كما خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.
ورُوي^(٣) عن النبي ﷺ أنه قال: «يُخْشَرُونَ حَفَاءً عَرَاءً غُرْلًا»^(٤)
والغُرْلُ: هم الغُلْف^(٥).

ورُوي: أَنَّ عَائِشَةَ قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ حِينَ سَمِعَتْ ذَلِكَ: وَاسْوَأَاتُهُ يَنْظُرُ
بَعْضُهُمْ إِلَى سَوَاءِ بَعْضٍ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: ﴿لِكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهَا﴾ فيشغل بعضهم عن بعض^(٦).

قال الزَّجَّاج: يحتمل أن يكون المعنى: كما بَدَأَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، أي: كان
بَعْثُكُمْ كَخَلْقِكُمْ مِنْ غَيْرِ كُفْلَةٍ وَلَا مَشَقَّةٍ.

(١) لنميم بن أبي مقبل. تقدّم ذكره عند تفسير الآية: ٣ من سورة النساء.

(٢) من قصيدته الَّتِي عَدَّتْ إِحْدَى الْمُعَلَّقَاتِ العشر يمدح بها الملك النعمان. راجع ديوان
النابغة الذبياني: ص ٢١.

(٣) رواه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢١٩٤ ح ٢٨٥٩ وما بعده بإسناده عن ابن عباس.

(٤) في الحَجَرِيَّة: عزلاً، والصواب ما أثبتناه.

(٥) أي: غير مختونين، جمع «أغرل» وهو الَّذِي لَمْ يَخْتَن (السان العرب).

(٦) رواه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٨٤. والآية: ٣٧ من سورة عَبَسَ.

وقال الجُبَّائي: معناه: جئتم ﴿فُرَادَى﴾ واحداً واحداً ﴿كما خلقناكم أول مرة﴾ أي: بلا ناصر ولا معين، كما خلقكم في بطون أمهاتكم ولا أحد معكم.

وقوله: ﴿وتركتكم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ يعني: ما ملكناكم في الدنيا ممّا كنتم تتباهون به فيها خلقكم في الدنيا، وهذا تعبير من الله لهم لمباهاتهم التي كانوا يتباهون في الدنيا بأموالهم، يقال: خولته، أي: أعطيته، ويقال: خَالَ الرجل يَخَالُ أشدَّ الخيال - بكسر الخاء - وهو خَائِلٌ، ومنه قول أبي النَّجْم:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخُلْ وَلَمْ يَبْخَلْ كَوْمَ الذَّرَى مِنْ خَوْلِ الْمَخُولِ^(١)
﴿وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء﴾ يقول تعالى لهؤلاء الكفار: ما نرى معكم شركاءكم^(٢) الذين كنتم تزعمون في الدنيا أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة.

وقال عِكْرَمَة: إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ حِينَ قَالَ: سوف يشفع فيّ اللات والعزى، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿لقد تقطع بينكم﴾ أي: وصلكم ﴿وصل عنكم ما كنتم تزعمون﴾ أي: جاز عن طريقتم ما كنتم تزعمون من آلهتكم أنه شريك لله تعالى، وأنه يشفع لكم عند ربكم، فلا شفيع لكم اليوم.

قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ قَالِقُ الْأَحْبِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَالِكُمْ اللَّهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﴿١٥﴾ آية بلا خلاف.

(١) أنشده الطبري في تفسيره: ج ١١ ص ١٨٥.

(٢) في نسخة بدل «شركاءكم»: «شفعاءكم».

أقول: في هذه الآية تنبيه لهؤلاء الكفار الذين اتخذوا مع الله آلهةً عبدوها، وحبّة عليهم، وتعريف منه لهم خطأ ما هم عليه من عبادة الأصنام، بأن قال: إِنَّ الَّذِي لَهُ الْعِبَادَةُ وَمُسْتَحَقُّهَا هُوَ اللَّهُ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّ، يعني: شقّه من كلّ ما ينبت عن النبات، فأخرج منه الزرع على اختلافها، والنوى من كلّ ما يغرس ممّا له نواة فأخرج منه الشجر، والحبّ: جمع حبة، والنوى: جمع نواة، وذلك لا يقدر عليه إلا الله تعالى القادر بنفسه، لأنّ القادر بقدره لا يقدر على شقّ ذلك إلا بآله، ولا يقدر على إنبات شيء وإخراج شيءٍ منهما، فعلم أنّه من فعل ذلك هو الله الَّذِي لا يشبه شيئاً من الأجسام، ولا يشبهه القادر على اختراع الأعيان بلا معاناة ولا مزاولة.

ثم أخبر أنّه ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ لأنّ الله تعالى يخلق الحيّ من النُطْفَةِ وهي مَوَات، ويخلق النُطْفَةَ - وهي مَوَات - من الحيّ، وهو قول الحسن وقتادة وابن زيد وغيرهم.

وقال الضحاك وابن عباس: معنى ﴿فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾: خالقهما. وقال مجاهد وأبو مالك: هو الشقّ الَّذِي فِي الْحَبَّةِ وَالنَّوَى. والأوّل أقوى الأقوال.

وقال قوم: أراد بإخراج الحيّ من الميّت: إخراج السُّبُلِ وهو حيّ من الحبّ وهو ميّت، ومُخْرِجُ الْحَبِّ الْمَيِّتِ مِنَ السُّبُلِ الْحَيِّ، وَالشَّجَرِ الْحَيِّ مِنَ النَّوَى الْمَيِّتِ، وَالنَّوَى الْمَيِّتِ مِنَ الشَّجَرِ الْحَيِّ. والعرب تُسَمِّي الشَّجَرَ ما دام غصّاً قائماً بأنّه حيّ، فإذا بَيَّسَ أو قُطِعَ من أصله أو قُلِعَ سَمَوهُ مَيِّتاً، ذهب إليه السُّدِّي والطبري والجُبَّائي. وما ذكرناه أولاً قول ابن عباس، وهو الأقوى لأنّه الحقيقة. وما ذكروه مجاز وإن كان جائزاً محتملاً.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ فَانْتَبِهُوا تَحْتَ كَوْنٍ﴾ معناه: أَنْ فاعل ذلك كلّهُ الله تعالى

فَأَنَّى وجوه الصّدّ عن الحقِّ أَيُّها الجاهلون تصدّون، وعن العذاب تصدّفون، أَفَلَا تتدبّرون فتعلمون أَنَّهُ لا ينبغي أَن يُجْعَلَ لمن أَنعم عليكم - ففلق الحبّ والنوى، وأخرج من الحيّ الميّت ومن الميّت الحيّ، ومن الحبّ الزرع ومن النّوى الشّجر - شريك في عبادته ما لا يضرّ ولا ينفع ولا يسمع ولا يبصر؟!

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: إِنَّ الله تعالى يحول بين العبد وبين ما دعاه إليه إذ يخلق فيه ما نهاه عنه، لأنّه قال: فَأَنَّى تُؤَفِّكون، ولو كان شيئاً من ذلك لكان هو المؤفِّكُ لهم والصّارِفُ!! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومعنى قوله: ﴿فَأَنَّى تُؤَفِّكون﴾ أي: تصرفون عقولكم، وهو قول الحسن وغيره، والإفك هو الكذب.
قوله سبحانه:

قَالِقُ الْأَصْبَاحِ وَجَاعِلُ اللَّيْلِ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة: ﴿جَعَلَ اللَّيْلَ﴾ على الفعل، الباقون: ﴿جاعل﴾ على الفاعل.

من قرأ: ﴿جاعل﴾ على وزن «فاعل» فلا نّ قبله اسم فاعل، وهو قوله: ﴿فالق الحبّ والنوى﴾ و «فالق الإصباح» فقرأ «وجاعل الليل» ليكون «فاعل» المعطوف على «فاعل» المعطوف عليه، فيكون متشاكلاً [مشاكلاً، ظ] لأنّ من حُكِّم الاسم أن يُعْطَفَ على اسمٍ مثله، لأنّه به أشبه من الفعل بالاسم، وهذه المشاكلة مراعاة في كلام العرب، ومثله: ﴿فريقاً﴾

هدى وفريقاً حقّ عليهم الضلالة»^(١) وقوله: «يدخل من يشاء في رحمته والظالمين»^(٢) وقوله: «وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرّنا تنبيراً»^(٣) نصبوا هذا كله ليكون القارئ ينصبها كالعاطف جملة من فعل وفاعل على جملة من فعل وفاعل، فكما أنّ الفعل بالفعل أشبه من المبتدأ بالفعل، كذلك الاسم بالاسم أشبه من الفعل بالاسم، ويقوّي ذلك قول الشاعر:

لَلْبُسِّ عَبَاءَةٌ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ^(٤)

ومن قرأ: «وجعل» فلأنّ اسم الفاعل الذي قبله بمعنى الماضي، فلمّا كان «فاعل» بمعنى «فعل» في المعنى عطف عليه بالفعل لموافقته له في المعنى، ويدلّك على أنّه بمنزلة «فعل» أنّه نزل منزلته فيما عطف عليه، وهو قوله: «والشمس والقمر حسباناً» ألا ترى أنّه لما كان المعنى «فعل» حمل المعطوف على ذلك فنصب «الشمس والقمر» على «فعل» لما كان «فاعل» كـ «فعل». ويقوّي ذلك قولهم: هذا مُعْطِي زيدٍ درهماً أمس، فالدرهم محمول على «أعطى» لأنّ اسم الفاعل إذا كان لما مضى لم يعمل عمل الفعل، وقد أجازته بعض الكوفيّين^(٥).

معنى قوله: «فالق الإصباح» أي: شاقّ عمود الصبح عن ظلّمة الليل، وذلك دالّ على القدرة العجيبة التي لا يقدر عليها غير الله. ويحتمل أن يكون معناه: خالقه، على ما حكيناه عن الضحّاك وذكره الزجاج.

(٣) الفرقان: ٣٩.

(٢) الإنسان: ٣١.

(١) الأعراف: ٢٩.

(٤) من أبيات لميسون بنت بحدل الكلبيّة زوج معاوية، تُحِبُّ عليه لما عيّرها وقال: أنت في مُلكٍ عظيم وما تدرين ما قدره وكنتِ قبل اليوم في العباءة!! والشُّفُوف جمع شِفٍّ وهو الثوب الرقيق. راجع خزنة الأدب: ج ٨ ص ٥٠٣ وما بعده.

(٥) كالفرّاء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٤٦.

ورفع ﴿فالق الإصباح﴾. ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ محذوفٍ، فكأنه قال: هو فالق الإصباح.

و«الإصباح» مصدر أصبحنا إصباحاً، والمراد: أصبح كل يوم، فهو في معنى الإصباح. وزوي^(١) عن الحسن أنه قرأ: ﴿فالقُ الأصباح﴾ بفتح الألف. وهو قول مجاهد والضحاك وقتادة وابن عباس وأكثر المفسرين. وزوي عن ابن عباس: أن معناه: خالق الليل والنهار.

وقوله: ﴿والشمس والقمر حُسباناً﴾ نصبهما عطفاً على موضع ﴿الليل﴾ لأن موضعه النصب بأنه مفعول ﴿جاعل﴾. واختلفوا في معناه: فقال ابن عباس والسدي والربيع وقتادة ومجاهد والجُبائي: إنهما يجريان في أفلاكهما بحساب، تقطع الشمس الفلك في سنة، ويقطعه القمر في شهر، بتقديرٍ قدره الله تعالى به، فهو كقوله: ﴿والشمس والقمر بحُساب﴾^(٢) وقوله: ﴿وكلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾^(٣).

وقال قتادة: معناه: أنه جعل الشمس والقمر ضياءً. والأول أجود لأن الله تعالى ذكر تمثل أياديه عند خلقه وعظيم سلطانه بفعله^(٤) الإصباح لهم، وإخراج النبات والفراش [الغراس، ظ^(٥)] من الحب والنوى، وعقب ذلك بذكر خلق النجوم للاهتمام بها في البر والبحر، وكان وصفه إجراء الشمس والقمر بمنافعهم أشبه، وأنها تجري بحُساب ما يحتاج الخلق إليه في معاشهم ومعاملاتهم: أمّا الشمس فللزراعة والحراث، والقمر فللمواعيد وآجال الديون في المعاملات، وفيها منافع لا يعرف تفصيلها إلا الله تعالى، ولأنه

(١) رواه عنه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ١٨٨.

(٤) في نسخة: «بفعله».

(٢) الرحمن: ٥. (٣) يس: ٤٠.

(٥) الغراس: ما يُغرس من الشجر. (لسان العرب).

لَمَّا قَالَ: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ ذكر الضياء، ولا معنى لتكريره دفعة ثانية.
والْحُسْبَانُ: جمع حِسَاب، على وزن «شُهْبَان» و «شَهَاب» وقيل ^(١) في هذا الموضع: إِنَّهُ مصدر حَسِبْتُ الحِسَابَ أَحْسَبُهُ حِسَاباً وَحُسْبَاناً. وَحَكِي عن بعض العرب: «على الله حُسْبَان فلان وَحِسْبَتُهُ» أي: حِسَابُهُ. وَالْحُسْبَان - بكسر الحاء - : جمع حِسْبَانَةٍ، وهي وسادة صغيرة. ونصب ﴿حُسْبَاناً﴾ على تقدير: بِحُسْبَان، فلَمَّا حذف الباء نصبه ^(٢). وقال قوم ^(٣): هو نصب لقوله: ﴿وجعل﴾.

وقوله: ﴿ذلك تقدير العزيز العليم﴾ أي: هذا الذي وصفه بأنه فعله من فَلَّحَهُ الْإِصْبَاحَ، وجعل الليل سكناً، والشمس والقمر حِسْبَاناً، تقدير الذي عَزَّ سُلْطَانَهُ، فلا يقدر أحد أَرَادَهُ بسوءٍ أو عقابٍ أو انتقامٍ على الامتناع منه، العليم بمصالح خَلْقِهِ وتدبيرهم، لا تقدير الأصنام والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تفقه شيئاً ولا تعقله.
قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا
الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ آية .

أقول: هذه الآية موصولة بالتي قبلها، ومعناها متقارب، وهو: أَنَّ الله تعالى عَدَّدَ نِعَمَهُ على خَلْقِهِ، وَأَنَّ من جملتها: أَنَّهُ ﴿جَعَلَ﴾ لهم ﴿النجوم﴾ بمعنى: خَلَقَهَا ليهتدوا بها في أسفارهم ﴿في ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ وَأَنَّهُ قد فَصَّلَ آيَاتِهِ ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(١) قاله يعقوب. راجع إعراب القرآن للنحاس: ج ٢ ص ٨٤.

(٢) إليه ذهب الأخفش في المعاني: ج ٢ ص ٤٩٨.

(٣) منهم النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص ٨٤.

وإنما أضاف إلى «الذين يعلمون» - وإن كانت آيات لغيرهم - لأنهم المنتفعون بها، كما قال: ﴿هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وليس في قوله: «إِنَّهُ خَلَقَهَا لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» ما يدل على أنه لم يخلقها لغير ذلك، قال البلخي: بل يشهد أنه خلقها لأُمُورٍ جليلةٍ عظيمة، ومن فكر في صغر الصغير منها وكبر الكبير، واختلاف مواقعها ومجاريها وسيرها وظهور منافع الشمس والقمر في نشوء الحيوان والنبات علم أن الأمر كذلك، ولو لم يخلقها إلا للاهتداء لما كان لخلقها صغراً وكباراً، واختلاف مسيراتها معنى. قال الحسين بن علي المغربي: هذا من البلخي إشارة منه إلى دلالتها على الأحكام.

قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورَّوَح: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ﴾ بكسر القاف، الباكون بنصبها.

قال أبو علي النحوي: قال سيبويه: قالوا: قرَّ في مكانه واستقرَّ، كما قالوا: جَلَبَ وأَجَلَبَ، يُراد بهما شيء واحد، فكما بُيِّنَ هذا على «أفعلت» بُيِّنَ هذا على «استفعلت» فمن كسر القاف كان «المستقرَّ» بمعنى: القارِّ، والخبر مضمَر، وتقديره: منكم مستقرٌّ، كقولك: بعضُكم مستقرٌّ، أي: مستقرٌّ في الأرحام، وقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ ^(١) كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ ^(٢) ومن فتح فليس على أنه مفعول، لأنَّ

«استَقَرَّ» لا يتعدى، وإذا لم يتعدَّ لم يُبَيَّن منه اسم مفعول، فإذا لم يكن مفعولاً كان اسم مكان^(١) فالمستَقَرَّ بمنزلة «المَقَرَّ» كما أنَّ المستَقَرَّ بمعنى «القَارَّ» وعلى هذا لا يجوز أن يكون خبره المضر «منكم» كما جاز في قول مَنْ كسر القاف، وإذا لم يجر ذلك جعلت الخبر المضر لكم مَقَرَّ ومستَوْدَعٌ، فإنَّ «استودع» فعل يتعدى إلى مفعولين، تقول: استودعت زيدا ألفاً^(٢) فاستَوْدَع مثل: أودع، مثل: استجاب وأجاب.

فالمستَوْدَع يجوز أن يكون الإنسان الذي استودع ذلك المكان، ويجوز أن يكون المكان نفسه، فَمَنْ فتح القاف في «مستَقَرَّ» جعل «المستَوْدَع» مكاناً ليكون مثل المعطوف عليه، أي: فَلَكُمْ مكانُ استقرارٍ ومكان استيداع، وَمَنْ كسر القاف فالمعنى: منكم مستَقَرٌّ في الأرحام ومنكم مستَوْدَعٌ في الأُصْلَاب، فـ «المستَوْدَع» اسم المفعول به ليكون مثل «المستَقَرَّ» في أنه اسمٌ لغير المكان.

وقال الزجاج: ويحتمل أن يكون المعنى مستَقَرّاً في الدنيا موجوداً ومستَوْدَعاً في الأُصْلَاب لم يُخْلَقْ بَعْدُ، ويحتمل: مستَقَرٌّ - بكسر القاف - في الأحياء، ومنكم مستَوْدَع^(٣) وقال الفراء: تقديره: ثمَّ مستَقَرٌّ ومستَوْدَع. واختلف المفسرون في قوله: «فمستَقَرٌّ ومستَوْدَع» فقال عبدالله بن مسعود: المستَقَرُّ: ما في الرحم، والمستَوْدَع: حيث يموت، وبه قال إبراهيم ومجاهد.

وقال سعيد بن جبَّير: «مستَوْدَعون» ما كان في أُصْلَاب الرجال، فإذا

(١) في نسخة: «كان اسم الفاعل مكانه». (٢) في المطبوعة زيادة: وأودعت زيدا ألفاً.

(٣) في المطبوعة زيادة: في الثرى، ورفع «مستَقَرٌّ ومستَوْدَع» على معنى: فلكم مستَقَرٌّ ومستودع، ومن كسر فمعناه: فممنكم مستَقَرٌّ وممنكم مستَوْدَع.

قَرَّوا في أرحام النساء وعلى ظهر الأرض وفي بطونها فقد استقرَّوا به.
وقال ابن عباس^(١).

وَرُوي عن مجاهد في روايةٍ أخرى: المستقرُّ: الأرض، والمستودع:
عند ربك.

وَرُوي عن ابن مسعود في رواية: أَنَّ مستقرَّها في الآخرة ومستودعها
في الصُّلب.

وقال عكرمة: مستقرُّ في الآخرة ومستودع في صُلْبٍ لم يُخلَق
سيُخلَق، وبه قال قتادة والضحاك والسدي وابن زيد.

وقال الحسن: المستقرُّ في القبر، والمستودع في الدنيا^(٢).

وعلى تأويل مَنْ قال: المستودع مَنْ كان في الأصلاب والمستقرُّ مَنْ
كان في الأرحام، لأنَّ كلَّ الخلاق داخلون فيه، فالأولى حمل الآية على
عمومها، وهو اختيار الطبري.

وقوله: ﴿قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾ معناه: قد بيَّنا الحُجَج وميِّزنا
الآيات والأدلة والأعلام، وأحكمناها لقوم يفقهون مواقع الحُجَج ومواقع
العبر، ويعرفون الآيات والذِّكر، وهو قول قتادة والمفسرين.

قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ
خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ

(١) كذا، والظاهر: وبه قال ابن عباس.

(٢) في المطبوع زيادة: ومعنى الآية: أن الله تعالى هو الذي أنشأ الخلق ابتداءً ﴿من نفسٍ واحدةٍ﴾ يعني: آدم، منهم مستقرٌّ ومستودع، وإذا حُمِلَ على العموم فإنه يتناول كلَّ أحدٍ على تأويل مَنْ قال: المستقرُّ في القبر والمستودع في الحشر.

وَالزَّيْتُونَ وَالزُّمَانُ مُمْتَسِكِيهَا وَغَيْرُ مُمْتَسِكِيهَا أَنْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ آية .

أقول: رَوَى الأعشى والبُرْجُمي: ﴿وَجَنَاتٌ﴾ بالرفع، الباقون ﴿جَنَاتٍ﴾ على النصب. وقرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿ثَمَرِهِ﴾ و ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾^(١) وفي يسن ﴿لَتَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾^(٢) بضم الثاء والميم فيهن، الباقون بنصبها.

مَنْ كَسَرَ التَّاء فَلَا تَهَا تَاءُ جَمْعِ الْمُؤَنَّثِ فِي مَوْضِعِ النَّصْبِ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴿جَنَاتٍ﴾ وَمَنْ رَفَعَ عَطَفَهَا عَلَى «الْقِنُونِ» فِي الْإِعْرَابِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِهَا، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي الْوَعَى مَتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرِمَحًا^(٣)
أَي: وَحَامِلًا رِمَحًا. وَمَنْ قَرَأَ ﴿ثَمَرِهِ﴾ بِالْفَتْحِ فِيهَا فَوَجْهَهُ: أَنْ سَبَّوْهُ بِرَأْيِ أَنْ التَّمَرَ جَمْعُ «ثَمْرَةٍ» مِثْلُ: بَقَرَةٌ وَبَقْرٌ، وَشَجَرَةٌ وَشَجَرٌ وَخَرَزَةٌ وَخَرَزٌ. وَيَقْوِيهِ قَوْلُهُ أَيْضًا: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ﴾^(٤) وَقَدْ كَسَرَ عَلَى «فِعَالٍ» فَقَالُوا: ثِمَارًا، كَمَا قَالُوا: أَكَمَّةٌ وَإِكَامٌ، وَجَذَبَةٌ وَجِذَابٌ، وَرَقَبَةٌ وَرِقَابٌ. وَمَنْ ضَمَّهَا احْتَمَلَ أَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ جَمْعُ «ثَمْرَةٍ» عَلَى ثَمْرٍ، مِثْلُ: خَشَبَةٌ وَخُشْبٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشْبٌ مَسْنَدَةٌ﴾^(٥) وَأَكَمَّةٌ وَأَكُمٌ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

(١) الآية: ١٤١ الآية: ٣٥.

(٣) لعبد الله بن الزبيري. وفي أمالي المرتضى: ج ٢ ص ٢٦٠ هكذا: يَا لَيْتَ بَعْلِكَ قَدْ شَدَا.

(٤) النحل: ٦٧.

(٥) المنافقون: ٤.

تَرَى الْأُكُومَ مِنْهُ سُجَّدًا لِلْحَافِرِ^(١)

ومن المعتلّ ساحة وسوح، وقارة وقور، ولابة ولوب، وناقة ونوق.
والثاني: أن يكون جمع «ثمار» على «ثَمَر» فيكون «ثَمَر» جمع الجمع، وجمعه على «فُعْل» كما جمعه على «فَعَّال» في قولهم: جمال وجماليل.
ومعنى الآية: أن الذي يستحقّ العبادة خالصةً، لا شريك له فيها سواء
﴿هو﴾ الإله الذي أنزل من السماء ماءً ﴿وأصل «الماء»: ماء، إلا أن الهمزة أبدلت من الهاء بدلالة قولهم: «أمواه» في الجمع، و «مُؤَيّه» في التصغير.

وقوله: ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾ معناه: أخرج بالماء الذي أنزله من السماء من: غذاء الأنعام والبهائم والطيور والوحش، وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون، ويكون معنى قوله: ﴿فأخرجنا به نبات كل شيء﴾: أخرجنا به ما ينبت كل شيء، وينمو عليه ويصلح، ويحتمل أن يكون المراد: أخرجنا به جميع أنواع النبات، فيكون ﴿كل شيء﴾ هو أصناف النبات، والأوّل أحسن.

وقوله: ﴿فأخرجنا منه﴾ يعني من الماء ﴿خَضِرًا﴾ يعني: أخضر رطباً من الزرع، والخضر والأخضر واحد، يقال: خَضِرَتِ الأرض خَضَرًا وخُضَارَةً. والخُضرة: رطب البقول، يقال: نخلة خَضِرَةٌ إذا كانت يؤتى بِسَرِّهَا أَخْضَرَ قبل أن ينضج، وقد اخْتُضِرَ الرجل واغْتَضِرَ: إذا مات شاباً مصححاً، ويقال: هو لك خَضِرًا مَضِرًا أي: هنيئاً مريئاً.

وقوله: ﴿يخرج منه حباً متراكباً﴾ يعني: يخرج من الخضر ﴿حباً﴾

(١) لزيد الخيل، وصدّره: بجمع تظلّ البلق في حجراته. تقدّم ذكره عند تفسير الآية: ٧٤ من سورة البقرة.

يعني: ما في السُّنْبُل من الحنطة والشعير والأُرْزَّ وغيرها من السنابل، لأنَّ حبَّها يركب بعضه بعضاً.

وقوله: ﴿ومن النخل من طَلَعها﴾^(١) إِنَّمَا خَصَّ الطَّلَعَ بالذكر لما فيه من المنافع العجيبة والأغذية الشريفة التي ليست في شيء من كِمَامِ الثِّمار.

وقوله: ﴿قُنُون دانية﴾ تقديره: ومن النخل من طَلَعها ما قُنُونه دانية، ولذلك رفع «القُنُون» والقُنُون: جمع قُنُو - كصِنُون وصِنُو - وهو العَذْق، يقال لواحد: قُنُو وقُنُو وقِنَى، ويشْتَى «قُنُون» على لفظ الجمع و «قُنِيَان» وإنما يميّز بينهما بإعراب النون، ويُجَمَع: قُنُون وقُنُون، وفي الجمع القليل: ثلاثة أَقْنَاء، فالقُنُون لغة أهل الحجاز، والقُنُون لغة قَيْس، قال امرؤ القَيْس: فَأَنْتَ أَعَالِيهِ وَأَدْتُ أَصُولُهُ وَمَالَ بَقُنُونٍ مِنَ الْبُشْرِ أَحْمَرًا^(٢) وقُنِيَان وقُنِيَان لغة تميم. وقوله: ﴿دانية﴾ معناه: قريبة متهدّلة، وهو قول ابن عَبَّاس وقَتَادَة والسُّدِّي والضَّحَّاك.

وقال الجُبَّائي: ﴿دانية﴾ أي: متدانية في حُلُوق النخل متكوّن بها.

وقوله: ﴿وجَنَاتٍ﴾ يعني: وأخرجنا به أيضاً جَنَات من أعناب، يعني: بساتين من أعناب.

وقوله: ﴿والزيتونَ والرَّمَّانَ﴾ عطف «الزيتون» على «الجَنَات» على تقدير: وأخرجنا الزيتون والرَّمَّانَ مشْتَبِهاً وغير مَتَشَابِهٍ. قال قَتَادَة: مَتَشَابِه ورقُّه مختلف ثمرُهُ. ويحتمل أن يكون المراد: مَشْتَبِهاً في الخَلْق مختلفاً في الطَّعْم.

(١) في الحجرية زيادة: «أي» وكتب عليها: ز ط.

(٢) ورواية الديوان: ص ٩٢ هكذا:

وقال الجُبائي: ﴿مشتبهاً﴾ ما كان من جنس واحد، و﴿غير متشابه﴾ إذا اختلف جنسه.

والمعنى: وشَجَر الرِّمَّان والزَّيتُون، فاكتفى بِذِكْرِ ثَمَرِهِ عن ذِكْرِ شَجَرِهِ، كما قال: ﴿واسأل القرية﴾ فاكتفى بِذِكْرِ «القرية» عن ذِكْرِ أهلها لدلالة الحال عليه.

وقوله: ﴿أنظروا إلى ثَمَرِهِ إذا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ الثَّمَرُ: جمع «ثَمرة» وهو ما انعقد على الشَّجَر، يُقال: ثَمَرَ الثَّمَرُ إذا نَضِج، والمراد: إذا أَطْلَعَ ثَمَرَهُ.

وقوله: ﴿وَيَنْعِهِ﴾ قال بعضهم^(١): إذا فتحت ياءؤه فهو جمع «يانع» مثل: صَاحِبٍ وَصَحْبٍ، وَتَاجِرٍ وَتَجَرٍ. وقال آخرون^(٢): هو مصدر قولهم: يَنْعُ الثَّمَرُ فهو يَنْعُ يَنْعًا. وَيُحْكِي في مصدره ثلاث لغات: يَنْعُ وَيَنْعُ وَيُنْعُ، وكذلك: نَضَجَ وَنَضُجَ وَنُضِجَ، قال الشاعر:

فِي قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنْعَا^(٣)
وَسَمِعَ أَيْضاً: أَيْنَعَتِ الثَّمَرَةُ تَوْنَعٍ إِيْنَاعاً، فمعنى ﴿وَيَنْعِهِ﴾: نضجه وبلوغه حين يبلغ، وفي «ينعه» لغتان: فتح الياء وضمها، فالفتح لغة أهل الحجاز، والضم لغة نجد.

وقال ابن عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ وَالطَّبْرِيُّ وَالزَّجَّاجُ وغيرهم: معنى ﴿وَيَنْعِهِ﴾: ونضجه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني في إنزال الله الماء

(١) كَأبي عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٠٢.

(٢) منهم الفراء في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٤٨.

(٣) من آيات اختلف فيها، فنسب بعضهم إلى الأخوص وآخرون إلى يزيد بن معاوية يصف جارية. راجع الكامل للمبرِّد: ج ٢ ص ٤٩٨.

من السماء الذي أخرج به نبات كل شيء، والخضر الذي أخرج منه الحب المتراكب، وسائر ما عدد في الآية. ﴿لآيَاتٍ﴾ أي: دلالات أيها الناس إذا نظرت فيها أذاكم إلى التصديق بتوحيده وخلع الأنداد دونه، وأنه لا يستحق العبادة سواه، لأن في ذلك بياناً وحججاً وبرهاناً ﴿لقوم يؤمنون﴾ فتصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء.

وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المنتفعون بذلك والمعتبرون به، كما قال: ﴿هدى للمتقين﴾^(١). وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول بالطبع، لأن من الماء الواحد والتربة الواحدة يخرج الله ثماراً مختلفة وأشجاراً متباينة، ولا يقدر على ذلك غير الله تعالى.

قوله تعالى:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل المدينة: ﴿خَرَقُوا﴾ بتشديد الراء، الباقون بتخفيفها. قال أبو عبيدة: ﴿وخرقوا له بنين وبنات﴾ أي: جعلوا له وأشركوه. يقال: خرّق واخترّق واختلّق بمعنى، إذا افتعل وافتري وكذب، قال أحمد بن يحيى: خرّق واخترق، وقال أبو الحسن: الخفيفة أعجب^(٢) إليّ، لأنها أكثر. وقيل^(٣): إن المعنى: إن المشركين ادّعوا [دعوا، ظ]: الملائكة بنات الله، والنصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزيراً ابن الله. ومن شدد كأنه ذهب إلى التكرّر.

أخبر الله تعالى أن هؤلاء الكفار العادلين عن الحق المتخذين معه آلهة

(٢) في نسخة: «أحب» بدل: أعجب.

(١) البقرة: ٢.

(٣) قاله السدّي وابن زيد. راجع تفسير الطبري: ج ٧ ص ١٩٧ - ١٩٨.

﴿جَعَلُوا﴾ له أنداداً ﴿وَشُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ كما قال: ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً﴾^(١) وقال: ﴿وجعلوا الملائكة الَّذِينَ هم عباد الرحمن إناثاً﴾^(٢) وقال: ﴿ويجعلون لله البنات﴾^(٣) وَصَفَهُم بِالْجِنَّ لَخَفَائِهِمْ عَنِ الْأَبْصَارِ.

وقوله: ﴿وجعلوا لله شركاءَ الْجِنَّ﴾ أراد به الْكُفَّارَ الَّذِينَ جعلوا الملائكة بنات الله، والنصارى الَّذِينَ جعلوا المسيح ابن الله، واليهود الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ عَزْرِيَّأ ابن الله، ولذلك قال: ﴿وَحَرَقُوا له بنين وبنات﴾ نفصل أقوالهم.

وقيل: إِنَّ معنى ﴿شركاءَ الْجِنَّ﴾ في استعاضتهم بهم. وقيل: إِنَّ المعنى: أَنَّ المجوس تنسب الشرَّ إلى إبليس وتجعله بذلك شريكاً.

والهَاءُ والمِيمُ في قوله: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ يحتمل أن تكون عائدةً إلى الْكُفَّارَ الَّذِينَ جعلوا لله الْجِنَّ شركاء، ويحتمل أن تكون عائدةً على الْجِنَّ، ويكون المعنى: وجعلوا لله شركاءَ الْجِنَّ، والله خَلَقَ الْجِنَّ، فكيف يكونون شُرَكَاءَ له؟! وفي نصب ﴿الْجِنَّ﴾ وَجْهَانِ:

أحدهما: أن يكون تفسيراً للشركاء وبدلاً منه. والآخر: أن يكون مفعولاً به، ومعناه: وجعلوا لله الْجِنَّ شركاء وهو خالقهم.

وروي^(٤) عن يحيى بن يَعْمَرُ أَنَّهُ قرأ: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ بسكون اللام، بمعنى: أَنَّ الْجِنَّ شركاءَ لله في خَلْقِهِ إِيَّانَا^(٥) والقراءة المعروفة أجود، لأنَّ المعنى: ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ بمعنى: أَنَّ الله خَلَقَهُمْ متفرداً بخلقه إِيَّاهُمْ.

وقوله: ﴿وَحَرَقُوا له بنين وبنات﴾ معناه: تخرصوا، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدِّي وابن زيد وغيرهم، فيتلخص الكلام: أَنَّ

(١) الصافات: ١٥٨. (٢) الزخرف: ١٩. (٣) النحل: ٥٧.

(٤) رواه عنه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٣٩.

(٥) في المطبوعة زيادة: وهذه القراءة ضعيفة.

هؤلاء الكفار جعلوا لله الجنّ شركاء في عبادتهم إياه، مع أنّه المتفرد بخلقهم بغير شريك ولا معين ولا ظهير ﴿وَحَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾ معناه: تخرّصوا له كذباً بنين وبَنَاتٍ ﴿بغير علم﴾ أي: بغير حجة، ويحتمل أن يكون معناه: بغير علمٍ منهم بما عليهم عاجلاً وآجلاً، ويحتمل أن يكون معناه: بغير علمٍ منهم بما قالوه على حقيقة ما يقولون، لكن جهلاً منهم بالله وبعظمته، لأنّه لا ينبغي لمن كان إلهاً أن يكون له بنون وبَنَاتٍ ولا صاحبة، ولا أن يشركه في خلقه شريك، ثمّ نزه نفسه تعالى وأمرنا بتنزيهه عمّا أضافوه إليه، وأنّه يجلّ عن ذلك ويتعالى عنه، فقال: ﴿سبحانه وتعالى عمّا يصفون﴾ من ادّعائهم له شركاء، واختراقهم له بنين وبَنَاتٍ، لأنّ ذلك لا يليق بصفته ولا بوحدانيّته.

قوله تعالى:

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَأَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: البديع: هو المبدع، وهي صفة معدولة عن «مُفْعِل» إلى «فَعِيل» ولذلك تعدّى «فَعِيل» لأنّه يعمل عمل ما عدل عنه، فإذا لم يكن مفعولاً للمبالغة لم يتعدّ، نحو «طويل» و «قصير».

وارتفع ﴿بديع﴾ لأنّه خبر ابتداء محذوف، وتقديره: هو بديع السماوات والأرض، ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء، وخبره: ﴿أَنْتَى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾. والفرق بين الابتداء والاختراع: أنّ الابتداء فعل ما لم يسبق إلى مثله، والاختراع فعل ما لم يوجد سبب له، ولذلك يُقال: البدعة والسنة، فالبدعة: إحداث ما لم يسبق إليه ممّا خالف السنة.

ولا يوصف بالاختراع غير الله، لأنّ حدّه ما ابتدئ في غير محلّ

القدرة عليه، ولا يقدر على ذلك إلا القادر للنفس، لأنَّ القادر بقدرة: إما أن يفعل مباشراً وحدّه ما ابتدئ في محلّ القدرة عليه، أو متولّداً وحدّه ما وقع بحسب غيره، وهو على ضربين: أحدهما: تولّده في محلّ القدرة عليه. والآخر: أنّه يتعدّاه بسبب هو الاعتماد لا غير، ولا يقدر على الاختراع أصلاً^(١). فأما الابتداع فقد يقع منه، لأنّه قد يفعل فعلاً لم يسبق إليه، وأما ﴿بديع السموات والأرض﴾ فلا يوصف به غير الله، لأنّه خالقهما على غير مثال سبق.

وقوله: ﴿أَنْتَ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ معناه: كيف يكون له وَلَدٌ؟ وقيل^(٢): معناه: من أين يكون له وَلَدٌ، ولم تكن له صاحبة؟ فالوَلَدُ هو الحيوان^(٣) المتكوّن من حيوان، فعلى هذا آدم ليس بوَلَدٍ لأنّه لم يتكوّن عن والد، والمسيح عليه السلام ولد لأنّ مريم ولدته، فهو متكوّن عنها وإن لم يكن عن ذكّر، والصاحب هو القرين اللازم، ولذلك يُقال: أصحاب الصحراء، وفي القرآن: أصحاب النار وأصحاب الجنة، ومعناه: المقارنون لها، وقد يكون المقارن لما هو من جنسه، وما ليس من جنسه فيُوصَفُ بأنّه صاحب، إلاّ أنّه لا بدّ من مشاكلته. ويُقال: صاحب القرآن أي: حافظه، وصاحب الدار: مالِكها. وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون أراد ﴿خَلَقَ﴾: قَدَّر، فعلى هذا تكون الآية عامّة، لأنّه تعالى مقدّر كلّ شيء. ويحتمل أن يكون معناه: أحدث كلّ شيء، فعلى هذا يكون مخصوصاً، لأنّه لم يُحدث أشياء كثيرةً من مقدورات

(١) في نسخة العبارة هكذا: «ولا يقدر غير الله على الاختراع...».

(٢) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٢٧٨.

(٣) من هنا إلى قوله فأما الإدراك في ص ١٨١ ساقط من ط الحجرية.

غيره، وما هو معدوم لم يوجد على مذهب من يسميها أشياء وكقديم آخر، لأنه يستحيل.

وقوله: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ عام، لأن الله تعالى يعلم الأشياء كلها: قديمها ومحدثها، موجودها ومعدومها، لا تخفى عليه خافية. قوله تعالى:

ذَٰلِكُمْ إِلَهُ رَبِّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ آية بلا خلاف.

«ذلك» إشارة إلى ما تقدّم ذكره من وصف الله بأنه ﴿بديع السموات والأرض﴾ وغير ذلك من صفاته تعالى، وإنما أدخل فيه الميم لأنه خطاب لجميع الخلق ﴿الله ربكم﴾ صفة بعد صفة.

وقوله: ﴿لا إله إلا هو﴾ إخبار بأنه لا معبود سواه تحقّق له العبادة، ويبيّن أنّه ﴿خالق كلّ شيء﴾ من أصناف الخلق وإنما أطلق عموم ذلك للمبالغة، والمعنى: أنّه خالق كلّ شيء من أصناف الخلق، وحذف اختصاراً في المبالغة لقيام الدلالة على أنّه لا يدخل فيه ما لم يخلقه من أصناف الأشياء من المعدوم وأفعال العباد والقبائح، ومثله في المبالغة قوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾^(١) وقوله: ﴿وَأَتَيْتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢). ثم أمر الخلق بعبادة من كان خالق الأشياء كلها، والمنعم على خلقه بما يستحقّ به العبادة من: خلق الحياة والقدرة والشهوة والبقاء وغير ذلك.

وأخبر أنّه تعالى ﴿على كلّ شيء وكيل﴾ أي: حافظ، والوكيل على الشيء هو الحافظ الذي يحوطه ويدفع الضرر عنه، وإنما وصف بأنه وكيل

مع أنَّه مالك الأشياء، لأنَّه لما كانت منافعه لغيره لاستحالة المنافع عليه والمضارّ، صَحَّتِ الصِّفَةُ له من هذه الجهة بأنَّه وكيل، وكان فيها تذكير بالنعمة مع كونه مالِكاً من جهة أنَّه قادر عليه له أن يصرف أتمَّ التصريف ممّا يريده بمنزلة ما يريده الوكيل في أن منافعه تعود على غيره، ولا يلزم على هذا أن يُقال: هو وكيل على القبائح والفواحش، لأنَّه يوهّم أنَّها عرض، وإنّما تدخل في الجملة على طريق التَّبَع، لأنَّه يجازي عليها بالعذاب المستحقّ بها.

ورفع ﴿خالق كلّ شيء﴾ بأنَّه خبر ابتداء محذوف، كأنَّه قيل: هو خالق كلّ شيء، لأنَّه تقدّم ذكره فاستُغْنِيَ عن ذكره، ولا يجوز رفعه على أن خبره: ﴿فاعبدوه﴾ لدخول الفاء، وكان يجوز نصبه على الحال لأنَّه نكرة اتّصل بمعرفةٍ بعد التمام.

قوله تعالى:

لَا تُذَكِّرْهُ الْأَبْصَرُ وَهُوَ يُذَكِّرُكَ الْأَبْصَرُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٦﴾ آية بلاخلاف. في هذه الآية دلالة واضحة على أنَّه تعالى لا يرى بالأبصار، لأنَّه تمدّح بنفي الإدراك عن نفسه، وكلّ ما كان نَفْيُهُ مدحاً غير متفضّل به فإثباته لا يكون إلّا نقصاً، والنقص لا يليق به تعالى، وشرح الآية مذكور في كتب الأصول. فإذا ثَبِتَ أنَّه لا يجوز إدراكه ولا رؤيته، وهذه الجملة تحتاج إلى بيان أشياء:

أحدها: أنَّه تعالى تمدّح بالآية. والثاني: أن الإدراك هو الرؤية. والثالث: أن كلّ ما كان نَفْيُهُ مدحاً لا يكون إثباته إلّا نقصاً. والذي يدلّ على تمدّحه شيئان:

أحدهما: إجماع الأمة، فإنه لا خلاف بينهم في أنه تعالى تمدّح بهذه الآية، فقولنا: تمدّح بنفّي الإدراك عن نفسه لاستحالته عليه، وقال المخالف: تمدّح لأنه قادر على منع الأبصار من رؤيته، فالإجماع حاصل على أن فيها مِذْحَةً.

والثاني: أن جميع الأوصاف التي وصف بها نفسه قيل هذه الآية وبعدها مِذْحَةً، فلا يجوز أن يتخلّل ذلك ما ليس بمِذْحَةٍ.

والذي يدلّ على أن الإدراك يفيد الرؤية: أن أهل اللغة لا يفرّقون بين قولهم: أدركت ببصري شخصاً، وأنستُ ...، وأحسستُ ببصري، وأنه يُراد بذلك أجمع: الرؤية، فلو جاز الخلاف في الإدراك لجاز الخلاف فيما عداها من الأقسام^(١).

فأما «الإدراك» في اللغة، فقد يكون بمعنى «اللحوق» كقولهم: أدرك قَتَادَةَ الحَسَنَ، ويكون بمعنى «النّضج» كقولهم: أدركت الثَّمرَةَ، وأدرك القِدْرَ، وأدرك الغلامُ: إذا بلغ حال الرجال.

وأيضاً: فإنّ «الإدراك» إذا أُضيف إلى واحدٍ من الحواسّ أفاد ما تلك الحاسة آلة فيه، ألا ترى أنهم يقولون: «أدركته بأذني» يريدون: سمعته، و«أدركته بأنفي» يريدون: شمّمته، و«بفمي» يريدون: ذقّته، وكذلك إذا قالوا: «أدركته ببصري» يريدون: رأيته. وأمّا قولهم: «أدركت حرارة الميل ببصري» فغير معروف ولا مسموع، ومع هذا ليس بمطلق بل هو مقيد، لأنّ قولهم: «حرارة الميل» مقيد، لأنّ الحرارة تُدْرَكُ بكلِّ محلٍّ فيه حياة، ولو قال: «أدركت الميل ببصري» لما استُفيد به إلّا الرؤية.

وقولهم: «إِنَّ الإدراك هو الإحاطة» باطل، لأنّه لو كان كذلك لقالوا: أدرك الجِرَابَ بالدقيق، وأدرك الحبّ بالماء، وأدرك السور بالمدينة، لإحاطة جميع ذلك بما فيه، والأمر بخلاف ذلك.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾^(١) فليس المراد به الإحاطة، بل المعنى: حَتَّىٰ إِذَا لحقه الغرق، كما يقولون: أدركت فلاناً إِذَا لحقته، ومثله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرَكُونَ﴾^(٢) أي: لَمَلْحَقُونَ. والذي يدلّ على أَنَّ المدح إِذَا كان متعلّقاً بِنَفْيِ فإثباته لا يكون إلّا نقصاً قوله: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾^(٣) وقوله: ﴿مَا أَتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهِ﴾^(٤) لَمَّا كان مدحاً متعلّقاً بِنَفْيِ، فلو ثَبَتَ في حالٍ لكان نقصاً. فإن قيل: كيف يتمدّح بِنَفْيِ الرؤية ومع هذا يشاركه فيها ما ليس بممدوح من المعدومات والضمائر؟

قلنا: إنّما كان ذلك مدحاً بشرط كونه مُدْرِكاً للأبصار، وبذلك يُمَيِّز من جميع الموجودات، لأنّه ليس في الموجودات ما يُدْرِك ولا يُدْرِك غيره تعالى. فإن قيل: ولمَ إِذَا كان يُدْرِك ولا يُدْرِك يجب أن يكون ممدوحاً؟ قلنا: فقد ثبت أَنَّ الآيةَ مِدْحَةٌ بما دللنا عليه، ولا بدّ فيها من وَجْهِ مِدْحَةٍ، فلا يخلو من أحد وجهين: إمّا أن يكون وجه المِدْحَةِ: أنّه يستحيل رؤيته مع كونه رائيّاً، أو: ما قالوه من أنّه يقدر على منع الأبصار من رؤيته بأن لا يفعل فيها الإدراك. وما قالوه باطل، لقيام الدلالة على أَنَّ الإدراك ليس بمعنى الإحاطة، فإذا بَطُلَ ذلك لم يَبْقَ إلّا ما قلناه، وإلّا خرجت الآية من كونها مِدْحَةٌ.

وقد قيل: إنَّ وجه المِدْحَة في ذلك: أنَّ من حقِّ المرئيِّ أن يكون مقابلاً أو في حُكْم المقابل، وذلك يدلُّ على مدحه. وهذا دليل من أصل المسألة، لا يمكن أن يكون جواباً في الآية.

فإن قيل: إنَّه تعالى نفَى أن تكون الأبصار تُدرکه، فمن أين أنَّ المُبصرين لا يدركونه؟

قلنا: الأبصار لا تدرك شيئاً ألبتَّة، فلا اختصاص لها به دون غيره، وأيضاً فإنَّ العادة أن يُضاف الإدراك إلى الأبصار ويُراد به: ذوو الأبصار، كما يقولون: «بَطَشْتُ يدي» و «سمعت أذني» و «تكلَّم لساني» ويُراد به أجمع: ذوو الجارحة.

فإن قيل: إنَّه تعالى نفَى أنَّ جميع المُبصرين لا يدركونه، فمن أين أنَّ البعض لا يدركونه وهم المؤمنون؟

قلنا: إذا كان تمدَّحه في استحالة الرؤية عليه ما قدَّمناه فلا اختصاص لذلك برءٍ دون رائي، ولك أن تستدلَّ بأن تقول: هو تعالى نفَى الإدراك عن نفسه نفياً عاماً، كما أنَّه أثبت لنفسه ذلك عاماً، فلو جاز أن يخصَّ ذلك بوقتٍ دون وقتٍ لجاز مثله في كونه مُدركاً، وإذا ثبت نفَى إدراكه على كلِّ حال فكلٌّ من قال بذلك قال: الرؤية مستحيلة عليه، ومن أجاز الرؤية لم ينفِها نفياً عاماً، فالتقول بنفيها عموماً مع جواز الرؤية عليه قول خارج عن الإجماع.

فإن عوِّرَتْ هذه الآية بقوله: ﴿وجوه يومئذٍ ناضرة﴾ * إلى ربِّها ناظرة ﴿^(١) فإنَّا نبين أنَّه لا تعارض فيهما، وأنَّه ليس في هذه الآية ما يدلُّ

على جواز الرؤية إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

وقوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ قيل في معنى ﴿اللطيف﴾ قولان: أحدهما: إنه اللطف لعباده بسبوغ الإنعام، غير أنه عدل من وزن «فَاعِل» إلى «فَعِيل» للمبالغة.

الثاني: إنه لطيف التدبير، وحُذِفَ لدلالة الكلام عليه.

و ﴿الخبير﴾ هو العالم بالأشياء المتبين لها. وما ذكرناه من أن معنى الآية نفى الرؤية عن نفسه على كل حال قول جماعة، منهم عائشة: روى مسروق عن عائشة أنها قالت: مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ كَذَبَ ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ ولكن رأى جبرائيل في صورته مَرَّتَيْنِ^(١). وفي رواية أخرى: أَنَّ مَسْرُوقًا لَمَّا قَالَ لَهَا: هَلْ رَأَى مُحَمَّدٌ رَبَّهُ؟ قَالَتْ: سُبْحَانَ اللَّهِ، لَقَدْ قَفَّ شَعْرِي مِمَّا قُلْتَ، ثُمَّ قَرَأَتِ الْآيَةَ^(٢).

وقال الشعبي: قالت عائشة: مَنْ قَالَ: إِنَّ أَحَدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ الْفُرْيَةَ عَلَى اللَّهِ، وَقَرَأَتِ الْآيَةَ^(٣). وهو قول السُّدِّي وجماعة أهل العدل من المفسرين كالحسن والبلخي والجُبَّائِي والرُّمَّانِي وغيرهم. وقال أهل الحشو والمجبرة بجواز الرؤية على الله تعالى في الآخرة، وتأولوا الآية على الإحاطة، وقد بيَّنا فساد ذلك.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٦ ص ١٧٥ كتاب التفسير، والطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢٠٠.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ١ ص ١٦٠ ح ٢٨٩ كتاب الإيمان، والطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢٠٠.

(٣) أخرجه الترمذي في السنن: ج ٥ ص ٢٦٢ ح ٣٠٦٨، والطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢٠٠.

قوله تعالى:

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾ آية .

أقول: البصائر: جمع بصيرة، وهي الدلالة التي تُوجب العلم الذي يبصر به نفس الشيء على ما هو به، والمراد هاهنا: قد جاءكم القرآن الذي فيه الحجج والبراهين، قال الشاعر:

جاءوا بصائرهم على أكتافهم وبصيرتي يعلدو بها عتد وأى^(١)

يعنى بالبصيرة: الحجة البينة الظاهرة، وأمّا الإبصار: فهو الإدراك، ولذلك يوصف تعالى بأنه مُبْصِر، كما يوصف بأنه مُدْرِك، ويُسمّى بأنه بصير، لأنّه يجب أن يدرك المُبْصِرَات إذا وَجَدَتْ.

وإنّما وصفت «الدلالة» بأنها جائية وإن كان لا يجوز أن يقال: جاءت الحركة، ولا: جاء السكون ولا الاعتماد، وغير ذلك من الأعراض ليفخم شأن «الدلالة» حيث كانت بمنزلة الغائب المتوقع حضوره للنفس، كما يقال: جاءت العافية، وانصرف المرض، وأقبل السعد، وأدبر النحس.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ يعني: من تبين بهذه الحجج بأن نظر فيها حتّى أوجبت له العلم وتبين بها فمُنفعة ذلك تعود عليه ولنفسه نظر ﴿ومن عمي﴾ فلم ينظر فيها وصدف عنها حتّى جهل فعلى نفسه، لأنّ عقاب تفريطه لازم له وحالّ به، فسُمّي العلم والتبيين إبصاراً مجازاً، وسُمّي الجهل عمىً توسّعاً. وفي ذلك دلالة على أنّ الخلق غير مُجَبَّرِينَ، بل هم مُخَيَّرُونَ في أفعالهم.

(١) أنشده الأزهري في التهذيب: ج ٢ ص ١٩٥، وفي الأصمعيّات: ص ٧ نسبته إلى الأسعر الجعفي.

ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ وأمره بأن يقول لهم: ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ يعني: بريقب على أعمال العباد حتى يجازيهم بها - في قول الحسن - بل هو شهيد عليهم، لأنه يرجع إلى الحال الظاهرة التي تقع عليها المشاهدة. قال الزجاج: هذا قبل أن يُؤمر بالقتال، ثم أُمر أن يمنهم بالسيف من عبادة الأوثان.

وهذه الآية فيها أمر من الله لنبيه أن يقول لهؤلاء الكفار: قد جاءكم حجج من الله، وهو ما ذكره في قوله: ﴿فالق الحب والنوى﴾^(١) إلى هاهنا، وما يبصرون به الهدى من الضلال، فمن نظر وعلم فلنفسه نفع، ومن جهل وعي فلنفسه ضرر، ولست أمنعكم منه ولا أحول بينكم وما تختارون^(٢) وهو قول قتادة وابن زيد.

قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿دارست﴾ بألف وفتح التاء، الباؤون بلا ألف ﴿درست﴾ بفتح التاء، إلا ابن عامر فإنه قرأ: ﴿درست﴾ بسكون التاء وفتح السين بمعنى «أتمحت» وذكر الأخفش ﴿درست﴾ وهو أشدّ مبالغة في الإمحاء، وقيل^(٣): ﴿درست﴾ على ما لم يسم فاعله، والمعاني متقاربة غير أن هذين لم يقرأ بهما أحد من المعروفين، وفي قراءة عبدالله: ﴿درس﴾^(٤) أي: ليقولوا درس محمد.

قال أبو زيد: درست أدرس دراسة وهي القراءة، وإنما يُقال ذلك إذا

(١) الآية: ٩٥ المتقدمة.

(٢) في نسخة: «تحتاجون».

(٣) قاله الحسن راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٤٥.

(٤) حكاه عنه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢٠٦.

قال: قرأت على غيرك. قال الأصمعي: أنشدني ابن ميادة:
يَكْفِيكَ مِنْ بَعْضِ ارْذِيَارِ الْآفَاقِ سَمَرَاءُ مِمَّا دَرَسَ ابْنُ مِخْرَاقِ^(١)
قال: دَرَسَ يَدْرُسُ مثل: دَاسَ يَدُوسُ، قال: وقال بعضهم: «سَمَرَاءُ»
باقية، ودَرَسَهَا: رِيَاضُهَا، قال: ودَرَسَ السُّورَةَ مِنْ هَذَا أَيْ: يَدْرُسُهَا لِتَخَفَ
عَلَى لِسَانِهِ، وَالدَّرِيسُ: الثَّوْبُ الْخَلْقِيُّ، وَأَصْلُ «الدَّرْسِ»: اسْتِمْرَارُ التَّلَاوَةِ.
وقال أبو عليّ النحوي: مِنْ قَرَأَ ﴿دَارَسْتَ﴾ أَرَادَ دَارَسْتَ أَهْلَ الْكِتَابِ
وَذَاكَرْتَهُمْ، قال: وَقَدْ يُخَذَفُ الْأَلْفُ فِي مِثْلِ هَذَا فِي الْمَصْحَفِ، قال: وَيَقْوِي
ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً
وَأَصِيلًا﴾^(٢) وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾^(٣)
وَمَنْ قَرَأَ: ﴿دَرَسْتَ﴾ قال: لِأَنَّ أَيْبًا وَابْنَ مَسْعُودٍ قَرَأَ بِهِ فَأُسْنَدَ الْفِعْلُ فِيهِ إِلَى
الْغَيْبَةِ كَمَا أُسْنَدَ إِلَى الْخُطَابِ، وَمَعْنَاهُ: دَرَسْتَ فَتَعَلَّمْتَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.
وقال المغربي: ﴿دَرَسْتَ﴾ مَعْنَاهُ: عَلِمْتَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَدَرَسُوا مَا
فِيهِ﴾^(٤) أَيْ: عَلِمُوهُ. فَعَلَى هَذَا يَكُونُ اللَّامُ الْغَرَضُ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَعَلْنَا
ذَلِكَ لِيَقُولُوا: عَلِمْتَ.

ووجه قراءة ابن عامر: أَنَّهُ ذَهَبَ إِلَى «الدَّرْسِ» الَّذِي هُوَ تَعْفِيَةُ الْأَثَرِ
وإِمْحَاءُ الرَّسْمِ.

واللام مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ﴾ عَلَى ضَرَبَيْنِ:
مَنْ قَالَ: ﴿دَرَسْتَ﴾ بَلَا أَلْفٍ فَالْمَعْنَى: لِكِرَاهَةِ أَنْ يَقُولُوا أَوْ: لِسَلَا
يَقُولُوا: دَرَسْتَ، كَمَا قَالَ: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا﴾^(٥) مَعْنَاهُ: لِسَلَا تَضَلُّوا

(١) ذكره في اللسان: مادتي «درس» و«سمر». وفي الحجرية صدر البيت: هَلَّا اشْتَرَيْتَ حَنْطَةً
بِالرِّسْتَانِقِ. وكذا في اللسان مادة «درس».

(٢) و (٣) الفرقان: ٥ و ٤ على الترتيب. (٤) الأعراف: ١٦٩. (٥) النساء: ١٧٦.

أو: كراهة أن تضلّوا، والمعنى: إنّي فصلت الآيات وأحكمتها لئلا يقولوا: إنّها أخبار قد تقدّمت وطال العهد بها وبأدّ من كان يعرفها، كما قالوا: ﴿أساطير الأولين﴾^(١) لأنّ تلك الأخبار لا تخلو من خللٍ، فإذا سلم الكتاب منه لم يكن لطاعين موضع طعن.

والثاني: ليقولوا درست ذلك بحضرتنا، أي: ليقروا بورود الآية عليهم فتقوم الحجة عليهم.

وقال الزجاج: اللام لام العاقبة، ومن قرأ: ﴿دارست﴾ فاللام على قوله كآتي في قوله: ﴿ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾^(٢) ولم يلتقطوه لذلك، لكن كان عاقبته كذلك، كما أنّه تعالى لم يفصل الآيات ليقولوا: دارست ودرست، لكن لما قالوا ذلك أطلق ذلك عليه اتساعاً.

وموضع الكاف في ﴿وكذلك﴾ نصب، لأنّ المعنى: نصّرف الآيات في غير هذه السورة^(٣) فهو في موضع صفة المصدر، كأنّه قال: تصريفاً مثل هذا التصريف، قال الرّماني: والتصريف: إجراء المعنى الدائر في المعاني المتعاقبة ليجتمع فيه وجوه الفائدة.

وقال الحسن ومجاهد والسّدي وابن عبّاس وسعيد بن جبّير: ﴿دارست﴾ أي: ذاكرت أهل الكتابين وقارأتهم.

وقوله: ﴿ولنبينّه لقوم يعلمون﴾ معناه: لنبيّن الذي هذه الآيات دالة عليه لقوم يعلمون ما نورهده عليهم من هذه الآيات ويعقلون ذلك، وهم الذين يلزمهم الاستدلال بذلك على الله وعلى صحّة دينه.

وقال قوم: ﴿وليقولوا درست﴾ معناه التهديد، كما يقول القائل: قل

(١) النحل: ٢٤.

(٢) القصص: ٨.

(٣) في المطبوعة زيادة: مثل التصريف في هذه السورة.

لفلان: يوفينا حقنا وليصنع ما شاء، و: قل للناس الحق وليقولوا ما شاؤوا، أي: ذلك لا يضرّكم، ولأنّ ضرره يعود عليهم من العقاب والذمّ.
قوله تعالى:

اتَّبِعْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾
أقول: أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يتّبع ما أوحى إليه من ربه، والاتباع: هو أن يتصرّف الثاني بتصرف الأول، والنبي ﷺ كان يتصرّف في الدين بتصرف الوحي فلذلك كان متّبعاً، وكذلك كلّ متدبّر بتدبير غيره فهو متّبع له. والإيحاء: هو إلقاء المعنى إلى النفس من جهة يخفى.

وإنّما أعاد قول: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنّ المعنى: ادعهم إلى أنّه لا إله إلا هو، فعلى هذا ليس بتكرار، هذا قول الحسن. وقال الجبائي: لأنّه بمعنى: أنزله [ألزمه، ظ] وحده. وقال غيره: لأنّ معناه: اتّبِعْ ما أوحى إليك من أنّه لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر للنبي ﷺ بالإعراض عن المشركين، ولا ينافي ذلك أمره بإيّا بدعائهم إلى الحقّ وقتالهم على مخالفتهم، لأمرين:

أحدهما: أنّه أمره بالإعراض عنهم على وجه الاستجهاال لهم فيما اعتقدوه من الإشراك برّبهم. الثاني: قال ابن عباس: نُسخَ ذلك بقوله: ﴿اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾^(١).

وأصل «الإعراض»: هو الانصراف بالوجه إلى جهة العرض، والعرضُ خلاف الطول، ومنه:

وأعرضت اليمامة^(١)

أي: ظهرت كالظهور بالعرض، ومنه: «المعارضة» لظهور المساواة بها كالظهور بالعرض، والاعتراض: المنع من الشيء بحاجز عنه عرضاً، ومنه: العرض الذي يظهر - كالظهور بالعرض - ثم لا يلبث، وحذ أيضاً بأنه: ما يظهر في الوجود ولا يكون له لبث كلبث الجواهر. قوله تعالى:

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَأْنَتْ عَلَيْهِمُ بَوْكِيلٌ ﴿٥٧﴾
آية .

أقول: إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أشركوا﴾ والمشية لا تتعلق إلا بفعل يصح حدوثه، ولا تتعلق بأن لا يكون الشيء؟! قلنا: التقدير: لو شاء الله أن يكونوا على غير الشرك قسراً ما أشركوا، فمتعلق المشية محذوف، فمراد هذه المشية: حالهم التي تنافي الشرك قسراً بالاقطاع عن الشرك عجزاً أو منعاً أو إيجاباً، وإنما لا يشاء الله هذه الحال لأنها تنافي التكليف، وإنما لم يمنع العاصي من المعصية لأنه إنما أتى [بها] من قبل نفسه، والله تعالى فعل به جميع ما فعل بالمطيع من إزاحة العلة، فإذا لم يطع وعصى كانت الحجة عليه، وربما كان في بقائه لطف للمؤمن فيجب توقيته.

وليس لأحد أن يقول: الآية دالة على أنه تعالى لم يرد هدايتهم لأنه لو أراد ذلك لاهتدوا، وذلك أنه لو لم يرد أن يهتدوا لم يكونوا عصاة

(١) وتام البيت:

كأسيافٍ بأيدي مُضِلِّتينا

فأعرضت اليمامة واشمخرت

لعمر بن كلثوم من معلقته المشهورة. راجع ديوان عمرو بن كلثوم: ص ٥٦.

بمخالفة الاهتداء، لأنَّ العاصي هو الَّذي خالف ما أُريد منه، ولما صحَّ أمرهم أيضاً بالاهتداء.

والفرق بين «الحفيظ» و «الوكيل»: هو أنَّ الحفيظ أن يحفظهم [من] أن يزكوا بمنعه لهم، والوكيل: القيمُّ بأمرهم في مصالحهم لدينهم أو دنياهم حتَّى يُلطف لهم في تناول ما يجب عليهم، فليس يحفيظ في ذاك ولا وكيل في هذا، فلذلك قال تعالى: إِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ نَبِيَّهٖ حَفِيزًا وَلَا جَعَلَهُ وَكِيلًا عَلَيْهِمْ، بل الله تعالى هو الرقيب الحافظ عليهم والمتكفل بأرزاقهم، وإِنَّمَا النَّبِيُّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَبْلَغٌ مُنْذِرٌ وَمُخَوِّفٌ. وقيل: إِنَّ ذَٰلِكَ كَانَ بِمَكَّةَ قَبْلَ أَنْ يُؤْمَرَ بِالْقِتَالِ. قوله تعالى:

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ آية بلاخلاف. أقول: قرأ الحسن ويعقوب: ﴿عُدُّوْا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو^(١). وأصل ذلك من «العُدوان» و «عُدُّوْا» مخفَّفًا و «عُدُّوْا» لغتان، يقال: عَدَا عليَّ عُدُوًّا وَعُدُّوَانًا وَعَدَاءٌ إِذَا ظَلَم، مثل: ضَرَبَ ضَرْبًا، وَعَدَا فلَانٌ على فلَانٍ أَي: ظَلَمَهُ، والاعتداء: افتعال من «عَدَا»^(٢).

نهى الله تعالى المؤمنين أن يسبوا الذين يدعون من دون الله، والسبُّ: الذِّكْرُ بالقبيح، ومثله: الشَّتْمُ والدَّم، وهو الطَّعْنُ فيه بمعنى قبيح كما يطعن فيه بالسنان، وأصله: السبب، فهو يتسبَّب إلى ذكره بالعيب. والمعنى في الآية: لا تخرجوا في مجادلتهم ودعائهم إلى الإيـمان

(١) في المطبوعة زيادة: والباقون بفتح العين وبسكون الدال.

(٢) في الحجرية: من هذا.

ومحاجتهم إلى أن يسبوا الله بجهلهم وحميتهم وأنتم في دارهم^(١)
ولم يؤذن لكم في القتال.

وكان سبب نزول الآية - في قول الحسن - : بأن المسلمين كانوا
يسبون آلهة المشركين من الأوثان، فإذا سبوا يسب المشركون الله تعالى،
فأنزل الله تعالى الآية.

وقال أبو جهل: والله يا محمد لتتركوا سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذي
بعثك، فنزلت الآية.

وفي ذلك دلالة على أن المحقق يلزمه الكف عن سب السفهاء الذين
يسرعون إلى سبه مقابلةً له، لأنه بمنزلة البعث على المعصية والمفسدة فيها.
وإنما قال ﴿يدعون من دون الله﴾ بمعنى: يعيدون، لأن معناه: يدعونه
إلهاً، فلما قال: ﴿من دون الله﴾ وهو من صفة الكفار دل على هذا المعنى،
فحذف اختصاراً.

وإنما قال: ﴿من دون الله﴾ مع أنهم كانوا يشركون في العبادة بين الله
وبين الأصنام لأمرين:

أحدهما: أن ما وجهوه من العبادة إلى الأوثان إنما هو عبادة لها لا لله،
وليس كالتوجه إلى القبلة عبادة لله.

والثاني: أن ذلك غير معتد به، لأنهم أوقعوا العبادة على خلاف الوجه
المأمور به، فما أطاعوا الله بحال.

وقوله: ﴿كذلك زيننا لكل أمّة عملهم﴾ قيل في معناه أربعة أقوال:

(١) في المطبوعة زيادة: تسبوا ما يعبدونه من دون الله، فإن ذلك ليس من الحجاج في شيء،
وهو أيضاً يدعوهم إلى أن يعارضوكم ويسبوا الله بجهلهم وحميتهم، فأنتم اليوم غير قادرين
على معاقبتهم بما يستحقون، وهم أيضاً لا يتقونكم لأن الدار دارهم.

أحدها: قال الحسن والجُبائي والطبري والرُّماني: إِنَّا كما أمرناكم بحسن الدعاء إلى الله تعالى وتزيين الحق في قلوب المدعوين، كذلك زَيْنًا للأُمم المتقدمين أعمالهم التي أمرناهم بها ودعوناهم إليها، بأن رَغِبناهم في الثواب وحذَرناهم من العقاب، ويُسمَّى ما يجب على الإنسان أن يعمل به بأنَّه عمله، كما يقول القائل لولده أو غلامه: «اعمل عملَكَ» يريد به: ما ينبغي له أن يفعله، لأنَّ ما وَجَدَ وتقضى لا يصحَّ الأمر بأن يفعله.

الثاني: زَيْنًا الحجَّة الداعية إليها والشبهة التي من كمال العقل أن يكون المكلف عليها، لأنَّه متى لم يفعل معنى الشبهة لم يكن عاقلاً.

الثالث: أنَّ التزيين المراد به: ميل الطبع إلى الشيء، فهو إلى الحسن لِيُفْعَلَ وإلى القبيح لِيُجْتَنَّبَ.

والرابع: ذكره البلخي أيضاً، وهو: أنَّ المعنى: أنَّ الله زَيْنَ لكل أُمَّة عملهم من تعظيم مَنْ خَلَقَهُمْ وَرَزَقَهُمْ وأنعم عليهم، والمحاماة عنه، وعداوة مَنْ عاداه طاعةً له، فلَمَّا كان المشركون يظنُّون شركاءهم هم الَّذِينَ يفعلون ذلك أو أَنَّهُمْ يقربونهم إلى الله زُلْفَى حاموا عنهم وتعصَّبوا لهم وعارضوا من شتمهم بشتى من يعزِّ عليهم، فهم لم يعدوا فيما صنعوا ما زَيْنَهُ الله لهم في الجملة، لكن غلطوا فقصدوا بذلك من لم يجب أن يقصدوه فكفروا وضلُّوا. وقوله: ﴿عَدُوا﴾ نصب على المصدر، وقرئ: ﴿عدوا﴾ والمعنى:

جماعة يعني: أعداء، وعلى هذا يكون نصباً على الحال.

قوله تعالى:

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنِ إِذْ جَاءَهُمْ ءَايَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو بكر إلا يحيى ونُصِير

وَحَلَفَ: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ إِنَّهَا﴾ بكسر الهمزة، الباقون بفتحها. وقرأ ابن عامر وحمزة ﴿لا تؤمنون﴾ بالتاء، الباقون بالياء.

«ما» في قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ استفهام، وفاعل ﴿يشعركم﴾ ضمير «ما» ولا يجوز أن يكون نفيًا، لأنَّ الفعل فيه يبقى بلا فاعل، ولا يجوز أن يكون نصبًا ويكون الفاعل ضمير اسم «الله» لأنَّ التقدير يصير: وما يشعركم الله انتفاء إيمانهم^(١).

وهذا ليس بصحيح، لأنَّ الله قد أعلمنا أنَّهم لا يؤمنون بقوله: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة...﴾^(٢) فالمعنى: وما يدريكم إيمانهم إذا جاءت، فحُذِفَ المفعول، وتقديره: وما يدريكم إيمانهم إذا جاءت، أي: هم لا يؤمنون مع مجيء الآية.

وَمَنْ كَسَرَ الْأَلْفَ فَلَا تَنْتَفِ عَلَى الْقَطْعِ بِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، وَلَوْ فُتِحَتْ بِـ ﴿يُشْعِرُكُمْ﴾ كَانَ عُدْرًا^(٣) لَهُمْ، وَيَجُوزُ فَتْحُهَا عَلَى وَجْهَيْنِ:

الأول: قال الخليل: بمعنى: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، كما يقول القائل: إئتِ السوق أنك تشتري لنا شيئًا، معناه: لعلك، قال عديّ بن زيد: أَعَاذِلْ مَا يُدْرِيكَ أَنْ مَنِيبِي

إِلَى سَاعَةٍ فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ^(٤)

وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ:

دَرَيْنِي أَطَوَّفُ فِي الْبِلَادِ لِأَتْنِي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بَخِيلًا مُخَلَّدًا^(٥)

(١) قاله أبو علي. راجع الفريد في إعراب القرآن للهمداني: ج ٢ ص ٢١١.

(٢) الآية ١١١ الآتية.

(٣) أي: عذراً لهم في ترك الإيمان، إذ يصير المعنى: وما يدريكم أيها المؤمنون لعلهم يؤمنون إذا جاءتهم الآية أو الآيات.

(٤) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢١٣.

(٥) أنشده الطبري أيضاً في تفسيره.

وقال آخر:

هل أنتم عابِثُونَ بنا لأنّا نَرى العَرَصَاتِ أو أَثَرَ الخِيَامِ^(١)
وقال الفراء: ينزلون: لعلّك، ولعنّك، ورعنّك، وعلّك، ورأنّك، ولأنّك
بمعنى واحدٍ. وقال أبو النّجّم:

قُلْتُ لِشِيْبَانٍ أَذُنٌ مِنْ لِقَائِهِ أَنَا نُغَدِّي الْقَوْمَ مِنْ شِوَائِهِ^(٢)
الثاني: قال الفراء «لا» هاهنا صلة، كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾^(٣) والتقدير: وما يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ يُؤْمِنُونَ، والمعنى على
هذا: لو جاءت لم يؤمنوا، ومثل زيادة «لا» قول الشاعر:

أَبَى جُودُهُ لَا الْبُخْلَ وَاسْتَعَجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ مِنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُوعَ قَاتِلَهُ
بنصب «البُخْلَ» وجزّه، فَمَنْ نصب جعلها زيادة، وتقديره: أبى جودُهُ
البُخْلَ، وَمَنْ جزّه أضاف «لا» إلى «البُخْلَ» ومثله: قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ
عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾^(٤) وهو يحتمل أمرين:

أحدهما: أن تكون «لا» زائدة و «أَنْ» في موضع رفع بأنّه خبر المبتدأ
الَّذِي هو ﴿حَرَامٌ﴾ وتقديره: وحرام على قرية مُهْلَكَةٍ رَجُوعُهُمْ، كما قال:
﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٥).

والثاني: أن تكون «لا» غير زائدة، بل تكون متّصلة بـ «أهْلَكْنَاهَا»
والتقدير: بأنّهم لا يَرْجِعُونَ، أي: أهلكناهم بالاستئصال^(٦) لأنّهم إنّما
لا يرجعون إلى أهلبيهم للاستئصال الواقع بهم، وخبر الابتداء محذوف وتقديره:
وحرام على قرية أهلكناها بالاستئصال بقاؤهم أو حياتهم ونحو ذلك.

(١) لجرير. راجع ديوانه: ص ٤٢٣. (٢) أورده البغدادى في خزنة الأدب: ج ٨ ص ٥٠١.

(٣) الأعراف: ١٢.

(٤) الأنبياء: ٩٥.

(٥) يس: ٥٠.

(٦) في الحجرية: «بالاصطلام».

ومن قرأ ﴿يؤمنون﴾ بالياء فلأنَّ قوله: ﴿وأقسموا﴾ إنما يُراد به قوم مخصوصون بدلالة ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة...﴾ الآية وليس كلَّ الناس بهذا الوصف، فالمعنى: وما يشعركم أيها المؤمنون لعلهم إذا جاءت الآيات التي اقترحوها^(١) لم يؤمنوا.

ومن قرأ بالتاء فإنه انصرف من الغيبة إلى الخطاب، ويكون المراد بالمخاطبين في ﴿يؤمنون﴾ هم القوم المقيسون الذين أخبر الله عنهم أنهم لا يؤمنون، ومثله قوله: ﴿الحمد لله﴾ ثم قال: ﴿إياك نعبد﴾ ونحو ذلك مما ينصرف فيه إلى خطاب بعد الغيبة.

وقوله: ﴿جهد أيمانهم﴾ أي: اجتهدوا في اليمين وبالغوا فيه.
والآية التي سألوا النبي ﷺ إظهارها قبل فيها قولان:
أحدهما: إنهم سألوا تحوّل الصفاً ذهباً.

الثاني: ما ذكره في موضع آخر من قوله: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ إلى قوله: ﴿كتاباً نقرؤه﴾^(٢) والمعنى: أن هؤلاء الكفار أقسموا متحكمين على النبي ﷺ وبالغوا في أيمانهم أنهم إذا جاءتهم الآية التي اقترحوها ﴿ليؤمننَّ بها﴾ أي: عندها، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿إنما الآيات عند الله﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿الآيات عند الله﴾ وذلك معلوم؟!

قيل: معناه: أن من أجل أن الآيات عند الله، ليس لكم أن تتحكموا في طلبها، لأنّه لا يجوز أن يتخلّف عنكم ولا عن غيركم ما فيه المصلحة في الدين، لأنّه تعالى لا يخلّ بذلك.

قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ فيه تنبيه على موضع الحجّة عليهم من أنّه ليس لهم أن يدّعوا ما لا سبيل لهم إلى علمه. وقال مجاهد وابن زيد: الخطاب متوجّه إلى المشركين. وقال الفراء وغيره: هو متوجّه إلى المؤمنين، لأنّهم قالوا ظناً منهم أنّهم لو أجيبوا إلى الآيات لآمنوا. قوله تعالى:

وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى أنّه يقلّب الله أفئدة هؤلاء الكفّار، وأبصارهم عقوبةً لهم. وفي كيفية تقلبها قيل قولان:

قال أبو عليّ الجبائي: إنّهُ يقلّبها في جهنّم على لهب النار وحرّ الجحّم، وجمع بين صفتهم في الدنيا وصفتهم في الآخرة، كما قال: ﴿هل أتاك حديث الغاشية وجوه يومئذٍ خاشعةٌ عاملةٌ ناصبةٌ تَضَلُّى ناراً حاميةً﴾ ^(١) لأنّ قوله: ﴿وجوه يومئذٍ خاشعة﴾ يعني: في الآخرة، و﴿عاملة ناصبة﴾ في الدنيا. الثاني: إنّهُ يقلّبها بالحسرة التي تغمّ وتزعج النفس.

وقوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة﴾ قيل فيه قولان: أحدهما: أوّل مرّة أنزلت الآيات، فهم لا يؤمنون ثاني مرّة بما طلبوا من الآيات كما لم يؤمنوا أوّل مرّة بما أنزل من الآيات، وهو قول ابن عبّاس وابن زيد ومجاهد.

الثاني: روي ^(٢) أيضاً عن ابن عبّاس: يعني: أوّل مرّة في الدنيا وكذلك لو أعيدوا ثانية، كما قال تعالى: ﴿ولو رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عنه﴾ ^(٣).

(١) الغاشية: ١ - ٤. (٢) رواه الطبري في تفسيره: ج ٧ ص ٢١٤ مسنداً عنه.

(٣) الآية: ٢٨ المتقدّمة.

والكاف في قوله: ﴿كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ قيل فيه قولان: أحدهما: إنها دخلت على محذوف، كأنه قيل: فلا يؤمنون به ثاني مرة كما لم يؤمنوا به أول مرة. والثاني: إنها دخلت على معنى الجزاء، كما قال: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾^(١).

والهاء في قوله: ﴿به﴾ يحتمل أن تكون عائدة على القرآن وما أنزل من الآيات، ويحتمل أن تكون عائدة على النبي ﷺ. وقال بعضهم: إنها عائدة على التقلب، لأنه الحائل بينهم وبين الإيمان. وهذا خطأ، لأنه لو حيل بينهم وبين الإيمان لما كانوا مأمورين به، ولأن تقلب الأبصار لا يمنع من الإيمان كما لا يمنع الأعمى عماه من الإيمان. وقوله: ﴿ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ لا يدل على أنه تركهم فيه ليطغوا، لأنه إنما أراد أنه خلى بينهم وبين اختيارهم وإن لم يرد منهم الطغيان، كما أن الأئمة والصالحين إذا خلوا بين اليهود والنصارى في دخولهم كنائسهم لا يدل على أنهم خلّوهم ليكفروا. وقال الحسين بن عليّ المغربي: قوله: ﴿وتقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ معناه: إنا نحيط علماً بذات الصدور وخائنة الأعين - وهو حشو بين الجملتين - أن يختبر قلوبهم فيجد^(٢) باطنها بخلاف الظاهر. قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

(١) الشورى: ٤٠.

(٢) في مخطوطة: أي نختبر قلوبهم فنجد باطنها بخلاف الظاهر.

أقول: قرأ ابن عامر ونافع وأبو جعفر ﴿قَبْلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، الباقر بن بضمهما. قال أبو زيد: يُقال: لقيت فلاناً قَبْلًا وقَبْلًا وقَبْلًا وقَبْلًا ومُقَابَلَةً، كَلَّه بمعنى وهو المواجهة، فعلى هذا المعنى واحدٌ في اختلاف القراءات. وقال أبو عُبَيْدَةَ: ﴿قَبْلًا﴾ أي: مُعَايَنَةً. فعلى هذا: مَنْ كسر القاف وفتح الباء أراد معناه: عَيَانًا، وَمَنْ قرأ بالضمّ فيهما قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: قال ابن عباس وقتادة وابن زيد: معناه: مُقَابَلَةً.

الثاني: قال مجاهد وعبدالله بن زيد: إنَّ معناه: قَبِيلًا قَبِيلًا، أي: جماعة جماعة، فيكون جمع «قَبِيل» و «قَبِيل» جمع «قَبِيلَة» نحو: سَفِين وسَفِينَة، ويجمع أيضاً: سَفُنًا.

الثالث: قال الفراء: إنَّه جمع «قَبِيل» بمعنى: كَفِيل، نحو: رَغِيف ورُغْف، لقوله: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا﴾^(١) أي: يضمنون ذلك.

قال أبو علي الفارسي: وهذا الوجه ضعيف، لأنَّهم إذا لم يؤمنوا مع إنزال الملائكة عليهم، وكلام الموتى لهم مع ظهوره وبهوره ومشاهدته والضرورة إليه، فالأىؤمنوا بالمقالة التي هي قول لا يُبهر ولا يضطرُّ أجدر، اللهم إلا أن يُقال: موضع الآية الباهرة أنَّه جمع «القَبِيل» الذي هو «الكَفِيل» هو حشر كل شيء، وفي الأشياء المحشورة ما ينطق وما لا ينطق، فإذا نطق بالكفالة من لا ينطق كان ذلك موضع بهر الآية، وكان ذلك قوياً، فأما إذا حملت قوله: ﴿قَبْلًا﴾ على جمع «القَبِيل» الذي هو الصنف فإنَّ موضع الآيات هو حشر جميع الأشياء جنساً جنساً، وليس في العادة أن يحشر جميع الأشياء إلى موضع واحدٍ، فإذا اجتمعت كذلك

كان ذلك باهراً، وإذا حملت ﴿قُبْلًا﴾ بمعنى: مواجهةً فإنه يكون حالاً من المفعول به، والمعنى: حشرناه معاً ومواجهةً، فيكون في معنى قراءة نافع ﴿قُبْلًا﴾ أي: معاً. فأما قوله: ﴿الْعَذَابُ قُبْلًا﴾^(١) فمعناه: مواجهة أو جمع «قَبِيل» والمعنى: يأتيهم العذاب صنفاً صنفاً.

وقيل فيمن نزلت هذه الآية قولان:

أحدهما: قال ابن عباس: نزلت في الكفار أهل الشقاء الذين عَلِمَ الله أنهم لا يؤمنون على حال.

الثاني: قال ابن جريج: نزلت في المستهزئين الذين سألوا الآيات. أخبر الله تعالى بهذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين عَلِمَ من حالهم أنهم لا يؤمنون ولو فعل بهم ما فعل، حتى لو أنزل عليهم الملائكة، وكلمهم الموتى بأن يحييهم الله حتى يكلموهم، وحشر عليهم كل شيء قُبْلًا - على المعنى الذي فسرناه مع ظهور خرق العادة فيه والمعجزة الباهرة فيه - لم يؤمنوا، لشدة عنادهم وعتوهم في كفرهم.

ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ ومعناه أحد أمرين:

أحدهما: قال الحسن: إلا أن يشاء الله أن يجبرهم على الإيمان بأن يمنعهم من أزداد الإيمان كلها فيقع منهم الإيمان.

الثاني: قال أبو علي الجبائي: إلا أن يشاء الله أن يُلْجِئَهُمْ بأن يخلق فيهم العلم الضروري بأنهم إن راموا خلافه مُنِعُوا منه، كما أن الإنسان مُلْجَأٌ إلى ترك قتل بعض الملوك بمثل هذا العلم، وإنما قلنا ذلك لأن الله تعالى قد شاء منهم الإيمان على وجه الاختيار، لأنه أمرهم به وكلفهم

إِيَّاهُ، وذلك لا يتم إلا بأن يشاء منهم الإيمان، ولو أراد الله من الكفار الكفر للزم أن يكونوا مطيعين إذا كفروا، لأن الطاعة هي فعل ما أريد من المكلف، وللزم أيضاً أن يصح أن يأمرهم به، ولجاز أن يأمرنا بأن نريد منهم الكفر كما أراد هو تعالى.

وفي الآية دلالة على أن إرادة الله محدثة، لأن الاستثناء يدل على ذلك، لأنها لو كانت قديمة لم يجز هذا الاستثناء، كما لا يجوز أن يقول القائل: لا يدخل زيد الدار إلا أن يقدر الله أو إلا أن يعلم الله، لحصول هذه الصفات فيما لم يزل.

وقوله: ﴿ولكن أكثرهم يجهلون﴾ إنما وصف أكثرهم بالجهل مع أن الجهل يعتمهم لأن المعنى: يجهلون أنه لو أوتوا بكل آية ما آمنوا طوعاً. وفي الآية دلالة على أنه لو علم الله أنه لو فعل بهم من الآيات ما اقترحوها لآمنوا أنه كان يفعل ذلك بهم، وأنه يجب في حكمته ذلك، لأنه لو لم يجب ذلك لما كان لهذا الاحتجاج معنى، وتعليقه: بأنه إنما لم يظهر هذه الآيات لعلمه بأنه لو فعلها لم يؤمنوا. وذلك يبين أيضاً فساد قول من يقول: يجوز أن يكون في معلوم الله ما إذا فعله بالكافر آمن، لأنه لو كان ذلك معلوماً لفعله ولآمنوا، والأمر بخلافه.

قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ آية .

أقول: التشبيه في قوله: ﴿وكذلك﴾ يحتمل أن يرجع إلى أحد أمرين: أحدهما: أن يكون تقديره: جعلنا لك عدواً كما جعلنا لمن قبلك من الأنبياء. الثاني: جعلنا تمكين من يعادي الأنبياء وتخليتنا بينهم وبين

اختيارهم كتمكين غيرهم من السفهاء.

وإنما جعلهم أعداءً على أحد معنيين:

أحدهما: بأن حَكَمَ بأنهم أعداء، وهو قول أبي عليّ. الثاني: بأن خلّى بينهم وبين اختيارهم ولم يمنعهم من العداوة.

ويجوز أن يكون المراد بذلك: أن الله تعالى لَمَّا أَنْعَمَ على أنبيائه بضروب النعم، وبعَثَهُم إلى خَلْقِهِ وشرَّفَهُم بذلك، حَسَدَهُم على ذلك خَلْقٍ وعادوهم عليه، فجاز أن يقال على مجاز القول: بأن الله جعل لهم أعداءً، كما يقول القائل إذا أَنْعَمَ على غيره بِنِعْمٍ جَزِيلَةٍ فحسده عليها قوم وعادوه لأجلها: جعلتُ لك أعداءً.

وقيل: المعنى: أمرنا الأنبياء بمعاداتهم، فكأنما جعلناهم أعداء الأنبياء. وهذا القول من الله تعالى تسليّةً للنبي ﷺ في أنه أجراه مجرى غيره من الأنبياء، ولا يجوز على قياس ذلك أن يقول: جعلنا للكافر كفراً، لأنّ فيه إيهاماً.

وقوله: ﴿شياطين الإنس والجن﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: إنه أراد مَرَدَّةَ الكفّار من الفريقين: الإنس والجن، وهو قول الحسن وقتادة ومجاهد.

الثاني: قال السُّدِّي وعُكْرِمَةُ: شياطين الإنس الذين يغوونهم، وشياطين الجن الذين هم من ولد إبليس.

ويحتمل نصب ﴿عدوّاً﴾ وجهين:

أحدهما: على أنه مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾ و ﴿شياطين الإنس﴾ بدل منه.

الثاني: على أنه خبر في الأصل، ويكون هنا مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾ كأنه قال: جعلنا شياطين الإنس والجن عدوّاً.

وقوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ معناه: يُلقِي إليه بكلامٍ خفيٍّ، وهو الدعاء والوسوسة.

وقوله: ﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ﴾ معناه: هو المزيّن، يُقال: زَخَرَفَهُ زُخْرُفَةً إِذَا زَيَّنَّهُ، ﴿غُرُورًا﴾ نصب على المصدر.

ثم أخبر الله تعالى أنّه لو شاء ربّك أن يمنعهم من ذلك ويحول بينهم وبينه لقدّر على ذلك، لكن ذلك ينافي التكليف، ولو حال بينهم وبينه لما فعلوه، ثم أمر نبيّه ﷺ أن يتركهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي: وما يكذبون، بأن يخلّي بينهم وبين ما يختارونه، ولا يمنعهم منه بالقهر، فإنّ الله تعالى سيُجازيهم على ذلك. وهو تهديد لهم كقوله: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(١) دون أن يكون ذلك أمراً واجباً أو ندباً أو إباحةً، كما يقول القائل لصاحبه: دَعْنِي وَإِيَّاهُ، ويريد بذلك التهديد لا غير.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام في معنى قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أنّ الشياطين يَلْقَى بعضهم بعضاً فيُلْقِي إليه ما يغوي به الخلق، حتّى يتعلّم بعضهم من بعض.

قوله تعالى:

وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرَضُوا مَاَّهُمْ مُتَّفِرُونَ ﴿١١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: العامل في قوله: ﴿وَلِتَصْغَى﴾ قوله: ﴿يُوحِي﴾ وهي لام الغرض، وتقديره: يُوحِي بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ الْقَوْلِ لِيُغْوُوهُمْ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ، وتكون الهاء في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ عائدة إلى

القول المَزْخَرَف. ولا يجوز أن يكون العامل فيها ﴿جَعَلْنَا﴾ لأنَّ الله تعالى لا يجوز أن يريد منهم أن تَصْغِي قلوبهم إلى الكفر ووَحْي الشياطين، اللَّهُمَّ إِلَّا أن يجعلها لام العاقبة كما قال: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَرْنًا﴾^(١) غير أن هذا غير معلوم أن كلَّ مَنْ أرادوا منه الصَّغْوُ صَغَى، ولم يصحَّ ذلك أيضاً في قوله: ﴿وَلْيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ لأنَّه غير معلوم حصول جميع ذلك.

وعلى ما قلناه يكون جميع ذلك معطوفاً بعضه على بعض، ويكون مراداً كلَّه للشياطين.

وقال الجُبَّائي: إنَّ هذه لام الأمر، والمراد بها: التهديد، كما قال: ﴿وَاسْتَفْزِرْ﴾^(٢) وقال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٣) قال: لأنَّ علامة النصب والجزم تتفق في سقوط النون في قوله: ﴿وَلْيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا﴾.

وهذا غير صحيح، لأنَّها لو كانت لام الأمر لقال: «وَلَتَصْغَى» بحذف الألف، وما قاله إنما يمكن أن يقال في قوله: ﴿وَلْيَرِضُوهُ وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ فأما في قوله ﴿وَلَتَصْغَى﴾ فلا يمكن، فبانَ بذلك أنَّها لام «كي».

وقال الزجاج والبخي: اللام في ﴿وَلَتَصْغَى﴾ لام العاقبة، وما بعده لام الأمر الَّذي يُراد به التهديد. وهذا جائز، غير أنَّ فيه تعسفاً.

ومعنى «صَغَى»: مَال، و ﴿لَتَصْغَى﴾ أي: لتميل، وهو قول ابن عَبَّاس وابن زيد، تقول: صَغَوْتُ إِلَيْهِ أَصْغَى صَغَوًّا وَصُغُوًّا، وَصَغَيْتُ أَصْغِي بِالْيَاءِ أَيْضاً وَأَصْغَيْتُ إِلَيْهِ إِصْغَاءً بمعنى قول [قال، ظ] الشاعر:

تَرَى السَّفِيهَ بِهِ عَنْ كُلِّ مُحْكَمَةٍ زَبْنٌ فِيهِ إِلَى التَّشْبِيهِ إِصْغَاءٌ^(٤)

(٣) فصلت: ٤٠.

(٢) الإسراء: ٦٤.

(١) القصص: ٨.

(٤) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٦ ولم ينسبه لأحد.

ويقال: أَصْعَيْتُ الْإِنَاءَ إِذَا أَمَلْتَهُ لِتَجْمَعَ ^(١) مَا فِيهِ، فَأَصْلُهُ: الْمِيلُ لِمَنْ لَغَضٍ مِنَ الْأَغْرَاضِ.

وقوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا﴾ عطف على ﴿وَلِتَصْغَى﴾ والاعتراق: اكتساب الإثم، ومعناه: وليكتسبوا الإثم، في قول ابن عباس وابن زيد والسدي. ويُقال: خرج يقترف لأهله أي: يكتسب لهم، وقَارَفَ فلان هذا الأمر: إِذَا وَاقَعَهُ وَعَمَلُهُ، وَقَرَفْتَنِي بِمَا أَدْعَيْتَ عَلَيَّ أَي: رَمَيْتَنِي بِالرَّيْبَةِ، وَقَرَفَ الْقَرْحَةَ أَي: قَشَرَهَا ^(٢) وَاقْتَرَفَ كَذِبًا، قَالَ رُوْبَةُ:

أُعْيَا اقْتَرَفَ الْكَذِبِ الْمَقْرُوفِ يَقْوِي الْبَغْيَ وَعَقَّةَ الْعَفِيفِ ^(٣)
وَأَصْلُهُ: اقْتِطَاعُ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّيْءِ. وَلام «كي» تنصب بإضمار «أن» مثل «حتّى» غير أنّها قد تظهر مع اللام، ولا تظهر مع «حتّى» لأنّ حتّى محمولة على التأويل ومعناها: «إلى أن» لما في «حتّى» من الاشتراك، وليس في اللام حمل على تأويل حرف آخر.
وقال البلخي: الاعتراق: الادّعاء والتّهمة، يقول الرجل لغيره: أَنْتَ قِرَفْتَنِي أَي: تُهَمِّتَنِي الَّتِي أَتُّهَمُ.

قوله تعالى:
أَفَقَيْرَ اللَّهِ ابْتِغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾
آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر وحفص ﴿مَنْزَلٌ﴾ بتشديد الزاي، الباقون بالتخفيف.

(١) في كتب اللغة: «ليجتمع» ولعلّه الأنسب.

(٢) في الحجرية: قرفت القرحة أي قشرتها واقترف كذباً.

(٣) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٠٥ وفيه: «تقوى التقي».

مَنْ شَدَّدَ حَمْلَهُ عَلَى التَّكْرِيرِ بِدَلَالَةِ قَوْلِهِ: ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١). وَمَنْ خَفَّفَ فَلِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾^(٢) وَمَا أَشْبَهَهَا.

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٗ أَنْ يَقُولَ لِهَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ الَّذِينَ مَضَى ذِكْرُهُمْ: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ أَي: أَطْلُبُ سِوَى اللَّهِ حَاكِمًا، وَنَصَبَ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ بِفِعْلِ مُقَدَّرٍ يَفْسِّرُهُ «أَبْتَغِي» تَقْدِيرُهُ: أَابْتَغِي غَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا. وَالْحَكَمُ وَالْحَاكِمُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، إِلَّا أَنَّ «الْحَكَمَ» هُوَ مَنْ كَانَ أَهْلًا أَنْ يُتَحَاكَمَ إِلَيْهِ، فَهُوَ أَمْدَحُ مِنْ «الْحَاكِمِ» وَ«الْحَاكِمِ» جَارٍ عَلَى الْفِعْلِ، وَقَدْ يَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَ«الْحَكَمُ» لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ لِأَنَّهَا صِفَةُ مَدْحٍ وَتَعْظِيمٍ.

وَالْمَعْنَى: هَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْدَلَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ رَغْبَةً عَنْهُ لِأَنَّهُ لَا يَرْضَى رَبَّهُ؟! أَوْ: هَلْ يَجُوزُ مَعَ حُكْمِ اللَّهِ حُكْمٌ يَسَاوِيهِ فِي حُكْمِهِ؟! وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ الَّذِي﴾ يَعْنِي: اللَّهُ الَّذِي ﴿أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ وَإِنَّمَا مَدَحُ «الْكِتَابِ» بِأَنَّهُ مُفَصَّلٌ لِأَنَّ التَّفْصِيلَ تَبْيِينُ الْمَعَانِي بِمَا يَنْفِي التَّخْلِيطَ^(٣) لِلْمَعْنَى، وَبِنَفْيِ أَيْضًا التَّدَاخُلِ الَّذِي يُوجِبُ نَقْصَانَ الْبَيَانِ عَنِ الْمَرَادِ، وَإِنَّمَا فَصَّلَ الْقُرْآنُ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَفْصِّلُ الْمَعَانِي بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، وَتَخْلِصُ الدَّلَائِلَ فِي كُلِّ فَنٍّ.

وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿مُفَصَّلًا﴾ أَي: بِمَا يَفْصِلُ بَيْنَ الصَّادِقِ وَالْكَاذِبِ مِنْ أُمُورِ الدِّينِ، وَقِيلَ: فَصَّلَ الْحَرَامَ وَالْحَلَالَ وَالْكَفْرَ وَالْإِيمَانَ وَالْهُدَى وَالضَّلَالَ، فِي قَوْلِ الْحَسَنِ.

(٢) الدخان: ٣.

(١) الزُّمَرُ: ١، الْجَاثِيَةُ: ٢، الْأَحْقَافُ: ٢.

(٣) فِي نَسْخَةِ زِيَادَةَ: «الْمَعْمَى».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ لا يجوز أن يكون على عمومه، لأنَّ كثيراً من أهل الكتاب، بل أكثرهم جُهَّال لا يعرفون، وقوله: «أهل الكتاب» قد يستعمل تارةً بمعنى العلم، وبمعنى الإقرار أخرى، كما يقال للعلماء بالقرآن: أهل القرآن، ويقال لجميع المسلمين: أهل القرآن بمعنى: أنَّهم مقرّون به.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: يعلمون أنَّ كلَّ ما فيه بيان عن الشيء على ما هو به، فترغيبه وترهيبه، ووعدده ووعيده، وقصصه وأمثاله، وغير ذلك ممَّا فيه كلّ هذه الصفة.

والثاني: أنَّ معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ البرهان الذي تقدّم لهم حتّى علموه به. فإن قيل: كيف يصحّ - على أصلكم في الموافاة ونفي الإحباط - وَصَفَ الْكَافَرِ بِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ، وذلك ممَّا يستحقّ به الثواب، ولا خلاف أنَّ الكافر لا ثواب معه؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أن تكون الآية مخصوصة بِمَن آمن منهم في المستقبل، فإنَّا نجوز أن يكونوا في الحال عالمين بالله ^(١) وبأنَّ القرآن حقّ، ثمَّ يُظْهِرُونَ الإسلام فيما بعد فيتكامل الإيمان، لأنَّ الإيمان لا يحصل دفعةً واحدةً بل يحصل جزءاً فجزءاً، لأنَّ أوله العلم بحدوث الأجسام، ثمَّ إنَّ لها مُخْدِتاً، ثمَّ العلم بصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، ثمَّ العلم بالثواب والعقاب وما يتبعهما، وذلك يحصل في أوقات كثيرة.

(١) في الحجريّة: أن يكون في الحال عالماً بالله.

والثاني: أن يكونوا علموه على وجه لا يستحقّون به الثواب، لأنهم يكونون نظروا في الأدلة لا لوجه وجوب ذلك عليهم، بل لغير ذلك، فحصل لهم العلم وإن لم يستحقّوا به ثواباً.

ويحتمل أن يكون المراد بذلك: أنهم يعلمون عند أنفسهم، لأنهم إذا كانوا معتقدين بصحة التوراة، وأنها من عند الله، وفيها دلالة على صحة نبوة النبي ﷺ، وهم يدعون أن اعتقادهم علم، فهم إذاً على قولهم عالمون بأن القرآن منزل من ربك بالحق.

ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾: المؤمنين المسلمين دون أهل الكتاب، ويكون المراد بالكتاب: القرآن، لأننا قد بينّا: أن الله سمّاه كتاباً بقوله ﴿الْكِتَابُ أُحْكِمَتْ﴾^(١) وبقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾^(٢). فعلى هذا سقط السؤال، لأن هذه صفة المؤمنين المستحقين للثواب.

وقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ معناه: لا تكوننّ من الشاكين، والامتراء: الشك، وكذلك «المزّية» ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد به الأمة، وقيل: المراد بذلك ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ يا محمد في أنهم يعلمون أن ذلك من ربك بالحق.

قوله تعالى:

وَمَثَّ كَلِمَتَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ آية

بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة ويعقوب: ﴿كلمة﴾ على التوحيد، الباقون:

﴿كلمات﴾ جمع «كلمة» الكلمة والكلمات: ما ذكره الله من وعده ووعيده وثوابه وعقابه، فلا تبديل فيه ولا تغيير له، كما قال: ﴿ما يُبَدِّلُ الْقَوْلُ لَدِيَّ﴾^(١) وقال: ﴿لا تبديل لكلمات الله﴾^(٢) وكان التقدير: وتمت ذوات الكلمات، ولا يجوز أن يعني بالكلمات: الشرائع هاهنا كما عني بقوله: ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ فاتمهن﴾^(٣) وقوله: ﴿وصدقت بكلمات ربها﴾^(٤) لأنه قال: ﴿لا مبدل لكلماته﴾ والشرائع يدخلها النسخ.

وقوله: ﴿صدقا وعدلا﴾ مصدران ينتصبان في موضع الحال من «الكلمة» وتقديره: صادقة عادلة، وقال قوم^(٥): هما نصبا على التمييز.

فَمَنْ قَرَأَ: ﴿كلمات﴾ فلائه لما كان جمعا في المعنى جمعه، ومن أفرد فلائه «الكلمة» قد يعني بها الكثرة، كما قالوا: «قال زهير في كلمته» يعني في قصيدته، و «قال قس^(٦) في كلمته» يعني: في خطبته، فالمفرد يقع على الكثرة فأغنى عن الجمع، ومثله: ﴿وتمت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل﴾^(٧). وقيل: إنه أراد به قوله: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا...﴾ إلى آخر الآية^(٨) فسمي هذا القصص كلمة.

وقال مجاهد في قوله: ﴿كلمة التقوى﴾^(٩): قول لا إله إلا الله.

ومعنى ﴿وتمت كلمات﴾: أنها بتمامها موافقة لما توجبه المصلحة من غير زيادة ولا نقصان، والتمام والكمال والاستيفاء نظائر، وأن جميعه صدق لا كذب فيه، كما يقال: كمل فلان إذا تمت محاسنه.

(١) ق: ٢٩.

(٢) يونس: ٦٤.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) التحريم: ١٢.

(٥) منهم الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٧.

(٦) وهو قس بن ساعدة الأيادي الذي قيل: هو أول من نطق في خطبه بـ «أما بعد».

(٧) الأعراف: ١٣٧.

(٨) القصص: ٥.

(٩) الفتح: ٢٦.

وفي الآية دلالة على أن كلام الله مُحدَث، لأنه وصفه بالتمام والعدل، وذلك لا يكون إلا حادثاً.

والتبديل: وضع شيء مكان شيء، فلا أحد يقدر أن يضع حقاً وكان كلمة «الله» يناقضها به، وقال قَتَادَة: لا مبدّل لها فيما حَكَمَ به. لأنه وإن أمكن التغيير والتبديل في اللفظ كما بدّل أهل الكتاب التوراة والإنجيل فإنه لا يعتدّ بذلك، لأنه لا يقبله بحقّ ينقضه.

ويجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ أنها أتنك شيئاً بعد شيء حتى كملت.

وقوله: ﴿وهو السميع العليم﴾ معناه: أنه على صفةٍ يجب أن يسمع المسموعات إذا وُجِدَتْ، عالم بما يكون ظاهراً وباطناً، فلا يظنّ ظان أن شيئاً من ذلك يخفى عليه تعالى.

قوله تعالى:

وَإِنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا خطاب من الله لنبيه ولجميع المؤمنين: أنه إن يطع أكثر من في الأرض من الكفار ويتبع ما يريدونه يضلّوه عن سبيل الله، لأنه كان في ذلك الوقت أكثر أهل الأرض كفّاراً.

والطاعة: هي امتثال الأمر، وإجابة ما أريد منه إذا كان المريد فوقه، والفرق بينها وبين الإجابة: أن الإجابة عامّة في موافقة الإرادة الواقعة موقع المسألة، ولا تكون طاعة ^(١) إلا بأن يفعل لموافقة الدعاء بالأمر،

ومن أجله يُراعى فيها الرتبة.

والفرق بين الأكثر والأعظم: أن الأعظم قد يوصف به واحد، ولا يُوصف بالأكثر واحد بحال، ولهذا يقال في الله تعالى: إنه عظيم وأعظم من كل شيء، ولا يقال: أكثر، وإنما يقال: أكبر بمعنى «أعظم».

وإنما قال: إن تُطِعمهم يُضِلُّوك - وإن كانت البداية بالإغواء منهم - لأمرين: أحدهما: أن المطيع يبتدئ باستشعار^(١) الطاعة، فإذا كان من الداعي أمر بشيء من الأشياء^(٢) إطاعة حينئذ^(٣).

والثاني: أن دعاءهم لا يُوصف بأنه إضلال لمن دَعَوْه إلا بعد الإجابة، فكأنه قال: إن تُجِبهُم تستحق [يستحقون] الصفة بأنهم قد أضلوك.

ثم أخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم لا يتبعون ﴿إِلَّا الظَّنَّ﴾ الذي يُخْطِئُ وَيُصِيبُ ﴿وإن هم إلا يخرصون﴾ ومعناه: وما هم إلا كاذبين، والخَرْصُ: الكذب، يقال: خَرَصَ [يَخْرُصُ] خَرْصاً [وخرُوصاً] وتَخَرَّصَ تَخَرُّصاً واختَرَصَ اختراصاً، وأصله: القطع، قال الشاعر:

تَرَى قِصْدَ الْمُرَانِ تُلْقَى كَأَنَّهَا^(٤)

تَذُرُّ خِرْصَانٍ بِأَيْدِي الشَّوَاطِبِ^(٥)

يعني: جريداً يُقَطَّع طويلاً ويتخذ منه الخَصْرُ، وهو جمع «الخَرْص» ومنه: خَرَصَ النَّحْلُ يَخْرُصُهُ خَرْصاً إذا خَرَزَهُ، والخَرْيَصُ: الخليج ينقطع إليه الماء، والخَرْيَصُ^(٦): حبة القُرْط إذا كانت منفردة، والخَرْصُ: العود:

(١) في الحجرية: باستشعار الطاعة.

(٢) في المطبوعة زيادة: كان إطاعةً وصدق بأنه مطيع.

(٣) في الحجرية: ترى قصد المران فيهم [تلقى خ] كأنه [نها خ].

(٤) لقيس بن الخطيم، من قصيدة يذكر فيها حرب حاطب. راجع ديوان لقيس: ص ٧٦.

(٥) لم ترد في كتب اللغة: «الخَرْيَص» بهذا المعنى، وإنما وردت: «الخَرْص» به.

لاتقطاعه عن نظائره بطيب ريحه.

وقيل: معنى ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله﴾ يعني: في أكل الميتة، لأنهم قالوا للمسلمين: أأأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم؟! فهذا إضلالهم.

وقال بعضهم: قوله: ﴿إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ مثل قوله: ﴿يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾^(١) إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون يعني: المتعمدين المتمردين.

وفي الآية دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، وبطلان قولهم: إن الله تعالى لا يتوعد من لا يعلم الحق، لأن الله بين في هذه الآية أنهم يتبعون الظن ولا يعرفونه، وتوعدهم على ذلك، وذلك بخلاف مذهبهم. قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٦﴾ آية بلاخلاف. أقول: خاطب الله تعالى بهذه الآية نبيه ﷺ وإن عني به جميع الأمة: أنه تعالى ﴿أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ بمعنى: أعرف، والمعنى: أنه أعلم ممن يعلمه، لأنه يعلمه من وجوه تخفى على غيره، لأنه تعالى يعلم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، وعلى جميع الوجوه التي يصح أن تعلم الأشياء عليها وليس كذلك غيره، لأن غيره لا يعلم جميع الأشياء، وما يعلمه لا يعلمه من جميع وجوها [هه] وأما من هو غير عالم أصلاً فلا يقال: الله أعلم منه لأن لفظة «أعلم» يقتضي الاشتراك في العلم وزيادة لمن وصف بأنه أعلم، وهذا لا يصلح في من ليس بعالم أصلاً

إِلَّا مجازاً، ولا يصحّ أن يُقال: هو تعالى أَعْلَمَ بأنّ الجسم حادث من كلّ من يعلم كونه حادثاً، لأنّ هذا قد ذكر الوجه الَّذِي يُعْلَمُ منه وهو أنّه حادث، فإن أُريد بذلك المبالغة في الصفة، وأنّ هذه الصفة فيه أُثبت من غيره فَجَازَ أن يُقال ذلك.

وذكروا في موضع ﴿مَنْ﴾ وجهَيْن من الإعراب:

قال بعضهم^(١): موضعه نصب على حذف الباء، وتقديره: أَعْلَمَ بِمَنْ يضلّ ليكون مقابلاً، لقوله: ﴿وهو أَعْلَمُ بالمهتدين﴾.

وقال الفراء والزجاج: موضعها الرفع، لأنّها بمعنى «أي» كقوله: ﴿لنعلم أيّ الحزبين﴾^(٢). وصفة «أَفْعَل من كذا» لا تتعدّى، لأنّها غير جارية على الفعل، ولا معدولة عن الجارية كقول «ضروب» عن «ضارب» و «منحار» عن «ناحر».

وقال قوم: إنّ ﴿أَعْلَمُ﴾ هاهنا بمعنى «يعلم» كما قال حاتم الطائي:
فَحَالَفْتُ طِيَّ مِنْ دُونِنَا حِلْفاً وَاللّهُ أَعْلَمُ مَا كُنَّا لَهُمْ حُدُلاً^(٣)
وقالت الخنساء:

الْقَوْمُ أَعْلَمُ أَنْ جَفَنَتْهُ تَغْدُو غَدَاةَ الرِّيحِ أَوْ تَسْري^(٤)
قال الرُّمَّاني: هذا لا يجوز، لأنّه لا يطابق قوله: ﴿وهو أَعْلَمُ بالمهتدين﴾.

فمعنى الآية: أن الله تعالى أَعْلَمَ بِمَنْ يسلك سبيل الضلال المؤدّي إلى الهلاك والعقاب، ومَنْ سلك سبيل الهدى المفضي به إلى النجاة والثواب.

(١) كأبي عليّ الفارسي. راجع تفسير الآلوسي: ج ٨ ص ١٢.

(٢) الكهف: ١٢. (٣) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٩.

(٤) من قصيدة لرناء لأخيها صخر. راجع ديوان الخنساء: ٨٧.

قوله تعالى:

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في دخول الفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ قولان:

أحدهما: إنه جواب لقول المشركين لما قالوا للمسلمين: أأتأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل ربكم؟ فكأنه قيل: أعرضوا عن جهلكم فكلوا. والثاني: أن يكون عطفاً على ما دلّ عليه أول الكلام، كأنه قال: كونوا على الهدى فكلوا ممّا ذكر اسم الله عليه.

وقوله: ﴿فَكُلُوا﴾ وإن كان لفظه لفظ الأمر فالمراد به الإباحة، لأنّ الأكل ليس بواجب ولا مندوب، اللهم إلا أن يكون في الأكل استعانة على طاعة الله، فإنه يكون الأكل مرغّباً فيه، وربما كان واجباً، فأما ما يُفسك الرّمق فخارج عن ذلك، لأنّه عند ذلك يكون الإنسان مُلجأً إلى تناوله.

ومثل هذه الآية في لفظ الأمر والمراد به الإباحة قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾^(١) وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) والاصطياد والانتشار مباحان بلا خلاف.

وقوله: ﴿مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فالذكر المسنون هو قول: «بسم الله» وقيل: كلّ اسم يختصّ الله تعالى به أو صفة مختصة كقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم» أو «بسم القديم» أو «بسم القادر لنفسه» أو «العالم لنفسه» وما يجري مجرى ذلك. والأوّل مجمع على جوازه، والظاهر يقتضي جواز غيره، ولقوله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾^(٣).

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ خطاب للمؤمنين، وفيه دلالة على وجوب التسمية على الذبيحة، لأنَّ الظاهر يقتضي أنَّ ما لا يُسمَّى عليه لا يجوز أكله بدلالة قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ هذا يقتضي مخالفة المشركين في أكلهم ما لم يُذَكَّر اسم الله عليه، فأما ما لم يُذَكَّر اسم الله عليه سهواً أو نسياناً فإنه يجوز أكله على كلِّ حال.

والآية تدلُّ على أنَّ ذبائح الكفار لا يجوز أكلها، لأنَّهم لا يُسمَّون الله عليها، ومن سَمَّى منهم لا يعتقد وجوب ذلك، بل يعتقد أنَّ الذي يسمِّيه هو الذي أيدَّ شرع موسى أو عيسى وكذب محمد بن عبدالله، وذلك لا يكون المسمَّى مخصوصاً بالقصد، وذلك مفتقر إلى معرفته واعتقاده، والكفار - على مذهبنا - لا يعرفون الله تعالى، فكيف يصحَّ منهم تسميته تعالى؟! وفي ذلك دلالة واضحة على ما قلناه.

ومعنى قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾: إن كنتم عرفتم الله وعرفتم رسوله وصحَّ ما أتاكم به من عند الله، وهذا التحليل عامٌّ لجميع الخلق وإنَّ خصَّ به المؤمنين بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ لأنَّ ما حلَّل الله للمؤمنين فهو حلال لجميع المكلفين، وما حرَّم عليهم حرام على الجميع. قوله تعالى:

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرُّتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ﴾ بفتح الفاء والصاد والحاء والراء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿فُصِّلَ﴾

و «حُرِّمَ» بضمّ الفاء والحاء، وقرأ^(١) حمزة والكسائي وأبو بكر «فَصَّلَ» بفتح الفاء «حُرِّمَ» بضمّ الحاء. وقرأ أهل الكوفة: «لِيُضِلُّونَ» بضمّ الياء وكسر الضاد، الباقون بفتح الياء.

مَنْ ضَمَّ الْفَاءَ وَالْحَاءَ، فَلَقُولَهُ: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...» الْآيَةُ^(٢) فَهَذَا تَفْصِيلُ هَذَا الْعَامِّ الْمَجْمَلِ بِقَوْلِهِ: «حُرِّمَ» وَكَذَلِكَ «فَصَّلَ» لِأَنَّ هَذَا الْمَفْصَّلَ هُوَ ذَلِكَ الْمَحْرَمَ الَّذِي أَجْمَلَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

مَنْ فَتَحَهُمَا فَلَقُولَهُ: «أَتَلُوا مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ»^(٣) وَقَوْلُهُ: «فَصَّلْنَا الْآيَاتِ»^(٤) وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: «الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا»^(٥) وَلَأَنَّهُ قَالَ: «وَمَا لَكُمْ أَنْ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ» فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ مَبْنِيًّا لِلْفَاعِلِ لِتَقْدَمَ ذِكْرُ اسْمِ اللَّهِ. وَمَنْ فَتَحَ الْفَاءَ وَضَمَّ الْحَاءَ فَلَقُولَهُ «فَصَّلْنَا الْآيَاتِ» وَقَوْلُهُ: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ...».

قَوْلُهُ: «وَمَا لَكُمْ» خُطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ فِي الْآيَةِ الْأُولَى، وَمَعْنَاهُ: لِمَ لَا تَأْكُلُوا، وَقِيلَ: بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، لِأَنَّ «لِمَ لَا تَفْعَلُ» أَعْمٌ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَدْ يَكُونُ لِحَالٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَقَدْ يَكُونُ لِحَالٍ يَرْجِعُ إِلَى غَيْرِهِ، فَأَمَّا «مَا لَكَ أَنْ لَا تَفْعَلُ» فَلِحَالٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ.

وَقِيلَ فِي مَعْنَى «لَا» فِي قَوْلِهِ: «أَنْ لَا تَأْكُلُوا» قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: إِنَّهَا لِلْجَحْدِ، وَتَقْدِيرُهُ: أَيُّ شَيْءٍ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَأْكُلُوا، اخْتَارَهُ الزَّجَّاجُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْبَصَرِيِّينَ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ صَلَةً، وَالْمَعْنَى: مَا مَنَعَكُمْ أَنْ لَا تَأْكُلُوا، لِأَنَّ «مَا لَكَ أَنْ تَفْعَلُ» وَ «مَا لَكَ لَا تَفْعَلُ» بِمَعْنَى وَاحِدٍ. وَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَاهُ: لَيْسَ لَكُمْ أَنْ لَا تَأْكُلُوا [مِمَّا أَمَرْنَاكُمْ بِأَكْلِهِ عَلَى

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: أَبُو حَمْزَةَ. (٢) الْمَائِدَةُ: ٣. (٣) الْآيَةُ: ١٥١ الْآيَةُ.

(٤) الْآيَةُ: ٩٧ وَ ٩٨ وَ ١٢٦ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ. (٥) الْآيَةُ: ١٥٠ الْآيَةُ.

الوصف الذي أمرناكم بفعله.

ويجوز حذف «في» من ﴿مَالِكُمْ إِلَّا تَأْكُلُوا﴾^(١) ولا يجوز حذفها من «مَالِكُمْ فِي تَرْكِ الْأَكْلِ» لِأَنَّ «أَنَّ» تلزمها الصلة فهي أحقُّ بالاستحقاق من المصدر، لأنَّه لا تلزمه الصلة، كما حَسُنَ حَذْفُ الهاء من صلة «الَّذِي» ولم يَحْسُنَ من الصفة.

وقوله: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني: ما ذكره في مواضع من قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمُيْتَةُ﴾ الآية وغيرها.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا اضْطَرَّرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ معناه: إِلَّا إِذَا خَفْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمُ الْهَلَاكَ مِنَ الْجُوعِ وَتَرْكِ التَّائُلِ، فحينئذٍ يجوز لكم تناول ما حرَّمه الله في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمُيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَزِيرِ﴾ وما حرَّمه في هذه الآية. واختلَفوا في مقدار ما يسوغ له حينئذٍ تناوله، فعندنا: لا يجوز له أن يتناول إِلَّا مَا يُمَسِّكُ الرَّمَقَ. وفي الناس من قال: يجوز له أن يشبع منه إذا اضطرَّ إليه، وأن يحمل منها معه حتَّى يجد ما يأكل.

وقال الجُبَّائي: في الآية دلالة على أَنَّ مَا يُكْرَهُ عَلَيْهِ مِنْ أَكْلِ هَذِهِ الْأَجْنَاسِ أَنَّهُ يَجُوزُ لَهُ أَكْلُهُ، لِأَنَّ الْمَكْرَهَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِثْلَ الْمَضْطَرِّ. وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لِيَضْلُوكُمْ﴾ بفتح الياء ذهب إلى أَنَّ الْمَعْنَى: لِيَضْلُوكُمْ بِأَهْوَائِهِمْ، أَي: يَضْلُوكُمْ بِاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، كما قال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾^(٢) أَي: يَضْلُوكُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَضْلُوكُمْ غَيْرُهُمْ مِنْ اتِّبَاعِهِمْ بِامْتِنَاعِهِمْ مِنْ أَكْلِ مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمَنْ قَرَأَ بِضَمِّ الْيَاءِ أَرَادَ: أَنَّهُمْ يُضْلُوكُمْ أَشْيَاءَهُمْ، فَحُذِفَ الْمَفْعُولُ بِهِ،

(١) ما بين المعقوفين لم يرد في الحجرية. (٢) الأعراف: ١٧٦، والكهف: ٢٨ وغيرهما.

وَحَذَفُ المفعول كثير، ويقوِّي ذلك قوله: ﴿وَمَا أَضَلُّنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾^(٢).

وقوله: ﴿وَإِنْ كَثِيرًا﴾ أوقع «إِنْ» على النكرة، لأنَّ الكلام إذا طال احتمل ودلَّ بعضه على بعض.

قوله تعالى:

وَذَرُّوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿٢٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الواو في قوله: ﴿وَذَرُّوا﴾ واو العطف، ولا يُستعمل «وَذَرَّ» لما مضى ولا «وَاذَرَّ» لاسم الفاعل، استغناءً بـ «تَرَكَ» وإنما يُستعمل منه «يَذَرُّ» و «ذَرُّوا» وأمثاله، ومثله: «يَدْعُ» لم يستعمل منه «فَعَلَ» ولا «فَاعِلٌ» استغنوا أيضاً بـ «تَرَكَ» و «تَارَكَ» وأشعروا بذلك كراهية الواو في الابتداء حتَّى لم يزيدها هناك أصلاً مع زيادتهم أخواتها.

والظاهر: هو الكائن على وجهٍ يمكن إدراكه. والباطن: هو الكائن على وجهٍ يتعدَّر إدراكه.

أمر الله تعالى في هذه الآية بترك الإثم مع قيام الدلالة على كونه إثماً، ونَهَى عن ارتكابه سرّاً وعلانية، وهو قول قتادة والربيع بن أنس ومجاهد، لأنَّ الجاهليَّة كانت ترى أنَّ الزنا إذا أُظْهِر وأُعلِن كان فيه إثم، فإذا أَشْتَسَرَ به صاحبه لم يكن إثماً، ذَكَرَهُ الضَّحَّاك.

وقال الجُبَّائي: الظاهر: أفعال الجوارح، والباطن: أفعال القلوب.

وقال غيره: الظاهر: الطواف بالبيت عرياناً، والباطن: الزنا - والأوّل

أَعَمَّ عَلَى مَا قَلَنَاهُ - ذَكَرَهُ ابْنُ زَيْدٍ.

وقال قوم: ﴿ظَاهِرُ الْإِثْمِ﴾ الزَّنا ﴿وَبَاطِنُهُ﴾ اتِّخَاذُ الْأَخْدَانِ، ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ وَالضَّحَّاكُ.

وقال سعيد بن جُبَيْرٍ ﴿ظَاهِرُ الْإِثْمِ﴾ امْرَأَةُ الْأَبِ ﴿وَبَاطِنُهُ﴾ الزَّنا. أمر الله تعالى باجتنب الإثم على كلِّ حال، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ يعني: المعاصي والقبايح ويرتكبونه سيجازيهم رَّبُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بما كانوا يرتكبونه. وقد بَيَّنَّا أَنَّ معنى «الاعتراف» هو معنى «الاكْتِسَابِ» وَالْكَسْبُ: هو فعل ما يُجْتَلَبُ به نَفْعٌ إلى نفسه وَيُدْفَعُ به ضَرَرٌ، وَلِذَلِكَ يُوصَفُ الْوَاحِدُ مَتًّا بِأَنَّهُ مُكْتَسِبٌ، وَلَا يُوصَفُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ، وَالْكَوَايِسُ: الْجَوَارِحُ مِنَ الطَّيْرِ، لِأَنَّهَا تَكْسِبُ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ.

قوله تعالى:

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَؤْخُونَ إِلَىٰ أُولِيَائِهِمْ لِيُحْدِثُوا كُفْرًا وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: نهى الله تعالى في هذه الآية عن أكل ما لم يُذَكَّرْ اسمُ الله عليه، وذلك صريح في وجوب التسمية على الذبيحة، لأنها لو لم تكن واجبة لكان ترك التسمية غير محرَّم لها، فأما من ترك التسمية ناسياً فمذهبننا: أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُؤْكَلَ ذَبِيحَتُهُ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ مُعْتَقِداً لَوْجُوبِهَا. وكان الحسن يقول: يجوز له أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا. وقال ابن سيرين: لا يجوز أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، وبه قال الجُبَّائِيُّ. فأما إِذَا تَرَكَهَا مُتَعَمِّداً: فعندنا لا يجوز أكله بحال، وفيه خلاف بين الفقهاء ^(١) فقال قوم: إِذَا كَانَ تَارِكاً التَّسْمِيَةَ مُتَعَمِّداً مِنَ الْمُسْلِمِينَ جاز أكل

(١) وقد فَصَّلَ الْمُصَنِّفُ أَقْوَالَ الْفُقَهَاءِ فِي كِتَابِهِ الْخِلَافُ: ج ٦ ص ١٠ مسألة (٦).

ذبيحته. وقال آخرون: لا يجوز أكلها كما قلناه.

وذلك يدلّ على أنّ ما يذبحه أهل الكتاب لا يجوز أكله، لأنّهم لا يعتقدون وجوب التسمية ولا يذكرونها، ومن ذكر اسم الله فإنّما يقصد به اسم من أيد شرعهم، ولم يبعث محمداً ﷺ بل كذّبه، وذلك ليس هو الله، فلا يجوز أكل ذبيحتهم، ولأنّهم لا يعرفون الله فلا يصحّ منهم القصد إلى ذكر اسمه. فأما من عدا أهل الكتابين فلا خلاف في تحريم ما يذبحونه. وليست الآية منسوخة ولا شيء منها، ومن ادّعى نسخ شيء منها فعليه الدلالة. وقال الحسن وعكرمة: نُسخَ منها ذبائح الذين أوتوا الكتاب بقوله: ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم﴾^(١) وعندنا: أنّ ذلك مخصوص بالحبوب دون الذبائح.

وقال قوم: ليس أهل الكتاب داخلين في جملة من يذكّر اسم الله على ذبيحته، وليس واحد من هؤلاء معيّناً بالآية، فلا يحتاج إلى النسخ. وقوله: ﴿وإنّه لفسق﴾ يعني: ما لم يُذكر اسم الله عليه، أكله فسق، وحُذِفَ لدلالة الكلام عليه.

وقوله: ﴿وإنّ الشياطين ليؤحّون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ يعني بالشياطين: علماءهم ورؤساءهم المتمرّدين في كفرهم يؤحّون ويُشِيرُونَ إلى أوليائهم الذين اتبعوهم من الكفّار بأن يجادلوا المسلمين في استحلال الميتة. قال الحسن: يجادلونهم بقولهم: إنّ ما قَتَلَ الله أولى بأن يؤكل ممّا قَتَلَهُ الناس.

وقال عكرمة: المراد بالشياطين: مرّة الكفّار من مجوس فارس

إلى أوليائهم من مشركي قريش.

وقال ابن عباس: المراد بالشياطين هاهنا إبليس وجنوده بأن يونس إليهم ذلك يُوحون إلى أهل الشرك بذلك، وبه قال قتادة.

وقال قوم^(١): الذين جادلوا بذلك كانوا قوماً من اليهود جادلوا رسول الله ﷺ بأن ما قتلَه الله أولى بالأكل ممَّا قتلَه الناس.

ثم قال تعالى: ﴿وإن أطعموهم﴾ أيها المؤمنون فيما يقولونه من استحلال أكل الميتة وغيره: إذا إنكم لمشركون لأن من استحل الميتة كافرٌ بالاجتماع، ومن أكلها محرماً لها مختاراً فهو فاسق، وهو قول الحسن وجماعة [من] المفسرين.

والتقدير في قوله: ﴿إنكم﴾: فإنكم لمشركون، لأن جواب الشرط لا يكون بلا فاء، وإنما يكون ذلك جواب القسَم.

واختلفوا في ما عناه الله تعالى بقوله: ﴿ولا تأكلوا ممَّا لم يُذكر اسم الله عليه﴾ فقال عطاء: ذلك يختصّ بذبائح كانت في الجاهلية على الأوثان كانت العرب تذبحها وقريش. وقال ابن عباس: ذلك الميتة. وقال قوم: عنى بذلك كل ذبيحة لم يُذكر اسم الله عليها. وهذا الوجه أقوى على ما بيّناه، ومن حمل الآية على الميتة فقد أبعد، لأن أحداً من العرب ما كان يستحل الميتة، وإنما ذلك مذهب قوم من المجوس، فالآية إما أن تكون مختصةً بما كانت تُذبح للأصنام على ما قاله عطاء: أو عامةً في كل ما لم يُذكر اسم الله عليه إلا ما أخرجه الدليل، وقد بيّنا أن ذلك أعم وأولى بحمل الآية عليه.

قوله تعالى :

أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قرأ أهل المدينة ويعقوب: ﴿مَيِّتًا﴾ بالتشديد، الباقون بالتخفيف.
قال أبو عبيدة: «الميتة» مخففة ومثقلة معناهما واحد، وإنما خُفِّفَ [خَفَّفَتْ] استقلاً، قال ابن الرِّعْلَاء العسَّاني:

ليس مَنْ مات فاستراح بِمَيِّتٍ

إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ

إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَنْ يَعِيشُ كَيْبًا

كاسفاً بألّه قَلِيلَ الرَّجَاءِ [الرخاء] (١)

وقد وَصَفَ الله الكفَّار بأنَّهم أموات بقوله: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (٢) وكذلك ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَخْيَيْنَاهُ﴾ والمعنى: مَنْ كَانَ مَيِّتًا بِالْكَفْرِ فَصَارَ حَيًّا بِالْإِسْلَامِ بَعْدَ الْكَفْرِ، كَالْمُصْرِّ عَلَى كُفْرِهِ؟!
وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يراد به النور المذكور في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٣) وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ (٤).

الثاني: أن يراد بالنور الأحكام التي يُؤْتَاهَا المسلم بإسلامه، لأنّه إذا جُعِلَ الكافر بكفره في الظُّلُمَاتِ فالْمُؤْمِنُ بخلافه.

وَمَنْ خَفَّفَ حَدَفَ الْيَاءِ الثَّانِيَةِ الْمُنْقَلِبَةِ عَنِ الْوَاوِ، أُعِلَّتْ بِالْحَدَفِ كَمَا

(١) مجاز القرآن: ج ١ ص ١٤٨ - ١٤٩، وقد تقدّم ذكره في تفسير الآية: ١٧٣ من سورة البقرة، والآية: ٣ من آل عمران المباركة. (٢) النحل: ٢١. (٣) والحديد: ١٢ و ١٣.

أَعَلَّتْ بِالْقَلْبِ.

اختلفوا في مَنْ نزلت هذه الآية: فقال ابن عباس والحسن وغيرهما من المفسرين: نزلت في كل مؤمن وكافر.

وقال عِكْرِمَةُ: نزلت في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ وَأَبِي جَهْلٍ، وهو قول أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام.

وقال الضَّحَّاكُ: نزلت في عمر بن الخطَّابِ.

وقال الزَّجَّاجُ: نزلت في النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي جَهْلٍ، والأوَّلُ أعمُّ فائدة.

لأنَّه يدخل فيه جميع ما قالوه.

بَيَّنَّ اللهُ تَعَالَى أَنَّ ﴿مَنْ كَانَ مَيْتًا﴾ يعني: كافرًا ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ يعني: وفَّقناه للإيمان، فآمن، أو: صادفناه مؤمنًا بأن آمن، لأنَّ الإحياء بعد الإمامة هاهنا هو الإخراج من الكفر إلى الإيمان عند جميع أهل العلم: ابن عباس والحسن ومجاهد والبلخي والجُبَّائي وغيرهم.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ يعني: جعلنا له علمًا، فسَمَّى العلم نوراً وحياءً، والجهل ظُلمةً وموتاً، لأنَّ العلم يُهْتَدَى به إلى الرِّشَاد كما يُهْتَدَى بالنور في الطرقات، وتُذْرَك به الأمور كما تُذْرَك بالحياة، والظُّلمة كالجهل لأنَّه يؤدي إلى الحيرة والهِلَكَةِ، والموت كالجهل في أَنَّهُ لا تدرك به حقيقة.

وإنَّما قال: ﴿كَمَنْ مَثَلَهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ولم يقل: كَمَنْ هو في الظُّلُمَاتِ، لأنَّ التقدير: كَمَنْ مثله مثل مَنْ في الظُّلُمَاتِ. ويجوز أن يدلَّ بِأَنَّ مثله في الظُّلُمَاتِ على: أَنَّهُ في الظُّلُمَاتِ، إلَّا أَنَّهُ يزيد فائدةً أَنَّهُ مِمَّنْ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي ذَلِكَ.

وقيل في المراد بالنور الَّذي يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ قولان: أحدهما قال الحسن: هو القرآن. وقال غيره: هو الإيمان الَّذي لطف له به.

ووجه التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكَافِرِينَ﴾ أي: زُيِّنَ لَهُؤُلَاءِ الكفر فعملوه كما زُيِّنَ لأُولَئِكَ الإيمان فعملوه، فشَبَّهَتْ حال هؤلاء في التزيين بحال أولئك فيه، كما قال: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(١) وإنما زَيَّنَ اللهُ تعالى الإيمانَ عند المؤمنين، وزَيَّنَ الغُوَاةَ من الشيطان وغيره الكفرَ عند الكافرين، وهو قول الحسن وأبي عليٍّ والرُّمَّانِي والبلخي وغيرهم. وفي الآية دلالة على وجوب طلب العلم، لأنَّه تعالى رَغَّبَ فيه بأن جعله كالحياة في الإدراك بها والنور في الاهتداء به.

قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى قوله: ﴿وكذلك جعلنا﴾ أي: جعلنا ذا المَكْر من المجرمين، كما جعلنا ذا النور من المؤمنين، فكلَّمَا فعلنا بهؤلاء فعلنا بأُولَئِكَ، إِلَّا أَنْ أُولَئِكَ اهْتَدَوْا بحسن اختيارهم وهؤلاء ضَلُّوا بسوء اختيارهم، لِأَنَّ كُلَّ واحد منهما جُعِلَ بمعنى «صار» به كذا، إِلَّا أَنْ الْأَوَّلَ باللطف، والثاني بالتمكين من المَكْر، فصار كأنَّه جُعِلَ كذا.

وموضع الكاف في ﴿وكذلك﴾ نصب بالعطف على قوله ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلكَافِرِينَ ما كانوا يعملون﴾ والمعنى: مثل ذلك الَّذِي قصصنا عليك زُيِّنَ لِلكَافِرِينَ عملهم، ومثل ذلك ﴿جعلنا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا﴾ وإنما خَصَّ أَكْثَرَ المجرمين بهذا المعنى دون الأصاغر لأنَّه أحسن في الاقتدار على الجميع، لِأَنَّ الْأَكْثَرَ إِذَا كَانُوا فِي قَبْضَةِ الْقَادِرِ فَلْأَصَاغِرِ بِذَلِكَ أَجْدَر.

و«الأكابر» جمع الأسماء، والكَبَر جمع الصفات، تقول: كبير وأكابر، ويجوز أن يكون جمع «أكبر» على «أكابر» وقد قالوا: الأكابرة والأصاغرة، كما قالوا: الأساورة والأحامرة، قال الشاعر:

إِنَّ الْأَحَامِرَةَ الثَّلَاثَةَ أَهْلَكَتْ مَالِي وَكُنْتُ بِهِنَّ قِذْمًا مُؤَلَعًا
الْخَمْرَ وَاللَّحْمَ السَّمِينَ أَحَبُّهُ وَالزَّعْفَرَانَ وَقَدْ أُبَيْتُ مَرَدَّعًا^(١)

وقوله: ﴿لِيَمَكُرُوا فِيهَا﴾ اللام لام العاقبة، وتُسمَّى لام الصيرورة، كما قال: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾^(٢) وقال الشاعر:

فَأُقْسِمُ لَوْ قَتَلُوا مَالِكًا لَكُنْتُ لَهُمْ حَيَّةً رَاصِدَةً
وَأُمِّ سِمَاكِ فَلَا تَجْزَعِي فَلَلَمَوْتُ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ^(٣)

وليس المراد بها لام الغرض، لأنه تعالى لا يريد أن يَمَكُرُوا، وقد قال: ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤) وإرادة القبيح قبيحة. والتقدير: وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليطيعوني ويمتثلوا أمري، وكان عاقبتهم أن مَكَرُوا بالمؤمنين وخدعوه، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا يَمَكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأنَّ عقاب ذلك يحلَّ بهم.

والمَكْر: هو قَتْل الشيء إلى خلاف الرُّشْد على وجه الحيلة في الأمر، والمَكْر والخُتْل والغَدْر نظائر. وأصل المَكْر: القَتْل، ومنه: جارية مَمْكُورة: أي: مَفْتُولة البَدَن.

ووجه مَكْر الإنسان بنفسه: أن وبال مَكْرِهِ يعود عليه، كأنه قال:

(١) في الحجرية: فقد أُبَيْتُ مودَّعاً. للأعشى. راجع ديوان الأعشى: ص ٢٤٧.

(٢) القصص: ٨.

(٣) لِسِمَاكِ بن عمرو الباهلي، من أبيات قالها لما خُبِرَ بين أن يُقَتَلَ هو أو أخوه مالك، فقتلوه دون أخيه. راجع خزنة الأدب للبغدادي: ج ٩ ص ٥٣٤.

(٤) الذاريات: ٥٦.

وما يضرّون بذلك المَكْرَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ ﴿وما يشعرون﴾ أَنَّهُمْ يَمْكُرُونَ بِهَا، ولا يَصِحُّ أَنْ يَمْكُرَ الْإِنْسَانُ بِنَفْسِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَخْفِيَ عَنْ نَفْسِهِ مَعْنَى مَا يَحْتَالُ بِهِ عَلَيْهَا، وَيَصِحُّ أَنْ يَخْفِيَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ. وفائدة الآية: أَنَّ أَكَابِرَ الْمَجْرِمِينَ لَمْ يَمْكُرُوا بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهِ الْمَغَالِبَةِ لِلَّهِ، إِذْ كَانَتْ جَعَلَهُمْ ﴿لِيَمْكُرُوا﴾ مِبَالِغَةً فِي انْتِفَاءِ صِفَةِ الْمَغَالِبَةِ. قوله تعالى:

وَإِذَا جَاءَهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ
حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا
يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وحفص ﴿رسالته﴾ على التوحيد ونصب التاء، الباقيون على الجمع. وَمَنْ وَحَدَ فَلَانَّ «الرسالة» تدلُّ على الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ لكونها مصدراً، وَمَنْ جَمَعَ فَلَمَّا تَكَرَّرَ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ وَتَحْمِيلِهِ إِيَّاهُمْ رِسَالَةً بعد أخرى فَاتَى بلفظ الجمع.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار: أَنَّهُ ﴿إِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ﴾ ودلالة من عند الله تدلُّ على توحيد الله وصدق أنبيائه ورُسُلِهِ ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ﴾ أي: لا نصدق بها ﴿حَتَّى نُؤْتَىٰ﴾ أي: نُعْطَى آيَةً مِثْلَ مَا أُعْطِيَ ﴿رُسُلُ اللَّهِ﴾ حسداً منهم لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ السَّلَامُ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ تَعَالَى ﴿أَعْلَمُ﴾ مِنْهُمْ وَمِنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ ﴿حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ﴾ لِأَنَّ الرِّسَالَةَ تَابِعَةٌ لِلْمَصْلَحَةِ، وَلَا يَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَصْلَحَةَ الْخَلْقِ تَتَعَلَّقُ بَبْعَثِهِ دُونَ مَنْ لَا يَتَعَلَّقُ ذَلِكَ بِهِ، وَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَقُومُ بِأَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ دُونَ مَنْ لَا يَقُومُ بِهَا.

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ فَقَالَ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ أي: سينال الذين انقطعوا

إلى القبيح وأقدموا عليه ﴿صَغَارَ عند الله﴾ والصَّغَارُ: الذَّلُّ الَّذِي يَصْغُرُ إِلَى الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، يُقَالُ: صَغِرَ يَصْغُرُ صَغَاراً وَصَغَرَأً، وَقِيلَ فِي مَعْنَى (١) «الصَّغَارَ عند الله» ثلاثة أقوال:

أولها ﴿صَغَارَ﴾ أي: ذَلَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَلَا يَجُوزُ عَلَى هَذَا أَنْ يُقَالَ: جِئْتُ عِنْدَ عَمْرٍو [زَيْدٌ عِنْدَ عَمْرٍو، ظ] بِمَعْنَى: مِنْ عِنْدِهِ، لِأَنَّ حَذْفَ «مِنْ» تَلْبِيسٌ هَاهُنَا.

الثاني: قَالَ الْفَرَّاءُ: أَيْقَنَهُمْ [يَلْقَاهُمْ، ظ] اتَّبَاعُ الْحَقِّ [مَنْ تَرَكَ، ظ] صَغَارَ عِنْدَ اللَّهِ.

الثالث: قَالَ الزَّجَّاجُ: يَعْنِي: صَغَارٌ فِي الْآخِرَةِ. وَهُوَ أَقْوَاهَا، لِقَوْلِهِ: ﴿وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ فِي دَارِ الدُّنْيَا.

و ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ يَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ﴾ [وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُتَعَلِّقاً بِـ ﴿صَغَارَ﴾ وَتَقْدِيرُهُ: سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَاراً] (٢) ثَابِتٌ بِهِمْ [لَهُمْ، ظ] عِنْدَ اللَّهِ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: الْإِنْكَارُ لِمَا طَلَبُوا، وَالْإِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ فِيمَا جَهِلُوا، وَالْوَعِيدُ عَلَى مَا فَعَلُوا.

وَقَوْلُهُ: ﴿رَسَلَ اللَّهُ﴾ اللَّامُ مَفْخَمَةٌ فِي ﴿اللَّهُ﴾ وَلَا تَفْخَمُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ﴾ لِأَنَّ مَا وَقَعَ بَعْدَ فَتْحٍ وَضَمٍّ صَحَّ تَفْخِيمُهُ، كَقَوْلِكَ: مِنْ اللَّهِ، لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ تَفْخِيمِ الْأَلْفِ مَعَ هَاتَيْنِ الْحُرُوكَتَيْنِ فِي نَحْوِ: كَامِلٌ وَعَالِمٌ، وَتَرَكَ التَّفْخِيمَ فِي الثَّانِي كَمَا تَرَكَ فِي الْأَلْفِ مَعَ الْكُسْرَةِ فِي نَحْوِ: عَائِدٌ، وَإِنَّمَا فُخِّمَتِ اللَّامُ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ لِتَعْظِيمِ الْأَسْمِ مِنْ غَيْرِ إِخْلَالٍ بِالْخُرُوجِ عَنْ نَظِيرِهِ.

(١) قَوْلُهُ: «يَصْغُرُ ... إِلَى قَوْلِهِ: فِي مَعْنَى» لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

(٢) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَتَيْنِ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

قوله تعالى:

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعُدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بتخفيف الياء وسكونها هاهنا وفي الفرقان ^(١) الباقون بتشديدها وكسرها. وقرأ أهل المدينة وأبو بكر: ﴿حَرَجًا﴾ بكسر الراء، الباقون بفتحها. وقرأ ابن كثير: ﴿يَصْعَدُ﴾ بتخفيف الصاد والعين وسكون الصاد من غير ألف [ورواه أبو بكر بتشديد الصاد وألف بعدها وتخفيف العين، الباقون بتشديد الصاد والعين وفتح الصاد من غير ألف] ^(٢).

قال أبو علي النحوي: الضَيِّقُ والضَيِّقُ مثل: المَيِّتِ والمَيِّتِ في أن معناهما واحد، والياء والواو يشتركان في الحذف، وإن لم تُعَلَّ الياء بالقلب كما أُعِلَّت الواو به فاتبعت الياء الواو في هذا، كما اتبعتها في قولهم: اتَّسَر، قالوا في إيتسار الجَزُور: اتَّسَرُوا لها [اتَّسَرُوا، ظ] فجُعِلَتْ بمنزلة «اتَّعَد». وقال غيره: يجوز أن يكون من ضاق الأمر يَضِيقُ ضَيِّقًا، وقد قرأه مَنْ قرأ: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ﴾.

ومن فتح الراء من «حَرَج» جعلها وَضْفًا للمصدر، لأن المصادر قد تُوصَفُ بمثل ذلك، كقولهم: رجلٌ دَنَفٌ أي: ذو دَنَفٍ، وفرق ولا يكون كـ «بَطَل» لأن اسم الفاعل في الأكثر من «فَعَلَ» إنما يجيء على «فَعِلَ». ومن كسر الراء فهو مثل «دَنَف» و «فَرَق».

قال أبو زيد: وَحَرَجَ عَلَيْهِ السُّحُورُ [السَّحَر، ظ] إِذَا أَصْبَحَ قَبْلَ أَنْ
يَتَسَحَّرَ، وَحَرَمَ عَلَيْهِ حَرَمًا وَهُمَا وَاحِدٌ، وَحَرَجَتْ عَلَى الْمَرْأَةِ الصَّلَاةُ
تَخْرُجُ حَرَجًا، وَحَرَمَتْ عَلَيْهَا الصَّلَاةُ تُحْرِمُ حَرَمًا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَيُقَالُ:
حَرَجَ فَلَانٌ يَخْرُجُ إِذَا هَابَ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى الْأَمْرِ، أَوْ قَاتَلَ فَصَبِرَ وَهُوَ كَارِهٌ.
وقال غيره^(١): هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ كَالذَّنْفِ وَالذَّنْفِ، وَالْوَحْدِ وَالْوَحْدِ،
وَالْفَرْدِ وَالْفَرْدِ. وقيل: الْحَرَجُ: الْإِثْمُ، وَالْحَرَجُ: الضِّيقُ الشَّدِيدُ.

وَمَنْ قَرَأَ ﴿يَصْعَدُ﴾ مِنَ الصُّعُودِ، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ فِي نَفْوَرِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَثَقُلَهُ
عَلَيْهِ بِمَنْزِلَةٍ مَنِ تَكَلَّفَ مَا لَا يَطِيقُهُ، كَمَا أَنَّ صُعُودَ السَّمَاءِ لَا يُسْتَطَاعُ. وَمَنْ
قَرَأَ: ﴿يَصْعَدُ﴾ بِتَشْدِيدِ الصَّادِ وَالْعَيْنِ بِلَا أَلْفٍ أَرَادَ «يَتَصَعَّدُ» فَادْغَمَ، وَالْمَعْنَى:
أَنَّهُ كَأَنَّهُ يَتَكَلَّفُ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّهُ تَكَلَّفَهُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، [كَقَوْلِكَ:
يَتَصَرَّفُ، وَيَتَحَرَّجُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَاطَى فِيهِ الْفِعْلُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ]^(٢)
وَيَصَاعِدُ مِثْلُ: يَتَصَعَّدُ [يَصْعَدُ] مِثْلُ: ضَاعَفَ وَضَعَفَ، وَنَاعَمَ وَنَعَمَ.

وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يُشْرَحُ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ﴾: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ رَاجِعًا
إِلَى ﴿مَنْ﴾ وَتَقْدِيرُهُ: أَنَّ الْمَهْدِيَّ يُشْرَحُ صَدْرَ نَفْسِهِ، وَهُوَ جَيِّدٌ، وَيَكُونُ
تَقْدِيرُهُ: مَنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُثَبِّتَهُ وَيَهْدِيَهُ إِلَى طَرِيقِ الْجَنَّةِ فَلْيُطِئْهُ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ
يُعَاقِبَهُ فَلْيُعْصِهِ، فَالْإِرَادَةُ وَاقِعَةٌ عَلَى فِعْلِ الْعَبْدِ بِقَلْبِهِ بِالْإِحْرَاجِ وَالضِّيقِ.
وَيَقْوِي ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ
بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ [فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ]^(٣)
فَالطَّمَأْنِينَةُ إِلَى الْإِيمَانِ فَعَلُهُمْ لَا مُحَالَةً، لِأَنَّهُ إِيمَانٌ، ثُمَّ نَسَبَ تَعَالَى شَرَحَ

(١) كَالْفَرَّاءِ فِي الْمَعَانِي: ج ١ ص ٣٥٤، وَاخْتَارَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ.

(٢) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَتَيْنِ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

(٣) النحل: ١٠٦. مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَتَيْنِ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

صدورهم بالكفر إليهم.

والثاني: أن يكون الضمير فيه أبداً [عائداً، ظ] إلى اسم الله تعالى. وهو الأقوى لقوله: ﴿أَقْنِ شرح الله صدره للإسلام﴾ [وقوله ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾^(١) وكذلك يكون الضمير في قوله: ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ عائداً]^(٢) حيث إن الفعل لاسم الله تعالى. والمعنى: أن الفعل مستند [مسند، ظ] إلى اسم الله في اللفظ وفي المعنى للمشروح صدره، وإنما نسبه إلى ضمير اسم الله لأنه بقدرته كان توفيقه، كما قال: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾^(٣) ويدل على أن المعنى لفاعل الإيمان إسناد هذا الفعل إلى الكافر في قوله: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله﴾ فكما أسند الفعل إلى فاعل الكفر كذلك يكون إسناده في المعنى إلى فاعل الإيمان.

ومعنى «شرح الصدر»: اتساعه للإيمان أو الكفر وانقياده له وسهولته عليه، بدلالة وصف خلاف المؤمن بخلاف الشرح الذي هو اتساع. وقوله: ﴿ومن يرد أن يضله﴾ يعني: يعاقبه أو يعدل به عن طريق الجنة ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ كأنما يفعل ما يعجز عنه ولا يستطيعه لثقله عليه وبمكاره [تكاوده، ظ] عليه.

وقوله: ﴿يَصْعَدُ﴾ و ﴿يَصَّاعِدُ﴾ من المشقة وصعوبة الشيء، ومن ذلك قوله: ﴿يَسْلُكُهُ عَذَاباً صَعَدّاً﴾^(٤) وقوله: ﴿سَأَرْهُقُهُ صَعُوداً﴾^(٥) أي سأغشيه عذاباً صَعُوداً أي: شاقاً. ومن ذلك قول عمر^(٦): «ما تَصْعَدُنِي شيءٌ كما تَصْعَدُنِي خِطْبَةُ النِّكَاحِ» أي: ما مرَّ [ماشقَّ عليَّ شيءٌ، ظ] عليَّ

(١) الانشراح: ١. (٢) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجرية. (٣) الأنفال: ١٧.

(٤) الجن: ١٧. (٥) المدثر: ١٧. (٦) رواه ابن الأثير في النهاية: مادة «صعد».

مشقتها. فكان معنى ﴿يَصْعَدُ﴾: يتكلف مشقةً في ارتقاء صُعُود، وعلى هذا قالوا: عَقَبَةُ عَنُوتٍ وعشوت [ز، ط] وعَقَبَةُ كَوْوُدٍ. ولا يكون السماء في هذا الموضع - على هذا القول - هي المظلة للأرض، لكن كما قال سيبويه^(١): الْقَيْدُود: الطويل في غير سمائه، يريد: في غير ارتفاع صُعْدًا، ومثله: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾^(٢).

وأما قوله: ﴿يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضِيقًا حَرَجًا﴾ فإنه يحتمل أمرين: أحدهما: التسمية، كقوله: ﴿وجعلوا الملائكة الَّذِينَ هم عباد الرحمن إناثًا﴾^(٣) أي: سمّوهم بذلك، فلذلك [فكذلك، ط] يُسَمَّى القلب ضيقًا لمحاولته^(٤) الإيمان وحرَجًا عنه.

والآخر: الحكم، كقولهم: اجعل البصرة بغداد، و: جعلت حسني قبيحًا أي: حكمت بذلك، ولا يكون هذا من الجَعْل الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْخَلْق، ولا الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْإِلْقَاء كقولك: جعلت متاعك بعضه على بعض، وقوله: ﴿ويجعل الخبيث بعضه على بعض﴾^(٥).

وقيل في معنى «الهداية» و «الإضلال» في الآية قولان: أحدهما: أن يريد بالهَدَى: تسهيل السبيل إلى الإسلام بالدلائل التي ينشرح بها الصدر، والإِضْلال: تصعيب السبيل إليه بالدلائل الَّتِي يَضِيقُ بِهَا الصِّدْر، لأنَّ حاله أوجبت تغليظ المحنة عليه من غير أن يكون هناك مانع له ولا تدبير غيره أولى منه، وإنما هو حُضٌّ على الاجتهاد في طلب الحق حتى ينشرح بالدلائل الصدر، ولا يضيق بدعائها إلى خلاف ما سبق من العقد، بالهدى إلى ما طلبه طالب الحق، والإِضْلال عمّا طلبه طالب تأكيد الكفر.

(٣) الزخرف: ١٩.

(٥) الأنفال: ٣٧.

(٢) البقرة: ١٤٤.

(١) الكتاب: ج ٤ ص ٣٦٥.

(٤) في الحجرية: لمحاولة.

والثاني: أن يراد بالهداية: الهداية إلى الثواب، وبالإضلال: الإضلال عن الثواب والسلوك به إلى العقاب، ويكون التقدير: مَنْ يرد الله أن يهديه للثواب في الآخرة فيشرح صدره للإسلام في الدنيا بأن يفعل له اللطف الذي يختار عنده الإسلام، وَمَنْ يرد أن يعاقبه ويعدل به عن الثواب إلى النار فيجعل صدره ضيقاً حرجاً بما سمّوا من سوء اختياره للكفر جزاءً على فعله، وتحذير يخلي [ويخذله ويخلي، ظ] بينه وبين ما يريد من الكفر، أو يحكم على قلبه بالضيق والحرج، أو يسمّيه بذلك على ما فسرناه.

وهذا الإضلال لا يكون إلا مستحقاً كما أن تلك الهداية لا تكون إلا مستحقة، وقد سمّى الله تعالى الثواب هدايةً في قوله: ﴿الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾^(١) وقال: ﴿والذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ * سيهديهم ويصلح بالهم﴾^(٢) والهداية بعد القتل إنما هي الثواب في الجنة، وقال تعالى: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدى﴾^(٣) وقال: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾^(٤) وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾^(٥) وقال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(٦) وكل ذلك يُراد به الثواب، وقد سمّى العقاب ضلالاً في قوله: ﴿ويُضِلَّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾^(٧) وقوله: ﴿وما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾^(٨) هذه الجملة معني قول أبي عليّ الجُبائي والبلخي، والأول قول الرّماني.

وقيل أيضاً: إنما يشرح قلب المؤمن بالآيات والدلائل لكونه طالباً للحق، ولم يفعل ذلك بالكافر لكونه طالباً لتأكيد الكفر. وفي هذا الوجه حرصٌ على طلب الحق.

(٤) التغابن: ١١.

(٢ و ٣) محمد: ٤ و ٥ و ١٧.

(١) الأعراف: ٤٣.

(٨) البقرة: ٢٦.

(٧) إبراهيم: ٢٧.

(٦) العنكبوت: ٦٩.

(٥) المائدة: ١٦.

والْحَرَجُ: الضيق الشديد، وقال ابن عباس: أصله: الْحَرَجَةُ، وهي الشجرة الملتفة بالشجر حولها فلا يصل إليها الراعي، فكذا قلب هذا لا يصل إليه خير في قول عمر، وقال ابن عباس: لا يصل إليه حكمة.

وقوله: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: كأنما كُلِّفَ الصعود إلى السماء بالدليل الذي يدعوه إلى خلاف مذهبه. وقال سعيد بن جبير: كأنه لا يجد مسلكاً إلا صُعُداً.

والثاني: كأنما ينزع قلبه إلى السماء نبواً عن الحق بأن يتباعد في الهرب. وفي معنى «الرَّجْسِ» قولان:

أحدهما: قال مجاهد: كل ما لا خير فيه. وقال ابن زيد وغيره من أهل اللغة: هو العذاب ^(١). ويقال: «الرَّجْسُ» و «النَّجْسُ» لما ^(٢) كان رَجِساً، ولقد رَجَسَ رَجَاسَةً وَنَجَسَ نَجَاسَةً.

ووجه التشبيه في قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أَنَّهُ يَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى هَؤُلَاءِ كَمَا يَجْعَلُ ضَيْقَ الصِّدْرِ فِي قُلُوبِ أَوْلَئِكَ، وَأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الاسْتِحْقَاقِ.

ولا يجوز أن يكون المراد بالآية: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَجْعَلُ سَبَبَ الْإِيمَانِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْإِيمَانُ، وَسَبَبَ الْكُفْرِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْكُفْرُ، وَأَنَّهُمَا جَمِيعاً مِنْ فِعْلِ اللَّهِ، عَلَى مَا يَقُولُهُ الْمُجَبِّرَةُ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ حُجَّةً لَهُ عَلَى عِبَادِهِ، لَا حُجَّةً لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ، فَلَوْ كَانَ كَمَا قَالُوهُ لَكَانَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ لَا لَهُ.

على أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مَنَاقِضَةٌ، وَقَدْ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ أَنَّهُ هَدَى الْكُفَّارَ، نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ ^(٣) وقال: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ فَلَا اقْتَحَمَ

(٣) فَصَّلَتْ: ١٧.

(٢) فِي الْحَجَرِيَّةِ: وَمَا، ز ط.

(١) وَهُوَ الْقَوْلُ الثَّانِي.

العَقَبَةُ^(١) وقال: ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى﴾^(٢) وقال: ﴿وقد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها﴾^(٣) فبيّن بجميع ذلك أنّه تعالى هَدَى الكفّار كما هَدَى المؤمنين، فكيف ينفي ذلك في موضع آخر، وهل ذلك إلّا مناقضة وكلام الله منزّه عنها؟! ومتى حملنا الآيات على ما قلناه ووفّقنا بينها لم يؤدّ إلى المناقضة ولا التضادّ. ويقوّي ذلك أنّ الله أخبر أنّه يجعل قلب الكافر ضيقاً حرجاً ونحن نجد كثيراً من الكفّار غير ضيّقي الصدر بما هم فيه من الكفر، بل هم في غاية السرور والفرح بذلك، فكيف يقال: إنّ الله تعالى ضيّق صدورهم بالكفر؟! ولا يلزمنا ذلك إذا قلنا: إنّ الله يفعل ذلك بهم على وجه العقوبة، لأنّه تعالى إذا كان يفعل بهم ذلك عقوبةً يجوز أن يفعل بهم ذلك إذا أراد عقابهم لا في جميع الأحوال، ولا يلزم أن يجدوا نفوسهم على ذلك في كلّ وقت.

وأيضاً فإنّ سبب القبيح لا يكون إلّا قبيحاً، فعلى هذا سبب الكفر يجب أن يكون قبيحاً لأنّه موجبٌ له، لا يصلح لضده من الإيمان، لأنّه لو صلح لذلك لم يكن سبباً، والله تعالى لا يفعل القبيح.

وإنّما ذكر الله ضيق صدر الكافر، وهو ممّا يصحّ أن يُدعى به إلى الإيمان في بعض الأحوال، كما يصحّ أن يدعى بانسراحه في غير تلك الحال، ويقوّي ما قلناه قوله: ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ وإنّما أريد بذلك ما يفعله بهم من العقاب والبراءة واللعنة والشتم والأسماء القبيحة مع ما أعدّ لهم من العقاب. وقال الحسن: معناه: أنّه يكون مقبول الإيمان منشرح الصدر ﴿ومن يرد أن يضله يجعل صدره

ضيقاً حَرَجاً» ومعناه: أنه يثقل عليه ما يُدعا إليه من الإيمان كأنما يصعد إلى السماء، فبذلك صار ضيق الصدر عن الإيمان.

﴿ويجعل الله الرّجس﴾ يعني: رجاسة الكفر على الَّذِينَ لا يؤمنون. ووجه آخر في الآية وهو: أن نحملها على التقديم والتأخير، كأنه قال: من يشرح الله صدره للإسلام يرد الله أن يهديه، ومن يجعل صدره ضيقاً حرجاً يرد الله أن يضلّه.

ووجه آخر وهو: أن يكون الله تعالى لما دعاهم إلى الإيمان وأمرهم ففعلوه وانشرحت صدورهم، فنسب شرح ذلك إلى الله تعالى، ولما ضاقت صدور الكفار عند دعاء الله وإقامة الحجج عليهم وأمره إيتاهم بذلك فضلوا عند ذلك، صح أن ينسب إضلالهم إليه، كما يقولون: «أضلّ فلان بغيره» إذا ضلّ عنه وهو لم يرد ذلك.

واللام في قوله: ﴿لِلإسلام﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون الله تعالى هداه بالألطف التي ينشرح بها صدره للتمسك بالإسلام والاستبصار فيه، ولا يكون ذلك فعل بالكفار وإن لم يحلّ بينهم وبين الإيمان ولا منعهم منه، لأنه تعالى قد أعطى الكافر الصحة والسلامة والقوة وجميع ما يتمكن به من فعل ما أمره به، وإنما لم يفعل بهم اللطف الذي يؤمنون عنده لأنهم لما عدلوا عن النظر في آيات الله وحججه خرجوا من أن يكون لهم لطف يختارون عنده الإيمان وصاروا مخذولين، فخلّى الله تعالى بينهم وبين اختيارهم، فعبر عن ذلك بأنه جعل قلبه ضيقاً حرجاً.

والثاني: أن يكون اللام بمعنى: لأجل الشيء وبسببه، [كما يقول القائل: إنما قلت هذا الكلام لزيد ولمراعاة عمرو، المعنى: من أجله

وبسببه،^(١) فيكون المعنى: أنه شرح صدره من أجل الإسلام، لأنه فعل إسلاماً استحقَّ به شرح الصدر.

قوله تعالى:

وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ لَهُمْ ذَارُ
الْأَسَلَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: الإشارة بقوله: ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً﴾ يمكن أن تكون إلى أحد شيئين:

أحدهما: ما قال ابن عباس: إنه راجع إلى الإسلام. والثاني: أن تكون إشارة إلى البيان الذي في القرآن.

وأضيف «الصراط» إلى «الله» في قوله: ﴿صراط ربك مستقيماً﴾ لأنه إما كانت الإضافة فيه إنما هي على أنه الذي نصبه ودلَّ عليه [صح، ظ] الاستعمال، ولم يجز قياساً على ذلك أن يقال: هذا طريق ربك، لأنه لم تجر العادة باستعماله، كما أنهم استعملوا قولهم: هذا في سبيل الله، ولم يجزوا: في طريق الله، لما قلناه.

وقوله: ﴿مستقيماً﴾ نصب على الحال، ومعناه: الذي لا اعوجاج فيه. فإن قيل: كيف يُقال: إنه مستقيم مع اختلاف وجوه الأدلة؟! قلنا: لأنها مع اختلافها يؤدِّي كل واحد منها إلى الحق، وكأنها طريق واحد لسلامة جميعها من التناقض والفساد، وكلها تؤدِّي مَنْ تمسك بها إلى الثواب.

وقوله: ﴿قد فضَّلنا الآيات﴾ أي: بيَّناها ﴿لقوم يذكرون﴾ وإِنَّمَا أُعِيدَ

(١) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة.

ذكر تفصيل الآيات للإشعار بأنّ هذا الذي تقدّم من الآيات التي فصلها الله عزّ وجلّ للعباد.

وقوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ أصله: «يتذكرون» فقلّبت التاء ذالاً وأدغمت الأولى في الثانية، ولم يجز قلب الذال إلى الدال كما جاز في ﴿هل من مذكر﴾^(١) لأنّهم لمّا تحرّوا إدغام التاء في الدال - لأنّها أفضل منها بالجهر - قلّبت إلى الدال لتعديل الحروف، وليس كذلك إدغام التاء في الذال. وإنّما خصّ الآيات بقوم يتذكرون لأنّهم المنتفعون بها وإن كانت آيات لغيرهم، كما قال: ﴿هدى للمتّقين﴾.

وفي الآية دلالة على بطلان قول من قال: المعارف ضرورية، لأنّها لو كانت^(٢) ضرورية لم يكن لتفصيل الآيات ليتذكّر بها فائدة.

وقوله: ﴿لهم دار السلام﴾ هذه لام الإضافة، وإنّما فتّحت مع المضر وكُسّرت مع الظاهر لأمرين: أحدهما: طلباً للتخفيف، لأنّ الإضمار موضع تخفيف، وفتّحت في الاستغاثة^(٣) في «يا لبكر» تشبيهاً بالكناية، ولأنّه موضع تخفيفٍ بالترخيم وحذف النون.

الثاني: أنّ أصلها الفتح، وإنّما كُسّرت مع الظاهر للفرق بينها وبين لام الابتداء.

وقيل في معنى ﴿السلام﴾ هاهنا قولان:

أحدهما: قال الحسن والسّدي: إنّ الله، وداره: الجنّة. والثاني: قال الزجاج والجُبائي: إنّها دار السلامة الدائمة من كلّ آفة وبليّة.

وقوله: ﴿عند ربّهم﴾ قيل في معناه قولان:

(٢) في الحجرية العبارة هكذا: لو لم تكن.

(١) القمر: ١٥ و ١٧ وغيرهما.

(٣) في الحجرية: الاستغاثة.

أحدهما: مضمون عند ربهم حتى يوصله إليهم. الثاني: في الآخرة يعطيهم إياه.

وقوله: ﴿وَهُوَ وَلِيَّهُمْ﴾ يعني: الله. وفي معنى «الولي» قولان: أحدهما: إنه يتولى إيصال المنافع إليهم ودفع المضار عنهم. الثاني: ناصرهم على أعدائهم.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني: جزاء بأعمالهم، فإن كان مطلقاً فالمراد: بما كانوا يعملونه من الطاعات، لأن من المعلوم أن ما لم يكن طاعة فلا ثواب عليه. ويجوز أيضاً أن يكون مقيداً لدلالة قوله: ﴿يَذْكُرُونَ﴾ عليه. والموعود بهذا الوعد: المتذكر لآيات الله بحققها، وهو العامل بها. قوله تعالى:

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا نَمْعَشَرُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْنَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ حفص وروح: ﴿ويوم يحشرهم﴾ بالياء، الباقون بالنون.

من قرأ بالياء فلقوله: ﴿لهم دار السلام عند ربهم ... ويوم يحشرهم﴾ والنون كالياء في المعنى، ويقوي النون قوله: ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾^(١) وقوله: ﴿ونحشره يوم القيامة أعمى﴾^(٢) والذي يتعلق به «اليوم» هذا القول المضمر، والمعنى: ويوم نحشرهم جميعاً يقال: ﴿ينا معشر الجن﴾ فيكون التقدير يقال [نقول] يا معشر الجن يوم نحشرهم جميعاً ﴿قد استكبرتم من الإنس﴾ أي: قد استكبرتم من أضللتموه من

الإنس بالإغواء والإضلال، قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: معناه: واستكثرتم من إغوائهم وإضلالهم.

﴿وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ وقيل في وجه الاستمتاع من بعضهم ببعض قولان:

أحدهما: تزيين الأمور التي يهوونها حتى سهل عليهم فعلها.

والثاني: قال الحسن وابن جرير والزجاج والفراء وغيرهم: إنه إذا كان الرجل أراد أن يسافر فيخاف سلوك طريق من الجن فيقول: أعوذ بسيّد هذا الوادي، ثم يسلك فلا يخاف، كما قال تعالى: ﴿وأنّه كان رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من الجنّ فزادُوهم رهقاً﴾^(١).

ووجه استمتاع الجنّ بالإنس: أنّهم إذا اعتقدوا أنّ الإنس يتعوذون بهم، ويعتقدون أنّهم ينفعونهم ويضرونهم أو أنّهم يقبلون منهم إذا أغوؤهم كان في ذلك تعظيمٌ لهم وسرورٌ ونفع، ذكر ذلك الزجاج والبلخي والرّماني. وقال البلخي: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿استمتع بعضنا ببعض﴾ مقصوراً على الإنس، فكأنّ الإنس استمتع بعضهم ببعض دون الجنّ.

وقوله: ﴿بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال الحسن والسّدي: إنه الموت. الثاني: الحشر، لأنّ كلّ واحدٍ منهما أجلٌ في الحكم، فالموت أجل استدراك ما مضى، والحشر أجل الجزاء.

وقال أبو عليّ: في الآية دلالة على أنّه لا أجل إلّا واحد، قال: لأنّه لو كان له أجلان فكان إذا اقتطع دونه بأن قُتل ظلماً لم يكن بلغ أجله، والآية

تتضمن أنهم أجمع يقولون: بلغنا أجلنا الذي أجلت لنا. وقال الرُّماني وغيره من البغداديين: لا تدلّ على ذلك، بل لا يمتنع أن يكون له أجلان: أحدهما، ما يقع فيه الموت، والآخر: ما يقع فيه الحشر، وما كان يجوز أن يعيش إليه.

وقوله: ﴿قال النار مثواكم﴾ جواب من الله تعالى لهم بأن النار مثواهم، وهو المقام، يقال: تَوَى يَتَوَى تَوَاءً، قال الشاعر:

لَقَدْ كَانَ فِي حَوْلِ ثَوَاءٍ ثَوِيَّتُهُ تَقْضِي لُبَانَاتٍ وَيَسْأَمُ سَائِمٌ^(١)

ومعنى الآية: التفرغ للغواة من الجنّ والإنس مع اعترافهم بالخطيئة في وقتٍ لا ينفعهم الندم على ما سلف، وخاصّةً إذا كان الجواب لهم بأنّ مثواهم النار ﴿خالدين فيها﴾ أي: مؤبدين فيها، وهو نصب على الحال. وقوله: ﴿إلا ما شاء الله﴾ قيل في معنى هذا الاستثناء ثلاثة أقوال:

أحدها: إلا ما شاء الله من الفائت قبل ذلك من الاستحقاق من وقت الحشر إلى زمان المعاقبة، وتقديره: خالدين فيها على مقادير الاستحقاق إلا ما شاء من الفائت قبل ذلك، لأنّ ما فات يجوز إسقاطه بالعفو عنه، والفائت من الثواب لا يجوز تركه لأنّه بحسّ لحقّه، ذكره الرُّماني والبلخي والطبري والزجاج والجُبائي.

الثاني: إلا ما شاء الله من تحديد الخلود بعد احتراقها^(٢) وتصريفهم في أنواع العذاب معها، والتقدير: خالدين فيها على صفةٍ واحدةٍ إلا ما شاء الله من هذه الأمور.

الثالث: ما حكى عن ابن عباس - حكاه الرُّماني والطبري عنه - أنّه قال:

(١) للأعشى من قصيدة طويلة يهجو يزيد بن مسهر الشيباني. راجع ديوان الأعشى: ص ١٨١.

(٢) في مخطوطة: تجديد الجلود بعد احتراقها ...

هذه الآية توجب الوُفء في جميع الكُفَّار، كأنه ذهب إلى أن وَعِيدَهُم بالقطع يدلّ عليه فيما بعد، وهو قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾^(١).

وقال قوم^(٢): معنى ﴿مَا﴾: «مَنْ» وتقديره: إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ إخراجَه من النار من المؤمنين الَّذِينَ لَهُمْ ثَوَابٌ بعد استيفاء عقابهم.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو حكيم فيما يفعلُه من جزائهم، وعالم بذلك وبغيره من المعلومات، لا يخفى عليه شيء منها.
قوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّ بِغَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢٩﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قيل في معنى قوله: ﴿نُؤَيِّ بِغَضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ قولان:
أحدهما: إِنَّا نَكُلُّ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي النُّصْرَةِ وَالْمَعُونَةِ فِي الْحَاجَةِ، وَلَا نَحُولُ بَيْنَهُمْ. الثاني: نجعل بعضهم يتولّى القيام بأمر بعض.
وقيل في كَيْفِيَّةِ تَوَلِيَةِ اللَّهِ الظَّالِمِينَ بعضهم بعضاً أقوال:

أحدها: بَأَن حَكَمَ أَنَّ بَعْضَهُمْ يَتَوَلَّى بَعْضًا فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِ بِالْوَبَالِ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَنْفَقُونَ [يَتَفَقُونَ] عَلَيْهَا. الثاني: بَأَن يَخْلِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَخْتَارُونَهُ مِنْ غَيْرِ نُصْرَةٍ لَهُمْ. وثالثها: مَا قَالَ قَتَادَةُ: إِنَّهُ مِنَ الْمَوَالَةِ وَالتَّسَابُعِ فِي النَّارِ، أَي: يَدْخُلُ بَعْضُهُمْ عَقِيبَ بَعْضٍ.

ووجه التشبيه في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ قال الرُّمَّانِي: أَي: كَذَلِكَ الْمَهْلُ بِتَخْلِيَةِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ لِلْمَتَحَانِ الَّذِي مَعَهُ يَصْحُ الْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ، تَوَلَّيْنَا بِجَعْلِ بَعْضِهِمْ يَتَوَلَّى أَمْرَ بَعْضٍ لِلْعِقَابِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْإِسْتِحْقَاقِ.
وقال الجُبَّائِي: الْمَعْنَى: إِنَّا كَمَا وَكَلْنَا هَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ

بعضهم إلى بعض يوم القيامة وتبرأنا منهم كذلك نَكِلُ الظالمين بعضهم إلى بعض يوم القيامة ونَكِلُ الأتباع إلى المتبوعين، ونقول للأتباع: قولوا للمتبوعين حَتَّى يَخْلَصُوكُم مِنَ الْعَذَابِ، والغرض بذلك إعلامهم أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِيٌّ يَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئاً مِنَ الْعَذَابِ.

وقال غيره: لَمَّا حَكَّى اللَّهُ تَعَالَى مَا يَجْرِي بَيْنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ مِنَ الْخِصَامِ وَالْجِدَالِ فِي الْآخِرَةِ، قَالَ اللَّهُ [وقوله، ظ] لَهُمْ: ﴿النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾ ثُمَّ [ظ] قَالَ: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً﴾ أَي: كَمَا فَعَلْنَا بِهِؤَلاءِ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمْ فِي النَّارِ وَتَوَلَّيَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ، نَفْعَلُ مِثْلَهُ بِالظَّالِمِينَ جِزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمْ بِهِ.

والفرق بين «ذلك» و «ذاك»: أَنَّ زِيَادَةَ اللَّامِ فِي «ذلك» قَامَتْ مَقَامَ هَاءِ التَّنْبِيهِ الَّتِي تَدْخُلُ فِي «ذاك» فَيَقُولُ [فيقال]: هَذَا، وَلَا يَقُولُ [يقال]: هَذَا. وَلَا يَجُوزُ إِمَالَةٌ «ذلك» لِأَنَّ «ذا» بِمَنْزِلَةِ الْحَرْفِ، وَالْأَصْلُ فِي الْحُرُوفِ أَنْ لَا تُثَمَّلَ، لِأَنَّ التَّصْرِيفَ إِنَّمَا هُوَ لِلْأَفْعَالِ وَالْأَسْمَاءِ.

وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ معناه: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَهُ مِنَ الْمَعَاصِي، وَأَنَّ مَا يَفْعَلُهُ بِهِمْ مِنَ الْعِقَابِ جِزَاءً عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْقَبِيحَةِ.
قوله تعالى:

يَمْعَشَرُ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَادُونَكُم لِّقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يَخَاطَبُ الْجَنِّ وَالْإِنْسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَن يَقُولَ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ﴾ وَالْمَعْشَرُ: الْجَمَاعَةُ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ «الْمَجْمَعِ»: أَنَّ الْمَعْشَرَ يَقَعُ عَلَيْهِمْ هَذَا الْاسْمُ مُجْتَمِعِينَ كَانُوا أَوْ مُفْتَرِقِينَ

كالعشيرة والعشرة، وليس كذلك المَجْمَع، لأنَّه مأخوذ من الجَمْع.
والجنّ: مشتقّ من الاجتنان عن العيون، وهو اسم علمٍ لجنسٍ ممّا يعقل متميّز من جنس الإنسان والمَلَك، والإنس: هم البشر.
وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ احتجاج عليهم بأنّ الله بعث إليهم الرُّسُلَ إعداراً وإنذاراً وتأكيّداً للحجّة عليهم، ولا بدّ أن يكون خطاباً لِمَن بعث الله إليهم الرُّسُلَ، فأما أوّل الرُّسُلَ فلا يمكن أن يكونوا داخلين فيه، لأنَّه كان يؤدّي إلى ما لا نهاية لهم من الرُّسُلَ، وذلك محال.
وقوله: ﴿منكم﴾ وإن كان خطاباً لجميعهم، والرُّسُلَ من الإنس خاصّةً، فإنَّه يحتمل أن يكون لتغليب أحدهما على الآخر، كما يغلب المذكر على المؤنث، وكما قال: ﴿يُخْرِجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤَ وَالْمَرْجَانَ﴾^(١) بعد قوله: ﴿مَرْجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾^(٢) وإنّما يخرج اللؤلؤ من المِلْح دون العَذْب، وكقولهم: «أَكَلْتُ خَبْزاً وَلَبَناً» وإنّما شرب اللبن، وكما يقولون: «في هذه الدور سَرَوْ» وإنّما هو في بعضها. وهذا قول أكثر المفسّرين، منهم ابن جرّيج والفرّاء والزّجاج والرّمّاني والبلخي والطبري.
وروي^(٣) عن ابن عبّاس [أنَّه] قال: هم رُسُلُ الإنس إلى غيرهم من الجنّ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾^(٤).
وقال الضحاك: ذلك يدلّ على أنّه تعالى أرسل رسلاً من الجنّ. وبه قال الطبري، واختاره البلخي أيضاً، وهو الأقوى.
وقال الجُبّائي والحسين بن عليّ المغربي: المعنى ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ يعني:

(١) و (٢) الرحمن: ٢٢ و ١٩ على الترتيب.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٢٧ بسنده عن ابن جرّيج عنه.

(٤) الأحقاف: ٢٩.

معشر المكلفين والمخلوقين ﴿رُسُل منكم﴾ يعني: من المكلفين.
وهذا إخبار وحكاية عما يُقال لهم في وقت حضورهم في الآخرة،
وليس بخطابٍ لهم في دار الدنيا وهم غير حضور فيكون قبيحاً، بل هو
حكايةٌ على ما قلناه.

وقوله: ﴿يَقْصُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ مثل: يتلون عليكم دلالي وبيّناتي
﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾ يعني: يخوفونكم ﴿لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يعني: لقاء ما تستحقّونه
من العقاب في هذا اليوم وحصولكم فيه، ثمّ أخبر تعالى عنهم أنّهم
يشهدون على أنفسهم بالاعتراف بذلك والإقرار بأنّ الحياة الدنيا غرّتهم،
ويشهدون أيضاً بأنّهم ﴿كانوا كافرين﴾ في دار الدنيا، فلذلك كرّر الشهادة.
ومعنى ﴿غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: غرّتهم زينة الدنيا ولذّتها، وما
يَرَوْنَ مِنْ زُخْرُفِهَا وبهجتها.

واستدلّ بهذه الآية قومٌ على أنّ الله لا يجوز أن يعاقب إلاّ بعد أن
يُرْسِلَ الرُّسُلَ، وأنّ التكليف لا يصحّ من دون ذلك، وهذا ينتقض بما قلناه
من أوّل الرُّسُلَ، وأنّه صحّ تكليفهم وإن لم يكن لهم رُسُلٌ، فالظاهر على أنّ
ذلك مخصوص بمن علم الله أنّ الشرع مصلحة له، فإنّ الله لا يعاقبهم إلاّ
بعد أن يُرْسِلَ إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ، ويقيم عليهم الحجّة بتعريفهم مصالحهم، فإذا
خالفوا بعد ذلك استحقّوا العقاب.

قوله تعالى:

ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفُجْرَ وَأَهْلُهَا غَفُلُونَ ﴿٢٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: موضع ﴿ذلك﴾ من الإعراب يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون رفعاً، كأنّه قال: الأمر ذلك، لأنّه لم يكن ﴿وذلك﴾
إشارة إلى ما تقدّم ذكره من العقاب، والجواب بأنّ متوهم النار.

والثاني: أن يكون نصباً، وتقديره: فعلنا ذلك لهذا.

وإنما جازت الإشارة بـ «ذلك» إلى غير حاضرٍ لأنَّ ما مضى صفته حاضر للنفس فقام مقام حضوره، ويجوز الإشارة إلى هذا الذي تقدّم ذكره. وقوله: ﴿أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ فـ «أَنْ» هي المخففة من الثقيلة، والمعنى: لأنّه لم يكن، ومثلها التي في قول الشاعر:

فِي فِتْنَةٍ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَحْفَى وَيَتَّعِلُ^(١)
فـ «أَنْ» المفتوحة لا بدّ فيها من إضمار الهاء، لأنّه لا معنى لها في الابتداء، وإنّما هي بمعنى المصدر المبني على غيره، والمكسورة لا تحتاج إلى ذلك، لأنّها يصحّ أن تكون حرفاً من حروف الابتداء فلا تحتاج إلى إضمار. وقوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: ما ذكره الفراء والجُبائي: إنّهُ بِظُلْمٍ مِنْهُ عَلَى غَفْلَةٍ مِنْ غَيْرِ تَنْبِيهِ وَتَذْكِيرٍ، ومثله: قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾^(٢).

الثاني: بِظُلْمٍ مِنْهُمْ حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا يَزْجُرُونَهُمْ وَيَذْكُرُونَهُمْ عَلَى وَجْهِ الاسْتِظْهَارِ فِي الْحُجَّةِ دُونَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَاجِبًا، لأنّهم بما فعلوه من الظُّلْمِ قَدْ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ.

وَمَنْ اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا يَحْسُنُ الْعِقَابَ إِلَّا بَعْدَ إِنْفَازِ الرُّسُلِ فَقَدْ أَجَبْنَا عَنْ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى.

قوله تعالى:

وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٢﴾ آية بلا خلاف.

(١) للأعشى من قصيدته المشهورة في هجاء يزيد الشيباني. راجع ديوان الأعشى: ص ١٥٢ وفيه عجزه هكذا: أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحَيْلَ. (٢) هود: ١١٧.

أقول: قرأ ابن عامر: ﴿عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، الباقون بالياء. وَمَنْ قرأ بالياء حملة على الغيبة، وَمَنْ قرأ بالتاء حملة على الخطاب للمواجهة. وفي الآية حَذَفٌ وتقديرها: ولكلِّ عاملٍ بطاعة الله أو معصيته منازل من عمله حتَّى يُجَازِيَهُ: إنَّ خيراً فخيئراً، وإنَّ شراً فشرّاً، وما تقدّم من ذِكْرِ الغافلين ^(١) يدلّ على هذا المحذوف.

و «قبل» و «بعد» بُنِيا عند حذف المضاف في مثل قوله: ﴿لله الأمر من قبلُ ومن بعده﴾ ^(٢) لأنَّهما في حال الإعراب لم يكونا على التمكن التام، لأنَّه لا يدخلهما الرفع في تلك الحال، فلمّا انضاف إلى هذا نقصان التمكن بحذف المضاف إليه أخرجا إلى البناء، وليس كذلك «كلّ» فإنَّه متمكّن على كلّ حال ولذلك لم يُبَيَّن.

و«الدرجات» يحتمل أمرين:

أحدهما: الجزاء، والثاني: الأعمال. فإذا وجَّهت إلى الجزاء كان تقديره: ولكلِّ درجات جزاء من أجل ما عملوا، وإذا حُمِلَ على الأعمال كان تقديره: ولكلِّ درجات أعمال من أعمالهم، وإنَّما مثّلت الأعمال بالدرجات لبيّنت أنَّه وإن عمَّ أحد قِسْمَيْهَا صفة الحسن وعمَّ الآخر صفة القبيح ليست في المراتب سواء، وأنَّه بحسب ذلك يقع الجزاء، فالأعظم من العقاب للأعظم من المعاصي، والأعظم من الثواب للأعظم من الطاعات. وقوله: ﴿وما ربك بغافلٍ عما يعملون﴾ إنَّما ذكره ليعلموا أنَّه لا يفوته شيء منهما ولا من مراتبهما حتَّى يجازي عليه بما يستحقُّ من الجزاء، وفيه تنبيه وتذكير للخلق في كلّ أمورهم.

والغفلة: ذهاب المعنى عَمَّنْ يصحَّ أن يدركه، والغفلة عن المعنى
والسَّهْو عنه والعُزُوب عنه نظائرٌ، وضدَّ الغفلة: اليقظة، وضدَّ السهو: الذكر،
وضدَّ العُزُوب: الحُضُور.

قوله تعالى :

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية بأنَّه ﴿الغني﴾ والغني: هو الحي
الذي ليس بمحتاج، والغني عن الشيء هو الذي يكون وجود الشيء
وعدمه وصحته وفساده عنده بمنزلة [واحدة] في أنَّه لا يلحقه صفة
نقص، و ﴿ذو الرحمة﴾ يعني: صاحب الرحمة، وهو تعالى بهذه الصفة
لرحمته بعباده.

ثمَّ أخبره عن قدرته وأنَّه لو شاء أن يذهب الخلق بأن يُميتهم
ويُهْلِكهم ﴿ويستخلف﴾ من بعدهم ﴿ما يشاء﴾ بأن يُنشئ بعد هلاكهم كما
أنشأهم في الأوَّل ﴿من ذُرِّيَّةٍ﴾ من تقدِّمهم، وكذلك ينشئ قوماً آخرين
من نسلهم وذُرِّيَّتهم لفعل، والجواب محذوف والكاف في ﴿كما﴾ في
موضع نصب، وتقديره: ويستخلف من بعدكم ما يشاء مثل ما استخلفكم.
وفي ذلك دلالة على أنَّه يصحَّ القدرة على ما علم أنَّه لا يكون، لأنَّه
بيَّن أنَّه لو شاء لذهب بهم وأتى بقوم آخرين ولم يفعل ذلك، فدلَّ ذلك
على أنَّه يقدر على ما يعلم أنَّه لا يفعله.

و «من» في قوله: ﴿ويستخلف من بعدكم﴾ للبدل، كقولك: أعطيتك
من دينارك ثوباً أي: مكان دينارك وبَدَله، ومعنى «من» في قوله: ﴿كما
أنشأكم من ذُرِّيَّةٍ قوم آخرين﴾ ابتداء الغاية، لأنَّ التقدير: إنَّ ابتداء غايتكم

من قوم آخرين.

وقيل في وزن «ذَرِيَّة» ثلاثة أقوال: أولها: «فُعْلِيَّة» من: الذر، الثاني: «فُعَيْلَة» على وزن «خُلَيْقَة» من: ذَرَأَ الخَلْقَ يَذَرُوهُمْ، الثالث: «فُعُولَة» من: «ذُرُورَة» إِلَّا أَنَّ الهمزة أَبْدَلَتْ وَاوًا، ثُمَّ قُلِبَتْ ياء، فيكون بمنزلة «عُلْيَة» من: عُلْيُوة. وقرئ في الشواذ ﴿ذَرِيَّة﴾ بكسر الذال^(١) وهما لغتان. وَأَنْشَأَ اللهُ الخَلْقَ: إِذَا خَلَقَهُ وَابْتَدَأَهُ، وَكَلَّ مِنْ ابْتَدَأَ شَيْئًا فَقَدْ أَنْشَأَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَنْشَأَ فُلَانٌ قَصِيدَةً.

وَالنَّشَأُ: الْأَحْدَاثُ مِنَ الْأَوْلَادِ، وَاحِدُهَا: نَاشِئٌ، مِثْلُ: خَادِمٌ وَخَدَمَ، وَيُقَالُ لِلْجَوَارِي: نَشَأٌ، وَلِلذَكَورِ: نَشَأٌ، قَالَ نُصَيْبٌ:
وَلَوْلَا أَنْ يُقَالَ صَبَا نُصَيْبٌ لَقُلْتُ بِنَفْسِي النَّشَأُ الصِّغَارُ^(٢)
وَيُقَالُ لِهَذَا السَّحَابِ: نَشْءٌ حَسَنٌ، وَهُوَ أَوَّلُ ظُهُورِهِ فِي السَّمَاءِ.
قوله تعالى:

إِنَّ مَا تَوْعَدُونَ لَأْتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّ الَّذِي أَوْعَدَ الخَلْقَ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ عَلَى مَعَاصِيهِ وَالْكَفْرِ بِهِ وَاقَعَ بِهِمْ، لِأَنَّ «مَا» فِي قَوْلِهِ ﴿إِنَّ مَا﴾ بِمَعْنَى «الَّذِي» وَلَيْسَتْ كَافَّةً مِثْلَ قَوْلِكَ: إِنَّمَا قَامَ زَيْدٌ، لِأَنَّ خَبَرَهَا جَاءَ بَعْدَهَا. وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَأْتٍ﴾ وَهِيَ فِي مَوْضِعِ النِّصْبِ، وَالْجِنْسُ فِي مَوْضِعِ الرِّفْعِ، وَالْكَافَّةُ لَا خَبَرَ لَهَا، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ ﴿لَأْتٍ﴾ [لَامُ الْابْتِدَاءِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لَامُ الْقَسَمِ، لِأَنَّ لَامَ] ^(٣) الْقَسَمِ لَا تَدْخُلُ عَلَى الْأَسْمَاءِ وَلَا الْأَفْعَالِ الْمُضَارِعَةِ إِلَّا

(١) قرأه زيد بن ثابت وأبو وجزة السعدي. راجع شواذ القرآن لابن خالويه: ص ٤٦.

(٢) لَنُصَيْبِ بْنِ رَبَاحِ الْكِنَانِيِّ مِنْ شِعْرَاءِ الْأُمَوِيِّينَ، وَالْبَيْتُ أَنْشَدَهُ الرَّجَّاجُ فِي مَعَانِيهِ: ج ٢

(٣) مَا بَيْنَ الْمَعْقُوفَيْنِ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

أَنْ تَكُونَ مَعَهَا النُّونُ الثَّقِيلَةُ، وَلَا تَعْلَقَ الْفَعْلُ فِي: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ زَيْدًا لَيَقُومَنَّ.
ومعنى ﴿تُوَعَّدُونَ﴾ من الإيعاد بالعقاب، يُقال: أُوْعِدَهُ إِيعَادًا. وقال
الحسن: إِنَّمَا تُوَعَّدُونَ مِنْ مَجِيءِ السَّاعَةِ، لَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَكْذِبُونَ بِالْبَعْثِ.
فعلى هذا يجوز أَنْ يَكُونَ الْمَصْدَرُ «الْوَعْدُ» لاختلاط الخير والشر، فيكون
على التغليب، إِذْ مَجِيءُ السَّاعَةِ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَشَرٌّ عَلَى الْكَافِرِينَ.
وقال الْجُبَّائِيُّ: إِنَّ مَعْنَاهُ: إِنَّ مَا تُوَعَّدُونَ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ فَإِنَّ اللَّهَ
يَأْتِي بِهِ.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أَي: لَسْتُمْ مُعْجِزِينَ اللَّهَ عَنِ الْإِتْيَانِ
بِالْبَعْثِ وَالْعِقَابِ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ يَعْبُدُ الْوَتْنَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَنْفَعُهُ فِي
صَرَفِ الْمَكْرُوهِ عَنْهُ، جَهْلًا مِنْهُ وَوَضْعًا لِلْأَمْرِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَأَيْضًا:
فَإِنَّهُمْ يَعْمَلُونَ عَمَلًا مَن كَانَ يَفُوتُهُ الْعِقَابُ، لِتَأْخُرَ عَنْهُ وَطُولُ السَّلَامَةِ
وَالِإِمْهَالِ فِيهِ.

قوله تعالى:

قُلْ يَنْقُومُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَائِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَقِيبَةُ
الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو بكر: ﴿مكاناتكم﴾ على الجمع، الباقون على التوحيد.
وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يكون﴾ بالياء، الباقون بالتاء المعجمة من فوق.
ومَنْ قرأ بالياء فَلَأَنَّ الْمَصْدَرَ الْمُؤَنَّثَ يَجُوزُ تَأْنِيثُهُ عَلَى اللَّفْظِ وَتَذْكِيرُهُ
عَلَى الْمَعْنَى. وَمَنْ قرأ بالتاء فعلى اللفظ، فمما جاء منها على اللفظ: قوله:
﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ ^(١) وقوله: ﴿قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ ^(٢) وعلى

المعنى: قوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾^(١) وقوله: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ﴾^(٢).

وَمَنْ وَحَدَ ﴿مَكَانَتَكُمْ﴾ فَلَأَنَّهُ مُصَدِّرٌ، وَالْمَصَادِرُ فِي الْأَكْثَرِ لَا تُجْمَعُ، وَمَنْ جَمَعَ فَلَأَنَّهُ قَدْ تُجْمَعُ قَوْلُهُمْ: الْخُلُومُ وَالْأَخْلَامُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿مَكَانَتَكُمْ﴾ أَي: عَلَى حِيَالِكُمْ.

وَقَالَ أَبُو زَيْدٍ: رَجُلٌ مَكِينٌ عِنْدَ السُّلْطَانِ مِنْ قَوْمٍ مُكَنَاءَ، وَقَدْ مَكَنَ مَكَانَةً، كَأَنَّهُ قَالَ: اعْمَلُوا عَلَى قَدَرِ مَنْزِلَتِكُمْ وَتَمَكَّنْكُمْ مِنَ الدُّنْيَا، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضُرُّوْنَا بِذَلِكَ شَيْئًا.

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهِ ﷺ أَنْ يَخَاطِبَ الْمَكَلَّفِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَيَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ، وَالْمَكَانَةُ: الطَّرِيقَةُ، يُقَالُ: هُوَ يَعْمَلُ عَلَى مَكَانَتِهِ وَمَكِينَتِهِ أَي: طَرِيقَتِهِ وَجِهَتِهِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنُ: عَلَى نَاحِيَتِكُمْ، وَقَالَ الْجُبَّائِيُّ: عَلَى حَالَتِكُمْ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: عَلَى تَمَكَّنْكُمْ.

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ صَيْغَتُهُ صَيْغَةُ الْأَمْرِ فَالْمُرَادُ بِهِ: التَّهْدِيدُ، كَمَا قَالَ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾^(٣) وَإِنَّمَا جَاءَ لِلتَّهْدِيدِ بِصَيْغَةِ الْأَمْرِ لَشِدَّةِ التَّحْذِيرِ، أَي: لَوْ أَمَرَ بِهَذَا لَكَانَ يَجُوزُ قَبُولُ أَمْرِهِ.

وَوَجْهٌ آخَرُ [هُوَ]: أَنَّ التَّقْدِيرَ: اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنْ رَضِيتُمْ بِالْعِقَابِ، أَي: أَنْتُمْ فِي مَنْزِلَةٍ مَنْ يُؤَمَّرُ بِهِ إِنْ رَضِيتُمْ بِالْعِقَابِ، فَهَذَا عَلَى التَّبَعِيدِ أَنْ يَقِيمُوا، كَالْتَّبَعِيدِ أَنْ يَرْضُوا.

وَوَجْهٌ ثَالِثٌ هُوَ: أَنَّ الضَّرَرَ يَخْصُ الْمَقِيمَ عَلَى الْمُنْكَرِ، لِأَنَّ غَيْرَهُ بِمَنْزِلَةِ

الآمن في أنه لا يُؤمر بما يضره.

وقوله: ﴿إِنِّي عامل﴾ إخبار من الرسول أنه عامل بما أمر الله تعالى به،
وقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ فيه تهديد، ومعناه: فسوف تعلمون جزاء أعمالكم.
وقوله: ﴿مَنْ تكون﴾ يحتمل موضع «من» أمرين من الإعراب:
أحدهما: الرفع، وتقديره: أيُّنا يكون له عاقبة الدار. والثاني: النصب
بقوله: ﴿تعلمون﴾ ويكون بمعنى «الذي».

وإنما قال: إِنَّ عاقبة الدار للمؤمنين دون الكافرين وإن كان الكفار
أيضاً لهم عاقبة [من حيث يصيرون إلى العقاب المؤبد، وهي للمؤمنين]^(١)
من حيث يصيرون إلى النعيم الدائم، كما يقول العرب: لهم الكثرة، ولهم
الحملة، لأنه إذا فَضِّلَ قيل: لهم وعلى أعدائهم.

وقوله: ﴿إنَّه لا يفلح الظالمون﴾ أي: لا يفوز الظالمون بشيءٍ من
الثواب والمنافع، وإنما لم يقل: «الكافرون» وإن كان الكلام في ذكْرهم
لأنَّه أعمّ وأكثر فائدة، ولأنَّه إذا لم يفلح الظالم فالكافر بذلك أولى، على
أنَّ الكافر يسمَّى ظالماً، فيجوز أن يكون عَنَى به أنه لا يفلح الظالمون
الذين هم الكافرون، كما قال: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾^(٢) وقال: ﴿إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٣).

قوله تعالى:

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا
لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى
شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ آية بلا خلاف.

(١) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجرية. (٢) البقرة: ٢٥٤. (٣) لقمان: ١٣.

أقول: قرأ الكسائي: ﴿بُرُعِهِمْ﴾ بضم الزاء في الموضعين، الباقون بفتحها. وفي «الزعم» ثلاث لغات: الفتح والضم والكسر، مثل: [فَتُكَّ] و«فُتُكَّ» و«فِتُكَّ»^(١) و«قَبْل» و«قَبِل» و«قِيل» و«وَدَّ» و«وُدَّ» ولم يقرأ بالكسر أحد، فالفتح لغة أهل الحجاز، والضم لغة تميم، والكسر لغة بعض بني قيس.

أخبر الله تعالى عن الكفار الذين تقدّم وصفهم أنهم يجعلون شيئاً من أموالهم لله وشيئاً لشركائهم تقرباً إليهما، من جملة ما خلقه الله واخترعه، لأنّ الذرء هو الخلق على وجه الاختراع، وأصله: الظهور، ومنه: ملّح ذَرَائِيَّ وَذَرَائِيَّ لظهور بياضه، والذُرْأَةُ: ظهور الشَّيْب، قال الراجز:

وَقَدْ عَلَتْنِي ذُرْأَةُ بَادِي بَدِي وَرَثِيَّةٌ تَنْهَضُ بِالتَّشَدُّدِ^(٢)

يُقال: ذَرَأَ [الله] الْخَلْقَ يَذَرُوهُمْ ذَرِئاً وَذَرَواً، ويُقال: ذَرِئْتُ لِخَيْتِهِ ذَرَأً إِذَا شَابَتْ، منه: وَطَعْتُهُ فَأَذَرَاهُ - غير مهموز - إِذَا أَلْقَاهُ، وَذَرَّتِ الرِّيحُ التُّرَابَ تَذَرُوهُ ذَرَواً: إِذَا أَبَادَتْهُ، وَذَرَوَةٌ كُلُّ شَيْءٍ: أَعْلَاهُ.

والْحَرْثُ: الزرع، و الحَرثُ: الأرض التي تُثار للزرع، ومنه: حَرَثَهَا يَحْرِثُهَا حَرَثاً، ومنه: قوله: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾^(٣) لأنّ المرأة للوَلَد كالأرض للزرع. والأنعام: المواشي من الإبل والبقر والغنم، مأخوذ من: نعمة الوطء، ولا يُقال لِذَوَاتِ الحافر: أنعام.

وإنما جعلوا الأوثان شركاءهم لأنّهم جعلوا لها نصيباً من أموالهم ينفقونه عليها فشاركوها في نعيمهم.

(١) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجرية.

(٢) أنشده في اللسان: مادّة «ذراً» و«بدا» ونسبه إلى أبي نُخَيْلَة السعدي.

(٣) البقرة: ٢٢٣.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ لَشُرْكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ اللَّهُ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرْكَائِهِمْ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال ابن عباس وقتادة: إنه إذا اختلط شيء ممّا جعلوه لأوثانهم ما جعلوه لله ردّوه إلى مالأوثانهم، وإذا اختلط بشيء ممّا جعلوه لله لم يردّوه إلى ما لله.

الثاني: قال الحسن والسّدي: كان إذا هلك الذي لأوثانهم أخذوا بدله ممّا لله، ولا يفعلون مثل ذلك في ما لله عزّ وجلّ.

الثالث: قال أبو علي: إنهم كانوا يصرفون بعض ما جعلوه لله في النفقة على أوثانهم، ولا يفعلون مثل ذلك فيما جعلوه للأوثان.

وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: قال الزجاج: تقديره: ساء الحكم حكمهم، فيكون على هذا موضع «ما» رفعاً. وقال^(١) الرّماني: يجوز أن يكون موضع «ما» نصباً وتقديره: ساء حكماً حكمهم.

قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر وحده ﴿زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَاءُهُمْ﴾ بضم الزاي، ونصب «الأولاد» وخفض «شركائهم» الباقون بفتح الزاي، ﴿قَتَلَ﴾ مفتوح اللام ﴿أولادهم﴾ بجرّ الدال ﴿شركاءهم﴾ بالرفع، بالتزيين.

فوجه قراءة ابن عامر: أَنَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ بِالْمَفْعُولِ،
وَالْتَقْدِيرُ: قَتَلَ شُرَكَائِهِمْ أَوْلَادَهُمْ، وَ «شُرَكَائِهِمْ» فاعِل «القتل» وَإِنَّمَا جُرِّ
بِالْإِضَافَةِ، وَمَنْ أَضَافَ «القتل» إِلَى «الأولاد» فِي الْقِرَاءَةِ الْآخَرَى يَكُونُ
«الأولاد» فِي مَوْضِعِ النِّصْبِ، وَهُوَ مَفْعُولُ بِهِ بِ «القتل» وَأَنْشَدُوا فِيهِ بَيْتاً
عَلَى الشَّدُوذِ - أَنْشَدَهُ بَعْضُ الْحِجَازِيِّينَ - ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ:

فَرَجَجْتُهَا بِمِرْجَةٍ رَجَّ الْقُلُوصَ أَبِي مَرَادَةَ^(١)

وذلك لا يجوز عند أكثر النحويين، لَأَنَّ الْقِرَاءَةَ لَا يَجُوزُ حَمْلُهَا عَلَى
النَّشَاطِ الْقَبِيحِ، وَلِأَنَّهُ إِذَا ضَعَفَ الْفَضْلُ بِالظَّرْفِ حَتَّى لَمْ يَجْزِ إِلَّا فِي ضَرُورَةٍ
الشعر كقول الشاعر:

كَمَا خَطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْمًا يَهُودِيًّا^(٢)

فَأَنَّ لَا يَجُوزُ فِي الْمَفْعُولِ بِهِ أَجْدَرُ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ الضَّعْفِ إِلَّا الْاِمْتِنَاعُ.
وَقِيلَ: إِنَّمَا حَمَلَ ابْنُ عَامِرٍ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ أَنَّهُ وَجَدَ «شُرَكَائِهِمْ» فِي
مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّامِ بِالْيَاءِ لَا بِالْوَاوِ، وَهَذَا يَجُوزُ فِيهِ: «قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ
شُرَكَائِهِمْ» عَلَى إِيقَاعِ «الشرك» لِلأولادِ، يَعْنِي: شُرَكَائِهِمْ فِي النِّعَمِ وَفِي
النَّسَبِ وَفِي الْأَوْلَادِ.

وَلَوْ قِيلَ - أَيْضاً -: زَيْنٌ لكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ، عَلَى
ذِكْرِ الْفَاعِلِ بَعْدَ مَا ذُكِرَ الْفِعْلُ عَلَى طَرِيقَةِ مَا لَمْ يَسْمَ فَاعِلُهُ جَازٍ، قَالَ الشَّاعِرُ:
لِيُبَيْكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَمُحْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِفُ^(٣)

(١) ذكره سيبويه في الكتاب: ج ١ ص ٨٨ ولم نقف على قائله.

(٢) لأبي حية النمرى. راجع خزانة الأدب: ج ٤ ص ٢١٩. والشاهد فيه: إضافة «الكف» إلى «اليهودي» مع الفصل بالظرف.

(٣) لنهشل بن حرّي النهشلي من قصيدة يرثي يزيد النهشلي شريف قومه. راجع خزانة
الأدب: ج ١ ص ٣٠٣ وما بعده.

أي: لِيُنِكَهَ ضَارِعٌ، ومثله: ﴿يَسْبَحْ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ * رجالٌ ﴿^(١)﴾ وتقديره: كأنه لما قال: ﴿زَيْنٌ لكثيرٍ من المشركين قَتْلُ أولادِهِمْ﴾ قال قائل: مَنْ زَيْنُه؟ قيل: زَيْنُه شركاؤُهُمْ.
وقال الفراء: تكون «شركايهم» على لغة مَنْ قال في عشاء: «عشاي».
كما قال الشاعر:

إِذَا الثَّرِيًّا طَلَعَتْ عَشَايَا فَبِعِ لِرَاعِي غَنَمٍ كِسَايَا

وأبو العباس يأبى هذا البيت ويقول: الرواية الصحيحة بالهمزة.

ووجه التشبيه في قوله: ﴿وكذلك زَيْنٌ﴾: أنه كما جعل أولئك في الآية الأولى ما ليس لهم كذلك زَيْنٌ هؤلاء ما ليس لهم أن يزَيْنوه.

والشركاء الذين زَيْنُوا قتل الأولاد قيل فيهم خمسة أقوال:

أحدها: قال الحسن ومجاهد والسُّدِّي: هم الشياطين زَيْنُوا لهم وأد البنات أحياء خوف الفقر والعار. و[الثاني:] قال الفراء والزجاج: هم قوم كانوا يخدمون الأوثان. والثالث: إنَّهم الغَوَاة من الناس. والرابع: قيل: شركاؤهم في نَعِيمهم. والخامس: شركاؤهم في الإِشْرَاق.

وقوله ﴿لِيُزْدُوهُمْ﴾ فالإِزْدَاء: الإِهْلَاك، تقول: أزداه يُزْدِيهِ إِزْدَاءً، وَرَدِّي يَزْدِي رَدًى، إِذَا هَلَكَ، وَتَرَدَّى تَرَدَّيًّا، ومنه: قوله: ﴿وما يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ^(٢) والمراد به: الْحَجَرُ يَتَرَدَّى مِنْ رَأْسِ جَبَلٍ.

واللام في قوله: ﴿لِيُزْدُوهُمْ﴾ قال قوم: هي لام العاقبة، كما قال: ﴿فالتَّقَطَهُ آلُ فرعون ليكون لهم عَدُوًّا وَحَرَنًا﴾ ^(٣) لأنَّهم لم يكونوا معاندين فيقصدوا أن يردوهم ويلبسوا عليهم دينهم، هذا قول أبي علي.

وقال غيره: يجوز أن يكون فيهم المعاند، ويكون ذلك على التغليب.
 وقوله: ﴿ولو شاء الله ما فعلوه﴾ معناه: لو شاء أن يضطرهم إلى تركه،
 أو: لو شاء أن يمنعهم منه لفعل، ولو فعل المنع والحيلولة لما فعلوه، لكن ذلك
 ينافي التكليف. ثم أمر نبيه ﷺ أن يذرهم أي: يتركهم ولا يمنعهم، ويخلي
 بينهم وبين ما يكذبون، وذلك غاية التهديد، كما يقول القائل: دَعْنِي وإِيَّاه.
 قوله تعالى:

وَقَالُوا هَذِهِ أُنْعَمُ وَأَنْعَمُ لَآ يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا
 يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفار: أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِثٌ﴾
 يعني: الأنعام والزرع الذي جعلوهما لألهتهم وأوثانهم، وقوله: ﴿يَرْعَمُهُمْ﴾
 يدل على أَنَّهُمْ فعلوا ذلك بغير حجة، بل بقَوْلهم العاري عن برهان.
 وقيل في «الأنعام» الأوْلَة قولان:

أحدهما: قال الجُبَّائي: الَّتِي ذَكَرَهَا أَوَّلًا فَهُوَ مَا جَعَلُوهُ لِأَوْثَانِهِمْ كَمَا
 جَعَلُوا الْحَرْثَ لِلنَّفَقَةِ عَلَيْهَا فِي خِدَامِهَا وَمَا يُنُوبُ مِنْ أَمْرِهَا، وقيل: قرباناً
 للأوثان. وأمَّا الأنعام الَّتِي ذُكِرَتْ ثَانِيًا فَهِيَ السَّائِبَةُ وَالْبَحِيرَةُ وَالْحَامُ، وَهُوَ
 الْفَحْلُ الَّذِي يَخْلُونَهُ وَيَقُولُونَ: حَمَى ظَهْرُهُ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَمَجَاهِدٍ، وَأَمَّا
 الَّتِي ذُكِرَتْ ثَالِثًا قِيلَ فِيهِ وَجْهَانِ [بل] قولان: أحدهما: الَّتِي إِذَا وَلَدَوْهَا أَوْ
 ذَبَحُوهَا أَوْ رَكَبُوهَا لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا، وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ وَغَيْرِهِ.

والثاني: قال أبو وائل: هِيَ الَّتِي لَا يَحْجُونَ عَلَيْهَا.

وقوله: ﴿حِجْرٌ﴾ معناه: حرام، تقول: حَجَرْتُ عَلَى فُلَانٍ كَذَا أَي: مَنَعْتُهُ

منه بالتحريم، ومنه: قوله: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾^(١) وَالْحَجْرُ: لامتناعه بالصلابة، وَالْحِجْرُ: العقل للامتناع به من القبيح، قال المثلّمس: حَتَّتْ إِلَى النَخْلَةِ الْقُصُوى فَقُلْتُ لَهَا حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَا تَلِكِ الدَّهَارِيسُ^(٢) وقال رُؤْبَةُ:

وَجَارَهُ الْبَيْتُ لَهَا حُجْرِيٌّ

وقال الآخر:

فَسَبْتُ مَرْتَقَقًا وَالْعَيْنُ سَاهِرَةٌ كَأَنَّ نَوْمِي عَلَيَّ اللَّيْلِ مَحْجُورٌ^(٣)
وقيل: حِجْرٌ وَحِجْرٌ مَثَلٌ: جَذْبٌ وَجَبْدٌ، وبه قرأ ابن عباس^(٤). وبضمّ الحاء قراءة الحسن وقَتَادَةُ^(٥) ويقال: حِجْرٌ وَحَجْرٌ وَحُجْرٌ بمعنى المنع بالتحريم، وَحَجَرَ الْإِنْسَانَ وَحِجْرَهُ^(٦) بالكسر والفتح.

وإنّما عَيَّبُوا بتحريم ظهور الأنعام، والواجب تحريمها عقلاً حتّى يرد سَمْعٌ بإباحته، لأنّهم حرّموا ذلك على وجه الكذب على الله، وأنّه أوجب ذلك إذا كانت على صفةٍ مخصوصةٍ. وإنّما عَيَّبُوا بأكلها بعد ذبحها وهي حينئذٍ تجري مجرى الميتة، وذلك لا يعلم تحريمه عقلاً، لأنّهم ادّعوا أنّه على وجه التذكية افتراءً على الله، فقصدوا به هذا القصد، ولذلك عَيَّبُوا بتملّكها وإن كانوا سبقوا إليها. وإنّما وجب تحريم الانتفاع باستهلاك

(١) الفرقان: ٢٢ و ٥٣.

(٢) وهو جرير بن عبدالمسيح المعروف بالمثلّمس، أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٠٧. والدّهَارِيس: الدواهي. في الحجرية:

جئت إلى النخلة القصوى فقلت لها حِجْرٌ حَرَامٌ أَلَا تَلِكِ الدَّهَارِير

(٣) نسبه في اللسان: مادة «رفق» إلى أعشى باهلة.

(٤) أي كان يقرأ ﴿حَرِثٌ جِرْجٌ﴾ رواه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٣٤ مسنداً.

(٥) رواه النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص ٩٩.

(٦) أي: حضنه.

الأُنعام، لأنَّ الإيلام لا يحسن إلّا مع تضمّن العِوضِ المِوافي عليه، وذلك مفتقر إلى السَّمْعِ.

وقوله: ﴿افترأ﴾ يعني: كذباً، وفي نصبه قولان:

أحدهما: قالوا: افترأ على الله، الثاني: لا يذكرون اسم الله افترأ على الله، كأنّه قيل: افترؤا بتركهم التسمية الذي أضافوه إلى الله افترأ عليه. قوله تعالى:

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَيَّ زُورِجَنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ ابن كثير: ﴿وإن يكن﴾ بالياء ﴿مَيْتَةً﴾ رفع، وقرأ ابن عامر إلّا الداحوني عن هشام وأبوجعفر: بالتاء ﴿مَيْتَةً﴾ رفع، وقرأ أبو بكر عن عاصم إلّا الكسائي: ﴿يكن﴾ بالياء ﴿مَيْتَةً﴾ نصب، الباقون: بالتاء ﴿مَيْتَةً﴾ نصب. وجه قراءة الأكثر: أن يحمل على «ما» وتقديره: وإن يكن ما في بطون الأنعام مَيْتَةً. ووجه قراءة ابن عامر: أن يضيف الفعل إلى «الميتة» فيرتفع «الميتة» به، فلذلك أنث الفعل. ووجه قراءة أبي بكر: أن ما في بطون الأنعام مؤنث، لأنها من الأنعام، ويجوز أن يكون أراد أن تكون الأجنّة مَيْتَةً. ووجه قراءة ابن كثير: أن يضيف الفعل إلى «الميتة» لكن لما لم يكن تأنيث «الميتة» تأنيث ذوات الفروج، وتقدّم الفعل، جاز أن يُذكر، كما قال: ﴿فمن جاءه موعظة﴾ ^(١) ﴿وأخذ الذين ظلموا الصّيحة﴾ ^(٢) وتكون «كان» تامّة، ومعناه: وإن وقّع مَيْتَةً.

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفار الذين ذكرهم أنّهم

﴿قالوا ما في بطون هذه الأنعام﴾ التي تقدّم ذكرها أحياءً فهو خالص لذكورهم ﴿ومحرّم على﴾ أزواجهم الإناث وبناتهم، وقال بعضهم^(١): إنّه يختصّ بالزوجات، والأولى: عموم النساء تفضيلاً للذكور على الإناث، وقيل: إنّ الذكور كانوا القوام بخدمة الأوثان.

والمراد بـ «ما في بطون الأنعام» قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال قتادة: المراد به الألبان. و [الثاني]: قال مجاهد والسّدي: إنّه الأجنّة. الثالث: إنّ المراد به الجميع، وهو أعمّ.

وقوله: ﴿خالصةً لذكورنا﴾ معناه: لا يشركهم فيها أحد من الإناث، وليس المراد به تصفية^(٢) شيء عن شيء كالذهب الخالص والفضّة الخالصة، ومن ذلك إخلاص التوحيد وإخلاص العمل لله.

والهاء في قوله: ﴿خالصة﴾ قيل فيها ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّها للمبالغة في الصفة كالعلامة والراوية. الثاني: على تأنيث المصدر كالعاقبة والعافية، ومنه: قوله: ﴿بخالصةٍ ذكرى الدار﴾^(٣). الثالث: لتأنيث ما في بطونها من الأنعام.

ويقال: فلان خالصة فلان و [من] خلصائه. وحكى الزجاج والفراء: أنّه قرئ^(٤): ﴿خالصه لذكورنا﴾ والمعنى: ما خلص منها. وقيل: أصل «الذكور» من الذكر، سمي الذكور بذلك، لأنّه أنثى وأذكر من الأنثى.

وقوله: ﴿وإن يكن ميثنة﴾ معناه: إن كان جنين الأنعام ميثنة فالذكور والإناث فيه سواء، فقال الله تعالى: ﴿سيجزّيهم وصفحهم﴾ يعني: سيجزيهم

(١) منهم مجاهد، راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٣٧. (٢) في نسخة: تسوية.

(٣) ص: ٤٦. (٤) نسبها ابن خالويه في شواذه: ص ٤٣ إلى ابن عباس.

جزاء وَضَفِّهِمْ، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.
 وقوله: ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ معناه: إِنَّهُ تعالى حَكِيمٌ فيما يفعل بهم من العقاب
 أَجْلاً وفي إِمهالهم عاجلاً، عليم بما يفعلون لا يخفى عليه شيء منهما.
 وقوله: ﴿خَالِصَةٌ﴾ رفع بَأَنَّهُ خبر الابتداء والمبتدأ قوله: ﴿مَا فِي
 بَطُونٍ﴾ ولا يجوز عند البصريين النصب، لأنَّ العامل فيه لا يتصرّف،
 فلا يتقدّم عليه، وأجازه الفراء^(١) مع قوله: إِنَّهُمْ لا يكادون يتكلمون به،
 لا يقولون: زيد قائماً فيها، ولكنه قياس.

وقد عاب الله على الكفّار في هذه الآية أربعة أوجه:
 أولها: ذُبِّحَهم الأنعام بغير إذن الله. وثانيها: أَكَلُهم على ادّعاء التذكية
 افتراءً على الله. وثالثها: تحليلهم للذكور وتحريمهم على الإناث تفرقةً بين
 ما لا يفترق إلاّ بحُكْمٍ من الله. ورابعها: تسويتهم بينهم في الميئَةِ من غير
 رجوع إلى سَمْعٍ موثوق.
 قوله تعالى:

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً
 عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وابن عامر ﴿قَتَلُوا﴾ بتشديد التاء، الباقون بالتخفيف.
 مَنْ شَدَّدَ حملة على التكرير^(٢) كقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَفْتُحَةٍ﴾^(٣) وَمَنْ
 خَفَّفَ فَلَانَّهُ يدلّ على القلّة والكثرة.

أخبر الله تعالى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الكفّار الذين قتلوا أولادهم الإناث خوفاً
 من الفقر وهرباً من العار قد خسروا، ومعناه: هلكت نفوسهم باستحقاقهم

على ذلك عذاب الأبد. والخُسران: هلاك رأس المال.

وقوله: ﴿سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نصب على أَنَّهُ مفعول له، ويجوز أن يكون نصباً على المصدر، وتقديره: سفهُوا بما فعلوه سَفَهًا خوفاً من الفقر وهرباً من العار. والسَفَهُ: خِفَّةُ الحِلْمِ بالعجلة إلى ما لا ينبغي أن يعجل إليه، وأصله: الخِفَّةُ، وضدَّ السَفِيهِ: الحليم. والفرق بين «السَفَه» و «النَزَق»: أنَّ السَفَهَ عجلة يدعو إليها الهوى، والنَزَقَ عجلة من جهة حدَّة الطبع والغيظ. وقوله: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: ما حرَّموه على نفوسهم من الحرِّث بزعمهم أَنَّهُ حِجْر. وقال الحسن: إِنَّه راجع إلى الأنعام. وقال الرُّمَّاني: لا يجوز ذلك، لأنَّها محرَّمة عليهم بحجَّة العقل حتَّى يأتي بسمْع. والقتل نقض البنية التي تحتاج الحياة إليها، والموت - عند من أثبتته معنى - : ضدَّ الحياة.

وقوله: ﴿افْتَرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: كذباً، ونصبه على المصدر، والعامل فيه قوله ﴿وَحَرَّمُوا﴾ لأنَّ ذلك قولٌ منهم أضافوه إلى الله. ثمَّ أخبر تعالى أَنَّهُمْ ﴿قد ضلُّوا﴾ بما فعلوه وجاروا عن طريق الحقِّ، وأنَّهُمْ لم يكونوا ﴿مُهتدين﴾ إلى طريق الرشاد والحقِّ. قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلًّا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٤١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل البصرة وابن عامر وعاصم ﴿حَصَادِهِ﴾ بفتح الحاء، الباقون بكسرها، هما لغتان كسر الحاء وفتحها.

وقال سيبويه: جاءوا بالمصادر حين أرادوا انتهاء الزمان على مثال:

«فَعَال» نحو: الصَّرَامَ والجِرَازَ والجِدَادَ والقَطَاعَ [الْقَطَاف] والحِصَادَ، وربما دخلت اللغتان في بعض هذا فكان فيه «فَعَال» و «فَعَال»^(١).

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ، وَعَنْ عَظِيمٍ مَا ابْتَدَعُوهُ وَافْتَرَوْا بِهِ عَلَى اللَّهِ، وَشَرَّعُوا مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ فِيهِ، [عَقَّبَ ذَلِكَ الْبَيَانُ بِأَنَّهُ الْخَالِقُ لَجَمِيعِ الْأَشْيَاءِ، فَلَا يَجُوزُ إِضَافَةُ شَيْءٍ مِنْهَا إِلَى الْأَوْثَانِ وَلَا تَحْلِيلُهُ وَلَا تَحْرِيمُهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، ظ] ^(٢) فَقَالَ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ وَالْإِنشَاءُ: هُوَ إِحْدَاثُ الْأَفْعَالِ ابْتِدَاءً لَا عَلَى مِثَالِ سَبَقٍ، وَهُوَ كَالْإِبْتِدَاعِ، وَالْإِخْتِرَاعُ: هُوَ إِحْدَاثُ الْأَفْعَالِ فِي الْغَيْرِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، وَالْخَلْقُ: هُوَ التَّقْدِيرُ وَالتَّرْتِيبُ. وَالْجَنَّاتُ: جَمْعُ جَنَّةٍ، وَهِيَ الْبَسَاتِينُ الَّتِي يَجْتَنُّ الشَّجَرُ مِنَ النَّخْلِ وَغَيْرِهِ، وَالرَّوْضَةُ: هِيَ الْخَضِرَةُ بِالنَّبَاتِ وَالزَّهْوَةِ الْمَشْرِقَةِ بِاخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ الْحَسَنَةِ.

وقوله: ﴿مَعْرُوشَاتٍ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ قَوْلَانِ:

أحدهما: مَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: هُوَ مَا عَرَّشَ النَّاسُ مِنَ الْكُرُومِ وَنَحْوِهَا، وَهُوَ رَفَعَ بَعْضَ أَغْصَانِهَا عَلَى بَعْضِ ﴿وَغَيْرِ مَعْرُوشَاتٍ﴾ مَا يَكُونُ مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ فِي الْبَرَارِيِّ وَالْجِبَالِ.

الثَّانِي: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: يَعْرِشُهُ أَيُّ: يَرْفَعُ لَهُ حِظَائِرَ كَالْحَائِطِ، وَأَصْلُهُ: الرِّفْعُ، وَمِنْهُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا﴾ ^(٣) يَعْنِي: عَلَى أَعَالِيهَا، وَمَا ارْتَفَعَ مِنْهَا لَمْ يَنْدَكْ فَيَسْتَوِي بِالْأَرْضِ، وَمِنْهُ: «الْعُرْشُ» لِلْسَّرِيرِ لَارْتِفَاعِهِ. وَ «مَعْرُوشَاتٍ» فِي مَوْضِعِ النِّصْبِ، لِأَنَّهَا صِفَةٌ لـ ﴿جَنَّاتٍ﴾ «وَالنَّخْلِ وَالزَّرْعِ» مَعْنَاهُ: وَأَنْشَأَ النَّخْلَ وَالزَّرْعَ ﴿مَخْتَلِفًا أَكْلَهُ﴾ يَعْنِي: طَعْمَهُ، وَنِصْبَ

(١) الكتاب: ج ٤ ص ١٢. (٢) ما بين المعقوفتين ورد في حاشية الحجرية.

(٣) البقرة: ٢٥٩، الكهف: ٤٢، الحج: ٤٥.

﴿مختلفاً﴾ على الحال، وإنما نصبه على الحال وهو يؤكل بعد ذلك برّمانٍ،
لأمرين:

أحدهما: أن معناه: مقدراً اختلاف أكله، كقولهم: مرّزْتُ برجلٍ معه
صَقْرٌ صائداً به غداً، أي: مقدراً الصيد به غداً.

الثاني: أن يكون معنى ﴿أكله﴾: ثمره الذي يصلح أن يؤكل منه.
﴿والزيتون والرّمان﴾ أي: وأنشأ الزيتون والرّمان، وإنما قرّن الزيتون
إلى الرّمان لأنّه لما ذكّر الكزّم والنخل والزّرع اقتضى ذكر ما خرج عن
ذلك، فقَرْنَا لفضلهما بعد ما ذكّر، وقيل: لأنّهما يشتهيان باكتناف الأوراق
في أغصانها ﴿متشابهاً وغير متشابه﴾ معناه: متماثلاً وغير متماثل، وقيل:
﴿متشابهاً﴾ في النظر ﴿وغير متشابه﴾ في الطعم، بل الطعم مختلف.

وقوله: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ المراد به: الإباحة لا الأمر، وقال الجُبَّائي
وجماعة: إنّ ذلك يدلّ على جواز الأكل من ثمره وإن كان فيه حقّ للفقراء.
وقوله: ﴿وآتوا حقّه يوم حصاده﴾ أمر إيجاب بإيتاء الحقّ يوم
الحصاد على طريق الجملة، و«الحقّ» الذي يجب إخراجه يوم الحَصَاد
فيه قولان:

أحدهما: قال ابن عبّاس ومحمّد بن الحنفية وزيد بن أسلم والحسن
وسعيد بن المسيّب وطاووس وجابر بن عبد الله ويزيد وقتادة والضّحّاك:
إنّه الزكاة العُشْر أو نصف العُشْر.

الثاني: رُوي عن جعفر عن أبيه^(١) وعطاء ومجاهد وابن عامر
وسعيد بن جبّير والربيع بن أنس: أنّه ما يُنْتَر مِمّا يُعطى المساكين.

(١) في الطبري: «محمّد بن جعفر عن أبيه».

وروى أصحابنا: أَنَّهُ الضَّعُثُ بعد الضَّعِثِ والحُفْنَةُ بعد الحُفْنَةِ^(١).
وقال إبراهيم والسُّدِّي^(٢): الآيَةُ منسوخة بفَرْضِ العُشْرِ ونصفِ العُشْرِ،
قالوا: لَأَنَّ الزَّكَاةَ لا تخرج يوم الحصاد، وقالوا: لَأَنَّ هذه الآيَةَ مَكِّيَّة،
وفَرَضَ الزَّكَاةَ نزل بالمدينة. ولَمَّا رُوِيَ بِأَنَّ الزَّكَاةَ نسخ كلَّ صدقة.
قال الرُّمَّانِي: وهذا غلط، لَأَنَّ ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ ظرف لـ ﴿حَقَّهُ﴾ وليس
بظرف «الإيتاء» المأمور به.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ قيل في المخاطبين به ثلاثة أقوال:
أحدها: قال أبو العالية وابن جُرَيْج: إِنَّهُ يتوجَّه إلى أرباب الأموال،
لَأَنَّهُمْ كانوا يعطون شيئاً سوى الزَّكَاةِ يسرفون فيه، فَرُوِيَ^(٣) عن ثابت بن
شَمَّاس أَنَّهُ كان له خمسمائة رأسٍ نخلًا فَصَرَمَهَا، وتصدَّقَ بها، ولم يترك
لأهلها منها شيئاً، فَهَيَّ الله عن ذلك، وبَيَّنَّ أَنَّهُ مُسْرِفٌ، ولذلك قال
النَّبِيُّ ﷺ: «ابدءْ بِمَنْ تَعُولُ»^(٤).

الثاني: قال ابن زيد: إِنَّهُ خطابٌ للسلطان. الثالث: إِنَّهُ خطابٌ للجميع،
وهو أعمُّ فائدة.

وقيل^(٥): إِنَّ السَّرْفَ يكون في التقصير كما يكون في الزيادة. قال
الشاعر:

(١) رواه الكليني في الكافي: ج ٣ ص ٥٦٤ باب الحصاد والجداد، والعياشي في تفسيره: ج ١
ص ٣٧٧ - ٣٨٠ ح ٩٧ - ١١٤.

(٢) أخرجه عنهما الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٣.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٤٥ مسنداً عن ابن جُرَيْج.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح: ج ٢ ص ١٣٩ كتاب الزكاة، ومسلم في الصحيح أيضاً: ج ٢
ص ٧١٧ ح ١٠٣٤ و ١٠٣٦ بأسانيد مختلفة.

(٥) قاله النُّزْر بن شُمَيْل كما في تفسير القرطبي: ج ٧ ص ١١١ وإليه ذهب الطبري.

أَعْطُوا هُنَيْدَةً يَخْذُوهَا ثَمَانِيَةً ما في عَطَائِهِمْ مَنْ وَلَا سَرْفٌ^(١)
معناه: ولا تقصير، وقيل: ولا إفراط، لأنه لا يستكثر كثيرهم.
والإسراف: هو مجاوزة حدِّ الحقِّ، وهو إفراط وغلوٌّ، وضدّه: تقصير
وإقتار، و«مسرف» صفة ذمٌّ في العادة.

وينبغي أن يُؤدَّى الحقُّ الَّذي في الغلات إلى إمام المسلمين ليصرفه
إلى أهل الصدقات، ولهم أن يخرجوه إلى المساكين إذا لم يأخذهم الإمام
بذلك. فأما مقدار ما يجب من الزكاة والنصاب الَّذي يتعلّق به وصفة
الأرض الزكوية فقد بيّناه في كتب الفقه مستوفى، لا نطول بذكره الكتاب.
قوله تعالى:

وَمِنَ الْأَنْعَمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ
إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: العامل في قوله: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ قوله: ﴿أَنْشَأُ﴾ المتقدم، كأنّه
قال: وأنشأ لكم من الأنعام حَمُولَةً وَفَرْشًا.
وقيل في معنى: ﴿حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: ما رُوي عن ابن مسعود وابن عبّاس في إحدى الروايتين
والحسن في روايةٍ ومجاهد: أنّ الحمولة: كبار الإبل، والفَرْش: الصغار.
الثاني: ما رُوي عن الحسن في روايةٍ وقتادة والربيع والسّدي
والضّحّاك وابن زيد: أنّ الحمولة: ما حمل من الإبل والبقر، والفَرْش: الغنم.
الثالث: ما رُوي عن ابن عبّاس في روايةٍ أنّ الحمولة: كلّ ما حمل من
الإبل والبقر والخيّل والبغال والحمير، والفَرْش: الغنم. كأنّه ذهب إلى أنّه

(١) لجرير من قصيدة يمدح يزيد بن عبد الملك. راجع ديوان جرير: ص ٢٩٣. والهنيدة: اسم لكلّ مائة ناقة.

يدخل في الأنعام الحافر على الاتّباع.
و«الحُمولة»: لا واحد لها من لفظها، كالركوبة والجزورة [الجزولة].
و«الحُمولة» بضمّ الحاء: هي الأحمال، وهي الحُمول.
وإنما قيل للصغار: فَرُشٌ، لَأَمْرَيْنِ:

أحدهما: لاستواء أسنانها في الصغر والانحطاط، كاستواء ما يُفْتَرَشُ.
الثاني: من الفُرْش وهي الأرض المستوية التي يتوطأها الناس.
وقال الجُبائي في التفسير وأبو بكر الرازي في أحكام القرآن: إنَّ
الفَرَش ما يُفْتَرَش من البُسْطِ والزَّرَابِي. وهذا غلط قبيح جداً في اللغة.
وقوله: ﴿خُطَوَاتٍ﴾ يجوز فيه ثلاثة أوجه: بضمّ الخاء والطاء، وضمّ
الخاء وسكون الطاء، وضمّ الخاء وفتح الطاء. وفي معناه قولان:

أحدهما: ما يتخطى بكم الشيطان إليه من تحليل إلى تحريم، أو
تحريم إلى تحليل. الثاني: طرق الشيطان، فإنّه لا يسعى إلّا في عصيان.
وقوله: ﴿إِنَّهُ﴾ الهاء كناية عن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فيه إخبار من الله
أنّ الشيطان عدوٌّ للبشر ﴿مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر. وقيل في معنى ﴿مُبِينٌ﴾ قولان:
أحدهما: إنّهُ أبان عداوته لكم بما كان منه إلى أبيكم آدم حين أخرجه
من الجنة.

الثاني: بيّن العداوة، أي: لإظهاره ذلك في حربه وأوليائه من
الشياطين، هذا قول الحسن.

قوله تعالى:

ثُمَّ نَبِّئِ أَزْوَاجَ مِمَّنْ الصَّانِ أَتَيْنِ وَمِمَّنْ أَلْمَغِزِ أَتَيْنِ قُلْ ءَالِ الذِّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَم
الْأُنثَيْنِ أَمَا أَشْتَمَلْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٢﴾ آية
بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير إلّا ابن فليح وابن عامر إلّا الداجوني عن هشام وأهل البصرة «المَعَز» بفتح العين، الباقون بسكونها.

قال أبو عليّ: مَنْ قرأ بالفتح أراد الجمع بدلالة قوله: «مَنْ الضَّانَّ اثْنَيْنِ» ولو كان واحداً لم يسغ فيه هذا، ونصب «اثْنَيْنِ» على تقدير: وأنشأ ثمانية أزواج: أنشأ من الضَّانَّ اثْنَيْنِ ومن المَعَزَّ اثْنَيْنِ، ونظير «مَعَز» جمع «ماعِز»: خَادِمٌ وَخَدَمَ، وَطَالِبٌ وَطَلَّبَ، وَخَارِسٌ وَخَرَسَ، وقال أبو الحسن^(١): هو جمع على غير واحد، وكذلك «المِعْزَى» وحكى أبو زيد: «الأْمُعُوز» وأنشد:

كَالتَّيْسِ فِي أُمْعُوزِهِ الْمُرْبَلِ^(٢)

وقالوا: «المَعِيز» كالكلّيب. وَمَنْ سَكَّنَ العين فهو أيضاً جمع «ماعِز» كصاحب وصخب، وتاجر وتجر، وراكب وركب. وأبو الحسن يرى هذا الجَمْعُ مستمراً، ومن يرده في التصغير إلى الواحد، فيقول في تحقير «رَكَب»: رُوَيْكَبُون، وفي «تَجَر»: تُؤَيَّجَرُون، وسيبويه يراه اسماً من أسماء الجمع، وأنشد أبو عثمان حجةً لقول سيبويه:

بَنَيْتُهُ بِعُضْبَةٍ مِنْ مَالِيَا أَخْشَى رُكْبِيًّا أَوْ رُجَيْلًا عَادِيَا^(٣)
بالعين والغين عن غير أبي عليّ، فتحقيقه له على لفظه، من غير أن يرده إلى الواحد الذي هو فاعل، ويُلْحَقُ الواو والنون أو الياء والتون، يدلّ على أنّه اسم للجمع، وأنشد أبو زيد:

(١) وهو أبو الحسن الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص ٥٠٨.

(٢) وصدّره: أخلصه صنماً فاضاً مُحْمِلِجاً. لربيعه من مقروم الضبي. راجع النوار في اللغة: ص ٧٧ وفيه: المتربل.

(٣) لأحجّة بن الجلاح الراجز. ذكره في خزنة الأدب: ج ٢ ص ٢٣ وج ٦ ص ٢٥٤.

وَأَيْنَ رُكَّيبٍ وَاضِعُونَ رِحَالَهُمْ إِلَى أَهْلِ [نَارٍ مِنْ أَنْاسٍ بِأَسْوَدٍ] ^(١)
 وقال أبو عثمان: البقرة عند العرب نعجة، والظبية عندهم ماعزة،
 الدليل على ذلك قول ذي الرُّمَّة:

إِذَا مَا رَأَاهَا رَاكِبُ الصَّيْفِ لَمْ يَزَلْ يَرَى نَعْجَةً فِي مَرْتَعٍ أَوْ يُثْرِهَا
 مُوَلَّعَةً خَنْسَاءَ لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ يُدَمِّنُ أَجَوَافَ الْمِيَاهِ وَقَيْرُهَا ^(٢)
 قوله: «لم يزل يرى نعجة» يريد: بقرة، ألا ترى أَنَّهُ قَالَ: مُوَلَّعَةً خَنْسَاءَ،
 وَالْخَنْسُ والتوليع إِنَّمَا يَكُونَانِ فِي الْبَقَرِ دُونَ الظِّبَاءِ، وقوله: «ليست بنعجة»
 معناه: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ أَهْلِيَّةٍ، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَرِيدَ: أَنَّهَا لَيْسَتْ
 بِنَعْجَةٍ أَهْلِيَّةٍ، أَوْ: لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَرِيدَ: أَنَّهَا لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ، لِأَنَّكَ
 إِنْ حَمَلْتَهُ عَلَى هَذَا فَقَدْ نَفَيْتَ مَا أَوْجَبَهُ مِنْ قَوْلِهِ: لَمْ يَزَلْ يَرَى نَعْجَةً، وَإِذَا
 لَمْ يَجْزِ ذَلِكَ عَلِمْتَ أَنَّهُ أَرَادَ: لَيْسَتْ بِنَعْجَةٍ أَهْلِيَّةٍ، وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الظِّبِيَّةَ
 مَاعِزَةٌ قَوْلُ أَبِي ذُوَيْبٍ:

وَعَادِيَّةٌ تُلْقِي الشِّبَابَ كَأَنَّهَا تُيُوسُ ظِبَاءٍ مَخْصُهَا وَأَنْبِتَارُهَا ^(٣)
 فقوله: «تُيُوسُ ظِبَاءٍ» كقوله: تُيُوسُ مَعِزٍ، وَلَوْ كَانَتْ عَنْدهُمْ ضَائِنَةٌ
 لَقَالَ: كَأَنَّهَا كِبَاشٍ ظِبَاءٍ، وَالْوَقِيرُ: الشَّاةُ يَكُونُ فِيهَا كَلْبٌ وَحِمَارٌ فِي قَوْلِ
 الْأَصْمَعِيِّ.

قوله: «ثَمَانِيَةٌ أَزْوَاجٌ» مَنْصُوبٌ، لِأَنَّهُ بَدَلَ مَنْ «حَمُولَةٌ وَفَرَشَاءٌ»
 لِدُخُولِهِ فِي الْإِنْشَاءِ، وَتَقْدِيرُهُ: وَأَنْشَأَ حَمُولَةً وَفَرَشَاءَ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ «مَنْ
 الضَّأْنِ اثْنَيْنِ» نَصَبَ «اثْنَيْنِ» بِتَقْدِيرٍ: أَنْشَأَ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ، وَلَوْ رُفِعَ عَلَى

(١) مَا بَيَّنَّ الْمَعْقُوفَتَيْنِ لَمْ يَرِدْ فِي الْحَجَرِيَّةِ.

(٢) مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ يَصِفُ أَنْعَاماً. رَاجِعْ دِيَوَانَ ذِي الرُّمَّةِ: ص ٨٧.

(٣) أَنْشَدَهُ فِي اللِّسَانِ: مَادَّةُ «تَيْس».

تقدير: منها ماعِزٌ اثنان، كما تقول: رأيت القوم منهم قائم وقاعد، كان جائزاً. وإنما أجمل ما فصله في الاثنين للتقدير على شيء منه، لأنه أشد في التوبيخ من أن يكون دفعةً واحدة.

وقوله: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ يريد: ثمانية أفراد، لأن كل واحد من ذلك يسمّى زوجاً، والأنثى زوج، وإنما سُمّي بذلك لأنه لا يكون زوج إلا ومعه آخر له مثل اسمه، فلما دلّ على الاثنين من أقرب الوجوه وقع على طريقه، ومنه قول لبيد:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عَصِيَّهُ زَوْجٌ عَلَيْهِ كِلَّةٌ وَقِرَامُهَا^(١)

ومثل ذلك قولهم: «خَصَم» للواحد والاثنين، وقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ يعني: ذكر وأنثى، فالضَّأْنُ: الغنم ذوات الأصواف والأوبار، والمَعَزُ: الغنم ذوات الأشعار والأذنان القصَّار، وواحد الضَّأْنِ: ضائِن، كقولهم: تاجر وتَجَّر في قول الزجاج، والأنثى: ضائِنَة، وقال غيره^(٢): هو جَمْعٌ لا واحد له، ويُجْمَع: «ضئِين» كقولهم: عَبْدٌ وَعَبِيد، ويُقال فيه: «ضئِين» كما يقولون في «شَعْر»: شَعِير، وكذلك «ماعِز» و «مَعَز» إلا أنه يجوز فتحه لدخول حرف الحلق فيه، ويُجْمَع: «مَواعِز».

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أن المراد بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ أهليٌّ ووحشيٌّ وكذلك المَعَزُ والبَقَرُ ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ العِرابُ والبَحَاتِي. وإنما خصَّ هذه الثمانية أزواج، لأنها جميع الأنعام التي كانوا يحرمون منها ما يحرمونه ممّا تقدّم ذكره.

فإن قيل: إذا كان ما حرّمه معلوماً فلم عدل بهم في السؤال إلى غيره؟

(١) من معلقته المشهورة. راجع ديوان لبيد: ص ١٦٦.

(٢) وهو الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص ٥٠٧ - ٥٠٨.

قيل: على وجه المعارضة لهم على طريقة الحجاج، أي: إنكم بمنزلة من قال هذا، ولذلك وقع السؤال: على كذا أم كذا؟ وإن لم يتقدّم دعوى أن أحدهما كذا، لأنّهم في حكم هذا المدعى.

وقوله: ﴿الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم﴾ منصوب بـ ﴿حَرَّمَ﴾ والمعنى في قوله: ﴿الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَم الأُنثيين﴾: أجازكم التحريم فيما حرّمتم من السائبة والبحيرة والوصيلة والحام من الذكرين أم من الأنثيين، فالألف ألف استفهام والمراد به: التوبيخ، فلو قالوا: «من قَبِل الذَّكَرَ» حرّم عليهم كلّ ذكر، ولو قالوا: «من قَبِل الأُنثى» حرّم عليهم كلّ أنثى، ثمّ قال: ﴿أَمَّا اشتملت عليه أرحام الأُنثيين﴾ فلو قالوا ذلك حرّم عليهم الذكر والأنثى، لأنّ الرحم يشتمل عليهما، قال الحسن: معناه: ما حملت الرحم.

وقوله: ﴿تَبَوَّئِي بَعْلِمَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في ذلك.

وقوله: ﴿الذَّكَرَيْنِ﴾ دخلت ألف الاستفهام على ألف الوصل لتلّا يلتبس بالخبر، ولو أسقطت جاز، لأنّ «أم» تدخل على الاستفهام، وعلى هذا أجاز سيبويه قول الشاعر أن يكون استفهاماً:

فو الله ما أدري وإن كنتُ دارياً

شُعَيْبُ بْنُ سَهْمٍ أَم شُعَيْبُ بْنُ مِثْقَرٍ^(١)

أجاز تقديره: أشعيب. و «ما» في قوله: ﴿أَمَّا اشتملت﴾ في موضع نصب عطفاً على ﴿الأُنثيين﴾ وإنّما قال: ﴿الأُنثيين﴾ مثني، لأنّه أراد من الضّان والمعز.

(١) الكتاب: ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥ ونسبه إلى الأسود بن يَغْفَر التميمي، وفيه: «شُعَيْث» «ولعمري» بدل «فو الله».

قوله تعالى:

وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذَكَرْتُمْ أَنَّهُمُ الْإِنْسَانُ أَمْ الْإِنْسَانُ أَمْ آتَيْنِيهِ عَلَيْهِ أَزْهَامُ الْإِنْسَانُ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاهُ بِالْحَقِّ قُلْ أَطْلَعْتُكُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بَغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ آية بلا خلاف. أقول: قوله: ﴿ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين﴾ تفصيل لتمام الثمانية أزواج التي أجمعها في الآية الأولى. وقد بينّا معنى قوله: ﴿ءالذَكَرْتُمْ حَرَّمَ أَمْ الْإِنْسَانُ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ وأصل «الاشتمال»: الشُّمُولُ، تقول: شَمَلَهُمُ الأمرُ يَشْمُلُهُمْ شُمُولاً فهو شامل، ومنه: الشَّمَالُ لشمولها على ظاهر الشيء وباطنه بقوتها ولطفها، والشُّمُولُ: الخمر لاشتمالها على العقل، وقيل: لأن لها عَصْفَةً كعَصْفَةِ الشَّمَالِ.

وقوله: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ قام معادلة لقوله: ﴿ءالذَكَرْتُمْ﴾ وإنما قال ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ لأن طرق العلم: إما الدليل الذي يشترك العقل في إدراك الحق بها أو المشاهدة التي يختص بها بعضهم دون بعض، فإذا لم يكن واحد من الأمرين سقط المذهب. والمعنى: أعلِمْتُمْ ذلك بالسمع والكتب المنزلة فأنتم لا تقرّون بذلك أم شافهكم الله به فعلمتموه؟ فإذا لم يكن واحد منهما علم بطلان ما تذهبون إليه.

والوصية مقدّمة مؤكّدة فيما يفعل أو يترك، يقال: وصّاه يُوصّيه توصيةً، وأوصاه يُوصّيه إيصاءً، والوصيّ الموصى إليه.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ يعني: من أظلم لنفسه ممَّن يكذب عليه فيضيف إليه تحريم ما لم يحرمه وتحليل ما لم يحلّه ﴿يُضِلُّ النَّاسَ بَغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: عمِلَ عَمَلُ القاصِدِ إلى إضلالهم من أجل دعائه إلى

ما لا يثيق بصحته ممّا لا يؤمن أن يكون فيه هلاكهم وإن لم يقصد إضلالهم،
فلذلك قال: ﴿ليضلّ الناس بغير علم﴾ ثم أخبر ﴿إن الله لا يهدي﴾ إلى
الثواب ﴿القوم الظالمين﴾ لأنّهم مستحقّون للعقاب الدائم بكفرهم وضلالهم.
قوله تعالى:

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ
دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ
بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وحزمة ﴿تكون﴾ بالتاء ﴿ميتة﴾ بالنصب، وقرأ ابن
عامر بالتاء والرفع، الباقيون بالياء والنصب.

من قرأ بالياء ونصب «الميتة» جعل في ﴿يكون﴾ ضميراً ونصب
«الميتة» بأنّه خبر «كان» وتقديره: إلّا أن يكون ذلك أو الموجود ميتة.
ومن قرأ بالتاء ورفع «الميتة» رفعها بـ ﴿تكون﴾ و «تكون» من «كان»
التامة دون الناقصة التي تدخل على المبتدأ والخبر، وهذه القراءة ضعيفة،
لأنّ ما بعده ﴿أو دمًا مسفوحاً أو لحم خنزير﴾ بالعطف عليه، فلو كان
مرفوعاً لضعف ذلك. ومن قرأ بالتاء ونصب «الميتة» جعل في ﴿تكون﴾
ضمير «العين» أو «النفس» وتقديره: إلّا أن تكون النفس ميتة، ونصب
«الميتة» بأنّه خبر «كان».

أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: إنّّه لا يجد في ما
أوحى إليه شيئاً محرّماً إلّا هذه الأشياء الثلاثة، وقيل: إنّّه خصّ الثلاثة
أشياء بذكر التحريم مع أنّ غيرها محرّم نحو ما ذكره في المائدة^(١)

كالمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة، لأنّ جميع ذلك يقع عليه اسم «الميتة» وفي حكمها، فبين هناك على التفصيل، وهاهنا على الجملة. وأجود من ذلك أن يُقال: إنّ الله تعالى خصّ هذه الثلاثة أشياء تعظيماً لتحريمها، وبيّن ما عداها في موضع آخر.

وقيل: إنّ الله خصّ هذه الأشياء بنصّ القرآن، وما عداها بوحي غير القرآن. وقيل: إنّ ما عداها حرّم فيما بعد بالمدينة والسورة مكّية.

والميتة: عبارة عمّا كان فيه حياة فُقِدَت من غير تذكية شرعية. والدم المسفوح: هو المصبوب، يقال: سَفَحْتُ الدَّمَ وغيره أَشْفَحُهُ سَفْحاً إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: السِّفَاح: الزنا، لَصَبَّ الماء صَبّاً ما، والسَفْح والصَّب والإِراقة بمعنى. وإنّما خصّ المسفوح بالذكر، لأنّ ما يختلط بالدم منه ممّا لا يمكن تخليصه منه معفوٌّ مباح، وهو قول أبي مجلز وعكرمة وقتادة.

وقوله: ﴿أو لحم خنزير﴾ فإنّه وإن خصّ لحم الخنزير بالذكر، فإنّ جميع ما يكون منه من الجلد والشعر والشحم وغير ذلك محرّم. وقوله: ﴿فإنّه رجس﴾ يعني ما تقدّم ذكره، فلذلك كُنِيَ عنه بكناية المذكر، والرجس: العذاب أيضاً.

وقوله: ﴿أو فسقاً﴾ عطف على قوله ﴿أو لحم خنزير﴾ فلذلك نصبه، والمراد بالفسق: ﴿ما أهلّ لغير الله به﴾ يعني: ما لم يُذكر اسم الله عليه أو تُذكر الأصنام والأوثان، وسُمِّي ما ذكّر عليه اسم الوثن: فسقاً لخروجه عن أمر الله. وأصل «الإهلال» رَفَعَ الصوت بالشيء، ومنه: أهلّ الصبيُّ إذا صاح عند ولادته.

وقوله: ﴿فمن اضطرّ غير باغ ولا عادٍ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: غير طالبٍ بأكله التلذذ. والثاني: غير قاصِدٍ^(١) لتحليل ما حرّم الله.

وَرَوَى أصحابنا^(٢) في قوله: ﴿غير باع﴾ أنّ معناه: أن لا يكون خارجاً^(٣) على إمامٍ عادلٍ، أي: لا يتعدّى بتجاوز ذلك إلى ما حرّمه الله. وَرَوَى أصحابنا^(٤): أنّ المراد به: قطاع الطريق، فإنّهم غير مرخصين بذلك على حال.

والضرورة التي تُبيح أكل الميتة هي خوف التلف على النفس من الجوع. وإتّما قال عند التحليل للمضطرّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأنّ هذه الرخصة لأنّه غفور رحيم، أي: حكم بالرخصة كما حكم بالمغفرة، وفي ذلك بيان عن عِظَمِ موقع النعمة.

وقد استدلّ قوم بهذه الآية على إباحة ما عدا هذه الأشياء المذكورة. وهذا ليس بصحيح، لأنّ هاهنا محرّمات كثيرة غيرها: كالسباع وكلّ ذي ناب وكلّ ذي مخلب وغير ذلك، وكذلك أشياء كثيرة اختصّ أصحابنا بتحريمها: كالجرّي والمارماهي وغير ذلك^(٥) فلا يمكن التعلّق بذلك.

ويمكن أن يستدلّ بهذه الآية على تحريم الانتفاع بجلد الميتة، فإنّه داخل تحت قوله: ﴿أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ ويقوّيه قوله ﷺ: «لا ينتفع^(٦) من

(١) في الحجرية: غير واجد.

(٢) كالكليني في الكافي: ج ٦ ص ٢٦٥ ح ١ بسنده عن أحمد بن محمد بن أبي نصر عمّن ذكره؛

والعياشي في تفسيره: ج ١ ص ٧٤ ح ١٥٤ عن حمّاد بن عثمان كلّهما عن الصادق عليه السلام.

(٣) في الحجرية: إلّا [أن لا، ظ] يكون خارجاً.

(٤) كعلي بن إبراهيم القمي في تفسيره: ج ١ ص ٦٤.

(٥) كرواية الصدوق في العلل: ص ٥٦٢ ح ٢ بسنده عن سماعة بن مهران عن الصادق عليه السلام.

(٦) في الحجرية: لا تنتفعوا. والصواب ما أثبتناه.

الميتة بإِهَابٍ^(١) ولا عَصَبٍ^(٢).

فأما دلالة على أن الشعر والصوف والريش منها والناَب والعظم محرَّم فلا يدلُّ عليه^(٣) لأنَّ ما لم تحلَّ الحياة لا يُسمَّى ميتةً على ما مضى القول فيه. قوله تعالى:

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ
شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ
بِبَعْضِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٦﴾ آية إجماعاً.

أقول: أخبر الله تعالى أنَّه حرَّم على اليهود في أيام موسى كلَّ ذي ظُفْر، واختلفوا في معنى ﴿كلَّ ذي ظُفْرٍ﴾: فقال ابن عبَّاس وسعيد بن جبَّير ومجاهد وقتادة والسَّدي: إنَّه كلُّ ما ليس بمنفرج الأصابع، كالإبل والنَّعام والإوزَّ والبط.

وقال أبو عليّ الجُبَّائي: يدخل في ذلك جميع أنواع السِّباع والكلاب والسنانير وسائر ما يصطاد بظفره من الطير.

وقال البلخي: هو كلُّ ذي مَخْلَبٍ من الطائر، وكلُّ ذي حافرٍ من الدوابِّ، ويُسمَّى الحافر ظفراً مجازاً، كما قال الشاعر:

فَمَا رَقَدَ الْوِلْدَانُ حَتَّى رَأَيْتُهُ عَلَى الْبَكْرِ يَمْرِيهِ بَسَاقٍ وَحَافِرٍ^(٤)
فجعل الحافر موضع القدم. وأخبر تعالى: أنَّه كان حرَّم عليهم شُحُوم

(١) الإِهَاب: الجلد أو ما لا يدبغ منه.

(٢) أخرجه الكليني في الكافي: ج ٦ ص ٢٥٨ ح ٦ بسنده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام.

(٣) ويقويه الروايات المستفيضة، راجع الوسائل: ج ١٦ ص ٣٦٤ باب ما لا يحرم الانتفاع به من الميتة.

(٤) لجَبَّيْنِهَا الأسدِي من أبيات يصف ضيفاً طارِقاً. راجع اللسان: مادة «حفر».

البقر والغنم من التَّزْبِ^(١) وشَحْم الكُلَى، وغير ذلك ممّا في أجوافها، واستثنى من ذلك بقوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ ما حملته ظهورها فإنّه لم يحرمه، واستثنى أيضاً ما على الحَوَايا من الشَّحْم فإنّه لم يحرمه.

واختلفوا في معنى «الحَوَايا» فقال ابن عباس والحسن وسعيد بن جبّير وقتادة ومجاهد والسُّدّي: هي المباعر. وقال ابن زيد: هنّ بنات اللَّبَن. وقال الجُبّائي: الحَوَايا: الأمعاء التي عليها الشَّحْم من داخلها.

وحوايا: جمع حَوِيَّةٍ وَحَاوِيَّةٍ، وقيل في واحده: حَاوِيَاءٌ - في قول الزجاج - على وزن: راضِعات وَرَوَاضِع، وضاربة وضَوَارِب، ومن قال: «حَوِيَّة» قال: وزنه «فَعَائِل» مثل: سفينة وسَفَائِن في الصحيح، وهي ما يجري^(٢) في البطن فاجتمع واستدار، ويسمّى بنات اللَّبَن والمباعر والمرابض وما فيها الأمعاء بذلك.

واستثنى أيضاً من جملة ما حرّم ﴿ما اختلط بعظم﴾ وهو شَحْم الجَنْب والآلية لأنّه على العُضْصُص، في قول ابن جُرَيْج والسُّدّي. وقال الجُبّائي: الآلية تدخل في ذلك لأنّها لم تُشْتَن، وما اعتدَّ بعظم العُضْصُص.

وموضع ﴿الحَوَايا﴾ من الإعراب يحتمل أمرين: أحدهما: قول أكثر أهل العلم: إنّه رفع عطفاً على «الظُّهُور» على تقدير: وما حَمَلَت الحَوَايا. الثاني: نصب عطفاً على ما في قوله: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾.

فأمّا قوله: ﴿أَوْ مَا اختلط بعظم﴾ نسقاً على ما «حرّم» لا على الاستثناء، والتقدير على هذا القول: حرّمنا عليهم شحومهما أو الحَوَايا أو

(١) الرّب: الشحم الرقيق الذي على الكرش والإمعاء. (لسان العرب).

(٢) في الحجرية: يجري [يحوي، خ].

ما اختلط بعظمٍ، إلّا ما حَمَلَتِ الظُّهُورُ فَإِنَّهُ غيرَ محرّمٍ.
و ﴿أَوْ﴾ دخلت على طريق الإباحة، كقوله: ﴿وَلَا تُطْعَمُوا مِنْهُمْ آيْمًا أَوْ كُفُورًا﴾^(١) والمعنى: اغصِ هذا واعصِ هذا، فَإِنَّ جميعهم أهلٌ أن يُعصى، ومثله: جالسِ الحسن أو ابن سيرين، أي: جالسِ أيُّهما شئت.

وهذه الأشياء وإن كان الله تعالى حرّمها على اليهود في شرع موسى فقد نَسَخَ تحريمها على لسان محمد ﷺ وأباحها، وتدّعي النصارى أن ذلك نُسِخَ في شرع عيسى عليه السلام ولسنا نعلم صحّة ما يقولونه.

وقوله: ﴿ذلك جزيناهم ببغيهم﴾ معناه: أنا حرّمنا ذلك عليهم عقوبةً لهم على بغيهم.

فإن قيل: كيف يكون التكليف عقاباً وهو تابع للمصلحة، ومع ذلك فهو تعريض للشواب؟

قلنا: إنّما سمّاه عقوبةً لأنّ عظيم ما أتّوه من الإجمام والمعاصي اقتضى تحريم ذلك وتغيّر المصلحة وحصول اللطّف فيه، فلذلك سمّاه عقوبة، ولولا عِظَمُ جُرْمِهِمْ لما اقتضت المصلحة ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ يعني: فيما أخبرنا به من تحريم ذلك على اليهود فيما مضى، وأنّ ذلك عقوبة لأوائلهم ومصلحة لمن بعدهم إلى وقت النسخ.

وحُكِيَ عن ابن عُلَيَّة أنّه كان يقول: إنّ ما يذبحه اليهود لا يجوز أكل شحمه وإن جاز أكل لحمه، لأنّ الشحوم كانت حراماً عليهم.

وعندنا: أنّ ما يذبحه اليهود لا يجوز استباحة شيء منه، وهو بمنزلة

الميتة، غير أن الذي ذكره غير صحيح، لأنه يلزم عليه أنه لو نحر اليهود جملاً أن لا يجوز أكله، لأنه كان حراماً عليهم، وذلك باطل عنده.

قوله تعالى:

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾
آية بلا خلاف.

أقول: المعنى بقوله: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: قال مجاهد والسدي: إنهم اليهود، لأنهم زعموا أنهم حرّموا الثرؤب، لأن إسرائيل حرّمها على نفسه فحرّموها هم أتباعاً له دون أن يكون الله حرّم ذلك على لسان موسى.

الثاني: إنه يرجع إلى جميع المشركين - في قول الجبائي وغيره - على ظاهر الآية، فقال الله لنبيه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ يا محمد في أنني حرّمت ذلك على اليهود على لسان موسى ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ واقتضى ذكر الرحمة أحد أمرين:

[الأول]^(١): أنه برحمته أمهلهم مع تكذيبهم بالمؤاخذه عاجلاً، في قول أبي علي الجبائي. الثاني: أنه ذكر ذلك ترغيباً لهم في ترك التكذيب وتزهيداً في فعله.

وإنما قابل بين لفظ الماضي في قوله: ﴿كَذَّبُوكَ﴾ بالمستقبل في قوله: ﴿فَقُلْ﴾ لتأكيد وقوع القول بعد التكذيب، إذ كونه جواباً يدل على ذلك. و «ذو» بمعنى: صاحب، والفرق بينهما: أن أحدهما يصح أن يضاف إلى المضمّر ولا يصح في الآخر، لأن «ذو» وصلة إلى الصفة بالجنس،

(١) لم يرد في الحجرية.

ولذلك جُعِلَ ناقصاً لا يقوم بنفسه دون المضاف إليه، والمضمر ليس بجنس ولا يصح أن يُوصَفَ به.

وقوله: ﴿لَا يَرُدُّ بَأْسَهُ﴾ معناه: لا يمكن أحداً أن يردّه عنهم، وهو أبلغ من قوله: بأسه نازل بالمجرمين، لأنّه دلّ على هذا المعنى وعلى أن أحداً لا يمكنه ردّه.

وقوله: ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمَجْرَمِينَ﴾ معناه: أن أحداً لا يتمكن من ردّ عقاب الله عن العصاة المستحقّين للعقاب مع أنّه تعالى ذو رحمة واسعة. قوله تعالى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى نبيه ﷺ: بأنّ هؤلاء المشركين سيحتجّون في إقامتهم على شركهم وعلى تحريمهم ما أحله الله من الأنعام التي تقدّم وصفها بأن يقولوا: ﴿لو شاء الله﴾ أن لا نفعل نحن ذلك ولا نعتقده ولا آباؤنا، أو أراد منا خلاف ذلك ﴿ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرّمنا﴾ شيئاً من ذلك، فكذبهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ ومعناه: مثل هذا التكذيب الذي كان من هؤلاء في أنّه منكر ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ وإنّما قال: ﴿كذلك﴾ لتقصّي الخبر، ولو قال: هذا [كذا، ظ] لجاز، لأنّه قريب بعد الأوّل، و «كذلك» أحسن، لأنّ ما فيه من تأكيد الإشارة تغني عن الصفة.

وحكي أنّه قرئ: ﴿كذب الذين﴾ بالتخفيف ^(١) فمن خفف أراد: أن

هؤلاء كاذبون كما كذب الذين من قبلهم على الله بمثله، ومن قرأ بالتشديد، فلاّتهم بهذا القول كذبوا رسول الله لأنّهم قالوا له: إنّ الله أراد منا ذلك وشاءه، ولو أراد غيره لما فعلناه، مكذّبين الرسول ﷺ كما كذب من تقدّم أنبياءهم فيما أتوا به من قبل الله.

ثمّ يبيّن بقوله: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾: أنّ ما قالوه باطل وكذب على الله، لأنّه لو كان صحيحاً لمّا ردّه عليهم.

ثمّ أكّد تكذيبهم بقوله: ﴿إنّ تتّبعون إلّا الظنّ﴾ أي: ليس يتّبعون إلّا ظناً من غير علم ﴿وإنّ أنتم إلّا تخرّصون﴾ يعني: تكذبون، والخرّص: الكذب، كقوله: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾^(١).

وفي هذه الآية أدلّ دلالة على أنّ الله تعالى لا يشاء المعاصي والكفر، وتكذيب ظاهر لمن أضاف ذلك إلى الله مع قيام أدلة العقل على أنّه تعالى لا يريد القبيح، لأنّ إرادة القبيح قبيحة، وهو لا يفعل القبيح، ولأنّ هذه صفة نقص، فتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

وقوله: ﴿حتّى ذاقوا بأسنا﴾ معناه: حتّى ذاقوا عذابنا، وأراد به حلول العذاب بهم فجعل وجدانهم لذلك ذوقاً مجازاً.

وجاز قوله: ﴿ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ ولم يجز أن يقال: قُمتنا وزيد، لأنّ العطف على المضمر المتّصل لا يحسن إلّا بفصل، فلمّا فصلت ﴿لا﴾ حسن، كما حسن: ماقدما [قمتنا، ظ] ولا زيد كان كذلك، لأنّ الضمير المتّصل يغيّر له الفعل في «فعلت» فيصير كجزء منه.

فإن قيل: إنّما أنكر الله تعالى عليهم هذا القول لأنّهم جعلوا هذا القول

حجة في إقامتهم على شركهم، فأعلم الله عز وجل أن ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا﴾ ولم ينكر عليهم أنهم قالوا: الشرك بمشيئة الله، ولو كان منكراً لذلك لقال: «كذلك كذب الذين» بتخفيف الدال.

قلنا: لا يجوز ذلك، لأنه تعالى بين أنهم كذبوا في هذا القول بقوله: ﴿وإن أنتم إلا تخرون﴾ أي: تكذبون، فأما «كذبوا» فقد حكينا أنه قرئ بالتخفيف، ومن شدد الدال فلأن تكذيب الصادق كذب، وهو يدل على الأمرين.

فإن قالوا: إنما عابهم لأنهم كانوا متهزئين بهذا القول لا معتقدين ولا متدينين.

قلنا: المعروف من مذهبهم خلافه، لأنهم كانوا يعتقدون أن جميع ما يفعلونه قربة إلى الله، وأن الله تعالى أراده وأخبر عنه، فكيف يكونون متهزئين؟! على أن الهازئ بالشيء لا يسمى كاذباً فكيف سمّاهم الله كاذبين؟! على أنه إذا كان كل ما يجري بمشيئته فلا يجب أن ينكر على أحد ما يعتقد، لأنه اعتقد ما شاء الله، ومن فعل ما شاء كان مطيعاً له، لأن الطاعة هي امتثال الأمر والمراد منه، وهذا باطل بالإجماع.

فإن قيل: إنما عاب الله المشركين بهذه الآية لأنهم قالوا ذلك حدساً وظناً لا عن علم، وذلك لا يدل على أنهم غير صادقين، وقد يجوز أن يكون الإنسان صادقاً فيما يخبر به ويكون قوله صادراً عن حدس وعن ظن.

قلنا: لو كان الأمر على ما قلتم لما كانوا كاذبين إذا كان مخبر ما أخبروا به على ما أخبروا، وقد كذبهم الله في إخبارهم بقوله: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ وبقوله: ﴿إن أنتم إلا تخرون﴾ على أن من ظن شيئاً

فأخبر عنه لا يُوصَف بأنه كاذب وإن كان على خلاف ما ظنّه فكيف إذا كان على ما ظنّه؟!

قوله تعالى:

قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين احتجوا بما قالوه: إن الله لو شاء منهم ذلك لما كان الله ﴿الحجة البالغة﴾ يعني: الحجة التي احتج بها على الكافرين في الآية الأولى، وجميع ما احتج به على عباده في صحة دينه الذي كلّفهم إياه. ومعنى ﴿البالغة﴾: التي تبلغ قطع عذر المحجوج، وتزيل كل لبس وشبهة عمن نظر فيها واستدل أيضاً بها، وإنما كانت حجة الله صحيحة بالغة لأنه لا يحتج إلا بالحق وما يؤدي إلى العلم.

وقوله: ﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: لو شاء لألجأ الجميع إلى الإيمان، غير أن ذلك ينافي التكليف.

الثاني: أنه لو شاء لهداهم إلى نيل الثواب ودخول الجنة. ويبين بذلك قدرته على منافعهم ومضارهم، ويبين أنه لم يفعل ذلك لأنه يوجب زوال التكليف عنهم، والله تعالى أراد بالتكليف تعريضهم للثواب الذي لا يحسن الابتداء به. ولو كان الأمر على ما قالته المجبرة من أن الله تعالى شاء منهم الكفر لكانت الحجة للكفار على الله من حيث فعلوا ما شاء الله، وكان يجب أن يكونوا بذلك مطيعين له ولا تكون الحجة عليهم من حيث إنه خلق فيهم الكفر وأراد منهم الكفر، فأياً حجة مع ذلك؟!

قوله تعالى:

قُلْ هَلُمْ شُهَدَاءُ كُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِمَا نَنْتَهِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَغْدِرُونَ ﴿١٥٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى هذه الآية: الحجاج بأن الطريق الموصل إلى صحة مذهبهم منسّد، إذ لم يثبت من جهة حجة عقل ولا سماع، وما لم يصح أن يثبت من أحد هذين الوجهين باطل لا محالة، لأن ما لا يصح أن يُعلم فاسد لا محالة.

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار الذين تقدّم وصفهم «هلمّوا» ومعناه: هاتوا، و«هلمّ» كلمة موضوعة للجماعة بُني مع «ها» فصار بمنزلة الصوت، نحو: «صه» قال الأعشى:

وكان دَعَا قَوْمَهُ دَعْوَةً هَلَمَّ إِلَى أَمْرِكُمْ قَدْ صُرِمٌ^(١)

ومن قال: هلمّوا، فإنه لم يبينه مع «ها» بل قدره على الانفصال. والأوّل أفصح لأنّها لغة القرآن، وهي لغة أهل الحجاز، وأهل نجد يقولون: هَلَمَّ وَهَلَمَّا وَهَلَمُوا وَهَلَمِّي وَهَلَمِّيَا وَهَلُمْنِ، قال سيبويه^(٢): أصله: «ها» ضمّ إليه «لم» فَبَيَّ قَبِيلٌ: هَلَمَّ، و«هات» فصل لم يتصل بما يُبنى معه، فلذلك لا بدّ أن يقال للجماعة: هاتوا. و«هلمّ» لفظ يتعدّى تارةً، وأخرى لا يتعدّى، فإذا كانت بمعنى «هاتوا» فإنّها تتعدّى، مثل قوله: ﴿هَلَمَّ شُهَدَاءُكُمْ﴾ وإذا كانت بمعنى «تعالوا» نحو: ﴿هَلَمَّ إِلَيْنَا﴾^(٣) فإنّها لا تتعدّى، ونظيره: «عليك زيداً» يتعدّى إلى واحد، و«عليّ زيداً» يتعدّى إلى اثنين

(١) من قصيدة يمدح قيس بن معد يكرب. راجع ديوان الأعشى: ص ٢٠٢.

(٢) انظر كتاب سيبويه: ج ٣ ص ٥٢٩.

(٣) الأحزاب: ١٨.

بمعنى: أولني زيداً، ومثله من الفعل: رَجَعَ وَرَجَعْتَهُ، ولا يجوز في «هَلَمْ» الضَّم والكسر، كما يجوز في «رُدَّ» و «رُدِّ». قال الزجاج: لأنها لا تتصرف على طريقة: فَعَلَ يَفْعَل، مع ما اتَّصلت بها من هاء.

ومعنى الآية: هاتوا شهداءكم الَّذِينَ يشهدون بصحة ما تدعون من أن الله حَرَّمَ هذا الَّذي ذكرتموه.

وقوله: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ﴾ فَإِنْ قِيلَ: كيف دعاهم إلى الشهادة مع أنهم إذا شهدوا لم تُقْبَل شهادتهم؟! قلنا عنه جوابان:

أحدهما: قال أبو علي: لأنهم لم يشهدوا على الوجه، دُعُوا أَنْ يُشْهِدُوا بَيِّنَةً عَادِلَةً تقوم بها الحجة.

الثاني: شهداء من غيرهم، ولن يجدوا ذلك، ولو وجدوه ما وجب قبول شهاداتهم، لأنها لا ترجع إلّا إلى دعوى مجردة. ولكن المذهب مع هذه الحال أبعد عن الصواب، لأنهم لا يجدون من يشهد لهم، وهو قول الحسن. وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ نهي من الله لنبيه والمراد به: أمته أن يعتقدوا مذهب مَنْ اعتقد مذهبه هوى، ويمكن اتّخاذ المذهب هوىً من وجوه:

أحدها: هوى مَنْ سبق إليه فقلّده فيه. والثاني: أن يدخل عليه شبهة فيتخيّله بصورة الصحيح مع أن في عقله ما يمنع منه. ومنها: أن يقطع النظر دون غايته، للمشقة التي تلحقه فيعتقد المذهب الفاسد. ومنها: أن يكون نشأ على شيء وألفه واعتاده فيصعب عليه مفارقتها. وكلّ ذلك متميّز ممّا استحسّنه بعقله.

وإنما قال: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وكلّهم

كفَّار ليفضَّل وجوه كفرهم، لأنَّ منه: ما يكون مع الإقرار بالآخرة كحال أهل الكتاب، ومنه: ما يكون مع الإنكار كحال عبدة الأوثان.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَرْبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ معناه: يعدلون به عن الحقِّ لا تتَّخِذْهُمْ مع الله شركاء وإضافتهم إليه ما لم يقله وافترائهم عليه.

وفي الآية دلالة على فساد التقليد، لأنَّه لو كان التقليد جائزاً لما طالب الله الكفَّار بالحجَّة على صحَّة مذهبهم، ولما كان عجزهم عن الإتيان بها دلالة على بطلان ما ذهبوا إليه.

قوله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ يُلَاقُونَهَا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَأْتِ اللَّهَ بَعُثَّةَ الْمُغْتَابِ وَيُنْفِثُ فِي السَّمُومِ غَاسِقَاتٍ ذَاتَ عُيُنٍ يُنْفِثُنَّ فِي قُلُوبِ النَّاسِ كُفْرًا هَلْ يَتَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٥١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: لما حكى الله تعالى عن هؤلاء القوم أنَّهم حرَّموا ما لم يحرمه الله وأحلَّوا ما حرَّمه، قال لنبيِّه: ﴿قل﴾ لهم ﴿تعالوا﴾ حتَّى أبين لكم ما حرَّمه الله.

و ﴿تعالوا﴾ معناه: ادنوا، وهو مشتقٌّ من العلوِّ، وتقديره: كأنَّ الداعي في المكان العالي وإن كانا في مستوٍ من الأرض، كما يقال للإنسان: ارتفع إلى صدر المجلس.

وقوله: ﴿أتل﴾ مشتقٌّ، والتلاوة مثل: القراءة، والمتلوُّ مثل: المقروء، فالمتلوُّ هو الكلام الأوَّل، والتلاوة هي الثاني منه على طريق الإعادة، وهو مثل: الحكاية والمحكِّي. وقوله: ﴿أتل﴾ مجزوم بأنَّه جواب الأمر، وعلامة الجزم فيه حذف الواو، ومن شأن الجازم أن يأخذ الحركة إذا

كانت على الحرف، فإن لم تكن هناك حركة أخذ نفس الحرف.
 وقوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ﴾: ﴿مَا﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَتْلُو﴾ وهي
 بمعنى «الذي» وتقديره: أتلُ الذي حَرَّمَ رَبِّكُمْ عليكم: ﴿أَنْ لَا تَشْرَكُوا بِهِ
 شَيْئاً﴾. ويجوز أن يكون نصباً بـ ﴿حَرَّمَ﴾ وتقديره: أي شيء حَرَّمَ رَبِّكُمْ،
 لأنَّ «أَتْلُو» بمنزلة: أقول.

وقوله: ﴿أَنْ لَا تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئاً﴾ يحتمل موضع ﴿أَنْ﴾ ثلاثة أوجه
 من الإعراب:

أحدها: الرفع، على تقدير: ذلك أن لا تشرکوا به شيئاً. والثاني:
 النصب، على تقدير: أوصى أن لا تشرکوا به شيئاً^(١).

وقيل فيه وجه رابع: أن يكون نصباً بـ ﴿حَرَّمَ﴾ وتكون ﴿لَا﴾ زائدة،
 وتقديره: حَرَّمَ رَبِّكُمْ أَنْ تَشْرَكُوا بِهِ شَيْئاً، كما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِلَّا
 تَسْجُداً﴾^(٢) ونظائر ذلك، قد قدّمنا طرفاً منها.

وموضع ﴿تَشْرَكُوا﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: النصب بـ ﴿أَنْ﴾. الثاني: الجزم بـ ﴿لَا﴾ على النهي.

وقال أبو جعفر عليه السلام: «أدنى الشرك الرياء».

وقوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ العامل فيه [«أمر» أي]^(٣) أمر بالوالدين

إحساناً، أو: أوصى بالوالدين إحساناً، ودليله من وجهين:

أحدهما: أنَّ في «حَرَّمَ كذا» معنى: أوصى بتحريمه، وأمر بتجنبه.

الثاني: «ذلكم وصاكم به».

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ عطف بالنهي على الخبر، لأنَّ

(٢) الأعراف: ١٢.

(١) كذا، ولا يوجد الوجه الثالث.

(٣) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجريّة.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ نهي، وقوله: «أوصى ألا تشركوا به شيئاً» و«أوصى بالوالدين إحساناً» خبر، وجاز ذلك كما جاز في قوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمَشْرِكِينَ﴾^(١) وقال الشاعر:

حَجَّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمَى الْأَعْبُدَا أَنْ لَا تَرَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدَا
وَلَا تَمُشِ بِفَضَاءٍ بَعْدَا وَلَا يَزُلْ شَرَابُهَا مُبَرِّدَا^(٢)

والإملاق: الإفلاس من المال والزداد، يُقال: أُمْلِقَ إملاقاً ومنه: المَلَق، لأنه اجتهد في تقرب المفلس للطمع في العطية، وقال ابن عباس وقتادة والسُّدِّي وابن جُرَيْج والضَّحَّاك: الإملاق: الفقر، نهاهم الله أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر، وقال: ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ نهي عن الفواحش وهي القبائح، وقيل: الفاحش: العظيم القبح، و«القبيح» يقع على الصغير والكبير، لأنه يقال: القرد قبيح الصورة، ولا يقال: فاحش الصورة، وضد القبيح: الحسن، وليس كذلك «الفاحش».

قال الرُّمَّاني: ويدخل في الآية النهي عن الصغير، لأنَّ قرب الفاحش عمل الصغير من القبيح.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال ابن عباس والضَّحَّاك والسُّدِّي: كانوا لا يرون بالزنا بأساً سراً، ويمنعون منه علانية، فَهَيَّ الله عنه في الحالتين.

الثاني: لئلاَّ يظنَّ ويتوهم أنَّ الاستبطان جائز. وقال أبو جعفر عليه السلام: «ما ظهر: هو الزنا، وما بطن: المخالعة».

وقيل^(١): معناه: ما علن وما خفي، من جميع أنواع الفواحش، وهو أعمّ فائدة.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ فالنفس المحرّم قتلها: هي نفس المسلم والمعاهد دون الكافر الحربي، والحقّ الذي يُشْتَبَح به قتل النفس المحرّمة ثلاثة أشياء: قود بالنفس الحرام، والزنا بعد إحصان، والكفر بعد الإيمان.

وقوله: ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ بِهِ﴾ خطاب لجميع الخلق ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ معناه: لكي تعقلوا عنه ما وصاكم به فتعملوا به.
قوله تعالى:

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفَ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر: ﴿تذكرون﴾ بتخفيف الذال حيث وقع، الباقر بالتشديد.

قال سيبويه: ذكرته ذكراً مثل: شرباً. قال أبو علي: «ذكر» فعل يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله: ﴿فأذكروني أذكركم﴾^(٢) فإذا ضاعفت العين تعدى إلى مفعولين، كقولك: ذكرته أباه، قال الشاعر:

يُذَكِّرُنِيكَ حَنِينُ الْعَجُولِ وَنَوْحُ الْحَمَامَةِ تَدْعُو هَدَيْلًا^(٣)
فإن نقله بالهمزة كان كنقله بالتشديد، وتقول: ذكرته فتذكر، لأنّ «تذكر» مطاوع «فعل» كما «تفاعل» مطاوع «فاعل» قال تعالى: ﴿إِذَا

(٢) البقرة: ١٥٢.

(١) قاله الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٦١.

(٣) للعبّاس بن مرداس الصحابي. راجع خزانة الأدب: ج ٣ ص ٢٩٩.

مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا ﴿١﴾ وَقَدْ تُعَدَّى «تَفَعَّلْتُ» قَالَ الشَّاعِرُ:

تَذَكَّرْتُ أَرْضاً بِهَا أَهْلُهَا
وَأُنْشَدَ أَبُو زَيْدٍ:

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى لَاتَ حِينَ اذْكَارِهَا

وَقَدْ حُنِّيَ الْأَصْلَابُ ضُلٌّ بِتَضْلَالٍ (٢)

فَقَالَ: اذْكَارِهَا، كَمَا قَالَ ﴿وَتَبَيَّنَلْ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً﴾ (٣) وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا

لَا يُحْصَى مِمَّا لَا يَجِيءُ الْمَصْدَرُ عَلَى «فَعَلَةٍ» وَجَاءَ الْمَصْدَرُ عَلَى «فَعَلَى»

بِأَلْفِ التَّأْنِيثِ، فَقَالُوا: ذَكَرَى، وَقَالُوا فِي الْجَمْعِ: الذِّكْرُ، فَجَعَلُوهُ بِمَنْزِلَةِ:

سِدْرَةٍ وَسِدْرٍ، وَقَالُوا: «الذِّكْرُ» بِالذَّالِ غَيْرِ الْمَعْجَمَةِ - حَكَاهُ سَيَبَوِيهِ (٤) -

وَالْمَشْهُورُ بِالذَّالِ.

فَمَنْ قَرَأَ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ أَرَادَ «يَتَذَكَّرُونَ» وَيَأْخُذُونَ بِهِ وَلَا يَطْرَحُونَهُ،

وَأَدْغَمَ التَّاءَ فِي الذَّالِ، وَالْمَعْنَى: يَتَذَكَّرُونَ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ

أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ﴾ (٥) أَيِ: يَتَفَكَّرُ، وَقَالَ: ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ﴾ (٦) مَعْنَاهُ: أَوَّلًا

يَتَفَكَّرُ، وَقَالَ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾ (٧) أَيِ: لِيَتَفَكَّرُوا فِيهِ. وَمَنْ قَرَأَ

بِتَخْفِيفِ الذَّالِ أَرَادَ: لِكَيْ يَذْكُرُوهُ وَلَا يَنْسُوهُ فَيَعْمَلُوا بِهِ. وَالْقَرَاءَتَانِ

مُتَقَارِبَتَانِ، غَيْرُ أَنْ هَذَا حَذَفَ التَّاءَ الْأُولَى، وَالْأَوَّلُونَ أَدْغَمُوا التَّاءَ فِي الذَّالِ،

وَالْمَعْنَى فِيهَا: لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ.

هَذِهِ الْآيَةُ عَطَفَ عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى وَأَوْصَى بِهِ، فَنَهَى فِي

هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالتَّيِّمِ هِيَ أَحْسَنُ، وَالْمَرَادُ بِالْقُرْبِ:

(١) الْأَعْرَافُ: ٢٠١. (٢) نَسَبَهُ أَبُو زَيْدٍ إِلَى عَمْرِو بْنِ شَاسٍ. رَاجِعْ نَوَادِرِ اللُّغَةِ: ص ٤١.

(٣) الْمَزْمَلُ: ٨. (٤) فِي الْكِتَابِ: ج ٤ ص ٤٧٧.

(٥) الْفِرْقَانُ: ٦٢. (٦) مَرْيَمُ: ٦٧. (٧) الْفِرْقَانُ: ٥٠.

التصرّف فيه، وإنّما خصّ اليتيم بذلك وإن كان واجباً في كلّ أحدٍ لأنّ اليتيم لما كان لا يدفع عن نفسه ولا له والد يدفع عنه، فكان الطمع في ماله أقوى، تأكّد النهي في التصرف في ماله.

وقوله: ﴿إِلَّا بِأَتِي هِيَ أَحْسَن﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: حفظه عليه إلى أن يكبر فيسلم إليه. وقيل: معناه: تسميره بالتجارة، في قول مجاهد والضحاك والسدي. والثالث: ما قاله ابن زيد: أن يأخذ القيمّ عليه بالمعروف دون الكسوة.

وقوله: ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ اختلفوا في حدّ الأشدّ:

فقال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك وعامر الشّعبي: هو الحُلُم. وقال السّدي: ثلاثون سنة. وقال قوم: ثماني عشرة سنة، لأنّه أكثر ما يقع عندهم البلوغ واستكمال العقل. وقال قوم: إنّه لا حدّ له، وإنّما المراد به: حتّى يكمل عقله ولا يكون سفيهاً يُجبر عليه.

والمعنى: حتّى يبلغ أشده فيسلم إليه ماله أو يأذن في التصرف في ماله، وحذف لدلالة الكلام عليه، وهذا أقوى الوجوه.

وواحد «الأشدّ» قيل فيه قولان:

أحدهما: «شدّ» مثل: «أضّر» جمع «ضَرَّ» و «أشدّ» جمع «شدّ». والشّدّ: القوّة، وهو استحكام قوّة شبابه وسنّه، كما «شدّ النهار»: ارتفاعه. وحكى^(١) الحسين بن عليّ المغربي عن أبي أسامة: أن واحده: «شِدّة» مثل: نعمة وأنعم.

وقال بعض البصريّين: «الأشدّ» واحدٌ مثل: الأثك^(٢). ومن قال: إنّ

(١) وهذا هو القول الثاني. (٢) حكاها الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٦٢، والأثك: الرصاص.

واحد «شَدَّ» استدَلَّ بقول عَنَتْرَة:

عَهْدِي بِهِ شَدَّ النَّهَارَ كَأَنَّمَا خُضِبَ الْبَنَانُ وَرَأْسُهُ بِالْعِظْلَمِ^(١)

هكذا رواه المفضل الضبي. وقال الآخر:

يُطِيفُ بِهِ شَدَّ النَّهَارِ طَعِينَةً طَوِيلَةً أَنْقَاءَ الْيَدَيْنِ سَحُوقُ^(٢)

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر من الله بتوفية كيل ما يُكَال وتوفية وزن ما يُوزَن ﴿بِالْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل، وفاءً من غير بَخْس. وقوله: ﴿لَا نَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾ معناه هنا: أَنَّهُ لَمَّا كَانَ التَّعْوِيلُ فِي الْوِزْنِ وَالْكَيْلِ عَلَى التَّحْدِيدِ مِنْ أَقَلِّ الْقَلِيلِ يَتَعَذَّرُ، بَيِّنَ أَنَّهُ لَا يُلْزَمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا الاجْتِهَادُ فِي التَّحَرُّزِ.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يعني: قولوا الحقَّ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ على ذي قرابة لكم، وإِنَّمَا خَصَّ الْقَوْلَ بِالْعَدْلِ دُونَ الْفِعْلِ لِأَنَّ مَنْ جَعَلَ عَادَتَهُ الْعَدْلَ فِي الْقَوْلِ دَعَاهُ ذَلِكَ إِلَى الْعَدْلِ فِي الْفِعْلِ، لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ أَكْدِ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ وَالْبَوَاعِثِ عَلَيْهِ.

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ قيل في معنى «العهد» هاهنا قولان: أحدهما: كُلُّ مَا أَوْجِبَهُ عَلَى الْعَبْدِ فَقَدْ عَهْدَ إِلَيْهِ بِإِجَابِهِ عَلَيْهِ وَتَقْدِيمِ الْقَوْلِ فِيهِ وَالِدَلَالَةِ عَلَيْهِ. الثاني: قَالَ أَبُو عَلِيٍّ: «عَهْدُ اللَّهِ» الْحَلْفُ بِاللَّهِ، فَإِذَا حَلَفَ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَجَبَ عَلَيْهِ الْوَفَاءُ.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: لئَلَّا تَغْفَلُوا عَنْهُ فَتَتْرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ وَالْقِيَامَ بِمَا يُلْزَمُ مِنْهُ. الثاني: لَتَتَذَكَّرُوا كُلَّ مَا يُلْزَمُكُمْ بِتَذَكُّرِ هَذَا فَتَعْمَلُوا بِهِ.

(١) من مَعْلَقَتِهِ الْمَشْهُورَةِ. رَاجِعْ دِيْوَانَ عَنَتْرَةِ: ص ٦٤ وفيه: «مَدَّ» بدل «شَدَّ».

(٢) أَنشَدَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ج ٨ ص ٦٢ وَلَمْ يَنْسِبْهُ لِأَحَدٍ.

قوله تعالى:

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ
ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِثْلِ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ ﴿١٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ الكسائي وحمة: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ بكسر الهمزة، الباقون بفتحها. وكلهم شدد النون، إلا ابن عامر فإنه خففها، وكلهم سکن الياء من ﴿صِرَاطِي﴾ إلا ابن عامر فإنه فتحها، وبه قرأ يعقوب. وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿سراطي﴾ بالسین، الباقون بالصاد، إلا حمزة فإنه قرأ بين الصاد والزاي. وروى ابن فليح والبري إلا القواس: ﴿فَتَفَرَّقَ﴾ بتشديد التاء، ووجهه: أن أصله: «فَتَفَرَّقَ» فادغم أحدهما في الأخرى.

ومن فتح ﴿أَنَّ﴾ احتمل ذلك من وجهين: أحدهما: أن يكون عطفاً على ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا﴾. والثاني: لأن هذا صراطي مستقيماً فاتَّبِعُوهُ.

ومن كسر ﴿إِنَّ﴾ احتمل أيضاً [من، ظ] وجهين: أحدهما: عطفه على ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّكُمْ﴾: وأتلُ إنَّ هذا، بمعنى: أقول. والثاني: استأنف الكلام. ﴿وَمَنْ خَفَّفَ﴾ ﴿أَنَّ﴾ فإنَّ المخففة في قوله تتعلّق بما تتعلّق به المشدّدة، وموضع ﴿هذا﴾ رفع بالابتداء وخبره: ﴿صِرَاطِي﴾ وفي ﴿أَنَّ﴾ ضمير القصّة والشأن، وعلى هذه الشريطة تُخَفَّف، وليست المفتوحة كالمكسورة إذا خُفِّفَت.

والفاء في قوله: ﴿فاتَّبِعُوهُ﴾ على قول من كسر ﴿إِنَّ﴾ عاطفة جملة على جملة، وعلى قول من فتح: زائدة. ونصب ﴿مستقيماً﴾ على الحال، والفائدة: أن هذا صراطي وهو مستقيم، فاجتمع له الأمران، ولو رفع ﴿مستقيم﴾ لَمَا أفاد ذلك.

وإِنَّمَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ مَا بَيْنَهُ وَذَكَرَهُ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْمَحْرَمِ صِرَاطٌ وَطَرِيقٌ، لِأَنَّ امْتِثَالَ ذَلِكَ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ يُؤَدِّي إِلَى الثَّوَابِ فِي الْجَنَّةِ، فَهُوَ طَرِيقٌ إِلَيْهَا، وَإِلَى النِّعَمِ فِيهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِاتِّبَاعِ صِرَاطِهِ وَمَا شَرَّعَهُ لِلْحَقِّ، وَطَرِيقِ اتِّبَاعِ الشَّرْعِ - وَفِيهِ الْحَرَامُ وَالْحَلَالُ وَالْمَبَاحُ - هُوَ اعْتِقَادُ ذَلِكَ فِيهِ، وَالْعَمَلُ عَلَى مَا وَرَدَ الشَّرْعُ بِهِ، فَيَفْعَلُ الْوَاجِبَ وَالنَّدْبَ، وَيَجْتَنِبُ الْقَبِيحَ، وَيَكُونُ مَخِيرًا فِي الْمَبَاحِ، وَلَا يَجِبُ فَعْلُ جَمِيعِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ خِلَافُ الْإِتِّبَاعِ.

وإِنَّمَا قِيلَ لِعَقْدِ صَحَّةِ الشَّرْعِ اتِّبَاعُ لَهُ، لِأَنَّهُ تَعَالَى إِذَا حَظَرَ شَيْئًا كَانَ حُكْمُهُ، وَوَجِبَ اتِّبَاعُهُ فِي أَنَّهُ وَاجِبٌ، وَكَذَلِكَ النَّدْبُ وَالْمَبَاحُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ يَعْنِي: سُبُلَ الشَّيْطَانِ وَاتِّبَاعِ أَهْلِ الْبِدْعِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَغَيْرِهِمْ، فَهِيَ تَعَالَى عَنْ اتِّبَاعِ ذَلِكَ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ غَيْرِ سَبِيلِهِ تَصَرَّفٌ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْتَمِعَا ﴿ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ مَعْنَاهُ: أَمْرُكُمْ بِهِ وَأَوْصَاكُمْ بِامْتِثَالِهِ لِكَيْ تَتَّقُوا عِقَابَهُ بِاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ، وَإِنَّمَا أَتَى بِهَذِهِ الْبَلْفِظَةِ «لَعَلَّ» لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنْكُمْ تَعَامَلُونَ فِي التَّكْلِيفِ وَالْجَزَاءِ مَعَامِلَةَ الشُّكِّ لِلْمُظَاهَرَةِ فِي الْعَدْلِ.

قوله تعالى:

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في معنى قوله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ مع أن كتاب موسى قبل القرآن، و«ثُمَّ» تقتضي التراخي قولان: أحدهما: إنَّ فيه حذفًا، وتقديره: ثُمَّ آتَى عَلَيْكُمْ: آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ.

وقال ^(١) أبو مسلم: عطفه على المِنَنِ التي امتنَّ بها على إبراهيم من قوله: ﴿ووهبنا له إسحاق﴾ إلى قوله: ﴿إلى صراط مستقيم﴾ واستحسنه المغربي. وقوله: ﴿تماماً على الذي أحسن﴾ قيل فيه خمسة أقوال: أحدها: قال الربيع والفراء: تماماً على إحسانه، أي: إحسان موسى، كأنه قال: ليكمل إحسانه الذي يستحقُّ به كمال ثوابه في الآخرة. الثاني: قال مجاهد: تماماً على المحسنين. وقيل في قراءة عبدالله: ﴿تماماً على الذين أحسنوا﴾ ^(٢) كأنه قيل: تماماً للنعمة على المحسنين الذين هو أحدهم.

الثالث: قال ابن زيد: تماماً على إحسان الله إلى أنبيائه. الرابع: قال الحسن وقتادة: لتمام كرامته في الجنة على إحسانه في الدنيا. الخامس: قال أبو علي: تماماً على إحسان الله إلى موسى بالنبوة وغيرها من الكرامة.

وقال أبو مسلم: تماماً على الذي أحسن [على، ظ] إبراهيم، فجعل ما أعطى موسى منَّةً على إبراهيم وإجابة لدعوته بما تقدَّم من إحسانه وطاعته، وذلك إذ يقول إبراهيم: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ ^(٣). وقوله: ﴿تماماً على الذي﴾ يقتضي مضاعفة عليه، ولو قال: تماماً، لدلَّ على نقصانه قبل تكميله. وقوله: ﴿أحسن﴾ في موضع خفض عند الفراء، زعم أن العرب تقول: مررت بالذي خير منك، وبالذي أخيك. ولا يقولون: «بالذي قائم» لأنَّه نكرة، وأنشد عن الكسائي:

(٢) حكاه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٤٧.

(١) وهو القول الثاني.

(٣) الشعراء: ٨٤.

إِنَّ الزُّبَيْرِيَّ الَّذِي مِثْلَ الْحَكَمِ

مَشَى بِأَسْلَافِكَ [بِأَسْلَافِكَ، ظ] فِي أَهْلِ الْعَلَمِ^(١)

قال الزجاج: أجمع البصريون على أنه لا يجوز ذلك، لأنَّ «الَّذِي» يقتضي صلة، ولا يصحَّ أن يوصف إلا بعد تمام صلته^(٢).

وقوله: ﴿وَهَذَى وَرَحْمَةً﴾ صفتان لـ ﴿الكتاب﴾ الذي أنزله على موسى، ومعناه: حجةٌ ورحمةٌ ﴿وتفصيلاً لكلِّ شيء﴾ مثل ذلك.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: لكي يؤمنوا بجزاء ربِّهم، فسَمَّى الجزاء لقاء الله تفخيماً لشأنه وتعظيماً له مع الاختصار والإيجاز. و ﴿تماماً﴾ و ﴿تفصيلاً﴾ نصب على أنه مفعول له، وتقديره: إِنَّا فعلنا للتمام والتفصيل لكلِّ ما شرَّعنا له. وروي في الشواذ: ﴿أَحْسَنُ﴾ رفعاً، وتقديره: على الَّذِي هو أَحْسَنُ.

قوله تعالى:

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿وهذا﴾ إشارة إلى القرآن، وصفه بأنه كتاب أنزله الله، وإِنَّمَا وصفه بأنه كتاب وإن لم يكن قرآنًا من أجل أنه يُكْتَب، لأنَّه لَمَّا كان التقييد بالكتاب من أكثر ما يحتاج إليه في الدلائل والحكم وُصِف بهذا الوصف، لبيان أنه ممَّا ينبغي أن يُكْتَب، لأنَّه أَجَلُ الحكم، وذِكْرُ في هذا الموضع بهذا الذِكر ليقابل ما تقدَّم من ذِكر كتاب موسى ﷺ.

وقوله: ﴿مبارك﴾ فالبركة: ثبوت الخير بزيادته ونموه، وأصله: الثُبوت، ومنه: «تبارك» أي: تعالى بصفة إثبات لا أول له ولا آخر، وهذا

(١) معاني القرآن: ج ١ ص ٣٦٥ وفيه: «الحَلَم» بدل «الحَكَم».

(٢) معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٠٥.

تعظيم لا يستحقّه غير الله تعالى، ورفعه بأنّه صفة للكتاب ولو نصب على الحال كان جائزاً، غير أنّ الرفع يدلّ على لزوم الصفة للكتاب، والنصب يجوز أن يكون لحالة عارضة في وقت الفعل.

وقوله: ﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أمر من الله باتباعه وتدبر ما فيه وامتناله. وقوله: ﴿وَاتَّقُوا﴾ أمر منه تعالى باتقاء معاصيه، ومخالفة كتابه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لكي ترحموا، وإنّما قال: ﴿اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ مع أنّهم إذا اتَّقُوا رُحِمُوا لا مَحَالَةَ لِمَرِّين:

أحدهما: اتَّقُوا على رجاء الرحمة، لأنكم لا تدرون بما توافون في الآخرة. الثاني: اتَّقُوا لَتُرْحَمُوا، ومعناه: ليكون الغرض بالتقوى منكم طلب ما عند الله من الرحمة والثواب.

قوله تعالى:

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿٥٦﴾ آية .

أقول: العامل في ﴿أَنْ﴾ قوله: ﴿أُنْزِلْنَاهُ﴾ وتقديره: لأن لا تقولوا، فحذف «لا» لظهور المعنى في أنّه أنزله لثلاثين يكون لهم حجة بهذا، وحذف «لا» في قول الفراء، وقال الزجاج: تقديره: كراهة أن تقولوا. ولم يجز حذف «لا» هاهنا، وإذا كان يجوز حذف المضاف في غير «أن» فهو مع «أن» أجدر، لطولها بالصلة، و «أن» إذا كانت بمعنى المصادر تعمل، ولا تعمل إذا كانت بمعنى «أي» لأنّ هذه تختصّ بالفعل، والأخرى تدخل للتفسير: فتارةً يفسّر جملة من ابتداء وخبر، وتارةً جملة من فعل وفاعل. وقوله: ﴿إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ معنى «إِنَّمَا» الاختصاص، وإنّما كان ذلك لأنّ «إِنَّ» كانت تحقيقاً بتخصيص المعنى ممّا

خالفه، فلمّا صحبتها «ما» ممكنة لها ظَهَرَ هذا المعنى فيها.

والمعنيّ بـ «الطائفتين من قبلنا»: اليهود والنصارى، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد وابن جُرَيْج وقَتَادَةَ والسُّدِّي، وإِنَّمَا خُصَّ بِالذِّكْرِ لشهرتهما ولظهور أمرهما.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دَرَسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَغَافِلِينَ﴾ لام الابتداء، ولا يجوز أن يعمل ما قبلها فيما بعدها إلّا في باب «إِنَّ» خاصّة، لأنّها زحلت معها عن الاسم إلى الخبر [للفصل] بين حرفيّين بمعنيّ [واحد]، وتقدير الآية: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ لئَلَّا يَقُولُوا: أَوْ كَرَاهَةً أَنْ يَقُولُوا: إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا، وَلَوْ أُرِيدَ مِنَّا مَا أُرِيدَ مِنَّا قَبْلُنَا لِأَنْزِلَ إِلَيْنَا كِتَابٌ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلُنَا ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دَرَسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ وتقديره: وَإِنْ كُنَّا غَافِلِينَ عَنْ تِلَاوَةِ كِتَابِهِمْ، يعني: الطائفتين اللّتين أَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ، لَأَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَهُ دُونَنَا. قوله تعالى:

أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ آية إجماعاً.

أقول: هذه الآية عطف على ما قبلها، والتقدير: إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْمُبَارَكَ لئَلَّا يَقُولُوا: إِنَّهُ مَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى مَنْ قَبْلُنَا، أَوْ يَقُولُوا: لَوْ أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فِي الْمُبَادَرَةِ إِلَى قَبُولِهِ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، كَمَا يَقُولُ الْقَائِلُ: لَوْ أَتَيْتَ بِدَلِيلٍ لَقَبَلْتُهُ مِنْكَ، ومثل هذا يستبق إلى النفس. وقوله: ﴿أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ فلا دلالة لهم بالأذهان والأفهام، وقد يكون العارف بالشيء أهدى إليه من عارفٍ آخر، بأن يعرفه من وجوه لا يعرفها

الآخر، وبأن يكون ما يعرفه به أثبت مما يعرفه به الآخر.
قال الرُّماني: والفرق بين «الهداية» و «الدلالة»: أنَّ الهداية مضمنة
بأنَّها نُصِبَتْ ليهتدي بها صاحبها، وليس كذلك الدلالة، قال: ولذلك كَثُرَ
تصرُّفها في القرآن، كما كَثُرَ تصرُّف الرحمة لأنَّها على المحتاج.
وهذا فرق غير صحيح، لأنَّ الدلالة أيضاً لا تُسمَّى دلالةً إلا إذا نُصِبَتْ
ليستدلَّ بها، ولذلك لا يُقال: «اللصَّ دلَّ على نفسه» إذا فعل آثاراً أمكن أن
يُستدلَّ بها على مكانه ولم يقصد ذلك.

وقوله: ﴿لَوْ أَنَّا﴾ فُتِحَتْ «أَنَّ» بعد «لَوْ» مع أنَّه لا يقع فيه المصدر، لأنَّ
الفعل مقدَّر بعد ﴿لَوْ﴾ كأنَّه قيل: لو وقع إلينا أَنَا أنزل هذا الكتاب علينا، إلَّا
أَنَّ هذا الفعل لا يظهر من أجل طول «أَنَّ» بالصلة، ولا يُحذف مع المصدر
إلَّا في الشعر، قال الشاعر:

لَوْ غَيَّرُكُمْ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ بِحَبْلِهِ أَدَى الْجَوَارِ إِلَى بَنِي الْعَوَامِ^(١)
فقال الله لهم ﴿فقد جاءكم بَيِّنَةٌ من رَّبِّكُمْ﴾ يعني: حجة واضحة
﴿وهُدًى ورحمة﴾ وأدلة مؤدِّية إلى الحق ورحمة منه تعالى وانعام ﴿فَمَنْ
أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: فَمَنْ أَظْلَمَ لنفسه مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ
﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض عنها، غير مستدلٍّ بها ولا مفكِّر فيها، وهو
قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسُّدي.

فإن قيل: كيف قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ﴾ بأن يجحدها،
ولو فرضنا أنَّه ضمَّ إلى ذلك قتل النفوس وانتهاك المحارم كان أَظْلَمَ؟

(١) لجريير من قصيدة يهجو الفرزدق. راجع ديوان جريير: ص ٤١٨ وفيه: «ورحله» بدل:
بحبله.

قلنا عنه جوابان:

أحدهما: للمبالغة، لخروجه إلى المنزل الداعية إلى كلَّ ضَرْبٍ من الفاحشة. والآخر: أَنَّهُ لا خصلة مَمَّنْ ظَلَمَ النفسَ أعظم من هذه الخصلة. ثم قال تعالى: ﴿سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ﴾ أي: يُعْرِضُونَ ﴿عَنْ آيَاتِنَا سَوْءَ الْعَذَابِ﴾ أي: شديده ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي: جزاءً بما كانوا يعرضون، وهو ما أعدَّ الله للكفار، نعوذ بالله.

فإن قيل: فهل للذين ماتوا قبل مَن خطب بهذه الآية أن يقولوا هذا القول؟

قيل: لا، ليس له ذلك، لأنَّ عذره كان مقطوعاً بعقله، وبما تقدَّم من الأخبار والكتب، وهؤلاء أيضاً لو لم يأتهم الكتاب والرسول لم يكن لهم حجة، لكن فعل الله تعالى ما علم أنَّ المصلحة تعلَّقت به لهؤلاء، ولو علم ذلك فيمَن تقدَّم لأنزل عليهم مثل ذلك، لكن لما لم ينزل عليهم علمنا أنَّ ذلك لم يكن من مصلحتهم.

قوله تعالى:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ آية .

أقول: قرأ حمزة والكسائي ﴿يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وقد مضى الكلام في أمثال ذلك فيما مضى، فلا وجه للتطويل بإعادته.

معنى قوله: ﴿هل ينظرون﴾: ما ينتظرون، يعني: هؤلاء الكفار الذين تقدَّم ذكرهم. وقال أبو علي: معناه: هل تنتظر أنت يا محمد وأصحابك إلا

هذا؟ وهم وإن انتظروا غيره فذلك لا يعتدّ به في جنب ما تنتظرونه من الأشياء المذكورة لعظم شأنها، وهو مثل قوله: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾^(١) و«تكلّمت ولم تتكلّم» إذا تكلّم بما لا يعتدّ به.

وقوله: ﴿إلا أن يأتيهم الملائكة﴾ يعني: لقبض أرواحهم. وقال مجاهد وقتادة والسّدي: ﴿يأتيهم الملائكة﴾ لقبض أرواحهم ﴿أو يأتي ربك﴾ أي: يوم القيامة ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ طلوع الشمس من مغربها.

وقوله: ﴿أو يأتي ربك﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال أو يأتي أمر ربك بالعذاب، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، ومثله: ﴿وجاء ربك﴾^(٢) وقوله: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾^(٣) يعني: يؤذون أولياء الله.

الثاني: أو يأتي ربك بعظم آياته، فيكون «يأتي به» على معنى الفعل المتعدي، ومثل ذلك قول الناس: أتانا الروم، يريدون: أتانا حُكم الروم ويربّرتهم.

وقوله ﴿يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ قيل في «الآيات» التي تحجب من قبول التوبة ثلاثة أقوال: أحدها: قال الحسن: ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، والدابة، والدجال، والدخان، وخويصة أحدكم - أي: موته - وأمر العامة»^(٤) يعني: القيامة.

الثاني: قال ابن مسعود: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض. وهو قول أبي هريرة.

(١) الأنفال: ١٧. (٢) الفجر: ٢٢. (٣) الأحزاب: ٥٧.

(٤) في الحجرية: أمر القيامة. (٥) رواه ابن ماجه في السنن: ج ٢ ص ١٣٤٨ ح ٤٠٥٦.

الثالث: طلوع الشمس من مغربها، رواها جماعة^(١) عن النبي ﷺ. وقوله: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: الإيهام في أحد الأمرين. الثاني: التغليب، لأن الأكثر ممن ينتفع بإيمانه حينئذٍ من كان كسب في إيمانه خيراً قبل. الثالث: أنه لا ينفعه إيمانه حينئذٍ وإن اكتسب فيه خيراً إلا أن يكون ممن آمن قبل، في قول السُّدِّي. ومعنى «كسب الخير في الإيمان»: عمل النوافل، والاستكنار من عمل البرّ بعد أداء الفرائض. والأوّل عندي أقواها، لأنّ المعنى: أنه لا ينفع نفساً إيمانها إلا إذا كانت آمنت قبل، فإنّها إذا آمنت قبلُ نَفَعَهَا إيمانها بانفراده أو إذا ضُمَّتْ إلى إيمانها أفعال الخير، فإنّ ذلك ينفعها أيضاً، فإنّه ازداد خيراً.

وقوله: ﴿قُلْ انتظروا﴾ خطاب للنبي ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: انتظروا إتيان الملائكة وهذه الآيات، فإنّا «منتظرون» حصولها. ومعنى الآية: الحثّ على المبادرة إلى الإيمان قبل الحال التي لا تُقبل فيها التوبة، وهي ظهور الآيات التي تقدّم ذكرها، وفي ذلك غاية التهديد. قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ فَزَعُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شَيْعًا لَأَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ حمزة والكسائي: ﴿فَارْقُوا﴾ بألف، وهو المروي^(٢) عن عليّ عليه السلام الباقر: ﴿فَرَّقُوا﴾ بلا ألف مع تشديد الراء. والمعنيان متقاربان،

(١) كآبي ذرّ وأبي هريرة وأبي سعيد الخُدري وصفوان بن عسال وغيرهم. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٧١ - ٧٣.

(٢) رواه العياشي في تفسيره: ج ١ ص ٣٨٥ ح ١٣١ عن كليب الصيداي عن أبي عبد الله عليه السلام.

لأنَّ القراءتين يؤولان إلى شيء واحدٍ، لأنَّ جميع ذلك مخالف لما يوجبه دينهم، فهم بتفريقه من جهة إكفار بعضهم بعضاً على جهالة فيه مخالفون له، وهم بخروجهم عنه إلى غيره مفارقون له مخالفون.

وقيل في المعنيين بهذه الآية أربعة أقوال:

أحدها: قال مجاهد: هم اليهود، لأنَّهم كانوا يمالؤون عبدة الأوثان على المسلمين.

الثاني: قال قتادة: هم اليهود والنصارى، لأنَّ بعض النصارى يكفر بعضاً، وكذلك اليهود.

الثالث: قال الحسن: هم جميع المشركين، لأنَّهم جميعاً بهذه الصفة.

الرابع: قال أبو جعفر عليه السلام: هم أهل الضلالة والبدع من هذه الأمة. وهو قول أبي هريرة والمروئي عن عائشة.

حدَّثهم الله تعالى من تفرَّق الكلمة، ودعاهم إلى الاجتماع على ما تقدَّم عليه الحجة.

والدين الذي فارقه، قيل فيه قولان:

قال أبو علي وغيره: هو الدين الذي أمر الله باتباعه وجعل ديناً لهم.

الثاني: الدين الذي هم عليه، لإنكار بعضهم بعضاً بجهالة فيه.

ومعنى «الشيع»: الفرق التي يُمالي بعضهم بعضاً على أمر واحد مع

اختلافهم في غيره، قيل: أصله: «الظهور» من قولهم: شاع الخبر يشيع إذا ظهر، وقال الزجاج: أصله: «الاتباع» من قولك: شايعه على الأمر إذا اتبعه.

وقوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» خطاب للنبي ﷺ وإعلام له أنه

ليس منهم في شيء، وأنه على المباعدة التامة من أن يجتمع معهم في

معنى من مذاهبهم الفاسدة، وليس كذلك بعضهم مع بعض، لأنَّهم يجتمعون

في معنى من الباطل وإن افترقوا في غيره، فليس منهم في شيء، لأنه بريء من جميعه، وقال القراء: معناه: النهي عن قتالهم، ثم نُسِخَ بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(١) وهو قول السدي.

أخبر الله تعالى: أَنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَخَالَفُوهُ وَبَايَنُوهُ، وصاروا فِرْقًا يُمَالِي بعضهم بعضاً على أمر واحد مع اختلافهم في غيره، ليس النبي ﷺ منهم في شيء، وأنه مبين لهم لفساد ما هم عليه، ثم قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ يعني: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُخْبِرُهُمْ بِأَفْعَالِهِمْ وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا دُونَ غَيْرِهِ، يعني: يوم القيامة.
قوله تعالى:

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: العشرة يجوز في قوله: ﴿فله عشر أمثالها﴾ ثلاثة أوجه: أحدها الإضافة، وعليه جميع القراء إلا يعقوب. ورفع ﴿أَمْثَالُهَا﴾ مع التنوين على الصفة، وبه قرأ الحسن ويعقوب. ونصبه على التمييز، كما تقول: عندي خمسة أتراباً، ذكر ذلك الزجاج والقراء.

ومعنى القراءة الأولى: فله عشر حسنات أمثالها، ويجوز في العربية: فله عشر مثلاً، فيكون «المِثْل» في لفظ الواحد وفي معنى الجمع، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾ ^(٢) وَمَنْ قَالَ: أمثالها فهو كقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ ^(٣) وَإِنَّمَا جاز في «مِثْل» التوحيد في معنى الجمع، لأنه على قدر ما يشبه به، تقول: مررت بقوم مثلكم، و: بقوم أمثالكم.

وقال الرُّمَّاني: كلٌّ ما لم يتميَّز بالصورة فإنَّ جمعه يدلُّ على الاختلاف، كقولك: «رمال» و «مياه» فأما «رجال» فلا يدلُّ على الاختلاف لأنَّه يتميَّز بالصورة، ويجوز أن يكون «المِثْل» في موضع الجمع، ولا يجوز مثل ذلك في «العَدْل» لأنَّ «المِثْل» لا يُضاف إلى الجماعة إلَّا على معنى أنَّه مِثْلُ لكلِّ واحدٍ منهم، وليس كذلك «العَدْل» لأنَّه يكون لجماعتهم دون كلِّ واحدٍ منهم.

وقال أكثر أهل العَدْل: إنَّ الواحد من العشرة مستحقٌّ، وتسعة تفضَّل. وقال بعضهم: المعنى: فله من الثواب ثواب عشر حسنات أمثالها. وهذا لا يجوز، لأنَّه يقبح أن يُعطى غير العامل مثل ثواب العامل، كما يقبح أن يُعطى الأطفال مثل ثواب الأنبياء ومثل إجلالهم وإكرامهم، وأن يرفع منزلتهم عليهم.

وإنَّما لم يتوعَّد على السيِّئة إلَّا مثلها لأنَّ الزائد على ذلك ظُلْم، والله يتعالى عن ذلك، وزيادة الثواب على الجزاء تفضُّل وإحسان فجاز أن يزيد عليه. قال الرُّمَّاني: ولا يجوز على قياس «عشر أمثالها»: «عشر صالحات» بالإضافة، لأنَّ المعنى ظاهر في أنَّ المراد عشر حسنات أمثالها. وقال غيره: لأنَّ «الصالحات» لا تعدُّ لأنَّها أسماء مشتقَّة، وإنَّما تعدُّ الأسماء، و«المثل» اسم فلذلك جاز العَدَد به.

وقال الرُّمَّاني: دخول الهاء في قوله: «الحسنة» يدلُّ على أنَّ تلك الحسنة ما هو مباح لا يستحقُّ عليه المدح والثواب. ولو قيل: دخول الألف واللام فيها يدلُّ على أنَّ «الحسنة» هي المأمور بها، ودخلا للعهد، والله لا يأمر بالمباح، لكان أقوى ممَّا قاله.

ويجوز أن يكون التفضُّل مثل الثواب في العَدَد والكثرة، ويتميَّز منه

الثواب بمقارنة التعظيم والتبجيل للذَّين لولاهما لَمَّا حُسِّن التكليف، وإِنَّمَا قلنا بجواز ذلك، لأنَّ وجه حُسْن ذلك: الإحسان والتفضُّل، وذلك حاصل في كلِّ قدر زائد. وفي الناس مَنْ منع من أن يساوي التفضُّل الثواب في باب الكثرة. والصحيح ما قلناه أولاً.

فإن قيل: كيف تجمعون بين قوله: ﴿فله عشر أمثالها﴾ وبين قوله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ﴾^(١) وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾^(٢) ولأنَّ المجازاة بدخول الجنة مثاباً فيها على وجه التأييد لا نهاية له، فكيف يكون ذلك عشر أمثالها، وهل هذا إلا ظاهر التناقض؟!

قلنا: الجواب عن ذلك ما ذكره الزجَّاج وغيره: أنَّ المعنى في ذلك: أنَّ جزاء الله على الحسنات على التضعيف للمثل الواحد الذي هو النهاية في التقدير في النفوس، ويضاعف الله عن ذلك بما بين عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ففائدة ذلك أنَّه لا ينقص من الحسنة عن عشر أمثالها، وفيما زاد على ذلك يزيد من يشاء من فضله وإحسانه. وقال قوم: المعنى: من جاء بالحسنة فله عشر أمثال المستحقِّ عليها، والمستحقُّ مقداره لا يعلمه إلا الله، وليس يريد بذلك عشر أمثالها في العدَد، كما يقول القائل للعامل الذي يعمل معه: لك من الأجر مثل ما عملت، أي: مثل ما تستحقُّه بعملك.

وقال آخرون: المعنى في ذلك: أنَّ الحسنة لها مقدار من الثواب معلوم

لله تعالى، فأخبر الله تعالى أَنَّهُ لا يقتصر بعباده على ذلك، بل يضاعف لهم الثواب حتَّى تبلغ ذلك ما أراد وَعَلِمَ أَنَّهُ أصلح لهم، ولم يرد العشرة بعينها لكن أراد الأضعاف، كما يقول القائل: لئن أسديتَ إليَّ معروفاً لأكافيتك بعشرة أمثالها، وعشرة أضعافه. وفي الوعيد: لئن كَلَمْتَنِي واحدة لأكَلِمَنَّكَ عشرة، وليس يريدون بذلك العَدَد المعَيَّن لا أكثر منها، وإنَّما يريدون ما ذكرناه.

وقال قوم: عَنَى بهذه الآية الأعراب، وأمَّا المهاجرون فحسناتهم سبعمئة، ذهب إليه أبو سعيد الخُدري وعبدالله بن عمر.

وقال قوم: معنى ﴿عشر أمثالها﴾: لأنَّه كان يُؤخَذ منهم العُشر في الزكوات، وكانوا يصومون في كلِّ شهر ثلاثة أيام والباقي لهم.

وقال قوم ﴿من جاء بالحسنة﴾ يعني: الإيمان ﴿فله﴾ يعني: للإيمان ﴿عشر أمثالها﴾ وهو ما ذكره في قوله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾^(١) إلى آخر الآية. وهذان الوجهان قريبان، والمعتمد ما قدَّمناه من الوجوه.

وقال أكثر المفسرين: إِنَّ «السيئة» المذكورة في الآية هي الشرك و«الحسنة» المذكورة فيها هي التوحيد وإظهار الشهادتين.

فإن قيل: كيف يجوز الزيادة في نَعَمِ المثابين مع أَنَّ الثواب قد استغرق جميع مناهم وما يحتملونه.

قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أَنَّهُ ليس للمُنِيَّة نهاية ممَّا يحتمله من اللذَّات. والثاني: أَن يُزاد في البنية والقوَّة، مثل أن يزداد في قوَّة البصر حتَّى يَرَى الجزء الَّذي لا يتجزأ وإن لم يزد في إخفاء الإنسان.

قوله تعالى:

قُلْ إِنِّي هَدَيْتَنِي رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦١﴾ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ آيتان ^(١) بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر وأهل الكوفة: ﴿قِيَمًا﴾ بكسر القاف وتخفيف الياء وفتحها، الباقون [بفتح القاف] ^(٢) مع تشديد الياء.

مَنْ قرأ بتشديد الياء فحجَّته قوله: ﴿وذلك دين القِيَمَةِ﴾ ^(٣) كأنه [قال]: دين المِلَّة القِيَمَةِ، ويكون وصفاً للدين إذا كان نكرة، كما كان وصفاً للمِلَّة لأنَّ المِلَّة هي الدين. قال أبو الحسن ^(٤): قال أهل المدينة: ﴿دينًا قِيَمًا﴾ وهي حسنة، ولم أسمعها من العرب. قال أبو الحسن: وهو في معنى «المستقيم».

فأما مَنْ قرأ بالتخفيف فإنه أراد المصدر، مثل: «الشَّيْع» ولم يصحَّ كما صحَّح «عَوْض» و «حَوْل». قال الزجاج: لأنه جاء على فعل معتل وهو «قَامَ» والأصل: قَوْمٌ أو قَوْمٌ قومًا. قال أبو علي: وكان القياس يقتضي أن يصحَّح، لكنَّه شذَّ عن القياس، كما شذَّ «أشياء» نحوه عن القياس، نحو: «ثيرة» في جمع «ثور» ونحو: «جِياد» في جمع «جواد» وكان القياس الواو، كما قالوا: طويل وطِوال، قال الأعشى:

جِيَادُكَ فِي الصَّيْفِ فِي نِعْمَةٍ تَصَانُ الْجَلَالَ وَتُعْطَى الشَّعِيرَا ^(٥)

وقوله: ﴿دينًا قِيَمًا﴾ يحتمل نصبه ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه قال: ﴿إِنِّي هداني رَبِّي إلى صراط مستقيم﴾ استغنى

(١) في الحجرية: آية. (٢) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجرية.

(٣) البيتة: ٥. (٤) وهو الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص ٥١٠.

(٥) من قصيدة يمدح هودبة بن عليّ الحنفي. راجع ديوان الأعشى: ص ٨٩.

بجري ذُكِرَ الفعل عن ذُكْرِهِ، فقال: ﴿دِيناً قِيَمًا﴾ كما قال: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾.

والثاني^(١): نصبه على تقدير: اعرفوا، لأنَّ هدايتهم إليه تعريفٌ لهم، فحمله على: اعرفوا ديناً قِيَمًا. وقال الزجاج: معناه: عرّفني ديناً قِيَمًا. وإن شئت حملته على الاتّباع، كأنّه قال: اتّبعوا ديناً قِيَمًا والزموه، كما قال: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ﴾^(٢).

وقال الفراء: هو نصب على المصدر، كأنّه قال: هَدَانِي اهْتِدَاءً، ووضع «دينًا» موضعه.

أمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لِلْخَلْقِ وخاصة لهؤلاء الكفّار ﴿إِنِّي هَدَانِي رَبِّي﴾ وقيل في معنى «الهداية» قولان: أحدهما: قال أبو عليّ: أراد بالهداية: الدلالة، وأضافه إلى نفسه دونهم وإن كان قد هداهم أيضاً، لأنّه اهتدى دونهم. وقال غيره^(٣): أراد به: لُطْفَ لي ربّي في الاهتداء إلى صراط مستقيم.

و «الصراط المستقيم» قد فسّرناه في غير موضع، وأنّه الطريق الموصل إلى ثواب الله من غير اعوجاج، وإنّما قال: ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هاهنا وقال في موضع آخر: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٤) لأنّه إذا ضمن معنَى النهاية دخلت «إلى» وإذا لم تضمن لم تدخل «إلى» وصار بمعنى «عرّفني». والأوّل بمنزلة «أرشدني» وإنّما كرّر: «مستقيم، وقِيَم» للمبالغة، كأنّه قال: هو مستقيم على نهاية الاستقامة.

وقوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ فالمِلَّةُ: الشريعة، وهي مأخوذة من الإيماء،

(١) في الحجرية: وأنَّ سبب نصبه على تقدير اعرفوا، وفي مخطوطة: وإن شئت نصبته.

(٢) البقرة: ١٧٠. (٣) وهذا القول الثاني. (٤) الفتح: ٢٠.

كَأَنَّهُ: ما يأتي به السمع ويورده الرسول من الشرائع المتجددة فَيُحِلُّهُ على أُمَّتِهِ لِيُكْتَبَ أو يُحَفَظَ.

فأما التوحيد والعَدْلُ فواجبان بالعقل، ولا يكون فيهما اختلاف، والشرائع تختلف، ولهذا يجوز أن يقال: ديني دين الملائكة، ولا يُقال: ملّتي ملّة الملائكة، والملّة دين، وليس كلّ دينٍ ملّة، وإنّما وصف النبي ﷺ بأنّه ملّة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسهم أو غيرهم من أهل الأديان.

وقوله: ﴿حَنِيفاً﴾ معناه: مخلصاً لعبادة الله، في قول الحسن، وأصله: الميل من قولهم: رجل أخنّف إذا كان مائل القَدَمَ بإقبال كلّ واحدة منهما على الأخرى من خِلْفَةٍ لا من عارض، وقال الزجاج: الحنيف: هو المائل إلى الإسلام ميلاً لازماً لا رجوع معه.

وقال أبو علي: أصله: الاستقامة، وإنّما جاء «أخنّف» على التفاضل ﴿وما كان من المشركين﴾ يعني: إبراهيم عليه السلام.

و ﴿حَنِيفاً﴾ نصب على الحال من ﴿إبراهيم﴾ و ﴿ملّة أبيكم﴾ نصب على المصدر في قول الفراء، وقال الزجاج: هو بدل من قوله: ﴿ديناً قيماً﴾. قوله تعالى:

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ آلْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) آيتان بلا خلاف.

أقول: أسكن الياء من ﴿محياي﴾ أهل المدينة. قال أبو علي الفارسي: إسكان الياء من ﴿محياي﴾ شاذّ خارج عن القياس والاستعمال، فشذوذه عن القياس: أن فيه التقاء الساكنين لا يلتقيان على هذا الحدّ، وشذوذه عن الاستعمال: أنك لا تجده في نظم ولا نثر إلّا شاذّاً، ووجهه ما حكى بعض

البغداديين أنه سمع أو حُكي له: «التقت حَلَقَتَا البطان» بإسكان الألف مع سكون لام المعرفة، وحكى غيره: «له ثلثا المال» وليس هذا مثل قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا﴾^(١) لأن هذا في المنفصل مثل: «دَابَّة» في المتصل، ومثل ما أجاز يونس من قوله: «اضرباًن زيداً» وسيبويه ينكر هذا من قول يونس، قال الرُّمَّاني: ولو وصله على نيّة الوقف جاز.

[أمره أن]^(٢) يقول لهؤلاء الكفار: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنَسْكَي﴾ وقد فسرنا معنى الصلاة فيما مضى.

وقيل في معنى ﴿ونسكي﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال سعيد بن جُبَيْر ومجاهد وَقَتَادَةَ والسُّدِّي والضَّحَّاك: ذبيحتي في الحج والعمرة. وقال^(٣) الحسن: ﴿نسكي﴾ ديني. وقال^(٤) الزجاج والجُبَّائي: ﴿فنسكي﴾ عبادتي، قال الزجاج: والأغلب عليه أمر الذبيح الذي يُقَرَّب به إلى الله، ويقولون: فلان ناسك بمعنى «عابد».

وإنما ضُمَّ الصلاة إلى أصل الواجبات من التوحيد والعدل لأن فيها التعظيم لله عند التكبير، وفيها تلاوة القرآن التي تدعو إلى كلِّ برٍّ، وقرَّرها الركوع والسجود وهما خضوع لله، وفيهما التسبيح وهو تنزيه لله.

وقوله: ﴿ومحياي ومماتي﴾ يقولون: حَيَّيْ يَحْيَا حَيَاةً وَمَحْيَاً، ومات يموتُ مَوْتاً وَمَمَاتاً، وإنما جُعِلَ للفعل الواحد مصادر في الثلاثي لقوته، ولأنه الأكثر الأغلب.

وإنما جمع بين صلاته وحياته، وأحدهما من فعله والآخر من فعل الله، لأنهما جميعاً بتدبير الله تعالى وإن كان أحدهما من حيث إيجاد

(٢) ما بين المعقوفين لم يرد في الحجريّة.

(٤) وهو القول الثالث.

(١) الأعراف: ٣٨.

(٣) وهو القول الثاني.

وإعدامه لما فيه من الصلاح. ووجه ضمّ الموت إلى أصل الواجب: الرغبة إلى من يقدر على كشفه إلى الحياة في النعيم الدائم بطاعته في أداء الواجبات.

وقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فالشركة: هي تلك المساهمة، فلمّا كان عَبْدَ الأوثان جعلوا العبادة على هذه الصفة كانوا مشركين في عبادة الله، فأمر الله أن ينفي عنه هذا الشرك ويقول: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ والمعنى: لا يستحقّ العبادة سواه.

ثمّ أمره بأن يقول: إِنِّي ﴿أُمِرْتُ﴾ بذلك، يعني: بنفي الإشراف مع الله وتوجيه العبادة إليه تعالى وحده ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال الحسن: معناه: أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وبه قال قَتَادَةَ، وبَيَّنَ ذَلِكَ لَوْجُوبِ اتِّبَاعِهِ ﷺ، وليبيان فضل الإسلام إذا كان أَوَّلُ مَسَارِعِ إِلَيْهِ نَبِيَّنَا ﷺ. ومعنى الآية: وجوب نفي الشُّرْكِ عن الله، ووجوب اعتقاد بطلانه، وإخلاص العبادة إليه تعالى.

قوله تعالى:

قُلْ أَغْيَرُ اللَّهِ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ آية عند الكلّ.

أقول: أمر الله تعالى نبيه أن يخاطب هؤلاء الكفّار، ويقول على وجه الإنكار لفعلهم: أغير الله أتخذ ﴿رَبًّا﴾ معبوداً؟! فالكلام خرج مخرج الاستفهام والمراد به الإنكار، لأنّه لا جواب لصاحبه إلّا بما هو قبيح، لأنّ تقديره: أيجوز أن أطلب الضرر والنفع بعبادتي من مربوب مثلي، عادلاً بذلك عن ربّ كلّ شيء وليس بمربوب، أم هذا قبيح في العقول وهو لازم

لكم على عبادة الأوثان؟

و«الرَّبَّ» إذا أطلق أفاد الملك [المالك] لتصرف الشيء بآتم التصريف، وإذا أضيف فقل: ربّ الدار، وربّ الضيعة، فمعناه: المالك، لتصرفه بآتم تصرف العباد. وأصله: التربية، وهي تنشئة الشيء حالاً بعد حال حتّى يصير إلى الكمال، ثم صُرف إلى معنى المالك لهذه الأحوال من الشيء وما جرى مجراها. والفرق بين «الرَّبِّ» و«السَّيِّدِ»: أنَّ السَّيِّدَ [هو] المالك لتدبير السواد الأعظم، والرَّبِّ: المالك لتدبير الشيء حتّى يصير إلى الكمال مع إجرائه على تلك الحال.

وقوله: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ معناه: لا يكون جزاء عمل كل نفس إلا عليها. ووجه اتصاله بما قبله: أنّه لا ينفعني في ابتغاء ربّ غيره ما أنتم عليه من ذلك، لأنّه ليس بعذر لي في اكتساب غيري له، لأنّه ﴿لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقيل ^(١): إِنَّ الْكُفَّارَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: اتَّبِعْنَا وَعَلَيْنَا وَزْرُكَ إِنْ كَانَ خَطَاً، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ.

وفيها دلالة على فساد قول المجبّرة من وجهين:

أحدهما: أنَّ قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ يدلّ على أنّه لا يُعَذَّبُ الطفل بكفر أبيه.

والثاني: أنّه لا يُعَذَّبُ بغير ذنبٍ كان منه، لأنّهما سواء في أنّهما كعذاب غير مستحقّ.

وتقول: وَزَرَ يَزُرُ وَزَرًا، وَوَزَرَ يُوَزِّرُ فهو مَوْزُور، وكلّه بمعنى: الإثم، والْوَزَرُ: الملجأ. ومنه قوله: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ ^(٢) فحال الموزور كحال الملتجئ

من غير ملجأ، ومنه: الوزير لأنَّ الملك يلتجئ إليه في الأمور، وقيل: أصله: الثقل، ومنه: قوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾^(١) وكلاهما محتمل ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ﴾ يعني مآلكم ومصيركم إلى الله في يوم لا يملك فيه الأمر غيره تعالى.

وقوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ معناه: أنه يخبركم بالحق فيما اختلفتم فيه من الباطل، فيظهر المحسن من المسيء ما يزول معه الشك والارتياب، ويقع منه الندامة في وقتٍ قد فات فيه استدراك الخطيئة. فمعنى الآية: الحجّة على أن كل شيء سوى الله فالله ربّه من كل وجه فصحّ منه الربوبية. وفيها دلالة على فساد قول المجبرة: إن الله يعذب على غير ذنب.

قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ آية بلا خلاف. أقول: أخبر الله تعالى: أنه الذي جعل الخلق ﴿خلائف الأرض﴾ ومعناه: أن كل أهل عصرٍ يخلف أهل العصر الذي قبله، كلما مضى واحد خلفه آخر على انتظامٍ واتساقٍ، وذلك يدلّ على مدبرٍ أجراه على هذه الصفة، قال السَّمَاخ:

تُصَيِّهُمُ وَتُخَطِّئُنِي الْمَنَايَا وَأُخْلَفُ فِي رُبُوعٍ عَنْ رُبُوعٍ^(٢)
وواحد «الخلائف»: خليفة، مثل: صحيفة وصحائف، وسفينة وسفائن، ووصيفة ووصائف [ووظيفة ووظائف]، هذا قول الحسن والسُّدِّي.

وقال قوم: معناه: أَنَّهُ جعلهم خُلَفَاءَ من الجانِّ قبل آدم.
وقال آخرون^(١): معناه: والمراد به أُمَّة نَبِيِّنَا ﷺ لَأَنَّ اللَّهَ جعلهم
خلفاء سائر الأمم.

وقوله: ﴿وَرَفَعَ بعضكم فوق بعض درجات﴾ وجه الحكمة في ذلك مع
أَنَّهُ يخلقهم كذلك ابتداءً من غير استحقاقٍ بعملٍ يوجب التفاضل بينهم: ما
فيه من الألفاظ الداعية إلى الواجبات والصارفة عن القبائح، لَأَنَّ مَنْ كان
غنياً في ماله شريفاً في نسبه قوياً في جسمه ربّما دعاه ذلك إلى طاعة
من يملكها رغبةً فيها، والحال في أضدادها ربّما كان دعتة إلى طاعته
رهبةً منها ومن أمثالها ورجاء أن يُنْقَلَ عنها إلى حال جليلة يغتبط عليها.
وقال السُّدِّي: رفع بعضهم فوق بعض في الرزق وقوّة الأجسام وحسن
الصورة وشرف الإنسان، وغير ذلك بحسب ما علم من مصالحهم.

وقوله: ﴿درجات﴾ يحتمل نصبه ثلاثة أشياء:
أحدها: أن يقع موقع المصدر، كأَنَّهُ قال: رَفَعَهُ فوق رفعة. الثاني:
إلى درجات، فحُذِفَتْ «إلى» كما حُذِفَتْ في قولهم: دخلتُ البيت، وتقديره:
دخلت إلى البيت. الثالث: أن يكون مفعولاً، من قولك: ارتفع درجةً ورفعته
درجةً، مثل: اكتسى ثوباً وكسوته ثوباً.

وقوله: ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ معناه: فَعَلَ بكم ذلك ليختبركم فيما
أعطاكم، والقديم تعالى لا يبتلي خَلْقَهُ ليعلم ما لم يكن عالماً به، لَأَنَّهُ
تعالى عالم بالأشياء قبل كونها، وإنّما قال ذلك لَأَنَّهُ يعامل معاملة الَّذي
يبلو، مظهرةً في العدل، وانتفاءً من الظلم.

(١) منهم القراء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٦٧.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ إِنَّمَا وصف نفسه بأنه سريع العقاب مع وصفه تعالى بالإمهال، ومع أَنَّ عقابه في الآخرة: من حيث كان كلَّ آتٍ قريباً، فهو إِذَاً سريع، كما قال: ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾^(١) وقد يكون سريع العقاب بمن استحقه في دار الدنيا، فيكون تحذير المواقع في الخطيئة على هذه الجهة، وقيل: معناه: أَنَّهُ قادر على تعجيل العقاب، فاحذروا معاجلته. وإِنَّمَا قابل بين العقاب والغُفْران ولم يقابل بالثواب، لأنَّ ذلك أَدْعَى إِلَى الإقْلَاعِ عَمَّا يوجب العقاب، لأنَّهُ لو ذكر الثواب لجاز أن يتوهم أَنَّهُ لمن لم يكن فيه عصيان.

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قال قتادة: سورة الأعراف مكية. وقال قوم: هي مكية إلا قوله: ﴿وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ﴾ ^(١) إلى آخر السورة.

وقال قوم: هي محكمة كلها. وقال آخرون: حرفان منها منسوخان: أحدهما: قوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ ^(٢) يريد: من أموالهم، وذلك قبل الزكاة، والآخر: قوله: ﴿وَأَعْرَضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٣) نُسِخَ بآية السيف ^(٤). وقال قوم: ليس واحد منهما منسوخاً، بل لكل منهما موضع، والسيف له موضع. وهو الأقوى، لأن النسخ يحتاج إلى دليل.

وهي مثنان وست آيات كوفي، وخمس آيات مدنيّات والبصري. قوله تعالى:

[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ]

الْمَصَّ ① كَتَبَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ، وَذِكْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ ② آيتان في الكوفي، وآية فيما عداه.

(٤) يريد الآية: ٥ من سورة التوبة.

(٢) و (٣) الآية: ١٩٩.

(١) الآية: ١٦٣.

أقول: قد بيّنا في أول سورة البقرة اختلاف المفسرين في أوائل السور بالحروف المقطعة، وقلنا: إنّ الأقوى من ذلك قول من قال: إنّها أسماء للسور، وهو قول الحسن والبلخي والجُبائي، وأكثر المحصلين. وروى^(١) عن ابن عباس أنّه قال: هي اختصار من كلام لا يفهمه إلّا النبي ﷺ قال الشاعر:

نادَوْهُم أن الجُمُوعَا أَلَا تَا قالوا جميعاً كلّهم أَلَا فَا^(٢)

يريد: ألا تركبون، قالوا: فاركبوا. وبني قوله: ﴿المص﴾ على السكون في الوصل مع أنّ قبله ساكناً، لأنّ حروف الهجاء توصل على نيّة الوقف، لأنّه يجري على تفصيل الحروف، للفرق بينها وبين ما وصل للمعاني، وكأنّ مجموع الحروف يدلّ على معنى واحد، ومتى سمّيت رجلاً به «المص» وجبت الحكاية، فإن سمّيته به «صاد» أو «قاف» لم يجب ذلك، لأنّ «صاد» و «قاف» لهما نظير في الأسماء المفردة، مثل: باب وناب ونار، وليس كذلك «المص» لأنّه بمنزلة الجملة، وليس له نظير في المفرد.

وإنّما عدّ الكوفيّون ﴿المص﴾ آية، ولم يعدّوا ﴿ص﴾ لأنّ «المص» بمنزلة الجملة، مع أنّ آخره على ثلاثة أحرف بمنزلة المردف، فلمّا اجتمع هذان السببان - وكلّ واحد منهما يقتضي عدّه - عدّوه، ولم يعدّوا ﴿المر﴾ لأنّ آخره لا يشبه المردف، ولم يعدّوا ﴿ص﴾ لأنّه بمنزلة اسم مفرد، وكذلك (ق) و (ن).

وإنّما سمّيت السورة بالحروف المعجمة، ولم تسمّ بالأسماء المنقولة، لتضمّنها معاني أخر مضافة إلى التسمية، وهو أنّها فاتحة لما هو منها، وأنّها

(١) رواه أبو الضحى عنه. راجع تفسير الطبري: ج ١ ص ٦٧.

(٢) تقدّم ذكره في تفسير أول سورة البقرة.

فاصلة بينها وبين ما قبلها، ولأنّه يأتي من التأليف بعدها ما هو معجز مع أنّه تأليف كتّأليفها، فهذه المعاني من أسرارها.

وقيل في موضع ﴿المص﴾ من الإعراب قولان:
أولهما: إنّهُ رفع بالابتداء وخبره: ﴿كتاب﴾ أو يكون على هذه
﴿المص﴾ في قول الفراء.

الثاني: لا موضع له، لأنّه في موضع جملة على قول ابن عباس، كأنّه
قال: أنا الله أعلمُ وأفضلُ، اختاره الزجاج.
وقوله: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ قيل في العامل في قوله ﴿كتاب﴾ ثلاثة
أقوال:

أحدها: «هذا كتاب» فحُذِفَ لأنّها حال إشارة وتنبيه.
الثاني: ﴿المص كتاب﴾ على أنّه اسم للسورة و ﴿كتاب﴾ خبره.
وقال ^(١) الفراء: رفعه بحروف الهجاء، لأنّها قبله، كأنّك قلت: الألف
واللام والميم والصاد من الحروف المقطّعة كتاب أنزل إليك مجموعاً،
فنابت «المص» عن جميع حروف المعجم، كما تقول: أ، ب، ت، ث ثمانية
وعشرون حرفاً. وكذلك تقول: قرأت الحمد، فصار اسماً لفاتحة الكتاب.
وقوله: ﴿فلا يكن في صدرك حَرَجٌ﴾ يحتمل دخول الفاء وجهين:
أحدهما: أن يكون عطفاً، وتقديره: إذا كان أنزل إليك لتنذر به فلا يكن
في صدرك حَرَجٌ منه، فيكون محمولاً على معنى «إذا». وصيغة النهي.
[والثاني: أنْ التّهْيَ] ^(٢) - وإن كان متناولاً للحَرَج، فالمعنيّ به المخاطب
تَهْي عن التعرّض للحرج، وجاز ذلك لظهور المعنى، إذ الحرج لا ينتهي،

وكان مخرج له برده إلى نهي المخاطب أبلغ، لما فيه من أن الحرج لو كان ممّا يُنهي له لنهيناه عنك، فأنته عنه بترك التعرض له.

وقيل في معنى «الحرج» في الآية ثلاثة أقوال:

قال ^(١) الحسن: معناه: الضيق، أي: لا يضيق صدرك لتشعب الفكر بك خوفاً ألا تقوم بحقه، وإنما أنزل إليك لتنذر به.

الثاني: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي: إن معناه: الشك هاهنا، والمعنى: لا تشك فيما يلزمك له فإنما أنزل إليك لتنذر به.

الثالث: قال الفراء: لا يضيق صدرك بأن يكذبوك، كما قال عز وجل: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ ^(٢).

وقوله: ﴿لتنذر به﴾ يعني: لتخوف بالقرآن. وقال الفراء والزجاج وأكثر أهل العلم: هو على التقديم والتأخير، وتقديره: أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين.

و «الذكرى» مصدر ذَكَرَ يَذْكُرُ تَذْكيراً، ف «الذكرى» اسم للتذكير وفيه مبالغة، ومثله: الرجعى، وقيل في موضعه ثلاثة أقوال:

أولها: النصب على: أنزل للإنذار وذكرى، كما تقول: جئتكم للإحسان وشوقاً إليكم.

الثاني: الرفع، بتقدير: وهو ذكرى.

الثالث - قال الزجاج: يجوز فيه الجرّ، لأنّ المعنى: لأن تُنذِرَ وذكرى. قال الرّماني: هذا ضعيف، لأنّه لا يجوز أن يُحْمَلَ الجرّ على التأويل، كما لا يجوز: مررتُ به وزيد.

قوله تعالى:

اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ آية.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وحفص ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال بتاء واحدة، الباقون بالتشديد، إلا ابن عامر فإنه قرأ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بياء وتاء. قال الزجاج: التخفيف على حذف التاء الثانية كراهة اجتماع ثلاثة أحرف متقاربة، كما قالوا: استطاع يستطيع [استطاع يستطيع، ظ]، فحذفوا إحدى الثلاثة المتقاربة دون الأول، لأن الأول بمعنى الاستقبال لا يجوز حذفها، والثانية يدل عليها تشديد العين.

ومن قرأ بتشديد الذال، فأصله: «تَتَذَكَّرُونَ» فأدغم التاء في الذال لقرب مخرجهما، لأن التاء مهموسة والذال مجهورة، والمجهورة أزيد صوتاً وأقوى من المهموس، فحَسُنَ إدغام الأَنْقَص في الأَزِيد، ولا يسوغ إدغام الأَزِيد في الأَنْقَص، ألا ترى أن الصاد وأخْتَبَهَا لم يُدْغَمَنَّ في مقاربهنَّ لِمَا فِيهِنَّ من زيادة الصفير.

ووجه قراءة ابن عامر بالياء والتاء: أنه مخاطبة للنبي ﷺ أي: قليلاً ما يتذكرون هؤلاء الذين ذَكَّرُوا بهذا الخطاب.

قوله: ﴿اتَّبِعُوا﴾ خطابٌ من الله للمكلفين، وأمرٌ منه بأن يتبعوا له ما أنزل عليهم من القرآن، ويحتمل أن يكون المراد: قل لهم يا محمد: اتَّبِعُوا ما أنزل إليكم، لأنه قال قبل ذلك: ﴿لنتذرب﴾ وكان الخطاب متوجهاً إليه. والاتباع: تصرف الثاني بتصرف الأول وتديبره [تدبره، ظ] بتديبره، فالأول إمام والثاني مؤتم، والفرق بين الاتباع والاتباع: أن أحدهما يتعدى إلى مفعول، والثاني يتعدى إلى مفعولين، تقول: اتبعتُ زيداً، وأتبعْتُ زيداً عمراً.

ووجوب الاتّباع فيما أنزل الله يدخل فيه الواجب والندب والمباح، لأنّه يجب أن يعتقد في كلّ جنس ما أمر الله به، كما يجب أن يعتقد في الحرام وجوب اجتنابه.

وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ نهي من الله أن يتّبعوا من دون الله ويتّخذوا أولياء. و «أولياء» جمع «وليّ» وهو ضدّ العدو، وهو يفيد: الأولي، ويفيد: الناصر، وغير ذلك ممّا بيّناه فيما مضى^(١).

وقوله: ﴿قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: الاستبطاء في التذكّر، وخرج مخرج الخبر وفيه معنى الأمر، ومعناه: تذكّروا كثيراً ممّا يلزمكم من أمر دينكم، وما أوجبه الله عليكم.

وأخبر أنّهم قليلاً ما يتذكّرون، و «ما» زائدة، و «تَذَكَّرَ» معناه: أخذ في التذكّر شيئاً بعد شيء، مثل: تفقّه وتعلّم، ويقال: «تَقَيَّسَ» إذا انتمى إلى قَيْس ولم يكن منهم، لأنّه يدخل نفسه فيهم شيئاً بعد شيء.

قوله تعالى:

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ آية بلا خلاف. أقول: «كم» لفظة موضوعة للتكثير، و «رُبَّ» للتقليل، وإنّما كان كذلك لأنّ «رُبَّ» حرف، و «كم» اسم، والتقليل ضرب من النقي. و «كم» تدخل في الخبر بمعنى التكثير، فأما في الاستفهام فلا، لأنّ الاستفهام موكول إلى بيان المجيب، والخبر إلى بيان المخبر، وإنّما دخلها التكثير لأنّ استبهاام العدد أن يظهر أو يضبط إنّما يكون لكثّرتّه [في] غالب الأمر، فـ«كم» مبهمة، قال الفرزدق:

(١) عند تفسير الآية: ٢٥٧ من سورة البقرة، والآية: ٥٨ من المائدة.

كَمْ عَمَةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَخَالَةٍ فَدَعَاءٌ قَدْ حَلَبْتُ عَلَيَّ عِشَارِي^(١)
فدَلَّ بـ «كم» على كثرة العمات. وموضع ﴿كم﴾ في الآية رفع بالابتداء
وخبرها: ﴿أهلكناها﴾ ولو جُعِلَتْ في موضع نصبٍ جاز، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(٢) والأوَّل أجود.

أخبر الله تعالى - على وجه التهيب للكفار والإبعاد لهم -: أَنَّهُ أَهْلَكَ
كثيْرًا مِنَ الْقُرَى، يعني: أهلها بما ارتكبه من معاصيه والكفر به، وَأَنَّهُ أَنْزَلَ
عَلَيْهِمْ بِأَسْهٍ، يعني: عذابه ﴿بَيَّاتًا﴾ يعني: في الليل ﴿أَوْهُمْ قَائِلُونَ﴾ يعني:
في وقت القيلولة وهو نصف النهار، وأصله: الراحلة، فمعنى «أَقْلَتَهُ البيع»:
أَرْخَتْهُ مِنْهُ بِإِعْفَائِي إِيَّاهُ مِنْ عَقْدِهِ، وَقِلْتُ: إِذَا اسْتَرَحْتُ إِلَى النَّوْمِ فِي وَسْطِ
الْقَائِلَةِ، وَالْأَخْذُ بِالشَّدَةِ فِي وَقْتِ الرَّاحَةِ أَعْظَمُ فِي الْعُقُوبَةِ فَلِذَلِكَ خَصَّ
الْوَقْتَيْنِ بِالذِّكْرِ.

وقيل في دخول الفاء في قوله ﴿فجاءها بأسنا بيّاتًا﴾ ثلاثة أقوال:
أحدها: أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا، وقد قيل: هو مثل: زريني
واكرميني فَإِنَّ نَفْسَ الْإِكْرَامِ هِيَ الزِّيَارَةُ: قَالَ الرُّمَّانِيُّ: وَلَيْسَ هَذَا مِثْلَ ذَلِكَ،
لَأَنَّ هَذَا إِنَّمَا جَازَ لِأَنَّهُ قَصْدُ الزِّيَارَةِ ثُمَّ الْإِكْرَامُ بِهَا.
و[الثاني] قَالَ قَوْمٌ: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ مَعْنَاهُ أَهْلَكْنَاهَا ﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَا﴾
أَي: فَكَانَ صِفَةُ إِهْلَاكِنَا أَنْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا.
و[الثالث]: أَهْلَكْنَاهَا فَصَحَّ أَنَّهُ جَاءَهَا بِأَسْنَا.
وقال الفراء: [الفاء] بمعنَى الواو. وقال الرُّمَّانِيُّ: هَذَا لَا يَجُوزُ، لِأَنَّهُ نَقْلٌ
لِلْحَرْفِ عَنْ مَعْنَاهُ بَغِيرِ دَلِيلٍ.

وقال بعضهم: إِنَّ المعنى: أهلكناها بخذلاننا لها عن الطاعة فجاءها بأسنا عقوبةً على المعصية. وهذا لا يجوز، لأنّه ليس من صفة الحكيم أن يمنع من طاعته حتّى تقع المعصية ثمّ يعاقب عليها.

وقوله: ﴿أَوْهُمْ قَائِلُونَ﴾ قال الفراء: واو الحال مقدّرة فيه، وتقديره: أَوْهُمْ قَائِلُونَ، وَإِنَّمَا حُذِفَتْ استخفافاً. وقال الزجاج وجميع البصريين: لا يحتاج إلى ذلك، لأنّه يستغني برجوع الذّكر عن الواو، كما يقال: جاءني زيد راجلاً أو هو فارس، أو: جاءني زيد هو فارس، لم يحتج إلى واو، لأنّ الذّكر قد عاد على الأوّل.

فمعنى الآية: أَنْ الله أَهْلَكَ أَهْلَ قريّات كثيرة بتمرّدهم في المعاصي، وحذّر من أن يعمل مثل عملهم فينزل بالعامل مثل ما نزل بهم.

قوله تعالى:

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى أنّه لم يكن دعاء هؤلاء الذين أهلكهم عقوبةً على معاصيهم وكفرهم في الوقت الذي جاءهم «بأس الله» وهو شدّة عذابه، ومنه: البؤس: شدّة الكفر، والبئس: الشجاع لشدّة بأسه، و«بئس» من شدّة الفساد الذي يوجب الذّمّ إلّا قولهم إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ يعني: اعترفهم بذلك على نفوسهم وإقرارهم به، وكان هذا القول منهم عند معاينة البأس واليقين بأنّه نازل بهم، ويجوز أن يكون قالوه حين لآبَسَهُمْ طرفٌ منه، لم يهلكوا منه.

و «دعواهم» خبر «كان» واسمها: «أن قالوا» وهو بمعنى: قولهم، وهما معرفتان، يجوز أن يجعل كلّ واحد منهما اسماً والآخر خبراً، كما قال: «ما كان حجّتهم إلّا أن قالوا» ^(١) بالرفع والنصب، وإنّما قدّم الخبر

على الاسم لأنّ الثاني وقع موقع الإيجاب، والأوّل موقع النفي، والنفي أحقّ بالخبر.

و «الدَّعْوَى» و «الدُّعَاء» واحد، وفرّق قوم بينهما: بأنّ في «الدَّعْوَى» اشتراكاً بين الدعاء والادّعاء كادّعاء المال وغيره، وأصله: الطلب، قال الشاعر:

وَلَّتْ وَدَعَاوَاهَا كَثِيرٌ صَحْبُهُ ^(١)

أي: دعاؤها، ويجوز أن يقال: اللَّهُمَّ أَشْرَكْنَا فِي دَعْوَى المسلمين، يريد: دعاء المسلمين، حكاه سيبويه ^(٢) قال الشاعر:

وَإِنْ مَدَلْتُ رِجْلِي دَعْوَتِكَ أَشْتَفِي بِدَعْوَاكِ مِنْ مَذَلٍ بِهَا فَيَهُونُ ^(٣)
معنى «مَدَلْتُ» أي: خَدَرْتُ.

قوله تعالى:

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: الفاء في قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ﴾ فاء عطف جملة على جملة، وقد يكون لهذا، وقد يكون لعطف مفرد على مفرد، وقد يكون للجواب. وإنّما دخلت الفاء وهي موجبة للتعقيب مع تراخي ما بين الأوّل والثاني، وذلك يليق بـ «ثم» لتقريب ما بينهما، كما قال: ﴿اقتربت الساعة﴾ ^(٤) وقال: ﴿وما أمر الساعة إلاّ كلمح البصر أو هو أقرب﴾ ^(٥) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرِ

(١) أنشده سيبويه في الكتاب: ج ٤ ص ٤١ ونسبه إلى بشير بن النكت.

(٢) في الكتاب: ج ٤ ص ٤٠.

(٣) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٨٩ ولم ينسبه لأحد.

(٤) القمر: ١.

(٥) النحل: ٧٧.

الإنسان أَنَا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيمٌ ﴿١﴾ وبينهما (٢) بُعْدٌ.
والنون في قوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ﴾ نون التأكيد يتلقى بها القَسَم، وإِنَّمَا بُنِي
المضارع مع نون التأكيد [لأنَّه لَمَّا (إِنَّمَا، ظ) دخلت عليه طلباً للتصديق،
كما أَنَّ الأمر طلب للفعل فأُدْخِلت عليه نون التأكيد وتثبت مع الفعل] (٣)
لأنَّ هذه الزيادة التي لا تكون للاسم باعدته كما باعدت الألف واللام ما
لا ينصرف من الفعل فانصرف.

أَقْسَمَ الله تعالى في هذه الآية أَنَّهُ يسأل المكلفين الذين أرسل إليهم
رسله، وَأَقْسَمَ أيضاً أَنَّهُ ليسأل الصادقين المرسلين الذين بعثهم، فيسأل
هؤلاء عن الإبلاغ ويسأل أولئك عن الامتثال، وهو تعالى وإن كان عالماً
بما كان منهم فَإِنَّمَا أخرجه مخرج التهديد والزجر ليتأهب العباد بحسن
الاستعداد لذلك السؤال.

وحقيقة السؤال طلب الجواب بأداته في الكلام، وحقيقة الاستخبار
طلب الخبر بأداته في الكلام.

وقوله: ﴿فَلَنَقْصُصَنَّهُمْ عَلَيْكُمْ بِعِلْمٍ﴾ قَسَمٌ آخر، وإخبار منه تعالى أَنَّهُ يقصّ
عليهم بما عملوه، فَإِنَّهُ عَلِمَ جميع ذلك. وإِنَّمَا ذكره بنون الجمع لأحد
أمرين:

أحدهما: أَنَّ هذا على كلام العظماء من الملوك، لأنَّ أفعالهم تضاف
إلى أوليائهم. والثاني: أَنَّ الملائكة تقصّ عليهم بأمر الله.

وقال ابن عباس: نقصّ عليه بما نجده في كتاب عمله.
وروي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قال: «إِنَّ الله يسأل كلَّ أحد بكلامه له،

(١) يَسْ: ٧٧. (٢) أي: بين الجملتين، أعني: خلقه من النطفة وصيرورته خصماً.

(٣) ما بين المعقوفتين لا يخلو من إغلاق وإيهام، وتستقيم العبارة مع حذفها.

ليس بينه وبينه تَرْجُمَانٌ»^(١).

والقَصُّ: ما يتلو بعضه بعضاً. ومنه: المِقْصُصُ، لأنَّ قطعه يتلو بعضه بعضاً، ومنه: القِصَّة من الشَّعر، والقِصَّة من الكتاب، ومنه: القصاص لأنَّه يتلو الجناية في الاستحقاق، ومنه: المقاصَّة في الحقَّ لأنَّه يسقط ماله قصاصاً بما عليه.

وإنما دخلت نون التأكيد مع لام القَسَم في المضارع دون الماضي، لأنَّها تؤدِّن بطلب الفعل الذي تدخل فيه، نحو: لأُكْرِمَنَّ زيداً، فإنَّ فيه طلب الإكرام بإرادته [بأداته، ظ] فالتصديق بالقَسَم، ولهذا أُلزمت النون^(٢) في طلب الفعل من جهتين، وفتحت هذه النون ما قبلها في جمع المتكلم ولم تفتح في الغائب، لأنَّ الضمَّة يجب أن تبقى لتدلَّ على الواو المحذوفة في ﴿لَيَقْضَنَّ﴾ بالياء، وليس كذلك المتكلم، لأنَّه لا واو فيه.

ومعنى قوله ﴿يَعْلَمُ﴾ قيل فيه وجهان:

أحدهما: بأنَّا عالمون، والآخر: بمعلوم، كما قال: ﴿ولا يحيطون بشيءٍ من علمه﴾^(٣) أي: من معلومه.

ووجه المسألة له والقصص عليهم: أنَّه سؤال توبيخ وتقريع للضالِّين، وسؤال تذكير وتنبيه للمؤمنين، فبمقدار ما يغمُّ أولئك، يسرَّ هؤلاء، ثمَّ يسأل الرسل لأنَّ من الأمم من يجحد فيقول: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ومنهم من يقول: والله ربَّنَا ما كنَّا مشركين.

فإن قيل: كيف يجمع بين قوله: ﴿ولا يُسْئَلُ عن ذنوبهم المجرمون﴾^(٤)

(١) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٢ ص ٧٠٣ ح ٦٧ من كتاب الزكاة، وابن ماجه في السنن: ج ١ ص ٦٦ و ٥٩٠ ح ١٨٤٣ كلاهما بالسند عن عَدِيٍّ بن حاتم.

(٢) في الحجرية: ولهذا لُزمت إذأ. (٣) البقرة: ٢٥٥. (٤) القصص: ٧٨.

وقوله: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ؟﴾

قلنا فيه قولان:

أحدهما: أَنَّهُ نفى أن يسألهم سؤال استرشاد واستعلام، وإنما يسألهم سؤال توبيخ وتبكيت. الثاني: تنقطع المسألة عند حصولهم في العقوبة، كما قال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾^(١) وقال في موضع آخر: ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مُسْئِلُونَ﴾^(٢) والوجه ما قلنا: إِنَّهُ يسألهم سؤال توبيخ قبل دخولهم في النار، فإذا دخلوها انقطع سؤالهم.

والسؤال في اللغة على أربعة أقسام:

أحدها: سؤال استرشاد واستعلام، كقولك: أين زيد ومَنْ عندك؟ وهذا لا يجوز عليه تعالى.

والثاني: سؤال توبيخ وتقريع، وهو خبر في المعنى، كقولك: ألم أحسن إليك فكفرت نعمتي؟ ألم أعطِكَ فجددت عطيتي؟ ومنه: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أُعْهِدْ إِلَيْكُمْ؟﴾^(٣) وقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾^(٤) وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ؟﴾^(٥) وقال الشاعر:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونٌ رَاحٍ^(٦)

ولو كان سائلاً لما كان مادحاً، وقال العجاج:

أَطْرَباً وَأَنْتَ قِنْسَرِيٌّ^(٧)

معنى «قِنْسَرِيٌّ»: كبير السنّ، وهذا توبيخ لنفسه أي: كيف أطرب مع

(٣) يَسْ: ٦٠.

(٢) الصافات: ٢٤.

(١) الرحمن: ٣٩.

(٥) المؤمنون: ١٠٦.

(٤) الأنعام: ١٣٠، والزمر: ٧١.

(٦) لجرير من قصيدة مدح لعبد الملك بن مروان. راجع ديوان جرير: ص ٧٤.

(٧) أنشده في اللسان: مادة «قنسر».

الكبر والشيب.

الثالث: سؤال التحضيض، وفيه: معنى «ألا» كقولك: هلا تقوم؟ وألا تضرب زيداً؟ أي: قم واضرب زيداً.

الرابع: سؤال تقرير بالعجز والجهل، كقولك للرجل: هل تعلم الغيب؟ وهل تعرف ما يكون غداً؟ وهل تقدر أن تمشي على الماء؟ وكما قال الشاعر:

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهرُ

والمعنى: وليس يصلح العطار ما أفسد الدهرُ. فإذا ثبَّت ذلك فقوله: ﴿فيومئذٍ لا يُسْئَلُ عن ذنبه إنش ولا جان﴾ وقوله: ﴿ولا يُسْئَلُ عن ذنبوهم المجرمون﴾ المراد به: لا يُسْأَلُون سؤال استعلام واستخبار ليعلم ذلك من قولهم، لأنَّه تعالى عالم بأعمالهم قبل خلقهم.

وأما قوله: ﴿فلنسألنَّ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولنسألنَّ المرسلين﴾ وقوله: ﴿فوربِّكَ لنسألنَّهم أجمعين﴾ عَمَّا كانوا يعملون^(١) فهو مسألة توبيخ وتقريع، كقوله: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وسؤاله للمرسلين ليس بتوبيخ ولا تقريع، لكنَّه توبيخ للكفار وتقريع لهم أيضاً.

وأما قوله: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾^(٢) فمعناه: سؤال تعاطٍ [تواطىء] واستخبارٍ عن الحال التي جهلها بعضهم لتشاغلهم عن ذلك، كما قال: ﴿لكلِّ امرئٍ منهم يومئذٍ شأنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٣) وقوله: ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾^(٤) فهو سؤال توبيخ وتقريع وتلاوم، كما قال: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾^(٥) وكقوله: ﴿أنحن صددناكم

(١) المؤمنون: ١٠١.

(١١) الحجر: ٩٢ و٩٣.

(٤) الصافات: ٢٧ و٥٠، والطور: ٢٥.

(٣) عبس: ٣٧.

(٥) القلم: ٣٠.

عن الهدى بعد إذ جاءكم»^(١) وقوله: ﴿رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَاباً
ضِعْفاً فِي النَّارِ﴾^(٢) وهذا كثير في القرآن، وليس في شيء من ذلك تضاد
بين المسألتين، ولا تنافي بين الخبرين، بل إثبات لسؤال عن شيء ونفي
لسؤال عن شيء آخر، ومثله قول الشاعر:

فَأُصْبِحْتُ وَاللَّيْلُ لِي مِلْبَسٌ وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ بَحْراً طَمًا^(٣)
فقوله: «وَأُصْبِحْتُ وَاللَّيْلُ لِي مِلْبَسٌ» لم يرد به الصبح، لأنه لو أراد لما
نفاه^(٤) بـ «وَاللَّيْلُ لِي مِلْبَسٌ» وإنما أراد «أُصْبِحْتُ» بمعنى: أشعلت المصباح
وهو السراج أي: أسرجت في ظلمة الليل، فلم يكن خبراه متضادين.
وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ فالغائب: البعيد عن حضرة الشيء، ومعناه
في الآية: أنه لا يخفى عليه شيء، وذلك يدل على أنه ليس بجسم، لأنه
لو كان جسماً على العرش - على ما يذهب إليه المجسمة - لكان غائباً
عمّا في الأرضين السفلى، لأنّ مَنْ كان دون هذا بكثير فهو غائب عنّا.
قوله تعالى:

وَالْوِزْنُ يُوَمِّدُ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾ آيتان.
أقول: ارتفع قوله: ﴿وَالْوِزْنُ﴾ بالابتداء، وخبره: ﴿الْحَقُّ﴾ وهو الوجه
المختار، وقال الفراء: يجوز أن يكون خبره: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ وينصب ﴿الْحَقُّ﴾
على المصدر، وتقديره: وَالْوِزْنُ يَوْمِئِذٍ - يعني: في يوم القيامة - حقاً، فينصب
﴿الْحَقُّ﴾ وإن كان فيه الألف واللام، كما قال: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾^(٥).

(٢) ص: ٦١.

(١) سبأ: ٣٢.

(٣) للنمر بن تَوَلَّب. أنشده في اللسان: مادّة «صبح» وفيه: والليل مستحكم.

(٥) ص: ٨٤.

(٤) في الحجريّة: لنفاه بقوله: والليل.

والوزن في اللغة: هو مقابلة أحد الشئيين بالآخر حتّى يظهر مقداره، وقد استعمل في غير ذلك تشبيهاً به، منها: وزن الشعر بالعروض، ومنها: قولهم: فلان يَزِنُ كلامه وزناً، قال الأخطل:

وَإِذَا وَضَعْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ^(١)
وقيل في معنى ﴿الوزن﴾ في الآية أربعة أقوال:

قال الحسن: موازين الآخرة لها كفتان، فالحسنات والسيئات توضعان فيهما وتوزنان. ثمّ اختلفوا:

فقال بعضهم: إنّما توضع صحائف الأعمال فتُوزن، وهو قول عبد الله بن عمر.

وقال أبو علي: إنّما تتفضّل كفة الحسنات من كفة السيئات بعلامه يراها الناس يومئذٍ.

وذهب عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ إِلَى أَنَّهُ يُوزَنُ الْإِنْسَانُ، فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ الْعَظِيمِ الْجَنَّةَ فَلَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.

وقال مجاهد: ﴿الْوَزْنُ﴾ عبارة عن العدل في الآخرة، وأنّه لا ظلم فيها على أحد، وهو قول البلخي، وهو أحسن الوجوه، وبعده قول الجُبَّائِي. ووجه حسن ذلك - وإن كان الله تعالى عالماً بمقادير المستحقّات - : ما فيه من المصلحة في دار التكليف وحصول الترهيب به والتخويف.

وقوله: ﴿يَوْمئِذٍ﴾ يجوز في ﴿يَوْمئِذٍ﴾ الإعراب والبناء، لأنّ إضافته إلى مبنيٍّ إضافة غير محضة تقرّبه من الأسماء المركّبة، وإضافته إلى الجملة تقرّبه من الإضافة الحقيقيّة. ونون ﴿يَوْمئِذٍ﴾ لأنّه قد تقطع عن الإضافة، إذ

(١) من قصيدة يهجو جريراً. راجع ديوان الأخطل: ص ٢٥٥.

من شأن التنوين أن يعاقبها، وقد قطع «إذ» في هذا الموضع عنها.
و ﴿الحق﴾ وضع الشيء موضعه على وجه تقتضيه الحكمة، وقد
استعمل مصدراً على هذا المعنى وصفةً، كما جرى ذلك في «العدل» قال
الله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾^(١) فجرى على طريق الوصف.

وقوله: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ فالثقل: عبارة عن الاعتماد اللازم سفلاً
ونقيضه: الخفة وهي اعتماد لازم علواً، ومثلت الأعمال بهما لما دُكر من
المقارنة، والمعنى: أن من كانت طاعاته أكثر فهو من الفائزين بثواب الله،
ومن قلت طاعاته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ بأن استحقوا عذاب
الأبد جزاءً على ما كانوا يظلمون أنفسهم بجحود آياتنا وحجبتنا.

وقوله: الموازين: جمع ميزان، وأصله الواو، وقُلبت ياء لسكونها وانكسار
ما قبلها، ولم يقلب في «خِوَان» لتحركها وأنها لم تجر على فعل لها.
والخُسران: ذهاب رأس المال، ومن أعظم رأس المال النفس، فإذا
أهلك نفسه بسوء عمله فقد خسر نفسه. وظلمهم بآيات الله مثل كفرهم بها
وجحدتهم إياها.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ آية
بلا خلاف.

أقول: روى خَارِجَةٌ عن نافع همز ﴿معايش﴾ وروى ذلك عن
الأعمش وعبد الرحمن الأعرج، الباكون غير مهموز.

وعند جميع النحويين أن «معايش» لا يهمز، ومتى هُمَزَ كان لحناً، لأنَّ

الياء فيها أصلية، لأنه من: عاشَ يَعِيشُ، ولم يعرض فيها علة كما عرض في «أوائل» وهي في «مدينة» زائدة علة لا تدخلها الحركة كما لا تدخل الألف، ومثله: مسألة ومسائل، ومنارة ومناور، ومقام ومقام، قال الشاعر: وإني لَقَوَّامٌ مَقَاوِمَ لم يَكُنْ جَرِيرٌ ولا مَوْلَى جَرِيرٍ يَقُومُهَا^(١) ووزنه: «مفعلة» مثل: مسورة ومساور، ومن همزها اعتقدها «فعية» على وزن: صحيفة، فجمعها على «فعائل» مثل: صحائف، وذلك غلط، لأن الياء أصلها لقولهم: عاش يعيش عيشاً ومعيشةً. قال أبو علي: من همز «مدائن» لم يجعله «مفعلة» ولكنّه «فعية» بدلالة قولهم: مدني، ولا يجوز أن يكون «مفعلة» من: دان يدين، ومن أخذه من ذلك قال في الجمع: «مدائن» بتصحيح الياء.

واعتلَّ «معيشة» لأنه على وزن: يعيش، وزيادتها تختص بالاسم دون انفعال، فلم يحتج إلى الفصل بين الاسم والفعل، كما احتيج إليه فيما كان زيادته مشتركة، نحو: الهمزة في «أجاد» [أخاف، ظ] و «هو أجود [أخوف، خ] منك» وموافقة الاسم لبناء الفعل توجب في الاسم الاعتلال، ألا ترى أنهم أعلّوا «باباً» و «داراً» لما كان [كانا، ظ] على وزن الفعل، وصحّحوا نحو: «حَوْل» و «غَيْبَة» و «لَوْمَة» لما لم تكن على مثال الفعل، ف «معيشة» موافقة للفعل في البناء، مثل: «يعيش» في الزنة، وتكسيروها يزيل مشابهتها في البناء، فقد علمت بذلك زوال المعنى الموجب للإعلال في الواحد [و] في الجمع، فلزم التصحيح في التكسير لزوال المشابهة في اللفظ، لأنّ التكسير معنى لا يكون في الفعل، وإنّما يختص به الاسم، فإذا

(١) للأخطل من قصيدة يمدح بها بشر بن مروان ويهجو جريراً. راجع ديوان الأخطل: ص ١٣٢.

زالت مشابهة الفعل وجب تصحيحه.

وَمَنْ هَمَزَ «مَصَابٍ»^(١) فَإِنَّهُ غَلَطَ، كَمَا غَلَطَ مَنْ هَمَزَ «مَعَايِشَ» وَمِثْلَهُ جَاءَ فِي جَمْعِ «مَسِيلٍ»: أُمْسِلَةً، جَاءَ ذَلِكَ فِي الشَّعْرِ لِبَنِي هُذَيْلٍ، فَتَوَهَّمُوهُ «فَعِيلَةً» وَإِنَّمَا هُوَ «مَفْعَلَةٌ» وَحَكَى يَعْقُوبُ: مَسِيلٌ وَمَيْسَلٌ، فَالْمِيمُ عَلَى هَذَا «فَاءٌ» وَمَسِيلٌ: «فَعِيلٌ» وَعَلَى الْأَوَّلِ «مَفْعَلٌ» مِنْ: سَالَ.

قَالَ الزَّجَّاجُ: مَنْ هَمَزَ «مَصَابٍ» جَعَلَ الهمزة بدلاً من الواو، كَمَا قَالُوا: أَقَّتْ فِي «وَقَّتْ» وَهَذَا إِنْ وَقَعَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ^(٢) وَقَدْ قَالُوا فِي «أَذُورَ»: أَذُورُ فَهَمْزُوهُ، فَجَازَ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونُوا حَمَلُوا الْمَكْسُورَةَ عَلَى الْمَضْمُومَةِ. وَيُقَالُ: «عَاشَ فُلَانٌ» بِمَعْنَى: حَيَّ، وَطَيَّبَ الْعَيْشَ: طَيَّبَ الْحَيَاةَ، فَلهَذَا كَانَتِ الْمَعِيشَةُ مَضْمُومَةً بِالْحَيَاةِ. وَحَدَّ الْمَعِيشَةُ الرُّمَّانِي بِأَنَّهَا وَصَلَةٌ مِنْ جِهَةٍ مَكْسَبَ الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلْبَسِ إِلَى مَا فِيهِ الْحَيَاةُ.

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى وَجْهِ الْاِمْتِنَانِ عَلَى خَلْقِهِ بِأَصْنَافِ نِعَمِهِ: أَنَّهُ مَكَّنَ عِبَادَهُ فِي الْأَرْضِ، بِمَعْنَى: مَكَّنَهُمْ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهَا، وَالتَّمَكُّنِ: إِعْطَا مَا يَصَحُّ مَعَهُ الْفِعْلُ مَعَ ارْتِفَاعِ الْمَنْعِ، لِأَنَّ الْفِعْلَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى الْقُدْرَةِ فَقَدْ يَحْتَاجُ إِلَى آلَةٍ وَإِلَى دَلَالَةٍ وَإِلَى سَبَبٍ، كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى رَفْعِ الْمَنْعِ، فَالتَّمَكُّنِ: عِبَارَةٌ عَنْ حَصُولِ جَمِيعِ ذَلِكَ.

﴿وَالْأَرْضُ﴾ هَذِهِ الْأَرْضُ الْمَعْرُوفَةُ، وَفِي الْأَصْلِ: عِبَارَةٌ عَنْ قَرَارِ يُمْكِنُ أَنْ يَتَصَرَّفَ عَلَيْهِ الْحَيَوَانُ، فَعَلَى هَذَا: لَوْ خُلِقَ مِثْلُهَا لَكَانَتْ أَرْضًا حَقِيقَةً. وَقَوْلُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ فَالْجَعْلُ: وَجُودُ مَا بِهِ يَكُونُ الشَّيْءُ عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ، مِثْلُ أَنْ تَقُولَ: جَعَلْتُ السَّاكِنَ مَتَحَرِّكًا، لِأَنَّكَ

(١) مِنْهُمْ الْأَخْفَشُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ: ج ٢ ص ٥١٢.

(٢) فِي الْحَجَرِيَّةِ هَكَذَا: قَالُوا اقْنَبْ فِي وَقْتِ هَذَا إِنْ فَعَلُوا فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ.

فعلت فيه الحركة، ونظيره: التصيير والعمل، و «جعل الشيء» أعم من حدوثة، لأنه قد يكون بحدوث غيره مما يتغير به.

وقوله: ﴿قليلًا ما تشكرون﴾: نصب ﴿قليلًا﴾ بـ ﴿تشكرون﴾ وتقديره: تشكرون قليلًا، و ﴿ما﴾ زائدة، ويحتمل أن تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر، وتقديره: قليلًا شكركم.

والشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضربٍ من التعظيم، والحمد مثله، وقيل: الفرق بينهما: أن كلَّ شكرٍ حمدٌ، وليس كلَّ حمدٍ شكرًا، لأنَّ الإنسان يُحمدُ على إحسانه إلى نفسه ولا يُشكرُ عليه، كما أنه يُدَمَّ على إساءته إلى نفسه، ولا يجوز أن أكفره [يُكفر، ظ] من أجل إساءته إلى نفسه. قوله تعالى:

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا خطاب من الله تعالى لخلقه بأنه خلقهم، والخلق: هو إحداث الشيء على تقديرٍ تقتضيه الحكمة، لا زيادة على ما تقتضيه فيخرج إلى الإسراف، ولا ناقص عنه فيخرج إلى الإقتار. وقد استوفينا اختلاف الصُور، والصورة: بنية مقومة على هيئة ظاهرة.

وقوله: ﴿ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ فالسجود: هو وضع الجبهة على الأرض، وأصله: الانخفاض، من قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْثَمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ^(١)

وقيل في معنى «السجود لآدم» قولان:

(١) لزيد الخيل، وصدره: بخيشي تَضَلَّ الْبُلُقُ في حجراته. راجع الكامل للمبرِّد: ج ٢ ص ٧٣٥.

أحدهما: أنه كان تكرمةً لآدم وعبادةً لله، لأنَّ عبادةَ غير الله قبيحةٌ لا يأمر الله بها. وعند أصحابنا: كان ذلك دلالةً على تفضيل آدم على الملائكة على ما بيَّنا في سورة البقرة^(١).

وقال^(٢) أبو عليّ الجُبَّائي: أمروا أن يجعلوه قِبْلَةً. وأنكر ذلك أبو بكر بن أحمد بن عليّ الأخشيد بأن قال: هو تكرمةٌ، لأنَّ الله تعالى امتنَّ على عباده، وذكَّركم بالنعمة فيه.

فإن قيل: كيف قال: ﴿ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ﴾ مع أنَّ القول للملائكة كان قبل خلقنا وتصويرنا؟

قلنا عن ذلك ثلاثة أجوبة:

أحدها: قال الحسن وأبو عليّ الجُبَّائي: المراد به: خَلَقْنَا أَبَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَا أَبَاكُمْ ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ، وهذا كما يذكر المخاطب ويُراد به أسلافه. وذكرنا لذلك نظائر فيما مضى، منها: قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾^(٣) أي: ميثاق أسلافكم. قال الزجاج: المعنى: ابتدأنا خلقكم بأن خلقنا آدم ثُمَّ صَوَّرْنَاهُ ثُمَّ قَلْنَا.

الثاني: قال ابن عباس ومجاهد والربيع وَقَتَادَةَ والضَّحَّاك والسُّدِّي: إنَّ المعنى: خلقنا آدم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ فِي ظَهْرِهِ ثُمَّ قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ.

الثالث: خلقناكم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ إِنَّا نَخْبِرُكُمْ أَنَّا قَلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ، كما تقول: إِنِّي رَاحِلٌ ثُمَّ إِنِّي مُعْجِلٌ.

وقال الأخْفَشُ: «ثُمَّ» هاهنا بمعنى الواو. كما قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) ومثله: قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٥) على قول بعض

(٣) البقرة: ٦٣ و٩٣.

(٢) وهو القول الثاني.

(١) الآية: ٣٤.

(٥) البلد: ١٧.

(٤) يونس: ٤٦.

المتأخرين معناه: وكان من الذين آمنوا، ومثله: ﴿استغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾^(١) على بعض الأقوال معناه: وتوبوا إليه، قال الزجاج: هذا خطأ عند جميع النحويين. وقال [قول، خ] الشاعر:

سَأَلْتُ رِبِيعَةً مِّنْ خَيْرِهَا أَبَا ثَمٍّ أُمًّا فَقَالُوا: لِمَهُ^(٢)

معناه: لتُجيب أولاً عن الأب ثم الأم. وقال بعضهم^(٣): معناه: خلقناكم في ظهور آبائكم ثم صورناكم في بطون أمهاتكم. وقال قوم: في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: خلقناكم بمعنى: خلقنا أباكم، أي [أو، ظ]: قدّرناكم، ثم قلنا للملائكة: اسجدوا، ثم صورناكم. قوله تعالى:

قَالَ مِمَّنْعَكَ الْأَتَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ^(٤) آية بلا خلاف.

أقول: هذا حكاية لما كان من خطاب الله لإبليس حين امتنع من السجود لآدم، أنه قال له: ﴿ما منعك﴾ بمعنى: أي شيء منعك ﴿أن لا تسجد﴾ وفيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تكون «لا» صلة مؤكدة، كما قال: ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب﴾^(٥) ومعناه: ليعلم، وكقوله: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾^(٦) وكقوله: ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم﴾^(٧) وكما قال الشاعر:

أَبَى جُودُهُ الْبُخْلَ وَاسْتَعْجَلَتْ بِهِ نَعَمٌ مِّنْ فَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلَهُ^(٨)

(١) هود: ٣ و ٥٢ و ٩٠. (٢) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ٩٥ ولم ينسبه لأحد.

(٣) منهم عكرمة والأعمش. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ٩٤.

(٤) الحديد: ٢٩. (٥) القيامة: ١. (٦) الواقعة: ٧٥.

(٧) أنشده ابن الشجري في الأمالي: ج ٢ ص ٢٢١ و ٢٢٨ ولم ينسبه لأحد. في الحجرية: قابلة

[تله، ثلة، خ].

معناه: أبى جوده البخل، وروى أبو عمرو بن العلاء: أبى جوده لا البخل، بالجر، كأنه قال: أبى جوده كلمة البخل، ورواه كذا عن العرب. وقال الزجاج^(١): فيه وجه ثالث: «لا البخل» على النصب بدلاً من «لا» كأنه قال: أبى جوده أن يقول: «لا» فقال: نعم. وهي حكاية في كل هذا.

الثاني: أنه دخله معنى: ما دعاك أن لا تسجد؟

الثالث: معنى ﴿ألا تسجد﴾: ما الحال أن لا تسجد، أو: ما أحوجك؟ وقال الفراء: لما تقدّم الجحد في أول الكلام أكد بهذا، كما قال الشاعر: ما إن رأينا مثلهنّ لمعشرٍ سود الرؤوس فوالجّ وقبول ف«ما» للنفي و«إن» للنفي، فجُمع بينهما تأكيداً^(٢).

فإن قيل: كيف قال: ﴿ما منعك﴾ ولم يكن ممنوعاً؟!

قلنا: لأنّ الصارف عن الشيء بمنزلة المانع منه، كما أنّ الداعي إليه بمنزلة الحامل عليه.

وقوله: ﴿أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ حكاية لجواب إبليس حين ذمّه تعالى على الامتناع من السجود، فأجاب بما قال، وهذا الجواب غير مطابق، لأنّه كان يجب أن يقول منعني كذا، لأنّ قوله: ﴿أنا خير منه﴾ جواب لمن يقول: أيكما خير؟ ولكن فيه معنى الجواب، ويجري ذلك مجرى أن يقول القائل لغيره: كيف كنت؟ فيقول: أنا صالح، وكان يجب أن يقول: كنت صالحاً، لكنّه جاز ذلك لأنّه أفاد أنّه صالح في الحال مع ما كان صالحاً فيما مضى.

ووجه دخول الشبهة عليه في أنّه خلقه من نار وخلق آدم من طين:

(١) في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٢٣.

(٢) معاني القرآن: ج ١ ص ٣٧٤، وذكر البيت أيضاً في ص ١٧٦ منه.

أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ النَّارَ إِذَا كَانَتْ أَشْرَفَ لَمْ يَجْزِ أَنْ يَسْجُدَ الْأَشْرَفَ لِلْأَذْوَنَ! وَهَذَا خَطَأً، لِأَنَّ ذَلِكَ تَابِعٌ لِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ اللَّطْفِ لَهُمْ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اسْتِخْفَافاً بِهِمْ بِالْأَعْمَالِ.

وَقَدْ قَالَ الْجُبَّائِي: إِنَّ الطِّينَ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ مَنَافِعَ لِلخَلْقِ مِنْ حَيْثُ: إِنَّ الْأَرْضَ مَسْتَقَرُّ الخَلْقِ وَفِيهَا مَعَايِشُهُمْ، وَمِنْهَا تَخْرُجُ أَنْوَاعُ أَرْزَاقِهِمْ، لِأَنَّ الْخَيْرِيَّةَ - فِي الْأَرْضِ أَوْ النَّارِ - إِنَّمَا يَرَادُ بِهِمَا كَثْرَةُ الْمَنَافِعِ، دُونَ كَثْرَةِ الثَّوَابِ، لِأَنَّ الثَّوَابَ لَا يَكُونُ إِلَّا لِلْمَكْلُوفِ الْمَأْمُورِ، وَهَذَا جَمَادَانِ. وَعَلَى مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ أَصْحَابُنَا: أَنَّ ذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى تَفْضِيلِ آدَمَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ كَمَا كَانَ ذَلِكَ مُسْتَحَقّاً، فَلِذَلِكَ أَسْجَدَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ لَهُ.

فَإِنْ قِيلَ: لِمَ اعْتَرَضَ إِبْلِيسُ عَلَى اللَّهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُ إِلَّا الْحِكْمَةَ [لِحِكْمَةِ ظ]؟

قُلْنَا عَنْهُ جَوَابَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ اعْتَرَضَ كَمَا يَعْتَرِضُ السَّفِيهَ عَلَى [الْحَكِيمِ] الْحَلِيمِ فِي تَدْبِيرِهِ مِنْ غَيْرِ فِكْرٍ فِي الْعَاقِبَةِ. وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ جَهْلٌ هَذَا بِشَبْهَةِ دَخَلَتْ عَلَيْهِ. وَعَلَى مَا نَذْهَبُ إِلَيْهِ: مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَرَفَ اللَّهُ قَطُّ سَقَطَتِ الشَّبْهَةُ. وَاسْتَدَلَّ أَيْضاً بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْجَوَاهِرَ مَتَمَاثِلَةٌ، بِأَنْ قِيلَ: لَا شَيْءَ أَبْعَدَ إِلَى الْحَيَوَانَ مِنَ الْجَمَادِ، فَإِذَا جَازَ أَنْ يَنْقَلِبَ الطِّينَ حَيَوَاناً وَإِنْسَاناً جَازَ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ أَحْوَالِ الْجَوَاهِرِ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الْعَقْلِ. وَاسْتَدَلَّ أَيْضاً بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ يَقْتَضِي الْإِيجَابَ: بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ إِبْلِيسَ عَلَى امْتِنَاعِهِ مِنَ السَّجُودِ حِينَ أَمَرَهُ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ يَقْتَضِي النَّدْبَ لَمَا اسْتَحَقَّ الْعَيْبَ بِالمُخَالَفَةِ وَتَرْكِ الْاِمْتِثَالِ، وَالْأَمْرُ بِخِلَافِ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ.

قوله تعالى:

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ آية.

أقول: قوله: ﴿قال فاهبط منها﴾ حكاية لقول الله تعالى لإبليس وأمره إياه أن يهبط منها، وما بعد القول وإن كان استئنافاً والفاء لا يُستأنف بها إنما يكون كذلك، لأن ما قيل له بعد جوابه الذي أجاب به فهو حكاية ما كان من الكلام له الثاني بعد الأول.

والهبوط والنزول واحد، وفرق بينهما: بأن النزول يقتضي تنزله إلى جهة السفلى بمنزلة بعد منزلة، وليس كذلك الهبوط، لأنه كالانحدار في المرور إلى جهة السفلى، وكأنه الانحدار دفعة واحدة، كما قال الشاعر:

كُلُّ بَنِي حُرَّةٍ مَصِيرُهُمْ قُلْ وَإِنْ أَكْثَرُوا مِنَ الْقَدَرِ
إِنْ يُغَبِّطُوا يُهْبِطُوا وَإِنْ أَمَرُوا يَوْمًا فَهُمْ لِلْفَتَاءِ وَالْفَسَدِ^(١)

وقيل في الضمير الذي في قوله: ﴿منها﴾ قولان:

أحدهما: قال الحسن: إنه كناية عن السماء، لأنه كان في السماء فاهبط منها. الثاني: قال أبو علي: كناية عن الجنة.

فإن قيل: من أين علم إبليس أن الله تعالى قال له هذا القول؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما: قال أبو علي: إنه قال له على لسان بعض الملائكة. الثاني: أنه رأى معجزة تدلّه على ذلك.

وقوله: ﴿فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ معناه: ليس لك أن تتكبر فيها،

(١) اللَّبِيدُ بن ربيعة من قصيدة يرثي أخاه لأُمِّه. راجع ديوان لبید: ص ٥٠ وفيه: يوماً يصيرون للهُلْكِ والنكد.

والتكبر: إظهار كبر النفس على جميع الأشياء، فهو في صفة العباد ذم، وفي صفة الله مدح، كما قال تعالى: ﴿الْجَبَّارِ الْمَكْبَرِ﴾^(١) فالجبار: القاهر بجميع [الجميع، ظ] الأشياء، والمكبر: الدالّ بذاته على أنّه أكبر من جميع الأشياء. وقوله: ﴿فاخرج إناك من الصاغرين﴾ أمر من الله لإبليس بالخروج لأنّه من الصاغرين، والصاغر: هو الذليل بصغر القدر، صَغُرَ يَصْغُرُ صَغَرًا وصَغَارًا، وتَصَاعَرَتْ إليه نفسه ذلًّا ومهانة، والأصل: الصِغَر. قوله تعالى:

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ آيتان. أقول: في الآية الأولى حكاية عن إبليس أنّه سأل الله تعالى أن يُنْظِرَهُ، والإنظار: الإمهال إلى مدّة فيها النظر في الأمر، طال أم قَصُر، والإنظار والإمهال والتأخير والتأجيل نظائر في اللغة، وبينها فرق، وضدّ الإمهال: الإعجال. وأصل الإنظار: المقابلة، وهي المناظرة، و«الجبّان يتناظران» أي: يتقابلان، ونظر إليه بعينه أي: قابله لينظر له [إليه، ظ] ونظر إليه بيده ليظهر له حاله في اللين والخشونة أو الحرارة والبرودة.

وقوله: ﴿إلى يوم يُبْعَثُونَ﴾ مدة للإنظار الذي طلبه، والبعث: الإطلاق في الأمر، والانبعاث: الانطلاق، والبعث والحشر والنشر والجمع نظائر. ويجوز في ﴿يوم يُبْعَثُونَ﴾ ثلاثة أوجه من العربية: بالجرّ وترك التنوين على الإضافة، والجرّ مع التنوين على الصفة، والفتح وترك التنوين على البناء، وليس بالوجه، لأنّ الفعل مُعْرَب.

والوجه في مسألة إبليس الإنظار - مع علمه أنّه مطرود ملعون

مسخوط عليه - : علمه بأنَّ الله يظاهر إلى عباده بالإحسان، ويعمَّهم بفضلِه وإنعامه، فلم يصرف ارتكابه المعصية وإصراره على الخطيئة عن المسألة طامعاً في الإجابة، وعن أنس: من بلوغ المحبّة.

وقيل في قوله: ﴿قال إنَّك من المنظرين﴾: هل فيه إجابة إلى ما التمسَه أم لا؟ فقال السُّدِّي وغيره: إنَّه لم يجبه ﴿إلى يوم يُبعَثون﴾ لأنَّه يوم القيامة، وهو يوم بعث لا يوم موت، ولكن أنظر ﴿إلى يوم الوقتِ المعلوم﴾ كما ذكره في سورة أخرى^(١). ويقوِّي ذلك قوله: ﴿إنَّك من المنظرين﴾ وليس لأحد [أن] ينظر أحداً إلى يوم القيامة على هذا المعنى.

الثاني: أنَّه سأل تأخير الجزاء بالعقوبة إلى يوم يُبعَثون لما خاف من تعجيل العقوبة، فأنظر على هذا.

وقال قوم: أنظر إلى يوم القيامة. والأقوى: الوجه الثاني، لأنَّه لا يجوز أن يُعلم الله أحداً من المكلفين الذين ليسوا بمعصومين أنَّه يبعثهم [بقيهم، ظ] إلى وقتٍ معيَّن، لأنَّ في ذلك إغراء له بالقبيح من حيث إنَّه يعلم أنَّه باقٍ إلى ذلك الوقت فيرتكب القبيح، فإذا قارب الوقت جدَّد التوبة فيسقط عنه العقاب.

وهل يجوز إجابة دعاء الكافر أم لا؟ فيه خلاف.

فذهب أبو عليٍّ إلى أنَّه لا يجوز، لما في ذلك من التعظيم والتبجيل لمُجَاب الدعوة في مجرى العادة، ألا ترى أنَّه إذا قيل: فلان مُجَاب الدعوة، دلَّ ذلك على أنَّه صالح المؤمنين.

وأجاز ذلك أبو بكر بن الأخشيد على وجه الاستصلاح، ويقول: إنَّه

يتفضل بحسب الوجه الذي يقع عليه.

وَكُسِرَتْ «إِنْ» لَأَنَّهَا حكاية بعد القول، وهي تُكْسَرُ في هذا الموضع، وفي الابتداء بها، وإذا كان في خبرها لام التأكيد. وإِنَّمَا عملت «إِنْ» لشبهها بالفعل الماضي من حيث كانت على ثلاثة أحرف مفتوحة الآخر، فهي بمنزلة «كان» إِلَّا أَنَّهُ خولف بعملها لَأَنَّهَا حرف.

قوله تعالى:

قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَسَّرُ لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿قال فيما آغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ حكاية عن قول إبليس، لما لعنه الله وطرده، وحكى سؤاله الإنظار، وإجابة الله تعالى إلى شيء منه، قال حينئذٍ ﴿فبما آغويتني﴾ أي: فبالذي آغويتني، وقيل في معنى هذه الباء ثلاثة أقوال: أحدها: إِنِّي مع إغوائك إِيَّاي، كما تقول: بقيامك تناول هذا، أي: مع قيامك. الثاني: إِنَّ معناه اللام، والتقدير: فلا إغوائك إِيَّاي. الثالث: إِنَّهَا بمعنى الْقَسَم كقولك: بالله لأفعلن.

وقيل في معنى ﴿آغويتني﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال أبو عليّ والبلخي: معناه: بما خيبتني من جنتك، كما قال

الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ

ومن يَغْوُ لَا يَعْدُم عَلَى الْغَيِّ لَأِنَّمَا ^(١)

(١) أنشده في العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٢٨ ونسبه إلى المرقش.

أي: من يخب، وقال قوم: يجوز أن يكون أراد: إنك امتحنتني بالسجود لآدم فغويت عنده، فقال: ﴿أغويتني﴾ كما قال: ﴿فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾^(١).

الثاني: قال ابن عباس وابن زيد: معناه: حكمت بغوايتي، كقولك: أضللتني أي: حكمت بضالتي.

الثالث: ﴿أغويتني﴾ بمعنى: أهلكني بلعنك إياي، كما قال الشاعر: مُعْطَفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِنِهَا دَرًّا وَلَا مَيِّتٌ غَوَى^(٢) أي: ولا ميّت هلاكاً بالقعود عن شرب اللبن، ومنه قوله: ﴿فسوف يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾^(٣) أي: هلاكاً. ويقولون: غَوِيَ الفصيلُ إذا أنفذ اللبن فمات، والمصدر: «غَوَى» مقصوراً.

وقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ جواب القسم، والقسم محذوف، لأنّ غرضه بالكلام التأكيد، وهو ضدّ قوله: ﴿صَ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾^(٤) فإنّه حذف الجواب، وهي القسم، لأنّ الغرض تعظيم المُقَسَّم به.

و «قعوده على الصراط» معناه: أنّه يقعد على طريق الحقّ ليصدّ عنه بالإغواء حتّى يصرفه إلى طريق الباطل عداوةً له وكيداً.

وقوله: ﴿صراطك المستقيم﴾ قيل في نصب ﴿صراطك﴾: إنّّه نصب على الحذف دون الظرف، وتقديره: على صراطك، كما قيل: ضرب زيد الظهر والبطن أي: على الظهر والبطن، قال الشاعر:

(١) التوبة: ١٢٥.

(٢) لمُدْرَج الرّيح الجرمي، واسمه عامر بن المجنون. راجع الشعر والشعراء لابن قُتيبة: ص ٤٦١.

(٤) ص: ١.

(٣) مريم: ٥٩.

لَذَنْ بِهِزَ الْكَفِّ يَعْسِلُ مَثْنُهُ فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلُبُ^(١)
وقال آخر:

كَأَنِّي إِذَا سَعَى لِأُظْفَرَ طَائِرًا مَعَ النَّجْمِ فِي جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ^(٢)
أَي: لِأُظْفَرَ عَلَى طَائِرٍ. وَإِغْوَاءُ اللَّهِ تَعَالَى لِإِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ سَبَبًا لِضَلَالِهِ،
لَأَنَّهُ تَعَالَى عِلْمُ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَغْوِهِ لَوْ قَع مِنْهُ مِثْلُ الضَّلَالِ الَّذِي وَقَعَ أَوْ أَعْظَمَ.
فَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ لَوْ كَانَ مَا يَفْعَلُ بِهِ الْإِيمَانُ هُوَ مَا يَفْعَلُ بِهِ الْكُفْرُ لَكَانَ
قَوْلُهُ: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ وَ «بِمَا أَصْلَحْتَنِي» بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَكَلَامٌ غَيْرٌ صَحِيحٌ،
لَأَنَّ صِفَةَ الْآلَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْإِيمَانُ خِلَافَ صِفَتِهَا إِذَا وَقَعَ بِهَا الْكُفْرُ وَإِنْ
كَانَتْ وَاحِدَةً كَالسَّيْفِ، وَلَا يَجِبُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ صِفَتِهَا وَاحِدَةً مِنْ أَجْلِ
أَنَّهَا وَاحِدَةٌ، بَلْ لَا يَمْتَنِعُ أَنَّهُ مَتَى اسْتَعْمَلَ آلَةَ الْإِيمَانِ فِي الضَّلَالِ سُمِّيَ
إِغْوَاءً، وَإِنْ اسْتَعْمَلَ فِي الْإِيمَانِ سُمِّيَ هِدَايَةً وَإِنْ كَانَ مَا يَصَحُّ بِهِ الْإِيمَانُ
وَالْكَفْرُ وَالضَّلَالُ وَاحِدًا.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَنِيَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ
شَمَائِلِهِمْ﴾ قِيلَ فِي مَعْنَاهُ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ الْحَكَمِ وَالسُّدِّيُّ وَابْنُ
جُرَيْجٍ: مِنْ قَبْلِ دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ، وَمِنْ جِهَةِ حَسَنَاتِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ.

الثَّانِي: قَالَ مُجَاهِدٌ: مِنْ حَيْثُ يَبْصُرُونَ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَبْصُرُونَ.

الثَّلَاثُ: قَالَ الْبَلْخِيُّ وَأَبُو عَلِيٍّ: مِنْ كُلِّ جِهَةٍ يُمْكِنُ الْإِحْتِيَالُ عَلَيْهِمْ بِهَا.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ فَوْقِهِمْ، لِأَنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنْ

فَوْقِهِمْ، وَلَمْ يَقُلْ: مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ، لِأَنَّ الْإِتْيَانَ مِنْهُ مُوَحِّشٌ.

(١) لِسَاعِدَةَ بْنِ جُوَيْيَّةَ. ذَكَرَهُ سَيُوهٍ ضَمَّنَ شَوَاهِدَهُ فِي الْكِتَابِ: ج ١ ص ٣٦ و ٢١٤.

(٢) أَنْشَدَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ: ج ٨ ص ١٠٠.

وقال أبو جعفر عليه السلام: ﴿ثُمَّ لَا تَبْنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه: أهْوَنَ عليهم أمر الآخرة ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ أمرهم بجمع الأموال والبخل بها عن الحقوق لتبقى لَوَزَنَتِهِمْ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ أفسد عليهم أمر دينهم بتزوين الضلالة وتحسين الشبهة ﴿وَعَنْ شِمَائِلِهِمْ﴾ بتحبيب اللذات إليهم، وتغليب الشهوات على قلوبهم ^(١).

وقال الزجاج: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه: أغويهم حتّى يكذبوا بالبعث والنشور ﴿وَمَنْ خَلْفَهُمْ﴾ حتّى يجحدوا ما كان من أخبار الأمم الماضية والأنبياء السالفة.

وإنّما دخلت «من» في الخلف والقُدّام، و«عن» في اليمين والشمال، لأنّ في «القُدّام» و«الخلف» معنى: طلب النهاية، وفي «اليمين» و«الشمال»: الانحراف عن الجهة، ودخول «ثمّ» في أول الكلام لأحد أمرين أحدهما: بيان أنّ هذا المعنى يكون بعد القعود في طريقهم.

وقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ إخبار من إبليس أنّ الله لا يجد أكثر خلقه شاكرين، وقيل: يمكن أن يكون علّم ذلك من أحد وجهين: أحدهما: قال أبو عليّ: ذلك علمه من جهة الملائكة بإخبار الله تعالى إيّاهم. الثاني: قال الحسن: يجوز أن يكون أخبر عن ظنّه ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ ^(٢) لأنّه لما أغوى آدم فاستزله قال: ذرّية هذا أضعف منه، وظنّ أنّهم سيحبّبونه ويبايعونه [يتابعونه، ظ]. قوله تعالى:

قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: حُكِيَ^(١) عن عاصم في الشواذ ﴿لِمَنْ تَبِعَكَ﴾ بكسر اللام، ويكون خبره محذوفاً وتقديره: لمن تبعك النار، وليس بمعروف.

هذا خبر من الله تعالى أنه ﴿قال اخرج منها﴾ يعني: من الجنة ﴿مَذْمُوماً﴾ قال ابن عباس: معناه معيباً. وقال ابن زيد: مذموماً. يُقال: ذَامَهُ يَذْمُهُ ذِماً وذَاماً وذَامَهُ يَذْمُهُ ذِماً وذاماً. وقيل: الذَّامُ والذَّيْمُ: أشد العيب، ومثله: اللُّوم، قال الشاعر:

صَحْبَتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ

فَلَمَّا انجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَذِيْمُهَا^(٢)

وأكثر الرواية: أَلُومُهَا. وقوله: ﴿مدحوراً﴾ فالدحر: الدفع على وجه الهوان والإذلال، دَحَرَهُ يَذْرَعُهُ ذِخْراً وَدُحُوراً. وقيل: الدَّخْرُ: الطرد، في قول مجاهد والسُّدِّي.

وقوله: ﴿لمن تبعك منهم﴾ جواب القسم، وحذف جواب الجزاء في ﴿لمن تبعك﴾ لأنَّ جواب القسم أولى بالذِّكْر من حيث إنه في صدر الكلام، ولو كان في حشو الكلام لكان الجزاء أحقَّ منه، كقولك: إن تَأْتِي والله أَكْرَمُكَ، ولا يجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ هاهنا بمعنى «الذي» لأنها لا تقلب الماضي إلى الاستقبال، ويجوز أن تقول: والله لمن جاءك أضربه، بمعنى: لأضربه، ولم يجز بمعنى: لأضربته، كما يجوز: والله أضرب زيدا، بمعنى: لأضرب، ولا يجوز بمعنى: لأضربن، لأنَّ الإيجاب لا بدَّ فيه من نون التأكيد مع اللام على قول الزجاج.

(١ و ٢) حكاه ابن خالويه في شواذ القرآن: ص ٤٨ عن عصمة.

وإنما قال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ﴾ بلفظ الجمع وإن كان المخاطب واحداً على التغليب للخطاب على الغيبة، كما يغلب المذكر على المؤنث، وكما يغلب الأخف على الأثقل في قولهم: سنة العمرين، لأن المفرد أخف من المضاف، لأن المعنى: لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين، كما ذكره في موضع آخر^(١).

وقوله: ﴿أجمعين﴾ تأكيد لقوله: ﴿منكم﴾ وهو وإن كان بلفظ الغائب أكد به المخاطب، لأنه تابع للأول، فإن كان غائباً فهو غائب، وإن كان مخاطباً فهو مخاطب، وإن كان متكلماً، فهو متكلم، كقولك: نحن منطلق أجمعون عامدون، لأن الاتباع قد دل على ذلك.
قوله تعالى:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ أُسْكُنُ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية خطاب الله تعالى لآدم، وأمره إياه أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة، واختلفوا في الجنة التي أسكن الله آدم فيها: فقال قوم: إنها جنة الخلد، لأن «الجنة» إذا أطلقت معرفة بالألف واللام لا يعقل منها في العرف إلا جنة الخلد، كما أن «السموات والأرض» إذا أطلق لم يعقل منه إلا السموات المخصوصة دون سقف البيت.

وقوله: ﴿وزوجك﴾ إنما جاء به على لفظ التذكير، لأن الإضافة أغنت عن ذلك وأبانت عن المعنى، فكان الحذف أحسن لأنه أوجز، ويقال لصاحب المنزل: «ساكن فيه» وإن يتحرك فيه أحياناً، للتغليب، لأن سكونه

فيه أكثر بجلوسه ونومه في ليله وغير ذلك من أوقاته، وأباح الله تعالى لهما أن يأكلا من حيث شاء وأين شاء ما شاء، ونهاهما على وجه الندب ألا تقربا شجرة.

وعندنا: أن ذلك لم يكن محرماً عليهما، بل نهاهما نهياً تنزيه دون حظر، وبالمخالفة فاتهما ثواب كثير وإن لم يفعلا بذلك قبيحاً، ولا أخلاً بواجب. ومن خالفنا قال: أخطأ في ذلك، على خلاف بينهم بأن ذلك صغيرة أو كبيرة، ومن قال: كانت صغيرة، منهم من قال: وقع ذلك منه سهواً ونسياناً. ومنهم من قال: وقع ذلك تأويلاً من حيث نهى عن جنس الشجر، فحمله على شجرة بعينها، فأخطأ في التأويل! وقد بينّا فساد ذلك فيما مضى^(١). وقوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ يحتمل أن يكون نصباً على جواب النهي، والثاني: أن يكون جزماً عطفاً على النهي، فكأنه قال: لا تقربا هذه الشجرة ولا تكونا من الظالمين.

ومعنى ﴿الظالمين﴾ على مذهبنا هاهنا المراد به الباخسين نفوسهم ثواباً كثيراً، والمفوتين نعيماً عظيماً. ومن قال: إنهما ارتكبا قبيحاً قال: ظلماً أنفسهما بارتكاب القبيح. وعلى مذهب من يقول بأن ذلك كانت صغيرة وقعت مكفرة لا بد أن يُحمل الظلم هاهنا على نقصان الثواب الذي انحبط بمقارفة الصغيرة له، فأبو علي ذهب إلى أن ذلك وقع منه نسياناً! وقال البلخي: وقع منه تأويلاً، لأنه نُهي عن جنس الشجرة فتأوله على شجرة بعينها! وهذا خطأ، لأن ما يقع سهواً أو نسياناً لا يحسن المؤاخذه به، وأما الخطأ في التأويل فقد زاد من قال ذلك قبيحاً آخر، أحدهما:

(١) ج ٢ ص ١٠٣ عند تفسير الآية: ٣٥ من سورة البقرة.

ارتكاب المنهي، والثاني: الخطأ في التأويل به.

قوله تعالى:

فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ
مَنْ هَٰؤُلَاءِ رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ
الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ يحيى بن كثير ويعلى بن حكيم: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾
بكسر اللام من قوله: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾^(١)
الباقون بفتح اللام.

أخبر الله تعالى أنه لما نهى آدم وزوجته عن أكل الشجرة وسوس لهما
الشيطان، والوسوسة: الدعاء إلى أمر بضرب خفي، كالهينمة والحشخشة،
قال رؤبة :

وَسَوَسَ يَدْعُو مُخْلِصاً رَبَّ الْفَلَقِ سِرّاً وَقَدْ أَوَّنَ تَأْوِينَ الْعُقُقِ^(٢)

وقال الأعشى:

تَسْمَعُ لِلْحَلِي وَسَاساً إِذَا انْصَرَفَتْ

كما استعان بِرِيحٍ عِشْرَقُ زَجَلٍ^(٣)

وقوله: ﴿ليبدي لهما﴾ فالإبداء: الإظهار، وهو جعل الشيء على صفة
ما يصح أن يُذكر، وضده: الإخفاء، وكل شيء أزيل عنه الساتر فقد أُبْدِيَ.
وقوله: ﴿ما وُورِيَ﴾ فالمواراة: جعل الشيء وراء ما يستره. ومثله:
المساترة، وضده: المكاشفة، ولم يُهْمَزْ وُورِيَ لَأَنَّ الثَّانِيَةَ مَدَّةٌ، وَلَوْلَا ذَلِكَ
لَوَجَبَ الهمز.

(١) طه: ١٢٠. (٢) أنشده في اللسان: مادة «وسس».

(٣) من قصيدة يمدح يزيد بن مسهر الشيباني. راجع ديوان الأعشى: ص ١٤٩.

وقيل للفرج: سَوَاءٌ، لَأَنَّهُ يَسُوءُ صاحبه إظهاره، وكلّ ما قبح إظهاره: سَوَاءٌ، من هذا المعنى، وإذا بالغوا قالوا: السَّوَاءُ السَّوَاءُ.

ولم يقصد آدم وحواء عليهما السلام بالتناول من الشجرة: القبول من إبليس والطاعة له، بل إنّما قَصَدَا عند دعائه شهوة نفوسهما، ولو قَصَدَا القبول منه لكان ذلك قبيحاً لا مَحَالَةً. وقال الحسن: لو قَصَدَا ذلك لكانا كافرَيْن.

وفُزِّقَ بين «وَسْوَاسَ إِلَيْهِ» و «وَسْوَاسَ لَهُ» لأنّ معنى وسوس إليه مثل قولك: ألقى إليه المعنى، ووسوس له معناه: أوهمه النصيحة له.

فإن قيل: كيف وصل إبليس إلى آدم وحواء حتّى وسوس لهما، وهو خارج الجنّة وهما في الجنّة، وهما في السماء وهو في الأرض؟ قلنا فيه أقوال:

أحدها: قال الحسن: كان يوسوس من الأرض إلى السماء وإلى الجنّة، فوصلت وسوسته بالقوّة التي خلقها الله له. الثاني: قال أبو علي: إنّهما كانا يخرجان إلى [من، ظ] السماء، فبلغهما وهما هناك. الثالث: قال أبو بكر بن الأخشيد: إنّّه خاطبهما من باب الجنّة وهما فيها ^(١).

وقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنّ فيه حذفاً وتقديره: إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ ومعناه: لئلا تكونا مَلَكَتَيْنِ. الثاني: إلّا كراهة أن تكونا مَلَكَتَيْنِ.

فإن قيل: كيف يُمَوّه عليهما أنّ الأكل من الشجرة يوجب الانقلاب من صورة البشرية إلى صورة الملائكة أو يوجب الخلود في الجنّة؟! صورة البشرية إلى صورة الملائكة أو يوجب الخلود في الجنّة؟!

(١) وقد تقدّم تفصيلها عند تفسير الآية: ٣٦ من سورة البقرة.

قلنا عن ذلك جوابان:

أحدهما: أَنَّهُ أَوْهَمَ أَنَّ ذَلِكَ فِي حَكَمِ اللَّهِ فِي كُلِّ (١) مِنْ أَكَلٍ مِنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ. الثَّانِي: أَنَّهُ أَرَادَ: إِلَّا أَنْ تَكُونَا بِمَنْزِلَةِ الْمَلَائِكَةِ فِي عِلْوِ الْمَنْزِلَةِ. واستدلَّ جماعة من المعتزلة بهذه الآية على أَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَفْضَلُ مِنَ الْبَشَرِ، وَالْأَنْبِيَاءَ مِنْهُمْ. وَهَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَجْرِ هَاهُنَا ذِكْرُ لَكثَرَةِ الثَّوَابِ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ أَكْثَرُ ثَوَاباً مِنَ الْبَشَرِ، بَلْ كَانَ قَصْدُ إِبْلِيسَ أَنْ يَقُولَ لآدَمَ: مَا نَهَاكَ اللَّهُ عَنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكِينَ، فَإِنْ كُنْتُمَا مَلَائِكَيْنِ فَقَدْ نَهَاكُمَا، وَحَيْثُ لَسْتُمَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ فَمَا نَهَاكُمَا اللَّهُ عَنْ أَكْلِهَا، وَتَلْخِصِ الْكَلَامَ: أَنَّ الْمُنْهَى مِنْ أَكْلِ الشَّجَرَةِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ فَقَطْ، وَمَنْ لَيْسَ مِنْهُمْ فَلَيْسَ بِمُنْهَى، وَلَا تَعْلَقُ لَذَلِكَ بِكَثْرَةِ الثَّوَابِ وَلَا بِقِلَّتِهِ، وَعَلَى قَوْلِ مَنْ كَسَرَ اللَّامَ: لَا مَتَعْلَقُ فِي الْآيَةِ وَلَا شَبْهَةٌ.

وَالشَّجَرَةُ الَّتِي نُهِِيَ عَنْهَا آدَمُ، قَالَ قَوْمٌ: هِيَ الْكَرْمَةُ، وَقَالَ آخَرُونَ: هِيَ السَّنْبِلَةُ. وَقِيلَ فِيهِ أَقْوَالٌ غَيْرُهُمَا ذَكَرْنَاهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (٢).
قوله تعالى:

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: المقاسمة لا تكون إلا بين اثنين، والقسم كان من إبليس لآدم، لا من آدم له، وإنما قال: ﴿وقاسمهما﴾ كما يقال: «عاقبت اللص» و«طارقت النبل» و«ناولت الرجل [الرحل]» و«عافاه الله» وكذلك: قَاسَمْتُهُ، لِأَنَّ [فِي، ظ] جميع ذلك معنى المقابلة، كَأَنَّهُ قَابِلُهُ فِي الْمَنَازَعَةِ بِالْيَمِينِ، وَالْمَعَاقِبَةُ: مُقَابَلَةٌ بِالْجِزَاءِ، وَكَذَلِكَ: الْمَعَاوَاةُ، وَقَالَ الْهَذَلِيُّ:

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: فَكَلَّ [لِكَلَّ، ظ، فِي كُلِّ، ظ]. (٢) عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ: ٣٥ مِنْهَا.

وَقَاسَمَهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَّذُ مِنْ السَّلَوى إِذَا مَا نَشُورُهَا^(١)
 أي: حالفها، وفي موضع آخر: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾^(٢)
 أي: تحالفوا.

وسئل الحسن فقيلاً له: أليس الله خلق آدم ليكون خليفة في الأرض؟
 قال: بلى، قال: وكان بدّ له من أن يهبط الأرض، قال: لا والله، ولكن لو
 هبط مطيعاً لله كان خيراً له من أن يهبط عاصياً، ولم يعاتبه الله على
 الهبوط، وإنما عاتبه على مخالفة الأمر.

وأصل «القَسَم»: القسم، قال أغشى بني ثعلبة:

رَضِيعِي لِبَنَانٍ ثُدَيَّ أُمُّ تَقَاسَمَا بِأَسْحَمَ دَاجٍ لَا تَتَفَرَّقُ^(٣)
 والقسم تأكيد الخبر بطريقة: والله، وتالله.

أخبر الله تعالى في هذه الآية: أن إبليس حلف لآدم وحواء أنه لهما
 ناصح في دعائهما إلى تناول من الشجرة، ولذلك تأكدت الشبهة عندهما،
 وظناً أن أحداً لا يقدم على اليمين بالله إلا صادقاً، فكان ذلك داعياً لهما
 إلى تناول الشجرة.

ويجوز أن تقول: إنني لك لناصر، ولا يجوز أن تقول: أنا لك لناصر،
 لأنّ لام الابتداء موضعها صدر الكلام، لا تؤخر عنه إلا في باب «إن»
 خاصة، لئلا يجتمع حرفا تأكيد في موضع واحد فيوهم اختلاف المعنى،
 لأنّ الأصل في اجتماع الحرفين في موضع أنه لا ينوب أحدهما عن

(١) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٠٥ ونسبه إلى خالد بن زهير ابن عم أبي ذؤيب
 الهذلي. في الحجرية: أَلَّذُ مِنْ السكرى إِذَا مَا نَسُورُهَا. (٢) النمل: ٤٩.

(٣) من قصيدة طويلة يمدح الملق. راجع ديوان الأعشى: ص ١٢٥ وفيه: «تحالفا». في
 الحجرية: بأسحم داجٍ عَوْضُ لَا تَتَفَرَّقُ.

الآخر، وتقدير الكلام: وقاسمهما إني لكما ناصح، ثم فسر ذلك بقوله: «من الناصحين» يكون [ولا يكون، ظ] متعلقاً بقوله: ﴿لمن الناصحين﴾ فقدّم الصلة على الموصول، ومثله: قوله: ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾^(١) وتقديره: وأنا على ذلكم شاهد، ويبيّنه بقوله: ﴿من الشاهدين﴾.

قوله تعالى:

فَدَلَّسْنَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَتَادَسْنَهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى قوله: ﴿فدلّاهما﴾: حطّهما إلى الخطيئة بغرور، ومنه: قولهم: فلان يتدلّى [تدلّى، ظ] إلى الشرّ، لأنّ الشرّ سافل والخير عال. وقيل: دلّاهما من الجنّة إلى الأرض بغرور. والغرور: إظهار النصح مع إبطان الغشّ، وأصله: «الغرّ»: طيّ الثوب، يُقال: إطوّه على غرّه أي: على كسر طيه، وقال الشاعر:

كَأَنَّ غَرَّ مَسْنِيهِ إِذْ نَجْنَبُهُ سَيْرَ صَنَاعٍ فِي خَرِيذٍ تَكْلِبُهُ^(٢)
فالغرور بمنزلة «الغرّ» لما فيه من إظهار حال وإخفاء حال، ومنه: «الغرّ» لإخفاء ما لا يؤمن فيه، والغرّ: الذي لم يجرب الأمور لأنّها تخفي عليه، والغرّة: الأخذ على غفلة، والغرّارة: الوعاء لأنّها تخفي ما فيها، والأغرّ: الأبيض لظهور الثوب في غرّه، ومنه: الغرّة في الجبهة. وقوله: ﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت

(١) الأنبياء: ٥٦.

(٢) أنشدته في اللسان: مادة «كلب» ونسبه إلى دُكَيْن بن رَجَاءِ القُتَيْمِي. في ط الحجرية: كَانَ غَرْمَتُهُ إِذْ تَجْنَبُهُ.

عورتاهما، ولم يكن ذلك على وجه العقوبة، لأنّ الأنبياء لا يستحقّون العقوبة، وإنّما كان ذلك لتغيّر المصلحة، لأنّهما لمّا تناولا من الشجرة اقتضت المصلحة إخراجهما من الجنّة، ونزعهما لباسهما الذي كان عليهما، وإهباطهما إلى الأرض وتكليفهما منه.

وقوله: ﴿وَطَفِقَا﴾ قال ابن عبّاس: معنى «طَفِقَ»: جعل يفعل، ومثله: قولهم: «ظَلَّ يفعل» و «أخذ يفعل» و «ابتدأ يفعل» فقد يكون ذلك بأوّل (١) الفعل وقد يكون بالقصد إلى الفعل، ويقال: طَفِقَ يَطْفِقُ وَطَفِقَ يَطْفِقُ طَفْقًا. وقوله: ﴿يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ معناه: يقططان [يقطفان، خ] من ورق الجنّة ليستترا به، ويجوزان بعضه إلى بعض، ومنه: المِخْصَفُ: المثقّب الذي يَخْصِفُ به النعل، والخَصَاف: الذي يُرْقِعُ النعل، قال الشاعر:

وَأَسْعَى لِلنَّدَى وَالثَّوْبُ جُرُودٌ محاسِرُهُ وَفِي نَعْلِي خَصَافٌ
يعني: ترقيع، وقال الأعشى:

قَالَتْ أَرَى رَجُلًا فِي كَفِّهِ كَتِفٌ أَوْ يَخْصِفُ النَّعْلَ لَهْفِي أَيْةً صَعَا (٢)
ومنه: قول النبي ﷺ: «خَاصَفُ النَّعْلِ فِي الْحَجَرَةِ» (٣) يعني: عليّاً عليه السلام. والإِخْصَافُ: سرعة العدو، لأنّه يقطعه بسرعة، والخَصَفُ: ثياب غلاظ جدّاً، لأنّه يعسر قطعها لغلظها، وكان [الحسن، ظ] يقرأ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ بمعنى: يختصفان.

(١) في الحجرية: تارك الفعل [فأول، ظ].

(٢) من قصيدة طويلة يمدح هودّة الحنفي. راجع ديوان الأعشى: ص ١١٠.

(٣) تواتر نقل الحديث وبالألفاظ عدّة، فقد أخرجه الترمذي في سننه: ج ٥ ص ٦٣٤ ح ٣٧١٥، والشجري في أماليه: ج ١ ص ١٤١، والحاكم في مستدركه: ج ٤ ص ٢٩٨، وفي مناقب ابن شهر آشوب: ج ٣ ص ٤٤ عن الخطيب في التاريخ والسمعاني في فضائله. وغيرها كثير.

وقوله: ﴿من ورق الجنة﴾ قيل: إنه من ورق التين^(١). فأصل [الورق]: ورق الشجر، ومنه: «الورق» اسم الدراهم، والورقة: سواد في غبرة كأنه كلون الورق الذي بهذه الصفة، وحماسة ورقاء.

وفي ذلك دلالة على أن ستر العورة كان واجباً في ذلك الوقت. وقوله: ﴿وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة﴾ حكاية عما قال الله تعالى لآدم وحواء بعد أن بدت سواتهما وطفاً يخصفان عليهما من ورق الشجر: أليس كنت نهيتكما عن تلكما الشجرة؟ وإنما قال: ﴿تلكما﴾ لأنه خاطب اثنين وأشار إلى الشجرة، فلذلك قال: ﴿تلكما﴾ و﴿أقل لكما﴾ عطف على ﴿أنهكما﴾ فلذلك جزمه ﴿إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ يعني: ظاهر العداوة.

وقد بينا أن آدم لم يرتكب قبيحاً، وأن ما توجه إليه بصورة النهي كان المراد به ضرباً من الكراهة دون الحظر، وإنما قلنا ذلك لقيام الدلالة على عصمتها من سائر القبائح، صغائرها وكبائرها. فعلى هذا لا يحتاج أن تقول: إنهما تأولا فأخطأ على ما قال البلخي والزُماني، أو وقع منهما سهواً على ما قاله الجُبائي.

قوله تعالى:

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾
آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية عما قال آدم وحواء ﷺ لما عاتبهما الله وبخهما على ارتكابهما ما نهاهما عنه، وإخبار عن اعترافهما على

(١) قاله ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ١٠٦.

أنفسهما بأن قالا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ومعناه: بخسناها^(١) الثواب بترك المندوب إليه، والظلم: هو النقص.

وعلى مذهب من يقول: إنهما فعلاً صغيرة، لابد أن يحمل قوله: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ على تنقيص الثواب، لأنّ عندهم أنّ الصغيرة نقّصت ثواب طاعاتهم، فكان ذلك ظلماً للنفس. فأما من يقول: إنّ الصغيرة تقع مكفّرة من غير أن ينقص [من، ظ] ثواب فاعلها شيء، فلا يتصور معنى قوله [لقوله، ظ]: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ ولا يثبت فيها فائدة، لأنهما لم يستحقّا عقاباً بلا خلاف.

وصفة «ظالم» مقارب [مغائر، ظ] لقولنا [تفارق قولنا، ظ]: «ظلمنا» لأنّ «الظالم» اسم ذمّ في أكثر التعارف، و «ظلم» قد يستعمل في غير المستحقّ للعقاب والذمّ، كما أنّ اسم «مؤمن» اسم مدح لمستحقّ الثواب، و «آمن، يؤمن» بخلاف ذلك عند القائلين بالوعيد.

وقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ معناه: إن لم تستر علينا، لأنّ الغفر هو الستر على ما بيّناه فيما مضى، وعلى مذهب من يقول: إنّ معصيتهم كانت صغيرة وقعت مكفّرة لا معنى لقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ لأنّ الغفران لا محالة كائن، ولا يحسن المؤاخذة به.

وقوله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ المعنى: إن لم تفضل علينا بنعيمك التي تتمّ بها ما فوتناه نفوسنا من الثواب بضروب تفضلّك لنكوننّ من جملة من خسر ولم يربح.

والإنسان يصحّ أن يظلم نفسه بأن يدخل عليها ضرراً غير مستحقّ،

(١) في الحجرية: ومعنا بخسناها.

ولا يدفع عنها ضرراً أعظم، ولا يجتلب منفعة تُوفى عليه، ولا يصح أن يكون معاقباً لنفسه، ويجوز أن يأمر الله تعالى المكلف أن يضرب نفسه، ولا يحسن أن يأمره أن يعاقب نفسه، لأنَّ أمر الحكيم يدلُّ على الترغيب في الشيء، ولا يجوز أن يرغبه في عقابه، كما لا يجوز أن يرغبه في ذمِّه ولعنه.

قوله تعالى:

قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾

آية بلا خلاف.

أقول: اختلفوا في المعنى بهذه الآية: فقال السُّدِّيُّ وأبو عليٍّ الجُبَّائي وأبو بكر بن الأخشيد: إنَّ المراد بالخطاب آدم وحواء وإبليس، جمع بينهم في الذِّكْر وإن كان الخطاب لهم وقع في أوقات متفرقة، لأنَّ إبليس أمر بالهبوط حين امتنع من السجود، وآدم وحواء حين أكلا من الشجرة وانتزع لباسهما.

وقال أبو صالح: الخطاب متوجّه إلى آدم وحواء والحیة.

وقال الحسن قولاً بعيداً من الصواب وهو: إنَّ المراد به آدم وحواء والوسوسة. وهذا قول منزع عنده ^(١) لأنَّ الوسوسة لا تُخَاطَب.

والهَبُوط: هو النزول بسرعة، و «البعض» هو أحد قِسْمَي العدة، وأحد قِسْمَي العشرة بعضها، وأحد قِسْمَي الاثنين بعضهما، ولا بعض للواحد لأنَّه لا ينقسم.

وقوله: «بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ» أضاف «البعض» إلى جملةٍ هو منها، ولا يجوز أن يُضَاف «غير» إلى جملةٍ هو منها، لأنَّ إضافة «غير» إلى

(١) في الحجرية: وهذا قول من عزب عنه.

الجملة والتفصيل لصحة أن يكون لكل واحدٍ «غير» وليس كذلك «بعض» لأنه لا يصح أن يكون لكل واحدٍ «بعض» بإضافته إلى الجملة فقط. والعدو: ضدّ الولي، ومن صفة العدو أنه مراد بالمكاره، ومن صفة الولي أنه مراد بالمحاب. وقال الرُّماني: العدو هو النائي بنُصرته في وقت الحاجة إلى معونته، والولي هو الداني بنُصرته في وقت الحاجة إلى معونته.

وقوله: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ فالمستقر قيل في معناه قولان: أحدهما: قال أبو العالية: هو موضع استقرار. الثاني: إنه الاستقرار بعينه، لأن المصدر يجيء على وزن المفعول، نحو: ﴿وَنُذْخِلُكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١) أي: إدخالاً كريماً، قال الشاعر:

أَقَاتِلْ حَتَّى لَا أَرَى لِي مُقَاتَلًا وَأُنْجُو إِذْ غَمَّ الْجَبَانُ مِنَ الْكَرْبِ^(٢)

وقوله: ﴿ومتاع إلى حين﴾ فالمتاع: الانتفاع بما فيه عاجل استلذاذ، لأن المناظر الحسنة يُسْتَمْتَعُ بها لما فيها من عاجل اللذة، والحين: الوقت، قصيراً كان أو طويلاً، إلا أنه قد استعمل على طول الوقت هاهنا وليس بأصل فيه كقول القائل: ما لقيته منذ حين، قال الشاعر:

وما من^(٣) أَحَبَّكَ بَعْدَ الْجَلْمِ وَالْدِينِ

وَقَدْ عَلَاكَ مَشِيبٌ حِينَ لَا حِينَ^(٤)

أي: وقت لا وقت. وقال البلخي: ﴿إلى حين﴾ معناه: إلى القيامة.

(١) النساء: ٣٠. (٢) لكعب بن مالك، أنشده في اللسان: مادة «قتل».

(٣) كذا، والظاهر زيادة «من».

(٤) لجبرير بن قصيدة يهجو الفرزدق. راجع ديوان جبرير: ص ٤٤٥ وفيه: ما بال جهلك بعد الجلم والدين.

قوله تعالى:

قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قرأ ابن ذكوان وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب ﴿تَخْرُجُونَ﴾
بفتح التاء وضمّ الراء، الباقون بضمّ التاء وفتح الراء.
مَنْ قرأ بضمّ التاء فلقوله: ﴿أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿كَذَلِكَ نُخْرِجُ
الْمَوْتَى﴾^(٢) وَمَنْ فتح التاء فلا إجماع الكلّ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً
مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾^(٣) بفتح التاء، ولقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾^(٤)
فأسند الفعل إليهم، ولأنّه أشبه بما قبله من قوله ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ﴾ وكما قال: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾^(٥) أضاف الفعل إليهم.

في الآية إخبار من الله تعالى وحكاية عما قاله لآدم: إِنَّكُمْ تَحْيَوْنَ فِي هَذِهِ
الْأَرْضِ الَّتِي تَهْبِطُونَ إِلَيْهَا، وَفِيهَا تَمُوتُونَ، وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ لِلْبَعْثِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.
قال الجُبَّائِي: فِي الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُخْرِجُ الْعِبَادَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي حَيَوْا فِيهَا بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَأَنَّهُ يُفْنِيهَا بَعْدَ أَنْ
يُخْرِجَ الْعِبَادَ مِنْهَا فِي يَوْمِ الْحَشْرِ، وَإِذَا أَرَادَ إِفْنَاءَهَا زَجَرَهُمْ عَنْهَا زَجْرَةً
فَيَصِيرُونَ إِلَى أَرْضٍ أُخْرَى، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ *
فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾^(٦).

قوله تعالى:

يَسْبِيحُ ءَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى
ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قرأ أهل المدينة وابن عامر والكسائي ﴿ولباس التقوى﴾

(٣) الروم: ٢٥.

(٢) الآية: ٥٧ الآتية.

(١) المؤمنون: ٣٥.

(٦) النازعات: ١٣ و ١٤.

(٥) الآية: ٢٩ الآتية.

(٤) يس: ٥١.

بالنصب، الباؤون بالرفع.

وَمَنْ نَصَبَ حَمْلَهُ عَلَى «أَنْزَلَ» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا... وَلِبَاسَ التَّقْوَى﴾ و «أَنْزَلْنَا» هَاهُنَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾^(١) وَمِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾^(٢) أَيْ: خَلَقَ. وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ:

أحدهما: لِأَنَّهُ يَنْبُتُ بِالْمَطَرِ الَّذِي يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ، فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَالْجُبَّائِيِّ. الثَّانِي: لِأَنَّ الْبَرَكَاتِ تُنْسَبُ إِلَى أَنَّهَا تَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ، لِقَوْلِهِ [كقوله، ظ]: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ﴾ عَلَى هَذَا مَبْتَدَأٌ وَخَبَرُهُ ﴿خَيْرٌ﴾.

وَمَنْ رَفَعَ قَطَعَ «اللباس» مِنَ الْأَوَّلِ وَاسْتَأْنَفَ، فَجَعَلَهُ مَبْتَدَأً وَجَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿ذَلِكَ﴾ صِفَةً لَهُ أَوْ بَدَلًا أَوْ عَطْفَ بَيَانٍ، وَمَنْ قَالَ^(٣): ﴿ذَلِكَ﴾ لَعَوَ فَقَدْ أَخْطَأَ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ مَا قَلَنَاهُ. وَ «خَيْرٌ» خَبَرُ ﴿لِبَاسٌ﴾ وَتَقْدِيرُهُ: لِبَاسُ التَّقْوَى خَيْرٌ لَكُمْ إِذَا أَخَذْتُمْ بِهِ وَأَقْرَبُ لَكُمْ إِلَى اللَّهِ مِمَّا خَلَقَ لَكُمْ مِنَ اللَّبَاسِ وَالرِّيشِ الَّذِي يُتَجَمَّلُ بِهِ.

وَأُضِيفَ «اللباس» إِلَى «التقوى» كَمَا أُضِيفَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾^(٤) إِلَى «الجوع».

وهذه الآية خطاب من الله تعالى لأهل كلِّ زمانٍ من المكلفين على ما بصَحَّ ويجوز من وصول ذلك إليهم، كما يُوصِي الْإِنْسَانُ لَوْلَدِهِ وَوَلَدُ وَلَدِهِ وَإِنْ نَزَلُوا بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ، وَيَجُوزُ خُطَابُ الْمَعْدُومِ بِمَعْنَى: أَنْ يُرَادَ

(٢) الزُّمَرُ: ٦.

(١) الحديد: ٢٥.

(٣) قاله الزُّمَانِيُّ. رَاجِعِ الْفَرِيدِ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ لِلْهَمْدَانِيِّ: ج ٢ ص ٢٨٦.

(٤) النحل: ١١٢.

بالخطاب إذا كان من المعلوم أنه سيوجد وتتكامل فيه شروط التكليف، ولا يجوز أن يُراد من لا يوجد لأنّ ذلك عبث لا فائدة فيه.

واللبّاس: كلّ ما يصلح لللبس من ثوبٍ أو غيره من نحو: الدرع، وما يُغشى به البيت من نطعٍ أو كِسوة، وأصله: المصدر، تقول: لبّسَهُ يلبّسه لبساً ولبّاساً ولبساً - بكسر اللام - قال الشاعر:

فَلَمَّا كَشَفْنَ اللَّبِيسَ عَنْهُ مَسَحْنَهُ بِأَطْرَافِ طِفْلِ زَانَ غَيْلاً مُوشِماً^(١)
الغَيْل: الساعد، ووصفها بلطف الكفّ. والريش: ما فيه الجمال، ومنه: ريش الطائر، وقيل: أصله المصدر، من: رَاشَهُ يَريشُهُ، وقد تَريشَ فلانٌ أي: صارَ له ما يعيش به، قال الشاعر - أنشده سيبويه -:

وَرِيشِي مِنْكُمْ وَهَوَايَ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَتْ زِيَارَتُكُمْ لِمَا^(٢)
وقال سعيد الجهنّي^(٣): الرّياش: المعاش. وقال الزّجاج: الريش: اللّباس، يقولون: أعطيتُهُ رجلاً بريشتِهِ، أي: بكسوته، وجمعه: رِياش.
قال مجاهد: وإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّبَاسَ هَاهُنَا لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يَتَعَرَّوْنَ فِي الطَّوَافِ حَتَّى تَبْدُو سَوَاتِهِمْ بِإِغْوَاءِ الشَّيَاطِينِ، كَمَا أُغْوِيَ أَبَوَاهُم قَبْلَ هَذَا الْإِغْوَاءِ.

وقوله: ﴿يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ﴾ معناه: يستر ما يسوءكم انكشافه من الجسد، لأنّ «السَّوَّة»: ما يسوء انكشافه من الجسد، والعَوْرَة: ترجع إلى

(١) لحميد بن ثور الهلالي يصف فرساً خدّمته جواري الحيّ، أنشده في اللسان: مادتي «طفل» و«لبس».

(٢) أنشده سيبويه في شواهد الكتاب: ج ٣ ص ٢٨٧ ونسبه إلى الراعي، والبيت لجبرير من قصيدة يمدح هشاماً. راجع ديوان جبرير: ص ٣٨١.

(٣) في الطبري والماوردي: «معبد الجهنّي».

النقيصة في الجسد، قال الشاعر:

خَرَقُوا جَنِبَ فَتَاتِهِمْ لَمْ يُبَالُوا سَوْءَ الرَّجُلَةِ^(١)

﴿ولباس التقوى﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: قال ابن عباس: هو العمل الصالح. الثاني: قال قتادة والسدي وابن جريج: هو الإيمان. الثالث: قال الحسن هو الحياء الذي يكسبكم التقوى. الرابع: قال الجبائي: هو الذي يقتصر عليه من أراد التواضع والنسك في العبادة من لبس الصوف والخشن من الثياب. الخامس: قال الرماني: هو العمل الذي يقي العقاب، وفيه: الجمال، مثل: جمال الناس من الثياب. وقال الحسين بن علي المغربي: ﴿لباس التقوى﴾ يعني: الذي كان عليكما في الجنة خير لكم، بدلالة قوله: ﴿ذلك﴾ وهي للبعد.

وقوله: ﴿ذلك من آيات الله﴾ معناه: أن الذي فعلناه بكم من حجج الله التي دللتكم على توحيده من الله ﴿لعلهم يذكرون﴾ معناه: لكي يتفكروا فيها ويؤمنوا بالله وتصيروا إلى طاعته وتنتهوا عن معاصيه. قوله تعالى:

يَبَيِّنَ ءَادَمَ لَا يَفْتِنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰرِهِمَا إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا خطاب من الله لأولاد آدم العقلاء منهم المكلفين، فنهاهم أن يفتنوا بفتنة الشيطان، والفتنة: هي الاختبار والابتلاء، وافتتان الشيطان يكون بالدعاء إلى المعاصي من الجهة التي تميل إليها النفوس وما تشتهيه.

(١) أنشده المبرّد في الكامل: ج ١ ص ٣٦٦ ولم ينسبه لأحد.

وإنما جاز أن ينهى الإنسان بصيغة النهي للشيطان لأنه أبلغ في التحذير من حيث يقتضي أنه يطلبنا بالمكروه، ويقصدونا بالعداوة، فالنهي له يدخل فيه النهي لنا عن ترك التحذير منه.

وقوله: ﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ يعني: أغوى أبويكم آدم وحواء حتى خرجا من الجنة، فنسب الإخراج إليه لما كان باغوائه، وجرى ذلك مجرى ذم الله تعالى فرعون بأنه يذبح أبناءهم وإنما أمر بذلك، وتحقيق الذم فيها راجع إلى فعل المذموم، ولكنه يذكر بهذه الصفة لبيان منزلة فعله في عظم الفاحشة.

وقوله: ﴿ينزع عنهما لباسهما﴾ في موضع الحال من ﴿الشيطان﴾ وتقديره: نازعاً عنهما لباسهما لكي تبدو سواتهما فيرياها، والتزع: قلع الشيء من موضعه الذي هو ملائش له، ويقال: نزع من الأمر ينزع نزوعاً تشبيهاً بهذا، ونازعته: منازعة إذا حاول كل واحد منهما أن يدخل^(١) يزيل [مزيل، خ] صاحبه عما هو عليه، وغرض الشيطان في أن يريا سواتهما هو أن يغمتهما ذلك ويسوؤهما أن تبدو لغيرهما كما بدا لهما، لأن ذلك صفة كل من له مروءة.

واللباس الذي ينزع عنهما قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: قال ابن عباس: كان لباسهما الظفر. وقال وهب بن منبه: كان لباسهما نوراً. وقال قوم: هي ثياب من ثياب الجنة.

وقوله: ﴿إنه﴾ يعني: الشيطان ﴿يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾ وإنما كانوا يروننا [يروننا، ظ] ولا نراهم لأن أبصارهم أهدأ من أبصارنا،

(١) كذا، والظاهر: زيادة «يدخل».

وأكثر ضوءاً من أبصارنا، فأبصارنا قليلة الشعاع، ومع ذلك أجسامهم شفافة وأجسامنا كثيفة، فصَحَّ أن يرونا ولا يصحَّ منا أن نراهم، ولو تكتفوا لصَحَّ منا أيضاً أن نراهم.

وقال أبو علي: في الآية دلالة على بطلان قول من يقول: إنه يرى الجن من حيث إن الله عمَّ أن لا نراهم، قال: وإنما يجوز أن يُرَوْا في زمن الأنبياء بأن يكتف الله أجسامهم.

وقال أبو الهذيل وأبو بكر بن الأخشيد: يجوز أن يمكنهم الله أن يتكتفوا فيراهم حينئذٍ من يختصَّ بخدمتهم.

و«قبيل الشيطان» قال الحسن وابن زيد: هونسله، وبه قال أبو علي، واستدلَّ على ذلك بقوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾^(١). وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إِنَّا حكمنا بذلك لأنهم يتناصرون على الباطل، ومثله: قوله: ﴿وجعلوا لهم لُتُكَةً الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِآثَأُ﴾^(٢) أي: حكموا بذلك حكماً باطلاً. و«حيث» في موضع خفض بحرف «من» غير أنها بُنِيَتْ على الضمِّ، وأصلها أن تكون موقوفة^(٣) لأنها ليست لمكان بعينه، وأنَّ ما بعدها صلة لها ليست بمضافة إليه، ومنهم من يقول: «من حيث» خرجت بالفتح لالتقاء الساكنين، ومنهم من يقول: «حَوْثٌ» ولا يُقْرَأُ بهما^(٤).
قوله تعالى:

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ اتَّقُوا اللَّهَ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ آية بلا خلاف.

(١) الكهف: ٥٠. (٢) الزُخْرُف: ١٩. (٣) كذا في الحجرية، والظاهر: مرفوعة.

(٤) حكاها سيبويه في الكتاب: ج ٣ ص ٢٩٢ عن بعضهم.

أقول: الكناية في قوله: ﴿فَعَلُوا فَاَحْشَةَ﴾ كناية عن المشركين الَّذِينَ كانوا يبدون سَوَاتِهِمْ في طوافهم: النساء والرجال الحُشَسَ خاصَّةً، وله خبر طويل^(١) في قول ابن عَبَّاس ومجاهد وسعيد بن جُبَيْر والشَّعْبِي والسُّدِّي، وقالت العامريَّة:

اليَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ وما بَدَا مِنْهُ فَلَا أَجَلُهُ^(٢)

قال الفراء: كانوا يعملون شيئاً من سُيُورٍ مقطَّعة يشدُّون على حَقَوِّهِمْ فسمِّي [تُسمَّى، ظ] خَوْفاً، وإنْ عُمِلَ من صَوْفٍ سُمِّيَ رَهْطاً. وقال الحسن وأبو عليّ: هي كناية عن عَبْدَةِ الأوثان، وفواحشهم: الشرك بالله والكفر بِنِعْمِهِ.

والفاحشة: ما عظم قبحه في قول الزَّجَّاج، يُقال: فَحَشَ يَفْحُشُ فَحْشاً، ولا يُقال في الصغيرة - عند مَنْ قال بها - : فاحشةٌ وإن قيل فيها: إنها قبيحة، كما لا يقال: في القوم فاحِشٌ وإن قيل: قبيح.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الكفَّار أَنَّهُمْ ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاَحْشَةَ﴾ وارتكبوا قبيحاً اعتذروا لنفوسهم بأن قالوا: وجدنا آباءنا يفعلونها. قال الحسن: وإنَّما دعاهم إلى هذا القول لأنَّ أهل الجاهليَّة كانوا أهل إجبار، وقالوا: لو كره الله ما نحن عليه من هذا الدين لَنَقَلْنَا عنه، فهو قوله: ﴿والله أمرنا بها﴾. وقال غيره: إنَّهم توهَّموا أنَّ آباءهم لم يفعلوا ذلك إلَّا وهو من قبل الله. وإنَّما قالوا [قال، ظ] آباؤهم يشتهيه [يسببه، ظ] فحينئذٍ ردَّ الله عليهم قولهم بأن قال: ﴿إنَّ الله لا يأمر بالفحشاء﴾ ثم قال على وجه الإنكار:

(١) حكاه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١١٤ و ١١٨ - ١١٩ مسنداً.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره المتقدم. والعامريَّة هي أسماء بنت مخربة، كذا حكاه ابن حجر

في الإصابة: ج ٤ ص ٢٣٢.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لَأَنَّهُمْ إِنْ قَالُوا: لَا، نقضوا مذهبهم، وإن قالوا: نعم، افترضوا في قولهم. وقال الزجاج: معنى ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ﴾: أَتَكْذِبُونَ عَلَيْهِ.

وفي الآية حجة على أصحاب المعارف وأهل التقليد، لأنه ذمّ الفريقين، ولو كان الأمر على ما يقولون لَمَا تَوَجَّهَ عليهما الذمّ. فإن قيل: إِنَّمَا أَنْكَرَ اللَّهُ قَوْلَهُمْ: إِنْ اللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا، ولا يدفع ذلك أن يكون مريداً لها، لأنَّ الأمر منفصل من الإرادة.

قلنا: الأمر لا يكون أمراً إلا بإرادة المأمور به، فما أَرَادَهُ فَقَدْ رَغِبَ فِيهِ ودعا إليه، فاشتركا في المعنى.

قوله تعالى:

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿٢٩﴾ كَمَا بَدَأْتُمْ تَعْدُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ . آيتان.

تمام الأولى في الكوفي: ﴿تعودون﴾ وفي البصري: تمام الأولى ﴿مخلصين له الدين﴾ وتمام الأخرى عند الجميع ﴿مهتدون﴾.

أقول: لَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارِ أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنْ اللَّهُ أَمَرْنَا بِمَا نَفْعُهُ وَنَعْتَقِدُهُ مِنَ الْفَوَاحِش، وَرَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنْ اللَّهُ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أَمَرَ نَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ وَهُوَ الْعَدْلُ فِي قَوْلِ مُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَأَكْثَرِ الْمَفْسِّرِينَ، وَأَصْلُهُ: الْعَدُولُ، فَإِذَا كَانَ إِلَى جِهَةِ الْحَقِّ فَهُوَ عَدْلٌ، وَمِنْهُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنْ اللَّهُ يَحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ^(١) وَإِذَا كَانَ إِلَى جِهَةِ

الباطل فهو جور، ومنه: قوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾^(١) وأمرهم أن يقيموا وجوههم عند كلِّ مسجد، قيل فيه وجوه: أحدها: قال مجاهد والسُّدِّي وابن زيد: معناه: توجَّهوا إلى قِبَلَةِ كلِّ مسجد في الصلاة على استقامة.

الثاني: قال الربيع: توجَّهوا بالإخلاص لله لا للوثن ولا غيره. وقال الفراء: معناه: إذا دخل عليك وقت الصلاة في مسجدٍ فصلَّ فيه، ولا تقل: آتي مسجد قومي. وهو اختيار المغربي.

وقوله: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أمرهم بالدعاء والتضرُّع إليه تعالى على وجه الإخلاص، وأصل الإخلاص: إخراج كلِّ شائب من الجنس [الخَبث، ظ] ومنه: إخلاص الدين لله عزَّ وجلَّ وهو توجيه العبادة إليه خالصاً دون غيره.

وقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال ابن عبَّاس والحسن وقَتَادَة ومجاهد وابن زيد: كما خلقكم أولاً تَعُودُونَ بعد الفناء، ورُوي عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يُخْشَرُونَ عُرَاةَ حُفَاةٍ غُرُلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ»^(٢).

الثاني: قال ابن عبَّاس وجابر في رواية: «إِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ عَلَى مَا مَاتُوا عَلَيْهِ: الْمُؤْمِنُونَ عَلَى إِيْمَانِهِ، وَالْكَافِرُونَ عَلَى كُفْرِهِ. وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَذَا الْقَوْلَ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: قَالَ الزَّجَّاجُ: عَلَى وَجْهِ الْحِجَاجِ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَقْرَوْنَ بِالْبَعْثِ. الثَّانِي: عَلَى وَجْهِ الْأَمْرِ بِالْإِقْرَارِ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَأَقْرَؤُوا أَنَّهُ كَمَا

(١) الجن: ١٥.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح: ج ٤ ص ٢١٩٤ ح ٥٨ من كتاب الجنة وصفة نعيمها بسنده عن ابن عبَّاس.

بداكم تعودون.

والبدء: فعل الشيء أول مرة، والعود: فعله ثاني مرة، وقد يكون فعل أول خصلة منه بدء، كـ «بدء الصلاة» و «بدء القراءة» بدأهم وأبدأهم لفتان. وقوله: ﴿فريقاً هدى﴾ فالفريق: جماعة انفصلت من جماعة، وذكر «فريق» هاهنا أحسن من ذكر «نفر» و «قوم» أو نحوه، لما فيه من الإشعار بالمباينة.

ونصب ﴿فريقاً﴾ بـ ﴿هدى﴾ وقوله: ﴿وفريقاً حق عليهم الضلالة﴾ لتقابل ﴿فريقاً هدى﴾ بعطف فعلٍ [على فعلٍ] وتقديره: وفريقاً أضل، إلا أنه فسره ما بعده، نظير قوله: ﴿يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾^(١).

وقال الفراء: نصب ﴿فريقاً﴾ على الحال، والعامل فيه: ﴿تعودون فريقاً﴾ والثاني عطف عليه، ولو رفع على تقدير: أحدهما كذا والآخر كذا، كان جائزاً كما قال: ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة﴾^(٢).

والهدى والإضلال في الآية يحتمل أربعة أوجه:
أحدها: أنه حكم بأن هؤلاء مهتدون مدحاً لهم، وحكم بأن أولئك ضالون ذمماً لهم.

الثاني: الدلالة التي انشراح بها صدور هؤلاء للاهتداء وضاعت بها صدور أولئك لشدة محبتهم، لما هم عليه من مذهبهم.

الثالث: هدى بأن لطف لهؤلاء بما اهتموا عنده، وصار كالسبب لضلال

وأولئك بتخييرهم [بتحيرهم، ظ] لينتقلوا عن فاسد مذهبهم.

الرابع: أَنَّهُ هَدَى هَؤُلَاءِ إِلَى طَرِيقِ الشَّوَابِ، وَأَوَّلُكَ لَعَمَى الْإِضْلَالِ [أفضى الضلال، ظ] عَنْهُ بِالْعِقَابِ فِي النَّارِ.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إِبْخَارُ مِنْهُ تَعَالَى أَنَّهُ فَعَلَ بِهِمْ مَا فَعَلَ مِنَ الضَّلَالِ، لِأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَالْإِتِّخَاذُ، الْإِفْتِعَالُ مِنَ الْإِخْذِ، بِمَعْنَى: إِعْدَادُ الشَّيْءِ لِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ، فَلَمَّا أَعَدَّ الشَّيَاطِينَ لِنَصْرَتِهِمْ كَانُوا قَدْ اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ بِإِعْدَادِهِمْ.

وقوله: ﴿وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْكَفَّارُ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ، وَالْحُسْبَانُ وَالظَّنُّ وَاحِدٌ، وَهُوَ مَا قَوِيَ عِنْدَ الظَّانِّ كَوْنُ الْمَظْنُونِ عَلَى مَا ظَنَّهُ مَعَ تَجْوِيزِهِ أَنْ يَكُونَ عَلَى غَيْرِهِ، فَبِالْقُوَّةِ يَتَمَيَّزُ مِنْ اعْتِقَادِ التَّقْلِيدِ وَالتَّخْمِينِ^(١) وَبِالتَّجْوِيزِ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْعِلْمِ، لِأَنَّ مَعَ الْعِلْمِ الْقَطْعَ. قوله تعالى:

يَسْبِقَ أَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَوْلَادَ آدَمَ الذَّكَورَ مِنْهُمْ، لِأَنَّ «بَنِي» جَمَعَ «ابْنٍ» وَإِنَّمَا نُصِبَ لِأَنَّهُ نِدَاءُ مِضَافٍ، وَالْإِبْنُ: هُوَ الْوَلَدُ الذَّكَرُ، وَالْبَنْتُ: الْوَلَدُ الْأُنْثَى، أَمَرَهُمُ اللَّهُ بِأَنْ يَأْخُذُوا، وَمَعْنَاهُ: أَنْ يَتَنَاوَلُوا زِينَتَهُمْ، وَالزَّيْنَةُ: هِيَ اللَّبَسَةُ الْحَسَنَةُ، وَيُسَمَّى مَا يَتَزَيَّنُ بِهِ: زِينَةً، كَالثِّيَابِ الْجَمِيلَةِ وَالْحَلِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وقوله: ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ رُوِيَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «فِي

(١) فِي نَسْخَةِ: «وَالْتَبْخِيتُ» وَفِي الْحَجَرِيَّةِ: التَّنْجِيَةُ، خ.

الجُمُعات والأعياد».

وقال ابن عباس وعطاء وإبراهيم والحسن وقتادة وسعيد بن جبّير: كانوا يطوفون بالبيت عُراً، فنهاهم الله عن ذلك.
وقال مجاهد: ما وارى العورة، ولو عباءة. وقال الزجاج: هو أمر بالاستتار في الصلاة.

قال أبو علي: ولهذا صار التزُّين للأعياد والجُمع سنّة.
وقيل في وجه شبهتهم في تعزّيهم في الطواف وإبداء السّوءة وجهان: أحدهما: أنّ الثياب قد دنّستها المعاصي فيجرّدوا منها. الثاني: تفالوا بالتعزّي من الذنوب.

وقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ صورته صورة الأمر، ومعناه: إباحة الأكل والشرب.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْرِفُوا﴾ نهي لهم عن الإسراف، وهو الخروج عن حدّ الاستواء في زيادة المقدار. وقيل: المراد: الخروج عن الحلال إلى الحرام. وقيل: الخروج ممّا ينفع إلى ما يضرّ. وقيل: الزيادة على الشيع، فالإسراف والإقتار مذمومان.

وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ معناه: يبغض المسرفين، لأنّه ذمّ لهم، ولو كان بمعنى: لا يحبّهم ولا يبغضهم، لم يكن ذمّاً لهم ولا مدحاً.
وقال أبو علي: من لا يحبّه الله فهو يبغضه ويعاديّه.
قوله تعالى:

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ، وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ آية بلا خلاف.

قرأ نافع وحده: ﴿خالصةٌ يوم القيامة﴾ بالرفع، الباقون بالنصب.
 مَنْ رفعه جعله خبر المبتدأ الَّذِي هو ﴿هي﴾ ويكون ﴿لَّذِينَ آمَنُوا﴾
 تبييناً [تثبيتاً، ظ] لِلْخُلُوصِ، ولا شيء فيه على هذا. وَمَنْ قال: «هذا حلو
 حامض» أمكن أن يكون ﴿لَّذِينَ آمَنُوا﴾ خبراً و ﴿خالصةٌ﴾ خبراً آخر.
 وَمَنْ نصب ﴿خالصةٌ﴾ كان حالاً ممّا في قوله: ﴿لَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا ترى أن
 فيه ذكراً يعود إلى المبتدأ الَّذِي هو ﴿هي﴾ ف ﴿خالصةٌ﴾ حال عن ذلك
 الذكر، والعامل في الحال ما في اللام من معنى الفعل، و ﴿هي﴾ متعلّقة
 بمحذوف يعود إليه الذكر الَّذِي كأن يكون في المحذوف لو ذُكر ولم
 يُحذف، وليس متعلّقا بِالْخُلُوصِ كما تعلّق به في قول مَنْ رَفَعَ، وتقديره:
 هو لَّذِينَ آمَنُوا في الحياة الدنيا لهم خالصةٌ، ذكره الفراء.

وحجّة مَنْ رَفَعَ: أَنَّ المعنى: هي تخلص لِّلَّذِينَ آمَنُوا يوم القيامة، وإن
 شركهم فيها غيرهم من الكافرين في الدنيا. وَمَنْ نَصَبَ فالمعنى عنده: هي ثابتة
 لِّلَّذِينَ آمَنُوا في حال خُلُوصِها يوم القيامة لهم، وانتصابه على الحال أشبه
 بقوله: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ آخذين^(١) ونحو ذلك ممّا انتصب
 الأمر فيه على الابتداء وخبره، وما يجري مجراه إذا كان فيه معنى «فعل».
 لمّا أباح الله تعالى وحثّ على تناول الزينة في كلّ مسجد وندب إليه،
 وأباح الأكل والشرب ونهى عن الإسراف - وهناك قومٌ يحرمون كثيراً من
 الأشياء من هذا الجنس - قال الله تعالى مُنْكِراً لذلك: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
 الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ وقيل في معنى ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ قولان:
 أحدهما: المستلذّ من الرزق. الثاني: الحلال من الرزق والأوّل أشبه

بخلوصه يوم القيامة. وإنما ذكر ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ من جملة ذلك - في قول ابن زيد والسُّدِّي - لأنَّهم كانوا يحرمون البحائر والسواحب.

وظاهر الآية يدلُّ على أنَّه لا يجوز لأحد تجنُّب الزينة والملاذَّطِيَّة على وجه التحريم، وأمَّا مَنْ اجتنبها على أنَّ غيرها أفضل منها فلا مانع منه. ثمَّ أخبر تعالى فقال: ﴿هي﴾ يعني الطَّيِّبَاتِ ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقيل في معنى ﴿خالصة يوم القيمة﴾ قولان:

أحدهما: قال ابن عبَّاس والحسن والضَّحَّاك وابن جُرَّيج وابن زيد: هي خالصة للمؤمنين دون أعدائهم من المشركين. وقال ^(١) أبو علي: هي خالصة لهم من شائب مضرة تلحقهم.

وقال أبو عليّ الفارسي: لا يخلو قوله: ﴿في الحياة الدنيا﴾ من أن يتعلَّق بـ ﴿حرَّم﴾ أو بـ ﴿زينة﴾ أو بـ ﴿أخرج﴾ أو بـ ﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ أو بـ ﴿الرزق﴾ من قوله: ﴿من الرزق﴾ أو بقوله: ﴿آمنوا﴾ ولا يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿حرَّم﴾ فيكون التقدير: قل من حرَّم في الحياة الدنيا، ويكون المعنى: قل مَنْ حرَّم في وقت الحياة الدنيا، ولا يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿زينة﴾ لأنَّه مصدر أو جارٍ مجراه، وقد [لَمَّا، ظ] وصفها لم يجز أن يتعلَّق بها شيء بعد الوصف كما لا يتعلَّق به العطف عليه، ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿أخرج لعباده في الحياة الدنيا﴾.

فإن قيل: كيف يتعلَّق بـ ﴿أخرج﴾ وفيه فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قل هي للذين آمنوا﴾ وهو كلام مستأنف ليس في الصلة؟

قيل: لا يمنع الفصل به، لأنَّه ممَّا يسدُّ القصة، وقد قال: ﴿والَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ ^(٢) فقوله: ﴿وترهقهم

ذَلَّةٌ ﴿مَعْطُوفٌ عَلَى ﴿كَسَبُوا﴾ فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.
ويجوز أن يتعلّق بـ ﴿الرِّزْقِ﴾ أيضاً إن كان موصولاً، ويجوز أن يتعلّق
بـ ﴿آمَنُوا﴾ الَّذِي هُوَ صِلَةٌ ﴿لِلَّذِينَ﴾ أَي: آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَكُلَّ مَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ هَذَا الظَّرْفُ.
وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ أَي: كَمَا نَمَيِّزُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَنَدْلِكُمْ بِهَا
عَلَى مَنَافِعِكُمْ وَصَلَاحِ دِينِكُمْ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِكُلِّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ مَعْنَاهَا
وَدَلَالَتَهَا.

قوله تعالى:

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأُنْثَىٰ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ آية
بلا خلاف.

أقول: لَمَّا أَنْكَرَ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ
وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، وَأَنَّهُ أَبَاحَ ذَلِكَ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، بَيَّنَّ عَقِيبَ
ذَلِكَ مَا حَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ فَقَالَ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدٌ ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾
وَمَعْنَاهُ: لَمْ يَحَرِّمْ رَبِّي إِلَّا الْفَوَاحِشَ، لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ «إِنَّمَا» تَدُلُّ عَلَى تَحْقِيقِ
مَا ذَكَرَ، وَنَفْيِ مَا لَمْ يُذَكَّرْ.

والتحريم: هو المنع من الفعل بإقامة الدليل على وجوب تجنّبه،
وضدّه: التحليل، وهو الإطلاق في الفعل بالبيان عن [على] جواز تناوله.
وأصل التحريم: المنع، من قولهم: حُرِّمَ فلان الرِّزْقَ، فَهُوَ مَخْرُومٌ حِزْمَانًا،
وَحَرَّمَ الرَّجُلُ: إِذَا لَجَّ فِي الشَّيْءِ بِالْامْتِنَاعِ مِنْهُ، وَحَرَّمَهُ تَحْرِيمًا، وَأَحْرَمَ
بِالْحِجِّ إِحْرَامًا، وَتَحَرَّمَ بِطَعَامِهِ تَحَرُّمًا، وَاسْتَحْرَمَتِ الشَّاةُ: إِذَا طَلَبَتْ الْفَحْلَ،
لَأَنَّهَا تَتَّبِعُهُ كَمَا تَتَّبِعُ الْحُرْمَةُ الْبَغْلَ. وَالْحَرَمُ: مَكَّةُ وَمَا حَوْلَهَا مِمَّا هُوَ

معروف. وأشهر الحُرْم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، و[المَحْرَمُ]:
القرابة التي لا يحل تزوجها [بجها، ظ]. وحریم الدار: ما كان من حقوقها.
والمَحْرَمُ: السوط الذي لم يلين، لأنه حرام أن يُضْرَب [به] حتى يلين.
و ﴿الفواحش﴾ جمع: فاحشة، وهي أقبح القبائح، وهي الكبائر.
وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ يعني: ما علن وما خفي، وقد قدّمنا
اختلاف المفسرين في ذلك.

وإنما ذكر مع الفواحش هذه القبائح وهي داخلة فيها لأحد أمرين:
أحدهما: للبيان عن التفصيل، كأنه قيل: الفواحش التي منها الإثم،
ومنها البغي، ومنها الإشراك بالله.

والثاني: أن ﴿الفواحش﴾ هاهنا الزنا وهو الذي بطن، والتعري في
الطواف وهو الذي ظهر في قول مجاهد.

وقال قوم^(١): ﴿الإثم﴾ هو الخمر، و ﴿ما ظهر﴾ الزنا ﴿وما بطن﴾ هو
نكاح امرأة الأب، والإثم يعم جميع المعاصي، وأنشد ابن الأنباري في أن
﴿الإثم﴾ هو الخمر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي

كذلك الإثم يصنع بالرجال [بالعقول، ن خ]^(٢)

وقال الفراء: ﴿الإثم﴾ ما دون الحد، و ﴿البغي﴾ هو الاستطالة على
الناس، وحدّه: طلب التروّس بالقهر من غير حق. وأصل «البغي»: الطلب،
تقول: هذه بُغْيِي: أي: طلبتي، وأبتغي كذا ابتغاءً، وما تبغي أي: ما تطلب،
وينبغي كذا أي: هو الأولى أن يُطْلَب.

(١) منهم الضحّاك. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ١٨٦.

(٢) أنشده في اللسان: مادة «أثم».

وقوله: ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ السلطان: الحجّة، في قول الحسن وغيره، ومثله: البرهان والبيان والفرقان، وحدودها تختلف، فالبيان: إظهار المعنى للنفس كإظهار نقيضه، والبرهان: إظهار صحّة المعنى وفساد نقيضه، والفرقان: إظهار تميّز المعنى ممّا التبس به، والسلطان: إظهار ما يتسلّط به على نقيض المعنى بالإبطال.

و ﴿أن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ أي: وحرّم عليكم ذلك، وذلك يدلّ على بطلان التقليد، لأنّ المقلّد لا يعلم صحّة ما قلّد فيه.
قوله تعالى:

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٢٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل: الفرق بين أن تقول: «ولكلّ أمةٍ أجل» وبين: «ولكلّ أحدٍ أجل» من وجهين:

أحدهما: أنّ ذكر «الأمة» يقتضي تقارب أعمار أهل العصر. والآخر: أنّه يقتضي إهلاكهم في الدنيا بعد إقامة الحجّة عليهم بإتيان الرسل.

والأمة الجماعة التي يعمّها معنى، وأصله: أمةٌ يَوْمُهُ إذا قَصَدَهُ، فالأمة: الجماعة التي على مقصدٍ واحدٍ. والأجل: الوقت المضروب لانقضاء المهل، لأنّ بين العقد الأوّل الذي يضرب لنفس الأجل وبين الوقت الآخر مهلاً، مثل: أجل الدّين، وأجل الوعد، وأجل العُمر.

وقال أبو عليّ الجبائي: في الآية دلالة على أنّ الأجل واحد، لأنّه لا يجوز أن يكون الظالم يقتل [بقتل، ظ] الإنسان قد اقتطعه عن أجله. وقال أبو بكر بن الأخشيد: ليس الأمر على ذلك، لأنّها قد دلّت أنّه غير هذه على الأجلين.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ معنى ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾: لَا يَتَأَخَّرُونَ، وَإِنَّمَا قِيلَ: لَا يَسْتَأْخِرُونَ مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَا يَطْلُبُونَ التَّأَخَّرَ، فَهُوَ أَبْلَغُ فِي الْمَعْنَى مِنْ «لَا يَتَأَخَّرُونَ» لِأَنَّ الِاسْتِخَارَ: طَلَبَ التَّأَخَّرِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ مَعْنَاهُ: لَا يَتَقَدَّمُونَ، وَالْمَعْنَى: إِذَا قَرَّبَ أَجْلُهُمْ لَا يَطْلُبُونَ التَّقَدَّمَ وَلَا التَّأَخَّرَ، لِأَنَّ بَعْدَ حَضُورِ الْأَجْلِ وَنَزُولِ الْأَمْلاكِ يَسْتَحِيلُ مِنْهُمْ طَلَبُ ذَلِكَ، كَمَا يُقَالُ: جَاءَ الشِّتَاءُ وَجَاءَ الصَّيْفُ إِذَا قَارَبَ وَقْتَهُ، لِأَنَّهُ مُتَوَقَّعٌ كَتَوَقَّعِهِ.

قوله تعالى:

يَسْتَبَيِّنْ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَعَنْ أَتَقَىٰ وَأُضْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا خطاب من الله تعالى لجميع بني آدم المكلفين منهم: أَنَّهُ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ رُسُلًا مِنْهُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَّجَهُ وَبِرَاهِينَهُ، وَهُوَ مَا أَنْزَلَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُتُبِهِ، وَنَصَبَ لَهُمْ مِنْ أَدْلَتِهِ.

وقوله: ﴿إِمَّا﴾ أصله: «إِنْ» حرف الشرط دخلت عليه «ما» ولدخولها دخلت النون الثقيلة في ﴿يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ولو قال: «إِنْ يَأْتِيَنَّكُمْ» لم يجز، وَإِنَّمَا كَانَ كَذَلِكَ لِأَنَّ «ما» جعلته في حكم غير الواجب، لِأَنَّهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةً مَا هُوَ غَيْرُ كَائِنٍ حَتَّىٰ احْتِيَاجٌ مَعَهُ إِلَى الْقَسَمِ مَعَ خَفَاءِ أَمْرِهِ مِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَلَمْ يَجْزِ دُخُولُ النُّونِ عَلَى الْوَاجِبِ فِي مِثْلِ هُوَ هُوَ^(١) لِأَنَّ هَذِهِ النُّونَ تُؤْذِنُ بِأَنَّ مَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ قَدْ احتاج إلى التأكيد لخفاء أمره من جهة المستقبل، وَأَنَّهُ غَيْرُ وَاجِبٍ لَخَفَاءِ أَمْرِهِ مِنْ هَاتَيْنِ الْجِهَتَيْنِ، وَلَاجْلِهِ احتاج

(١) كذا استظهره في هامش الحجريّة، وأصل العبارة غير واضحة.

إلى نون التأكيد.

وإنما قال: ﴿رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ بلفظ الجمع وإنما أتى هؤلاء رسولٌ منهم، لأنه على تقدير: يأتين لكل أمة، فصار كأنه خطاب لجميع المكلفين.

وجواب «إن» يحتمل أن يكون أحد أمرين:

أحدهما: أن يكون قوله: ﴿فَمَنْ اتَّقَى﴾ منكم ﴿وأصلح﴾ لأن التفصيل يقتضي منكم. الثاني: أن يكون محذوفاً فدلَّ [يدلَّ، ظ] الكلام عليه، كأنه قال: فأطيعوهم.

وقوله: ﴿يَقْضُونَ﴾ فالحقصص: وصل الحديث بالحديث^(١) في [و، ظ]

وصل الحديث الممتنع بحديثٍ مثله.

وقوله: ﴿فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَح﴾ معناه: فمن اتقى منكم وأصلح ﴿فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وظاهر الآية يدلُّ على أنَّ مَنْ اتَّقَى معاصي الله واجتنبها وأصلح بأن فعل الصالحات لا خوف عليهم في الآخرة، وهو قول الجبائي.

وقال أبو بكر بن الأخشيد: لا يدلُّ على ذلك، لأنَّ الله تعالى قال في وصفه يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾^(٢) وإنما هو كقول الطبيب للمريض: لا بأس عليك، ولا خوف عليك، ومعناه: أنَّ أمره يؤول إلى السلامة والعافية.

والأوَّل أقوى، لأنه الظاهر، غير أنَّ ذلك يكون لمن اتقى جميع معاصي الله، فأما من جمع بين الطاعات والمعاصي فإنَّ خوفه من عقاب

(٢) الحج: ٢.

(١) في مخطوطة زيادة: «لأنَّ أصله: اتَّبَعَ الشيء الشيء».

الله على معاصيه لا بدّ منه، لأنّا لا نقطع على أنّ الله تعالى يغفر له لا محالة، ولا نقول بالإحباط، فنقول: ثواب إيمانه أحبط عقاب معاصيه، فإذا اجتمعا فلا بدّ من أن يخاف من وصول العقاب إليه.

ومن قال: لفظة «اتَّقَى» لا تُطلق إلّا للمؤمن من أهل الثواب لأنّها صفة مدح، فلا بدّ من أن يكون مشروطاً بالخُلوص ممّا يحبطه، فما ذكره أولاً صحيح نحن نعتبره، لأنّ المتّقّي لا يكون إلّا مؤمناً مستحقّاً للثواب، غير أنّه ليس من شرطه إلّا أن يكون معه شيء من العقاب، بل عندنا يجتمعان، فلا يستمرّ ما قالوه.

قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ آية .

أقول: أخبر الله تعالى: أنّ الذين كذبوا بحججه وبراهينه ولم يصدّقوه واستكبروا عنها أنّهم أصحاب النار الملازمون لها عى وجه الخلود والتأييد. والتكذيب: هو تنزيل الخبر على أنّه كذب، والتصديق: تنزيل الخبر على أنّه صدق، فالتكذيب بآيات الله كفر، والتكذيب بالطاغوت إيمان، فلذلك توعدّ على التكذيب بآيات الله بعقاب الأبد. والاستكبار: طلب الترفع بالباطل، ولفظة «تستكبر» صفة ذمّ في جميع الخلق.

والخلود: هو لزوم الشيء على ما هو فيه، ومعنى «أُخْلِدَ إِلَى الْأَرْضِ»^(١): لزوم الركن [الركون، ظ] إليها. والصاحب والقرين متقاربان^(٢) غير أنّ «القرين» فيه معنى النظير، وليس ذلك في «الصاحب» فلذلك قيل:

(٢) في الحجرية: متقابلان، والصواب ما أثبتناه.

أصحاب رسول الله، ولم يقل: قُرْنَاؤُهُ.

ولفظه «الَّذِينَ» مبقاة على هذه الصيغة في جميع الأحوال: الرفع والنصب والجر، وإنما تثبت مع بُعدها بالجمع من الحروف لأنَّ العلةَ التي لها هي التي موجودة فيه، وهي نقصانه عن سائر الأسماء حتَّى تأتي صلته فتتمّه، وليس هذا كالشبيه العارض الذي يزول على وجهه، فأما مَنْ قال: «الَّذُونَ» و «الَّذِينَ» فإنه اعتدَّ بتبعيد الجمع فجعله على طريقة المعرّف، ولأنَّ هذه الطريقة لمّا لم تكن إعراباً تامّاً لم يمنعوه، لما وقع بعده من شبه الحرف بالجمع.

قوله تعالى:

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِّمَّنْ أَلْكَتِبَ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿فمن أظلم﴾ صورته صورة الاستفهام، والمراد به: الإخبار عن عظم [جزم] من يفترى على الله كذباً أو يكذب بآيات الله، لأنّه أحد أظلم لنفسه منه، وإنما أورد هذا الخبر بلفظ الاستفهام، لأنّه أبلغ برّد المخاطب إلى نفسه في جوابه مع تحريك النفس له بطريق السؤال.

وقد بيّنا فيما مضى من الكتاب حقيقة «الظلم» وأنَّ أجود ما حدّ به أن قيل: هو الضرر المحض الذي لا نفع فيه يوقى عليه، ولا دفع ضرر أعظم منه، لا عاجلاً ولا آجلاً، ولا يكون مستحقّاً ولا واقعاً على وجه المدافعة. وقد حدّ الرّماني الظلم بأنّه: الضرر القبيح من جهة بخس الحق به، وهذا ينتقض بالآلم الذي يدفع به آلم مثله، لمّا قلناه.

وقوله: ﴿أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ فالنيل: هو وصول النفع

إلى العبد إذا أُطْلِقَ، فَإِنْ قُيِّدَ وَقَعَ عَلَى «الضرر» لَأَنَّ أَصْلَهُ: الوصول إلى الشيء، من: نِلْتُ النخلة أَنَا لَهَا نَيْلًا، قَالَ امرؤ القَيْس:

سَمَاحَةً ذَا وَبِرْدًا وَوَفَاءً ذَا وَنَائِلَ ذَا إِذَا صَحَا وَإِذَا سَكِرَ^(١)
والبُخْلُ: منع النائل لمشقة الإعطاء. وقيل في معنى ﴿ينالهم نصيبهم من الكتاب﴾ أقوال:

أحدها: قال الزجاج والفراء: هو ما ذكره الله تعالى من أنواع العذاب للكفار، مثل قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ * لا يصلها إلا الأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى^(٢) وقوله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾^(٣) وغير ذلك مما كتب الله في اللوح المحفوظ.

الثاني: قال الربيع وابن زيد: من الرزق والعمر والعمل من الخير والشر في الدنيا.

الثالث: قال مجاهد: جميع ما كُتِبَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ، وهو قول عَطِيَّة.
وقال بعضهم^(٤): معناه: ينالهم نصيبهم من خيرٍ أَوْشَرٍّ في الدنيا، لَأَنَّهُ قَالَ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ تَهُم رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ وهي الانتهاء. والأجوبة الأولى أقوى، لَأَنَّ الْأَظْهَرَ فيما يقتضيه عِظَمُ الظُّلْمِ فِي الْمُفْجِشِ الوعيد والعذاب الأبدي.
وقال سيبويه والزجاج: لا تجوز إمالة «حتى» لَأَنَّهَا حَرْفٌ لَا يَنْصَرَفُ، وَالْإِمَالَةُ ضَرْبٌ مِنَ التَّنْصَرَفِ، وَكَذَلِكَ: «إِمَا» و«أَيَا» و«إِلَا» و«لَا» و«إِنَّمَا» كُتِبَتْ بِالْيَاءِ مَعَ امْتِنَاعِ إِمَالَتِهَا تَشْبِيهًا بِ«حُبْلَى» مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْأَلْفَ رَابِعَةٌ،

(١) من قصيدة يمدح بها سعد بن الضباب. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٠١.

(٢) الليل: ١٤ - ١٦. (٣) آل عمران: ١٠٦.

(٤) منهم ابن عباس وقَتَادَةُ وَالضَّحَّاك. راجع تفسير الطبري: ج ٨ ص ١٢٥ و١٢٦.

ولم يجز مثل ذلك في «الآ» لآلا تشبه «إلى» ولا في «إمّا» التي للتخيير لآنها بمنزلة «إن ما» التي للجزاء.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يعني: الملائكة التي تنزل عليهم لقبض أرواحهم، وقيل في معنى «الوفاة» هاهنا قولان:

أحدهما: الحشر إلى النار يوم القيامة بعد الحشر. الثاني: وفاة الموت الذي يوبّخهم عنده الملائكة، في قول أبي عليّ - والوجه في مسألة المَلَك لمن يتوفاه: التبكيت لمن لم يقم حجّته [بحجّته، ظ] والبشارة لمن قام بحجّته، وفي الإخبار عن ذلك مصلحة السامع إذا تصوّر الحال فيه.

وقوله: ﴿قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ حكاية سؤال الملائكة لهم وتوبيخهم: أن الذين كانوا يدعونهم من دون الله من الأوثان والأصنام لم ينفعوهم في هذه الحال، بل ضرّوهم.

وقوله: ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ حكاية عن جواب الكفّار للملائكة أنّهم يقولون: ضلّ من كنّا ندعوه من دون الله عنّا ﴿وشهدوا على أنفسهم﴾ يعني: الكفّار أقرّوا على أنفسهم أنّهم كانوا جاحدين بالله، وكافرين لنعمه بعبادتهم الأنداد من دون الله.

قوله تعالى:

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَهُمْ لِأُولَٰئِهِمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَكَاتَبْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا حكاية عن قول الله تعالى للكفّار يوم القيامة وأمره لهم بالدخول في جملة الأمم الذين تبعوا من قبلهم من جملة الجنّ والإنس

وهم في النار. ويجوز أن يكون ذلك إخباراً عن جعله إيتاهم في جملة أولئك في النار، من غير أن يكون هناك قول، كما قال: ﴿كونوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ﴾^(١) والمراد: أنه جعلهم كذلك.

ومعنى «الخلو»: انتفاء الشيء عن مكانه، فكل ما انتفى من مكانه فقد خَلَا منه، وكذلك «خَلَّت» بمعنى: مَضَتْ، لأنها إذا مضت بالهلاك فقد خلا مكانها منها.

والجن: جنس من الحيوان مستترون عن أعين البشر لرقبتهم، يغلب عليهم التمرّد في أفعالهم، لأنّ الملّك أيضاً مستتر لكن غلب عليه أفعال الخير، وعند قوم: أنهم أجمع رُسل الله. والإنس: جنس من الحيوان يتميز بالصورة الإنسانية.

وقوله: ﴿كلّما دخلت أمة لعنت أختها﴾ يعني: في دينها لا في نسبها، فأما قوله: ﴿وإلى مدّين أخاهم شعيياً﴾^(٢) يعني: أنه منهم في النسب. وقوله: ﴿حتّى إذا أداركوا فيها جميعاً﴾ فوزن: «أداركوا»: «تفاعلوا» فأدغمت التاء في الدال واجتلبت ألف الوصل ليتمكن النطق بالساکن الذي بعده، ومعناه: تلاحقوا.

وقوله: ﴿قالت أحرّاهم لأولاهم﴾ يعني: الفرقة المتأخّرة التابعة تقول للأمة المتقدّمة المتبوعة وتشير إليها: ﴿هؤلاء أضلّونا﴾ عن طريق الحق وأغوونا ﴿فآتهم عذاباً ضِعْفاً من النار﴾ دعاء منهم عليهم أن يجعل عذابهم ضِعْفاً، فقال الله تعالى: ﴿لكلّ ضِعْف ولكن لا تعلمون﴾ والضعف: المثل الزائد على مثله، فإذا قال القائل: أضعّف هذا الدرهم معناه: إجعل معه

(٢) الآية ٨٥ الآتية، وهود: ٨٤، والعنكبوت: ٣٦.

(١) البقرة: ٦٥، وهنا الآية: ١٦٦.

درهماً آخر، لا ديناراً، وكذلك: أضعِفِ الاثنين أي: اجعلهما أربعة: وحُكي أَنَّ المضعف في كلام العرب ما كان ضِعْفَيْن، والمضاعف: ما كان أكثر من ذلك، وَرَوِيَ عن عبد الله بن مسعود: أَنَّ «الضِّعْف» أَفَاعِي وَحَيَات^(١). واستعمل «الضِّعْف» بمعنَى المِثْل، ومنه: قوله: ﴿يُضَاعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾^(٢) يعني: مِثْلَيْن.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿ولكن لا يعلمون﴾ بالياء، الباقون بالتاء. وَمَنْ قرأ بالتاء فتقديره: لا تعلمون أَيُّهَا المخاطَبون ما لكلِّ فريقٍ منهم. وَمَنْ قرأ بالياء تقديره: لكن لا يعلم كلُّ فريقٍ ما على الآخر من العقاب. قوله تعالى:

وَقَالَتْ أُولَئِهُنَّ لِلْأُخْرَئِهُنَّ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا حكاية عن جواب قول الأُمَّة الأولى المتبوعة للأخرى التابعة حين سمعت دعاءها عليهم بأن يُؤْتِيَهُمْ ضِعْفاً من العذاب ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ وقيل في معناه قولان:

أحدهما: ما كان لكم علينا من فضلٍ في ترك الضلال، وهو قول أبي مُخَلَّد والسُّدِّي. وقال الجُبَّائِي: لمساواتكم لنا في الكفر. الثاني: من فضلٍ في التأويل فتطالبونا بتضييع حقِّه. ولفظة «أفعل» على ثلاثة أوجه:

أحدها: ما فيه معنى: يزيد كذا على كذا، فهذا لا يجوز فيه التأنيت والتذكير والتشنية والجمع، مضافاً كان أو على طريقة «أفعل من كذا»

كقولك: أفضل من زيد، و: أفضل القوم، لتضمّنه معنى الفعل، والمصدر كقولك: أفضل القوم بمعنى: يزيد فضله على فضلهم.

الثاني: ما لم يقصد فيه معنى «يزيد كذا على كذا» فهذا يجوز فيه كل ذلك، كقولك: الأكبر والكبرى والأكابر.

الثالث: «أفعل» من الألوان والعيوب الظاهرة للحاسة، فهذا يجيء على «أفعل» و «فُعلاء» وجمعه «فُعُل» نحو: أحمر وحُمْراء وحُمُر، وأُعرج وعَرْجاء وعُرُج.

وأما «أفعل» إذا كان اسم جنس فإنه يُثنى ويُجمع ولا يُؤنث، وكذلك إذا كان علماً نحو: أَفْكَلٌ وَأَفَاكِل، وأحمد وأَحَامِد، فأَمًا «أُبْطَحُ وَأَبَاطِح» و«أَجْرَعُ وَأَجَارِع» فأُجْري هذا المجرى، لأنه استُعْمِلَ على طريقة اسم الجنس وأصله: الوصف، ولا يجوز في «أفعل» الفعول إلا بالتعريف، لا لإيدان معنى «أفعل» معنى «أفعل من كذا»^(١) قال سيبويه: لا يجوز «نِسْوةٌ صَغْرٌ» ولا «كُبْرٌ» حتّى تعرّفه فتقول: النِسْوةُ الصُّغَرُ والكُبَرُ^(٢).

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتِّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿لَا يُفْتَحُ﴾ بالياء والتخفيف، وقرأ أبو بكر [عمرو، ن] بالتاء والتخفيف، الباقون بالتاء والتشديد.

(١) كذا في المطبوعة، والعبارة في الحجرية هكذا: ولا يجوز في أفعل العقول إلا التعريف للإيدان [لايدان، ظ] معنى الفعل [افعل، ظ] عن معنى الفعل [افعل، ظ] من كذا.

(٢) راجع الكتاب: ج ٣ ص ٢٢٤ - ٢٢٥.

مَنْ شَدَّدَ ذَهَبَ إِلَى التَّكْثِيرِ، والمعنى: أَنَّهُمْ لَيْسُوا كَحَالِ الْمُؤْمِنِ فِي التَّفْتِيحِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى. وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ فَلَاَنَّ «الْأَبْوَابَ» جَمَاعَةٌ فَانْتِ تَأْنِيثُ الْجَمَاعَةِ. وَمَنْ قَرَأَ بِالْيَاءِ فَلَاَنَّ التَّأْنِيثَ غَيْرُ حَقِيقِي، وَذَهَبَ إِلَى مَعْنَى الْجَمْعِ. أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بِآيَاتِ اللَّهِ وَجَحَدُواهَا ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ بِمَعْنَى: طَلَبُوا التَّكْبِيرَ وَالتَّرَفُّعَ عَنِ الْإِنْقِيَادِ لَهَا ﴿لَا تُفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ هَوَانًا لَهُمْ وَاسْتِخْفَافًا بِهِمْ، فَإِنْ فُتِحَتْ فُتِحَتْ عَلَيْهِمُ بِالْعَذَابِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيُّ: لَا نَهَا تُفْتَحُ لِرُوحِ الْمُؤْمِنِ، وَلَا تُفْتَحُ لِرُوحِ الْكَافِرِ. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَإِبْرَاهِيمَ: لَا تُفْتَحُ لِدُعَائِهِمْ وَلَا أَعْمَالِهِمْ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: «أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَتَرَفَعُ أَعْمَالُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فَتُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُهَا، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَصْعَدُ بِعَمَلِهِ وَرُوحُهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ إِلَى السَّمَاءِ نَادَى مُنَادٍ: اهْبِطُوا بِعَمَلِهِ إِلَى سَجِّينَ، وَهُوَ وَادٍ بِخَضَرٍ مَوْتٍ يُقَالُ لَهُ: بَرَهْوَتٌ». وَقَالَ الْحَسَنُ: لَا تُفْتَحُ لِدُعَائِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: لَا تُفْتَحُ لِأَرْوَاحِهِمْ وَلَا أَعْمَالِهِمْ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لِدُخُولِ الْجَنَّةِ، لِأَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ يَعْنِي: هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْهَا، سَوَاءٌ كَانُوا مُعَانِدِينَ فِي ذَلِكَ أَوْ غَيْرَ عَالِمِينَ بِذَلِكَ، وَإِنَّمَا تَسَاوَا فِي ذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ بِعَالِمٍ قَدْ أَزِيحَتْ عَنْهُ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَنُصِبَ الْأَدَلَّةُ عَلَى تَصْدِيقِ آيَاتِ اللَّهِ وَتَرْكِ الْإِسْتِكْبَارِ عَنْهَا. وَقَوْلُهُ: ﴿حَتَّى يُلَاحَظَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَّاطِ﴾ إِنَّمَا عَلَّقَ الْجَائِزَ وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ بِمَحَالٍ وَهُوَ دُخُولُ الْجَمَلِ فِي سَمِّ الْخِيَّاطِ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ ^(١)

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: لَا [ن، ظ] يَكُونُ.

كما قال الشاعر:

إذا شَابَ الْغُرَابُ أَتَيْتُ أَهْلِي وَصَارَ الْقَارُ كَالْبَيْنِ الْحَلِيبِ
والآخر^(١): أَنَّهُ مُضِرُّ بِمَا لَا يُمْكِنُ مِنْ قَلْبِ الدَّلِيلِ. وَالْجَمَلُ: هُوَ
الْبَعِيرُ هَاهُنَا فِي قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَالسُّدِّيِّ وَعِكْرِمَةَ وَأَكْثَرَ
الْمُفَسِّرِينَ. وَالسَّمُّ: الثَّقْبُ، وَمِنْهُ قِيلَ: السَّمُّ الْقَاتِلُ، لِأَنَّهُ يَنْفِذُ بِلُطْفِهِ فِي مَسَامِ
الْبَدَنِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الْقَلْبِ فَتَنْتَقِضُ [فَيَنْقُضُ] بُنْيَتُهُ، وَكُلُّ ثَقْبٍ فِي الْبَدَنِ
لَطِيفٌ فَهُوَ سَمٌّ وَسَمٌّ - بَضْمُ السَّيْنِ وَفَتْحُهَا - وَجَمْعُهُ: سُمُومٌ، وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:
فَنَقَّسْتُ عَنْ سَمِّهِ حَتَّى تَنْقَسَا وَقُلْتُ لَهُ لَا تَحْشَ شَيْئاً وَرَأْيَا^(٢)
يعني: بِسَمِّهِ: ثَقْبِي أَنْفَهُ، وَيَجْمَعُ السَّمَّ الْقَاتِلَ: سِحَاماً، وَالْخِيَاطُ
وَالْمِخْيِطُ: الْإِبْرَةُ، وَقِيلَ: خِيَاطٌ وَمِخْيِطٌ، كَمَا قِيلَ: لِحَافٌ وَمِلْحَفٌ، وَقِنَاعٌ
وَمِقْنَعٌ، وَإِزَارٌ وَمِزْرٌ، وَقِرَامٌ وَمَقْرَمٌ، ذَكَرَهُ الْفَرَّاءُ.
قوله تعالى:

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ آية بلا خلاف.

(١) ورد في حاشية الحجرية المصححة ما يلي: لعل سقط من العبارة بعد لفظ «الآخر»: البيت الذي أشرنا إليه في الحاشية أي: وكما قال الآخر

فَرَجِي الْخَيْرَ وَانظُرِي يَا بِي إِذَا مَا الْقَارِطُ الْعَنْزِي أَبَا
وعلى هذا فيكون ما بعده بياناً لوجه التشبيه في قوله: كما قال الشاعر وهو أَنَّهُ مُضِرُّ بِمَا لَا يُمْكِنُ مِنْ قَلْبِ الدَّلِيلِ أي: استثناء نقيض التالي لينتج نقيض المقدم، وحينئذٍ فـ «من» للتبيين، و «مضر» مصحَّف «مضن» ونحوه. ويمكن أن يكون «والآخر» من غلط الناسخ وكان بدله «والأصل» ونحوه وكان «قلب الدليل» مصحَّف «طلب التأكيد» أي: مبني ما ذكر على تعليق الحكم على المحال لأجل إفادة التأكيد، وعليه فـ «من» للتعليل والعبارة تحتاج إلى العرض على النسخة الصحيحة فلا تطمئن النفس إلّا به.

(٢) من قصيدة طويلة يمدح يزيد بن عبد الملك. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٦٣٢.

أقول: أخبر الله تعالى: أَنَّ لهؤلاء الكفار الذين كذبوا بآيات الله واستكبروا عنها من جهنم مهّاداً.

و ﴿جَهَنَّمَ﴾ في موضع جرٍّ بـ ﴿مِنْ﴾ لكن فُتِحَ لَأَنَّهَا لا ينصرف، لاجتماع التانيث والتعريف فيها، واشتقاقها من الجُهوْمَة، وهي الغلظ، رجلٌ جَهْمُ الوجه: غَلِظُهُ، فَسُمِّيَتْ بهذا لِغَلْظِ أمرها في العذاب، نعوذ بالله منها. والمِهَاد: الوطاء الذي يُفْتَرَش، ومنه: مَهْدُ الصبي، ومَهْدَتْ هذا الأمر: إذا وطأته له، وإِثْمًا قيل: مِهَادٌ من جهنم أي: موضع المِهَاد، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

وقال الحسن ﴿مِهَادٌ﴾ فِرَاش من نار، و ﴿غَوَاشٍ﴾ ظُلِّلَ منها. وقوله: ﴿ومن فوقهم غَوَاشٍ﴾ فالغواش لباس مجلّل، ومنه: غَاشِيَة السرج، وفلان يغشى فلاناً أي: يأتيه ويُلَابسُه، ومنه: غَشِيَ المرضُ [يض، ظ] والغِشَاوَة: الَّتِي تكون على الولد، وقال محمّد بن كعب: الغَوَاشِي هي اللَّحُف، وهي أُرُز الليل محشوة كانت أو غير محشوة، ذكره الأزهري، وروى الطبري مثله^(٢).

وقيل في دخول التنوين على ﴿غَوَاشٍ﴾ مع أَنَّهُ على «فواعل» وهو لا ينصرف قولان:

أحدهما: قال سيبويه: إِنَّ التنوين عِوَضٌ من الياء المحذوفة، وليس بتنوين الصرف. الثاني: إِنَّه تنوين الصرف عند حذف الياء لالتقاء الساكنين في التقدير.

وقوله: ﴿وكذلك نَجْزِي الظالمين﴾ أي: مثل ما نَجْزِي هؤلاء المكذّبين

(١) آل عمران: ٢١، والتوبة: ٣٤، والانشقاق: ٢٤.

(٢) تفسير الطبري: ج ٨ ص ١٣٢ مسنداً عنه.

بآيات الله المستكبرين عنها نجزي كلَّ ظالمٍ بكلِّ [وكلِّ، ظ] كافرٍ،
والوصف بـ«ظالم» [بالظالم، ظ] يقتضي لحوق الذمِّ به في العُزف.
قوله تعالى:

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ آية .

أقول: لما أخبر الله تعالى بصفة المكذِّبين المستكبرين عن آياته، وما
أعدَّ لهم من أنواع العذاب والخلود في النيران، أخبر بعده بما أعدَّ
للمؤمنين العاملين بالأعمال الصالحات فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني:
الَّذِينَ صدَّقوا بآيات الله واعترفوا بها، ولم يستكبروا عنها، ثمَّ أضافوا إلى
تلك الأعمال الصالحات، وهو ما أوجبه الله عليهم أو ندبهم إليه.

وقوله: ﴿لَا نَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فالتكليف من الله هو إرادة ما فيه
المشقة، وقال قوم: هو إعلام وجوب ما فيه المشقة أو ندبه، والإرادة شَرْطٌ.
وقال قوم: التكليف هو تحميل ما يشقُّ في الأمر والنهي، ومنه:
الكُفَّة، وهي المشقة، وتكلف القول أي: تحمل ممَّا [ما، ظ] فيه المشقة
حتَّى أتى على ما ينافره الفعل [العقل، ظ].

أخبر الله تعالى، أَنَّهُ لَا يُلْزَمُ نَفْسًا إِلَّا قَدْرَ طاقَتها وما دونها، لأنَّ الوُسْعَ
دونَ الطاقة، وفي ذلك دلالة على بطلان قول المجبِّرة: من أن الله تعالى
كلَّف العبد ما لا قدرة له عليه ولا يطيقه.

وموضع ﴿لَا يَكُلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ قيل فيه قولان:
أحدهما: أن يكون رفعاً بأنَّه الخبر على حذف العائد، كأنَّه قيل: منهم
ولا من غيرهم، وحُذِفَ لأنَّه معلوم.

والآخر: ألا يكون له موضع من الإعراب، لأنَّه اعتراض، والخبر:

الجملة في ﴿أُولَئِكَ﴾ لَأَنَّ قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ، وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴿خبر بأن هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ملازمون الجنة مخلدون لنعمتها. قوله تعالى :

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ أَنْهَرٌ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُّونَ أَنْ تَلَکُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: نَزَعَ الْغِلَّ في الجنة: تصفية الطِّبَاعِ، وإسقاط الوسوس، وإعطاء كل نَفْسٍ مُنَاهَا، ولا يَتَمَنَّى ما لغيرها.

قرأ ابن عامر: ﴿مَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾ بلا واو، كذلك هي في مصاحف أهل الشام، الباقون بإثباتها.

وجه الاستغناء عن الواو: أَنَّ الجملة ملتبسة بما قبلها، فأغنى التباسها بها عن حرف العطف، ومثله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ^(١) فاستغني عن حرف العطف بالالتباس من إحدى الجملتين بالأخرى. وَمَنْ أثبت الواو فلعطفه جملة على جملة.

في هذه الآية إخبار عما يفعله بالمؤمنين في الجنة بعد أن يخلدوهم فيها: بَأَن يَنْزِعَ ﴿مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ فالنزع: رفع الشيء عن مكانه المتمكن فيه: إمَّا بتحويله وإمَّا بإعدامه، ومعنى «نَزَعَ الْغِلَّ» هاهنا: إبطاله. وقيل في ما يَنْزِعُ الْغِلَّ من قلوبهم قولان:

أحدهما: قال أبو علي: بلطف الله لهم في التوبة حتَّى تذهب صفة

العداوة. الثاني: بخُلوص المودة حتّى صار منافياً لِغِلِّ الطِّبَاعِ.
والثاني أقوى، لأنّ قوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ حال لِتَزْعِ الْغِلِّ،
وكأنّه قال: ونزعنا ما في صدورهم من غِلٍّ في حالٍ تجري من تحتهم
الأنهار، وعلى الأوّل يكون ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ مستأنفاً.
والغِلُّ: الحِقْدُ الَّذِي ينقل بلطفه إلى صميم القلب، ومنه: الغُلُول وهو
الوصول بالحيلة إلى دقيق الخيانة، ومنه: الغُلُّ الَّذِي يجمع اليدين والعُنُق
بانغلاله فيها. والصَّدْرُ: ما يصدر من جهته التدبير والرأي، ومنه قيل
للرئيس: صَدْر، وقيل: صَدْرُ المجلس.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ فالجريان: انحدار المائع، فالماء
يجري، والدم يجري، وكذلك كلّ ما يصحّ أن يجري فهو مائع، وَجَزِي الْفَرَسِ
في عَدُوّه مشبه [يشبهه، ظ] بِجَزِي الماء في آنية [لينه، ظ] وسرعته.
وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ فالنهر: المجزى الواسع من
مجارى الماء، ومنه: النهار لا تَسَاع ضيائه، وإنهار الدم لا تَسَاع مخرجه.
وقوله: ﴿وقالوا الحمد لله الَّذِي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا
الله﴾ إخبار عن قول أهل الجنّة واعترافهم بالشكر لله تعالى هو [ز، ظ]
الَّذِي عَرَضَهُمْ لَهُ بتكليفه إِيّاهم ما يستحقّون به الثواب، وقيل: معنى
﴿هدانا لهذا﴾ يعني: لنزع الغِلِّ من صدورنا. وقيل: هدانا لثبات الإيمان في
قلوبنا. وقيل: هدانا لجواز الصراط.

وقوله: ﴿لقد جاءت رسل ربّنا بالحقّ﴾ إقرار من أهل الجنّة واعتراف
بأنّ ما جاءت به الرسل إليهم من جهة الله أنّه حقٌّ لا شُبْهة فيه، ولا مِزِيّة
في صحّته.

وقوله: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بما كنتم تعملون﴾ فالنداء:

الدعاء بطريقة: «يا فلان» كأنه قيل لهم: أيها المؤمنون ﴿أَنْ تَلْكَمَ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جزاءً لكم على ذلك، على وجه التهنية لهم بها. و ﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، والهاء مضمرة، والتقدير: ونُودُوا بأنه تَلْكَمَ الْجَنَّةَ، وقال الزجاج: ﴿أَنْ تَلْكَمَ﴾ تفسير للنداء، والمعنى: قيل لكم: تَلْكَمَ الْجَنَّةَ. وإنما قال: ﴿تَلْكَمَ﴾ لأنَّهم وَعِدُوا بها في الدنيا، وكأنه قيل لهم: هذه تَلْكَمَ الَّتِي وَعِدْتُمْ بها، ويجوز أن يكونوا عاينوها فقبل لهم قبل أن يدخلوها، إشارة إليها: ﴿تَلْكَمَ الْجَنَّةَ﴾.

وَمَنْ أَدْغَمَ فَلَاَنَّ التَّاءِ والتاء مهموستان متقاربتان وا [فا، ظ] ستحسن الإدغام، وَمَنْ تَرَكَ الإدغام في ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ وهو ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر فلتباين المخرجين، وَأَنَّ الحرفَيْنِ في حكم الانفصال وإن كانا في كلمة واحدة، كما لم يدغموا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾^(١) وإن كانا مثلين لما لم يلزمان^(٢) لأنَّ تاء «افتعل» قد يقع بعدها غير التاء، فذلك «أورث» قد يقع بعدها غير التاء، فلا يجب الإدغام.

واستدلَّ الجُبَّائِي بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الثَّوَابَ يَسْتَحِقُّ بِإِعْمَالِ الطَّاعَاتِ، وَلَا يَسْتَحِقُّ مِنْ جِهَتِهِ [جهة، ظ] الْأَصْلَحَ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَيَّنَّ أَنَّهُمْ أُورِثُوهَا جَزَاءً بِمَا عَمَلُوهُ مِنْ طَاعَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ. قوله تعالى:

وَنَادَىٰ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ آية .

(٢) كذا في الحجرية، وفي مجمع البيان: لما لم يكونا لازمين.

(١) البقرة: ٢٥٣.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وابن كثير في رواية شُئِلَ ﴿أَنَّ﴾ مشددة النون، الباقون خفيفة. وكذلك ابن كثير في رواية فُئِلَ بتخفيف النون وسكونها ورفع ﴿لعنةُ الله﴾ الباقون بتشديد النون ونصب ﴿لعنةُ الله﴾. وقرأ الكسائي وحده: ﴿قالوا نَعِم﴾ بكسر العين. وفي الشعراء^(١): ﴿قال نَعِم﴾ وفي الصافات^(٢): ﴿قل نَعِم﴾ قال أبو الحسن الأخفش: «نَعِم» و «نَعِم» لغتان، فالكسر لغة كِنَانَةٌ وهُدَيْلٌ، والفتح لغة باقي العرب، وفي القراءة الفتح.

وقال سيبويه^(٣): «نَعَم» عِدَّةٌ وَتَصْدِيقٌ، فإذا استفهمْتُ أَجَبْتُ بـ «نَعَم». ولم يخكُ سيبويه الكسر، ومعنى قوله: «عِدَّةٌ وَتَصْدِيقٌ» أنه يستعمل عِدَّةً ويستعمل تصديقاً، ولا يريد أن العِدَّةَ تجتمع مع التصديق، ألا ترى أنه إذا قال قائل: أتعطيني؟ فقلت: نَعَم، كان عِدَّةً، ولا تصديق في ذلك، وإذا قال: قد كان كذا وكذا، فقلت: نَعَم، فقد صدَّقته، ولا عِدَّة في هذا.

[وقوله]: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ بمنزلة أَعْلَمَ مُعَلِّمٌ، قال سيبويه^(٤): أذَّنَ إعلام تصويت [بصوتٍ، ظ]. فالتَّي تقع بعد العلم إنما هي المشددة أو المخففة عنها، والتقدير: أَعْلَمَ مُعَلِّمٌ أَنَّ لعنة الله. وَمَنْ خَفَّفَ «أَنَّ» كان على إضمار القصَّة والحديث، فتقديره: أنه لعنة الله، ومثل ذلك قوله: ﴿وآخر دعواهم أنِ الحمد لله ربِّ العالمين﴾^(٥) والتقدير: «أنه». ولا تُخَفَّفَ «أَنَّ» إلَّا مع إضمار الحديث فالقصَّة تراد معها. وَمَنْ ثَقُلَ نصب بـ «أَنَّ» ما بعدها، كما ينصب بالمشددة المكسورة، والمكسورة إذا خُفِّفَتْ لا يكون ما بعدها على إضمار القصَّة والحديث كما تكون المفتوحة كذلك.

(٣) في الكتاب: ج ٤ ص ٢٣٤.

(١) الآية: ٤٢. (٢) الآية: ١٨.

(٥) يونس: ١٠.

(٤) المصدر السابق: ص ٦٢.

والفرق بينهما: أنَّ المفتوحة موصولة، والموصولة تقتضي صلتها، فصارت لاقتضاءها الصلة أشدَّ اتِّصالاً بما بعدها من المكسورة، فقدَّر بعدها الضمير الَّذي هو من جملة صلتها، وليست المكسورة كذلك، لأنَّ «أَنَّ» المفتوحة بمعنى المصدر، فلا بدَّ لها من اسم وخبر، لأنَّها لا تلغى بأن يكون دخولها كخروجها، وليس كذلك «إِنَّ». ومن المفتوحة قول الأعشى: في فِثْيَةِ كَسِيفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنُ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ^(١) وأما قراءتهم في النور^(٢): ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ﴾ فإنَّ «أَنَّ» في موضع رفع بأنَّه خبر المبتدأ، وأما قراءة نافع ﴿أَن غَضَبَ اللَّهِ﴾ فحسن، وهو بمنزلة قوله: ﴿وآخر دعواهم أَن الحمد لله﴾ وليس لأحد أن يقول: هذا لا يستحسن، لأنَّ المخففة من الشديدة لا يقع بعدها الفعل حتَّى يقع عَوْض من حذف «أَنَّ» ومن أنَّها تُؤلي [وليها، ظ] ما يليها من الفعل، يدلُّ على ذلك: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُمْ﴾^(٣) وقوله: ﴿لَثَلَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾^(٤) وذلك أَنَّهُم استجازوا ذلك وإن لم يدخل معه شيء من هذه الحروف، لأنَّه دعاء، وليس شيء من هذه الحروف يحتمل الدخول معه، ونظير هذا في أَنَّه لَمَّا كَانَ دعاء لم يلزمه العَوْض قوله: ﴿تُودِي أَن بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾^(٥) فَوَلِيَّ قوله: ﴿بُورِكَ﴾ ﴿أَنَّ﴾ وإن لم يدخل معها عَوْض، كما لم يدخل في قراءة نافع ﴿أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ والدعاء قد استجيز معه ما لم يستجز مع غيره، أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ قالوا: «أما أَنُ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا» من حملة سببويه^(٦) على إضمار القصة في

(١) وعجز البيت في ديوان الأعشى: أَنُ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحَيْلُ. من قصيدة يمدح يزيد بن مسهر الشيباني. راجع الديوان: ص ١٥٢.
(٢) الآية: ٩.
(٣) المزمل: ٢٠. (٤) الحديد: ٢٩. (٥) النمل: ٨. (٦) في الكتاب: ج ٣ ص ١٦٧.

«إن» المكسورة، ولم يضر القصّة مع المكسورة إلا في هذا الموضع.
 قوله: ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ معناه: وقال أصحاب الجنة، يا أصحاب النار، بعد دخول هؤلاء الجنة ودخول هؤلاء النار. والصاحب: هو المقارن للشيء على نيّة طول المدّة والصحبة والمقاربة [والمقارنة] نظائر، إلا أنّ في الصحبة الإرادة، ومنه قيل: أصحاب الصحراء. [وقوله:] ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً﴾ معناه: وجدنا ما وعدنا الله على لسان رسله من الثواب على الإيمان به و [عمل] الطاعات ﴿فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم﴾ على ألسنتهم ﴿حقّاً﴾ جزاءً على الكفر من العقاب، وعلى معاصيه من أليم العذاب؟ فأجابهم أهل النار بأن ﴿قالوا نعم﴾ والغرض بهذا النداء تبيكيت الكفّار وتوبيخهم، وأنّ الله تعالى صدّق فيما وعد به على لسان نبيّه، لتعرف [ليتحزّن، ظ] الكفّار بذلك ويتحسّروا عليه. والوجدان على ضربين:

أحدهما: بمعنى العلم فهو يتعدّى إلى مفعولين، والآخر: بمعنى الإحساس يتعدّى إلى واحد. وإنّما كان كذلك لأنّ الذي بمعنى العلم فهو يتعلّق بمعنى الجملة، والذي يتعلّق بالإحساس يتعلّق بمعنى المفرد من حيث إنّ الإحساس لا يتعلّق بالشيء إلا من وجه واحد.

وجواب الإيجاب يكون «نعم» وجواب النفي «بلى» لأنّ «نعم» تحقّق معنى الخبر المذكور في الاستفهام، و «بلى» تحقّقه بإسقاط حرف النفي.
 وقوله: ﴿فأذن مؤذّن بينهم﴾ معناه: نادى منادٍ نداءً أسمع الفريقين ﴿أن لعنة الله على الظالمين﴾ ولعنة الله: غضبه وسخطه وعقوبته على من كفر به، فيسرّ بذلك أهل الجنة ويغتمّ أهل النار.

قال الأخفش والزجاج: يجوز أن تكون ﴿أن﴾ بمعنى: أي قد وجدنا،

ولا يجب أن تكون ﴿أَنْ﴾ بمعنى: أي قد وجدنا. ونادوهم مشرفين عليهم من السماء في الجنة، لأنَّ الجنة في السماء والنار في الأرض.

وقوله: ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا﴾ إنما أضافوا ﴿الْوَعْدَ بِالْجَنَّةِ﴾ إلى نفوسهم، لأنَّ الكفار ما وعدهم الله بالجنة والثواب إلا بشرط أن يؤمنوا، فلمَّا لم يؤمنوا فكأنَّهم لم يوعدوا، وكذلك قوله: ﴿مَا وَعَدَ رَبِّكُمْ﴾ يعنون: من العقاب، لأنَّ المؤمنين لما كانوا مطيعين مستحقين للثواب فكأنَّهم لم يوعدوا بالعقاب، وإنما خصَّ الكفار.

قوله تعالى :

الَّذِينَ يَصَّدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَنُفُورُونَ ﴿٤٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جرٍّ، لأنَّه صفة لـ ﴿الظالمين﴾ والتقدير، ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغونها عِوَجًا، وذلك يبيِّن أنَّ المراد بالظالمين: الكفار، لأنَّ ما ذكرهم به من أوصاف الكفار.

والصدّ: هو العُدُول عن الشيء عن قِلَى، و«الصدّ» و«الإعراض» بمعنى [واحد] إلا أنَّ «الصدّ» يجوز أن يتعدّى، تقول: صدّه عن الحقّ يصدّه صدًّا، وصدّ هو عنه أيضاً، و«الإعراض» لا يتعدّى.

وقوله: ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: الحقّ الذي دعا الله إليه ونصب عليه الأدلّة وبعث به رسله، وقيل: هو دين الله. وقيل: الطريق الذي دلَّ الله على أنَّه يؤدِّي إلى الجنة. والمعنى متقارب.

وقوله: ﴿يَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ معنى «يَبْغُونَهَا»: يطلبون لها العِوَج بالشبه التي يلبسون بها ويوهمون أنَّها تقدر فيها، وأنَّها [هي، ظ] معوجة عن الحقّ بتناقضها. و«العِوَج» بالكسر: يكون في الطريق وفي الدين، وبالفتح،

يكون في الخلقة كقولك: «في ساقه عَوَج» بفتح العين. قال الشاعر:

قَفَا نَسَأْلُ مَنَازِلَ آلِ لَيْلَى عَلَى عَوَجِ إِلَيْهَا وَائْتِنَاءِ^(١)

بكسر العين.

ويحتمل نصب ﴿عَوَجًا﴾ أمرين:

أحدهما: أن يكون مفعولاً به، كقولك: يبيعون لها العَوَجَ.

الثاني: أن يكون نصباً على المصدر، كأنه قال: يطلبونها هذا الضَرْبَ

من الطلب، كما تقول: رَجَعَ الْقَهْقَرَى أَي: هذا الضَرْبُ من الرجوع، أي:

طَلَبَ الاعوجاج.

قوله تعالى:

وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَتَادَوُوا أَصْحَابَ
الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: [﴿وبينهما﴾] يعني: بين أصحاب الجنة وأصحاب النار

﴿حِجَابٌ﴾ والحِجَاب: هو الحاجز المانع من الإدراك، ومنه قيل للضرب:

مُخْجُوب، و: حاجب الأمير، و: حاجب العين، وَحَجَبَهُ عَنْهُ أَي: منعه من

الوصول إليه.

وقوله: ﴿وعلى الأعراف رجال﴾ فالأعراف: المكان المرتفع، أُخِذَ مِنْ

عُرْفِ الْفَرَسِ، ومنه: عُرْفُ الدِّيكِ، وكلُّ مرتفع من الأرض يسمَّى عُرْفًا،

لأنَّه بظهوره أُعْرِفَ مِمَّا انخفض، قال الشَّامُخُ:

وظَلَّتْ بِأَعْرَافٍ تَعَالَى كَأَنَّهَا رِمَاحٌ نَحَاهَا وَجْهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ^(٢)

(١) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٣٦ ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٣٦ عنه.

وقال آخر:

كَلَّ كِتَازٍ لَّحْمُهُ نِيَافٌ كَالْعَلَمِ المَوْفِي عَلَى الْأَعْرَافِ^(١)
يعني: بنشوز من الأرض. وقيل: هو سُور بين الجَنَّة والنار، كما قال
تعالى: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
العَذَابُ﴾^(٢) وهو قول مجاهد والسُّدِّي.

واختلفوا في الَّذِينَ هم على الأعراف على أربعة أقوال:
أحدها: أَنَّهُمْ فضلاء المؤمنين، في قول الحسن ومجاهد. قال أبو علي
الجُبَّائِي: هم الشهداء، وهم عدول الآخرة.

وقال أبو جعفر عليه السلام: «وهم الأئمة، ومنهم النبي ﷺ»^(٣).
وقال أبو عبد الله عليه السلام: الأعراف كُتبان بين الجَنَّة والنار، فيوقف عليها
كُلُّ نَبِيٍّ وكلِّ خليفة نبيٍّ مع المذنبين من أهل زمانه، كما يوقف قائد
الجيش مع الضعفاء من جنده، وقد سبق [سبق] المحسنون إلى الجَنَّة،
فيقول ذلك الخليفة للمذنبين الواقفين معه: أنظروا إلى إخوانكم المحسنين
قد سبقوا إلى الجَنَّة، فيسلم المذنبون عليهم، وذلك قوله: ﴿ونادوا أصحاب
الجَنَّة أن سلام عليكم﴾^(٤).

ثم أخبر تعالى: أَنَّهُمْ ﴿لم يدخلوها وهم يطمعون﴾ يعني: هؤلاء
المذنبين لم يدخلوا الجَنَّة وهم يطمعون أن يدخلهم الله إِيَّاهَا بشفاعة النبي
والإمام، وينظر هؤلاء المذنبون إلى أهل النار، فيقولون: ﴿ربَّنَا لا تجعلنا
فتنةً للقوم الظالمين﴾ ثم ينادي أصحاب الأعراف - وهم الأنبياء والخلفاء -

(١) المصدر السابق، ولم ينسبه لأحد.

(٣) رواه بمثله العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ١٨ و ١٩ ح ٤٥ و ٤٨.

(٤) رواه علي بن إبراهيم القمي في تفسيره: ج ١ ص ٢٣١ - ٢٣٢ بمثله.

(٢) الحديد: ١٣.

أهل النار مقرّعين لهم: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ ... أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾^(١) يعني: أهؤلاء المستضعفين الذين كنتم تحقرونهم وتستطيّلون بديناكم عليهم، ثمّ يقولون لهؤلاء المستضعفين عن أمر الله لهم بذلك: ﴿ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون﴾^(٢).

ويؤكد ذلك ما رواه عمر بن شبيبة وغيره^(٣): أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَسِمَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، فَرَوَىٰ عُمَرُ بْنُ شَبِيبَةَ بِإِسْنَادِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عَلِيُّ، كَأَنِّي بكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبِيَدِكَ عَصَا عَوْسَجٍ، تَسُوقُ قَوْمًا إِلَى الْجَنَّةِ وَآخَرِينَ إِلَى النَّارِ».

الثاني: قال أبو مجلّز: هم ملائكة، يُرَوَّنُ في صورة الرجال.

الثالث: قال حذيفة: هم قوم تُبْطِئُ^(٤) بهم صغائرهم إلى آخر الناس.

الرابع: قال الفراء والزجاج وغيرهما: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فأدخلهم الله تعالى الجنة متفضلاً عليهم. وطعن الرُّمَّانِي والجُبَّائِي على هذا الوجه بأن قالوا: الإجماع منعقد على أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الْمَكْلُوفِينَ إِلَّا الْمُطِيعُ لِلَّهِ.

وهذا الذي ذكروه ليس بصحيح، لأنَّ هذا الإجماع دعوى ليس على صحته دليل، بل مَنْ قَالَ مَا حَكِيْنَاهُ لَا يَسْلَمُ ذَلِكَ، وَأَكْثَرُ الْمَرْجُئَةِ أَيْضاً لَا يَسْلَمُونَ ذَلِكَ.

(١) و (٢) الآية: ٤٨ و ٤٩ الآيتين.

(٣) كعباية الأسدي والأصغر بن نباتة. راجع ترجمة الإمام علي عليه السلام من تاريخ ابن عساکر: ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٨، والمناقب لابن شهر آشوب: ج ٢ ص ١٥٧ - ١٥٨، والمناقب لابن المغازلي: ص ٦٧، وشواهد التنزيل: ج ١ ص ٢٦٢، وكشف الغمّة: ج ١ ص ٣٢٤، وفي النهاية واللسان: مادة «قسم».

(٤) في الحجرية: يطاب بهم.

وقوله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ﴾ يعني: هؤلاء الرجال الَّذِينَ هم على الأعراف يعرفون جميع الخَلْقِ بسِيمَاهُمْ يعرفون: أهل الجنة بسِيما المطيعين، وأهل النار بسِيما العَصَاة.

والسِيما: العلامة، وهي في أهل النار سواد الوجوه وزُرْقَةُ العيون، وفي أهل الجنة بياض الوجوه وحسن العيون، في قول الحسن وغيره. وقيل في وزن «سِيما» قولان:

أحدهما: إِنَّهُ «فَعْلَى» من: سَامَ إِلَهُه يَسُومُهَا إِذَا أَرْسَلَهَا فِي الْمَرْعَى، وهي السَّائِمَةُ. الثاني: إِنَّ وَزْنَ «عَفْلَى» وهو من: وَسِمْتَ، فَقَلَبْتَ الْوَاوَ إِلَى مَوْضِعِ الْعَيْنِ، كَمَا قَالُوا: لَهُ جَاهٌ فِي النَّاسِ أَيْ: وَجْهٌ، وَقَالُوا: اضْمَحَلَّ وَامْضَحَلَّ، وَ: أَرْضٌ خَامَةٌ أَيْ: وَخِيمَةٌ، وَفِيهَا ثَلَاثُ لُغَاتٍ: الْقَصْرُ وَالْمَدُّ وَ«سِيَمَاءُ» قَالَ الشَّاعِرُ:

عُلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا لَهُ سِيَمَاءُ لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَصَرِ^(١)
عَلَى زِينَةٍ «كِبْرِيَاءُ». وقوله ﴿وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ يعني: هؤلاء الَّذِينَ عَلَى الْأَعْرَافِ يَنَادُونَ: بِأَصْحَابِ الْجَنَّةِ [﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾].

﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ قيل في «الطامعين» قولان: أحدهما: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَالْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: إِنَّهُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ. وَقَالَ^(٢) أَبُو مِجَلَزٍ: هُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الَّذِينَ مَا دَخَلُوهَا بَعْدَ.

وَالطَّمَعُ هَاهُنَا: هُوَ يَقِينٌ بِلَا شَكٍّ، لِأَنَّهُمْ عَالِمُونَ بِذَلِكَ ضَرُورَةً، وَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾^(٣)

(١) لسدير بن عنقاء الفزاري، من أبيات يمدح ابن أخ له. راجع الأغاني: ج ١٧ ص ١١٧.
(٢) وهذا هو القول الثاني.
(٣) الشعراء: ٨٣.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام شاكاً في ذلك بل كان عالماً قاطعاً، وإنما حسن ذلك لعظم شأن المتوقع في جلالة النعمة به، وهو قول الحسن وأبي علي الجبائي وأكثر المفسرين.
قوله تعالى:

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا إخبار من الله تعالى عن أحوال هؤلاء الذين على الأعراف: أنه إذا صرف أبصارهم، والصرف: هو العُدُول بالشيء من جهة إلى جهة. والتلقاء: جهة اللقاء، وهي جهة المقابلة، ولذلك كان ظرفاً من ظروف المكان، تقول: هو تِلْقَاكَ، كقولك: هو حذاك. والأبصار: جمع «بَصَر» وهو الحاسة التي يدرك بها المُبْصِر وقد يستعمل بمعنى المصدر، فيقال: له بصر بالأشياء أي: عِلْمُهَا، و: هو بصير بالأمور أي: عالم.

و «أصحاب النار» هم أهل النار^(١)، وإنما يفيد «أصحاب» أنهم ملازمون لها، والأصل يقتضي المناسبة فيهم لسبب لازم، كالنسيب، كما يقال: أهل البلد. وحدّ الرُّمَّاني «النار» بأن قال: جسم لطيف فيه الحرارة والضياء، وزيد فيه: ومن شأنه الإحراق.

وقوله: «قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين» أي: لا تجمعنا وإياهم في النار. وإنما حسنت المسألة مع علمهم الضروري بأن الله لا يفعل بهم ذلك لِمَا لهم في ذلك من السرور بموقف الخاضع لله في دعائه الشاكر بخضوعه لربه، وكما يجوز أن يريدوا من الله النعيم كذلك يجوز أن

(١) في الحجرية: أصحاب النار.

يسألوا السلامة من العذاب مع العلم بهما، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُوْرُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَغَفَرَ لَنَا﴾^(١) وإن كان النبي ومن معه من المؤمنين يعلمون ذلك.

قوله تعالى:

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿ونادى أصحاب الأعراف﴾ معناه: سينادي، وإنما جاز أن يذكر الماضي بمعنى المستقبل لأمرين:

أحدهما: لتحقيق المعنى، كأنه قد كان. والثاني: على وجه الحكاية والحذف، والتقدير: إذا كان يوم القيامة نادى أصحاب الأعراف.

و ﴿نادى﴾ معناه: دعا، غير أن في «نادى» معنى امتداد الصوت ورفع، لأنه مشتق من النداء، يُقال: صوت نداء أي: يمتد وينصرف خلاف الواقف، وليس كذلك «دعا» لأنه قد يكون بعلامة كالإشارة من غير صوت ولا كلام، ولكن إشارة تُنبئ عن معنى يُقال.

في هذه الآية إخبار وحكاية من الله تعالى: أن أصحاب الأعراف ينادون قوماً يعرفونهم من الكفار بسيماهم من سواد الوجوه وزُرقة العين وضروب من تشويه الخلق، يبينون به من أهل الجنة وغيرهم ﴿ما أغنى عنكم جمعكم﴾ معناه: ما نفَعكم ذلك؟ وقيل في معنى «الجمع» قولان:

أحدهما: جماعتكم التي استندتم إليها، الثاني: جمعكم الأموال والعدد

في الدنيا.

قوله: ﴿وما كنتم تستكبرون﴾ معناه: ولا نفعلكم تكبركم وتجبركم في دار الدنيا عن الانقياد لأنبياء الله واتباع أمره.

قوله تعالى:

أَهْوَآءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٩٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في القائل لهذا القول الذي هو ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم﴾ قولان:

أحدهما: قال الحسن وأبو مجلّز والجُبائي وأكثر المفسرين: إنهم أصحاب الأعراف يقولون للكفار مشيرين إلى أهل الجنة ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة﴾ وهذا يدلّ على أنّ الواقفين على الأعراف هم ذوو المنازل الرفيعة والمراتب السنية.

الثاني: إنّه من قول الله تعالى في أصحاب الأعراف.

وقوله: ﴿أهؤلاء﴾ مبتدأ وخبره: ﴿الذين أقسمتم﴾ ولا يجوز أن يكون ﴿الذين﴾ صفة لـ ﴿هؤلاء﴾ من وجهين:

أحدهما: أنّ المبهم لا يوصف إلا بالجنس، والآخر: أنّه يبقى المبتدأ بلا خبر. ويجوز نصب ﴿هؤلاء﴾ بالفعل في ﴿أهؤلاء الذين أقسمتم﴾ ولا يجوز مع ﴿الذين أقسمتم﴾ لأنّ ما بعد الموصول لا يعمل فيما قبله لأنّه من تمام الاسم. والإقسام تأكيد الخبر، تقول: «والله» و «تالله» للقطع عليه، أو ليدخل في قسم ما يُقَطَّع به العمل عليه.

وقوله: ﴿لا ينالهم الله برحمة﴾ فالنيل: هو لحوق البرّ، وأصله: اللُّحُوق، [تقول]: نِلْتُ الحائِطَ أَنالَهُ نَيْلاً إِذَا لحقته.

وقوله: ﴿ادخلوا الجنة﴾ أمر بدخول الجنة للمؤمنين. وقوله: ﴿لا خوف عليكم﴾ فالخوف هو توقع المكروه، وضده: الأمن وهو الثقة بانتفاء المكروه، و ﴿لا أنتم تحزنون﴾ معناه: ادخلوا الجنة لا خائفين ولا محزونين. وفائدة الآية: تقريع الزارئين على ضعفاء المؤمنين حتى حلفوا أنهم لا خير لهم عند الله، فقليل لهم: ﴿ادخلوا الجنة﴾ على أكمل سرورٍ وأتم كرامة.

قوله تعالى:

وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية: أن أصحاب النار يوم القيامة ينادون أصحاب الجنة. و ﴿أصحاب النار﴾ هم المخلدون في عذابها، لا جميع من فيها، لأن فيها الزبانية^(١) الموكّلون بعذاب أهلها.

وإنما توعد الله بالعقاب بالنار دون اختراع الآلام أو غيره من الأسباب، لأنه أهول في النفس وأعظم في الزجر، لما يتصور من الحال فيه، وما تقدّم من إدراك البصر له، وأنهم يسألونهم أن يفيضوا عليهم شيئاً ﴿من الماء﴾ والإفاضة: إجراء المائع من عليّ، ومنه: قولهم: أفاضوا في الحديث أي: أخذوه بينهم من أوله لأنه بمنزلة أعلاه، و: أفاضوا من عرفات إلى مُزْدَلِجَته معناه: صاروا إليها.

قال الرّماني: حدّ الماء: جسم سيّال يروي العطشان من غير غذاء الحيوان، وهو جوهر عظيم الرطوبة يزيد على جميع المائعات في كثرة المنفعة.

(١) في الحجرية: زبانية.

وقوله: ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ﴾ قال ابن زيد والسُّدِّي: طلبوا مع الماء شيئاً من الطعام. وقال أبو علي: طلبوا شيئاً من نعيم الجنة، فأجابهم أهل الجنة بتحريم المنع لا تحريم العبادة، فقالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وإنما جاز أن يطلبوا شيئاً من نعيم الجنة مع اليأس منه، لأنهم لا يخلون من الكلام به أو السكوت عنه، وكلاهما لا فَرْجَ لهم فيه.

وإنما لم يدرك أهل الجنة - مع خيريتهم - رَقَّةً على أهل النار، لأنَّ من الخيرية القسوة على أعداء الله وأعدائهم، وذلك من تهذيب طباعهم، كما يبغض المسيء ويحبُّ المحسن، وذلك دلالة على أنَّ الله تعالى بنى هذه الجملة بنية لا تستغني عن الغذاء، لأنَّ أهل النار مع ما هم عليه من العذاب يطلبون الطعام والشراب.

قوله تعالى:

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمْ آلِذْنِيَّةُ الدُّنْيَا فَاَلْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: يحتمل قوله: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ أن تكون في موضع جرٍّ، بأن يكون صفة لـ ﴿الكافرين﴾ ويكون ذلك من قول أهل الجنة، وتقديره: إنَّ الله حرَّمهما على الكافرين الذين اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا. ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء ويكون إخباراً من الله تعالى على وجه الذمِّ لهم.

و ﴿اتَّخَذُوا﴾ وزنه و «افتعلوا» والاتَّخَذَ: «الافتعال» وهو أخذ الشيء بإعداد الأمر من الأمور، فهو لاء أعدوا^(١) الدين للهو واللعب. ومعنى «الدين» هاهنا: ما أمرهم الله تعالى به ورغبهم فيه ممَّا يستحقُّ به الجزاء،

(١) في الحجرية: عدوا الدين.

وأصل «الدين»: الجزاء، ومنه: قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ واللّهو: طلب صرف الهمّ بما لا يحسن أن يطلب به، فهؤلاء طلبوا صرف الهمّ بالتهزّي بالدين وعيب المؤمنين، واللّعب: طلب المدح بما لا يحسن أن يطلب به، مثل حال الصبيّ في اللعب، واشتقاقه من: «اللّعب» وهو المرور على غير استواء. وأصل «اللّهو»: الانصراف عن الشيء، ومنه: قوله: «إذا استأثر الله بشيء فألّه عنه»^(١) أي: انصرف عنه.

وقوله: ﴿وغرّتهم الحياة الدنيا﴾ فمعنى «الغرور»: تزيين الباطل للوقوع فيه، غرّه يغرّه غروراً، وإنما اغترّوا هم بالدنيا في الحقيقة فصارت كأنّها غرّتهم. و«الدنيا»: هي النشأة الأولى، و«الآخرة»: النشأة الأخرى، وسُمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الحال، وهما كرتان: فالكرّة الأولى الدنيا، والكرّة الثانية هي الآخرة.

وقوله: ﴿فاليوم ننسأهم﴾ في معناه قولان: أحدهما: نتركهم من رحمتنا بأن نجعلهم في النار، في قول ابن عباس والحسن ومجاهد والسّدي. فسَمّى الجزاء على تركهم طاعة الله نسياناً، كما قال: ﴿وجزاء سيئة سيئةً مثلها﴾^(٢) والجزاء ليس سيئة.

الثاني: أنّه يعاملهم معاملة المنسيين في النار، لأنّه لا يُجاب لهم دعوة، ولا يرحم لهم عبثة، في قول الجبائي.

﴿كما نسوا لقاء يومهم﴾ معناه: كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم، هذا على القول الأوّل، و[على] الثاني: كما نسوا في أنّهم لم يعملوا به مثل الناسين لذلك لا نجيب لهم دعوة، لأنّهم نسوا.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ فالجحد: إنكار معنى الخبر، وأما إنكار المنكر فبكل ما يصرف عن فعله إلى تركه. و ﴿مَا﴾ في الموضعين مع ما بعدها بمنزلة المصدر، والتقدير: كنسيانهم لقاء يومهم هذا، وكونهم جاحدين لآياتنا.

قوله تعالى:

وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا إخبار من الله تعالى: أَنَّهُ أتى هؤلاء الكفار ﴿بكِتَابٍ﴾ والمجيء، نقل الشيء إلى حضرة المذكور، جِئْتَهُ بكذا ضدّ: ذهبت به عنه، لأنّ ذلك نقل إليه، وهذا نقل عنه. و «الكتاب» المراد به: القرآن، وأصل «الكتاب»: صحيفة فيها كتابة، والكتابة: حروف مسطّورة تدلّ بتأليفها على معاني مفهومة.

وقوله: ﴿فَصَّلَّنَاهُ﴾ معناه: ميّزنا معانيه على وجه يزول معه اللبس. و «التفصيل» و «التبيين» و «التقسيم» نظائر.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ معناه: فصلناه ونحن عالمون به، لأنّه لما كانت صفة «عالم» مأخوذة من «العلم» جاز أن يُذكر ليدلّ به على «العالم» كما أنّ «الوجود» في صفة «الموجود» كذلك.

وقوله: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إنّما جعل القرآن نعمةً على المؤمنين دون غيره مع أنّه نعمةٌ على جميع المكلفين من حيث إنّهم عرضوا به للهداية، غير أنّ المؤمن لما اهتدى به كانت النعمة بذلك عليه أعظم فأضيف إليه، وغير المؤمن لم يتعرّض للهداية ولما اهتدى، فالمؤمنون على صفة زائدة.

وقوله: ﴿هَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من الإعراب: النصب من وجهين: الحال والمفعول له، وبه القراءة. والرفع على الاستئناف. والجرّ على البذل. وإنما لم يوصف القرآن بأنه هدى للكفار لئلا توهّم [يتوهّم] أنّهم اهتدوا به وإن كان هداية لهم بمعنى: أنّه دلالة لهم وحجّة عندهم. قوله تعالى:

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قوله: ﴿هل ينظرون﴾ معناه: هل ينتظرون، لأنّ «النظر» قد يكون بمعنى: الانتظار، قال أبو عليّ: معناه: هل ينتظر بهم أو هل ينتظر المؤمنون بهم إلّا ذلك. وإنما أضاف إليهم مجازاً لأنّهم كانوا جاحدين لذلك غير متوقّعين، وإنما كان ينتظر بهم المؤمنون لإيمانهم بذلك واعترافهم به. والانتظار: هو الإقبال على ما يأتي بالتوقّع له، وأصله: الإقبال على الشيء بوجه من الوجوه، وإنما قيل لهم: «ينتظرون» وإن كانوا جاحدين، لأنّهم في منزلة المنتظر، أي: كأنّهم ينتظرون ذلك، لأنّه يأتيهم لا محالة إتيان المنتظر.

و «التأويل» معناه: ما يؤول إليه حال الشيء، تقول: أوّلته تأويلاً. وتأوّلته تأويلاً، وآل إليه أمره يؤول أولاً، وقيل: ﴿تأويله﴾ عاقبته من الجزاء به، في قول الحسن وقتادة ومجاهد. وقال أبو عليّ: ﴿تأويله﴾ ما وعدوا به من البعث والنشور والحساب والعقاب.

وقوله: ﴿يقول الذين نسوه من قبل﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال مجاهد: أعرضوا عنه فصار كالمنسيّ. الثاني: قال

الزجاج: يقول الذين تركوا العمل به.

وقوله: ﴿قد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ إخبار عن اعتراف الكفار الذين أعرضوا عن حُجج الله وبيّناته والإقرار بتوحيده ونسوة أنبيائه، وإقرار منهم بأن ما جاءت به الرسل كان حقاً، والحق: ما شهد بصحته العقل، وضده: الباطل، وهو ما يشهد بفساده العقل.

وقوله: ﴿فهل لنا من شُفعاء فيشفعوا﴾ [لهم، ظ] والشفيع: هو السائل لصاحبه إسقاط العقاب عن المشفع فيه والعفو عن خطيئته، فيتمنون ذلك مع يأسهم منه، في قول أبي علي.

وقوله ﴿فيشفعوا لنا﴾ في موضع نصب، لأنه جواب التمني بالفاء ﴿أو نُرَدُّ﴾ عطف بالرفع على تأويل: هل يشفع لنا شافع أو نُردُّ، ولو نصب ﴿أو نُرَدُّ﴾ كان جائزاً، ومعناه: فيشفعوا لنا إلى [إلا] أن نُردُّ، وما قُرئ به.

وقوله: ﴿نفعل غير الذي كنّا نعمل﴾ إخبار من الكفار وتمنيهم أن يُردّوا إلى الدنيا حتّى يعملوا غير ما عملوه من الكفر والضلال، فأخبر الله تعالى عند ذلك فقال: ﴿قد خسروا أنفسهم﴾ أي: أهلكوها بالكفر والمعاصي ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾.

وفي الآية دلالة على فساد مذهب المجبرة من وجهين:

أحدهما: أنّهم كانوا قادرين على الإيمان في الدنيا فلذلك طلبوا تلك الحال، ولولم يكونوا قادرين لما طلبوا الردّ إلى الدنيا وإلى مثل حالهم الأولى. والآخر: بطلان مذهب المجبرة في تكليف أهل الآخرة، قال أبو علي: وهو مذهب الحسين النجار، وهو خلاف القرآن والإجماع، ولو كانوا مكلفين لما طلبوا الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بل كانوا يؤمنون في الحال. ومعنى ﴿خسروا أنفسهم﴾ أي: منعوا من الانتفاع بها، ومن منع الانتفاع

بنفسه فقد خَسِرَهَا ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ معناه: ضلَّ عنهم ما كانوا يدَّعون أنَّهم شركاء الله وآلهة معه، وهذا كان افتراءهم على الله. قوله تعالى:

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ اللَّيْلَ أَلْتَهَارَ يُطَلِّبُهُ حَتِيفًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة إلّا حفصاً ويعقوب ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ﴾ بالتشديد، وكذلك في الرعد^(١). وقرأ ابن عامر: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات﴾ بالرفع فيهنّ، الباقون بالنصب.

هذا خطاب من الله تعالى لجميع الخلق، وإعلام لهم بأنَّ ربَّهم الذي أحدثهم وأنشأهم هو ﴿الله﴾ تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ بمعنى اخترع ﴿السموات والأرض﴾ فابتدعهما وأوجدهما لا من شيء، ولا على مثال ﴿في ستة أيام﴾ وقيل: إنَّ هذه الستة أيَّام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، فاجتمع له الخلق في يوم الجمعة، فذلك سميت: جُمُعَة، في قول مجاهد.

و«السموات» إنّما جُمِعَت بالواو لأنَّه رُدَّ إلى أصله، لأنَّ أصله: سماوة، وليس مثل ذلك «قراءة» لأنَّ أصلها الهمزة، ولذلك قيل في الجَمْع: قراءات. والوجه في خلقه إياهما ﴿في ستة أيَّام﴾ مع أنَّه قادر على إنشائهما دفعةً واحدةً قيل فيه وجوه:

أحدها: أنَّ تدبير الحوادث على إنشاء شيءٍ بعد شيءٍ على ترتيبٍ

أدّل على كون فاعله عالماً قديراً يصرفه على اختياره ويجريه على مشيئته.
وقال أبو علي: ذلك لا اعتبار الملائكة بخلق شيء بعد شيء. وقال
الرّماني: يجوز أن يكون الاعتبار بتصور الحال في الإخبار، ومعناه: إذا
أخبر الله تعالى بأنه ﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ كان فيه
لطف للمكلفين، وكان ذلك وجه حسنه.

وقوله: ﴿ثم استوى على العرش﴾ قيل في معناه قولان:
أحدهما: إنه استولى، كما قال البُغَيْثُ:

ثم استوى بِشْرٌ على العراق من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقٍ^(١)
يريد: بِشْر بن مَرْوان. الثاني: قال الحسن: استوى أمره.

وقيل في معنى: ﴿ثم استوى﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: قال أبو علي: ثم رفع العرش بأنه مستولى عليه [بأن استولى،
ظ] عليه ليرفع. الثاني: ثم بين أنه مستوٍ على العرش. الثالث: ثم صحّ
الوصف بأنه مستوٍ على العرش، لأنه لم يكن عرساً قبل وجوده.
وقوله: ﴿يُغْشِي الليل النهار﴾ معناه: يجلّل الليل النهار، أي: يدخل
عليه. والإغشاء: هو إلباس الشيء ما رَقَّ بما يجلّله، ومنه: غاشية السرج،
والغشاوة: التي تخرج على الولد، وعُشِّي على الرجل: إذا غَشِيَه ما يُزيل
عقله من عارض علّة.

ومن شدد العين فلاّته يدلّ على الكثرة، و «غشى» فعل يستعدّى إلى
مفعول واحد، كقوله: ﴿وتَغْشَى وجوههم النار﴾^(٢) فإذا نقلته بالهمزة أو
التضعيف تعدّى إلى مفعولين، وقد ورد القرآن بهما، قال الله تعالى:

﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(١) فالمفعول الثاني محذوف وتقديره: فأغشيناهم الغمى وفقد الرؤية، وبالتضعيف نحو قوله: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾^(٢) «فما» في موضع نصب بأنّه مفعول ثان.

وقال الأزهرى: معناه أقبل عليه. ومن خفف فلأنّه يحتمل القليل والكثير. والليل هو الذي يلبس النهار في هذا الموضع، لأنّه منقول من: غَشِيَ الليل النهار.

وقوله: ﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ معناه: أنّه يستمرّ على منهاج واحد وطريقة واحدة من غير فتور يوجب الاضطراب، كما يكون في السّوق الحثيث، وقيل: إنّ معنى «الحثيث» السريع بالسّوق.

وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ عطف على «السموات» كأنّه قال: وخلق الشمس والقمر والنجوم مسخّرات، وهي نصب على الحال، ومن رفع استأنف وأخبر عنها بأنّها مسخرة.

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ إنّما فصل «الخلق» من «الأمر» لأنّ فائدتهما مختلفة، لأنّ ﴿له الخلق﴾ يفيد أنّ له الاختراع، وله «الأمر» معناه: له أن يأمر فيه بما أحبّ، فأفاد الثاني بما لم يفده الأوّل.

فمن استدلّ بذلك على أنّ كلام الله قديم فقد تجاهل لما بيّنّا، ولو كان معناهما واحداً لجاز أيضاً مع اختلاف اللفظين، كما قالوا: «كذب ومين» وأشباهه.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ معناه: تبارك تعالى بالوحدانية فيما لم يزل ولا يزال، وأصله: الثبات، من قول الشاعر:

ولا يُنْجِي مِنَ الْعَمَرَاتِ إِلَّا بَرَآكُؤُ الْقِتَالِ أَوْ الْفِرَارِ^(١)
 فهو بمعنى: تعالى بدوام الثبات، ويحتمل: تعالى بالبركة في ذكر اسمه.
 وقيل في معنى ﴿العرش﴾ قولان:
 أحدهما: أنه سرير تعبد الله تعالى الملائكة بحمله. وقيل: المراد به الملك.
 قوله تعالى:

أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ آية بلا خلاف.
 أقول: قرأ أبو بكر: ﴿خُفْيَةً﴾ بكسر الخاء هاهنا وفي الأنعام^(٢) الباقون
 بضمها، وهما لغتان.

أمر الله تعالى عباده المكلفين أن يدعوه، والدعاء: طلب الفعل بطريقة
 «اللهم افعل» وقد يجيء بطريقة «غفر الله له» فهذه صيغة الخبر، والأوّل
 صيغة الأمر غير أنّه إنّما يسمّى أمراً إذا كان المقول له دون القائل، وإن
 كان فوقه سميّ دعاءً وطلباً. وأمّا قول القائل: «يا الله» «يا رحمن» «يا
 رحيم» «يا غفور» «يا قدير» «يا سميع» وما أشبه ذلك من أسماء الله فإنّما
 هو على جهة النداء ومعناه: التعظيم.

وقوله: ﴿تَضَرُّعًا﴾ فالتضرّع: التذلل، وهو إظهار الذلّ الذي في النفس،
 ومثله: التخشّع، ومنه: التطلّب لأمرٍ من الأمور، وأصل «التضرّع»: الميل
 في الجهات ذلاً، من قولهم: ضَرَعَ الرجل يَضْرَعُ ضَرَعاً إذا مالَ بإصبعه
 يميناً وشمالاً، ذلاً وخوفاً، ومنه: ضَرَعَ الشاة لأنّ اللَّبَنَ يميل، ومنه:
 المضارعة للمشابهة لأنّها تميل إلى شبهه بمعنى: المقاربة، والضريع: نبت
 لا يسمن ولا يغني من جوع لأنّه يميل مع كلّ داء.

(١) أنشده في اللسان: مادّة «برك» ونسبه إلى بشر بن أبي خازم.
 (٢) الآية: ٦٣.

وقوله: ﴿وَحُفِّيَّةٌ﴾ فالْحُفِّيَّةُ: خلاف العلانية، وقال ابن عباس: هي السرّ، وبه قال الحسن. وقال أبو علي: إنّما ذاك لئلاّ يَشُوبَ الدّعاء معنى الرياء، وحدّ الإخفاء خلاف حدّ الإظهار، والإظهار: إخراج الشيء إلى حيث يقع عليه الإدراك، والإخفاء: إغماضه بحيث لا يقع عليه الإدراك. وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ فالمحبّة من الله تعالى للعبد إرادة الثواب، ولذلك يحبّ المؤمن ولا يحبّ الكافر، ويحبّ الصّلاح ولا يحبّ الفساد. والاعتداء: تجاوز حدّ الحقّ، أي: لا تجاوزوا حدّ الحقّ في الدّعاء فتطلبوا منازل الأنبياء وما لا يجوز أن يُعمَل في الدنيا، في قول أبي مجلز. وقال ابن جرّيج: يكره الصّياح في الدّعاء.

و ﴿تَضَرَّعًا وَحُفِّيَّةً﴾ مصدران في موضع الحال، وتقديره: ادعوا الله متضرّعين في حال السرّ والعلانية. والحُفِّيَّةُ: الإخفاء، والخِيفَةُ: الخوف والرّهبة^(١). والهمزة في «الإخفاء» منقلبة عن الياء بدلالة «الحُفِّيَّة» والإخفاء: ضدّ الإعلان، ويُقال: أخفيت الشيء إذا أظهرته، قال الشاعر:

يُخْفِي التُّرَابَ بِأُظْلَافٍ ثَمَانِيَةٍ^(٢)

قوله تعالى:

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: نهى الله تعالى في هذه الآية عن الفساد في الأرض وهو الإضرار بما تمنع الحكمة منه، يقال: أفسد الحرّ التفّاحة إذا أخرجها إلى

(١) في ط بيروت: والخيفة والخوف والرّهبة نظرًا.

(٢) وعجزه: في أربع مسهّن الأرض تحليل. أنشده في اللسان: مادّة «حلل» ونسبه إلى عبدة ابن الطّبيب.

حال الضرر بالتغيير، والإصلاح: النفع بما تدعو إليه الحكمة، ولذلك لم تكن الآلام في النار إصلاحاً لأهلها، لأنه لا نفع لهم فيها.

وقال الحسن: إفساد الأرض بالقتل للمؤمنين والاعتداء عليهم. وقيل: إفساد الأرض: العمل فيها بمعاصي الله، وإصلاحها: العمل فيها بطاعة الله. وقوله: ﴿وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ أمر من الله تعالى لهم أن يدعوه خوفاً وطمعاً، وهما منصوبان على المصدر، وهما في موضع الحال، وتقديره: ادعوا ربكم خائفين من عقابه طامعين في ثوابه، والخوف: هو الانزعاج بما لا يؤمن، والأمن: سكون النفس إلى انتفاء المضار، والخوف يكون بالعصيان، والأمن بالإيمان، والطمع: توقع المحبوب، ونقيضه: اليأس وهو القطع بانتفاء المحبوب.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إخبار منه تعالى أن رحمته قريبة وأصله إلى المحسن، والإحسان: هو النفع الذي يستحق به الحمد، والإساءة: هي الضرر الذي يستحق به الذم، وقيل: المراد بالمحسنين: مَنْ تكون أفعاله كلها حسنة. وهذا لا يقتضيه الظاهر، بل الذي يفيد أنه رحمة الله قريب إلى مَنْ فعل الإحسان، وليس فيها أنها لا تصل إلى مَنْ جمع بين الحسن والقبيح، بل ذلك موقوف على الدليل.

وقال الفراء: إنما لم يؤث قول: ﴿قريب﴾ وهو وصف لـ ﴿رحمت﴾ لأنه ذهب مذهب المكان، وما يكون كذلك لا يُثني ولا يُجمع ولا يؤث، ولو ذهب به مذهب النسب أثت وثنى وجمع، قال عروة بن حزام:

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءُ مِنْكَ قَرِيبَةٌ فَتَدْنُو وَلَا عَفْرَاءُ مِنْكَ بَعِيدٌ^(١)

وقال الزجّاج: هذا غلط، كلّ ما قرب من مكان أو نَسَب فهو جائز عليه التأنيث والتذكير.

وجعله الأَخْفَش من باب الصَّيْحَةِ والصياح، لأنَّ الرحمة والإحسان والإنعام من الله واحد، وقال بعضهم: المراد بالرحمة هاهنا: المطر، فلذلك ذُكِر. قوله تعالى:

وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نِّقَالًا سَفَقْنَاهُ لِيلَةً مِّمَّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ أَمْثًا فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخَلَف: «الريح» على التوحيد هاهنا وفي النمل ^(١) والثاني من الروم ^(٢) وفي فاطر ^(٣). وقرأ عاصم: «بُشْرًا» بالباء وضمّها وسكون الشين، وقرأه نافع بالنون وضمّها وضمّ الشين وهم أهل الحجاز والبصرة، وكذلك الخلاف في الفرقان ^(٤) والنمل. قال أبو علي: «الريح» اسم على وزن «فَعَلَ» والعين منه واو فانقلبت ياء في الواحد للكسرة، وصَحَّت في الجمع القليل، لأنّه لا شيء يوجب الإعلال، ألا ترى أنّ الفتحة لا توجب إعلال هذه الواو في مثل: «يوم» و «قول» و «عون» قال ذو الرُّمّة:

إِذَا هَبَّتِ الْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ جَانِبٍ بِهِ آلٌ مَيِّ هَاجَ شَوْقِي هُبُوبُهَا ^(٥)
وليس ذلك كـ «عيد» و «أعياد» لأنّ هذا بدل لازم، وليس البدل في «الريح» كذلك، فأما في الجمع الكثير فـ «رياح» انقلبت الواو بالكسرة التي قبلها كما انقلبت في نحو: دِيَمَةٌ وَدِيمٌ، وَحِيلَةٌ وَحَيْلٌ، وفي «رياح» أجدر،

١. الآية: ٦٣.

٢. الآية: ٤٨.

٣. الآية: ٩.

٤. الآية: ٤٨.

٥. راجع ديوان ذي الرُّمّة: ص ٢٤٥.

لوقوع الألف بعدها، والألف تشبه الياء، والياء إذا تأخرت عن الواو وجب فيها الإعلال، فكذلك الألف لشبهها بها، و «الريح» على لفظ الواحد، ويجوز أن يراد بها الكثرة، لقولهم: كثير الدرهم والدينار، وقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) فكذلك مَنْ قرأ: ﴿الريح بشراً﴾ فأفرد ووصفه بالجمع، فإنه حملها على المعنى. وقد أجاز أبو الحسن ذلك وقال الشاعر:

فيها اثنتان وأربعون حَلُوبَةً... سوداً.....^(٢)

ومن نصب جاء قوله على المعنى، لأنَّ المفرد يُراد به الجمع، وهذا وجه قراءة ابن كثير، لأنَّه أفرد ﴿الريح﴾ ووصفه بالجمع، فلا يكون «الريح» على هذا اسم جنس. وقول مَنْ جمع «الريح» إذا وصفها بالجمع أحسن، إذ الحمل على المعنى أقلّ من الحمل على اللفظ، ويؤكد ذلك قوله: ﴿الرياح مبشّرات﴾^(٣) فلما وصفت بالجمع جمع الموصوف أيضاً.

فأما ما جاء في الحديث من أنَّ النبي ﷺ كان يقول إذا هبت ريح: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»^(٤) فلأنَّ عامّة ما جاء بلفظ «الرياح»: السقيا والرحمة، كقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾^(٥) وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾^(٦) وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ﴾^(٧) وما جاء بخلاف ذلك جاء على الأفراد كقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾^(٨) وقوله:

(١) العصر: ٢ و ٣.

(٢) لعنترة بن شداد من معلقته المشهورة. راجع ديوان عنتره: ص ١٣. (٣) الروم: ٤٦.

(٤) أخرجه ابن حجر في التلخيص: ج ٢ ص ٩٣ وعزاه إلى الشافعي في الأمّ والطبراني في المعجم وأبي يعلى في المسند بالسند عن ابن عباس. (٥) الحجر: ٢٢.

(٦) الروم: ٤٦. (٧) الروم: ٤٨. (٨) الذاريات: ٤١.

﴿وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلَكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾^(١) وقوله: ﴿بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم﴾^(٢).

قال أبو عبيدة: «نُشْرًا» أي: متفرقة من كل جانب^(٣). وقال أبو زيد: أنشر الله الموتى إنشاراً إذا بعثها، وأنشر الله الريح مثل: أحياها، فنُشِرت الجنوب وأُخِيت، والدليل على ذلك قول المراد الفقَّيسي:

وهبت له ريحُ الجنُوبِ وأُخِيتْ له رَيْدَةٌ يُخِيي المِياهَ نَسِيْمُهَا^(٤)
والرَيْدَةُ والرَيْدَانَةُ: الريح، قال الشاعر:

إِنِّي لَا زُجُو أَن تَمُوتَ الرِّيحُ فَأَقْعُدُ اليَوْمَ وَأُسْتَرِيحُ^(٥)
وَمَنْ قَرَأَ: «نُشْرًا» بضمَّ النون والشين يحتمل ضربين: جمع ريحٍ نُشُورٌ وريحٍ ناشِرٌ، ويكون على معنَى النِسَبِ، فإذا جعله جمع «نُشُور» احتمل أمرين: أحدهما: أن يكون «النُشُور» بمعنى «المُنَشَّر» كما أن «الزُّكُوب» بمنزلة «المَرْكُوب» كأنَّ المعنى: ريح أو رياح مُنَشَّرة. ويجوز أن يكون «نُشْرًا» جمع «نُشُور» يريد به الفاعل مثل: «طُهُور» ونحوه من الصفات. ويحتمل^(٦) أن يكون «نُشْر» جمع «ناشِر» كـ «شاهد وشُهد» و «نازِل ونُزِل» و «قاتِل وقُتِل» قال الأعشى:

إِنَّا لَأَمْثَالُكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتِلُ^(٧)

وقول ابن عامر: «نُشْرًا» يحتمل الوجهين: أن يكون جمعُ فُعُول

(١) الحاقة: ٦. (٢) الأحقاف: ٢٤. (٣) مجاز القرآن: ج ١ ص ٢١٧.

(٤) أنشده في اللسان: مادة «ريد». وفيه: «الممات» بدل «المياه».

(٥) أنشده في اللسان: مادة «نشر» ولم ينسبه لأحد. (٦) وهذا هو الضرب الثاني.

(٧) صدره: كَلَّا زَعَمْتُ بَأَنَّا لَا نَقَاتِلُكُمْ. من قصيدة يهاجم يزيد بن مسهر الشيباني. راجع

ديوان الأعشى: ص ١٥٣.

وَفَاعِل فَخَفَّفَ الْعَيْنَ، كَمَا خَفَّفَ فِي «كُتِبَ» وَ «رُسِلَ» وَيَكُونُ جَمْعُ فَاعِل
ك «بَارَكَ وَبُرِكَ» وَ «غَايِظَ وَغُيِظَ».

وَمَنْ فَتَحَ النُّونَ وَسَكَّنَ الشَّيْنَ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ ضَرِيئَيْنِ:
أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الْمَصْدَرُ حَالاً مِنْ «الرَّيْحِ» فَإِذَا جَعَلْتَهُ حَالاً مِنْهَا
احْتَمَلُ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ «النَّشْرُ» الَّذِي هُوَ خِلَافُ الطِّيِّ، كَأَنَّهَا
كَانَتْ بَانْقِطَاعِهَا كَالْمَطْوِيَّةِ، وَيَجُوزُ عَلَى تَأْوِيلِ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنْ تَكُونَ مَتَفَرِّقَةً
فِي وَجْهِهَا. وَالْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ «النَّشْرُ» الَّذِي هُوَ الْحَيَاةُ، مِنْ قَوْلِهِ:

[حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا] يَا عَجَباً لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ^(١)

فَإِذَا حَمَلْتَهُ عَلَى ذَلِكَ - وَهُوَ الْوَجْهَ - كَانَ الْمَصْدَرُ يُرَادُ بِهِ الْفَاعِلُ، كَمَا
تَقُولُ: أَتَانَا رَكْضاً أَيْ: رَاكِضاً، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَصْدَرُ يُرَادُ بِهِ الْمَفْعُولُ،
كَأَنَّهُ: يُرْسِلُ الرِّيحَ إِنْشَاراً أَيْ: مُحْيَاةً، فَحَذَفَ الزَّوَادَ مِنَ الْمَصْدَرِ، كَمَا
يُقَالُ: «عَمَرَكَ اللَّهُ» وَكَمَا يُقَالُ: «فَإِنْ يَهْلِكُ فَذَلِكَ كَانَ قَدْرِي» أَيْ: تَقْدِيرِي.
وَالضَّرْبُ الْآخَرُ: أَنْ يَكُونَ «نَشْراً» عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ يَنْتَسِبُ انْتِصَابُ
الْمَصَادِرِ مِنْ بَابِ «صُنِعَ اللَّهُ»^(٢) لِأَنَّهُ إِذَا قَالَ: «يُرْسِلُ الرِّيحَ» دَلَّ هَذَا
الْكَلَامُ عَلَى تَنْشِيرِ الرِّيحِ نَشْراً.

وَقِرَاءَةُ عَاصِمٍ: «بُشْراً» بِالْبَاءِ فَهُوَ جَمْعُ «بَشِيرٍ» مِنْ قَوْلِهِ: «يُرْسِلُ
الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ»^(٣) أَيْ: تَبَشِّرُ بِالْمَطَرِ وَالرَّحْمَةِ، وَجَمْعُ «بَشِيرٍ» عَلَى
«بُشْرٍ» ك «كِتَابٍ وَكُتِبَ».

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُولَى أَنَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ، وَخَلَقَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ، وَأَنَّهُ الَّذِي يَجَلِّلُ

(١) لِلْأَعْشَى أَيْضاً مِنْ قَصِيدَةِ يَهْجُو عُلُقَمَةَ وَيَمْدَحُ عَامِراً فِي الْمَنَافَرَةِ الَّتِي جَرَتْ بَيْنَهُمَا. رَاجِعْ
دِيوَانَ الْأَعْشَى: ص ٩٣. (٢) النمل: ٨٨. (٣) الروم: ٤٦.

الليل النهار، عطف على ذلك بأن قال: ﴿وهو الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ تعداداً لِنِعَمِهِ على خلقه. والإرسال: هو الإطلاق بتحميل معنى، كما تقول: أرسلتُ فلاناً أي: حملته رسالةً، فلما أطلق الله الرياح كان ذلك بمنزلة المطوي في الامتناع من الإدراك ثم صارت تُدْرِكُ في الآفاق، كانت كَنَشْرِ الثوب بعد طيِّه في الإدراك، قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْعَمَامِ وَرِيحَ الْخُرَامَى وَنَشْرَ الْقَطْرِ^(١)

وقال الفرّاء: النَّشْرُ من الرياح: الطيبة اللينة الَّتِي تُنَشِّئُ السحاب. و«السحاب»: الغيم الجاري في السماء، مشتقاً من الإسحاب، يقال: سَحَبَهُ سَحْباً وَأَسْحَبَ إِسْحَاباً وَتَسَحَّبَ تَسَحُّباً.

وقوله ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ معناه: قُدَّامَ رَحْمَتِهِ، كما يُقَدِّمُ الشَّيْءَ بَيْنَ يَدَيْ الْإِنْسَانِ، كما قال: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بَيْدِي﴾^(٢) أي: تَوَلَّيْتُ خَلْقَهُ، كما يقول الإنسان: عملت بيدي، و«الرحمة» يُرَادُ بِهَا هَاهُنَا: الْعَيْثُ.

وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً﴾ فالإقلال: حمل الشيء بأسره حَتَّى يَقِلَّ فِي طَاقَةِ الْحَامِلِ لَهُ بِقُوَّةِ جِسْمِهِ، يُقَالُ: اسْتَقَلَّ بِحِمْلِهِ اسْتِقْلَالاً، وَأَقْلَهُ إِقْلَالاً، و«الثِّقَالُ»: جمع ثَقِيل، والثَّقِيلُ: مَا فِيهِ الْاعْتِمَادُ الْكَثِيرُ سَفْلاً. وقال قوم: هو مَا تُجْمَعُ أَجْزَاؤُهُ كَالذَّهَبِ وَالْحَجَرِ، وَقَدْ يَكُونُ بِكَثْرَةِ مَا حَمَلَ كَالسَّحَابِ الَّذِي يَثْقُلُ بِالْمَاءِ.

وقوله: ﴿سَقَنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: إِلَى بَلَدٍ، فَالَسَّوْقُ: حَثُّ الشَّيْءِ فِي السَّيْرِ حَتَّى يَقَعَ الْإِسْرَاعُ فِيهِ، سَاقَهُ يَسُوقُهُ سَوْقاً، وَاسْتَاقَهُ اسْتِيقَاً، وَسَاوَقَهُ مَسَاوَقَةً، وَتَسَاوَقُوا تَسَاوُقاً، وَتَسَوَّقَ تَسَوَّقاً، وَأَنَسَاقَ أَنَسِيقَاً، وَسَوَّقَهُ

(١) من قصيدة يصف فرسه وصيده. راجع ديوان امرؤ القيس: ص ١١٠.

(٢) ص: ٧٥.

تَسْوِيقًا، و «البلد الميِّت»: هو الَّذِي اندرست مشاربه وتَعَفَّت مزارعه.
 وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ الهاء في ﴿بِهِ﴾ راجعة إلى «البلد» ويحتمل
 أن تكون راجعة إلى «السحاب». وقوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾
 فالهاء في ﴿بِهِ﴾ يحتمل أن تكون راجعة إلى «البلد» ويكون التقدير:
 أَخْرَجْنَا بِهَذَا الْبَلَدِ، ويحتمل أن تكون راجعة إلى «الماء» فكأنَّه قال:
 فَأَخْرَجْنَا بِهَذَا الْمَاءِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ. ويحتمل أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبعية،
 ويحتمل أن تكون لتبيين الجنس.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتَى﴾ معناه: كما أَخْرَجْنَا الثَّمَرَاتِ كذلك
 نَخْرُجُ الْمَوْتَى بعد موتها بِأَنْ نَحْيِيهَا ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: لكي
 تَتَذَكَّرُوا وَتَتَفَكَّرُوا وتعتبروا بِأَنْ مَنْ قَدَرَ عَلَى إِثْنَاءِ الْأَشْجَارِ وَالثَّمَرِ فِي
 الْبَلَدِ الَّذِي لَا مَاءَ فِيهِ وَلَا زَرْعَ فَإِنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْأَمْوَاتَ بِأَنْ
 يَعِيدَهَا إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ بِأَنْ يَخْلُقَ فِيهَا الْحَيَاةَ وَالْقُدْرَةَ.

واستدلَّ البلخي بهذه الآية على أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ بِالطَّبْعِ،
 قال: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبَيِّنُ أَنَّهُ يَخْرِجُ الثَّمَرَاتَ بِالْمَاءِ الَّذِي يَنْزِلُهُ مِنَ السَّمَاءِ،
 قال: وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُنْكَرَ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَنْكَرُ قَوْلَ مَنْ يَقُولُ بِقَدَمِ الطَّبَاعِ، أَوْ
 قَوْلَ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ الْجَمَادَاتِ تَفْعَلُ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَفْعَلُ هَذِهِ
 الْأَشْيَاءَ غَيْرَ أَنَّهُ يَفْعَلُهَا تَارَةً مُخْتَرَعَةً بِلَا وَسَائِطٍ وَتَارَةً بَوْسَائِطٍ، فَلَا كَرَاهَةَ
 فِي ذَلِكَ كَمَا تَقُولُ فِي السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ.

وهذا الَّذِي ذَكَرَهُ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، لِأَنَّهُ إِنْ أَشَارَ بِالطَّبْعِ إِلَى رَطُوبَاتٍ
 مَخْصُوصَةٍ وَبِوَسَائِلٍ مَخْصُوصَةٍ فَلَا خِلَافَ فِي ذَلِكَ، غَيْرَ أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ
 لَا تَتَوَلَّدُ عَنْهَا ذَوَاتٌ أُخَرَ، بَلْ مَا يَحْصُلُ عِنْدَهَا اللَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُهَا مُبْتَدَأً،
 وَلَيْسَ كَذَلِكَ السَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ، لِأَنَّ السَّبَبَ الَّذِي يَفْعَلُ الْفِعْلَ بِهَا [يَهْ، ظ]

وهو الاعتماد والمجازة يوجب التأليف، وما عدا ذلك فليس فيه شيء تولّد أصلاً، وإن أراد بالطبع غير هذا المعقول فليس في الآية دلالة على صحّته بحال.

قوله تعالى:

وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَلْوَانِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو جعفر: ﴿نَكْدًا﴾ بفتح الكاف، الباقون بكسرهما. والوجه في ذلك أنّهما لغتان. وحكى الزجاج «نُكْدًا» بضمّ النون وسكون الكاف، ولا يُقرأ به. وقال الفراء: يقتضي القياس أيضاً «نَكْدًا» بضمّ الكاف وفتح النون، غير أنّي لم أسمع، مثل: «دَنَفٌ وَدَنَفٌ» و «حَذَرٌ وَحَذَرٌ» و «يَقْطُ وَيَقْطُ» بالفتح والضمّ والكسر.

قوله: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ فالبلد: هو الأرض التي تجتمع الخلق الكثير، وتنفصل بما لهم فيها من العمل والتأثير، والبلدة: خلاف الفلاة والصحراء، وأمّا البادية فكالبلد للأغراب ونحوهم من الأكراد والأتراك. و ﴿الطَّيِّبُ﴾: مافيه أسباب التلذذ، وضده: الخبيث وهو مافيه أسباب النكرة [التكره، ظ]. وقال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي: هذا مثّل ضربه الله للمؤمنين، فشبه المؤمن وما يفعله من الطاعات والأفعال والانتفاع بما أمره الله ونهاه عنه بالأرض العذبة التربة التي تُخرج الثمرة الطيبة بما ينزله الله عليها من الماء العذب، والكافر وما يفعله من الكفر والمعاصي بالأرض السيّخة المِلْحَة التي لا ينتفع بنزول المطر عليها فينزع عنها البركة.

وقوله: ﴿يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ فالإخراج: نقل الشيء من محيط به إلى غيره، فهذا النبات كأنّه كان في باطن الأرض فخرج منه، و «الإذن»:

هو الإطلاق في الفعل برفع المنعة فيه، فكذلك منزلة هذا البلد، كأنه قد أطلق في إخراج النبت الكريم.

ووجه ضرب المثل بالأرض الطيبة والأرض الخبيثة مع أنهما من فعل الله وكلاهما حكمة وصواب، والطاعات والمعاصي أحدهما بأمر الله والآخر بخلاف أمره: هو أن الله تعالى لما جعل المنفعة بأحدهما والمضرة بالآخر مثل بذلك الانتفاع بالعمل الصالح والاستضرار بالمعاصي والقبايح. وقوله: ﴿وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ فالتكد: العسر بشدته، الممتنع من إعطاء الخير على وجه البخل، تقول: نَكَدَ يَنْكُدُ نَكْدًا، فهو نَكِذٌ وَنَكَدٌ، وقد نَكَدَ: إِذَا سِيلَ فَبَخَلَ، وَنَكَدَ يَنْكُدُ نَكْدًا، قال الشاعر:

لَا تُنْجِزِ الْوَعْدَ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ أُعْطِيتَ أُعْطِيتَ تَافَهًا نَكِدًا^(١)
وقال الآخر:

وَأَعْطِ مَا أُعْطِيَتْهُ طَيِّبًا لَا خَيْرَ فِي الْمَنْكُودِ وَالنَّكَدِ^(٢)
وقال السدي: التكد: القليل الذي لا يُنْتَفَعُ به.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُشْكِرُونَ﴾ فالصرف: توجيه الشيء في جهتين فصاعداً، فلما كان معنى الآية يُوجِّه في الدلالات المختلفة كانت الآية متصرفة [مصرفة] فالنشأة الثانية مصرفة بأنها كإحياء الأرض بالماء للنبات، وبأنها كالخارج من الأرض في الاختلاف: فمنه طيب ومنه خبيث، وبأنها في حال المؤمن والكافر كحال الأرض في الطيب والخبيث.

والمعنى: أنه تعالى يبين لهم آية بعد آية، وحجة بعد أخرى، ويضرب

(١) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٤٣٣ ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشده في اللسان: مادة «نكد».

مثلاً بعد مثلٍ لقوم يشكرون الله على إنعامه عليهم ومن إنعامه عليهم هدايته إياهم لما فيه نجاتهم، وتبصيرهم سبيل أهل الضلال، وأمره إياهم تجنّب ذلك والعدول عنه.

قوله تعالى:

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو جعفر والكسائي: ﴿من إله غيره﴾ بخفض الراء وكسر الهاء ووصلها بياءٍ في اللفظ حيث وقع، الباقلون بضمّ الراء وضّم الهاء وإشباعها بالواو. قال الكسائي: تقديره: ما لكم غيره من إله، في قراءة نافع. قال أبو عليّ الفارسي: مَنْ جَرَّ جَعَلَ «غيراً» صفة لـ ﴿إله﴾ على اللفظ، وجعل ﴿لكم﴾ مستقراً أو غير مستقرّ، وأضمر الخبر، والخبر: ما لكم في الوجود أو في العالم ... ونحو ذلك، لا بدّ من هذا الإضمار إذا لم يجعل ﴿لكم﴾ مستقراً، لأنّ الصفة والموصوف لا يستقلّ بهما الكلام.

ومن رفع حجّته قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾^(١) فكما أنّ قوله: ﴿إلا الله﴾ بدل من قوله: ﴿من إله﴾ كذلك قوله: ﴿غيره﴾ يكون بدلاً من قوله: ﴿من إله﴾ و ﴿غير﴾ يكون بمنزلة الاسم الذي بعد «إلا» وهذا الذي ذكرناه أولى أن يحمل عليه من أن يجعل ﴿غير﴾ صفة لـ ﴿إله﴾ على الموضع. فإن قلت: ما ينكر أن يكون ﴿إلا الله﴾ صفة لـ ﴿إله﴾.

قيل: إنّ «إلا» بكونها استثناء أعرف وأكثر من كونها صفة، وإنّما جعلت صفة على التشبيه بـ «غير». فإذا كان الاستثناء أولى حملنا ﴿هل من

خالقٍ غيرِ الله ﴿١﴾ على الاستثناء من النفي في المعنى، لأنَّ قوله: ﴿هل من خالقٍ غيرِ الله﴾ بمنزلة: ما من خالقٍ غيرِ الله، ولا بدَّ من إضمار الخبر، كأنَّه قال: ما من خالقٍ للعالمِ غيرِ الله، ويؤكد ذلك قوله: ﴿لا إله إلا الله﴾ ﴿٢﴾ فهذا استثناء من منفيٍّ، مثل: لا أجد في الدار إلا زيداً، فأما حمزة والكسائي فإنَّهما جعلاهما ﴿غير﴾ صفة لـ ﴿خالق﴾ وأضمرا الخبر، كما تقدَّم، والباقون جعلوه استثناءً بدلاً من النفي، وهو أولى لما تقدَّم من الاستشهاد عليه من قوله: ﴿وما من إله إلا الله﴾.

أخبر الله تعالى وأقسم على خبره - لأنَّ اللام في قوله: ﴿لقد﴾ لام القسم - بأنَّه أرسلَ نوحاً عليه السلام إلى قومه، وإرساله إياه هو تكليفه القيام بالرسالة، وهي منزلة جليلة شريفة يستحقُّ بها الرسول بتقبُّله إياها والقيام بأعبائها أن يعظَّم أعلى تعظيم البشر، وأخبر أنَّ نوحاً قال لقومه: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ والعبادة: هي الخضوع بالقلب في أعلى مراتب الخضوع، يعظَّم به مَنْ له أعظم النعم، فلذلك لا يستحقُّ العبادة غير الله.

وأخبر أنَّ أمرهم بأن تكون عبادتهم لله وحده، لأنَّه لا إله لهم غيره، ولا معبود لهم سواه، وقال لهم ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾ يريد به: يوم القيامة، والعذاب: هو الألم الجاري على استمرار، وقد يكون غير عقاب، إلا أنَّ المراد به هاهنا العقاب، والعقاب: الألم على ما كان من المعاصي، ولم يجعل خوفه عليهم على وجه الشكِّ، بل أخبرهم أنَّ هذا العذاب سيحلُّ بهم إن لم يقبلوا ما أتاهاهم به، لأنَّ الخوف قد يكون مع اليقين كما يكون مع الشكِّ، ألا ترى أنَّ الإنسان يخاف من الموت،

ولا يشكّ في كونه.

قوله تعالى:

قَالَ أَلَمْأَلَأْ مِنْ قَوْمِي، إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿قال﴾ أصله: «قَوْل» فانقلبت الواو ألفاً لحركتها وانفتاح ما قبلها. أخبر الله تعالى عن الملائ من قوم نوح، وقيل في معنى ﴿الملائ﴾ قولان: أحدهما: أنّهم الجماعة من الرجال سمّوا بذلك لأنّهم يملؤون المحافل. والثاني: أنّهم الأشراف، وقيل: الرؤساء، لأنّهم يملؤون الصدر بعظم شأنهم، ومنه: قوله ﷺ: «أولئك الملائ من قريش»^(١).

و «القوم» يقال لمن يقوم بالأمر، ولا ينشوة فيهم، على قول الفراء، وهو مأخوذ من «القيام» وإنّما سمّوا بالمصدر، كما قال بعض العرب: إذا أكلت طعاماً أحببت نوماً وأبغضت قوماً، أي: قياماً.

وقوله: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّ من رؤية القلب الذي هو العلم. الثاني: من رؤية العين، كأنّهم قالوا: نراك بأبصارنا على هذه الحال. الثالث: إنّ من الرأي الذي هو غالب الظنّ، وكأنّه قال: إِنَّا لَنَظُنُّكَ.

وقوله: ﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أرادوا بالضلال هاهنا: العدول عن الصواب إلى الخطأ فيما زعموا مخالفتهم إياه فيما دعاهم إليه من إخلاص العبادة لله تعالى، وقوله ﴿مُبِينٍ﴾ أي: بيّن ظاهر.

قوله تعالى:

قَالَ يَتَقَوْمٍ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ أَلْعَلَّمِينَ ﴿٦١﴾ آية بلا خلاف.

(١) أوردته الجزري في النهاية: ج ٤ ص ٣٥١ مادة «ملائ».

أقول: في هذه الآية إخبار عما أجابهم به نوح عليه السلام وقال لهم: ﴿ليس بي ضلالة﴾ أي: ليس بي عدول عن الحق، ويُقال: به ضلالة، لأن فيه معنى عُرِضَ به، كما يُقال: به جُنَّة، ولا يجوز أن يُقال: به معرفة، لأنها ليست مما تُعرض بصاحبها، ولكن يصح أن يُقال: به جوع، وبه عطش، لأنه عارض به.

قوله: ﴿يا قوم﴾ أصله: «يا قومي» فحُذِفَتْ ياء الإضافة لقوة النداء على التغيير حتى يحذف للترخيم، فلما جاز أن يحذف في غيره للاجتماع بالكسرة منها لزم أن يحذف فيه لاجتماع السببين فيه.

وقوله: ﴿ولكنني رسول من رب العالمين﴾ معنى «لكن» الخفيفة الاستدراك بها معنى المفرد، والمشددة يستدرك بها معنى الجملة، فلذلك صارت من أخوات «إن» و «لكنني» أصله: «ولكنني» وحُذِفَتْ النون لاجتماع النونات، ويجوز الإتمام لأنه الأصل، وكذلك «إني» و «كأنني» فأما «ليتني» فلا يجوز فيه إلا إثبات النون، لأنه لم يعرض فيه علّة الحذف، وأما «لعلني» فيجوز فيه الوجهان، لأن اللام قريبة من النون.

ومعنى ﴿من﴾ هاهنا: لا ابتداء الغاية، ومعناه: أن الله تعالى هو الذي ابتدأني بالرسالة، وكل مبتدئ بفعلٍ فذلك الفعل منه، وأصل «من» موضع ابتداء الغاية، كقولك: خرجت من بغداد إلى الكوفة، أي: ابتداء خروجي من بغداد. قوله تعالى:

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِي رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو عمرو وحده: ﴿أبلغكم﴾ مخففة اللام، الباقون

بتشديدها.

«بَلَّغَ» فعل يتعدى إلى مفعول واحد، تقول: بَلَّغَنِي خبركم، و: بَلَّغْتَ

أَرْضَكُمْ، فإذا نقلته تعدّى إلى مفعولين، والنقل يكون تارةً بالهمزة وأخرى بتضعيف العين، وقد ورد بهما التنزيل، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبَلَّغْتُمْ﴾ ^(١) فنقل بالهمزة، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ﴾ ^(٢) فنقل بتضعيف العين، فعلى هذين الوجهين اختلفوا في القراءة.

وفي الآية حكاية عن قول نوح عليه السلام لقومه: إِنَّهُ قَالَ لَهُمْ بَعْدَ مَا أُنْكَرَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ لَيْسَ بِهِ ضَلَالَةٌ، وَإِنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنَّهُ بَلِّغُهُمْ مَا حَمَلَهُ اللَّهُ مِنْ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، وَالْإِبْلَاجُ: إِيصَالُ مَا فِيهِ بَيَانٌ وَإِفْهَامٌ، وَمِنْهُ: الْبَلَاغَةُ وَهِيَ إِيصَالُ الْمَعْنَى إِلَى النَّفْسِ بِأَحْسَنِ صُورَةٍ مِنَ اللَّفْظِ، وَالْبَلِيغُ: الَّذِي يُنْشِئُ الْبَلَاغَةَ، لَا الَّذِي يَأْتِي بِهَا عَلَى وَجْهِ الْحِكَايَةِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْإِبْلَاجِ وَالْأَدَاءِ: [أَنَّ الْأَدَاءَ] لَمَّا يُسْمَعُ، وَحَسَنُ الْأَدَاءِ لِلْقِرَاءَةِ.

و «الرسالات» جمع رسالة، وهي جملة من البيان يحملها القائم بها ليؤدّيها إلى غيره، وإنّما جمع ها هنا «رسالات» وفي موضع آخر «رسالة» ^(٣) على التوحيد لأنّه يشعر تارةً بالجملة وتارةً بالتفصيل، فلمّا دعا إلى عبادة الله وطاعته واجتناب محارمه والعمل بشريعته كان هذا تفصيل رسالات الله تعالى. ورسالات الله حُكْمٌ: مِنْ تَرْغِيبٍ وَتَحْذِيرٍ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَمَوَاعِظَ وَمَزَاجِرَ، وَحُجَجٍ وَبَرَاهِينَ، وَأَحْكَامَ يُعْمَلُ بِهَا وَحُدُودَ يَنْتَهَى إِلَيْهَا.

وقوله: ﴿وَأَنْصَحْ لَكُمْ﴾ فالنصيحة: إخلاص النية من شائب الفساد في المعاملة، و«النّصح» خلاف الغشّ في العمل، ولا يكون [الغشّ] إلا بسوء النية. وقوله: ﴿وَأَعْلَمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فيه حثّ لهم على طلب العلم

من جهته وتحذير من مخالفته، لِمَا يعلم من العاقبة، فكأنه قال: أنا أعلم من حلول العقاب بمخالفتكم وترك القبول مِنِّي ﴿ما لا تعلمون﴾ أنتم، ويجوز أن يريد: وأعلم من توحيد الله وصفاته وحكمته ما لا تعلمونه. وفي ذلك بطلان مذهب القائلين بأن معرفة الله ضرورة، وأن من لم يعرفه ضرورةً فليس بمكلّف، لأنّ نوحاً ﷺ بين أنّه خاف عليهم مع أنّه يعلم ما [لا] يعلمونه.

قوله تعالى:

أَوْعِظْهُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣﴾ آية .

أقول: في هذه الآية تقرير من نوح ﷺ لقومه على صورة الاستفهام بأَنَّهُم عجبوا أن جاءهم ذِكْرٌ من ربهم. وإنّما دخل الاستفهام معنى التقرير لأنّ المجيب لا يأتي إلّا بما يسوء من القبيح، فهو إنكار وتقرير، وقد يدخل معنى التمني، لأنّه بمنزلته في أنّه طلب، لأن يكون أمر. وإنّما نتحت الواو في قوله: ﴿أَوْعِظْتُمْ﴾ لأنّها واو العطف دخل عليها ألف الاستفهام، فالكلام مستأنف من وجه، ومتّصل من وجه، كما أنّ المبتدأ في خبر الأوّل بهذه الصفة.

و «التعجب»: تغيّر النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله، لأنّه لا مثل له في العادة. و «الذِّكْر»: حضور المعنى للنفس، والذِّكْر على وجهين: ذِكْرُ البيان وذِكْرُ البرهان، فذِكْرُ البيان: إحضار المعنى للنفس، وذِكْرُ البرهان: الشهادة بالمعنى في النفس، وكلّا الوجهين يحتمل في الآية. وقوله: ﴿على رجل منكم﴾ فالرجل: هو إنسان خارج عن حدّ الصبيّ من الذكران، وكلّ رجل إنسان، وليس كلّ إنسان رجلاً، لأنّ المرأة إنسان.

وقيل في دخول ﴿على﴾ في قوله ﴿على رجل منكم﴾ قولان:
أحدهما: إنه بمعنى: مع رجل منكم، قال الفراء: كما تقول: جاءني
الخبر على وجهك [وجهه، ظ] ومع وجهك [وجهه، ظ]. الثاني: لأن فيه
معنى: مُنزَل على رجل منكم.

وقوله: ﴿لينذركم﴾ فالإنذار: هو الإعلام بموضع المخافة، والتحذير:
هو الزجر عن موضع المخافة.

وقوله: ﴿ولتتقوا ولعلكم تُرحَمون﴾ معناه: أن الله تعالى أرسل هذا
الرسول مع هذا الذِّكْر، وأراد إنذاركم، وغرضه: أن تتقوا معاصيه لكي
يرحمكم ويدخلكم الجنة ونعيم الأبد.

وفي ذلك دلالة على بطلان مذهب المجبِّرة: أن الله تعالى لم يرد منهم
أن يتَّقوا ولا أن يؤمنوا.

قوله تعالى:

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ
كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا إخبار من الله تعالى عن قوم نوح: أنه لم ينفع فيهم ذلك
التخويف ولا الوعظ والزجر، وأنهم ﴿كَذَّبُوهُ﴾ يعني: نوحاً، ومعناه: أنهم
نسبوا خبره إلى الكذب، لأنَّ التكذيب: نسبة الخبر إلى الكذب، والتصديق:
نسبة الخبر إلى الصدق، وهذا ممَّا يختلف فيه معنى «فَعَلَّ» و «فَعَلَ».

وقوله: ﴿فأنجيناه﴾ إخبار من الله تعالى أنه أنجى نوحاً، والإنجاء: هو
التخليص من الهلكة، والإهلاك: الإيقاع فيها، وهي المضرَّة الفادحة ﴿وَمَنْ
مَعَهُ﴾ يعني: وأنجى مَنْ معه من المؤمنين به ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ وهي السَّفْنُ،
ويقع على الواحد والجمع بلفظ واحدٍ، وأصله: الدَّوْر، مشتقٌّ من قولهم:

«فَلَّكَ تَذِي الْجَارِيَةِ» إذا استدار، ومنه: «الْفُلْكَ» و «الْفَلَّكَ» من هذا، لأنه يدور على الماء كيف أداره صاحبه.

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ والإغراق: هو الغوص المتلف في الماء، وأصله: الغوص في الشيء، فمنه: «أَغْرَقَ فِي التَّرْع» و «لا تفرق في هذا الأمر».

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ فيه بيان أنه إنما أغرقهم وأهلكهم لأنهم كانوا عَمِينَ، والعَمَى: الضلال عن طريق الهدى، فهم كالعُمَى في أنهم لا يبصرون طريق الرشd، فهم عُمَى عن الحق.

قوله تعالى:

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: انتصب قوله: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ بقوله: ﴿أرسلنا﴾ في أول الكلام وإن تناول ما بينهما، لأن تفصيل القصص يقتضي ذلك، والتقدير: وأرسلنا إلى عادٍ أخاهم هوداً. ويجوز في مثله الرفع وتقديره: وإلى عادٍ أخوهم [هود] مرسل.

و «الأخ»: أحد الولدَين لواحدٍ، وإنما قال لهودٍ عليه السلام: إنه أخوهم، لأنه كان من قبيلهم، وجاز [جاء، ظ] ذلك على غير الأخوة في الدين، لأنه احتج عليهم أن يكون رجلاً منهم، لأنهم عنه أفهم وإليه أسكن.

وصرف «هود» لخفته، كما صرفت «جمل» لخفتها، وهو أحق بالصرف لأنه أكثر في الاستعمال.

[و، ظ] في هذه الآية إخبار من الله تعالى: أنه أرسل إلى قوم عادٍ هوداً، وأنه قال لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ وقد فسرنا

معنى ذلك أجمع، وبيّناً أيضاً حقيقة العبادة، وأَنَّهُ لا يستحقّها غير الله، لأنّها على أصول النِّعم، والشكر قد يستحقّه غير الله، لأنّه يستحقّ بالنعمة وإن قلت، وكذلك «الطاعة» قد تجب لغير الله، فعلى هذا تكون عبادة اثنين شركاً، ولا يكون طاعة اثنين شركاً، كما أنّ الشكر على النعمة لاثنيين لا يكون كذلك إذ لم يكن واقعاً على وجه العبادة.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ معناه: فهلّا تتقون، وهو بصورة الاستفهام والمراد به: حضّهم على تقوى الله واتّقاء معاصيه.

قوله تعالى:

قَالَ أَلَمْأَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ، إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية إخبار عمّا قالت الجماعة الكافرة من قوم هودٍ له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ والسَّفَاهَة: خِفَّةُ الحِلْم، كما قال الشاعر:

مبذرا رعب سيعي... (١)

أي: سفيه، وثوبٌ سَفِيهٌ: إذا كان خفيفاً، وقال المؤرّج: السَّفَاهَة: الجنون بلغة حمير. وقوله: ﴿في سَفَاهَةٍ﴾ معناه: منغمّس في السَّفَاهَة، فالسَّفَاهَة بمعنى: أنت سَفِيه، أقيم المصدر مقام اسم الفاعل، ولا يجوز قياساً على ذلك أن يقال في «إرادة» بمعنى: مُريد.

وكُسِرَتْ «إِنْ» لأنّها وقعت بعد القول حكايةً، والحكاية تقتضي استئناف المحكي، و «إِنْ» إذا شُدَّتْ عملت، ولا تعمل إذا خُفِّتْ، لأنّها مشدّدة تشبه «كان» فلمّا خُفِّتْ قلّ الشّبّه إلّا أن يحمل على «كان»

(١) كذا في الحجرية، وقد أثبتناه كما هو برسمه، إذ لم نوقف في تحقيقه لفظاً ولا معنى.

محذوفة، وليس قوّة حملها عليها تامّة كقوّة حملها محذوفة.

وحُذِفَت الهمزة في مضارع «رأيت» دون ماضيه لاجتماع ثلاثة أشياء: الزيادة في أوله، وكثرة الاستعمال لها، ولأنّ فيما بقي دليل عليها، ولم يلزم في «نأيت» «تأيت» مثل ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ ولم يقولوا: «نعلمك» لأمرين:

أحدهما: قال الحسن: لأنّ تكذيبهم كان على الظنّ دون اليقين. وقال الرّماني: معناه: أنّك تجري مجرى مَنْ أخبر عن غائبٍ لا يعلم مَنْ هو منهم. الثاني: أنّهم أرادوا بالظنّ العلم، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَيِّ مُدَجِّجٌ سَرَاتُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ^(١)
معناه: أيقنوا. وفائدة الآية: أنّ أُمَّة هود جرّت على طريقة أُمَّة نوح في الكفر بنبيّها، كأَنَّهُمْ قد تواصلوا بالتكذيب بالحقّ ومعاندة أهله، والردّ لِمَا أُتُوا بِهِ.

قوله تعالى:

قَالَ يَنْقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ آية واحدة بلا خلاف.

أقول: فيها إخبار عمّا قال هود عليه السلام لقومه، مجيباً لهم حين قالوا له: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ وأنّه قال ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾. وموضع «قوم» نصب، لأنّه نداء مضاف، فلو وصفته لما جاز في صفته إلّا النصب، وإنّما حُذِفَت بالإضافة، لأنّ النداء أحقّ بالحذف الَّذي يكون في غيره لقوّة اليقين فيه.

(١) لدُرَيْد بن الصَّمّة الجُشَميّ من قصيدة طويلة يرثي أخاه راجع ديوان دريد: ص ٤٧ وفيه «علانية» بدل «فقلت لهم».

وقوله: ﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ استدراك بـ «لكن» لأن فيه معنى: ما دعاني إلى أمركم السفه، ولكن دعاني إليه أني رسول من رب العالمين. وقد بيّنا أنّ ﴿من﴾ هاهنا بمعنى: ابتداء الغاية، والتقدير: المبتدئ بالرسالة رب العالمين، والمنتهى [انتهى، ظ] إليه الرسالة لأُمته، لأنه أرسل إليهم. قوله تعالى:

أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قد بيّنا معنى «الإبلاغ» وهو: إحضار الشيء غيره على وجه الانتهاء، ومنه: قوله: ﴿ثُمَّ أُبَلِّغُهُ مَأْمَنَهُ﴾ ^(١) وقد يكون إحضاراً لنفس البيان للإفهام، والإبلاغ أشدّ اقتضاءً للمنتهى إليه من الإيصال، لأنه يقتضي بلوغ فهمه وعقله، كالبلاغة التي تصل إلى سُوِّدَاء قلبه. ولا يجوز بدل «رسالات ربي»: «نبوات ربي» لأنّ «النبوة» تكليف القيام بالرسالة، فإنما يبلغ الرسالة ولا يبلغ التكليف.

وقوله: ﴿وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ معناه: أني ناصح لكم فيما أدعوكم إليه من طاعة الله وإخلاص عبادته، وقيل: إنّ معناه: أني كنت فيكم أميناً قبل النبوة. والنصح: إخلاص المعاملة من شائب الفساد في النية، والأمين: [من، ظ] أن يكون منه تغيير له أو تبديل.

وفي الآية دلالة على أنه يجوز للإنسان أن يزكي نفسه عند الحاجة إليه. قوله تعالى:

أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا ءَالَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩﴾ آية .

أقول: قد بيّنا معنى قوله: ﴿أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ فلا معنى لإِعادته. وإِنَّمَا أنكر العجب مع أَنَّهُ خفي بسببه وخرج عن العادة لظهور الدلائل فيه، وقيام البراهين عليه من الإرسال إليهم من تنبيههم على ما أغفلوه وتعريفهم ما جهلوه.

والفَرْق بين «العَجَب» و «العُجْب»: أَنَّ «العُجْب» بضمّ العين عقد النفس على فضيلة لها [لا، ظ] ينبغي أَنْ يَعْجَبَ منها لسببٍ لها، وليس كذلك «العَجَب» بفتح العين والجيم، لَأَنَّهُ قد يكون حَسَنًا، وقد قيل في المَثَل: «لا خير فيمن لا يتعجّب من العَجَب»، وأرذل منه المتعجّب من غير عَجَب». وقوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ﴾ ذ «خُلَفَاء» جمع خَلِيفَة، وهو الكائن [بدل غيره ليقوم بالأمر] مقامه في تدبيره، و «خلفاء» جمعه على التذكير، مثل: ظريف وظُرَفَاء، ولو جمعه على اللفظ [الأصل، ظ] لقال: خَلَائِفَ نحو: كَرِيمَة وكَرَائِم، وورد ذلك في القرآن، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ﴾^(١).

وقوله: ﴿مَنْ بَعْدَ قَوْمِ نُوحٍ﴾ امتنان عليهم بما مَكَّنهم في الأرض وجعلهم بدل قوم نوح حين أَهْلَكهم الله.

وقوله: ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ قُرئ بالسين والصاد^(٢) وقيل في معناه قولان:

أحدهما: قال ابن زيد: زادهم قوّة. وقال غيره: أراد به المَرّة من بسط اليدين إِذَا فُتِحَتْ على أَبعد أَقطارها.

(١) فاطر: ٣٩.

(٢) قرأه نافع بالصاد، والباقون بالسين. راجع كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد: ص ١٨٦

وقال الزجّاج والزمّاني: كان أقصرهم طوله سبعين ذراعاً، وأطولهم مائة ذراع. وقال قوم: كان أقصرهم اثني عشر ذراعاً.
وقال أبو جعفر عليه السلام: «كانوا كأَنّهم النخل الطوال، وكان الرجل منهم ينحت في الجبل بيده فيهدم منه قطعة».

وقوله: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ قال الحسن وغيره: الآلاء: النِّعم، في واحدها لغات «إلى» مثل: معي، و «ألى» مثل: قفّا، و «إليّ» مثل: حِسِّي، و «أليّ» مثل: دَمِيّ، قال الشاعر:

أَبْيَضُ لَا يَزْهَبُ الْهَزَالُ وَلَا يَفْطَعُ رِخْمًا وَلَا يَخُونُ إِلَّا^(١)
إِلَّا وَلَا رَوِيَا جَمِيعاً. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ معناه: اذكروا نِعَمَ اللَّهِ واشكروه عليها لكي تفوزوا بثواب الجنّة والنعيم الدائم الأبدي.
قوله تعالى:

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَمَّا بِنَا بِنَا نَعْبُدُكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في الفرق بين «قالوا» و «تكلّموا»: إنّ القول مضمّر بالحكاية من حيث هو على صفة القول، وليس كذلك من حيث هو على صفة الكلام. وفي الآية حكاية ما قال قوم هود، وهم قبيلة عادٍ لهُودٍ عليه السلام: ﴿أَجِئْنَا﴾ ومعناه: أتيتنا ﴿لنعبد الله وحده﴾ وتريد ممّا أن نوجّه عبادتنا إلى الله وحده؟! و«المجيء» و«الإتيان» و«الإقبال» واحد، وقال قوم: المجيء: إتيان من أيّ جهة كان، والإتيان: إقبال من قبل الوجه.

وقوله: ﴿وَنَذَرَ﴾ معناه: وترك، ولم تُستعمل فيه «وذرنا» استغناءً

(١) الأعشى، من قصيدة طويلة يمدح سلامة. راجع ديوان الأعشى: ص ١٧٥.

بـ «تركنا» ولا يلزم أن يستغنى بـ «نترك» عن «نذر» لأن «نذر» خفيفة، لأن الواو حذفت منه.

﴿ما كان يعبد آباؤنا﴾ تمام الحكاية عن الكفار أنهم قالوا: كيف نترك ما كان يعبد آباؤنا؟! وأتهم قالوا ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب ﴿إن كنت﴾ صادقاً ﴿من﴾ جملة ﴿الصادقين﴾ وإنما لم يجب اتباع الآباء وإن كانوا عقلاء ووجب اتباع العقلاء، لأنه إنما يجب اتباع العقلاء فيما علموه بعقولهم ضرورةً، فأما ما طريقه الدليل فإنه يجوز أن يغلطوا فيه، فلا يجوز حينئذٍ اتباعهم وإن كانوا آباءً.

قوله تعالى:

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنَبِّهِينَ ﴿٧١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية عما قال هود لقومه جواباً عما قالوه في الآية الأولى: أنه ﴿قد وقع عليكم رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ فـ «الوقوع» و «السقوط» و «النزول» نظائر، والوقوع: وجود الشيء نازلاً بالحدوث، فقد يكون بحدوثه، وقد يكون بحدوث غيره، كوقوع الحائط ونحوه، والرجس: العذاب، وقيل: «الرجس» و «الرجز» واحد، فَقُلِّبَت الزاي سيناً، كما قُلِّبَت السين تاء في قول الشاعر:

أَلَا لَحَى اللَّهِ بَنِي السِّغْلَاتِ عَمَرُو بَنَ يَرْبُوعٍ لِثَامَ النَّاتِ
يعني الناس لَيْسُوا بِأَعْفَافٍ وَلَا أَكْيَافٍ^(١)

(١) أنشده أبو زيد في النوادر: ص ١٠٤ ونسبه إلى علباء بن أرقم، وفيه: «يا قَبِّحَ الله» بدل «ألا لحي الله».

يريد: أكياس. وقال رُؤَبَة:

كَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ عَدِيدٍ مُبْزِي حَتَّى وَقَمْنَا كَيْدَهُ بِالرَّجْزِ^(١)
حُكِي ذلك عن أبي عمرو بن العلاء. وقال ابن عباس: الرجس:
السخط. و «الغَضَب» معنى يدعو إلى الانتقام دعاء انتقاص الطباع لشدة
الإنكار، ونقيضه: الرضا، وهو معنى يدعو إلى الإنعام دعاء ميل الطباع،
ومثل «الغضب»: السخط، هذا قول الرُّمَانِي.

وقال غيره: «الغضب»: هو إرادة العقاب بمستحقّيه، ومثله: السخط، و
«الرضا» هو الإرادة إلّا أنّها لا توصف بذلك إلّا إذا وقع مرادها ولم يتعقّبها
كراهة، ولهذا جاز إطلاق ذلك على الله، ولو كان الأمر على ما قاله [الرُّمَانِي]
لما جاز أن يُقال: إنّ الله غضب على الكفّار، ولا أنّه سخط عليهم.
وقوله: ﴿أَتَجَادُلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا
مِنْ سُلْطَانٍ﴾ يعني: ما أنزل الله بها من برهان، ولا نصب عليها حجة،
والمعنى: أتنازعونني في أسماء سمّيتُموها يعني: سمّيتهم ما يعبدون من
دون الله آلهة، ما أنزل الله عليكم بذلك حجة بما عبدتم، فالبيّنة عليكم بما
ادّعيتهم وسمّيتهم، وليس عليّ أن آتيكم بالبيّنة على ما تعبدون من دون الله،
بل ذلك عليكم، وعليّ أن آتيكم بسلطانٍ مبين أنّ الله تعالى هو المعبود
وحده دون من سواه، وأنّي رسوله.

وقوله: ﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ قال الحسن: معناه:
انتظروا عذاب الله فإنّه نازل بكم، فإنّي معكم من المنتظرين لنزوله بكم،
وهو قول الجُبَّائِي وغيره من المفسّرين.

(١) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٥٧.

قوله تعالى:

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَلَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِسَائِتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية إخبار من الله تعالى أنه أنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمة منه، والإنجاء: التخليص من الهلاك، وأصله: من «النَجْوَة» وهي الارتفاع من الأرض، والنَجَاء: السرعة في السير، لأنه ارتفاع فيه بالإسراع. وإنما جاز أن يقول: برحمة منا مع أن النجاة هي الرحمة، لأنه عقد معنى النجاة بالرحمة فصار كأنه يعمل بالقدرة.

وقوله: ﴿وقطعنا﴾ فالقطع: هو إفراذ الشيء عن غيره مما كان على تقدير الاتصال به، فلما أفردوا بالهلاك عما كان على تقدير التبع لهم من نسلهم وآثارهم من بعدهم كان قد قطع دابرهم.

وقال الحسن: معناه: قطعنا أصل الذين كذبوا بديننا وما كانوا مؤمنين. وقال ابن زيد: قطعنا دابرهم معناه: استأصلناهم عن آخرهم.

و «الدابر»: الكائن خلف الشيء، ونقيضه: القابل، ويكون القابل الآخذ للشيء من قِبَل وجهه.

وقوله: ﴿وما كانوا مؤمنين﴾ وإنما أخبر بذلك عن حالهم مع أنه معلوم منهم ذلك لبيان أن هذه الصفة لا تجوز أن تلحق المكذب بآيات الله الجاحد لها، وأن في نفيها عن المكلف ذمماً له.

قوله تعالى:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَسْقُومَ أَغْبِدُوا ۖ اللَّهُ مَالِكُكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذه الآية عطف على ما تقدّم، والتقدير: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، و «ثمود»: اسم قبيلة، وقد جاء مصروفاً وغير مصروفٍ، فَمَنْ صرفه فعلى أَنَّهُ اسمٌ لحَيٍّ مذكّرٍ، وَمَنْ ترك صرفه فعلى أَنَّهُ اسمُ القبيلة، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ ثُمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لثُمُودَ﴾^(١) صرف الأوّل ولم يصرف الثاني، واختير ترك الصرف في موضع الجرّ، لأنّه أخفّ. ويجوز في قوله: ﴿مالكم من إله غيره﴾ ثلاثة أوجه من العربية: الجرّ على اللفظ، والرفع على الموضع - وقد قرئ بهما، وقد بيّناه فيما مضى - والنصب على الاستثناء والحال، ولم يُقرأ به. ويجوز عند الفراء الفتح على البناء لأنّه أجاز: ما جاءني غيرك، ومنع منه الزجّاج وقال: إنّما يجوز ذلك إذا أضيف إلى غير متمكّن إضافةً غير حقيقيّة، كما قال الشاعر:

لَمْ يَمْنَعْ الشُّرْبَ مِنْهَا غَيْرٌ أَنْ نَطَقَتْ

حَمَامَةٌ فِي غُصُونٍ ذَاتِ أَوْقَالٍ^(٢)

وقوله: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرِهِ﴾ قد بيّناه فيما مضى^(٣). وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فالبيّنة: العلامة التي تفصل الحقّ من الباطل من جهة شهادتها به، والبيان: هو إظهار المعنى للنفس الذي يفصله من غيره حتّى يدركه على ما يقوّيه كما يظهر نقيضه، فهذا فرق بين «البيّنة» و «البيان».

وقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ فالناقة: الأنثى من الجمال، والأصل فيها: التوطئة والتذليل، من قولهم: بعير مُتَوَقّ أي: موطاً مذلّ، وتَوَقّ في العمل أي: جوده كالموطأ المذلّ، والناق: الحزّ بين آية الإيهام وطرفها،

(١) هود: ٦٨. (٢) أنشده في اللسان: مادّة «وقل» ولم ينسبه لأحد.

(٣) في تفسير الآية: ٥٩ من هذه السورة المباركة.

لأنّه وطأ به لقبض الكفّ وبسطها. وإنّما قال: ﴿ناقة الله﴾ لأنّه لم يكن لها مالك سواه تعالى.

ونصب ﴿آية﴾ على الحال، و «الآية»: هي البيّنة العجيبة بظهور الشهادة ولطف المنزلة، و «الآية» و «العبرة» و «الدلالة» و «العلامة» نظائر، والآية التي كانت في الناقة: خروجها من صخرة ملساء تمخّضت بها كما تتمخّض المرأة، ثم انفلقت عنها على الصفة التي طلبوها، وكان لها شرب يوم تشرب فيه ماء الوادي كلّه وتسقيهم اللبن بدله، ولهم شرب يوم يخصّهم لا تقرب فيه ماءهم، في قول أبي الطّفيل والسّدي وابن إسحاق. وقوله: ﴿فذرّوها﴾ أي: اتركوها ﴿تأكل في أرض الله ولا تمسّوها بسوء﴾ يعني: يعقر أو نحر ﴿فيأخذكم عذاب أليم﴾ أي: ينالكم عذاب مؤلم.

قوله تعالى:

وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَغْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية لقول صالح عليه السلام لقومه بعد أن أمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهيهم إياهم أن يمسّوا الناقة بسوء، وحذّره من المخالفة التي يستحقّ بها العذاب المؤلم، فقال عاطفاً على ذلك: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد﴾ أي: تفكّروا فيما أنعم الله عليكم حيث جعلكم بدل قوم عاد بعد أن أهلكهم وأورثكم ديارهم ﴿وبوّأكم في الأرض﴾ أي: مكّنكم من منازل تأوون إليها، يقال: بوّأته منزلاً إذا مكّنته منه ليأوي إليه، وأصله: من الرجوع، من قوله: ﴿فبأءوا بغضبٍ على

غَضِبَ ﴿١﴾ وقوله ﴿وباءوا بغَضَبٍ من الله﴾ (٢) أي: رجعوا، قال الشاعر:
بُوئْتُ في صَمِيمٍ مَعْشَرِهَا فَتَمَّ في قَوْمِهَا مَبُوءُهَا (٣)
أي: انزلت ومكنت من الكرم في صميم النسب.

وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا﴾ فالسهل: ما ليس فيه مشقة على
النفس من عمل أو أرض، يقال: السَهْلُ والجَبَلُ، وأَرْضُ سَهْلَةٍ.

وقوله: ﴿قُصُوراً﴾ جمع «قَصْر» وهو الدار الكبيرة بسُورٍ تكون به
مقصورة، وأصله: القَصْر الَّذِي هو الجعل على منزلة دون منزلة، فمنه:
القَصِيرُ لَأَنَّهُ قَصَرَ به على مقدارٍ دون ما هو أطول منه، والقَصْرُ: الغاية،
يُقال: قَصَرَكَ الموت لَأَنَّهُ قَصَرَ عليه، وأقصر عن الأمر أي: كف عنه،
والقَصْرُ: العَشيُّ، ومنه: القَصَارُ لَأَنَّهُ يَقْصُرُ الثوب على النقاء دون ما هو
عليه، والقَصَرُ: أصل العنق.

وقوله: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً﴾ فالجبل: جسم عظيم بعيد
الأقطار عالٍ في السماء، ويقال: جُبِلَ الإنسان على كذا أي: طُبِعَ عليه،
لَأَنَّهُ يَنْبِت [يثبت، ظ] عليه لصوق الجبل، والمعنى: أَنَّهُمْ كانوا ينحتون في
الجبال سقوفاً كالأبنية، فلا يهدم ولا يَخْرُبُ ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ معناه:
تفكروا في نِعَمِهِ المختلفة: كيف مكّنكم من الانتفاع بالسهل والجبل ﴿ولا تعثوا
في الأرض مفسدين﴾ معناه: لا تضربوا في الأرض مفسدين، يقال: عاث
يعيث عيثاً، وعَثَى يعثي بمعنى واحد، و ﴿مفسدين﴾ نصب على الحال.

ومعنى الآية: التذكير بنِعَمِ الله من: التمكين في الأرض، والتسخير حتّى
تبوأوا القصور وشيدوا المنازل والدور مع طول الآمال وتبليغ الآجال.

قوله تعالى:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
اَتَعْلَمُونَ اَنَّ صَلَاحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا اِنَّا بِمَا اُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قرأ ابن عامر: ﴿وقال الملاء﴾ بزيادة واو، وكذلك في مصاحف
أهل الشام، الباقون بلا واو.

في هذه الآية حكاية عما ﴿قال الملاء﴾ من قوم صالح، وهم جماعة
[من] أشرف قومه ورؤساء أمته ﴿الذين استكبروا﴾ أي: طلبوا الكبر فوق
القدر، لأن الاستكبار هو طلب الكبر فوق القدر، حتى يؤدي صاحبه إلى
إنكار ما دُعي إليه من الحق، أنفة من اتباع الداعي إلى الحق ﴿للذين
استضعفوا﴾ فالاستضعاف: طلب الضعف بالأحوال التي تُفقد صاحبها عما
كان يمكن غيره من القيام بالأمر، والأصل في باب «استفعل»: الطلب منه.
وقوله: ﴿لمن آمن منهم﴾ موضعه من الإعراب نصب على البدل من
اللام الأولى، وهو بدل البعض من الكل، إلا أنه أعيد فيه حرف الجر،
كقولك: مررت بإخوتك بعضهم، وإنما فعل ذلك لئلا يظن أنهم كانوا
مستضعفين غير مؤمنين، لأنه قد يكون المستضعف مستضعفاً في دينه فلا
يكون مؤمناً، فأزال هذه الشبهة.

وقوله: ﴿أتعلمون أن صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي﴾ حقيقةً وبقيناً أم
لا تعلمون ذلك؟ وغرضهم بذلك الاستبعاد لأن يكون صالح نبياً مُرْسَلاً من
قِبَل الله.

وقوله: ﴿إنا بما أُرْسِلَ به مؤمنون﴾ جواب من هؤلاء المستضعفين
لهم: أنهم مؤمنون بالذي أُرْسِلَ به صالح مصدقون، وقد بينّا أن حد العلم
هو ما اقتضى سكون النفس، وحد الرُّماني هاهنا العلم: بأنه اعتقاد للشيء

على ما هو به عن ثقةٍ من جهة ضرورةٍ أو حجةٍ، قال: والعالمُ هو المبيِّن
للشيء بعلمٍ، أو ذاتٌ تُنبئُ عن العلم.
قوله تعالى:

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ، كَنُفَرُونَ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف.
أقول: هذه الآية حكاية عما قال المستكبرون للذين آمنوا منهم حين
سمعوا منهم الإيمان به والاعتراف بنبوته والتصديق لقوله ﴿إِنَّا بِالَّذِي
آمَنْتُمْ بِهِ﴾ يعني: بمن صدقتم به ﴿كافرون﴾ أي: جاحدون، والقول: هو
الكلام، ومنه: المَقُول وهو اللسان، لأنَّ صاحبه يقول به، وتَقُول بمعنى:
تكذب وقال الكَذِب. والمَقِيل: المخبر إلى نفسه بالقول أمراً من خيرٍ أو
شرٍّ، والقِيل: مَلِكٌ دون المَلِكِ الأعظم بِلُغَةٍ حَمِيَرٍ، وجمعه: أَقْيَال، لأنَّه يقول
عنه كالوزير.

قوله تعالى:

فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحْ أُنْتَيْنَا إِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنْ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية إخبار من الله تعالى عما فعل المستكبرون من
قوم صالح، وأَتَمَّ عَقَرُوا الناقة التي هي آية الله في الأرض، والعَقْر: الجرح
الذي يأتي على أصل النفس، وهو من: عَقْر الحَوْض، وهو أصله، قال الشاعر:
بِإِزَاءِ الحَوْضِ أَوْ عَقْرِهِ^(١)

ومنه: العَقَار، لأنَّه اعتقار أصل مال، لأنَّ ثبوته كثبوت الأصل، ومنه:
العاقِر، لأنَّها قد حدث ما عَقَّر الحال التي يجيء منها الولد فأبطل الأصل،

(١) لأمرئ القيس، من قصيدة يصف صيده. راجع ديوان امرئ القيس: ص ١٠٢، وصدره:
قَرَمَاهَا فِي قَرَانِهَا.

و «المعاقرة على الشراب» منه، لأنه كالأصل في الثبوت على تلك الحال. وقوله: ﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: تجاوزوا الحد في الفساد، وقيل: العتو: الغلو في الباطل، في قول مجاهد. ومنه: جبّار عاتٍ، و: العاتي في الكبير، ومنه: ﴿وقد بلغت من الكبير عتياً﴾^(١) أي: بلغت حال العاتي كبراً، والعتو عن الأمر: هو المخالفة، إلا أن في العتو مخالفة على وجه التهاون به والاستكبار عن قبوله.

وقوله: ﴿يا صالح ائتنا﴾ إن وصلته همزته، وإن ابتدأته لم تهمز بل تقول: «إيتنا» وإنما كان كذلك لأن أصله «إئتنا» بهزتين، فكَرِهَ ذلك فقلبوا الثانية ياءً على ما قبلها بكسرة، فإذا وصل سقطت ألف الوصل وظهرت همزة الأصل.

وقوله: ﴿بما تعدنا﴾ فالوعد: الخبر بخير أو شرٍّ بقرينة في الشرِّ، وقوله: ﴿إئتنا بما تعدنا﴾ أي: من الشرِّ، لأننا قد علمنا ما توعدتنا عليه، فأتِ الآن بالعذاب الذي خوفتنا منه، ومتى تجرّد عن قرينة فهو بالخير أحق، للفصل بين الوعد والوعيد.

قوله تعالى:

فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضَبُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يٰ قَوْمِ لَقَدْ أَهْلَقْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية بما حلّ بشمود من العذاب، فقال: ﴿فأخذتهم الرجفة﴾ وهي حركة القرار المزعجة لشدة الزعزعة، تقول:

رَجَفَ بِهِم السَّقْفَ يَرْجِفُ رُجُوفاً إِذَا اضْطَرَبَ مِنْ فَوْقِهِمْ^(١) وَقَالَ مُجَاهِدٌ
وَالسُّدِّيُّ: ﴿الرَّجْفَةُ﴾: الصَّيْحَةُ. وَقَالَ آخَرُونَ^(٢): هِيَ زَلْزَلَةٌ أَهْلِكُوا بِهَا، قَالَ
الْأَخْطَلُ:

إِمَّا تَرَيُنِي حَنَانِي الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ

كَالنَّسْرِ أَرْجُفُ وَالْإِنْسَانُ مَهْدُودُ^(٣)

وَقَوْلُهُ: ﴿فَاصْبِحُوا فِي دَارِهِمْ جَائِمِينَ﴾ إِنَّمَا قَالَ: ﴿دَارِهِمْ﴾ عَلَى

التَّوْحِيدِ لِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْمَعْنَى: فِي بِلَدِهِمْ، وَهُوَ وَاحِدٌ. وَالْآخَرُ: أَنَّ مَعْنَاهُ: فِي
دَوْرِهِمْ، وَإِنَّمَا وُحِّدَ كَمَا تُوَحَّدُ أَسْمَاءُ الْأَجْنَاسِ كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي
خُسْرٍ﴾^(٤).

و «الْأَخْذُ»: نَقْلُ الشَّيْءِ عَنْ حَالِهِ إِلَى جِهَةِ النَّاقلِ لَهُ، وَضَدُّهُ: التَّرُكُ،
كَأَخْذِ الدِّينَارِ وَتَرْكِ الدَّرْهَمِ. وَمَعْنَى ﴿جَائِمِينَ﴾: بَارِكِينَ عَلَى رُكْبِهِمْ
مَوْتَى، جَتَمَ يَجْتُمُ جُتُومًا: إِذَا بَرَكَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَقِيلَ^(٥): صَارُوا رِمَادًا
كَالرَّمَادِ الْجَائِمِ، لِأَنَّ الصَّاعِقَةَ أَحْرَقَتْهُمْ، وَقَالَ جَرِيرٌ:

عَرَفْتُ الْمُنْتَأَى وَعَرَفْتُ مِنْهَا مَطَايَا الْقَدْرِ كَالْحِدَا الْجُتُومِ^(٦)

وَقَوْلُهُ: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ يَعْنِي: أَنَّ صَالِحًا تَوَلَّى عَنْ قَوْمِهِ، وَ «التَّوَلَّى»
الذَّهَابُ عَنِ الشَّيْءِ وَهُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا تَوَلَّى لِأَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ
بِالدَّعَاءِ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، فَلَمَّا خَالَفُوا وَنَزَلَ بِهِم الْعَذَابُ تَوَلَّى عَنْهُمْ

(١) فِي الْحَجَرِيَّةِ: مِنْ تَحْتِهِمْ.

(٢) مِنْ قَصِيدَةِ يَذْكُرُ فِيهَا الشَّيْبَ وَالْبَيْنَ. رَاجِعْ دِيوَانَ الْأَخْطَلِ: ص ٣١.

(٣) قَالَهُ الْفَرَّاءُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ: ج ١ ص ٣٨٤.

(٤) الْعَصْرُ: ٢.

(٥) مِنْ قَصِيدَةِ يَمْدَحُ هِشَامًا. رَاجِعْ دِيوَانَ جَرِيرٍ: ص ٣٨١.

لليأس منهم. و «تولّاه» بمعنى: أولاه نصرته ومعاونته، ومنه: قولهم: «تولّاك الله بحفظه» وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾^(١) فهو مثل قوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾^(٢) أي: إن تنصروا دين الله، و«تولّى عنه» بمعنى: أعرض عنه.

وقوله: ﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي﴾ إنّما جاز أن يناديهم مع كونهم جاثمين موتى لما في تذكّر ما أصارهم إلى تلك الحال العظيمة التي صاروا بها نكالا لكلّ من اعتبر بها وفكر فيها من الحكمة والموعظة الحسنة.

وقوله: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ يقال: نصّخته ونصّخت له، مثل: شكّرتُه وشكّرتُ له^(٣) ومعناه: وكنت نصّحت لكم ولكن لا تحبّون الناصحين، فمحبّة الشيء إرادة الحال الجليّة له عند المريد، فمن أحبّ الناصح لنهيه لهم عن ركوب أهوائهم واتباع شهواتهم قبل منه، وقد روي: أنّه لم يعذب أمة نبيّ قطّ ونبيّها فيها، فلذلك خرج، فأما إذا أهلك المؤمنون فيما بينهم فإنّ الله سيعوّضهم على ما يصيبهم من الآلام والغموم.

قوله تعالى:

وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ آلَ فِرْعَوْنَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ آية .

أقول: العامل في قوله: ﴿ولو طًا﴾ يحتمل أن يكون أحد أمرين: أحدهما: أن يكون عطفاً على ما مضى فيكون تقديره: وأرسلنا لو طًا. والثاني: أن يكون على تقدير: واذكر لو طًا إذ قال لقومه، في قول

الْأَخْفَشُ. وَلَا يَجُوزُ فِي قِصَّةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِلَّا «وَأَرْسَلْنَا» لِأَنَّ فِيهَا ذِكْرُ «إِلَى»^(١). و«لوط» مصروف لخَفَّتْهُ، لِأَنَّهُ عَلَى ثَلَاثِ أَحْرَفٍ سَاكِنِ الْأَوْسَطِ، وَلَا يَنْصَرَفُ «يَعْقُوبُ» لِأَنَّهُ أَعْجَمِيٌّ مَعْرُفَةٌ. وَاخْتَلَفُوا فِي اسْتِقَاقِ «لُوطٍ»: فَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: إِنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ «لَطُتُ الْحَوْضِ» إِذَا أُلْزِقَتْ عَلَيْهِ الطِّينُ وَمَلَّسْتَهُ بِهِ، وَيُقَالُ: هَذَا الْوُطُّ بَقْلِيي أَيُّ: أَلْصَقَ، وَاللَّيْطَةُ: الْقِشْرُ لِلصَّوْقَةِ بِمَا اتَّصَلَ بِهِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: هُوَ اسْمٌ غَيْرُ مُشْتَقٍّ، لِأَنَّ الْعَجَمِيَّ لَا يَشْتَقُّ مِنَ الْعَرَبِيِّ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَوْجَدْ عِلْمًا إِلَّا فِي أَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ فَالْفَاحِشَةُ: هِيَ السَّيِّئَةُ الْعَظِيمَةُ الْقُبْحُ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ﴾ فَالسَّبْقُ: وَجُودُ الشَّيْءِ قَبْلَ غَيْرِهِ، وَقِيلَ: مَا ذُكِّرَ عَلَى ذِكْرِ^(٢) قَبْلَ قَوْمِ لُوطٍ، ذَكَرَهُ عَمْرُو بْنُ دِينَارٍ، فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وَبِهِ قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ.

قَالَ الْبَلْخِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يَرِيدُ: عَالَمِي زَمَانِهِمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣) قَالَ: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ: مَا سَبَقَكُمْ إِلَى ذَلِكَ أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الْقَهْرِ وَالْمَجَاهَرَةِ بِهِ عَلَى مَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْعَقْلُ كَانَ يَبِيحُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا مَنَعَ مِنْهُ السَّمْعُ. قَالَ الْبَلْخِيُّ: هَذَا خَطَأٌ، لِأَنَّهُ يُوَدِّي إِلَى انْقِطَاعِ النَّسْلِ، وَلِأَنَّ الطَّبَاعَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْإِسْتِنكَافِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ الْإِنْسَانُ مَفْعُولًا بِهِ، وَلَوْ كَانَ الْفَاعِلُ لِذَلِكَ غَيْرُ مُفْتَبِحٍ لِمَا لَحِقَ الْمَفْعُولُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ وَضْمَةٌ، كَمَا أَنَّ الْمَرْأَةَ الْمُنْكَوْحَةَ

(١) أَيُّ قَوْلُهُ: ﴿وَالْإِلَى عَادٍ...﴾ وَ﴿وَالْإِلَى ثَمُودَ...﴾.

(٢) فِي مَجْمَعِ الْبَيَانِ: مَا نَزَا ذَكَرٌ عَلَى ذَكَرٍ.

(٣) الْبَقْرَةُ: ٤٧ وَ ١٢٢.

بالعقد الصحيح لا يلحقها بذلك وَضْمَةٌ وَلَا عَيْبٌ بِلَا خِلَافٍ، قَالَ: وَمَنْ حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ذَلِكَ، وَأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولاً بِهِ كَانَ مَاجِئاً مَلُوماً عِنْدَ جَمِيعِ الْعُقَلَاءِ.

قوله تعالى:

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِقُونَ ﴿٨١﴾ [آية].
أقول: قرأ أهل المدينة وحفص هاهنا: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخبر، وكذلك مذهبه في قراءته أن يكتفي بالاستفهام الأول من الثاني في كل القرآن، وهو مذهب الكسائي إلا في قصّة لوط، الباقر بهزتين الثانية مكسورة، وخفّفها ابن عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً، والحلواني عن هشام يفصل بينهما بالألف وابن كثير وأبو عمرو ووزّش تُحَقِّقُ الأولى وتُلَيِّنُ الثانية، وفصل بينهما بألف أبو عمرو.

قال أبو عليّ: قوله: ﴿تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ كل واحد من الاستفهامين كلام مستقلّ بنفسه، لا حاجة بواحد منهما إلى الآخر، فإذا كان كذلك فَمَنْ قرأ ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الاستفهام جعل ذلك تفسيراً لـ﴿الْفَاحِشَةَ﴾ كما أن قوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾^(١) تفسير للوصيّة، وَمَنْ قرأ على الخبر استأنف، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُلَيِّنَ هَمزة ﴿إِنَّكُمْ﴾ فَإِنَّهُ يجعلها بين بين، لأنّ أَلَفَ الاستفهام بمنزلة المنفصل، ولولا ذلك لوجب أن يقلب الثانية على ما قبله ثمّ يحذف لالتقاء الساكنين.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ قال الحسن: إنّ قوم لوط كانوا ينكحون الرجال في أدبارهم، ولا ينكحون إلاّ

الغُرَبَاءَ، وَلَا يَنْكِحُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وقوله: ﴿شَهْوَةٌ مِنَ دُونِ النِّسَاءِ﴾ فالشهوة: مطالبة النفس بفعل ما فيه اللذة، وليست كالإرادة، لأنها قد تدعو إلى الفعل من جهة الحكمة، و«الشهوة» من فعل الله ضرورةً فينا، و«الإرادة» من فعلنا، تقول: شَهِيتُ أَشْهَى شَهْوَةً، قال الشاعر:

وَأَشْعَتْ بِشَهَى النَّوْمِ قَلْتُ لَهُ ارْتَحِلْ

إِذَا مَا النَّجُومُ أَعْرَضَتْ وَاشْبَكَّرَتْ
فَقَامَ يَجْرُ الْبُرْدُ لَوْ أَنَّ نَفْسَهُ

يَقَالُ لَهُ خُذْهَا بِكَفَيْكَ خَرَّتْ^(١)

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ معناه: الإضرار عن الأول إلى جميع المعايير من: عبادة الأوثان، وإتيان الذُّكران، وترك ما قام به البرهان، وتقديره: إنكم مستوفون لجميع المعائب: إتيان الذُّكران وغيره، ويحتمل أن يكون: بل لإسرافكم لا تفلحون، و«الإسراف»: الخروج عن حدِّ الحقِّ إلى الفساد. قوله تعالى:

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ آية بلا خلاف.

الوجه في قوله: ﴿جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ بالنصب: أنه وقع الاسم بعد «إِلَّا» موضع الإيجاب، وذلك أن ما قبلها إذا كان إيجاباً كان ما بعدها نفياً، وإذا كان ما قبلها نفياً كان ما بعدها إيجاباً، والجواب خبر يقتضيه أول الكلام، والغالب عليه جواب النداء والسؤال، ويكون على وجوه: كجواب الجزاء،

(١) أنشده في اللسان: مادّة «شها» ولم ينسبه لأحد.

وجواب القَسَم، وجواب «لو».

أخبر الله في هذه الآية بما أجاب به قوم لوط عليه السلام حين قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ كأنهم قالوا - بعضهم لبعض - : ﴿أخرجوهم﴾ يعنون: لوطاً وأهله الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، و«الإخراج»: نقل الشيء عن محيطٍ إلى غيره، كما أن «الإدخال»: النقل إلى محيطٍ عن غيره. وقال الزجاج والفراء: أرادوا: أخرجوا لوطاً وابنتيه.

وقوله: ﴿مَنْ قَرَيْتَكُمْ﴾ فالقرية: هي المدينة، كما قال أبو عمرو بن العلاء: «ما رأيتُ قَرْوَيْنِ أَفْصَحَ مِنَ الْحَسَنِ وَالْحَبَّاجِ» يعني: رجلين من أهل المدن، إلا أنه صار بالعُرف: عبارة عن مجتمع الناس في منازل متجاورة بقرب ضَيْعَةٍ يأوي إليها الأكرأ.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: يعني: يتطهرون عن إتيان الرجال في الأدبار، فعابوهم بما يجب أن يُمدحوا به.

الثاني: إنه أراد: ﴿يَتَطَهَّرُونَ﴾ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ أَفْعَالِكُمْ وَطَرَائِقِكُمْ.

قوله تعالى :

فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٨﴾ آيتان.

أقول: أخبر الله تعالى أنه أنجى لوطاً ومن معه، بمعنى: أنه خلّصه من الهلاك ﴿وأهله﴾ يعني: المختصين به، و«الأهل» هو المختص بالشيء اختصاص القرابة، ولذلك قيل: أهل البلد، لأنهم يلزومهم سُكنَاهُ قد صاروا على مثل لزوم القرابة.

وقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثنى من جملة مَنْ أُنْجَاهُ مع لوط من أهله

امراته، لأنَّ امرأته أراد به زوجته، ولا يقال: «مرؤها» بمعنى زوجها، لأنَّه صار بمنزلة المالك لها. وليست بمنزلة المالكه له، وإنَّما تجري هذه الإضافة التي بمعنى اللام على طريقة الملك.

وقوله: ﴿كانت من الغابرين﴾ يعني: من الباقين في عذاب الله، في قول الحسن وقتادة.

فإن قيل: فعلى هذا يجب أن تكون امرأته ممَّن نجا، لأنَّه تعالى قال: ﴿كانت من الغابرين﴾ أي: الباقين.

قلنا: المعنى: أنَّها من الباقين في عذاب الله، على ما حكيناه عن الحسن وقتادة. وقال قوم^(١): معناه: أنَّها من الباقين قبل الهلاك والمعمَّرين الذين قد أتى عليهم دهر طويل حتَّى هَرَمَت فيمَن هَرَمَ من الناس، وكانت ممَّن غَبَرَ الدهر عليه قبل هلاك القوم، ثمَّ هَلَكَت فيمَن هَلَكَ من قوم لوط. وقيل: أراد بذلك من الباقين في عذاب الله، ذكر ذلك قتادة.

وإنَّما قلنا: إنَّها كانت من الهالكين، لقوله في سورة هود: ﴿إنَّه مُصِيبُها ما أَصَابُهُمْ﴾^(٢) ذكر ذلك البلخي والطبري: فالغابِرُ: الباقي. ويقال: غَبَرَ يَغْبُرُ غُبُوراً وَغُبْراً إذا بَقِيَ، قال الأعشى:

عَضَّ بِما أَبَقَى المَوايِسِ لَهُ مِنْ أُمِّهِ فِي الزَّمانِ الغابِرِ^(٣)

وقال آخر:

وأبي الَّذي فَتَحَ البلادَ بِسَيفِهِ فَأَذَلَّها لِبنِي أباَنَ العابِرِ^(٤)

(١) منهم أبو عُبَيْدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢١٨.

(٢) من قصيدة طويلة يهجو علقمة ويمدح عامر بن الطفيل في المنافرة التي جرت بينهما. راجع ديوان الأعشى: ص ٩٥.

(٤) ليزيد بن الحكم بن أبي العاص من أبيات له. راجع خزانة الأدب للبغدادى: ج ١ ص ١٤.

وقال الزجاج: ﴿من الغابرين﴾^(١) عن النجاة. ومنه: «العُبْرَة» بَقِيَّةُ أثر البياض بعد الامتزاج بغيره من الألوان.

وقال الرَّمَّاني: هذا استثناء مُتَّصِل، لأنَّه يجوز أن يدخل الزوجة في الأهل على التغليب في الجملة دون التفصيل كما قال: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك﴾^(٢) ومن أجل التغليب قال: ﴿من الغابرين﴾ ولم يقل: من الغائبات. وَيَقْوَى في نفسي أَنَّهُ استثناء منقطع، لأنَّ «الزوجة» لا تدخل تحت قولنا: «الأهل» حقيقةً، وقد بَيَّنَّا ذلك في سورة البقرة مستوفىً.

وقوله ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ وأمطرها الله إمطاراً، وقيل: أَمْطَر عليهم حجارةً من سَجِيل، وهذا إخبار من الله تعالى عَمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ بِقَوْمٍ لَوطٍ من العذاب.

وقوله ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أمر للنبي ﷺ والمراد به جميع المكلفين بأن يتفكروا في ذلك ويعلموا كيف كان عاقبة المجرمين، يعني: إلى ما صار إليه عاقبة هؤلاء العاصين.

و «كيف» سؤال عن حال، إِلَّا أَنَّهَا تقع في التسوية لأنَّ فيها ادِّعاء، وإذا قال القائل: كيف هو؟ معناه: قد علمت ما يطلبه الطالب كيف هو من حاله. و «العاقبة»: آخر [ما] تَوَدَّى إليه التأدية، وأصله: كون الشيء في أثر الشيء، ومنه: «العقاب» لأنَّه يستحق عقيب الذنب، ومنه: «العقاب» لأنَّه يعقَّب على صيده بشدَّته، و «العَقَبُ» لأنَّه عَقَبَ به بشدَّةٍ شيئاً بعد شيء. و «الإجرام»: اقتراف السيئة، أَجْرَمَ إجراماً: إذا أذنب، والجُرْم: الذَّنْب، وأصله: القطع، فالمجرم منقطع عن الحسنة إلى السيئة.

وفائدة الآية: الإخبار عن سوء عاقبة المجرمين بما أنزل عليهم عاجلاً من عذاب الاستئصال قبل عذاب الآخرة بالنيران.

قوله تعالى:

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذه الآية عطف على ما تقدّم، والتقدير فيها: فأرسلنا ﴿إلى مَدْيَنَ﴾ وهي قبيلة، قال أبو إسحاق^(١): أصله «مَدْيَان» وهو مَدْيَان بن إبراهيم، وهؤلاء وُلدوه. و «مَدْيَن» لا ينصرف، لأنّه مُعَرَّب في حال تعريفه، والعلة المانعة من الصَّرْف هي العجمة والتعريف، وقال الزجاج: لأنّه اسم قبيلة وهو معرفة، وجائز أن يكون أعجمياً.

وقوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ نسب إليهم بالأخوة في النسب دون غيره، وقال لهم: ﴿قد جاء تكم بَيِّنَةٌ من ربكم﴾ يعني: أتتكم حجة من الله تعالى ومعجزة دالة على صدق قوله [قولي، خ ل]^(٢) وأخبر أنّه أمرهم بأن يوفوا ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ والإيفاء: إتمام الشيء إلى حدّ الحقّ فيه، ومنه: «إيفاء العهد» وهو إتمامه بالعمل به، و «الكيل»: تقدير الشيء بالمِكْيَالِ حتّى يظهر مقداره منه، و «الوزن»: تقدير الشيء بالمِيزَانِ، و «المساحة»: تقدير الشيء بالذِّراع أو ما زاد عليه أو نقص.

﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ نهي من شُعَيْبٍ إليّاهم عن بَخْسِ الحقوق وتنقيصها في الكيل والميزان وغيرهما، والبَخْس: النقص عن الحدّ

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ٨ ص ١٦٦ مسنداً.

(٢) في ط الحجرية: صدق قوله.

الَّذِي يُوْجِبُهُ الْحَقُّ، تَقُولُ: بَخَسَ يَبْخَسُ بَخْسًا فَهُوَ بَاخِسٌ، و «الْبَخْصُ» بالصاد: فَقِيءُ الْعَيْنِ، وَقَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ: الْبَخْسُ: الظُّلْمُ. وَمِنْهُ: الْمَثَلُ: «تَخْسِبُهَا حَقْمَاءٌ وَهِيَ بَاخِسَةٌ»^(١).

وقوله: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ يعني: بعد أن أصلحها الله بالأمر والنهي وبعثه الأنبياء وتعريف الخلق مصالحهم، والإفساد: إخراج الشيء إلى حدٍّ لا ينتفع به بدلاً عن حالٍ ينتفع بها، وضده: الإصلاح، والمعنى: لا تخرجوا إلى العمل في الأرض بالقبايح بعد أن أصلحها الله بالمحاسن.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة لقومه إلى ما أمرهم به ونهاهم عنه، بأنَّ أمثاله والانتهاه إليه ﴿خير﴾ لهم وأعوذ عليهم إن كانوا ﴿مؤمنين﴾ مصدِّقين بالله، وإنَّما علّق خيريّته بالإيمان وإن كان هو خيراً على كلّ حال من حيث إنَّ مَنْ لَا يَكُونُ مُؤْمِناً بِاللَّهِ وَعَارِفاً بِنَبِيِّهِ لَمْ يُمْكِنْهُ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَهُ، وَكَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: كُونُوا مُؤْمِنِينَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: لَا يَنْفَعُكُمْ إِيفَاءُ الْكَثِيلِ وَالْمِيزَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ.

قال الفراء: لَمْ يَكُنْ لَشُعَيْبٍ آيَةٌ عَلَى النَّبُوَّةِ!

قال الزجاج وغيره: هَذَا غَلَطٌ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمِ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا﴾ فجاء بالفاء جواباً للجزاء، فكيف يقول: ﴿قَدْ جَاءَ تَكْمِ بَيِّنَةٍ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَةٌ عَلَى النَّبُوَّةِ؟ فَإِنْ كَانَ مَعَ النَّبُوَّةِ آيَةٌ فَقَدْ جَاءَ هُمْ بِهَا، لِأَنَّهُ لَوْ ادَّعَى النَّبُوَّةَ مِنْ غَيْرِ آيَةٍ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ، وَأَيَّاتُ شُعَيْبٍ وَإِنْ لَمْ يَذْكُرْهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ لَا يَجِبُ أَنْ يَقَالَ: لَا آيَةَ لَهُ، لِأَنَّ نَبِيَّنَا ﷺ لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ آيَاتِهِ كُلَّهَا

(١) وَالْمَثَلُ يُضْرَبُ لِمَنْ يَتْبَالُهُ وَفِيهِ دَهَاءٌ. رَاجِعٌ مَجْمَعُ الْأَمْثَالِ لِلْمِيدَانِيِّ: ج ١ ص ١٣٠.

في القرآن ولا أكثرها وإن كانت له آيات كثيرة، ولم يوجب ذلك نفيها.
قوله تعالى:

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ،
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُفِّرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في معنى قوله: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط توعدون﴾ قولان:
أحدهما: قال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: إنهم كانوا يقعدون
على طريق من قصد شعيباً للإيمان به فيخوفونه بالقتل.
وقال ^(١) أبو هريرة: إنما نهاهم عن قطع الطريق.

وقوله: ﴿بكل صراط توعدون﴾ يجوز فيه تعاقب حروف الإضافة،
بأن يقول: على كل صراط، وفي كل صراط، لأن معاني هذه الحروف
اجتمعت فيه هاهنا، كما تقول: قعد له بكل مكان، وعلى كل مكان، وفي
كل مكان، لأن الباء للإلصاق وهو قد لاصق المكان، و «على» للاستعلاء
وهو قد علّا المكان، و «في» للمحل وهو قد حلّ المكان، ويُقال: «قعد
عن الأمر» بمعنى: ترك العمل به كائنًا ما كان، و «قام به» إذا عمل به،
كالقعود عن الواجب ونحوه.

ومعنى «الإيعاد»: الإخبار بالعذاب على صفة من الصفات، وهو
الوعيد والتهديد، فإذا ذكر المتعلق من الخير أو الشر قلت: وَعَدْتُهُ كذا، كما
قال تعالى: ﴿النارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ^(٢) وإذا لم يُذكر قيل في الخير:
وَعَدْتُهُ، وفي الشر: أَوَعَدْتُهُ، وتقول: «وَعَدْتُهُ خيراً» بلا باء، و «أَوَعَدْتُهُ

بالشر» بإثبات الباء.

وقوله: ﴿وَتَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالصدّ: هو الصّرف عن الفعل بالإغواء فيه، كما يصدّ الشيطان عن ذِكْرِ الله وعن الصلاة، تقول: صدّه عن الأمر يصدّه صدّاً، وهو كالمنع.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾: ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب لأنّه مفعول به، وتقديره: وتصدّون المؤمنين بالله عن اتباع دينه، وهو سبيل الله.

وقوله: ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ فالهاء راجعة إلى «السبيل» ومعنى «تبغون»: تطلبون، والْبَغْيَةُ: الطَّلَبَةُ: بَعَا يَبْغِيهِ بَغْيَةً. والمعنى هاهنا: وتبغون السبيل عِوَجاً عن الحقّ، وهو أن يقولوا: هذا كذب وباطل وما أشبه ذلك، وهو قول قَتَادَةَ. و «الْعِوَجُ» بكسر العين: في الدين وكلّ ما لا يُرى، وبفتح العين: في العُود وكلّ ما يُرى كالحائط وغيره.

وقوله: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فكَثَرَكُمْ﴾ قال الزّجاج: يحتمل أشياء: أحدها: اذكروا نعمة الله عليكم إذ كثر عددكم، وثانيها: أنّه كثركم بالغنى بعد الفقر، وثالثها: كثركم بالقدرة بعد الضعف، ووجهه: أنّهم كانوا فقراء وضعفاء، فهم بمنزلة القليل في قلة الغناء.

وقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ معناه: فكروا فيما مضى من إهلاك من تقدّم بأنواع العذاب، وإنزال العقوبات بهم وأسئصال شأفتهم، وما فعل الله بالمفسدين، وكيف كان عاقبتهم في ذلك وما حلّ بهم من البوار. قوله تعالى:

وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِي أُزِيلَتْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الطائفة: الجماعة من الناس، وهو من «الطوف» صفة غالبية

أُقِيْمَتَ مقام الموصوف، مأخوذة من أَنَّهَا تجتمع على الطَّوْف، وقد يكون جماعة الكتب والدور ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وطائفة لم يؤمنوا﴾ إِنَّمَا جاز أن يخبر عَمَّن لم يؤمن بأنهم طائفة وإن كانوا هم الأكثر لتقابل قوله: ﴿طائفة منكم آمنوا﴾ ولأنَّ من حقِّ الضدِّ أن يأتي على حدِّ ضده، كما تقول: ضَرَبْتُ زيداً وما ضَرَبْتُ زيداً. وإِنَّمَا ذُكِّرَ ﴿طائفة﴾ لأنَّه راجع إلى الرجال وإن كان اللفظ مؤنثاً، فغلب فيه المعنى في هذا الموضع ليدلَّ على معنى التذكير.

والمعنى: أنْ شَعْبِيًّا قال لقومه: إنكم وإن انقسمتم قسمين: ففِرْقَةٌ آمنت وفِرْقَةٌ كَفَرَتْ ﴿فاصبروا حتَّى يحكم الله بيننا﴾ على وجه التهديد لهم، والإنكار على مَنْ خالف منهم، والصبر: حبس النفس عمَّا تنازع إليه من الجزع، وأصله: الحبس، ومنه: قوله ﷺ: «اقتلوا القتاتل واصبروا الصابر»^(١) ومنه: قيل للشيء: «صَبِرَ» لأنَّه يحبس النفس عن لفظه ليداويه. والحُكْم: المنع من الخروج عن الحقِّ بدعاء الحكمة إليه من جهة معروفة أو حجة، وأصله: المنع، قال الشاعر:

أَبْيِي حَنِيفَةً أَحْكِمُوا سُفْهَاءَكُمْ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أُغْضَبَا^(٢)

والله خير الحاكمين لأنَّه لا يجوز عليه الجور ولا المُحَابَاة في الحكم، وإِنَّمَا علّق جواب الجزاء بالصبر وهو لازم على كلّ حال، لأنَّ المعنى: فسيقع جزاء كلّ فريقٍ بما يستحقُّه من ثوابٍ أو عقابٍ، كأنَّه قال: فأنتم مصبورون على حكم الله بذلك.

(١) أخرجه في الكنز: ج ١٥ ص ١٠ ح ٣٩٨٣٩ وعزاه إلى أبي عبيد في الغريب عن إسماعيل بن أمية مرسلًا.

(٢) لجرير يهجو بني حنيفة. راجع ديوان جرير: ص ٤٧.

قال البلخي: أمرهم في هذه الآية بالكف عما كانوا يفعلون من الصّد عن الدين والتوعدّ عليه، والكفّ عن ذلك خَيْر ورُشد، ولم يأمرهم بالمقام على كفرهم والصبر. وفي ذلك دلالة على أنّه ليس كلّ أفعال الكافرين كفراً ومعصية، كما يذهب إليه بعض أهل النظر.

قوله تعالى:

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَؤُكَ كَذَّابِينَ ﴿٨٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية عن ﴿الملاء﴾ وهم الجماعة الأشراف والرؤساء من قوم شُعَيْب ﴿الذين استكبروا﴾ ومعناه: امتنعوا من اتباع الحقّ أنْفَه عن الداعي إليه أن يتبعوه فيه، وتكبروا عليه جهلاً منهم بمنزلة الحقّ ومنزلة الداعي إليه، [إذ] إنهم قالوا لشُعَيْب وأقْسَمُوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْب وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وقيل في معنى ﴿لَتَعُوذُنَّ﴾ قولان:

أحدهما: على توهمهم أنّه كان فيها على دين قومه. الثاني: إنّ الذين اتّبعوا شعيباً قد كانوا فيها.

وقال الزجاج: وجائز أن يقال: قد عادَ عليّ من فلان مكروه وإن لم يكن سبقه مكروه قبل ذلك، أي: لحقتني منه مكروه. ووجه هذا: أنّه قد كان قبل ذلك في قصده لي، كأنّه قد أتى مرّةً بعد مرّة، وقال الشاعر:

لَئِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةٍ إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهَنَ ذُنُوبٍ^(١)

والعوذ: هو الرجوع، وهو مصير الشيء إلى الحال التي كان عليها قبل،

(١) للغنوي من قصيدة يرثي أخاه. راجع العقد الفريد: ج ٣ ص ٢١٧.

ومنه: إعادة الخلق، وقوله تعالى: ﴿لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١) وتستعمل لفظة «الإعادة» في الفعل مرّة ثانية حقيقةً، وفي فعل مثله مجازاً، وكلاهما يسمّى إعادة، لكن لما كان مثله كأنّه هو في أنّه يقوم مقامه جرت عليه الصفة، كقولك: أعدت الكتابة والقراءة، ومعناه: فعلت مثله. وقوله: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ حكاية لما قال شُعَيْبٌ لأمّته من أنّه لا يعود في ملّتهم إلّا أن يكون على وجه الإكراه منهم لذلك، وأنّهم يريدون أن يردّوا المؤمنين إلى مثل ما هم عليه من المعاصي مع كراهتهم لذلك ويقيّنهم لبطلانه، فيبيّن بهذا أنّنا مع كراهتنا لذلك مع ما عرفناه من بطلانه لا نرجع، وتقديره: أتعيدوننا في ملّتكم وإن كرهناها؟! فأدخل ألف الاستفهام على «ولو».

قوله تعالى:

قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية إخبار من الله عمّا قال شُعَيْبٌ لقومه من أنّه قد افترى هو ومن آمن به ﴿على الله كذباً﴾ إنّ عاد في ملّتهم بأن يحلّلوا ما يحلّلونه ويحرّموا ما يحرمونه وينسبونه إلى الله بعد إذ نجاهم الله منها.

والافتراء: الكذب، ومنه: الافتعال والاختلاق وهو القطع بخبر مخبره لا على ما هو به، مشتقاً من: فزى الأديم، تقول: فزيت الأديم أفريه فزياً. والملة: الديانة التي تجتمع على العمل بها فِرقة عظيمة، والأصل فيه:

تَكَرَّرَ الأمر، من قولهم: «طريق مَلِيل» إذا تَكَرَّرَ سلوكه حَتَّى تَوَطَّأَ، ومنه: «المَلَل» وهو تَكَرَّرَ الشيء على النفس حَتَّى تضجر، و «المَلَّة»: الرماذ الحارَّ يُذْفَن فيه الخبز حَتَّى ينضج لتَكَرَّرَ الحمي عليها، ومنه: المَلِيلَة من الحمى. والمِلَّة لتَكَرَّرَ العمل فيها على ما تأتي به الشريعة.

وقوله: ﴿بعد إذ نَجَّانا الله منها﴾ بإقامة الدليل والحجج على بطلانها، وعلمنا بذلك وانتهائنا عنها.

وقال ابن عباس: ما كنت أدري معنى قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ﴾ حَتَّى سمعتُ بنت سيف بن ذي يَرَن تقول: «تعالَ حَتَّى أفتحك»^(١) يعني: أفضيك.

وقوله: ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلَّا أن يشاء الله ربَّنَا﴾ إخبار عن قول شُعَيْب لهم أَنَّهُ ليس له أن يعود في مَلَّتْهم، ويرجع فيها إلَّا بعد مشيئة الله ذلك. وقيل في معنى هذه المشيئة مع حصول العلم بأَنَّهُ لا يشاء تعالى عبادة الأصنام والأوثان ثلاثة أقوال:

أحدها: إنَّ في مَلَّتْهم أشياء كان يجوز أن يتعبَّد الله بها، فلو شاءها منهم لوجب عليهم الرجوع فيها.

الثاني: إنَّهُ إذا فعل ما شاء الله كان ذلك طاعةً لله تعالى .

الثالث: إنَّهُ علَّق ما لا يكون بما علم أَنَّهُ لا يكون على وجه التباعد، كما قال الشاعر:

إذا شَابَ الغُرَابُ أَتَيْتُ أهلي وصارَ القَارُ كاللَّبَنِ الحليبِ^(٢)

وكما قال تعالى: ﴿حَتَّى يُلَاحَظَ الجَمَلُ في سَمِّ الخِيَاطِ﴾^(٣) ووجه ذلك هاهنا: أَنَّهُ كما لا يشاء الله عبادة الأصنام والقبائح - لأنَّ ذلك لا يليق

(١) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٣ مسنداً.

(٢) تقدَّم البيت عند تفسير الآية: ٤٠ المتقدمة.

(٣) الآية: ٤٠ المتقدمة.

بحكمته - فكَذَلِكَ لَا أُعَوِّدُ فِي مَلَّتِكُمْ.

وقال قوم: فيه وجه رابع وهو: أَنَّ الهاء في قوله: ﴿فِيهَا﴾ راجعة إلى «القرية» وكأنَّه قال: وما يكون لنا أن نعود في قريبتكم غانمين لكم ظاهرين عليكم بعد إذ نَجَّانا الله منها بخروجنا منها سالمين إِلَّا أن يشاء الله ينصرنا عليكم ويشاء مِنَّا الرجوع فيها.

وقوله ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ نُصِبَ ﴿عِلْمًا﴾ على التمييز.

وقيل في وجه اتِّصال ذلك بما قبله قولان:

أحدهما: إِنَّ الْمَلَّةَ إِنَّمَا يَتَعَبَّدُ بِهَا عَلَى حَسَبِ مَا فِي مَعْلُومِهِ مِنْ مَصْلَحَةِ الْعِبَادِ بِهَا، فَهُوَ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ ذَلِكَ.

والثاني: إِنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَكُونُ مِنَّا مِنْ عَوْدٍ أَوْ تَرْكِ دُونِنَا.

ثُمَّ حَكَى عَنْ شُعَيْبٍ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ سَوَّالٌ مِنْ شُعَيْبٍ وَرَغْبَةٌ مِنْهُ إِلَيْهِ تَعَالَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ بِالْحَقِّ، وَالْفَتْحُ: الْقَضَاءُ. وَمَعْنَى ﴿افْتَحْ﴾: إِقْضِ، فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيَّ. وَالْفَاتِحُ وَالْفَتَّاحُ: الْحَاكِمُ، وَفَاتَحْتُهُ فِي كَذَا: قَاضَيْتُهُ، وَإِنَّمَا قِيلَ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَفْتَحُ بَابَ الْعِلْمِ الَّذِي انْغَلَقَ عَلَى غَيْرِهِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ فِيهِ وَجْهَانِ:

أحدهما: سَوَّالُ اللَّهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾^(١). وَالْآخَرُ: مَا يَنْكَشِفُ بِهِ لِمَخَالَفَتِنَا أَنَّا عَلَى الْحَقِّ مِنْ إِنْزَالِ الْعَذَابِ عَلَيْهِمْ.

وقال الفراء: أَهْلُ عُمَانَ يَسْمَوْنَ الْحَاكِمَ الْفَتَّاحَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

أَلَا أُبْلِغُ بَنِي عُضْمَ رَسُولاً فَإِنِّي عَنْ فَتَاحَتِكُمْ غَنِيٌّ^(١)
 أي: قضائكم وحُكْمكم، وقال الجُبَّائي: معنى ﴿افتح بيننا وبين
 قومنا﴾: أنزل بهم ما يستحقّون من العقوبة لكفرهم بالله وظلّهم المؤمنين.
 وفي الآية دلالة على بطلان مذهب المجبّرة، لأنّه قال: ﴿وما يكون
 لنا أن نعود فيها إلّا أن يشاء الله﴾ فعلق [فعلهم، ظ] أن لهم الرجوع فيها إذا
 شاء الله، فإذا لم يشأ لم يكن ذلك، فيجب على هذا - إن كان الله يريد الكفر
 - أن يكون للكافر الرجوع في الكفر، وهذا لا يقوله أحد، فبطل ما قالوه.
 على أن الظاهر من معنى «الملة» هو ما يُعلّم بالشّرع، وذلك يجوز أن
 ينسخه الله فيريد منهم الرجوع فيه، وليس لأحد أن يقول: إنّ قوله: ﴿بعد
 إذ نجّانا الله منها﴾ لا يليق بما قلتم وإنما يليق بما قالوه، وذلك أن قوله:
 ﴿بعد إذ نجّانا الله منها﴾ معناه على هذا القول: أزاله عنّا ونسخه عنّا، فإن
 شاء أن يعيدنا ثانياً جاز لنا الرجوع فيها.

قوله تعالى:

وَقَالَ أَلَمْأَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَسِرُونَ ﴿١٠﴾
 آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية ما قالت الجماعة الكافرة الجاحدة بآيات
 الله المنكرة لنبوّة شعيب للباقيين منهم وأقسموا^(٢) عليهم ﴿لئن اتّبعتم
 شعيباً﴾ وانقدتم له ورجعتم إلى أمره ونهيه، لأنّ الاتّباع هو طلب الثاني
 موافقة الأوّل فيما دعا إليه تقول: اتّبعه اتّباعاً وتبعه تبعاً، وهو متّبع وتابّع
 ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ قوله: ﴿إنكم﴾ جواب القسم، واللام في

(١) أنشده في اللسان: مادّة «فتح» ونسبه إلى الأسعر الجعفي.

(٢) في الحجرية: قسمهم.

﴿الخاسرون﴾ لام التأكيد في خبر ﴿إِنَّ﴾ و «الخُسْران»: ذهاب رأس المال، فكأنهم قالوا: لئن تبعتموه كنتم بمنزلة من ذهب رأس ماله أو أعظم من ماله، لأنكم لا تنتفعون باتباعه فتخسرون في اشتغالكم بما لا تنتفعون به، وبانقضاء عمركم إذ لم تكسبوا فيه نفعاً لأنفسكم. وقيل: معناه: لها الكون، وقيل: لمفتونون.

و «إذا» من عوامل الأفعال، وإنما دخلت هاهنا على الاسم، لأنها مُلغاة، وإذا أُلغيت من العمل صُلح ذلك فيها، لأنها حينئذٍ تجري مجرى ألف الاستفهام في أنها لا تختص، لأنها لا تعمل. وقوله: ﴿إنكم إذا لخاسرون﴾ جواب القسم وقد سدّ مسدّ جواب الشرط من قوله: ﴿لئن﴾ ولا يجوز قياساً على ذلك: إن أتاك زيد إنه لكريم، لأن جواب الشرط إنما هو بالفعل أو الفاء لترتب الثاني بعد الأول بلا فصل. قوله تعالى:

فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٩١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قد مضى تفسير مثل هذه الآية فلا معنى لإعادته ^(١).

والفاء في ﴿فأخذتهم﴾ عطف على قوله: ﴿قال الملائ﴾ وفيها معنى الجواب، كأنه قيل: كان جواب ما ارتكبوا من عظيم الفساد أخذ الرِّجْفَةَ لهم بالعذاب، و «أخذ الرِّجْفَةَ»: إلحاقها بهم مدمرة عليهم، ولا يقال: «أخذتهم الرحمة» لأن العذاب لما كان يذهب بهم إهلاكاً صُلح فيه «الأخذ» ولا يصلح في النعيم.

والرِّجْفَةُ: الزلزلة، وهي حركة تزلزل الأقدام وتوجب الهلاك لشدتها. والإصباح: الدخول في الصباح، والإمساء: الدخول في المساء، ويستعمل

على وجهَيْن: أحدهما: ما يحتاج إلى خير. والآخر: مكتفٍ بالاسم بمنزلة «سواء» والجُثُوم: البرُوك على الرُكبة، جَثَمَ يَجْثِمُ جُثُوماً، وقد جَثَمَ هذا الأمر على قلبي أي: ثَقُلَ عليه، لثبوتِه على تلك الحال.

قوله تعالى:

الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَاسِرِينَ ﴿١٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى في موضع رفع بأنه مبتدأ، وخبره: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾.

وهو إخبار من الله تعالى عن حال هؤلاء الكفار الذين كذبوا شُعَيْبًا، وشبههم بمن لم يَغْنِ فيها، ومعنى ﴿لَمْ يَغْنَوْا﴾: لم يقيموا إقامة مستغني بها عن غيرها، والغاني: النازل، والمغاني: المنازل، وغني بالمكان: إذا أقام به، يَغْنِي غَنَاءً وَغُنْيَانًا وَغْنًى، وقال النابغة:

غَنَيْتَ بِذَلِكَ إِذْ هُمْ لَكَ جِيرَةٌ منها بَعَطْفٍ رِسَالَةٍ وَتَوَدُّدٍ^(١)

وقال آخر:

وَلَقَدْ يَغْنَى بِهَا جِيرَانُكَ إِلا مُمَسِّكُو مِثْقَالٍ بَعْدَهِ وَوَصَالٍ^(٢)

وقال رؤبة:

وَعَهْدُ مَعْنَى دِمْنَةٍ بِضَلْفَعَا^(٣)

(١) من قصيدة يمدح النعمان وعياله. راجع ديوان النابغة: ص ١٤٤.

(٢) لعبيد بن الأبرص من قصيدة افتخارية. راجع ديوان عبيد: ص ١٢٠. وفيه «أصحابك» بدل «جيرانك» و «بأسباب الوصال».

(٣) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٥، كذا في المطبوعة وفي الحجرية هكذا: دتمته بلفعا.

وقال حاتم طي:

عُنِينَا زَمَانًا بِالتَّصْعُكِ وَالْغِنَى فَكَلَّا سَقَاتَاهُ بِكَأْسَيْهِمَا الدَّهْرُ
فَمَا زَادَنَا بَغِيًّا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ غِنَانًا وَلَا أَزْرَى بِأَخْسَانِ الْفَقْرِ^(١)
ووجه التشبيه في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾: أَنَّ حَالِ الْمَكْذِبِينَ يَشْبَهُ
حَالِ مَنْ لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي تِلْكَ الدِّيَارِ لَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ بِالْإِهْلَاكِ، وَهَذَا
مِمَّا يَتَحَسَّرُ عَلَيْهِ النَّاسُ أَعْظَمَ الْحَسْرَةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
كَأَن لَّمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إِلَى الصَّفَا

أُنَيْشٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
بَلَى نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهَا فَأَبَادَنَا

صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَائِرُ^(٢)
وإِنَّمَا أُعِيدَ ذِكْرُ ﴿الَّذِينَ﴾ دَفْعَةً ثَانِيَةً مِنْ غَيْرِ كُنَايَةٍ لِتَغْلِيظِ الْأَمْرِ فِي
تَكْذِيبِهِمْ شَعْيِيًّا، مَعَ بَيَانِ أَنَّهُمُ الَّذِينَ حَصَلُوا عَلَى الْخُسْرَانِ لَا مَنْ نَسَبُوهُ
إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ.

و ﴿هُمْ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ فَصْلٌ، وَيُسَمِّيهِ الْكُوفِيُّونَ:
عِمَادًا، وَإِنَّمَا دَخَلَ الْفَصْلُ مَعَ أَنَّ الْمَضْمَرَ لَا يُوصَفُ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى
التَّوَكِيدِ لِيَتِمَّكَنَ مَعْنَاهُ فِي النَّفْسِ، وَأَنَّ الَّذِي بَعْدَهُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ لَا يَخْرُجُهُ
ذَلِكَ مِنْ مَعْنَى الْخَبَرِ وَإِنْ كَانَ الْأَصْلُ فِي الْخَبَرِ النِّكَرَةِ.

وهذه الآية جواب لقولهم: ﴿لئن أَتَّبَعْتُمْ شَعْيِيًّا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ﴾

(١) من قصيدة يعاتب زوجته لما أبدته من امتعاض من حاله وكثرة سخائه. راجع ديوان حاتم الطائي: ص ٨٤.

(٢) قيل: إنه لعمر بن الحارث بن مُضاض، وقيل: هو للحارث الجُرْهُمِي. أنشدهما في اللسان: مَادَّةُ «حجن».

فبين الله في هذه الآية أن الخاسرين هم الذين كذبوه لا الذين اتبعوه.

قوله تعالى:

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنقُومَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُم فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ آية .

أقول: هذا إخبار من الله تعالى عما فعل شُعَيْب عليه السلام مع قومه لما أبلغهم رسالات ربه تعالى، فلما لم يقبلوها وأقاموا على تكذيبه وجحد ما أتى به، أنه ﴿تَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ ومعناه: أعرض عنهم إعراض آيسٍ منهم، فنزل بهم العذاب فتولى عنهم، لأنه كان مُقْبِلاً عليهم بالوعظ والدعاء إلى الحق، فلما تمادوا في غيهم وأخذهم الله ببأسه تولى عنهم.

وإنما قال لمن هلك: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ لأن معناه: أن ما نزل بكم من البلاء وإن كان عظيماً فهو حق، لأنه بجنايتكم على أنفسكم، فلا ينبغي أن يحزن عليهم للأمور التي ذكرناها من شأنهم، قال ابن إسحاق: عزى نفسه عنهم بعد أن كان حزن عليهم.

وقوله: ﴿رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ إنما أتى بلفظ الجمع ليدل على اختلاف معاني الرسالة إذا جُمِعَتْ، فهي تجري مجرى جمع الأجناس، كقولك: «تُمُور» وأما «ضربات» فإنما يدل على عدد المرات.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ آسَى﴾ أحزن، في قول ابن عباس والحسن والسدي، والأسى: شدة الحزن، يقال أسى يأسى أسى، قال الشاعر:

وَانْحَلَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى ^(١)

وقال امرؤ القيس:

وَقُوفاً بِهَا صَخْبِي عَلَى مَطِيئِهِمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسَى وَتَجَمَّلِ^(١)
 وقوله: ﴿كَيْفَ أَسَى﴾ لفظه لفظ الاستفهام والمراد به: النفي، وإنما
 كان كذلك لأنَّ جوابه في هذا الموضع لا يصحّ إلا بالنفي، كما يدخله معنى
 الإنكار لهذه العلة، قال العجاج:

أَطْرَباً وَأَنْتَ قَنْسَرِي^(٢)

أي: لا يكون ذلك مع كبر السن. وهذا تسلٍّ من شُعَيْبٍ عليه السلام بما يذكر
 من حاله معهم في مناصحته لهم وتأدية رسالة ربِّه إليهم، وأنَّه لا ينبغي أن
 يأسى عليهم مع تمردهم في كفرهم وشدة طغيانهم، وأنَّه لا حيلة في
 فلاحهم.

قال البلخي: وفي ذلك دلالة على أنَّه لا يجوز للمسلم أن يدعو
 للكافر بالخير، كما يقول: لعن الله فلاناً وأخزاه، ثم يقول: هداه الله وأرشدته
 ورجمته.

وقال أبو عبدالله البجلي: «أبو جاد» و«هواز» و«حِطِّي» و«كَلْمُون»
 و«سَعْفَص» و«قَرَشَت» أسماء ملوك مَذْيَن، وكان ملكهم يوم الظَّلَّة في
 زمان شُعَيْب فقالت أخت كَلْمُون تَبْكِيه^(٣):

هَلُكُكُمْ وَسَطَ الْمَحَلَّةِ	كَلْمُونُ هَدَّ رُكْنِي
خَتَفُ نَاراً وَسَطَ ظُلَّةِ	سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الـ
دَارُهُمُ كَالْمُضْمَحَلَّةِ ^(٤)	جُعِلَتْ نَاراً عَلَيْهِمُ

(١) من معلقته المشهورة. راجع ديوان امرئ القيس: ص ٣١.

(٢) أنشده في اللسان: مادة «قنسر».

(٣) كذا في المطبوعة، وفي الحجرية هكذا: في زمان شعيب كلمون يبكيه.

(٤) أخرجه عنه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٤ مسنداً.

قوله تعالى:

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ
يَضُرَّعُونَ ﴿١٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّهُ لم يرسل رسولاً إلى أهل قرية إلا وأخذ أهلها بالبأساء والضراء، تغليظاً في المحنة، وتشديداً للتكليف، لِيُتَبَيَّنَ قُلُوبُهُمْ، ولكي يتضرَّعوا إلى رَبِّهِمْ في كشف ما نزل بهم في ذلك، وإِنَّمَا يفعل بهم ذلك لعلمه بما لهم فيه من الصلاح لكي يتضرَّعوا. و «القرية» أصلها: الجمع، من قولهم: قَرَيْتُ الماءَ أَقْرِيهِ قَرْيَاً إِذَا جمعه، فالقرية: مجتمع الناس في المنازل المتجاورة ممَّا هو دون المدينة، وكذلك تُسَمَّى المدينة أيضاً: قرية.

و «النبي»: هو الذي يؤدِّي عن الله تعالى بلا واسطة من البشر، وقيل: هو من كان يُنَبِّئُ بِالْوَحْيِ من الله تعالى ممَّا أنزله عليه.

وقيل في معنى «البأساء والضراء» ثلاثة أقوال:

أحدها: إِنَّ «البأساء» ما نالهم من الشدَّة في أنفسهم، و «الضراء» ما نالهم في أموالهم.

والثاني: ما قال الحسن: إِنَّ «البأساء» الجوع، و «الضراء» اللأواء من الأمراض والشدائد التي تصيبهم.

الثالث: قال السُّدِّي: إِنَّ «البأساء» الجوع، و «الضراء» الفقر.

وقيل في معنى «لَعَلَّهُمْ» قولان:

أحدهما: إِنَّا عاملناهم معاملة الشاكِّ في إيراد أسباب التضرُّع، مظهرةً عليهم في الحجَّة. الثاني: أَن يكون «لعلَّ» بمعنى اللام، وتقديره: ليضرَّعوا. وأصل «يضرَّعون»: يَتَضَرَّعون، فَأَدْعَمَتِ التاء في الضاد، ولا يُدْعَم

الضاد في التاء لأنّ في التاء استطالة، وإنّما يُدْغَمُ الناقص في الزائد ولا يُدْغَمُ الزائد في الناقص، لِما في ذلك من الإخلال.

قوله تعالى:

ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنّه بدّل مكان السيئة الحسنة ﴿وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراء والسراء﴾ ومعناه: أنّه تعالى بعد أن يفعل بهم البأساء والضراء ليتضرّعوا يبدّل مكان السيئة الحسنة، و «التبديل»: وضع أحد الشيئين مكان الآخر، فلما رُفِعَت السيئة عنهم ووُضِعَت الحسنة كانت مُبَدَّلَةً بها.

وقال ابن عباس والحسن وقتادة ومجاهد: المراد بالسيئة والحسنة هاهنا: الشدة والرخاء، وهو ما يسوء صاحبه أو يحسن أثره عليه.

وقال أبو علي: جرى في هذا الموضع على سبيل المثل.

وقوله: ﴿حَتَّى عَفَوْا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسُّدِّي وابن زيد: معناه: حتّى كثروا. وقال الحسن: حتّى سمنوا. وأصله: الترك، من قوله: ﴿فَمَنْ عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ ^(١) أي: تُرِكَ له، و ﴿عَفَوْا﴾: تُرِكُوا حتّى كثروا، قال الشاعر:

ولكنّا نَعْضُ السيفَ مِنْهَا بِأَسْوَاقِ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كَوْمٍ ^(٢)

وقوله: ﴿وقالوا قد مَسَّ آباءنا الضراء والسراء﴾ معناه: أنّ الكفّار قال بعضهم لبعض: إنّ هكذا عادة الدهر، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان

(١) البقرة: ١٧٨.

(٢) قاله لبيد بن ربيعة من قصيدة يفتخر بمآثره. راجع ديوان لبيد: ص ١٨٦.

أباؤكم، فلم ينفكوا عن تلك الحال فينتقلوا.
 وقوله: ﴿فأخذناهم بَغْتَةً وهم لا يشعرون﴾ إخبار من الله تعالى أنه
 أخذ مَنْ ذَكَرَهُ مَنْ لم يقبل مواعظ الله، وخرج عن طاعته إلى عداوته
 ﴿بَغْتَةً﴾ يعني: فجأة وهي الأخذ على غرة من غير مقدمة تُؤذِن بالنازلة،
 تقول: بَغْتَهُ يَبْغْتُهُ وَبَغْتَةً، كما قال الشاعر:

وأَفْطَعُ شَيْءٍ حِينَ يَفْجُوكَ الْبَغْتُ^(١)

ومعنى الآية: أنه تعالى يدبر خلقه الَّذِينَ يعملون بمعاصيه أن يأخذهم
 تارةً بالشدة وأخرى بالرخاء، فإذا فسدوا على الْأَمْرَيْنِ جميعاً أخذهم بَغْتَةً
 ليكون ذلك أعظم في الحسرة، وأبلغ في العقوبة.
 ومعنى قوله: ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي: لم يشعروا بنزول العذاب إلا بعد
 حلوله.

قوله تعالى:

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن عامر: ﴿لَفَتَحْنَا﴾ بتشديد التاء، الباقون بتخفيفها.
 مَنْ شَدَّدَ ذهب إلى التكثير، وَمَنْ خَفَّفَ فلاَّنه يحتمل القلة والكثرة.
 معنى «لو»: امتناع الشيء لا امتناع غيره، و«لولا» معناه: امتناع الشيء
 لوجود غيره، وقال الرُّمَّانِي: معنى «لو»: تعليل الثاني بالأوَّل الَّذِي يجب
 بوجوبه وينتفي بانتفائه على طريقة: كان، و«إن» فيها هذا المعنى على
 طريقة: يكون، والفرق بين «لو» و«إن»: أَنَّ «إن» تَعْلُقُ الثاني بالأوَّل الَّذِي

(١) صدره: ولكنهم ماتوا ولم أدرِ بَغْتَةً. أنشده في اللسان: مادّة «بغت» ونسبه إلى يزيد بن
 ضَبَّةِ الثَّقَفِي، وفي الحجرية: وانكأ شيء حين.

يمكن أن يكون ويمكن أن لا يكون، كقولك: إن آمن هذا الكافر استحقَّ الثواب، وهذا مقدور، وليس كذلك «لو» لأنَّها قد تدخل على ما لا يمكن أن يكون، كقولك: لو كان الجسم قديماً لاستغنى عن صانع.

وفُتِحَتْ ﴿أَنْ﴾ بعد ﴿لو﴾ لأنَّها مبنية على شبه التعليل اللفظي لاختصاصه بالفعل الماضي، فكأنَّه قيل: لو كان أنَّ أهل القرى آمنوا، وصارت ﴿لو﴾ خلفاً منه، وأمَّا «لولا أنَّه خارج لأُتِيته» فتشبه «لو» من جهة تعليق الثاني بالأوَّل فأجريت مجراها.

يقول الله تعالى: ﴿لو أنَّ أهل﴾ هذه ﴿القرى﴾ التي أهلكناها: من قوم لوط وصالح وشُعَيْب وغيرهم أقروا بوحدانيتي، وصدَّقوا رسلي ﴿لفتحنا عليهم بركات﴾ وهي الخيرات النامية له، وأصله: الثبوت، فمؤَّ الخير يكون كنايةً عن ثبوته بدوامه، فبركات السماء بالقطر، وبركات الأرض بالنبات والثمار، كما وعد نوح بذلك أمَّته فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾^(١) والآيات. وقيل: بركات السماء: إجابة الدعاء، وبركات الأرض: تيسير الحوائج ﴿ولكن كذبوا﴾ يعني: رسلي ﴿فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ من المعاصي ومخالفتي، والكسب: العمل الَّذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر عن النفس، وقد يكسب الطاعة ويكسب المعصية إذا اجتلب النفع من وجه يقيح.

قال البلخي: وفي الآية دلالة على أنَّ المقتول ظُلماً لو لم يُقتل لم تجب إمامته، لأنَّه تعالى قال: ﴿لو أنَّ أهل القرى آمنوا واتَّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وهذا إنَّما يقوله لقومٍ أهلكهم ودمَّر

عليهم، وقد كان عالماً بما ينزل بهم من الهلاك، فأخبر أنهم لو آمنوا لم يفعل بهم ذلك، ولعاشوا حتى ينزل عليهم بركات من السماء فيتمتعوا بذلك.

قوله تعالى:

أَفَأَمِّنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿١٨﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل المدينة وابن عامر ﴿أَوْ﴾ بسكون الواو، إلا أن وزشاً على أصله فيلقاء حركة الهمزة على الساكن فتصير قراءة مثل قراءة الباقيين. الألف في قوله: ﴿أَفَأَمِّنَ أَهْلُ﴾ ألف الإنكار، [أنكر] عليهم أن يأمّنوا، وإنما دخل حرف الاستفهام معنى الإنكار لظهور المعنى فيه، وأن الجواب عنه لا يكون إلا بالنفي.

والفاء في قوله: ﴿أَفَأَمِّنَ﴾ فاء العطف دخل عليها حرف الاستفهام، وإنما جاز ذلك مع منافاة العطف للاستئناف لأنهما إنما يتنافيان في المفرد، لأن الثاني إذا عمل فيه الأول كان من الكلام الأول، والاستئناف قد أخرجه عن أن يكون منه، وأما في عطف جملة على جملة فيصح، لأنه على استئناف جملة بعد جملة.

والأمن: سكون النفس إلى الحال المنافية لانزعاجها، و«الأمن» و«الثقة» و«الطمأنينة» نظائر في اللغة، وضد الأمن: الخوف، وضد الثقة: الريبة، وضد الطمأنينة: الانزعاج، والأمن: الثقة بالسلامة من الخوف، والبأس: العذاب، والبؤس: الفقر، والأصل: الشدة، ورجل يئس: شديد في القتال، ومنه: قولهم: يئس الرجل زيد، معناه: شديد الفساد.

والتؤم: تقيض اليقظة، والتؤم: سهو يغمر القلب ويغشي العين ويضعف الحس وينافي العلم، نام الرجل ينام نوماً، وهو حسن النية: إذا كان

حَسَنَ هيئة النوم، ورجل نُؤْمَةٌ - بسكون الواو - : إذا كان خسيساً لا يُؤْبَهُ به، ذكره الزَّجَّاج. ورجل نُؤْمَةٌ - بفتح الواو - : كثير النوم، والنَّيْمُ: الفرو النوم، لأنَّه يغشي كما يغشي النوم، أو لأنَّه من شأنه أن يَنَام فيه.

ومعنى الآية: الإبانة عما يجب أن يكون عليه العبد من الحذر لبأس الله وسطوته بالمسارعة إلى طاعته واتباع مرضاته، والمعنى بقوله: ﴿أهل القرى﴾ هم أهل القرى الظالم أهلها، والمقيمون على معاصي الله في كلِّ وقت وكلِّ أوان، وإن نزلت بسبب أهل القرى الظالم أهلها المشركين في زمن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿أَوْ أَمَّنْ أَهْلَ الْقُرَى﴾ إِنَّمَا قال هاهنا بالواو، وفي الآية الأولى بالفاء، لأنَّ الفاء تدلُّ على أنَّ الثاني أدَّى إليه الأوَّل، كأنَّه قيل: أَفَأَمَّنُوا أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِأَسْ أَمَّنْ مِنْ أَجْلِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَضْيِيعِ أَمْرِ اللَّهِ، لأنَّه يشبه الجواب، وليس كذلك الواو، بل هي لمجرَّد العطف، وإِنَّمَا دخلت أَلِف الاستفهام عليها للإنكار على ما بيَّناه.

والواو مفتوحة في ﴿أَوْ أَمَّنْ﴾ لأنَّها واو العطف دخل عليها حرف الاستفهام، وإِنَّمَا فُتِحَتْ لأنَّها أخفَّ الحركات، ولمثل ذلك فُتِحَتْ أَلِف الاستفهام وكُسِرَتْ باء الإضافة ولامها، لأنَّهما حرفان لازمان لعمل الجزر، وَمَنْ قرأ هذه القراءة قال: لأنَّها أشبه بما قبلها وما بعدها، لأنَّه قال قبلها: ﴿أَفَأَمَّنْ﴾ وقال بعدها: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ وَمَنْ سكَّن الواو أراد الإضراب عن الأوَّل من غير أن أبطل الأوَّل، لكن كقوله: ﴿أَلَمْ﴾ * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين * أم يقولون افتراه^(١) فجاء هذا على معنى: أَمِنُوا

هذه الضروب من معاقبتهم والأخذ لهم، وإن شئت جعلته [مثل] «أو» التي في قولك: ضربت زيداً أو عمراً، كأنك أردت: أقامنا إحدى هذه العقوبات؟ و «أو» حرف يستعمل على ضربين:

أحدهما: بمعنى: أحد الشيئين، كقولك: جاءني زيد أو عمرو، كما تقول: جاءني أحدهما، ومن ذلك قولهم: جالس الحسن أو ابن سيرين، لأنه مخير في مجالسة أيهما شاء.

والثاني: أن يكون بمعنى الإضراب بعد الخبر، كقولك: أنا أخرج ثم تقول: أو أقيم، فتضرب عن الخروج وتثبت الإقامة، كأنك قلت: لا بل أقيم. ومن ثم قال سيبويه^(١) في قوله: ﴿وَلَا تُطِغْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾^(٢): لو قلت: وَلَا تُطِغْ كُفُورًا انقلبَ المعنى: وإثماً كان ينقلب المعنى لأنه لو كان للإضراب لجاز أن يطيع الآثم، وذلك خلاف المراد، لأن الغرض: لَا تُطِغْ هذا الضرب، وَلَا تُطِغْ هؤلاء.

والضحى: صدر النهار في وقت انبساط الشمس، وأصله: الظهور، من قولهم: ضحا الشمس يَضْحُو ضَحْواً إذا ظهر، و: فعل ذلك الأمر ضاحيةً إذا فعله ظاهراً، و «الأضحية» [من هذا] لأنها تُذَبِّح عند الضحى يوم العيد، قال رؤبة:

الحمد لله العشي والضحى هابي العشي ديسق ضحاؤه^(٣)
وقال آخر:

عليه من نسج الضحى شُفوف^(٤)

فشبه السراب بالسُتُور البيض. واللعب: هو العمل للذة لا يراعى فيه

(١) في الكتاب: ج ٣ ص ١٨٨. (٢) الإنسان: ٢٤. (٣) أنشده في اللسان: مادة «ضحا».

(٤) المصدر السابق، كذا في المطبوعة، في الحجريّة هكذا؛ وقال عليه من نسخ الضحى الشعوف.

الحكمة، كعمل الصبي، لأنه لا يعرف الحكيم ولا الحكمة، وإنما يعمل للذة، وأصله: الذهاب على غير استقامة، كـ «لُعاب» الصبي: إذا سَالَ على فيه. وإِنَّمَا خَصَّ وقت الضُّحَى بهذا الذِّكْر لَأَنَّهُم بمنزلة لا يجوز لهم أن يأمنوا ليلاً ولا نهاراً، في قول الحسن، ولأنَّه ابتداء الدخول في الاستمتاع، ومعنى الآية: البيان عن وجوب الأخذ بالجرم في كلِّ ما لا يؤمن معه هلاك النفس، لإنكار الله عليهم أن يكونوا على حال الأمن وقد ضيَّعوا الواجب من الأمر.

قوله تعالى:

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ آية بلا خلاف. أقول: إِنَّمَا دخلت الفاء في ﴿أَفَأَمِنُوا﴾ بعد الواو في ﴿أَوْأَمِنُ﴾ لأنَّ فيها معنى «بعد» كأنَّه قيل: أَبْغَدْ هذا كُلَّهُ أَمِنُوا مكر الله؟! ثُمَّ صارت الفاء في ﴿فَلَا يَأْمَنُ مكر الله﴾ كأنَّها جواب لمن قال: قد أَمِنُوا.

والمكر: أخذ العبد بالضرِّ من حيث لا يشعر، إلَّا أَنَّهُ قد كثر استعماله في الحيلة عليه، قال الخليل: المكر: الاحتيال بإظهار خلاف الإضرار. وإِنَّمَا جاز إضافة المكر إلى الله لما في ذلك من المبالغة من جهة أَنَّهُ قد صار العذاب كالمكر على الحقيقة، لَأَنَّهُ أَخَذَ للعبد بالضرِّ من حيث لا يشعر، وأصل المكر: الالتفاف، فمنه: «ساق مكورة» أي: ملتقَّة حسنة، قال ذو الرُّمَّة:

عَجَزَاءُ مَمْكُورَةٌ خُصَانَةٌ قَلِقُ

عنها الوشاحُ وتَمَّ الجِسْمُ والقَصَبُ^(١)

والمُكُور: شجر ملتفّ، قال الراجز:

يَسْتَنُّ فِي عُلْقَىٰ وَفِي مُكُورٍ^(١)

ورجل ممكُور: قصير ملتفّ الخليفة، ذكره الخليل في هذا الباب، تقول: مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا: إذا التفّ تدبيره على مكروه لصاحبه.

وقوله: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ إنّما ارتفع ما بعد ﴿إِلَّا﴾ لأنّ الرفع مفرّغ له فارتفع لأنّه فاعل، وكلّما فرّغ الفعل لما بعد ﴿إِلَّا﴾ فهي فيه مُلغاة، وكلّ ما شغل بغيره فهي فيه مسلّطة، لأنّ الاسم لا يتّصل على ذلك الوجه إلّا بها.

وإنّما قال ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ مع أنّ الأنبياء المعصومين يأمنون ذلك، لأمرين:

أحدهما: أنّهم لا يأمنون عقاب الله للعاصين، ولذلك سلموا من مواجهة الذنوب. الثاني: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ من المذنبين ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. ومعنى الآية: الإبانة عمّا يجب أن يكون عليه المكلف من الخوف لعقاب الله ليسارع إلى طاعته واجتناب معاصيه، ولا يستشعر الأمن من ذلك فيكون قد خَسِرَ في دنياه وآخرته بالتهالك في القبائح.

قوله تعالى:

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنُطْبِئُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في فاعل ﴿يَهْدِ﴾ في حكم الإعراب قولان: أحدهما: إنّهُ مضمر، كأنّه قيل: أَوْ لَمْ يَهْدِ اللَّهُ لَهُمْ، وقوّي ذلك بقراءة مَنْ

(١) للعجاج، أنشده في اللسان: ما دّتي «مكر» و «علق».

قرأ بالنون على ما ذكره الزجاج.

الثاني: [أَوْ لَمْ] يَهْدِي لَهُمْ مَشِيَّتَنَا، لِأَنَّ «أَنْ لَوْ نَشَاءُ» فِي مَوْضِعِهِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَوْ لَمْ يَكُنْ هَادِيًّا لَهُمْ اصْطِلَامَنَا لَمَنْ أَهْلَكْنَاهُ.

وقيل في معنى «الهداية» هاهنا قولان:

أحدهما: قال ابن عباس ومجاهد والسُّدِّي وابن زيد: يهدي لهم: يبين لهم. الثاني: إِنَّ الْهُدَايَةَ الدَّلَالَةُ الْمُؤَدِّيَةُ إِلَى الْبُغْيَةِ، وَالْمَعْنَى: أَوْ لَمْ نَبَيِّنْ لِلَّذِينَ مَتَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِهْلَاكِنَا مَنْ كَانَ قَبْلَهُمْ فِيهَا، وَجَعَلْنَا إِيَّاهُمْ الْمَالِكِينَ لَهَا بَعْدَهُمْ، أَنَّا لَوْ شِئْنَا أَصْبَنَاهُمْ بِعِقَابِ ذُنُوبِهِمْ وَأَهْلَكْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ كَمَا أَهْلَكْنَا الْأُمَمَ الْمَاضِيَةَ قَبْلَهُمْ.

وقوله: «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا» فَالْإِثْرُ: تَرَكَ الْمَاضِي لِلْبَاقِي مَا يَصِيرُ لَهُ بَعْدَهُ، وَحَقِيقَةُ ذَلِكَ فِي الْأَعْيَانِ الَّتِي يَصَحُّ فِيهَا الْإِنْتِقَالُ، وَقَدْ اسْتُعْمِلَ عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ فِي الْأَعْرَاضِ، فَقِيلَ: «الْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ»^(١) لِأَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا مِنْهُمْ، وَقَامُوا بِمَا أَدَّوهُ إِلَيْهِمْ.

وقوله: «أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» الْإِصَابَةُ: هِيَ إِيقَاعُ الشَّيْءِ بِالْغَرَضِ الْمَنْصُوبِ، وَضَدُّهُ: الْخَطَأُ وَهُوَ إِيقَاعُ الشَّيْءِ بِخِلَافِ الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ.

وقوله: «وَنُطْبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ» قِيلَ فِي مَعْنَى «الطَّبْع» هَاهُنَا قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: الْحُكْمُ بِأَنَّ الْمَذْمُومَ كَالْمَمْنُوعِ مِنَ الْإِيمَانِ لَا يَفْلَحُ، وَهُوَ أَبْلَغُ الذَّمِّ. الثَّانِي: إِنَّهُ عَلَامَةٌ وَاسِمَةٌ فِي الْقَلْبِ مِنْ نَكْتَةِ سُودَاءٍ: أَنَّ صَاحِبَهُ لَا يَفْلَحُ، تَعْرِفُهُ الْمَلَائِكَةُ.

(١) وَالْعَبَارَةُ قِطْعَةً مِنْ رَوَايَةِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَوَاهُ فِي الْكَافِي: ج ١ ص ٣٢٢ ح ٢ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ.

وَحُكِّيَ عن البكريّة في تأويل هذه الآية: أَنَّ معنَى الآية: لو نشاء طبعنا على قلوبهم. وأنكر أبو عليّ ذلك وقال: هذا غلط، لأنّ معنى قوله: إني لو شئت أصبتهم بعقاب ذنوبهم أهلكتهم كما أهلكت الأمم قبلهم بعقوبة ذنوبهم، فلا يجوز أن يعني: إني لو شئت أهلكتهم فلا يتهيأ لهم أن يسمعوا بعد إهلاكهم، لأنّ من المعلوم للعقلاء أجمع أنّ الموتى لا يسمعون، ولا يقبلون الإيمان.

وقوله: ﴿ونطبع على قلوبهم﴾ إنّما هو استئناف، وخبر منه أن يفعل ذلك، ولم يرد: أنّي لو شئت لطبع، لأنّه بيّن في هذه الآية وغيرها: أنّه مُطْبِع على قلوب الكافرين، كقوله: ﴿بل طبع الله عليها﴾ يعني: على القلوب ﴿بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً﴾^(١) أي: إلّا قليلاً منهم، لأنّ أهل الطبع قد يؤمن بعضهم، وهو خلاف قول الحسن، فإنّ تأويله عنده: إلّا إيماناً قليلاً.

وقال الزجاج: هو على الاستئناف، لأنّه لو كان محمولاً على ﴿أصبنا﴾ لكان وجه الكلام: ولطبعنا. وهو قول الفراء.

وقوله: ﴿فهم لا يسمعون﴾ أي: لا يقبلون الإيمان مع هدايتنا لهم وتخويفنا إياهم.

وفائدة الآية: الإنكار على الجهال تركهم الاعتبار بمن مضى من الأمم قبلهم، وأنّه قد طبع على قلوب من لا يفلح منهم عيباً وذمّاً لهم. وقال البلخي: شبه الله تعالى الكفر بالصدأ الذي يركب المرأة والسيف، لأنّه يذهب عن القلوب بحلاوة الإيمان ونور الإسلام كما يذهب الصدأ

بنور السيف وصفاء المرأة، ولَمَّا صاروا عند أمر الله لهم بالإيمان إلى الكفر جاز أن يضيف الطبع إلى نفسه، كما قال: ﴿فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾^(١) وإن كانت السورة لم تزدهم ذلك.
قوله تعالى:

تِلْكَ أَلْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ آية .
أقول: أخبر الله تعالى عن أهل القرى التي ذكرها وقصّ خبرها، وأشار بـ ﴿تلك﴾ إليها لأنه خاطب النبي ﷺ.

وقوله: ﴿نقص عليك من أنبائها﴾ يعني: قصص أنباء القرى ما فيه من الاعتبار بما كانوا عليه من الاغترار بطول الإمهال مع إسباغ النعم وتظاهر المنّ حتى توهّموا أنهم على صواب فيما دعاهم إليه الشيطان من قبح الطغيان. والقصص: اتّباع الحديث، ويُقال: فلان يقصّ الأثر أي: يتّبعه، ومنه: ﴿قالت لأخته قصّيه﴾^(٢) أي: اتّبعي أثره، ومنه: «المقصّ» لأنه يتّبع في القطع أثر القطع.

والنبا: هو الخبر إلا أن النبا خبرٌ عن أمرٍ عظيم الشأن، وأخذ منه اسم «نبي» ويُقال: أنبا بكذا بمعنى: أخبر به.

وقوله: ﴿ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات﴾ يعني: أتتهم رسلهم بالآيات والدلالات، وإنّما أضاف «الرسل» إليهم مع أنهم رسل الله، لأن الاختصاص فيها على طريقة الملك، إذ المرسل مالك لرسالته، وقد ملك العباد الانتفاع بها والاهتداء بما فيها من البيان والبرهان.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ قيل [في] معناه قولان: أحدهما: إِنَّهُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١) في قول مجاهد، أي: إِنَّا لَمْ نَهْلِكْهُمْ إِلَّا وَفِي مَعْلُومِنَا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

الثاني: إِنَّ عَتَوَهُمْ فِي كُفْرِهِمْ وَتَمَرُّدِهِمْ فِيهِ يَحْمِلُهُمْ عَلَى أَنْ لَا يَتْرَكُوهُ إِلَى الْإِيمَانِ، فِي قَوْلِ الْحَسَنِ وَالْجُبَّائِيِّ. فَالْآيَةُ عَلَى هَذَا مَخْصُوصَةٌ بِمَنْ عِلْمٌ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ.

وقال الْأَخْفَشُ: ﴿بِمَا كَذَّبُوا﴾ معناه: بِتَكْذِيبِهِمْ، فَجَعَلَ ﴿مَا﴾ مُصَدِّرِيَّةً، وَالْمَعْنَى: لَمْ يَكُونُوا لِيُؤْمِنُوا بِالتَّكْذِيبِ.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وجه التشبيه فيه: أَنَّ دَلَالَتَهُ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ذِمًّا بِأَنَّهُمْ لَا يَفْلَحُونَ كَالطَّبْعِ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ فِي مِثْلِ صِفَتِهِمْ فِي الْمَعْلُومِ. قوله تعالى:

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: معنى قوله: ﴿وما وجدنا﴾ أي: ما أدركنا، لِأَنَّ «الوجدان» و«الإلقاء» و«الإدراك» و«المصادفة» نظائر.

وقوله: ﴿لَأَكْثَرُهُمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ فالعهد: العقد الَّذِي تَقَدَّمَ لِتَوْطِينِ النَّفْسِ عَلَى أَدَاءِ الْحَقِّ، وَإِذَا أُخِذَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْعَهْدُ فَنَقَضَهُ قِيلَ: لَيْسَ عَلَيْهِ عَهْدٌ، أَيْ: كَأَنَّهُ لَمْ يَعْهَدْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ بِمَا جَعَلَهُ فِي عَقُولِهِمْ مِنْ وَجُوبِ شُكْرِ الْمُنْعِمِ، وَالْقِيَامِ بِحَقِّ الْمُنْعِمِ، وَطَاعَةِ الْمَالِكِ الْمُحْسِنِ فِي اجْتِنَابِ الْقَبَائِحِ إِلَى الْمَحَاسِنِ، فَأَلْقَوْا ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عَهْدٌ،

وكأنه قال: وما وجدنا لأكثرهم من طاعةٍ لأنبيائهم، وقيل: العهد: ما عهد إليهم مع الأنبياء أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وهو قول الحسن وأبي عليٍّ. والمعنى في النفي يؤول إلى: أنه لم يكن لأكثرهم عهد فيوجد.

وقوله: ﴿من عهد﴾ قيل في دخول ﴿من﴾ هاهنا قولان:

أحدهما: إنها للتبويض، لأنه إذا لم يوجد بعض العهد فلم يوجد الجميع، لأنه لو وُجد جميعه لكان قد وُجدَ بعضه. الثاني: إنها دخلت على ابتداء الجنس إلى النهاية.

وقوله: ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾ معنى «إن» هي المخففة جاز إلغائها من العمل وإن يليها الفعل، لأنها حينئذٍ قد صارت حرفاً من حروف الابتداء. واللام في قوله: ﴿لفاسقين﴾ لام الابتداء التي تكسر لها «إن» وإنما جاز أن يعمل ما قبلها فيما بعدها لأنها مزحلفة عن موضعها، إذ لها صدر الكلام، ولكن كره الجمع بينها وبين «إن» فأُخِرت.

وقال قوم: المعنى: وما وجدنا أكثرهم إلا فسقة.

فإن قيل: كيف قال: ﴿أكثرهم لفاسقين﴾ وهم كلهم فاسقون؟

قيل: يجوز أن يكون الرجل عدلاً في دينه غير منهمك ولا مرتكب لما يعتقد قبحه وتحريمه، فيكون تأويل الآية: وما وجدنا أكثرهم - مع كفره - إلا فاسقاً في دينه غير لازمٍ لشريعته خائناً للعهد قليل الوفاء، وإن كانا واجبين عليه في دينه.

وفيهما دلالة على أنه يكون في الكفار من يفي بعهده ووعدده، وبعده [بعد، ظ] عن الخُلْف وإن كان كافراً، وكذلك قد يكون منهم المتدين الذي لا يرى أن يأتي ما هو فسق في دينه كالغضب والظلم، فأخبر تعالى أنهم مع كفرهم كانوا لا وفاء لهم ولا تدبّر بمذهبهم، بل كانوا يفعلون ما هو

فسق عندهم، وذلك يدلّ على صحّة قول من يقول: تجوز شهادة أهل الذمّة في بعض المواضع.

قوله تعالى:

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٥٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنّه بعد إرسال من ذكر قصّته من الأنبياء وكفر قومهم، وإنزال عذابه بهم، فالهاء والميم^(١) يجوز أن يكون كناية عن الأنبياء الذين جرى ذكرهم، ويحتمل أن يكون كناية عن الأمم التي - قد تقدّم ذكرهم وإهلاكهم - بعث إليهم موسى وأرسله إليهم.

والبعث: الإرسال، وهو في الأصل: النقل باعتمادٍ يوجب الإسراع إلى الشيء، فمنه: قوله: ﴿انظرنى إلى يوم يُبْعَثُونَ﴾^(٢) أي: من القبور، ومنه: قوله: ﴿ثمّ بعثناكم من بعد موتكم﴾^(٣) أي: نقلناكم إلى حال الحياة، وكذلك نقلنا موسى عن حاله بالإرسال إلى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿بآياتنا﴾ يعني: بحُجَجنا، وبراهيننا.

وقوله: فظلموا بها معناه ظلموا أنفسهم بجحدها لأنّ الظلم بالشيء على وجوه: منها: السبب والآلة والجهة، نحو: ظلم بالسيف الذي قتل به الناس، وظلم بذنبه له، وظلم بغصبه المال، وظلم بجحده الحقّ. وقيل^(٤): ﴿ظلموا بها﴾ أي: جعلوا بدل الإيمان الكفر بها، لأنّ «الظلم» وضع الشيء في غير موضعه الذي هو حقّه.

وقوله: ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ معنى «النظر»: هو محاولة

(١) من قوله: ﴿بعدهم﴾. (٢) الآية: ١٤ المتقدمة. (٣) البقرة: ٥٦.

(٤) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٦٣.

التصوّر للشيء بالفكر فيه، وهو طلب إدراك المعنى بالتأويل له. وقيل: هو تحديق القلب إلى المعنى لإدراكه، وكأنّه قيل: فانظر - يعني: بالقلب - كيف كان عاقبتهم؟ وموضع ﴿كيف﴾ نصب لأنّه خبر ﴿كان﴾ وتقديره: انظر أيّ شيء كان عاقبة المفسدين.

قوله تعالى:

وَقَالَ مُوسَىٰ يٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية لما قال موسى ﷺ لِفِرْعَوْنَ وندائه له: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ مبعوث إليك وإلى قومك، و﴿من﴾ في قوله ﴿من رب العالمين﴾ لا ابتداء الغاية، لأنّ المرسل المبتدئ بالرسالة، وانتهائها المرسل إليه.

و «موسى» على وزن «مُفْعَل» والميم في «موسى» زائدة لكثرة زيادتها أولاً، كالهزمة حتّى صارت أغلب من زيادة الألف أخيراً، و«أفعى» على وزن «أفْعَل» لهذه العلة. و «موسى» [اسم] لا ينصرف لأنّه أعجمي ومعرفة، و «موسى الحديد» عربيّ، إن سمّيت به رجلاً لم تصرفه، لأنّه مؤنث ومعرفة على أكثر من ثلاثة أحرف، كما لو سمّيته بـ «عناق» لم تصرفه، ولو سمّيته فقد صرفته.

و «فِرْعَوْن» على وزن «فِعْلَوْن» ومثله: بِرُذَوْن، فالواو زائدة لأنّها جاءت مع سلامة الأصول الثلاثة، والنون زائدة للزومها، و «فِرْعَوْن» لا ينصرف لأنّه أعجمي ومعرفة، وعُزِّب في حال تعريفه لأنّه نقل من الاسم العلم، ولو عُزِّب في حال تنكيره لانصرف كما ينصرف «ياقوت» اسم رجل.

قوله تعالى:

حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ نافع وحده: ﴿حقيق علي﴾ بتشديد الباء، الباقون بتخفيف الباء. فمن قرأ بالتشديد قال: تقديره: واجب علي أن لا أقول، ومن خفف فعلى تقدير: حريص على أن لا أقول.

قال أبو علي: قوله ﴿حقيق﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن «حق» الذي هو «فعل» قد تعدى بـ «علي» قال الله: ﴿فحق علينا قول ربنا﴾^(١) وقال: ﴿فحق عليها القول﴾^(٢) فـ «حقيق» يصل بـ «علي» من هذا الوجه.

والثاني: أن «حقيق» بمعنى: «واجب» فكما أن «وجب» يتعدى بـ «علي» كذلك يتعدى «حقيق».

ومن لم يشدد أجاز تعديه بـ «علي» من الوجهين اللذين ذكرناهما، وقد قالوا: هو حقيق بكذا، فيجوز على هذا أن تكون «علي» بمعنى الباء فتوضع «علي» موضع الباء، قال أبو الحسن: كما قال: ﴿ولا تقعدوا بكل صراط تُوعدون﴾^(٣) والمعنى «علي». قال أبو علي: والأول أحسنها، لأن أبا الحسن قال: لأن «علي» بمعنى الباء ليس بمقيس، ألا ترى أنك لو قلت: «ذهبت على زيد» تريد «بزيد» لم يجز، وقال: وجاز في الآية لأن القراءة وردت به، وتقدير ﴿حقيق على أن لا أقول﴾: حقيق بأن لا أقول. قال الفراء: العرب تقول: رميت على القوس وبالقوس، وجئت على حال

(٣) الآية: ٨٦ المتقدمة.

(٢) الإسراء: ١٦.

(١) الصافات: ٣١.

حسنة، وبحال حسنة. ومعناها متقارب، لأنّه مستقلّ على القول بالنظر حتّى يؤدّيه على الحقّ فيه، والحقّ أيضاً منعقد بالقول فيه لا ينفكّ. وقوله ﴿إِلَّا الْحَقُّ﴾ نصب: بأنّه مفعول «القول» على غير الحكاية، بل على معنى الترجمة عن المعنى دون حكاية اللفظ.

وقوله: ﴿قد جئتمكم ببينة من ربكم﴾ خطاب من موسى لقومه أنّه قد جاء قومه بدلائل من ربّه عزّ وجلّ. وقوله ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب من موسى لفِرْعَوْنَ، وأمره إياه أن يخلّي بني إسرائيل من اعتقاله، لأنّه كان قد اعتقلهم للاستخدام في الأعمال الشاقة من نحو: ضَرْب اللَّبَن ونَقْل التراب وما أشبه ذلك.

ومعنى الآية: البيان عن وجوب اتباع موسى ﷺ لمكان الأدلّة التي تشهد بصدقه، وبأنّه لا يقول على الله إلّا الحقّ، ولا يدعو إلّا إلى الرشد. قوله تعالى:

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٠٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: هذا حكاية عمّا قال: فِرْعَوْنَ لموسى ﷺ من أنّه: إن كان معك حجة ودلالة تشهد لك على ما تقول ﴿فَأْتِ بِهَا﴾ أي: هاتِ بها ﴿إِنْ كُنْتَ﴾ صادقاً ﴿من الصادقين﴾ على طريق اليأس منه بذلك، وجهله بصحّته وإمكانه.

واختلف النحويّون هاهنا في نقل «إِنْ» الماضي إلى الاستقبال: فقال أبو عبّاس: لم تنقله هنا من أجل قوّة «كان» لأنّها أمّ الأفعال، ولم يجزه من غيرها. وقال ابن السّراج: المعنى: إن تكن جئت بآية أي: إن يصحّ ذلك، لأنّه إذا أمكن أن يجري الحرف على أصله لم يجز إخراجه، وإنّما جاز نقل «إِنْ» الماضي إلى المستقبل للبيان عن قوّتها في النقل، إذ كانت تنقل

الفعل ثقَلَيْن: إلى الشرط والاستقبال، كما أنَّ «لم» تنقله إلى النفي والماضي. وضمير المخاطب في ﴿كُنْتُ﴾ يرجع إلى المكتى، ولا يجوز مثل ذلك في «الذي» لأنَّ «الذي» غائب، فحقه أن يعود إليه ضمير الغائب، وقد أجازوه إذا تقدمت كناية المتكلم، كما في قول الشاعر:

وَأَنَا الَّذِي قَتَلْتُ بَكْرًا بِأَلْقَانَا وَتَرَكْتُ تَغْلِبَ غَيْرَ ذَاتِ سَنَامٍ
فعلى هذا: لا يجوز «أتيت الذي ضربك عمرو» والوجه: ضربه، وإنما جاز وقوع الأمر في جواب الشرط لأنَّ فيه معنى: إن كنت جئت بآيةٍ فإني ألزمك أن تأتي بها، فقد عاد إلى أنَّه يجب الثاني بوجوب الأول، ولا يجوز مثل ذلك في الاستفهام لأنَّه لم يقع معرفة غيره، ولو اتَّسع فيه جاز، مثل أن تقول: إن كان عندك دليل فما هو؟ ولا يجوز: إن قَدِمَ زيد فَأَعْمَرًا أَقْدَمَهُ؟ لأنَّ الألف لها صدر الكلام.

قوله تعالى:

فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنُّظَرِ ﴿١٠٨﴾
آيتان بلا خلاف.

هذا إخبار من الله تعالى عن إلقاء موسى عصاه: والعصا: عُودٌ كالقضيب يابس، وأصله: الامتناع بيبسه، يُقال: عَصَى يعصى إذا امتنع، قال الشاعر:

تَصِفُ السُّيُوفَ وَغَيْرُكُمْ يَعَصِي بِهَا يَابْنَ الْقُيُومِ وَذَاكَ فِعْلُ الصَّيْقَلِ^(١)
وقيل: عصى بالسيف إذا أَخَذَهُ أَخَذَ الْعَصَا، ويُقال لمن استقرَّ بعد تَنَقُّلٍ: أَلْقَى عَصَاهُ، قال الشاعر:

(١) لجرير من قصيدة يهجو الفرزدق. راجع ديوان جرير: ص ٣٢٧.

فَأَلْقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمُسَافِرِ^(١)
و «العصا» من بنات الواو، و «المعصية» من بنات الياء، قال الشاعر:
فَجَاءَتْ بِسَنَسِجِ الْعِنَكَبُوتِ كَأَنَّهُ عَلَى عَصَوَيْهَا سَابِرِيٍّ مُشْبِرِقُ^(٢)
وتقول: عَصَى يَعْصِي فهو عاصٍ، مثل: رمى يَرْمِي، وأصل «أَلْقَى» من
اللقاء الَّذِي هُوَ الْإِتِّصَالُ ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ أي: أزال اتِّصَالَهَا عَمَّا كَانَ، ومنه:
إِلْقَاءُ الْحَدِيثَيْنِ يَعْنِي: اتِّصَالُهُمَا، و «الملاقاة» كالمماسَّة، وزيدت أَلْفُ «أَلْقَى»
لِتَدُلَّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَإِنَّمَا صَارَتْ الْيَاءُ أَلْفًا فِي «أَلْقَى» لِأَنَّهَا فِي مَوْضِعِ
حَرَكَةٍ قَبْلُهَا فَتَحَةٌ، وَلِذَلِكَ رَجَعَتْ إِلَى أَصْلِهَا فِي «أَلْقَيْتَ» وَإِنَّمَا وَجِبَ هَذَا
لِأَنَّهُ بِمَنْزِلَةِ التَّضْعِيفِ فِي مَوْضِعِ يَقْوَى فِيهِ التَّغْيِيرُ مَعَ نَقْلِ الْحَرَكَةِ فِي
حُرُوفِ الْعِلَّةِ.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ ثَعْبَانٌ﴾ فالثعبان: هُوَ الْحَيَّةُ الضَّخْمَةُ الطَّوِيلَةُ. وَقَالَ
الْفَرَّاءُ: الثَّعْبَانُ أَعْظَمُ الْحَيَّاتِ، وَهُوَ الذَّكَرُ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنْ: ثَعَبْتُ الْمَاءَ أَثْعَبُهُ
ثَعْبًا إِذَا فَجَّرْتَهُ، وَالْمَنْعَبُ: مَوْضِعُ انْفِجَارِ الْمَاءِ، فَسَمِّي «الثَّعْبَانُ» لِأَنَّهُ
يَجْرِي كَعَنْقِ الْمَاءِ عِنْدَ الْانْفِجَارِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

عَلَى نَهْجِ كَثُّعْبَانَ الْعَرِينِ^(٣)

وقيل: إِنَّ ذَلِكَ الثَّعْبَانُ فَتَحَ فَاهُ وَجَعَلَ فِيهِ فِرْعَوْنَ بَيْنَ نَائِيهِ، فَارْتَاعَ
فِرْعَوْنَ وَاسْتَعَاثَ بِمُوسَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَفَعَلَ، فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالسُّدِّيِّ
وَسُقْيَانِ.

وَمَعْنَى ﴿مُبِينٌ﴾ أَي: بَيِّنٌ أَنَّهُ حَيَّةٌ لَا لَبْسَ فِيهِ.

(١) أنشده في اللسان: مَادَّةُ «عَصَا» وَنَسَبَهُ ابْنُ بَرِيٍّ لِعَبْدِ رَبِّهِ السَّلْمِيِّ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

(٢) لَدَى الرُّمَّةِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَصِفُ بَعِيرَهُ. رَاجِعْ دِيوانَ ذِي الرُّمَّةِ: ص ١٧٨.

(٣) أنشده في اللسان: مَادَّةُ «عَرْن» وَنَسَبَهُ إِلَى الطَّرْمَاحِ.

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ فالنزع: هو إزالة الشيء عن مكانه الملابس له المتمكن فيه، كنزع الرداء عن الإنسان، و «النزع» و «القلع» و «الجذب» نظائر. و «اليد» معروفة وهي الجارحة المخصوصة، و «اليد»: النعمة لأنها بمنزلة ما اشتدت بالجارحة، وقد يكون «اليد» بمعنى تحقيق الإضافة في الفعل، لأنه بمنزلة ما عمل باليد التي هي جارحة.

وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بِيضٌ لِلنَّازِرِينَ﴾ معنى «إذا» هنا: المفاجأة، وهي بخلاف «إذا» التي للجزاء، قال الزجاج: هي من ظروف المكان مثل: «ثم» و «هناك». والمعنى: بيضاء للناظرين هناك، و «البيضاء» ضد السوداء وهو أن يكون به المحل أبيض، وكان موسى عليه السلام أسمر شديد السمرة، وقيل^(١): أخرج يده من جيبه فإذا هي «بيضاء من غير سوء»^(٢) يعني: برّص. ثم أعادها إلى كُتْمه فعادت إلى لونها الأول، في قول ابن عباس ومجاهد والسدي. وقال أبو علي: كان فيها من النور والشعاع ما لم يشاهد مثله في يد أحد. و «الناظر»: هو الطالب لرؤية الشيء ببصره، لأن النظر هو تطلب الإدراك للمعنى بحاسة من الحواس، أو وجه من الوجوه.

قوله تعالى:

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَذَّاءً تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: هذا حكاية ما قال أشراف قوم فرعون: إن موسى ساحر عليم بالسحر، وإنما قيل للأشراف: «الملا» لأمرين: أحدهما: قال الزجاج: لأنهم مليؤون بما يحتاج إليه منهم. الثاني: لأنه

(١) قاله الزجاج في معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٦٤.

(٢) طه: ٢٢، والنمل: ١٢، والقصص: ٣٢.

يملاً الصدر هيبتهم. ف «الملاء»: جعل الوعاء على كل ما يحتمل ممّا يُلقَى فيه، كامتلاء المِكيال ونحوه، ويُقال: «الْخِلَاءُ وَالْمِلَاءُ» على وجه التقابل. و «قوم فرعون» هم الجماعة الَّذِينَ كانوا يقومون بأمره ومعاونته ونصرته، ولهذا لا يُضاف «القوم» إلى «الله» فلا يقال: يا قوم الله، كما يقال: يا عباد الله.

و «السِّحْرُ»: لُطْفُ الْحِيلَةِ في إظهار أَعْجُوبَةٍ توهم المعجزة. وقال الأزهري: السحر: صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، والساحر إنما يكفر بادّعاء المعجزة، لأنّه لا يمكن مع ذلك علم النبوة. وأصل «السِّحْرِ»: خفاء الأمر، ومنه: «خِيطُ السَّحَّارَةِ» لخفاء الأمر فيها، ومنه: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾^(١) أي: الَّذِينَ يعدّون لخفاء الأمر في العَدُوِّ، والسَّحَر: العَدُوِّ، والسَّحَر: آخر الليل لخفاء الشخص بقيّة ظلمته، والسَّحُور: طعام السَّحَر، والسَّحَر: الرِّثَّة وما تعلق بها لخفاء أمرها في انتفاخها تارةً وضمورها أخرى، قال ذو الرُّمَّة:

وساحِرَةَ الشَّرَابِ مِنَ الْمَوَامِي يَرْقُصُ في نواشِرِها الأُرُومِ^(٢)
ويقال: سَحَرَ الْأَرْضَ الْمَطَرُ إذا جادَها ففقطِع نباتَها من أصوله بِقَلْبِ
الْأَرْضِ ظَهَرَ الْبَطْنِ، سَحَرَهَا سَحَرًا وَالْأَرْضُ مُسْحُورَةٌ، فسبّه سحر الساحر
بذلك بتخييله إلى مَنْ سَحَرَهُ أَنَّهُ يرى الشيء بخلاف ما هو به.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَخْرُجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ بإزالة مُلْكِكُمْ بتقوية أعدائه عليكم، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَرْضَكُمْ﴾ فالأرض: المستقرّ الَّذي يمكن الحيوان التصرّف فيه عليه. وجملة «الأرض» الَّتِي جعلها الله

(١) الشعراء: ١٥٣ و ١٨٥.

(٢) من قصيدة يصف قطعاً من الأطباء الوحشي. راجع ديوان ذي الرُّمَّة: ص ٢٣٨.

قراراً للعباد، فإذا أضيفت فقيـل: أرض بني فلان، فمعناه: مستقرهم خاصّةً.
وقوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ موضع ﴿ما﴾ يحتمل أن يكون رفعاً، ويكون
المعنى: فما الذي تأمرون؟ ويجوز أن يكون نصباً بمعنى: فبأي شيء تأمرون؟
ويجعل «ما» مع «ذا» بمنزلة اسم واحد، وفي الجواب يتبيّن الإعراب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فماذا تأمرون﴾ من كلام الملأ، بتقدير: أن
يكون قال بعضهم لبعض: ماذا تأمرون؟ ويحتمل أن يكون قالوا ذلك
لفزعون على خطاب الملوك، ويحتمل أن يكون من كلام فزعون
والتقدير: قال فزعون: فماذا تأمرون؟ خطاباً لقومه، فعلى هذا تقول: قلت
لجاريـتك: «قومي، أنا قائـمة» وتقديره: قالت: أنا قائـمة، وهو قول الفراء
وأبي عليّ الجبائي، وأنشد الفراء قول عنترة، وزعم أن فيه معنى الحكاية:
الشاتمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لقيتهما دمي^(١)
لأن المعنى: قالوا: إذا لقينا عنترة لقتلناه.

قوله تعالى:

قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ
عَلِيمٍ ﴿١٢﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً: ﴿سَحَّارٍ﴾ بتشديد الحاء وألف
بعدها، الباقون: ﴿سَاحِرٍ﴾ بألف قبل الحاء على وزن «فَاعِلٍ». وقرأ عاصم
إلّا يحيى وحمزة ﴿أَرْجِهْ﴾ بسكون الهاء من غير همزة، وقرأ أهل البصرة
والداجوني عن هشام ويحيى بالهمزة وضَمَّ الهاء من غير إشباع، وقرأ ابن
كثير والحلواني عن هشام كذلك إلّا أنّهما وصَلَا الهاء بواوٍ في اللفظ،

(١) من معلقته المشهورة. راجع ديوان عنترة: ص ٦٩.

ذَكُوانَ بالهمز وكسر الهاء من غير إشباع، وقرأ أبو جعفر من طريق ابن العلاف وقالون والمُسَيَّبِي بكسر الهاء من غير إشباع وبغير همز، الباكون وهم الكسائي وخَلَفَ وإسماعيل ووَزَّش وأبو جعفر من طريق التَّهْرَوَانِي بكسر الهاء ووَضَلْها بياءٍ في اللفظ من غير همز، وكذلك اختلافهم في الشراء^(١). والهمزة لغة قَيْس وغيرهم، وتَزَكِ الهمزة لغة تميم وأسد يقولون: أَرْجَيْتُ الأمر.

وقال أبو زيد: أَرْجَأْتُ الأمر إرجاءً إذا أَخَرْتَهُ، وقوله تعالى: ﴿أَرْجِنَهُ﴾: «أفعله» من هذا.

ولابدَّ من ضمِّ الهاء مع الهمزة، لا يجوز غيره، وألَّا يبلغ الواو أحسن، لأنَّ الهاء خفيفة، فلو بلغ بها الواو لكان كأنَّه قد جمع بين ساكتين، ألا ترى أنَّ مَنْ قال: «رُدُّ يا فتى» بضمِّ الدال إذا وصل بالهاء في ضمير المؤنَّث قال «رُدُّها» ففتح، كما تقول: «رَدَّ» لخفاء الهاء، وكذلك «أَرْجِه» لا ينبغي أن يبلغ بها الواو فيصير كأنَّه جمع بين ساكتين، ومَنْ أَلْحَقَ الواو فلانَّ الهاء محرَّكة ولم يلتقِ ساكنان لأنَّ الهاء فاصل، قال: «أَرْجِيه» كما يقال: «اضربوه» فلو كان الياء حرف لين لكان وَضَلْها بالواو أقبح، نحو: «عليه» لاجتماع حروف متقاربة، مع أنَّ الهاء ليست بحاجز قويٍّ في الفصل، واجتماع المقاربة كاجتماع الأمثال.

قال أبو عليِّ الفارسي: مَنْ وصل الهاء بـ «ياء» فلانَّ هذه الهاء توصل في الإدراج بواو أو ياءٍ، نحو: «يَهي» أو «يَهُو» و«ضَرَبَهُو» ولا تقول في الوصل: «به» ولا «به» ولا «ضربه» حتَّى تشيع، فتقول: «بَهُو فاعْلِم» و«بَهي داء» و«بَهُو داء»^(٢) إلَّا في ضرورة الشعر، كقوله:

وما لَهُ من مجلد يلبّد

وقال: ومَنْ كسر الهاء مع الهمز فقد غلط، وإنّما يجوز إذا كان قبله ياء فقال: «أرجيه» بكسر الهاء، ولم يستقم لأنّ هذه الياء في تقدير الهمزة، فكما لم يدغم الواو إذا خففت الهمزة لأنّ الواو في تقدير الهمزة، كذلك لا يحسن تحريك الهاء بالضمّ مع الياء المتقلبة عن الهمزة، وقياس مَنْ قال: «رُوباً» فأدغم: أن يحرك الياء أيضاً بالضمّ، وعلى هذا المسلك مَنْ قال: «إيتيهم» إذا كسر الهاء مع قلب الهمزة ياء، قال: ومعنى ﴿أَرْجِهْ﴾: أخره، وقال قتادة: معناه: إخبسه، يقال: أُرْجأت الأمر إرجاءً، ومنه: قولهم: المرُجّته، وهم الذين يجيزون الغُفْران لمرتكبي الكبائر من غير توبة.

قال الرّماني: لا وجه لقراءة حمزة عند البصريّين في القياس، ولا الاستعمال على لغة من همز، وقال الزّجاج: إسكان هاء الضمير لا يجوز عند حُذّاق النحويّين، وأجاز الفراء ذلك، قال: يقولون: هذه طلّحة أقبلت، وأنشد قول الراجز:

أُنحى عَلَيَّ الدّهْرُ رجلاً وَيَدَا يُقْسِمُ لَا يُضْلِحُ إِلَّا أَفْسَدَا
فَيُضْلِحُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهُ عَدَا^(١)

وزعم: أن إسكان هاء التّأنيث جائز، وأنشد:
لَمَّا رَأَى أَن لَّا دَعَا وَلَا شَبَعَ مَالٌ إِلَى أَرْطَاةٍ حِفْيفٍ فَاضْطَجَعَ^(٢)
وقال الآخر:

لَسْتُ إِذَا لَزَعْتَهُ إِنْ لَمْ أُغَيِّ رُ بِكَلَّتِي إِنْ لَمْ أُسَاوْ بِالطُّوْلِ^(٣)

(١) لدؤيد بن زيد القضاعي، أحد المعمرين. راجع فحول الشعراء: ص ١٨٠.

(٢) لمنظور بن حيّة الأسدي يصف ذنباً طارداً طيبة فلم يلحقها. راجع الخصائص لابن جني:

(٣) نسبة الفراء في المعاني: ج ١ ص ٣٨٨ إلى القناني.

بِكَلَّتِي معناه: طريقتي، و «الطُول» جمع امرأة طُولِي، قال الزَّجَّاج: هذا الشعر الَّذِي أَنشده الفَرَّاء لا يُعْرَف، ولا وجه له. وإِنَّمَا لم يُلَيِّن أبو عمرو الهمزة الساكنة على أصله في تخفيف الهمزة، لأنَّ سكونه علامةٌ للجزم فلا يترك همزه، لأنَّ التسكين عارض، وكذلك ﴿مُؤَصَّدَةٌ﴾^(١) لا يترك همزه، لأنَّه يخرج من لغة إلى لغة.

و «الأخ» هو من النسب بولادة الأدنى من أبٍ أو أُمٍّ أو منهما، ويُقال: الأخ الشقيق، ويُسمَّى الصديق: «الأخ» تشبيهاً بالنسب، فأما الموافق في الدين فإنَّه أخ بحكم الله في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٢).

ومعنى الآية: أن قوم فرعون أشاروا عليه بأن يؤخّر موسى وأخاه إلى أن يرسل في بلاد مملكته حاشرين، وقال ابن عباس: هم الشُّرَط، وقال مجاهد والسُّدِّي: يحشرون مَنْ يعلمونه من السَّحَرَةِ والعالمين بالسحر ليقابل بينهم وبين موسى، جهلاً منهم بأنَّ ذلك ليس بسحر. ومثله في عِظَم الإعجاز لا تتم فيه الحيلة، لأنَّ السحر هو كلُّ أمر يتموه على مَنْ يراه، ولا حقيقة له، وإنَّما يشتهبه ذلك على الجُهَّال والأغبياء دون العقلاء المحصلين.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾: ﴿يَأْتُوكَ﴾ جزم، لأنَّه جواب الأمر، والمعنى: إن ترسل يأتوك، وحجّة مَنْ قال: ﴿ساحرٍ﴾ قوله: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾^(٣) و «الفاعل» من «السِّحَر»: ساحر، ويُقوِّيه قوله: ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾^(٤) و «السَّحَرَةُ»: جمع ساحر، ولأنَّه قال: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾^(٥) واسم الفاعل: ساحر، ومَنْ قرأ ﴿سَحَّارٍ﴾ فلاَنَّه وصف بـ﴿عليمٍ﴾ ووصفه به يدلُّ على تناهيه فيه وحذقه، فَحَسُنَ لذلك أن

(٣) يونس: ٨١.

(٢) الحُجُرَات: ١٠.

(١) الهمزة: ٨.

(٥) الأعراف: ١١٥.

(٤) الشعراء: ٤٦.

يذكر بالاسم الدالّ على المبالغة.

و «الإيتان»: هو الانتقال إلى مطلوب، ومثله: المجيء، أتى يأتي إيتاناً، وأتى يُؤتي إيتاءً إذا أعطى. وإنما دخلت ﴿كلّ﴾ وهي للعموم على واحدٍ، لأنّه في معنى الجمع: كأنّه قال: بكلّ السحرة إذا أفردوا ساحراً ساحراً، والفرق بينه وبين «كلّ السحرة»: أنّه إذا قيل: بكلّ السحرة، فالمعنى المطلوب: للجميع، وإذا قيل: بكلّ ساحر، فالمعنى المطلوب: لكلّ واحدٍ منهم، ويبيّن ذلك قول القائل: لكلّ ساحر درهم، ولكلّ السحرة درهم، فإنّ الأوّل يفيد: أنّ لكلّ واحدٍ درهماً، والثاني: أنّ الجميع لهم درهم.

والباء في قوله: ﴿بكلّ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: إنّهُ للتعدية كما يعدّى بالالف، ومنه: ذهبت به وأذهبته، وأتيت به وأتيته. الثاني: إنّهُ بمعنى «مع» أي: يأتون ومعهم كلّ ساحر عليهم. قوله تعالى:

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفْرَبِينَ ﴿١١٣﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الحجاز وحفص: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ بهمزة واحدة على الخبر، وقرأ بهمزتين مخففتين: ابنُ عامر وأهل الكوفة إلا حفصاً وروح، إلا أنّ الحلواني عن هشام يفصل بينهما بالالف، وأبو عمرو ورويس لا يفصل. قال أبو علي: الاستفهام في هذا الموضع أشبه، لأنّهم يستفهمون عن الأجر، وليس يقطعون أنّ لهم الأجر، ويُقوّي [ذلك] إجماعهم في الشعراء^(١) وربّما حُرِفَتْ همزة الاستفهام، قال الحسن: [قوله تعالى:]

﴿وتلك نعمة تمنُّها عليَّ أن عبَّدتُ بني إسرائيل﴾^(١) إنَّ من الناس مَنْ يذهب إلى أنَّه على الاستفهام. وقد جاء ذلك في الشعر:

أَفْرَحُ أَنْ أُرْزَأَ الْكِرَامَ وَأَنْ أُورَثَ دَاوُدًا شَصَائِصًا نَبِلًا^(٢)
وهذا أقبح من قوله:

وَأَصْبَحْتُ فِيهِمْ آمِنًا لَا كَمَعَشَرٍ أَتُونِي فَقَالُوا: مِنْ رَبِيعَةٍ أَمْ مُضَرٍّ^(٣)
لأنَّ «أم» تدلُّ على الهمزة.

وفي الكلام حذف، لأنَّ التقدير: فأرسل فِرْعَوْنَ في المدائن حاشرين يحشرون السَّحَرَةَ، فَحَشَرُوهُمْ، فجاء ﴿السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا: إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ أي: إنَّ لنا ثواباً على غلبتنا موسى عندك ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ﴾ يا فرعون ﴿الغالبين﴾ وهو قول ابن عَبَّاس والسُّدِّي.

وتقول: جئته وجئت إليه، فإذا قلت: «جئت إليه» ففيه معنى الغاية لدخول «إلى» فيه، و «جئته» معناه: قصدته بمجيئي، وإذا لم يُعَدَّه لم يكن فيه دلالة على القصد، كما تقول: جاء المطر.

وقوله: ﴿وجاء السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا﴾ إنَّما لم يقل: «فقالوا» حتَّى يتَّصل الثاني بالأوَّل، لأنَّ معناه: لما جاءوا قالوا، فلم يصلح دخول الفاء على هذا الوجه، وإنَّما قالوا: أَتَيْنَ لَنَا لَأَجْرًا، ولم يقولوا: لنا أجر، لأنَّ أحدهما سؤال عن تحقيق الأجر وتأكيده، كما لو قال: أبا لله لنا أجر؟ وليس كذلك الوجه الآخر.

(١) الشعراء: ٢٢.

(٢) أنشده في اللسان: مادَّة «نبل» ونسبه ابن بري إلى حَضْرَمِيِّ بني عامر.

(٣) لعمران بن حطَّان الخارجي يمدح قومًا من الأزد نزل فيهم. راجع الكامل للمبرِّد: ج ٣

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّا نَحْنُ﴾: موضع ﴿نحن﴾ يحتمل وجهين:
أحدهما: أن يكون رفعاً، ويكون تأكيداً للضمير المتصل في ﴿كُنَّا﴾.
والثاني: لا موضع له، لأنه فصل بين الخبر والاسم.

و «الأجر»: الجزاء بالخير، و «الجزاء» قد يكون بالشرّ بحسب العمل
وبحسب ما يقتضيه العدل. و «الغلبة»: إبطال المقاومة بالقوة. ومن هذا قيل
في صفة الله عزّ وجلّ: القاهر الغالب، لأنه القادر الذي لا يعجزه شيء.

وقوله: ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ حكاية عن قول فِرْعَوْنَ مجيباً لهم عمّا سألوه من
أَنّ لهم أجراً أو لا؟ بَأَن [قال:] نعم لكم الأجر، و ﴿نَعَمْ﴾ حرف جواب مع
أنّه يجوز الوقف عليها، لأنّها في الوجود نظيرة «لا» في النفي، وإنّما
جاز الوقف عليها، لأنّها جوابٌ لكلامٍ يُستغنى بدلالته عمّا يتصل بها.

وقوله: ﴿قَالَ﴾ أصله: «قَوْلٌ» فانقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما
قبلها، وإنّما قلبوها مع خفة الفتحة لتجري على «قلت وتقول» في الإعلال
مع أن الألف الساكنة أخفّ من الواو المتحركة وإن كانت بالفتحة.

والواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ واو العطف، كأنّه قال: نعم لكم ذاك
وإنكم لمن المقرّين، وهو في مخرج الكلام، كأنّه معطوف على الحرف.
وكُسِرَت ألف ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ لأنّها في موضع استئناف بالوعد، ولم تكسر
لدخول اللام في الخبر، لأنه لو لم يكن اللام لكانت مكسورة، ومثل هذا
قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾^(١)
ومعنى ﴿من المقرّين﴾: أنكم من المقرّين إلى مراتب الجلالة التي يكون
فيها الخاصّة، ولا يتخطى فيها العامّة.

وفي الآية دليل لقوم فِرْعَوْنَ على حاجته وذُلَّته لو استدَلُّوا وأحسنوا النظر لنفوسهم، لأنَّه لم يحتج إلى السَّحَرَةِ إلَّا لذَلَّةٍ وعجزة. وكذلك في طلب السَّحَرَةِ الأجر دليل على عجزهم عمَّا كانوا يدَّعون من القدرة على قلب الأعيان، لأنَّهم لو كانوا قادرين على ذلك لاستغنوا عن طلب الأجر من فرعون، ولقلبوا الصخر ذهباً، ولقلبوا فِرْعَوْنَ كلباً واستولوا على ملكه. قال ابن إسحاق: وكان السَّحَرَةُ خمسة عشر ألفاً. وقال ابن المنكدر^(١): كانوا ثمانين ألفاً، وقال كعب الأحبار: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال عِكْرِمَةُ: كانوا سبعين ألفاً. ذكره الطبري^(٢).

قوله تعالى:

قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ آيتان بلا خلاف. أقول: هذا حكاية قول السَّحَرَةِ: أَنَّهُمْ قالوا لموسى: اختر أحد شيئين: إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ أَنْتَ عصاك أو نحن نُلقِي عصيتنا، وإمَّا دخلت ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ﴾ ولم تدخل في ﴿إِمَّا يَعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) لأنَّ فيه معنى الأمر، كأنَّهم قالوا: اختر إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ أي: إِمَّا إلقاءك وإمَّا إلقاءنا، ومثله: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾^(٤) فموضع ﴿أَنْ﴾ نصب، ويجوز أيضاً أَنْ يكون التقدير: إِمَّا إلقاءك مبدوء به وإمَّا إلقاءنا، ويجوز أَنْ تقول: يا زيد إِمَّا أَنْ تقوم أو تقعد، ولا يجوز أَنْ تقول: يا زيد إِنْ تقوم أو تقعد، لأنَّ «إِمَّا» يبتدأ بالمعنى فيها، أي: بمعنى التخيير،

(١) في الطبري: «ابن المنذر».

(٢) في تفسيره: ج ٩ ص ١٣.

(٤) الكهف: ٨٦.

(٣) التوبة: ١٠٦.

فلذاك تدلّ على معنى «اختر» وليس كذا «أو» وقد يقع موقع «إمّا» وليس بجيد، كما قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُنَّ إِمَشِينَ إِمَّا نَلَاقِهَ كَمَا قَالَ أَوْ تَشْفَى النُّفُوسُ فَنَعْذِرَا^(١)
وقال ذو الرُّمّة^(٢):

فكيف بنفسٍ كُلَّمَا قُلْتُ أَشْرَفْتُ

على البُزءِ من حَوْصاءِ هِيضٍ اندمأها

نُهاضٌ بدارٍ قد تَقَادَمَ عَهْدُهَا

وَإِمَّا بِأَمْوَاتٍ أَلَمَ خَيَالُهَا

موضع «إمّا» موضع «أو». و «الإلقاء»: إرسال المعتمد إلى جهة السفلى، ومثله: الطرح، وضده: الإمساك، وقول القائل: «أَلْقِ عَلَيَّ مَسْأَلَةً» إلى هذا يرجع، وإِنَّمَا قال: ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمَلْقِينَ﴾ ولم يقل: «وَإِمَّا أَنْ نُلْقَى» لَأَنَّهُ ليس المعنى على: ليكن إلقاء أحدنا فقط، فيجيء على التقابل، وإِنَّمَا هو على: أَنْ يَلْقَى أَحَدُنَا فَيُطْلَ مَا أَتَى بِهِ الْآخَرُ.

وقوله تعالى: ﴿الْقُوا﴾ حكاية عن قول موسى ﷺ لِلْسَّحَرَةِ: ﴿الْقُوا﴾ أَنْتُمْ ﴿فَلَمَّا الْقُوا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ قال البلخي: معناه غَشُّوا أَعْيُنَ النَّاسِ، وقال: السِّحْرُ هُوَ الْخِفَةُ وَالْإِفْرَاطُ فِيهَا حَتَّى تُخَيَّلَ بِهَا الْأَشْيَاءُ عَنْ [غير، ظ] الْحَقِيقَةِ، وَالْإِحْتِيَالُ بِمَا يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ كَتَغْيِيرِهِمْ «الطَّرِجَهَالَةَ»^(٣) وَالْحِيلَةُ فِيهَا: أَنْ يَجْعَلَ «الطَّرِجَهَالَةَ» طَاقَيْنِ يُرَقَّقُ بِغَايَةِ

(١) أنشده الفراء في المعاني: ج ١ ص ٣٩٠ ولم ينسبه لأحد.

(٢) كذا في النسخ، والصحيح إِنَّ الْبَيْتَيْنِ لِلْفَرَزْدَقِ مِنْ قَصِيدَتِهِ الَّتِي يَهْجُو بِهَا الْحَجَّاجَ وَيَتَشَبَّثُ بِمَدْحِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ١٨٩.

(٣) «الطَّرِجَهَالَةَ»: ضرب من الأواني معروف آنذاك، وربما قالوا: طَرِجَهَالَةٌ. لسان العرب: مادة «طرجهل».

الترقيق، وَيُجْعَلُ بَيْنَ الطَّبَقَتَيْنِ زَبِيبٌ، فَإِذَا وُضِعَتْ فِي الشَّمْسِ حُمَيَّ الزَّبِيبِ فَسَارَ بِالطَّرِجِهَالَةِ، لَأَنَّ مِنْ طَبْعِ الزَّبِيبِ إِذَا حُمِيَ أَنْ يَتَحَرَّكَ وَيَفَارِقَ مَكَانَهُ. وقال قوم: معناه: خيلوا إلى أَعْيُنِ النَّاسِ بِمَا فَعَلُوهُ مِنَ التَّخْيِيلِ وَالْخَذَعِ أَنَّهَا تَسْعَى، كما قال تعالى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾^(١) وقال الرُّمَّانِي: معنى «سِحْرِ الْأَعْيُنِ»: قَلْبُهَا عَنْ صَحَّةِ إدْرَاكِهَا بِمَا يَتَخَيَّلُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُمَوَّهَةِ لَهَا بِلُطْفِ الْحِيلَةِ الَّتِي تَجْرِي مَجْرَى الْخِفَّةِ وَالشَّعْبَةِ مِمَّا لَا يَرْجِعُ إِلَى حَقِيقَتِهِ، وَالْمُخْدَثِ لِهَذَا التَّخْيِيلِ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى عِنْدَمَا أَظْهَرُوا مِنْ تِلْكَ الْمَخَارِقِ، وَإِنَّمَا نَسَبَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ لَوْ [عَرَضُوا بِمَا زَطَّ] لَمْ يَعْمَلُوهُ لَمْ يَقَعْ، كَمَا لَوْ جَعَلَ [أَحَدٌ] طِفْلاً تَحْتَ الْبَرْدِ [فَمَاتَ] فَهُوَ الْقَاتِلُ لَهُ فِي الْحُكْمِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَمَاتَهُ.

وَإِنَّمَا جَازَ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِالْقِيَاءِ السَّحَرِ وَهُوَ كُفْرٌ لِأَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: إِنْ كُنْتُمْ مُحَقِّقِينَ فَالْقُورَاءُ. الثَّانِي: أَلْقُوا عَلَى مَا يَصَحُّ وَيَجُوزُ، لَا عَلَى مَا يَفْسُدُ وَيَسْتَحِيلُ.

وَقَالَ الْجُبَّائِي: هَذَا عَلَى وَجْهِ الزَّجْرِ لَهُمُ وَالتَّهْدِيدِ، وَلَيْسَ بِأَمْرٍ. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ الْفَرْقُ بَيْنَ «لَمَّا» وَ«إِذَا» هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ «لَوْ» وَ«إِنْ» فِي أَنْ أَحَدَهُمَا لِلْمَاضِي وَالْآخِرُ لِلْمُسْتَقْبَلِ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ تَعْلِيْقٌ أَوَّلٍ بِثَانٍ، إِلَّا أَنَّ «لَوْ» عَلَى طَرِيقَةِ الشَّكِّ، وَ«لَمَّا» يَقِينٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ مَعْنَاهُ: طَلَبُوا مِنْهُمْ الرَّهْبَةَ، وَهُوَ خِلَافُ الْإِرْهَابِ، لِأَنَّهُ جَعَلَ الرَّهْبَةَ لِلَّذِي يَرْهَبُ وَ«الْعَظِيمِ»: مَا يَمْلَأُ الصَّدْرَ بِهَوَؤِهِ. وَوَصَفَ السَّحَرَ بِأَنَّهُ عَظِيمٌ لِبُعْدِ مَرَامِ الْحِيلَةِ فِيهِ، وَشِدَّةِ التَّمْوِيهِ بِهِ، فَهُوَ

لذلك عظيم الشأن عند من يراه من الناس، ولأنه على ما ذكرناه من الخلاف في عدّة السحرة من سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً كان مع كلّ واحد حبل أو عصا، فلما ألقوها وحُيِّل إلى الناس أنها تسعى استعظموا ذلك وخافوه، فلذلك وصفه الله بأنه سحر عظيم.

و «إمّا» إذا كانت للتخيير فأهل الحجاز ومن جاورهم من قيس وبعض تميم يكسرونها، وينصبها قيس وأسد، و «أمّا» إذا كانت منصوبة فهي التي يقتضي أن يكون في جوابها الفاء.

قوله تعالى:

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ حفص عن عاصم: ﴿تَلْقَفُ﴾ خفيفة، الباقون بتشديد القاف، وابن كثير: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ بتشديد التاء والقاف في رواية البرقي عنه إلا النقاش وابن فليح.

[و] «الوحي»: هو إلقاء المعنى إلى النفس من جهة تخفى، ولذلك لم يشعر به إلا موسى عليه السلام حتى امتثل ما أُمِرَ به فإذا العصا حيّة تسعى.

وفي هذه الآية: إخبار من الله تعالى أنه أوحى إلى موسى عليه السلام ألقى السحرة سحرهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم: ﴿أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ ف ﴿أَنْ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن تكون مع ما بعدها من الفعل بمنزلة المصدر، وتقديره: أوحينا إلى موسى بالإلقاء. والثاني: أن تكون ﴿أَنْ﴾ بمعنى «أي» لأنه تفسير ما أوحى إليه.

﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ معنى ﴿تَلْقَفُ﴾: تبتلع تناولاً بفيها

بسرعةٍ منها، فهي تلثمته استراطاً حالاً فحالاً، قال الشاعر:

أَنْتَ عَصَا مُوسَى الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُهُ السَّاحِرُ^(١)

يقال: لَقِفْتُهُ أَلْقَفُهُ لَقْفًا وَلَقَفَانًا، وَلَقَفْتُهُ أَلْقَفَهُ وَتَلَقَفْتُهُ تَلَقُّفًا: إذا أخذته في الهواء، وَمَنْ قرأ بتشديد التاء قال: أصله «تَلَقَّفُ» فأدغم إحدى التاءين في الأخرى بعد أن سكَّن الثانية، ومن خَفَّفَ القاف أخذه من: «لَقَفْتُهُ» وَمَنْ شَدَّدها قال: هو من: «تَلَقَّفُ».

وقوله: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ فالإفك: هو قلب الشيء عن وجهه، ومنه: ﴿المُؤْتَفِكَاتِ﴾^(٢): المنقليات، و «الإفك»: الكذب لأنَّه قلب المعنى عن جهة الصواب، وقال مجاهد: ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يكذبون.

وفي الآية حذف، وتقديره: فألقى عصاه فصارت حيةً فإذا هي تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ، والمعنى: إنها تلقف المأفوك الذي حلَّ فيه الإفك، وعلى هذا يُحْمَلُ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٣) ومعناه: وما تعملون فيه. وقوله: ﴿فَوْقَ الْحَقِّ﴾ معناه: ظهر الحقّ، في قول الحسن ومجاهد. وأصل «الوقوع»: السقوط، كسقوط الحائط والطائر، تقول: وَقَعَ يَقَعُ وَقْعًا وَوَقُوعًا، وَأَوْقَعَهُ إِبْقَاعًا، وَوَقَّعَ تَوْقِيعًا، وَتَوَقَّعَ تَوْقُّعًا، وواقعهُ مُوَاقَعَةً، وَالمِيقَةُ: المِطْرَقَةُ، والواقعة: النازلة من السماء، والوقائع: الحروب، قال الرُّمَّاني: «الوقوع»: ظهور الشيء بوجوده نازلًا إلى مستقرّه.

و «الحقّ»: كون الشيء في موضعه الذي اقتضته الحكمة، والحقّ موافق لداعي الحكمة، ولذلك يقال: وَقَعَ الشيء في حَقِّهِ، و «الباطل»: الكائن بحيث يؤدي إلى الهلاك، وهو نقيض «الحقّ» فالحقّ: كون الشيء

(١) أنشد الرجاج في المعاني: ج ٢ ص ٣٦٦ ولم ينسبه لأحد.

(٣) الصافات: ٩٦.

(٢) التوبة: ٧٠، والهاقة: ٩.

بحيث يؤدّي إلى النجاة. و «العمل»: تصيير الشيء على خلاف ما كان إما بإيجاده أو بإيجاد معنى فيه، ومثله: التغيير.

و «ما» في قوله: «ما كانوا يعملون» يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون بمعنى المصدر، والتقدير: وبطل عملهم. والثاني: أن يكون بمعنى: «الذي» وتقديره: وبطل الحبال والعصي التي عملوا بها السحر. و «ما» إذا كانت بمعنى المصدر لا تعمل عمل «أن» إذا كانت بمعنى المصدر، لأمرين:

أحدهما: أن «ما» اسم، والاسم لا يعمل في الفعل. والآخر: أن تنقل الفعل نقلين: إلى المصدر والاستقبال، تقول: يعجبني ما تصنع، ويعجبني أن تصنع الخير.

قوله تعالى:

فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا ءِإِنَّمَا رَبُّرَبِّ أَلْعَلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ أربع آيات بلا خلاف. أقول: أخبر الله تعالى أنه لما ألقى موسى عصاه وصارت حية، وتلقفت ما أفكت السحرة: أن السحرة غلبوا «هنالك» وانقلبوا صاغرين «والغلبة: الظفر بالبغيّة من العدو، في حال المنازعة تقول: غلب يغلب غلبةً، فهو غالبٌ وذاك مغلوب، أي: مقهور، وغالبه مُغالبٌ وتغالبًا تغالبًا وغلب تغليباً».

ومعنى «هنالك» أي: عند ذلك الجمع، فهو ظرف مبهم، كما أن «ذا» مبهم وفيه معنى الإشارة، وقيل: «هنا وهنالك وهناك» مثل: «ذا وذاك وذلك». وإنما دخلت اللام في «هنالك» لتدلّ على بُعد المكان المشار إليه، كما دخلت في «ذلك» لبُعد المشار إليه، ف «هنا» لما بُعد قليلاً، و «هنالك»

لِمَا كَانَ أَشَدَّ بُعْدًا. وَإِنَّمَا دَخَلَ كَافُ الْمَخَاطَبَةِ مَعَ بُعْدِ الْإِشَارَةِ لِيُشْعَرَ بِتَأْكِيدِ
مَعْنَى الْإِشَارَةِ إِلَى الْمَخَاطَبِ لِيَتَنَبَّهَ عَلَى بُعْدِ الْمَشَارِ إِلَى الْمَكَانِ، وَبِالْبُعْدِ
أَحَقُّ بِعَلَامَةِ التَّنْبِيهِ مِنَ الْقَرِيبِ.

وقوله: ﴿وَاقْبَلُوا صَاغِرِينَ﴾ أي: رجعوا أذلاءً، والصاغر: الذليل،
وَالصُّغُرُ وَالصَّغَارُ: الذَّلَّةُ، يُقَالُ: صَغِرَ الرَّجُلُ يَصْغُرُ صَغَرًا وَصَغَارًا إِذَا ذَلَّ،
وَأَصْلُهُ: صَغُرَ الْقَدْرُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ إِنَّمَا جَاءَ عَلَى مَا لَمْ يَسْمَعْ
فَاعِلُهُ لِأَمْرَيْنِ:

أحدهما: أَنَّهُ بِمَعْنَى: أَلْقَاهُمْ مَا رَأَوْا مِنْ عَظِيمِ آيَاتِ اللَّهِ بِأَن دَعَاهُمْ إِلَى
السُّجُودِ لِلَّهِ وَالْخُضُوعِ لَهُ.

الثاني: أَنَّهُمْ لَمْ يَتِمَّا لَكُؤًا أَنْ وَقَعُوا سَاجِدِينَ، فَكَأَنَّ مُلْقِيَّ أَلْقَاهُمْ، وَلَمْ
يَكُنْ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ الْإِضْطِرَارِ إِلَى الْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا مَدَّحُوا
عَلَيْهِ بَلْ عَلِمُوا ذَلِكَ بِدَلِيلٍ، وَهُوَ عَجْزُهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَعَ تَأْتِي سَائِرِ أَنْوَاعِ
السَّحَرِ مِنْهُمْ.

والإلقاء: إطلاق الشيء إلى جهة السفلى، ونقيضه: الإمساك، ومثله:
الإسقاط والطرح.

ومعنى الآية: البيان عن حال مَنْ تَيَقَّنَ الْبِرْهَانَ، فَظَهَرَ مِنْهُ الْإِذْعَانُ
لِلْحَقِّ وَالْخُضُوعَ بِالسُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَلَمْ يَكُنْ مِمَّنْ تَعَامَى عَنِ الصَّوَابِ
وَتَعَاشَى عَنْ طَرِيقِ الرِّشَادِ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حِكَايَةٌ لِمَا قَالَتْ السَّحَرَةُ
عِنْدَ تَنْبِيهِهِمْ [تَبَيُّهُمُ، ظ] الْحَقِّ، وَوُقُوعِهِمْ لِلْسُّجُودِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَاعْتِرَافِهِمْ
بِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا،

وخلق موسى وهارون، و «القول»: كلام يدل على الحكاية، ولو قيل: «تكلّموا» لم يقتض حكاية كلامهم على صورته، فإذا قيل: «قالوا» اقتضى حكاية كلامهم. و «الإيمان»: هو التصديق الذي يؤمن من العقاب، وهو التصديق بما أوجب الله عليهم.

وقال الرّماني: يجوز أن يقال لله إنه لم يزل ربّاً ولا مربوب، كما جاز: لم يزل سميعاً ولا مسموع، لأنّه صفة غير جارية على الفعل كما تجري صفة «مالك» على مَلَكٍ يَمْلِكُ، فالمقدور هو المملوك.

وأصل الصفة بـ «رَبِّ» التربية وهي: تنشئة الشيء، حالاً بعد حال حتّى يصير إلى حال التمام والكمال، ومنه: ربّ النعمة يَرْبُّهَا ربّاً إذا تمّمها، و: رَبِّي الطفل تربيةً، والله تعالى ربُّ العالمين المالك لهم ولتدبيرهم.

و «العالم»: كلّ أمة من الحيوان، وجمعه: العالمون على تغليب ما يعقل، وهو مأخوذ من «العلم» لكنّه كَثُرَ في استعمال أهل النظر على أنّه لجميع ما أحاط به الفلك من الأجسام المتصرّفة في الأحوال، وقال قوم: «عالم» لا يقع إلّا لجماعة العقلاء. وقد بيّنا ذلك في فاتحة الكتاب.

وقوله: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إنّما خصّوا موسى وهارون بالذكر بعد دخولهما في الجملة من ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لأمرين:

أحدهما: أنّ فيه معنى: الذي دعا إلى الإيمان موسى وهارون. الثاني: خصّاً بالذكر لشرف ذكرهما على غيرهما على طريق المدحة لهما والتعظيم. و «الرّب» بالإطلاق: لا يُطْلَقُ إلّا على الله تعالى، لأنّه يقتضي أنّه ربّ كلّ شيء يصحّ ملكه، وفي الناس يُقال: ربّ الدار، وربّ الفرس، ومثله: «خالق» لا يُطْلَقُ إلّا فيه تعالى، وفي غيره يُقَيّد، يقال: خالق الأديم.

قال الرّماني: وإنّما جاز نبیان في وقتٍ ولم يجز إمامان في وقتٍ، لأنّ

الإمام لما كان يُقام بالاجتهاد كانت إمامة الواحد أبعد من المناقشة واختلاف الكلمة، وأقرب إلى الألفة ورجوع التدبير إلى رضا الجميع. وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأنّ العقل غير دالّ على أنّ الإمام يجب أن يكون واحداً كما أنّه غير دالّ على أنّه يجب أن يكون النبيّ واحداً، وإنّما علّم بالشرع أنّه لا يكون الإمام في العصر إلّا واحداً كما علمنا أنّه لم يكن في عصر النبيّ ﷺ نبيّ آخر، واستوى الأمران في هذا الباب. قوله تعالى:

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُكُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي آلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ حفص وورش ورؤيس ﴿أمنتم﴾ على الخبر، الباقون بهزتين على الاستفهام، وحقّق الهمزتين أهل الكوفة إلّا حفصاً وروحاً، الباقون بتحقيق الأولى وتلين الثانية، إلّا أنّ قتبلاً في غير رواية ابن السائب يقلب همزة الاستفهام واواً إذا اتصلت بنون ﴿فِرْعَوْنَ﴾ ولم يفصل أحد بين الهمزتين بألف.

قال أبو عليّ: قياس قول أبي عمرو ومذهبه: أن يفصل بين الهمزتين بألف، كما يفصل بين النونات في «اخشيان» إلّا أنّه يشبه أن يكون ترك القياس، وقوله ^(١) هنا لما كان يلزم منه اجتماع المتشابهات فترك الألف التي تدخل بين الهمزتين، وخفّف الهمزة الثانية التي هي همزة «أفعل» من «آمن». فأما رواية أبي الإخريط عن ابن كثير بإبدال الهمزة واواً فإنّه أبدل من

ألف الاستفهام واواً، لانضمام ما قبلها وهي النون المضمومة في ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهذا في المنفصل مثل المتّصل من نُوره، فقوله: «نوا» على وزن «نود» [نؤده، ظ] وفي رواية قُتُبِلَ عن القَوَّاس مثل رواية البَرِّي عن أبي الإخريط غير أنّه يهزم بعد الواو.

قال أبو علي: [مَنْ] هزم بعد الواو، لأنّ هذه الواو هي منقلبة عن همزة الاستفهام، وبعد همزة الاستفهام همزة «أفعلتم» فخفّفها، ولم يخفّفها كما خفّف في القول الأوّل، ووجهه: أنّ الأولى لمّا زالت عن لفظ الهمزة وانقلبت واواً حَقّق الهمزة بعدها، لأنّه لم يجتمع همتان.

ووجه القول الأوّل: أنّ الواو لمّا كان انقلابها عن الهمزة تخفيفاً قياساً، كان في حكم الهمزة فلم يحقّق معها الثانية، كما لا تحقّق مع الهمزة نفسها لأنّ الواو في حكمها، كما كانت في حكمها في «رويا» في تخفيف «رؤيا» فلم يدغموها في الياء، كما لم يدغم الهمزة فيها.

ومَنْ قرأ على الخبر فوجهه: أنّه يخبرهم بإيمانهم على جهة التقرير لهم بإيمانهم والإنكار عليهم، ووجه الاستفهام: أنّه استفهام على وجه التوبيخ والتقرير والإنكار عليهم.

وحمزة والكسائي قرأ بهمزيّتين: الثانية ممدودة، لأنّ الهمزة الثانية تتّصل بها الألف المنقلبة عن الهمزة التي هي فاء في «آمن».

في هذه الآية حكاية لما قال فِرْعَوْنُ للسَّحَرَةِ حين آمنوا بموسى وصدّقوه لظهور الحقّ، فقال لهم: ﴿آمنتم به﴾ وإمّا قال لهم ذلك لأنّه وهم أنّ الإقدام على خلاف الملك بما عمل قبل الإذن فيه منكرٌ يقتضي سطوة الملك بصاحبه والتنكيل به، وعندنا: أنّ فِرْعَوْنَ لم يعرف الله قطّ معرفةً يستحقّ بها الثواب. وقال الرُّمَّاني: لا يمتنع أن يكون عارفاً بالله، وإمّا قال

هذا القول تمويها على قومه، وللتحذير من مثل حال السَّحَرَةِ الَّذِينَ أَقْدَمُوا على المخالفة له في الإيمان بموسى عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ معناه: تواطأتم على هذا الأمر لتستولوا على العباد والبلاد، فتخرجوا من المدينة أهلها وتتغلبوا عليها، و «المكر» قيل: الاغترار بالحيلة إلى خلاف جهة الاستقامة، أصله: القتل والالتفاف، كما قال ذو الرُّمَّة:
عَجْزَاءُ مَكْرُورَةٌ حُصَانَةٌ قَلِقُ

عنها الوشاحُ وَتَمَّ الْجِسْمُ وَالْعَصَبُ^(١)
و «المكر» و «الخدع» نظائر في اللغة، وقوله: ﴿فسوف تعلمون﴾ تهديد من فِرْعَوْنَ لهم وتخويف من مخالفته، وإنما هدّد فِرْعَوْنَ بـ «سوف تعلم» لأنّ فيه معنى: أقدمت بالجهل على سبب الشرّ، فسوف تعلم حين يظهر مسببه الذي أدّى إليه كيف كانت منزلته، فهو أبلغ من الإفصاح به.
وقوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ﴾ فالتقطيع: تكثير القطع، ونظيره: التفصيل والتفريق، ونقيضه: التوصيل، تقول: قَطَعَ قِطْعاً وَأَقْطَعَ إِقْطَاعاً، وَقَطَّعَ تَقْطِيعاً، وَتَقَطَّعَ تَقْطُوعاً، وَاقْطَعَ اقْطَاعاً، وَتَقَاطَعَ تَقَاطُوعاً، وَاسْتَقْطَعَ اسْتَقْطَاعاً، وَقَاطَعَ مَقَاطِعَةً، وَانْقَطَعَ انْقِطَاعاً. و «الأيدي»: جمع «يد» وهي الجارحة المخصوصة، واليد: النعمة، لأنّها تُسَدَّى إلى صاحبها باليد.

و «الأرجل»: جمع «رِجْل» وهي الجارحة التي يمشي بها من يمين وشمال، والراجل: خلاف الراكب، وَتَرَجَّلَ الْإِنْسَانُ: إذا نزل عن دابّته واقفاً على رِجْلِهِ، وَرَجَلَهُ غَيْرُهُ، وارتجل القول ارتجالاً: إذا كان فيه كالراجل

الَّذِي لَمْ يَسْتَعِينَ بِرُكُوبٍ عَنْ غَيْرِهِ، وَرَجَلَ الشَّعْرَ: إِذَا سَرَّحَهُ حَاطًا لَهُ عَنْ رُكُوبٍ بَعْضُهُ بَعْضًا.

و «التقطيع من خلاف»: هو قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى، وهو قول الحسن، وقال غيره: وكذلك يكون قطع اليد اليسرى مع الرجل اليمنى. وقوله: ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ القراء كلهم على ضم الهمة وتشديد اللام من التصليب، وذكر الفراء: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ بفتح الهمة وكسر اللام، من «الصلب» وهو الشد على الخشبة أو ما جرى مجراها من الأشخاص البارزة، وهو مشتق من: صلابة الشد، يقال: صَلَبَ صلابَةً، وَصَلَبَ تَصْلِيْبًا، وَتَصَلَّبَ تَصَلَّبًا.

وقال ابن عباس: أَوَّلَ مَنْ صَلَبَ وَقَطَعَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلَ مِنْ خِلَافٍ فِرْعَوْنَ.

قوله تعالى:

قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ آية إجماعاً.

أقول: وهذا إخبار عن جواب السحرة حين آمنوا، وتوعد فرعون إياهم بقطع الأيدي والأرجل والصلب بأنهم ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون، وغرضهم بهذا التسلي في الصبر على الشدة لما عليه من المثوبة، مع مقابلة وعيده بوعيد هو أشد عليه من عقاب الله.

وأصل «إِنَّا»: «إِنَّا» وحُذِفَتْ إحدى النونين لكثرة النونات، فإذا قيل: «إِنَّا» فلائنه الأصل، وإذا قيل: «إِنَّا» فلاستخفاف مع كراهة التضعيف. و«الانقلاب إلى الله»: هو الانقلاب إلى جزائه والمصير إليه، إلا أنه فُحِمَ بالإضافة إلى الله لِعِظَمِ شأنه، و«الانقلاب»: مصير الشيء على نقيض ما كان عليه ممّا يتغيّر به، وإذا صار إلى الآخرة بعد الدنيا: فانتقل إليها، وإذا

كان على خُلُقِي فتركه إلى ضدّه: فقد انقلَبَ إليه.

قوله تعالى:

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقُّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية: إخبار عما قالت السحرة حين آمنوا وتوعدّهم فِرْعَوْن بأنواع العذاب بأنهم قالوا له: إِنَّا راجعون إلى الله، وقالوا له أيضاً: ليس تنقم منا إلا إيماننا بالله وتصديقنا بآياته التي جاءتنا. و «النِّقْمَةُ»: الأخذ بالعقوبة، نَقَمَ يَنْقِمُ، وَنَقِمَ يَنْقِمُ، واللغة الأولى أَفْصَحَ، وانتَقَمَ انتقاماً وَنَقَمَةً، و «النِّقْمَةُ»: ضدُّ النِّعْمَةِ.

والفرق بين «النِّقْمَةِ» و «الإِسَاءَةِ»: أَنَّ النِّقْمَةَ قد تكون بحقٍّ، جزاءً على كفر النِّعْمَةِ، ولذلك يقال: انتقم الله من فلانٍ نِقْمَةً عاجلةً، والإِسَاءَةُ لا تكون إلا قبيحةً، لأنّه ليس لأحدٍ أن يسيء في فعله، والمُسيء مذموم على إساءته.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا افرغ علينا صبراً﴾ حكاية عن قول هؤلاء السحرة الذين آمنوا، وأنهم بعد أن قالوا لفرعون ما قالوه، سألوا الله تعالى أن يُفْرِغَ عليهم صبراً، ومعناه: أن يفعل بهم من اللُّطْف ما يصبرون معه على عذاب فِرْعَوْن ويتشجّعوا عليه، ولا يفرغوا منه.

و «الإِفْرَاقُ»: صبّ ما في الإناء أجمع حتّى يخلو، مشتقاً من «الفراغ» والفراغ: نقيض الشغل، وقيل: «أَفْرِغْ عليه الصبر» تشبيهاً بإفراغ الإناء، كما يقال: صبّ عليه العذاب صَبّاً. و «الصبر»: هو حَبْسُ النفس عن إظهار الجَزَع، صَبْرٌ يَصْبُرُ صَبْرًا. والصَّبْرُ على الحقِّ عِزٌّ، كما أَنَّ الصَّبْرَ على الباطل ذُلٌّ، و «الصبر» في الجملة محمود، قال الله تعالى: ﴿واصْبِرْ على ما

أصابك إنَّ ذلك من عَزْمِ الأمور»^(١).

وقوله تعالى ﴿وَتَوْفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ رغبة منهم إلى الله تعالى، وسؤالهم إياه بأن يقبضهم إليه ويُميتهم في حال السلامة.
قوله تعالى:

وَقَالَ أَلَمَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَأَهْلَكَ قَالَ سَنُنْقِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿٢٧﴾ آية بلا
خلاف.

أقول: قرأ أهل الحجاز: ﴿سَنُنْقِلُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ بالتخفيف، الباقون بالتثقل.
فَمَنْ ثَقُلَ ذهب إلى التثكير، وَمَنْ خَفَّفَ فلاحتماله التثكير والتقليل.
في هذه الآية إخبار عن إنكار قوم فِرْعَوْنَ وأشرافهم ورؤسائهم على
فِرْعَوْنَ تركه موسى وقومه ليفسدوا في الأرض على اعتقادهم، وإنما
أنكروا على فِرْعَوْنَ ذلك مع عبادتهم له، لأنَّه جرى على خلاف عادة
الملوك في السَّطْوَةِ بِمَنْ خالف عليهم وشقَّ العصا في ملكهم، وكان ذلك
بَلُطْفٍ من الله تعالى وحسن دفاعه عن موسى.

وَعَتَوْا بِالْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ: دعاء الخَلْق إلى مخالفة فِرْعَوْنَ في
عبادته وتجهيله إياه في ديانته لما يَتَّفَقُ عليه من ذلك ممَّا لا قِبَلَ له به،
ممَّا فيه انتقاض أمره وبطلان مُلكه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَأَهْلَكَ﴾ معناه: قال الحسن: إنَّه كان يعبد
الأصنام، فعلى هذا كان يَعْْبُدُ وَيُعْبَدُ، كما حَكَى الله تعالى عنه من قوله:
﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢).

وقال السُّدِّي: كان يعبد ما يستحسن من البقر، وعلى ذلك أخرج السامري ﴿عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾^(١).

وقال الزجاج: إنما كانت له أصنام يعبدها قومه تقريباً إليه.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَيَذَرُكَ وَالْهَتَكَ﴾ بمعنى: وعبادتك، وقال: كان فِرْعَوْنُ يُعْبِدُ وَلَا يُعْبِدُ. وقال بعضهم: «إلهتك» إنما هو تأنيث «إله» وجمعه: «آلهتك» كما قال الشاعر وهو عُتَيْبَةُ بْنُ شَهَابٍ الْيَرْبُوعِي:

تَرَوُّخْنَا مِنَ اللَّعْبَاءِ قَضْرًا فَأَعْجَلْنَا الْإِلَآهَةَ أَنْ تُؤْوِبَا^(٢)

يعني: الشمس، فأدخل التاء في هذا كما أدخلوا في قولهم: «وَلَدَتِي» و «كُوكِبَتِي» و «مَالِي» و «هو أهلة ذاك» كما قال الراجز:

يَا مُضَرَّ الْحَمْرَاءِ أَنْتِ أُسْرَتِي وَأَنْتِ مَلْجَاتِي وَأَنْتِ ظَهْرَتِي^(٣)

وقوله تعالى: ﴿سَنُقْتِلْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ إنما تهددهم بقتل أبنائهم مع أن موسى هو الذي دعاهم إلى الله دونهم من حيث إنه لم يطمع فيه، لما رأى من قوّة أمره وعلوّ شأنه فعدل إلى ضعفاء بني إسرائيل بقتل أبنائهم ليؤهم أنه يتم له ذلك فيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ معناه: نستبقي من تولد من بناتهم للمهنة والخدمة، من غير أن يكون لهم نجدة ولا عندهم منعة.

ونصب قوله: ﴿وَيَذَرُكَ﴾ لأحد الوجهين:

أحدهما: الصِّرف، والآخر: العطف. والصرف على أن يكون تقديره: ليفسدوا في الأرض إلى أن يذرك وآلهتك، والعطف على: ليفسدوا ويذرك.

(١) طه: ٨٨.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ١٨ ونسبه إلى بنت عُتَيْبَةَ الْيَرْبُوعِي.

(٣) أنشده الطبري أيضاً في تفسيره ولم ينسبه لأحد.

وقرأ الحسن: ﴿وَيَذْرُكُ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أَتَذَرُ﴾ ويجوز فيه الاستئناف: «وهو يَذْرُكُ».

قوله تعالى:

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا حكاية من الله عما قال موسى لقومه حين تهددهم فِرْعَوْنُ بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، وأنه أمرهم أن يستعينوا بالله. و«الاستعانة»: طلب المعونة، وقد يسأل السائل المعونة لغيره يقول: اللَّهُمَّ اعْنُهُ عَلَى أَمْرِهِ، إِلَّا أَنَّ الْغَالِبَ عَلَى الاستعانة طلب المعونة لنفس الطالب. وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا﴾ أمر من موسى إياهم بالصبر، وهو حبس النفس عما يؤدي إلى ترك الحق مع تجرّع مرارة ذلك الحبس، ونقيضه: الجَرَخ، قال الشاعر:

فَإِنْ تَصَبَّرَا فَالصَّبْرُ خَيْرٌ مَغَبَّةٍ وَإِنْ تَجَرَّعَا فَلَا مَرُءَ مَا تَرَبَّانٍ (١)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ إخبار عما قال موسى لقومه من أَنَّ الْأَرْضَ كُلَّهَا ملك لله يورثها من يشاء من عباده، و«الإرث»: جعل الشيء للخلف بعد السلف، والأغلب أن يكون ذلك في الأموال، وقد يستعمل في غيرها مجازاً كقولهم: «العلماء وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ» (٢) وقولهم: «ما ورث والد ولداً أجلاً من أدبٍ حسنٍ».

ومعنى ﴿يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: التسلية لهم بأنّها لا تبقى على أحد لأنّها تُنْقَلُ من قوم إلى

(١) تقدّم ذكره ضمن تفسير الآية: ٤٥ من البقرة.

(٢) تقدّم تخريجه ضمن تفسير الآية: ١٠٠ المتقدّمة.

قوم: إما محنة أو عقوبة.

الثاني: الإطماع في أن يورثهم الله أرض فرعون وقومه.

و «المشيئة»: هي الإرادة، وهي ما أثرت في وقوع الفعل على وجه دون وجه من حسن أو قبح أو غيرهما من الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فالعاقبة: ما تؤدي إليه النأدية من خير أو شر، إلا أنه إذا قيل: «العاقبة له» فهو في الخير، فإذا قيل: «العاقبة عليه» فهو في الشر، مثل: «الدائرة له، وعليه». وقال ابن عباس: لما آمنت السحرة أتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل.

قوله تعالى:

قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ
عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا إخبار من الله تعالى عن ما قال قوم موسى لموسى بأننا أوزينا من قبل أن تأتينا بالرسالة. و «الأذى»: ضرر لا يبلغ بصاحبه أن يأتي على نفسه، تقول: آذاه يؤذيه أذى [إبذاء]، وتأذى به تأذياً، ومثله: ألمه يؤلمه إبلاماً، وتآلم به تآلماً.

و «الأذى» الذي كان بهم قيل: هو استبعاد فرعون إياهم وقتل أبنائهم واستحياء نسائهم للاستخدام، والذي كان بعد مجيء موسى: الوعيد لهم بتجديد ذلك العذاب من فرعون والتوعد عليه، وكان هذا على سبيل الاستبطاء منهم لما وعدهم فجدد الوعد لهم وحققه، وقال الحسن: كان يأخذ منهم الجزية.

وقوله: ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ قال سيبويه^(١): «لعلّ»

و«عسى» طَمَعَ وإشفاقٌ. وقال الحسن: «عسى» من الله واجبة، وبه قال الزجاج. وقال أبو علي الفارسي: «عسى» هاهنا يقين.

وقوله: ﴿ويستخلفكم في الأرض﴾ قال أبو علي: استخلفوا في مصر بعد موت موسى ﷺ في التيه، ثم فتح الله لهم بيت المقدس مع يوشع بن نون، ثم فتح الله لهم مصر وغيرها في زمن داود وسليمان، فملكوها في ذلك الزمان على ما وعدوا به من الاستخلاف.

وقوله تعالى: ﴿فينظر كيف تعملون﴾ قيل: إن معنى ﴿ينظر﴾ هاهنا: يعلم، وقيل: يرى. وكلّ منهما مجاز، لأنّ «النظر» هو الطلب لِمَا يُدْرَك، وهذا لا يجوز عليه تعالى، ولكّنه جاء على قوله تعالى: ﴿ولنبلوّنكم حتّى نعلم المجاهدين منكم والصابرين﴾^(١).

وفائدة الآية: تسليّة موسى ﷺ لقومه بما وعدّهم عن الله [من] إهلاك فرعون وقومه، وجعل قومه بدلاً منهم ليعملوا بطاعته.
قوله تعالى:

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾ آية
بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية وأقسم عليه بأنّه أخذ آل فرعون ﴿بالسنين﴾ وهي الأعوام المقحطة. واللام في قوله: ﴿لقد﴾ لام القسم، و«قد» معناه: الإخبار عن متوقع، وهي تقرّب الماضي من الحال، لأنّه إذا توقع كون أمر فقيل: «قد كان» دلّ على قربه من الحال.

و «الآل» خاصّة الرجل الذين يؤول أمرهم إليه، ولذلك يقال: أهل

البلد، ولا يقال: آل البلد، لأنَّ في «الأهل» معنَى القُرْب في نَسَب أو مكان، وليس كذلك «الآل».

ومعنى ﴿أَخَذْنَاهُم بِالْسِّنِينَ﴾: أَخَذْنَاهُم بِالْجُدُوبِ، والعرب تقول: «أَخَذْتَهُمُ السَّنَةَ» إذا كانت قَحْطَةً، يقال: «أُسْنَتَ الْقَوْمُ» إذا أَجْدَبُوا، وإِنَّمَا قِيلَ لِلْمُجْدِبَةِ: «السَّنَةُ» ولم يقل للمَخْصَبَةِ، لأنَّهَا نَادِرَةٌ فِي الْإِنْفِرَادِ بِالْجَدْبِ، و «النادر» أَحَقُّ بِالْإِفْرَادِ بِالذِّكْرِ، لِإِفْرَادِهِ بِالْمَعْنَى الَّذِي نَدَّرَ بِهِ.

وقال الفراء: معنى ﴿بِالسِّنِينَ﴾ بِالْجُدُوبَةِ [ب، ظ] تقول العرب: «وجدنا البلاد سِنِينَ» أي: جدوباً، قال الشاعر:

وأموالُ اللِّثَامِ بِكُلِّ أَرْضٍ تُجَحِّفُهَا الْحَوَائِجُ وَالسِّنُونُ

وقال آخر:

كَأَنَّ النَّاسَ إِذْ فَقَدُوا عَلِيًّا نِعَامٌ جَالٌ فِي بَلَدٍ سِنِينًا
أي: في بلد جدوب، وأهل الحجاز وعلياء قَيْسٍ يقولون: «هُنَّ السِّنُونُ» فيجعلونها بالواو في الرفع، وبالياء في الخفض والنصب على هجاءين. وبعض تميم يقول: «هي السِّنِينُ» فإذا أَلْقَوْا الْأَلْفَ وَاللَّامَ لَمْ يَجْرَوْهَا، فقالوا: قد مضت له سِنُونٌ كَثِيرَةٌ، و: كنت عندهم بِضْعُ سِنِينَ، وبنو عامر فَإِنَّهُمْ يَجْرَوْنَهَا فِي النَّصْبِ وَالْجَرِّ وَالرَّفْعِ فيقولون: أَقَمْتُ عَنْده سِنِينًا كَثِيرَةً. وقال الكسائي: على هجاءين هي اللغة الغالبة في كلام العرب: «السِّنُونُ» و «السِّنِينَ» وينصبون النون على كُلِّ حَالٍ مِثْلَ نونِ الْجَمْعِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وعليه إجماع القُرَّاء، قال: وبعض العرب يجعلها على هجاءٍ واحدٍ، ويلزم النون الإعراب بجعلها كأنَّهَا من نفس الكلمة، وأنشد:

سِنِينِي كُلَّهَا وَاسَيْتَ حَرْبًا أَقَاسَ مَعَ الصَّلَادَةِ الذِّكُورَ

وأنشد:

وَلَقَدْ وَلَدْتُ بَنِينَ صِدْقٍ سَادَةً وَلَأَنْتَ بَعْدَ اللَّهِ كُنْتَ السَّيِّدَا
فَأُتِيتَ النَّوْنُ فِي «بَنِينَ» وَهِيَ مِضَافَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَنَقْصُ مِنَ
الثَّمَرَاتِ﴾ أَي: وَأَخَذْنَاهُمْ مَعَ الْقَحْطِ وَجَذَبَ الْأَرْضَ بُنْقَصَانٍ مِنَ الثَّمَارِ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ مَعْنَاهُ: لِكَيْ يَتَفَكَّرُوا فِي ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا
إِلَى الْحَقِّ، وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ وَهِيَ مَوْضُوعَةٌ لِلشَّكِّ وَهُوَ لَا يَجُوزُ فِي
كَلَامِ اللَّهِ، لِأَنَّهُمْ عُوْمِلُوا مَعَامِلَةَ الشَّاكِّ مَظَاهِرَةً فِي الْقَوْلِ، كَمَا جَاءَ الْإِبْتِلَاءُ
وَالِاخْتِيَارُ مِثْلَ ذَلِكَ.

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى بَطْلَانِ مَذْهَبِ الْمَجْبُرَةِ مِنْ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرِيدُ الْكُفْرَ
وَالْمَعَاصِي، لِأَنَّهُ بَيَّنَّ أَنَّهُ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ لِكَيْ يَذْكُرُوا وَيَرْجِعُوا، فَقَدْ أَرَادَ
مِنْهُمْ الْإِدْكَارَ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: مِنْ أَجْلِ أَنْ يَذْكُرُوا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِذَا كَلَّفَهُمْ مِنْ
أَجْلِ الثَّوَابِ، لِأَنَّ إِرَادَةَ الْمُرِيدِ لَمَّا يَكُونُ مِنْ فَعْلِهِ فِي الْمُسْتَأْنَفِ عِزْمٌ،
وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِرَادَتُهُ لِفَعْلٍ غَيْرِهِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿السَّيِّئِينَ﴾: الْحَاجَةُ ﴿وَنَقْصُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ دُونَ ذَلِكَ.
وَقَالَ قَتَادَةُ: كَانَ ﴿السَّيِّئِينَ﴾ بِبَادِيَتِهِمْ ﴿وَنَقْصُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كَانَ فِي
أَمْصَارِهِمْ وَقُرَاهُمْ.

وَقَالَ كُثْبٌ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا تَحْمِلُ النَّخْلَةُ إِلَّا تَمْرَةً.
قَوْلُهُ تَعَالَى:

فَإِذَا جَاءَ ثَمَرُهُمْ أَلْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ
مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ آيَةٌ بِلَا خِلَافٍ.

أَقُولُ: الْمُرَادُ بِـ ﴿الْحَسَنَةِ﴾ هَاهُنَا النِّعْمَةُ مِنَ الْخَصْبِ وَالسَّيِّئَةِ فِي الرِّزْقِ
وَالْعَافِيَةِ وَالسَّلَامَةِ، وَـ ﴿السَّيِّئَةِ﴾: النِّقْمَةُ مِنَ الْجَذْبِ وَضَيْقِ الرِّزْقِ وَالْمَرَضِ

والبلاء، وفيه ضَرْبٌ من المجاز، لَأَنَّ حَقِيقَةَ «الحسنة»: ما حَسَنَ من الفعل في العقل، و «السيئة»: ما قَبَحَ من الفعل، وإِنَّمَا شَبَّهَ هذا بذلك لتَقَبُّلِ العقل لهذا كَتَقَبُّلِ الطبع لذلك. وقال قوم: هو مشترك لظهور العلم في ذلك في الناس جميعاً على منزلةٍ سواء.

أخبر الله تعالى عن قوم فِرْعَوْنَ: أَنَّهُ إِذَا جَاءَهُم الْخَصْبُ وَالسَّعَةِ وَالنِّعْمَةُ مِنْ اللَّهِ ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ والمعنى: إِنَّا نَسْتَحِقُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَادَةِ الْجَارِيَةِ لَنَا مِنْ نِعْمَتِنَا وَسَعَةِ أَرْزَاقِنَا فِي بِلَادِنَا، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَيَشْكُرُوهُ عَلَيْهِ وَيُؤَدُّوا حَقَّ النِّعْمَةِ لئَلَّا يَسْلُبَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا.

وقوله: ﴿وَإِنْ تَصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني: جَذَبَ وَقَحَطَ وَبَلَاءٌ ﴿يُطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ والمعنى: إِنَّهُمْ تَشَامُوا بِهِمْ، وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ وَمُجَاهِدٍ وَابْنِ زَيْدٍ، لَأَنَّ الْعَرَبَ كَانَتْ تَزْجُرُ الطَّيْرَ: فَتَتَشَامُّ بِالْبَارِحِ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، وَتَتَبَرَّكُ بِالسَّانِحِ وَهُوَ الَّذِي يَأْتِي مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ، قَالَ الشَّاعِرُ: زَجَرْتُ لَهَا طَيْرُ الشَّمَالِ فَإِنْ يَكُنْ

هَوَاكَ الَّذِي تَهْوَى يُصْبِكَ اجْتِنَائُهَا^(١)

وقال آخر:

فَقُلْتُ غُرَابٌ لَا اغْتَرَابَ مِنَ النَّوَى

وَبَانَ لَبِئْسَ ذِي الْعِيَافَةِ وَالزَّجْرِ

وأصل «الطائر»: النصب، يقال: طَارَ لَهُ مِنَ الْقَسَمِ كَذَا وَكَذَا، وَأَنشَدَ ابْنُ

الأعرابي:

وَإِنِّي لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي إِذَا مَا طَارَ مِنْ مَالِي الثَّمِينُ

(١) لأبي ذؤيب. أنشده في اللسان: مادة «طير».

أي: أخذت الزوجة ثُمْنَهَا من ميراثه. وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِطَائِرِ الْبَرَكَةِ وَطَائِرِ الشُّؤْمِ، مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، فَلَوْ عَقَلُوا طَلَبُوا الْخَيْرَ مِنْ جِهَتِهِ، وَالسَّلَامَةَ مِنَ الشَّرِّ مِنْ قِبَلِهِ.

وموضع ﴿إِذَا﴾ نصب بِأَنَّهَا ظَرْفٌ لِلْقَوْلِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ فِيهَا الْفِعْلُ الَّذِي يَلِيهَا، لِأَنَّهَا مِضَافَةٌ إِلَيْهِ، وَلَوْ جَازَيْتُ بِهَا جَازَ عَمَلُهُ فِيهَا. وقال الأزهري والزجاج: معنى ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾: أي شؤمهم الَّذِي وُعِدُوا بِهِ مِنَ الْعِقَابِ عِنْدَ اللَّهِ يَفْعَلُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقال ابن عباس: معناه: إِنَّ مَصَائِبَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ. قوله تعالى:

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿مَهْمَا﴾: أي شيء، وقال الخليل ^(١): أصلها «ما» إلا أَنَّهُمْ أَدْخَلُوا عَلَيْهَا «ما» كما يَدْخُلُونَهَا عَلَى حُرُوفِ الْجَزَاءِ، فَيَقُولُونَ: «ماما» و«متى ما» و«إذا ما» فغَيَّرُوا أَلْفَهَا بِأَنْ أَبْدَلُوهَا هَاءً لئَلَّا يَتَوَهَّمِ التَّكْرِيرُ، وَصَارَ «ما» فِيهَا مَبَالِغَةً فِي مَعْنَى الْعُمُومِ. وقال غيره ^(٢): أصلها «مَهْ» بمعنى «أكفف» دخلت على «ما» الَّتِي لِلْجَزَاءِ.

والفرق بين «ما» و«مَهْمَا»: أَنَّ «مَهْمَا» خَالِصَةٌ لِلْجَزَاءِ، وَفِي «ما» اشتراك، لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ اسْتِفْهَامًا تَارَةً، وَبِمَعْنَى «الَّذِي» أُخْرَى، وَتَارَةً بِمَعْنَى الْجَزَاءِ، وَإِنْ كَانَ الْأَصْلُ فِي «مَهْمَا»: «ما» لِأَنَّ مَا يُجَازَى بِهِ مِنْ

(٢) حكاة الزجاج في المعاني: ج ٢ ص ٣٦٩.

(١) في كتاب العين: مادة «مه».

الأسماء قد لا يستعمل^(١) في الجزاء، والتركيب ظاهر فيها لفظاً ومعنى.
 وقوله تعالى: ﴿تَأْتِنَا﴾ في موضع جزم، وعلامة الجزم فيه حذف الياء،
 وإنما حذف الحرف للجزم لأنه من حروف المد واللين، وهي مجانية
 لحركات الإعراب، ومن شأن الجازم أن يحذف ما يصادفه من الحركة،
 فإن لم يصادف حركة عمل في نفس الحرف، لئلا يتعطل من العمل.
 في هذه الآية: إخبار من الله تعالى، وحكاية ما قال قوم فِرْعَوْنَ
 لموسى عليه السلام بأنهم قالوا له: أي شيء تأتينا به من المعجزات وتسحرنا بها
 فإننا لا نصدّقك عليه، ولا نؤمن بك. والـ ﴿آية﴾ هي المعجزة الدالة على
 نبوته، وهو كلّ ما يعجز الخلق عن معارضته ومقاومته، كما لا يمكن
 مقاومة الشبهة للحجة، وكما لا يمكن أن يقاوم الجهل للعلم، والسراب
 للماء، وإن توهم ذلك قبل النظر والاعتبار، ويخيّل قبل الاستدلال الذي
 يزول معه الالتباس.

وقد بيّنا حقيقة «السحر» فيما مضى^(٢) وقد يسمّى السحر ما لا يعرف
 سببه وإن لم يكن محظوراً، كما رُوِيَ عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «إن من البيان
 لسحراً»^(٣) وكما قال الشاعر:

وَحَدِيثُهَا السِّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجْزِ قَتْلُ الْمُسْلِمِ الْمَتَجَرِّدِ
 وَذَلِكَ مجاز وتشبيه دون أن يكون حقيقة.

قوله تعالى:

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ؕ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ
 فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٢٢﴾ آية بلا خلاف.

(١) في الحجرية: قد يستعمل.

(٢) عند تفسير الآية: ١٠٢ من سورة البقرة.

(٣) أخرجه أبو داود في السنن: ج ٤ ص ٣٠٢ ح ٥٠٠٧ بسنده عن ابن عمر.

أقول: أخبر الله تعالى أَنَّهُ لَمَّا قَالَ فِرْعَوْنَ وقومه ما قالوا، من أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِنْ أَتَى بِجَمِيعِ الْآيَاتِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَصَدَّقُونَهُ عَلَى نَبَوَّتِهِ: أَنَّهُ أَرْسَلَ عَلَيْهِمُ ﴿الطُّوفَانَ﴾ وهو السيل الَّذِي يَعْمُ بِتَفْرِيقِهِ الْأَرْضَ، وهو مَأْخُوذٌ مِنَ «الطُّوفِ» فيها، وقيل ^(١): هو مصدر كـ «الرُّجْحَان» و «التُّقْصَان». وقال الْأَخْفَشُ: واحِذُّهُ «طُوفَانَةً».

وَأَمَّا الْمَفْسَّرُونَ فَإِنَّهُمْ اخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ عَنْهُ: إِنَّهُ الْغَرَقُ. وقال مجاهد: هو الموت. وفي رواية أُخْرَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ كَانَ أَمْرًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى طَافَ بِهِمْ. وقال تعالى فِي قِصَّةِ نُوحٍ ﴿فَاخْذِهِمُ الطُّوفَانَ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ^(٢) وقال الحسن ^(٣) بن عُرْفُطَةَ:

غَيَّرَ الْجِدَّةَ مِنْ آيَاتِهَا ^(٤) خَرَقُ الرِّيحِ بِطُوفَانِ الْمَطَرِ ^(٥)

وقال الراعي:

تُضْجِي إِذَا الْعَيْسُ أَذْرَكْنَا نَكَائِثَهَا

خَرْقَاءَ يَغْتَاذُهَا الطُّوفَانُ وَالرُّؤُودُ ^(٦)

الرُّؤُودُ: الْفَرَجُ، وقال أَبُو النَّجْمِ:

قَدْ مَدَّ طُوفَانٌ قَبَيْتَ مَدَدًا شَهْرًا شَايِبَ وَشَهْرًا بَرَدًا ^(٧)

وقال أَبُو عُبَيْدَةَ: ﴿الطُّوفَانُ﴾ مِنَ السَّيْلِ: الْبُعَاقُ، وَمِنَ الْمَوْتِ: الذَّرِيعُ ^(٨).

وقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَلُ﴾ فَاخْتَلَفُوا فِي مَعْنَاهُ: فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي

(١) نسبته الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٢١ إلى بعض نحوِّي الكوفة.

(٢) العنكبوت: ١٤.

(٣) كذا، والظاهر هو تصحيف «حَسِيل» أو «حَسِيل» الشاعر الجاهلي المعروف.

(٤) في الحَجَرِيَّة: من عرفانه. (٥) أنشده أبو زيد في النوادر: ص ٧٧.

(٦) من قصيدة يمدح عبد الملك بن مروان. راجع ديوان الراعي النميري: ص ٨٨.

(٧) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٢٢. (٨) في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٢٦.

رواية عنه وقتادة ومجاهد: إنه بنات الجراد، وهو «الدَّبا» صغار الجراد الذي لا أجنحة له. وفي رواية أخرى عن ابن عباس وسعيد: أنه السوس الذي يقع في الحنطة. وقال ابن زيد: هو البراغيث.
وقال أبو عبيدة^(١): هو الحَمَّان واحدُه: حَمْنَة، وقيل: حَمْنَانَة وهو كبار القزدان.

وقال الحسن وسعيد بن جبَّير: هو دَوَابٌ صِغَارٌ سُودٌ واحدُه: قَمْلَة، قال الأعشى:

قَوْماً يُعَالِجُ قَمَلاً أَبْنَاؤُهُمْ وَسَلَاسِلاً أَجْداً وَبَاباً مُؤَصِّداً^(٢)
وقوله: ﴿وَالضَّفَادِعُ﴾ فهو جمع ضَفْدَع، فهو ضرب من الحيوان يكون في الماء له تقيق واصطخاب، وهو معروف، وقيل: إنه كان يوجد في فرشهم وأبنيتهم ويدخل في ثيابهم فيشتدُّ أذاهم به.
و ﴿الدم﴾ معروف، وقد حدَّه الرُّمَّاني بأنه جسم مانع أحمر مسترقَّ عرض له الجمود كهذا الذي يجري في العروق.

وقيل^(٣): إنَّ مياهم كانت عذبة طيبة فانقلبت دماً، فكان الإسرائيلي إذا اغترف صار ماءً، وإذا اغترف القبطي كان دماً، حتَّى أنَّ المرأة القبطيَّة تقول للمرأة الإسرائيليَّة: مجي من فيكِ في فمي، فإذا فعلت ذلك تحوَّل دماً. وقال زيد بن أسلم: الذي سلَّط الله عليهم كان الرُّعاف.

وقوله: ﴿آيَاتٍ مَفْصَلَاتٍ﴾ نصب على الحال، قال مجاهد: معجزات مبينات ظاهرات، وأدلة واضحات. وقال غيره: لأنها كانت تجيء شيئاً

(١) في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٢٦.

(٢) من قصيدة طويلة يذكر فيها كسرى. راجع ديوان الأعشى: ص ٥٨.

(٣) قاله محمد بن كعب القرظي. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٢٦.

بعد شيء. وقيل: إنها كانت تمكث من السبت إلى السبت ثم تُرْفَع شهراً، في قول ابن جُرَيْج.

قوله: ﴿فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ معناه: إنهم مع مشاهدتهم لهذه الآيات العظيمة والمعجزات الظاهرة أنفوا من الحق وتكبروا عن الإذعان والانقياد له، وكانوا قوماً عُصاةً مرتكبين للإجرام والآثام.

قوله تعالى:

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَنْمُوسَى أَذْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿٢٥﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: ﴿لَمَّا﴾ للماضي مثل «لو» و «إذا» للمستقبل مثل: «إن» وإن دَخَلْتَ على الماضي.

أخبر الله تعالى عن هؤلاء القوم أنه حين وقع عليهم ﴿الرِّجْزُ﴾ وهو العذاب في قول الحسن ومجاهد وقتادة وابن زيد، وفي قول سعيد بن جبّير: هو الطاعون. وقال قوم: هو الثلج، ولم يكن وقع قبل ذلك ^(١).

وأصل «الرِّجْز» الميل عن الحق، ومنه: قوله تعالى: ﴿وَالرِّجْزَ فَاهْجُزْ﴾ ^(٢) يعني: عبادة الوثن، والعذاب رِجْزٌ، لأنه عقوبة على الميل عن الحق، ومنه: «الرِّجَازَةُ» ما يعدل به الحمل إذا مَالَ، و «الرِّجَازَةُ» أيضاً: صوف أحمر يُرَبَّن به الهُودَج، لأنه كالرِّجَازَةِ التي هي تقويم له إذا مَالَ، و «الرِّجَزُ»: رَعْدَةٌ في رِجْلِ الناقة لداءٍ يلحقها يعدل بها عن حق سيرها، و «الرِّجَزُ»: ضَرْبٌ من الشَّعْر أُخِذَ من رَجَزِ الناقة، لأنه: متحرك وساكن ثم

(١) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٢٥ ح ٦٨ عن الرضا عليه السلام.

(٢) المدثر: ٥.

متحرك وساكن في كلّ أجزائه، فهو كالرَّعْدَةِ في رَجُلٍ الناقه، يتحرك بها ثمّ يسكن ثمّ يستمرّ على ذلك.

وقوله: ﴿قالوا يا موسى ادعُ لنا ربّك بما عَهِدَ عندك﴾ حكاية لمسألة قوم فِرْعَوْنَ لموسى أن يدعو الله لهم بما عَهِدَ عند موسى، و «العَهِد»: التقدّم في الأمر، فمنه: العهد «العَهِد»: الوصيّة، و «العُهود»: الوثائق والشروط، و «العِهاد»: مطر بعد مطر قد عَهِدَ قبله، و «المُعاهد»: المعاهد على الذمّة، و «التعاهد»: التقدّم في تفقّد الشيء وكذلك «التعهّد» وقيل في معنى ﴿بما عهد عندك﴾ قولان:

أحدهما: بما تقدّم إليك به وعلمك أن تدعوه به، فإنّه يجيبك كما أجابك في آياتك. الثاني: بما عَهِدَ عندك على معنى: «القسَم».

وقوله ﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أَجَلٍ هم بالغوه﴾ فيه إخبار من الله تعالى أنّه لما كشف عنهم العذاب عند ذلك وأخّرهم إلى أَجَلٍ هم بالغوه يعني: أَجَل الموت ﴿إذا هم ينكتون﴾ وأنّهم عند ذلك نكثوا ما قالوه، ولم يُفُوا بشيءٍ منه.

والعامل في ﴿إذا﴾: ﴿ينكتون﴾ وليست ﴿إذا﴾ هذه «إذا» مضافة إلى جملة، بل هي بمنزلة «هناك» وهي المكتفية بالاسم، ولو قال: «إذا النكت» صحّ الكلام، كما تقول: «خرجت فإذا زيد».

ومعنى ﴿إذا﴾: المفاجأة، وفيه وقوع خلاف المتوقع منهم، لأنّه أتى منهم نقض العهد بدلاً من الوفاء، فكأنّه فاجأ الرأي ^(١) عَجَبٌ من نكثهم.

و «البلوغ»: منتهى المرور، ومثله: الوصول، غير أنّ في «الوصول»

(١) كذا في مجمع البيان أيضاً.

معنى الاتصال، وليس كذلك «البلوغ» و «الانتهاء» نقيض «الابتداء» في كل شيء وإن لم يكن فيه معنى المرور.

و «النكث»: نقض العهد الذي يلزم الوفاء به، ومثله: الغدر، إلا أن «الغدر» فيما عقد من الأيمان على النفس، ولذلك جاء في نقض الغزل في قوله تعالى: ﴿كَأَلَّيْتُ نَفْسِي غَزَلًا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾^(١) وأصله: «النُّكَاثَةُ» وهي تشيعب الشيء من حبلٍ أو غيره، وانتكث الشيء إذا تَشَعَّبَ، و «النكيسة»: نقض العهد.

وجواب ﴿لَمَّا﴾: ﴿إِذَا﴾ ومثله قوله: ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْتَطُونَ﴾^(٢) ولا يجوز أن يجاب بـ «إِذَا» لأنها لوقت الماضي، والجواب بعد الأول فهو يقتضي الاستقبال، ولذلك صَلَحَتْ فيه الفاء ولم يصلح الواو، وحرف الجزاء يقلب الفعل دون الوقت. قوله تعالى:

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿٩٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنه بعد أن أظهر الآيات التي مضى ذكرها وفزع قوم فِرْعَوْنَ إلى موسى ليسأل الله أن يرفع عنهم العذاب، فإنهم إذا رُفِعَ عنهم ذلك آمنوا، ففعل موسى ورفع الله عنهم ذلك، ولم يؤمنوا ونكثوا ما عهدوا به من القول، أنه انتقم منهم، ومعناه: سلب نَعَمَهُم بإنزال العذاب عليهم وحلول العقاب بهم.

وقوله: ﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فالإغراق في الأمر أو النزع فهو مشبه

بالإغراق في الماء، و ﴿الْيَمِّ﴾ البحر، في قول الحسن وجميع أهل العلم، قال ذو الرُّمَّة:

دَوِيَّةٌ وَدَجَسِي لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا يَمٌّ تَراطن في حَفَاتِهِ الرُّومُ^(١)
وقال الراجز:

كَبَاذِخِ الْيَمِّ سَقَاهُ الْيَمُّ^(٢)

وقوله تعالى: ﴿بَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ معناه: إِنَّا فعلنا بهم ذلك جزاءً بما كَذَّبُوا من آيات الله وحججه وبراهينه الدالة على نبوة موسى وصدقه ﴿وكانوا عنها غافلين﴾ معناه: أَنَّهُمْ أَنزل عليهم العذاب وكانوا غافلين عن نزول ذلك بهم، و «الغفلة»: حال تعتري النفس تنافي الفطنة واليقظة، تقول: غَفَلَ يَغْفُلُ غُفُولاً، وَغَفْلاً وَغَفْلَةً، وَتَغَافَلَ تَغَافُلاً، وَأَغْفَلَ الأَمْرَ إِغْفَالاً، وَاسْتَغْفَلَ اسْتِغْفَالاً، وَاعْتَغَلَ اعْتِغَالاً، وَتَغَفَّلَ تَغَفُّلاً، وَغَفْلَةً تَغْفِيلاً، وَهُوَ مُغَفِّلٌ. فَإِنْ قِيلَ: كيف جاء الوعيد على «الغفلة» وليست من فعل البشر؟! قلنا عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: أَنَّهُمْ تَعَرَّضُوا لَهَا حَتَّى صاروا لا يفتنون بها.

الثاني: أَنَّ الوعيد على الإعراض عن الآيات حَتَّى صاروا كالغافلين عنها. الثالث: أَنَّ المعنى: وكانوا عن النعمة غافلين، ودَلَّ عليه: ﴿انْتَقَمْنَا﴾. قوله تعالى:

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمِغْرِبَهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ^(٣).

(١) من قصيدة طويلة. راجع ديوان ذي الرُّمَّة: ص ١٤٤.

(٢) للعبّاج. أنشده أبو عُبَيْدة في المجاز: ج ١ ص ٢٢٧.

آية في الكوفي والبصري، وفي المدنيّين آيتان: آخر الأولى ﴿بني إسرائيل﴾.

أقول: قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ﴿يَعْرُشُونَ﴾ بضمّ الراء، الباقون بكسرها، وهما لغتان فصيحتان: الكسر والضمّ، والكسر أفصح. أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّهُ أَوْثَرُ الْأَرْضِ مِشَارِقُهَا وَمَغَارِبُهَا الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي يَدَيْ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَإِنَّمَا أَوْرَثَهُمْ بِأَن أَهْلَكَ مَنْ كَانَ فِيهَا وَمَكَنَ هَؤُلَاءِ، وَحُكِمَ بِأَن لَّهُمْ أَنْ يَتَصَرَّفُوا فِيهَا عَلَى مَا أَبَاحَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَ«الاستضعاف»: طلب الضعف بالاستطالة والقهر، وقد استعمل «استضعفته» بمعنى: وجدته ضعيفاً بامتحاني إِيَّاهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: طَلَبْتُ حَالِ ضَعْفِهِ بِمَحْنَتِهِ فَوَجَدْتُهُ ضَعِيفاً.

وقوله: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يعني: إخراج الزروع والثمار وسائر صنوف النبات والأشجار، إلى غير ذلك من العيون والأنهار، وضروب المنافع للعباد، وقيل: ﴿بَارَكْنَا فِيهَا﴾ بالخصب الذي حصل فيها، و﴿مِشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا﴾ يريد: جهات المشرق بها والمغرب، وقال الحسن: هي أرض الشام ومصر. وقال قتادة: هي أرض الشام. وقال أبو علي: هي أرض مصر. وقال الزجاج: كان من بني إسرائيل داود وسليمان ملكوا [مَلَكَا، ظ] جميع الأرض.

وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعني: صحّ كلامه بإنجاز الوعد الذي تقدّم بإهلاك عدوهم واستخلافهم في الأرض، وإِنَّمَا كَانَ الْإِنْجَازُ تَمَاماً لِلْكَلامِ لِتَمَامِ النِّعْمَةِ بِهِ، وقيل ^(١): كلمته الحسنی

هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنَمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾. وإِنَّمَا قِيلَ: ﴿الْحَسَنَى﴾ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ كُلُّهَا حَسَنَةً، لِأَنَّهُ وَعَدَ بِمَا يَحْبُونَ.

وانتصب قوله تعالى: ﴿مُشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا﴾ لِأَحَدِ أَمْرَيْنِ: أَحَدُهُمَا: بِأَنَّهُ مَفْعُولٌ ﴿أُورِثْنَا﴾ كَقَوْلِكَ: أُورِثَ الْمَالُ. الثَّانِي: بِأَنَّهُ ظَرْفٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: أُورِثْنَاهُمُ الْأَرْضَ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فِي مُشَارِقِهَا وَمَغَارِبِهَا، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

وقوله: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ معناه: أَهْلَكْنَا مَا كَانَ عَمَلُهُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مِمَّا كَانُوا يَسْتَعْبِدُونَهُمْ، وَيَسْعُونَ فِي إِفْسَادِ أَمْرِ مُوسَى، وَيَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي أَمْرِهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ معناه: مَا كَانُوا يَبْنُونَهُ مِنَ الْأُبْنِيَةِ وَالْقُصُورِ، فِي قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٍ.

وقال الحسن: هُوَ تَعْرِيشُ الْكَرْمِ. وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: تَعْرِيشُ الشَّجَرِ وَالْأُبْنِيَةِ. وَأَصْلُ «التَّعْرِيشِ»: الرِّفْعُ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ^(١): ﴿يَعْرِشُونَ﴾ معناه: يَبْنُونَ، وَ«الْعَرْشُ» فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الْبِنَاءُ، يُقَالُ: عَرَّشَ مَكَّةَ أَي: بَنَاهَا. وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ^(٢): هُمَا لُغَتَانِ، وَمِثْلُهُ «نَبِطُشٌ وَنَبْطُشٌ» وَ«نَحْشِرُ وَنَحْشُرُ» فِي أَثَالِ ذَلِكَ.

قوله تعالى:

وَجَوَّزْنَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِسْرَائِيلَ أَلْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَنْمُوسَى أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ آية بلا خلاف.

(١) فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ: ج ١ ص ٢٢٧. (٢) وَهُوَ الْأَخْفَشُ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ: ج ٢ ص ٥٣٠.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿يَعْكُفُونَ﴾ بكسر الكاف، الباقون بضمّها، وهما لغتان، ومثله «يفسقون» بكسر السين والضمّ في أمثال ذلك. «المجاوِزة»: الإخراج عن الحدّ، [يقال: جاوزَ الوادي جوازاً إذا قطعه وخلفه وراءه، أو] تقول: جازَ يَجُوزُ جَوازاً، وأجازَهُ إجازَةً، وجاوزَهُ مجاوزَةً، وتجاوزَ تَجاوزاً، واجتاز اجتيازاً، وتَجَوَّزَ تَجَوُّزاً، وجَوَّزَهُ تَجْوِيزاً، واستَجَازَ استجازَةً.

و ﴿البحر﴾: الواسع العظيم السعة من مستقرّ الماء ممّا هو أعظم من كلّ نهر، وأصله: السعة، ومنه: «الْبَحِيرَةُ» التي يُخَرَّزُ أَذْنُهَا أَي: تُوسَّعُ شَقَّتُهَا، وَتَبَحَّرَ فِي الْعِلْمِ: إِذَا اتَّسَعَ فِيهِ وَقَوِيَ تَصَرُّفُهُ بِهِ.

أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّهُ حينَ أَجازَ قومَ موسى وقطعَ بهم البحرَ، وأنجاهم من العدوِّ، وأغرقَ عدوَّهُم فِرْعَوْنَ وقومه، وأنَّهم لَمَّا بلغوا إلى قومٍ عاكفين ﴿على أصنامٍ لهم﴾ ومعنى «العُكُوف»: اللزوم للأمر بالإقبال عليه والمراعاة له، تقول: عَكَفَ عُكُوفاً، واعتَكَفَ اعتكافاً، ومنه: «الاعتكاف»: لزوم المسجد للعبادة فيه، وَعَكَفَ عليه أَي: وَاظَبَ عليه.

وأنَّهُ لَمَّا رأى قومَ موسى أولئك العاكفين على أصنامهم والملازمين لها دعاهم حَبِلَّتْهُمْ إلى التشبّه بعبدة الأوثان، لما في طَبِيعِ الإنسان من الحِكَايَةِ^(١) أن قالوا لموسى: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ وفي طَبِيعِ كُلِّ حيوان الحِكَايَةِ، وأقوى الحيوان طبعاً في الحِكَايَةِ الفِرْد، وله حكايات عجيبة. وهذا الطلب منهم يدلّ على جهل عظيم من بني إسرائيل بعد ما رأوا الآيات التي توالى على فِرْعَوْنَ وقومه حتّى غرّقهم الله في البحر بكفرهم

(١) حَكَيْتَ فلاناً وحاكَيْتَهُ: فَعَلْتَ مثل فِعْلِهِ، أو قلت مثل قوله سواءً لم تجاوزه. (لسان العرب).

بعدما نجى بني إسرائيل، فلم يردعهم ذلك عن أن قالوا لموسى عليه السلام: ﴿اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ وتوهمهم أنه يجوز عبادة غير الله، وإن اعتقدوا أنه لا يشبه الأشياء ولا تشبهه، ولا يدل طلبهم ذلك على أنهم مشبهه، لما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ حكاية عما أجابهم به موسى عليه السلام فقال لهم: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ من المستحق للعبادة، وما الذي يجوز أن يتقرب به إلى الله تعالى، ويحتمل أن يكون أراد: تجهلون من صفات الله ما يجوز عليه وما لا يجوز.

قوله تعالى:

إِنْ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ آية بلا خلاف.
أقول: في هذه الآية حكاية عما قال موسى عليه السلام لقومه حين سأله أن يجعل لهم إلهاً بعد أن قال لهم: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ ما يجوز أن يُعبد وما لا يجوز، وأنه أخبرهم ﴿أن هؤلاء مُتَّبِعُونَ ما هم فيه﴾ يشير فيه إلى العابد والمعبود من الأصنام ومعناه: مُهْلَك، فالمتَّبِعُونَ: المُهْلَك المدمر عليه، والتَّبَار: الهلاك، ومنه: قوله تعالى: ﴿ولا تزد الظالمين إلا تَبَاراً﴾^(١) ومنه: «الْيَبْرُ» للذهاب سُمِّي بذلك لأمرين: أحدهما: أن معدنه مهلكة، وقال الزجاج: يقال لكل إناءٍ متكسّرٍ [مكسّر]: مُتَّبِرٌ، وكُسَارَتُهُ: تَبْرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ فالبطان: انتفاء المعنى بعدمه، وبأنه لا يصح في عدم ولا وجود، والمعنى في بطلان عملهم: أنه لا يعود عليهم بنفع ولا يدفع ضرر، فكأنه بمنزلة ما لم يكن من هذا الوجه.

و«العمل»: إحداث ما به يكون الشيء على تقيض ما كان، وهو على ضربين: أحدهما: إحداث المعمول، والآخر: إحداث ما يتغير به. و«هؤلاء» أصله: «أولاء» أدخلت عليه هاء التنبيه، وهو مبني، لتضمنه معنى الإشارة المعرفة، وهو مع ذلك مستبهم استبهم الحروف، إذ هو مفتقر في البيان عن معناه إلى غيره. قوله تعالى:

قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْآلِهِينَ ﴿١٠﴾ آية بلا خلاف. أقول: في هذه الآية إخبار أيضاً عما قال موسى لقومه بعد إزرائه على الأصنام وعلى من كان يعبدها، وأن ما يفعلونه باطل مهلك: أطلب غير الله لكم إلهاً؟! قاله على وجه الإنكار عليهم وإن كان بلفظ الاستفهام، فنصب ﴿أغير الله﴾ على أنه مفعول به، ونصب ﴿إلهاً﴾ على أحد شيئين: أحدهما: كأنه قال: أطلب لكم غير الله تعالى معبوداً؟! والثاني: أن يكون نصب ﴿إلهاً﴾ على أنه مفعول به، ونصب ﴿غير﴾ على الحال التي لو تأخرت كانت صفة.

و«بغى» يتعدى إلى مفعولين، و«طلب» يتعدى إلى مفعول واحد، لأن معنى بغاه الخير: أعطاه الخير، وليس كذلك «طلب» لأنه غير مضمن بالمطلوب، وقد يجوز أن يكون بمعنى: أبغي لكم.

وقوله: ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال الحسن وأبو علي وغيرهما: يريد: على عالمي زمانهم. الثاني: معناه: خصكم بفضائل من النعم بالآيات التي آتاكم، وإرسال موسى وهارون وهما رجلان منكم، ومن إهلاك عدوكم بالتنزيق في البحر، ونجاتكم، وكل ذلك بمرأى ومسمع منكم.

والفرق بين «التعظيم» و «التفضيل»: أنَّ «التفضيل» يدلُّ على فضل في النفس، وهو زيادة على غيره، وليس كذلك «التعظيم» ولذلك جاز وصف الله تعالى بالتعظيم ولم يجز بالتفضيل.
قوله تعالى:

وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ أَلْعَذَابِ يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ آية .

أقول: قرأ ابن عامر: ﴿أنجاكم [نجاكم، خ]﴾ على لفظ الماضي، الباقون: ﴿أنجيناكم﴾. وقرأ نافع وحده ﴿يقتلون﴾ بالتخفيف، الباقون بالتشديد. من شدد أراد التكثير، ومن خفف فلائنه يحتمل القلة والكثرة.

وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة^(١) فلا وجه للتطويل بتفسيرها، وإنما نذكر جملها، فنقول: هذا خطاب لبقية بني إسرائيل الذين كانوا في زمن النبي ﷺ فقال لهم على وجه الامتنان عليهم بما أنعم على آبائهم وأسلافهم: واذكروا ﴿إذ أنجيناكم من آل فِرْعَوْنَ﴾ بمعنى: خلصناكم، لأنَّ «النجاة»: الخلاص مما يخاف إلى رفعة من الحال، وأصله: الارتفاع، فمنه: «النجاء» أي: الارتفاع في السير، ومنه: قوله ﴿نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا﴾^(٢) أي: نلقيك على نَجْوَةٍ من الأرض، و «النَّجْوُ»: كناية عن الحَدَث، لأنَّه كان يُلقَى بارتفاع من الأرض للإبعاد به، وقد كان أيضاً يطلب به الانخفاض للإبعاد به.

والفرق بين «أنجيناكم» وبين «نَجِّيناكم»: أنَّ أَلْف «أنجيناكم» للتعدية، وتشديد «نَجِّيناكم» يحتمل التعدية، ويحتمل التكثير.

وقوله تعالى: ﴿يسومونكم﴾ معناه: يولونكم إكراهاً، ويحملونكم إذلالاً ﴿سوء العذاب﴾ وأصل «السَّوْم» مجاوزة الحدّ، فمنه: «السَّوْمُ في البيع» وهو تجاوز الحدّ في السعر إلى الزيادة، ومنه «السائِمة من الإبل»: الراعية، لأنّها تجاوزت حدّ الإنبات للرعي، ومنه: فلان سيم الخسف أي: ألزمه إكراهاً. و «السَّوء» مأخوذ من أنّه يسوء النفس لنافريّة لها.

﴿يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم﴾ معناه: أن فرعون كان يقتل من تولّد من بني إسرائيل ذكراً ويستتبيح الإناث للاستخدام.

وقوله تعالى: ﴿وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ فالمراد بالبلاء هاهنا: النعمة، وقد يكون بمعنى «النقمة» وأصله: المِخْنَةُ، فتارةً تكون المحنة بالنعمة، وأخرى بالنقمة، وبالخير تارةً وبالشرّ أخرى.

قوله تعالى:

وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قيل في فائدة قوله: ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشر﴾ ولم يقل: «أربعين ليلة» أقوال:

أحدها: أنّه أراد شهراً وعشرة أيّام متوالية، وقيل: أنّه ذو القعدة وعشر من ذي الحجة ولو قال: «أربعين ليلة» لم يعلم أنّه كان الابتداء أوّل الشهر، ولا أنّ الأيّام كانت متوالية، ولا أنّ الشهر شهرٌ بعينه، هذا قول الفراء، وهو معنى قول مجاهد وابن جرّيج ومسروق وابن عباس وأكثر المفسرين.

الثاني: إنّ المعنى: وعدناه ثلاثين ليلة يصوم فيها ويتفرّد للعبادة بها، ثمّ أتمّت بعشرٍ إلى وقت المناجاة، وقيل: في العشر نزلت التوراة فلذلك

أَفَرِدْتَ بِالذِّكْرِ.

الثالث: قال أبو جعفر عليه السلام: «كان أول ما قال لهم: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً، ليسهل عليهم، ثم زاد عليهم عشراً، وليس في ذلك كذب، لأنه إذا تأخر عنهم أربعين ليلة فقد تأخر ثلاثين قبلها».

وقال الحسن: كان الموعد أربعين ليلة في أصل الوعد، فقال في البقرة: ﴿واعدنا موسى أربعين ليلة﴾ ^(١) وفصله هاهنا على وجه التأكيد فقال: ﴿ثلاثين ليلة وأتمناها بعشر﴾.

وقوله تعالى: ﴿فتمّ ميقات ربه أربعين ليلة﴾ ومعناه: فتمّ الميقات أربعين ليلة، وإنما قال ذلك مع أن ما تقدّم دلّ على هذا العدد، لأنه لو لم يورد الجملة بعد التفصيل - وهو الذي يسمّيه الكتاب: الفُذْلَكَة - لظنّ قوله: ﴿وأتمناها بعشر﴾ أي: كملنا الثلاثين بعشر حتى كملت ثلاثين، كما يقال: تَمَّمت العشرة بدرهمين وسلّمتمها إليه.

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿واعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾: ينفرد فيها للعبادة في المكان الذي وُقِّت له ثم أتم الأربعين.

والفرق بين «الميقات» و «الوقت»: أن «الميقات» ما قُدِّر ليعمل فيه عمل من الأعمال، و «الوقت»: وقت الشيء قَدَّره مقدّر أو لم يقدِّره، ولذلك قيل: «مواقيت الحج» وهي المواضع التي قُدِّرت للإحرام به.

وقوله تعالى: ﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبّع سبيل المفسدين﴾ الذين يفسدون في الأرض، وإنما أمره بذلك مع أنّه نبيّ مرسل، لأنّ الرياسة كانت لموسى عليه السلام على هارون وجميع

أُمته، ولم يكن يجوز أن يقول هارون لموسى مثل ذلك.
 وقال أبو علي: السبعون الذين اختارهم موسى للميقات كانوا معه في هذا الخروج، وسمعوا كلام الله لموسى ﷺ وكانوا شهدوا له بذلك.
 وقوله: ﴿هارون﴾ في موضع جرٍّ، لأنّه بدل من قوله: ﴿لأخيه﴾ وإنما فُتِحَ لأنّه لا ينصرف، ولو رُفِعَ على النداء كان جائزاً، ولم يقرأ به أحد.
 قوله تعالى:

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِيَّ
 وَلَكِنِ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيَّ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ
 جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ ثُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الحجاز إلّا عاصماً: ﴿دكاً﴾ بالمدّ والهمزة من غير
 تنوين هاهنا وفي الكهف^(١) واقفهم عاصم في الكهف، الباقون: ﴿دكاً﴾
 منونة مقصورة في الموضعين.

قال أبو زيد: يقال: دَكَّكَتْ على الميتِ التراب أدُّكُّه دكاً: إذا دفنته
 وأهلّت عليه، وهما بمعنى واحدٍ، ودَكَّكَتْ الرَكِيَّةُ دكاً: إذا دفنتها، ودكَّ
 الرجل فهو مذكوك: إذا مرض. وقال أبو عبيدة^(٢): ﴿جعله دكاً﴾ أي:
 مندكاً، والدكّ والدكة مصدره، و«ناقة دكاء»: ذاهبة السنّام، و«الدكّ»
 المستوي، وأنشد للأغلب:

هل غير عارٍ دكّ عاراً فانهدم
 وقال أبو الحسن^(٣): لمّا قال ﴿جعله دكاً﴾ فكأنّه قال: دكّه، وأراد جعله

(٢) في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٢٨.

(١) الآية: ٩٨.

(٣) وهو الأخفش في معاني القرآن: ج ٢ ص ٥٣٢.

ذا دكَّ، ويقال: «دكَّاء» جعلوها مثل الناقة الدكَّاء التي لا سَنَام لها.

قال أبو عليّ الفارسي: المضاف محذوف على تقدير أبي الحسن، وفي التنزيل: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾^(١) وقال: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾^(٢).

وقال الرُّماني: معنى ﴿دكَّا﴾: مستويًا بالأرض، يقال: دَكَّه يَدْكُهُ دَكًّا إذا سَحَقَهُ سَحْقًا، ومنه: الدَّكَّة، وأندكَّ السَنَام: إذا لصق بالظهر.

وقال الزجاج: ﴿دكَّا﴾ يعني: مدقوقًا مع الأرض، و «الدكَّاء» و «الدكَّاوات»: الروابي التي مع الأرض ناشزة عنها، لا تبلغ أن تكون جبلاً. وقيل: إنَّه سَاخَ في الأرض، في قول الحسن وسُفَيان وأبي بكر الهذلي. وقال ابن عباس: صار تراباً، وقال حميد:

يَدْكُ أَرْكَانَ الْجِبَالِ هَزَمُهُ يَخْطُرُ بِالْبَيْضِ الرِّقَاقِ بُهْمُهُ^(٣)

وقيل في معنى قراءة مَنْ قرأها ممدودةً قولان:

أحدهما: إنَّه شَبَّهَ الجبل بالناقة التي لا سَنَام لها فيقال لها: دكَّاء، فكأنَّه قال: فجعله مثل دكَّاء. الثاني: فجعله أرضاً دكَّاء.

أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّ موسى ﷺ لَمَّا جَاءَ إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ وَهُوَ الْمَوْضِعَ الَّذِي وَقَّتَهُ لَهُ، وَكَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ سَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يَرِيهَ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِ.

واختلف المفسِّرون في وجه مسألة موسى ﷺ ذلك، مع أَنَّ الرُّؤيةَ بالحَاسَّةَ لا تجوز عليه تعالى على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنَّه سَأَلَ الرُّؤيةَ لِقَوْمِهِ حِينَ قَالُوا لَهُ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى

الله جهرَةً ﴿١﴾ بدلالة قوله: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ (٢).

فإن قيل: على هذا ينبغي أن يجوزوا أن يسأل الله تعالى: هل هو جسم أم لا؟ أو يسأله الصعود والنزول، وغير ذلك ممّا لا يجوز عليه. قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أنّه يجوز ذلك إذا علم أنّ في ورود الجواب من جهة الله مصلحة، وأنّه أقرب إلى زوال الشبهة عن القوم بأن ذلك لا يجوز عليه تعالى، كما جاز في ذلك في مسألة الرؤية.

وقال الجبائي: إنهم سألوا الله تعالى قبل ذلك هل يجوز عليه تعالى النوم أم لا؟ وقالوا له: سل الله ذلك أن يبين لنا [ذلك]، فسأل الله تعالى ذلك، فأمره بأن يأخذ قدحين يملأ أحدهما ماءً والآخر دهناً، ففعل، وألقى عليه النعاس، فضرب أحدهما على الآخر فانكسرا، فأوحى الله تعالى إليه: أن لو جاز عليه تعالى النوم لاضطرب أمر العالم، كما اضطرب القدحان في مدّة حتّى تكسرا.

والجواب الثاني عن هذا السؤال: أنّه إنّما يجوز أن يسأل الله ما يمكن أن يعلم صحّته بالسمع، وما يكون الشكّ فيه لا يمنع من العلم بصحّة السمع، وإنّما يمنع من ذلك سؤال الرؤية التي تقتضي الجسميّة والتشبيه، لأنّ الشكّ في الرؤية التي لا تقتضي التشبيه مثل الشكّ في رؤية الضمائر والاعتقادات وما لا يجوز عليه الرؤية، وليس كذلك الشكّ في كونه جسماً أو ما يتّبع كونه جسماً من الصعود والنزول، لأنّ مع الشكّ في كونه جسماً لا يصحّ العلم بصحّة السمع من حيث إنّ الجسم لا يجوز أن يكون غنياً

ولا عالماً بجميع المعلومات، وكِلَاهُما لا بَدَّ فيه من العلم بصحّة السمع،
فلذلك جاز أن يسأل الرؤية التي لا توجب التشبيه، ولم يجر أن يسأل
كونه جسماً وما أشبهه.

والجواب الثاني في أصل المسألة: أَنَّهُ سأل العلم الضروري الذي
يحصل في الآخرة ولا يكون في الدنيا، ليزول عنه الخواطر والشبهات،
والرؤية تكون بمعنى العلم، كما تكون الإدراك بالبصر، كما قال: ﴿ألم تر
كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ ^(١) وأمثاله. وللأنبياء أن يسألوا ما يزول
عنهم الوسوس والخواطر، كما سأل إبراهيم ربه فقال: ﴿رب أرني كيف
تُحيي الموتى﴾ ^(٢) غير أَنَّهُ سأل ما يطمئن قلبه إلى ذلك، وتزول عنه
الخواطر والوسوس، فبيّن الله تعالى له أَنّ ذلك لا يكون في الدنيا.

الثالث: أَنَّهُ سأل آيةً من آيات الساعة التي يُعَلِّم معها العلم الذي
لا يختلج فيه الشكّ كما يعلم في الآخرة، وهذا قريب من الثاني.

وقال الحسن والزبيع والسُّدِّي: إِنَّهُ سأل الرؤية بالبصر على غير وجه التشبيه.
وقوله: ﴿لن تراني﴾ جواب من الله تعالى لموسى أَنَّهُ لا يراه على
الوجه الذي سألّه، وذلك دليل على أَنَّهُ لا يُرَى لا في الدنيا ولا في
الآخرة، لأنّ «لن» تنفي على وجه التأييد، كما قال: ﴿ولن يتمنوه أبداً﴾ ^(٣)
وهذا إنّما يمكن أن يعتمد من قال بالجواب الأوّل، فأما من قال: إِنَّهُ سأل
العلم الضروري أو علماً من أعلام الساعة لا يمكنه أن يعتمد، لأنّ ذلك
يحصل في الآخرة، فيجري ذلك مجرى اختصاص الرؤية بالبصر على
مذهب المخالف بحال الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ معناه: إن استقرَّ الجبل في حال ما جعله دكاً متقطعاً فسوف تراني، فلما كان ذلك محالاً لأنَّ الشيء لا يكون متحرّكاً ساكناً في حال واحدة، كانت الرؤية المتعلقة بذلك محالة، لأنَّه لا يعلّق بالمحال إلّا المحال.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ معناه: ظهر بآياته التي أحدثها في الجبل لحاضري الجبل بأن جعله دكاً، وقيل: إنَّ الله تعالى أبرز من ملكوته ما تدكّدك به، إذ في حكمه أن الدنيا لا تقوم لما يبرز من الملكوت الذي في السماوات، كما قيل^(١): إنَّه أبرز الخنصر من العرش. ويجوز أن يكون المراد ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ﴾ لأهل الجبل، كما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾^(٢) و «التجلى»: هو الظهور، ويكون ذلك تارةً بالرؤية، وأخرى بالدلالة، قال الشاعر:

تَجَلَّى لَنَا بِالْمَشْرِفَةِ وَالْقَنَا وَقَدْ كَانَ عَنْ وَقْعِ الْأُسْتَةِ نَائِيَا
وإنما أراد الشاعر: أن تدبيره دلّ عليه حتّى علم أنّه المدبّر لذلك، وأنّ تدبيره صواب، فقال: «تجلى» أي: علم، ولم يُرَ بالأبصار، ولا أدرك بالحواس، لأنَّه كان عن وَقْعِ الْأُسْتَةِ نَائِيَا، ولكن استدلّ عليه بحسن تدبيره.

وقال قوم: معناه: فلما تجلّى بالجبل لموسى، قالوا: وحروف الصفات تتعاقب فيكون اللام بمعنى الباء. وقال قوم: لو أراد موسى الرؤية بالبصر لقال: أريتكَ، أو: أرني نفسك، ولا يجوز غير ذلك في اللغة. وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعْقاً﴾ قيل في معنى ذلك قولان:

(١) قاله ابن عباس، ورواه أنس عن النبي ﷺ. أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٣٧ بسنده عنه.
(٢) يوسف: ٨٢.

أحدهما: قال ابن عباس والحسن وابن زيد وأبو عليّ الجُبائي: إنّه وقع مغشياً عليه من غير أن مات بدلالة قوله: ﴿فلَمَّا أَفَاقَ﴾ ولا يقال للميت إذا عاش: أفاق، وإنّما يقال: عاش أو حيي. وقال قتادة: معناه: مات. وقوله: ﴿قال سبحانه تبت إليك﴾ قيل في معنى «توبته» ثلاثة أقوال: أحدها: إنّه تاب، لأنّه سأل قبل أن يُؤذَن له في المسألة، وليس للأنبياء ذلك.

الثاني: إنّه تاب من صغيرة ذكّرها.

الثالث: إنّه قال ذلك على وجه الانقطاع إليه والرجوع إلى طاعته وإن كان لم يعص، وهذا هو المعتمد عندنا دون الأولين، على أنّه يقال لمن جوّز الرؤية على الله تعالى: إذا كان موسى عليه السلام إنّما سأل ما يجوز عليه فمن أيّ شيء تاب؟ فلا بدّ لهم من مثل ما قلناه من الأجوبة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون تجويز الرؤية صغيراً مع أنّه جهل بالله، على مذهب من قال: إنّه كان ذلك صغيرة؟!

قيل: لأنّه إذا لم تكن الرؤية المطلوبة على وجه التشبيه جرى مجرى تجويزه: أن تكون هذه الحركة من مقدورات الله في أنّه لا يخرجها من أن يكون عارفاً به تعالى، وإنّما شكّ في الرؤية والحركة.

وقوله: ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ قيل في معناه قولان:

أحدهما: قال الجُبائي: أنا أول المؤمنين بأنّه لا يراك شيء من خلقك، [فأنا أول المؤمنين من قومي باستعظام سؤال الرؤية.

الثاني: قال مجاهد: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل.] ^(١)

قوله تعالى:

قَالَ يَمْؤُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَاءً آتِيكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل الحجاز وَرَوْح: ﴿برسالتني﴾ على التوحيد، الباقيون: ﴿برسالاتني﴾ على الجمع. و «الرسالة» تجري مجرى المصدر، فتفرد في موضع الجمع، وإن لم يكن المصدر من «أرسل» يدلّك على أنّه جارٍ مجراه قول الأعشى:

مَقَادُكَ بِالْخَيْلِ أَرْضَ الْعَدُوِّ وَجُدْعَانُهَا كَلْقِيطَةِ الْعَجَمِ^(١)

فإعماله إياها إعمال المصدر بذلك على أنّه يجري مجراه، والمصدر قد يقع لفظ الواحد فيه والمراد به: الكثرة، وكان المعنى على الجمع، لأنّه مرسل لضروب من الرسالة، والمصادر قد تجمع مثل: «الحلوم» و«الألباب» وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾^(٢) فجمع «الأصوات» لما أريد بها أجناس مختلفة، صوت الحمار بعضها، فأفرد «صوت الحمار» وإن كان المراد به الكثرة، لأنّه صوت واحد.

أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنّه نادى موسى ﷺ وقال له ﴿يَا موسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ﴾ ومعنى «الاصطفاء»: استخلاص الصفوة لما لها من الفضيلة، والفضائل على وجوه كثيرة، أجلّها: قبول الأخلاق الكريمة والأفعال الجميلة، ولهذا المعنى اصطفي موسى ﷺ حتّى استحقّ الرسالة، وأن يكلم بتلقين الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿برسالاتني وبكلامي﴾ فيه بيان ما به اصطفاه، وهو أن

(١) من قصيدة يمدح قيس بن معد يكرب. راجع ديوان الأعشى: ص ٢٠٠.

(٢) لقمان: ١٩.

جعلهُ نبيّاً وخَصَّهُ بكلامه بلا واسطة، وهما نعمتان عظيمتان منه تعالى عليه، فلذلك امتنَّ بهما عليه، وإنَّما صار في كلام الجليل نعمة على المُكَلِّم، لأنَّه كلَّمه بتعليم الحكمة من غير واسطة بينه وبين موسى، ومن أخذ العلم عن العالم المعظم كان أجَلَّ رتبةً، ولو كلَّم إنساناً بالانتهار والاستخفاف لكان نقمةً عليه بالضدِّ من تلك الحال.

وقوله تعالى: ﴿فخذ ما آتيتك﴾ معناه: تناول ما أعطيتك ﴿وكن من الشاكرين﴾ يعني: من المعترفين بنعمتي، و «الشكر»: هو الاعتراف بالنعمة مع القيام بحَقِّها على حسب مرتبتها، فإذا كانت من أعظم النعم وجب أن تُقابل بأعظم الشكر، وهو شكر العباد لله وحده على وجه الإخلاص له.

قوله تعالى:

وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكِ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأَوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى في هذه الآية: أنَّه كتب لموسى ﷺ في الألواح من كلِّ شيء موعظةً وتفصيلاً لكلِّ شيء، وقال الجُبَّائي: «المكتوب في الألواح»: التوراة، فيها أخبار الأمم الماضية، وفُصِّل فيها الحرام والحلال.

و «الألواح»: جمع لوح، وقال الزجاج: كانا لوحين فجمع، قال: ويجوز أن تكون ألواحاً جماعة، واللوح: صفيحة مهيأة للكتابة فيها، وقد يُقال: «لوح فضة» تشبيهاً باللوح من الخشب، ومثله لو عُمل من حجر.

وقال الحسن: وكانت الألواح من خشب نزلت من السماء.

ومعنى «كتبنا له من كلِّ شيء»: «كتبنا» إليه [كل ما] في شرعه من حلال وحرام، وحسن وقبيح، وواجب وندب، وغير ذلك ممَّا يحتاجون إلى معرفته. وقيل: كتب له التوراة فيها من كلِّ شيء من الحُكْم والعيَر.

وأصل «اللوح»: اللمع، يُقال: لَاحَ الأمر يلُوح لَوْحاً وَلَوْحاً إذا لَمَعَ وتَلَأَّأَ، و «التلويح»: تضمير، وَلَوْحُه السفرُ والعطشُ: إذا غَيَّرَه تغييراً تَبَيَّنَ عليه أثره، لأنَّ حاله يَلُوح بما نزل به، و «اللُّوح»: الهواء لأنَّه كاللامع في هبوبه، و «اللُّوح» مأخوذ من أنَّ المعاني تُلَوِّح بالكتابة فيه.

و «الموعظة»: التحذير بما يزرع عن القبيح وتبصر مواقع الخوف، تقول: وَعَظَته يَعْظُهُ وَعَظاً وَمَوْعِظَةً، وَاتَّعَظَ اتِّعَظاً: إذا قَبِلَ الوَعْظَ.

وقوله: ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ يعني: تمييزاً لكل ما يحتاجون إليه.
وقوله: ﴿فخذها بقوة﴾ قيل: معناه: بجِدٍّ واجتهاد. وقيل: بصحَّة عزيمة، ولو أخذَه بضعف نيَّةٍ لَأَذَاهُ إلى فتور العمل به.

وقوله: ﴿وأمرُ قومك يأخذوا بأحسنها﴾ معناه: يأخذوا بأحسن المحاسن، وهي الفرائض والنوافل، وأذونها في الحسن: المباح، لأنَّه لا يستحقُّ عليه حمد ولا ثواب، وقال الجُبَّائي: أحسنها: الناسخ دون المنسوخ المنهي عنه، لأنَّ العمل بهذا المنسوخ قبيح.

قال الزجاج: ﴿يأخذوا بأحسنها﴾ معناه: بما هو حسن دون ما هو قبيح. وهذا تأويل بعيد، لأنَّه لا يقال في الحسن: إنَّه أحسن من القبيح. ويجوز أن يكون المراد ﴿بأحسنها﴾ حسنها، كما قال تعالى: ﴿وهو أهون عليه﴾^(١) ومعناه: هيِّن.

ويحتمل أن يكون أراد ﴿بأحسنها﴾: إلى ما دونه من الحسن، ألا ترى أنَّ استيفاء الدِّين حسن وتركه أحسن، وأمَّا القصاص في الجنايات فحسن والعفو أحسن، ويكون ذلك على وجه الندب.

وقوله عزّ وجلّ: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ قال الحسن ومجاهد والجُبَّائِي: يعني به: جهنّم، والمراد به: فليكن منكم على ذِكْرٍ لتحذروا أن تكونوا منهم.

وقال قتادة: هي منازلهم، أي: لتعتبروا بها وبما صاروا إليه من النكال فيها. قوله تعالى:

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿الرُّشْدُ﴾ بفتح الراء والشين، الباقون بضم الراء وسكون الشين.

وفرق بينهما أبو عمرو بن العلاء فقال: «الرُّشْدُ» بضم الراء: الصلاح، كقوله: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُّشْدًا﴾ ^(١) أي: صلاحاً لدفعه إليهم: و «الرَّشْدُ» الاستقامة في الدين، كقوله: ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُّشْدًا﴾ ^(٢) ^(٣).

وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد، مثل: الحُزْنُ والحَزَنُ، والسُقْمُ والسَقَمُ، و «الرُّشْدُ»: سلوك طريق الحق، تقول: رَشَدَ يَرُشِدُ رَشَادًا، وَرَشِدَ يَرُشِدُ رُشْدًا، وَأَرَشَدَهُ إِرْشَادًا، واسترشد استرشاداً، وضده «الغي»: غَوِيَّ يَغْوِي غِيًّا وَغَوَايَةً، وَأَغْوَاهُ إِغْوَاءً، واستغواه استغواءً.

وقال الجُبَّائِي والرُّمَّانِي: معنى ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي﴾ أي: سأصرف عن آياتي من العزِّ والكرامة بالدلالة التي كسبت الرفعة في الدنيا والآخرة.

(١) النساء: ٦. (٢) الكهف: ٦٦.

(٣) كذا، والآية كما هو ظاهر لا تؤيد المطلوب، لعله أراد الآية: ١٠ من الكهف: ﴿وَهَيَّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رُشْدًا﴾ كما ذكره النحاس في إعراب القرآن.

ويجوز أن يكون معناه: أي أحكم عليهم بالانصراف وأسمعهم^(١) بأنهم منصرفون عنها، لأنهم قد انصرفوا عنها، كما قال ﴿ثُمَّ انصرفوا صَرَفَ اللَّهِ قلوبهم﴾^(٢).

ويحتمل أن يكون المراد: إنني سأصرفهم عن التوراة والقرآن، وما أوحى الله من كتبه، بمعنى: أمنعهم من إفساده وتغييره وإبطاله، لأنه قال في أول الآية: ﴿وكتبنا له في الألواح﴾ إلى قوله تعالى: ﴿سأصرف عن آياتي﴾. ويجوز أن يكون المراد: سأريهم آياتي فينصرفون عنها وهم الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق كما يقول القائل سأحير فلاناً أي أسأله عن شيء فيتحير عند مسألتي، وسأنجل فلاناً، أي: أسأله ما ينجل عنده، وكذلك يقال: سأقطع فلاناً بكلامي، والمراد: أنه سينقطع عند كلامي، وكل ذلك واضح بحمد الله.

ويجوز أن يكون المراد: أنهم لما عاندوا وتمردوا بعد لزوم الحجة لهم وحضروا للتبليس والشغب على ما حكاه الله عنهم أنهم قالوا ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه﴾^(٣) صَرَفَهُمُ اللَّهُ بلطفه عن الحضور كما كانوا يحضرونه. ويحتمل أن يكون المراد: سأصرف عن جزاء آياتي.

ومن زعم أنه بمعنى: «سأصرف عن الإيمان بآياتي» فقد أخطأ، لأنه تعالى لا يأمر بالإيمان ثم يمنع منه، لأن حكيمته تمنع من ذلك. و«الصرف»: نقل الشيء إلى خلاف جهته، يقال: صَرَفَهُ يَصْرِفُهُ صَرْفاً، وصَرَفَهُ تصريفاً، وتصَرَفَ تَصْرِفاً، وصارفه مصارفة، وانصرف انصرافاً.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ والتكبر: إظهار كبر

(١) في مخطوطة: أسمعهم.

(٢) التوبة: ١٢٧.

(٣) فصلت: ٢٦.

النفس على غيرها، وصفة «متكبر» صفة ذم في جميع البشر، وهو مدح في صفات الله تعالى، لأنه يستحق إظهار الكبر على كل شيء سواه، لأن ذلك حق، وهذا المعنى في صفة غيره باطل.

فمعنى الآية: الإخبار من الله أنه يصرف عن ثواب آياته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ يعني: الذين إذا شاهدوا الحُجَج والبراهين لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها ﴿وإن يروا سبيل الرُّشد لا يتخذوه سبيلاً﴾ ومعناه: أنهم متى رأوا سبيل الصلاح عدلوا عنه ولم يتخذوه طريقاً لهم، بمعنى: أنهم لا يعملون بذلك ﴿وإن يروا سبيل الغي﴾ يعني: وإن يروا ضدَّ الرُّشد من الكفر والضلال سلكوه، وارتكبوا معصية الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا﴾ يحتمل ﴿ذلك﴾ أن يكون في موضع رفع أي: أمرهم ذلك، ويحتمل أن يكون نصباً أي: فعلنا بهم ذلك، لأنهم تكبروا وكذبوا، ومعناه: أفعال ذلك بهم، يعني: صرفي لهم عن ثواب الآيات الجزيل والمنزلة الجليلة.

ومن قال من المجبِّرة: إنَّ الله تعالى يصرفه عن الإيمان قوله باطل، لأنه تعالى لا يجوز أن يصرف أحداً عن الإيمان، لأنه لو صرفه عنه ثم أمره به لكان كلفه ما لا يطيقه، وذلك لا يجوز عليه تعالى. وأيضاً: فإنَّ الله تعالى بيَّن أنه يصرفهم عن ذلك مستقبلاً جزاءً لهم على كفرهم الذي كفروا، فكيف يكون ذلك صرفاً عن الإيمان؟!

وقيل: إنَّ معنى الآية أي: سأصرف عن آياتي ولا أظهرها لهم كما أظهرتها للمؤمنين، ويريد بذلك: المعجزات الباهرات، لعلمي بأنَّ إظهارها مفسدة لهم يزدادون عندها كفراً، تبين ذلك في قوله تعالى: ﴿وإن يروا

سبيل الرُّشد لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴿١٤٦﴾
 وقيل: معناه: سأصرف عن إبطالها والطعن فيها بما أظهره من حُجَجِها.
 كما يقال: سأمنعك من فلان أي: من أذاه، ذكره البلخي.
 قوله تعالى:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا إخبار من الله تعالى: أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ، وجحدوا البعث والنشور في ﴿الآخرة﴾ وهي الكَرَّةُ الثانية، لَأَنَّهُ حَقِيقٌ عَلَى مَنْ عَرَفَ النِّشْأَةَ الْأُولَى إِلَّا يَنْكَرُ النِّشْأَةَ الْآخِرَى، لَأَنَّ الَّذِي قَدَّرَ عَلَى الْأُولَى فَهُوَ عَلَى الثَّانِيَةِ أَقْدَرُ، كما أَنَّ مَنْ بَنَى دَاراً ابْتِدَاءً فَهُوَ عَلَى إِعَادَتِهَا أَقْدَرُ.
 وأصل «اللقاء»: التَّقاءَ الْحَدِيثَيْنِ، ثُمَّ يَحْمَلُ عَلَيْهِ الْإِدْرَاكُ، فَيُقَالُ لِمَا أَدْرَكَتْه لَقَيْتَهُ، فَهَؤُلَاءِ كَذَّبُوا بِإِدْرَاكِ الْآخِرَةِ اسْتِبْعَاداً لِكُونِهَا.

وقوله: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ إخبار من الله تعالى: أَنَّ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وجحد البعث والنشور يَتَحَبَّطُ أَعْمَالُهُ، لَأَنَّهَا تَقَعُ عَلَى خِلَافِ الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَحَقُّ بِهَا الْمَدْحَ وَالثَّوَابَ، فَيَصِيرُ وجودها وعدمها سواء، و«الْحُبُوطُ»: سَقُوطُ الْعَمَلِ حَتَّى يَصِيرَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَمْ يُعْمَلْ، وَأَصْلُ «الْإِحْبَاطِ»: الْفَسَادُ، مُشْتَقٌّ مِنْ «الْحَبَطِ» وَهُوَ دَاءٌ يَأْخُذُ الْبَعِيرَ فِي بَطْنِهِ مِنْ فُسَادِ الْكَلَأِ عَلَيْهِ، يُقَالُ: حَبِطَتِ الْإِبِلُ تَحْبِطُ حَبْطاً إِذَا أَصَابَهَا ذَلِكَ، وَإِذَا عَمِلَ الْإِنْسَانُ عَمَلاً عَلَى خِلَافِ الْوَجْهِ الَّذِي أُيِّرَ بِهِ يُقَالُ: أَحْبَطَهُ، بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَعْمَلُ شَيْئاً ثُمَّ يَفْسُدُ.

وقوله: ﴿هَلْ يَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ صورته صورة الاستفهام والمراد به: الْإِنْكَارُ وَالتَّوْبِيخُ، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ يَجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ: إِنَّ خَيْراً فَخيراً وَإِنْ شَرّاً فَشَرّاً.

قوله تعالى:

وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَغْدِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ
لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ آية بلا خلاف.
أقول: قرأ حمزة والكسائي: ﴿من حِلْيَتِهِمْ﴾ بكسر الحاء واللام، الباقون
بضمّ الحاء وكسر اللام وتشديد الياء، قرأ يعقوب بفتح الحاء وسكون اللام
وتخفيف الياء.

فوجه قراءة يعقوب: أن «الحلي» اسم جنس يقع على القليل والكثير،
ومن قرأ بضمّ الحاء فلاّته جمع «حلي» نحو: تُدَيِّ وتُدَي، وإنّما جمعه
لأنّه أضافه إلى جمع، ومن قرأ بكسر الحاء أثبّع الكسرة الكسرة، وكره
الخروج من الضمة إلى الكسرة، وأجراه مجرى «قسي» جمع «قوس».
أخبر الله تعالى عن قوم موسى أنّهم اتّخذوا من بعد مفارقة موسى لهم
ومضيّه إلى ميقات ربّه من حُلْيَتِهِمْ.

ومعنى «الاتّخاذ»: الإعداد، وهو افتعال من «الأخذ» وأصله «يتّخذ»
إلاّ أنّ الياء تُقَلِّب في «افتعل» وتُدْغَم لأنّها في موضع ثقیل في كلمة
واحدة، ولا يجوز في مثل: «أحسن نوماً» الإدغام.

و «الاتّخاذ»: اجتباء الشيء لأمرٍ من الأمور، فهؤلاء اتّخذوا العجل
للعبادّة. و «الحلي»: ما اتّخذ للزينة من الذهب والفضّة، يُقال: حليّ بعيني
يَخْلِي، وحلاّ في فمي يَحْلُو حَلَاوَةً، وحلّيت الرجل تحلّيته: إذا وصّفته بما
يُرى منه، وقد تحلّى بكذا أي: تحسّن به.

و «العجل»: ولد البقرة القريب العهد بالولادة، وهو «العجول» أيضاً،
وإنّما أخذ من تعجيل أمره لصغره، وقيل: إنّهم عملوا العجل من الذهب.

وقوله: ﴿جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ فالجسد: جسم الحيوان مثل: البدن، وهو

رُوح وجسد، و «الزُّوح»: ما لَطَفَ، و «الْجَسَدُ»: ما غَلَطَ، و «الجسم» يقع على جسد الحيوان وغيره من الجمادات. و «الخُوار»: صوت الثور، وهو صوت غليظ كالجُوار، وبناء «فُعال» يدلّ على الآفة نحو: «الصُّراخ» و «العُوار» و «السُّكات» و «العُطاش» و «النُّباح».

وفي كَيْفِيَّةِ خُوار العِجْل مع أَنَّهُ مصوغ من الذهب خلاف، فقال الحسن: قبض السامريّ قبضةً من ترابٍ من أثر فرس جبرئيل عليه السلام يوم قطع البحر، فقفذ ذلك التراب في فم العِجل، فتحول لحماً ودماً، وكان ذلك معتاداً غير خارقٍ للعادة، وجاز أن يفعل الله لمجرى العادة. وقال الجُبائي والبلخي: إنّما احتال بإدخال الريح فيه حتّى سُمِعَ له كالخُوار، كما قد يحتال قومٌ اليوم كذلك.

ثمّ أخبر تعالى فقال: ﴿ألم يروا أَنَّهُ لَا يَكْلَمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ على وجه الإنكار عليهم والتعجب من جهلهم وبُعْد تصوّرهم [قصورهم]، فقال: كيف يعبدون هذا العِجل وهم يشاهدونه، ولا يكلمهم ولا يتأتّى منه ذلك، ولا يهديهم إلى سبيل خير؟! ثمّ قال: ﴿إِتَّخَذُوهُ إِلَهًا﴾ وكانوا ظالمين ﴿فِي اتِّخَاذِهِمْ لَهُ إِلَهًا﴾ واضعين للعبادة في غير موضعها.

والْحُلِيِّ الَّذِي صَاغ السامري منه العِجل كانوا أصابوه من حُلِيِّ آل فرعون قذفه البحر، فقال السامري لهارون: إنّ هذا حرام كلّه وينبغي أن نحرقه كلّهُ أو نصرفه في وجه المصلحة، فأمر هارون بجمع ذلك كلّهُ، وأخذهُ السامري لأنّه كان مطاعاً فيهم، فصاغهُ عِجْلاً وكان صائغاً، وطرحه في النار وطرح معه التراب الذي معه.

قوله تعالى:

وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ

لَنَّا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ آية .

أقول: قرأ أهل الكوفة إلّا عاصماً: ﴿لئن لم ترحمنا﴾ بالتاء ﴿ربّنا﴾ بالنصب على النداء، الباقون بالياء ﴿ربّنا﴾ بالرفع على الخبر.

ومعنى قوله: ﴿سُقِطَ في أيديهم﴾ وقع البلاء في أيديهم أي: وجدوه ووجدان من يده فيه، يُقال ذلك للنادم عندما يجده ممّا كان خَفِيَ عليه، ويقال أيضاً: سُقِطَ في يديه أي: صار الَّذي كان يضرّ به في يديه.

ومعنى قوله: ﴿ورأوا﴾: علموا ﴿أنّهم قد ضلّوا﴾ وتبيّنوا بطلان ما كانوا عليه من عبادة العجل والكفر والضلال، لأنّ ما تعلّق به الرؤية لا يجوز أن يكون مدركاً بالبصر، وهو معنى الجملة، وإنّما يصحّ أن يعلم وأن يدخل على الجملة، وهي في تقدير المفرد، ومتى ظهر فساد الاعتقاد فلا بدّ أن يندم صاحبه عليه، لأنّه لا معنى للإقامة عليه مع توافر الدواعي إلى خلافه، كما أنّه لا معنى أن يكذب لنفسه مع علمه بكذبه، غير أنّه مع ظهور الضلالة لهم لم يكونوا ملجئين إلى الندم، لأنّ «الإلجاء» يقع: إمّا بالعلم بالمنع أو تخوّف من المضرّة العاجلة أو النفع العظيم العاجل الَّذي مثله يُلجئ، ولم يكن القوم على واحدٍ من الأمرين، لأنّهم كانوا مكلفين للندم. وفي الآية دلالة على بطلان قول من يقول: لا محجوج إلّا عارف، لأنّ الله وصفهم بأنّهم سقط في أيديهم عندما رأوا من ضلالهم، فدلّ على أنّهم كانوا محجوجين في ترك الضلال الَّذي إن لم يُغفر لهم هلكوا.

وقوله: ﴿لئن لم يرحمنا ربّنا ويغفر لنا﴾ إخبار عمّا قال القوم حين تبيّنوا ضلالهم وسقط في أيديهم والتجأهم إلى الله واعترافهم بأنّه إن لم يغفر لهم ربّهم ويتغمّدهم بمغفرته يكونوا من جملة الخاسرين الَّذين خسروا أنفسهم بما يستحقّونه من العقاب الدائم.

وقال الحسن: كلهم عبدوا العجل إلا هارون، بدلالة قول موسى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾^(١) ولو كان هناك مؤمن غيرهما لدعاه. وقال الجُبَّائي: إنما عبد بعضهم، بدلالة ما ورد من الأخبار عن النبي ﷺ فيما روي عنه في هذا المعنى. قوله تعالى:

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضَبَ عَلَيْهِمْ أَسِيفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِثْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وابن عامر: ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ بكسر الميم، الباقون بالفتح. والقراء كلهم على ﴿تُشْمِثُ﴾ بضم التاء، وقرأ حميد الأعرج ومجاهد: ﴿لَا تُشْمِثُ﴾ بفتح التاء. واللغة الفصيحة بضم التاء من «أُشْمِتُ» وقد ذكر: شِمِتَ يَشْمِتُ، وَأُشْمِتَ يُشْمِتُ.

أخبر الله تعالى في هذه الآية: أَنَّ موسى حين رجع من مناجاة ربه رجع غضبان أسيفاً لما رأى من عكوف قومه على عبادة العجل.

و «الغَضَبُ»: معنى يدعو إلى الانتقام على ما سلف، يضادُّ الرضا، يُقال: غَضِبَ غَضَبًا، وَأَغْضَبَهُ إِغْضَابًا، وَغَاضَبَهُ مَغَاضِبَةً، وَتَغَضَّبَ تَغَضُّبًا.

و «الأسفُ»: الغضب الذي فيه تأسُّف على فوت ما سلف، وقال ابن عباس: ﴿أَسِيفًا﴾ يعني: حزينًا. وقال أبو الدرداء: معناه: شديد الغضب، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا﴾^(٢) ومعناه: أغضبونا كغضب

المتحسّر في الشدّة، وهو مجاز في الصفة.

وقوله تعالى: ﴿بئس ما خلقتُموني من بعدي﴾ معناه: بئس ما عملتم خلّفي، يُقال: خلّفه بما يكره وخلّفه بما يحبّ إذا عمل خلّفه ذلك العمل، يُقال: خلّف خلفاً، وأخلّف إخلافاً، وخالفه مُخالفةً، واختلّف اختلافاً، واستخلّف استخلافاً وتخلّف تخلّفاً، وخلّف تخلّيفاً، وتخالّف تخالفاً.

وقوله: ﴿أعجلتُم أمر ربّكم﴾ قال الجُبائي: معناه: أعجلتُم منه ما وعدكم من ثوابه ورحمته، فلمّا لم تروه فعل بكم ذلك كفرتم واستبدلتُم به عبادة العجل؟ و «العجلة»: التقدّم بالشيء قبل وقته، و «السرعة»: عمله في أوّل وقته، ولذلك صارت «العجلة» مذمومة، و «السرعة» محمودة [١] ويُقال: عجلته أي: سبّقتُه وأعجلته: استخسّته.

وقوله: ﴿وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: قال الجُبائي: إنّما هو كقبض الرجل ممّا على لحيته وعضّه على شفّته أو إبهامه، فأجرى موسى هارون مجرى نفسه، فقبض على لحيته كما يقبض على لحية نفسه اختصاصاً.

وقال أبو بكر بن الأخشيد: إنّ هذا أمر يتغيّر بالعادة، ويجوز أن تكون العادة في ذلك الوقت أنّه إذا أراد الإنسان [أن] يعاتب غيره لا على وجه الهوان أخذ بلحيته وجرّه إليه، ثمّ تغيّرت العادة الآن، وقال: إنّما أخذ برأسه ليسرّ إليه شيئاً أراد.

و ﴿قال يا بن أمّ﴾ حكاية عمّا قال هارون لموسى حين أخذ برأسه، خوفاً من أن يدخل الشبهة على جهّال قومه فيظنّون أنّ موسى فعل ذلك

(١) ما بين المعقوفتين لم يرد في الحجرية.

على وجه الاستخفاف به والإنكار عليه ﴿يَابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي
وكادوا يقتلونني﴾.

وَمَنْ فَتَحَ مِيمَ ﴿أُمَّ﴾ تَحْتَمِلُ قِرَاءَتَهُ أَمْرَيْنِ:
أحدهما: أَنَّهُ بُنِيَ لِكَثْرَةِ اصْطِحَابِ هَذَيْنِ حَتَّى صَارَ بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ وَاحِدٍ
مَعَ قُوَّةِ النِّدَاءِ عَلَى التَّغْيِيرِ، نَحْوُ: خَمْسَةَ عَشَرَ.
الثاني: أَنَّهُ عَلَى حَذْفِ الْأَلْفِ الْمُبْدَلَةِ مِنْ يَاءِ الْإِضَافَةِ، كَمَا قَالَ
الشاعر:

يَا ابْنَةَ عَمٍّ لَا تَلُومِي وَاهْجَعِي ^(١)
والقياس: يَا ابْنَ أُمِّي. وَمَنْ كَسَرَ الْمِيمَ أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ بَعْدَ أَنْ جَعَلَهُ
اسماً واحداً. وَمِنَ الْعَرَبِ مَنْ يُثَبِّتُ الْيَاءَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:
يَا ابْنَ أُمِّي وَيَا شَقِيقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَيْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدٍ ^(٢)
وقال الآخر:

يَا ابْنَ أُمِّي وَلَوْ شَهِدْتُكَ إِذْ تَدُّ
عُو بَيْنَمَا [بِنَمَا، ظ] ^(٣) وَأَنْتَ غَيْرُ مُجَابٍ ^(٤)
وقال الحسن: كَانَ أَخَاهُ لِأُبَيِّهِ وَأُمُّهُ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ
الاستعطاف بِالرَّحِمِ.

وقوله: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ﴾ فَالشَّمَاتَةُ: سُرُورُ الْعَدُوِّ بِسُوءِ الْعَاقِبَةِ،
تَقُولُ: شَمِتَ بِهِ شِمَاتَةً وَأَشْمَتَهُ إِشْمَاتاً إِذَا عَرَضَتْهُ لَتِلْكَ الْحَالِ.

(١) أَنشَدَهُ فِي اللِّسَانِ: مَادَّةُ «عَمَمٍ» وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِي النُّجُمِ.
(٢) أَنشَدَهُ فِي اللِّسَانِ: مَادَّةُ «شَقَقَ» وَنَسَبَهُ إِلَى أَبِي زَيْدٍ الطَّائِي.
(٣) فِي الْأَغَانِي: تَمِيمًا.
(٤) لُغْلَفَاءُ ابْنِ الْحَارِثِ، وَهُوَ مَعْدِيكَرِبُ بْنُ الْحَارِثِ الْكَنْدِيِّ. رَاجِعِ الْأَغَانِي: ج ١٢ ص ٢١٣.

وقوله: ﴿وَأَلْقَى الْأُلُوحَ﴾ يعني: رماها، وقال مجاهد: كانت من زُمُرُد أخضر. وقال سعيد بن جُبَيْر: كانت من ياقوت أحمر. وقال أبو العالية: كانت من برد [زُبُرْجَد، ظ]. وقال الحسن: كانت من خشب.

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سؤال من هارون لموسى ألاَّ يشمت به عدوّه، ولا يجعله في جملة القوم الظالمين، لبراءة ساحته ممّا فعل قومه، فلمّا ظهر لموسى براءة ساحته هارون بأنَّ له عَذْرَةً^(١) في المقام بينهم من خوفه على نفسه، قال عند ذلك: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾. قوله تعالى:

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حكاية عن دعاء موسى ﷺ ربّه عزّ وجلّ حين تبين له ما تبّه عليه هارون من خوف التهمة، ودخول الشبهة عليهم بجرّهِ رأسه إليه، بأن يغفر له ولأخيه، وأن يدخلهما في رحمته. والمقتضي لهذا الدعاء بالمغفرة قيل فيه قولان:

أحدهما: ما أظهره من الموجدّة على هارون وهو بريء ممّا يوجب العتب عليه، لأنّه لم يكن منه تقصير في الإنكار على مَنْ عَبَدَ الْعِجْلَ، لأنّه بلغ معهم من الإنكار إلى أن همّوا بقتله لشدة إنكاره، ولذلك قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾.

والثاني: قال أبو عليّ: إنّهُ بيّن بذلك لبني إسرائيل أنّه لم يأخذ برأسه على جهة الغضب عليه، وإنّما فعل ذلك كما يفعله الإنسان بنفسه عند شدّة

(١) في مخطوطة: وبأن له عذر.

غضبه على غيره، لا لأنه كان منه في تلك الحال معصية.

وكان هذا الدعاء من موسى انقطاعاً منه إلى الله تعالى وتقرباً إليه، لأنه كان وقع منه أو من أخيه قبيح صغير أو كبير يحتاج أن يستغفر منه، ومن قال: إنه استغفر من صغيرة كانت منه أو من أخيه، فقد أخطأ، ويقال له: الصغيرة على مذهبكم تقع مكفرة محبطة، فلا معنى لسؤال المغفرة لها، وقد بينّا في غير موضع: أن الأنبياء ﷺ لا يجوز عليهم شيء من القبائح لا كبيرها ولا صغيرها، لأن ذلك يؤدي إلى التنفير عن قبول قولهم، والأنبياء منزّهون عما ينفر عنهم على كل حال.

وقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اعتراف من موسى بأن الله تعالى أرحم الراحمين، واعترافه بذلك دليل على قوة طمعه في نجاح طلبته، لأن من هو أرحم الراحمين يؤمل الرحمة من جهته، ومن هو أجود الأجودين يؤمل الجود من قبله.

قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: في هذه الآية حذف، وتقديره: إن الذين اتخذوا العجل إلهاً ومعبوداً سينالهم غضب، فحذف لدلالة الكلام عليه، وقوله في موضع آخر: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾^(١). أخبر الله تعالى في هذه الآية: أن الذين اتخذوا العجل إلهاً وعبدوه من دون الله سينالهم غضب، ومعناه: فسيلحقهم، و«التول»: اللُحُوق، وأصله:

مَدَّ يَدَهُ إِلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَبْلُغُهُ، وَمِنْهُ: قَوْلُهُمْ: تَوَلَّكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا أَيْ: يَنْبَغِي أَنْ تَفْعَلَهُ فَإِنَّهُ يَلْحَقُكَ خَيْرُهُ وَنَاوَلَهُ مَنَاوَلَةً، وَتَنَاوَلَ تَنَاوَلًا، وَأَنَالَهُ إِنَاَلَةً.

﴿غَضَبَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني: عقاب من الله تعالى، وَإِنَّمَا ذَكَرَ الْغَضَبَ مَعَ الْوَعِيدِ بِالنَّارِ لِأَنَّهُ أَبْلَغُ فِي الزَّجْرِ عَنِ الْقَبِيحِ، كَمَا أَنَّ إِرَادَةَ الْحَسَنَةِ فِي الدُّعَاءِ إِلَيْهَا وَالتَّرْغِيبِ فِيهَا مِنَ الْاِقْتِصَارِ عَلَى الْوَعْدِ بِهَا.

وقوله: ﴿وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بمعنى: صغر النفس والإهانة، يُقَالُ: ذَلَّ يَذِلُّ ذِلَّةً، وَأَذَلَّهُ إِذْلَالًا، وَتَذَلَّلَ تَذَلُّلاً، وَذَلَّلَهُ تَذَلُّلاً، وَاسْتَذَلَّهُ اسْتِذْلَالًا. وقيل: المراد به: ما يوجد [يؤخذ، ظ] منهم في الجزية على وجه الصَّغَارِ. وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ إخبار منه تعالى أَنَّهُ مِثْلُ هَذَا الْوَعِيدِ وَالْعَذَابِ وَالْغَضَبِ يَجْزِي الْكَاذِبِينَ وَالتَّخَرِّصِينَ عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا كَانَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللَّهِ كُفْرًا لِأَنَّهُ تَضْيِيعٌ لِحَقِّ نِعْمَةِ اللَّهِ كَتَضْيِيعِهِ بِالْجُحْدِ لِلنِّعْمَةِ فِي عَظَمِ الْمَنْزِلَةِ، وَذَلِكَ لِمَا يَنْطَوِي عَلَيْهِ مِنْ تَسْوِيَةٍ مِّنْ أَنْعَمَ بِأَجَلٍ النِّعْمَةِ بِمَنْ لَمْ يَنْعَمْ، وَفِي ذَلِكَ إِبْطَالٌ لِحَقِّ النِّعْمَةِ.

قوله تعالى:

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: لَمَّا تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، وَعَطَفَ عَلَى وَعِيدِهِمْ تَوَعِيدَ الْمُفْتَرِينَ عَلَيْهِ وَالتَّخَرِّصِينَ فِي دِينِهِ مَا لَمْ يَأْمُرَ اللَّهُ بِهِ، عَطَفَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ وَهِيَ جَمْعُ «سَيِّئَةٍ» وَهِيَ الْخِصْلَةُ الَّتِي تَسُوءُ صَاحِبَهَا عَاقِبَتَهَا، وَهِيَ نَقِيضُ «الْحَسَنَةِ» كَمَا أَنَّ «الْإِسَاءَةَ» نَقِيضُ «الْإِحْسَانِ» ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا﴾ يَعْنِي: رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ فَعْلِهِمُ السَّيِّئَةَ وَنَدَمُوا عَلَيْهَا،

وعزموا على أن لا يعودوا إلى مثلها في القبح، وآمنوا بما أوجب الله عليهم أجمع ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿من بعدها﴾ يعني: بعد السيئة ﴿لغفور رحيم﴾ يعني: يغفرها لهم ويسترها عليهم، لرحمته بعباده.

وقد بينّا فيما مضى: أَنَّ التوبة الَّتِي أجمعوا على سقوط العقاب عندها هي الندم على القبيح، والعزم على أن لا يعود إلى مثله في القبح، وفي غيرها خلاف، يُقال: تابَ يَتُوبُ تَوْبَةً، و «تاب الله عليه» بمعنى: وفَّقه للتوبة على الدعاء له، و «تاب عليه» أيضاً بمعنى: قَبِلَ توبته، و «التوبة»: طاعة يستحقُّ بها الثواب بلا خلاف، ويسقط العقاب عندها بلا خلاف، إِلَّا أَنَّ عندنا: يسقط ذلك تفضلاً من الله تعالى بورود السمع بذلك، وعند المعتزلة: العقل يوجب ذلك.

فإن قيل: كيف قال: ﴿تابوا من بعدها وآمنوا﴾ والتوبة هي إيمان؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: تابوا من بعد المعصية وآمنوا بتلك التوبة. الثاني: استأنفوا عمل الإيمان. الثالث: آمنوا بأنَّ الله قابل التوبة.

وقيل: إِنَّ الآية نزلت فيمن تاب من الَّذِينَ كانوا عَبَدُوا الْعِجْلَ، فَإِنَّهُمْ تابوا وندموا، أو أكثرهم فتعبدهم الله بأن يقتلوا أنفسهم، فَقَتَلَ بعضهم بعضاً، واستسلموا لذلك، فَقَتِلَ في يومٍ واحدٍ سبعون ألفاً، ثُمَّ رفع عنهم ذلك وَقَبِلَ توبتهم.

قوله تعالى:

وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَاخَ فِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَزْهَبُونَ ﴿٥١﴾ آية .

أقول: معنى قوله: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾: سكن، وَسُمِّيَ ذلك سكوتاً وإن كان

الغَضِبُ لا يتكَلَّم، لَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِفُورَتِهِ دَالًّا عَلَى مَا فِي النَّفْسِ مِنَ الْمَغْضُوبِ^(١) عليه كان بمنزلة الناطق بذلك، فإذا سكنت تلك الفورة كان بمنزلة الساكت عما كان متكلمًا به، و «السكوت» في هذا الموضع أحسن من «السكون» لتضمُّنه معنى سكوته عن المعاتبة لأخيه مع سكون غضبه. و «السكوت»: هو الإمساك عن الكلام بهيئة منافية بسببه وهو تسكين آلة الكلام.

وإنما قيل: «سكت الغضب» و «سكت الحزن» على طريق المجاز، إلَّا أَنَّهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَظْهَرُ أَثَرُهُ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ النَّاطِقِ بِهِ، قَالَ أَبُو النَّجْمِ:

وَهَمَّتِ الْأَفْعَى بِأَنْ تُسَيِّحَا وَسَكَتَ الْمُكَاءُ أَنْ يَصِيحَا^(٢)

فإن قيل: كيف جاز أن يستفزه غضب الحمية عن غضب الحكمة؟

قلنا: ليس كذلك، ولكن غضب الحكمة صفة غضب الحمية، لِمَا تَوَجَّهَ الْحِكْمَةُ، وَسَكُونُ الْغَضَبِ عَنْ مُوسَى عليه السلام لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْمَهُ كَانُوا تَابُوا مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، لَأَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ زَالَتْ فُورَةُ الْغَضَبِ وَلَمْ يَزَلِ الْغَضَبُ لَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُصْ تَوْبَتُهُمْ بَعْدَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ زَالَ غَضَبُهُ لَتَوْبَتِهِمْ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَإِذَا احْتَمَلَ الْأَمْرَانِ لَمْ يَحْكَمْ بِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِدَلِيلٍ.

وقوله تعالى: ﴿أَخِذْ الْأَلْوَا حَ فِي نَسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ معناه: أَنَّهُ لَمَّا سَكَنَ غَضَبُهُ رَجَعَ فَأَخَذَ الْأَلْوَا حَ الَّتِي كَانَتْ أَلْقَاهَا، وَكَانَ فِي الْأَلْوَا حَ مَكْتُوبًا مَا هُوَ هُدًى وَحِجَّةٌ وَبَيَانٌ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ بِمَعْنَى: يَخَافُونَ عِقَابَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقَالَ: «لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ» وَلَا يَجُوزُ: «يَرْهَبُونَ لِرَبِّهِمْ» لَأَنَّهُ إِذَا تَقَدَّمَ الْمَفْعُولُ ضَعُفَ عَمَلُ الْفِعْلِ فِيهِ، فَصَارَ بِمَنْزِلَةِ مَا لَا يَتَعَدَّى فِي دُخُولِ اللَّامِ عَلَيْهِ، تَقَدَّمَ أَوْ تَأَخَّرَ، كَمَا قَالَ

تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُمْ﴾^(١).

وفي الآية دلالة على أنه يجوز إلقاء التوراة للغضب الذي يظهر بالقائنها ثم أخذها، للحكمة التي فيها، من غير أن يكون إلقاؤها رغبةً عنها. قوله تعالى:

وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿٥٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الاختيار: هو إرادة ما هو خير، يُقال: خيِّره بين أمرين فاختر أحدهما، و «الاختيار» و «الإيثار» بمعنى واحد.

أخبر الله تعالى: أَنَّ موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً، وحذف «من» لدلالة الفعل عليه مع إيجاز اللفظ، قال الشاعر:

وَمِمَّا الَّذِي اخْتِيرَ الرِّجَالَ سَمَاحَةً وَجُوداً إِذَا هَبَّ الرِّيحُ الرِّعَازُ^(٢)
وقال غيلان:

وَأَنْتَ الَّذِي اخْتَرْتَ الْمَذَاهِبَ كُلَّهَا

بِوَهْبَيْنِ إِذْ رُدَّتْ عَلَيَّ الْأَبَاعِرُ

وقال آخر:

فَقُلْتُ لَهُ اخْتَرَهَا قَلُوصاً سَمِينَةً وَنَاباً عَلَيْهَا مِثْلُ نَابِكَ فِي الْحَيَا^(٣)
يريد: اختر منها.

(١) النمل: ٧٢.

(٢) للفرزدق، من قصيدة يفخر بقومه. راجع ديوان الفرزدق: ج ٢ ص ٧١.

(٣) للراعي النميري يصف قوماً أضافهم وأكرمهم. أنشده الفراء في المعاني: ج ١ ص ٣٩٥.

وقال العجاج:

تَحْتَ الَّذِي اخْتَارَ لَهُ اللَّهُ الشَّجَرُ^(١)

وإنما اختار إخراجهم للميقات. والميقات المذكور هاهنا: هو الميقات المذكور أولاً، لأنّه في سؤال الرؤية، وقد ذكر أولاً ودلّ عليه ثانياً، وقيل: هو غيره، لأنّه كان في التوبة من عبادة العجل.

وقوله: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ قيل في السبب الَّذِي لأجله أخذتهم الرجفة قولان:

أحدهما: لأنّهم سألوا الرؤية، في قول ابن إسحاق.

الثاني: قال ابن عباس: لأنّهم لم ينهوا عن عبادة العجل. وقد بيّنا معنى «الرجفة» فيما مضى^(٢) وأنها الزلزلة العظيمة والحركة الشديدة.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِيَّايَ﴾ حكاية عما قال موسى لله تعالى، وأنّه ناداه وقال: يا ربّ لو شئت أهلكني وإياهم من قبل هذا الموقف.

وقوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ معناه النفي، وإن كان بصورة الإنكار، كما تقول: «أتشمتني وأسكت عنك» أي: لا يكون ذلك، والمعنى: أنّك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، فهذا نسألك رفع المحنة بالإهلاك عنّا. وقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ معناه: إن الرجفة إلّا اختبارك وابتلاؤك ومحنتك، أي: تشديدك تشديد التعبد علينا بالصبر على ما أنزلته بنا من هذه الرجفة والصاعقة اللتين جعلتهما عقاباً لمن سأل الرؤية وزجراً لهم ولغيرهم، ومثله: قوله: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ

(١) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٢٩.

(٢) عند تفسير الآية: ٧٨ من هذه السورة المباركة.

مَرَّتَيْنِ ﴿١﴾ يعني بذلك: الأمراض والأسقام التي شدد الله بها التعبد على عباده، فسَمِيَ ذلك فتنَةً من حيث يُشَدَّد الصبر عليها، ومثله: ﴿آلَمَ * أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) ومعناه: لا ينالهم شدائد الدنيا والأمراض وغيرها.

ويحتمل أن يكون المراد بذلك: إنَّ هي إلاَّ عذابك، وقد سَمَى الله تعالى العذابَ فتنَةً في قوله: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ (٣) أي: يُعَذَّبُونَ، فكأنَّه قال: ليس هذا الإهلاك إلاَّ عذابك لهم بما فعلوه من: الكفر، وعبادة العجل، وسؤالهم الرؤية. وغير ذلك.

و «السبعون» الذين كانوا معه وإنَّ لم يعبدوا العجل فقد كانوا سألوا موسى أن يسأل الله تعالى أن يريه نفسه ليُخْبِرُوا بذلك أُمَّتَهُ، ويشهدوا له بأنَّ الله كَلَّمَهُ، فإنَّ بني إسرائيل قالوا لموسى: لا نصدِّقك على قولك: إنَّ الله كَلَّمَكَ مِنَ الشَّجَرَةِ، فاختار السبعين حتَّى سمعوا كلام الله، وشهدوا له بذلك عند قومه، فسألوا أن يسأل الله الرؤية أيضاً ليشهدوا له، فلذلك استحقُّوا الإهلاك، ولم يثبت أنَّ السبعين كانوا معصومين ولا أنَّهم كانوا أنبياء فينتفي عنهم ذلك.

وقيل: المراد بقوله: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السَّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي أُمَمِيَّتَنَا بالرحمة التي تُمَيِّتُهُمْ بها، وإنَّ لم يكن ذلك عقوبةً لنا؟

و«الهلاك»: الموت، لقوله: ﴿إِنْ أَمْرُؤُ هَلَكَ﴾ (٤) و «الفتنة»: الكشف والاختبار، قال المسيب بن علس:

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِأَصْلَتِي نَاغِمٍ قَامَتْ لِفَتْنَتِهِ بَغِيرِ قِنَاعٍ

أي: لتكشفه وتبرزه. وقوله: ﴿تَضَلَّ بِهَا مِنْ تَشَاءَ﴾ معناه: تَضَلَّ بِتَرْكِ الصبر على فتنتك وترك الرضا بها مَنْ تَشَاءَ عن نيل ثوابك ودخول جنتك، وتهدي بالرضا بها والصبر عليها من تَشَاءَ، وإنَّما نسب الضلال إلى الله لأنَّهم ضلُّوا عند أمره وامتحانه، كما أُضِيفَتْ زيادة «الرجس» إلى السورة في قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ ^(١) وإن كانوا هم الَّذِينَ ازدادوا عندها، والمعنى: تختبر بالمحنة مَنْ تَشَاءَ لينتقل صاحبه عن الضلالة ﴿وتهدي من تَشَاءَ﴾ معناه: تبصِّر بدلالة المحنة ليثبت صاحبه على الهداية مَنْ تَشَاءَ. وقوله: ﴿أَنْتَ وَلِيْنَا﴾ معناه: أَنْتَ ناصِرنا وأولى بنا ﴿فاغفر لنا﴾ سؤال منه المغفرة له ولقومه، وقوله: ﴿وارحمنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ إخبار من موسى بأنَّ الله خير الساترين على عباده والمتجاوزين لهم عن جُرْمِهِمْ. قوله تعالى:

وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: هذا تمام الإخبار عما قال موسى وقومه الَّذِينَ كانوا معه، وأنَّهم سألوا الله تعالى المغفرة، وأن يكتب لهم ﴿في هذه الدنيا حَسَنَةً﴾ وهي النعمة، وإنَّما سُمِّيت النعمة حَسَنَةً وإنَّ كانت «الحسنة» اسم الطاعة لله لأمرين: أحدهما: أَنَّ النعمة تتقبَّلها النفس كما يتقبَّل الحَسَنَةُ الَّتِي هي الطاعة العقل. والآخر: أَنَّ النعمة ثمرة الطاعة لله عزَّ وجلَّ.

وإنَّما سألوا أن يكتب لهم، ولم يسألوا أن يجعل لهم، لأنَّ ما كتب من

النعمة أثبت لاسيما إذا كانت الكتابة خبراً بدوام النعمة، و [ز] يقال: كتب له الرزق في الديوان، فيدلّ على ثبوته على مرور الأزمان.

﴿وفي الآخرة﴾ معناه: وكتب لنا في الآخرة أيضاً النعمة التي هي الثواب ﴿إِنَّا هَذَا إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: معناه: تُبْنَا إِلَيْكَ، وبه قال سعيد بن جبّير وإبراهيم وقتادة ومجاهد. وأصله: «الرُّجُوع» من: هَذَا يَهُودُ فَهُوَ هَانِدٌ إِذَا رَجَعَ، فمعناه: رجعنا بتوبتنا إليك، و «التهويد»: الترفق في السير والتفريج والتمكث. وقال أبو وجرة: ﴿هَذَا﴾ بكسر الهاء من: هَذَا يَهِيدُ، وهو شاذّ، وثوبٌ مَهُودٌ أي: مرقّع، ذكره الجبائي. وليس «اليهود» مشتقاً منه، بل إنّما قيل: يهودي، لأنّه نسب إلى «يهودا» لكن العرب غيّرت في النسب.

وقوله: ﴿قال عذابي أصيب به من أشاء﴾ حكاية عما أجابهم الله به من أنّ عذابه يصيب به من يشاؤه ممّن استحقّه بعصيانه، وقيل: إنّما علّقه بالمشيئة ولم يعلّقه بالمعصية لأمرين:

أحدهما: الإشعار بأنّ وقوعه بالمشيئة له دون المعصية.
الثاني: أنّه لا يشأ ذلك إلّا على المعصية، فأيّهما ذكر دلّ على الآخر.
وعندنا: أنّه علّقه بالمشيئة لأنّه كان يجوز الغفران عقلاً بلا توبة.

وقوله: ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾ معناه: إنّني أقدر أن أنعم على كلّ شيء يصحّ الإنعام عليه، وقيل: المعنى: أنّها تَسَعُ كلّ شيء إن دخلوها، فلو دخل الجميع فيها لَوَسِعَتْهُمْ، إلّا أنّ فيهم من يمتنع منها من الضلال بأن لا يدخل معه فيها. وقال ابن عباس: وهي خاصّة في المؤمنين.

وقال الحسن وقتادة: هي عامّة للبرّ والفاجر في الدنيا خاصّة، وفي الآخرة للبرّ.

وقوله: ﴿فسأكتبها للذين يتّقون﴾ معناه: أنّ الرحمة في الآخرة

مكتوبة للذين يتقون معاصيه ويحذرون عقابه ﴿ويؤتون الزكاة﴾ قيل في معناه هاهنا قولان:

أحدهما: يخرجون زكاة أموالهم، فذكره لأنه من أشق فرائضهم.
 الثاني: يطيعون الله ورسوله، في قول ابن عباس والحسن، ذهب إلى ما يزكي النفس ويطهرها من الأعمال ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ يعني: أكتبها للذين يصدقون بآيات الله وحججه وبيئاته، وليس إذا كتب الرحمة للذين يتقون منع أن يغفر للعصاة والفاسق بلا توبة، لأن الذي تفيد الآية القطع على وصول الرحمة إلى المتقين، والفاسق ليس ذلك بمقطوع لهم وإن كان مجوزاً.

قوله تعالى:

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ
 وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ
 عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥٧﴾ آية
 بلا خلاف.

أقول: قرأ: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ ابن عامر وحده على الجمع، الباقيون: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ على التوحيد.

ومن وحد فلأن «الإصر» مصدر يقع على الكثير والقليل، بدلالة قوله تعالى: ﴿إِصْرَهُمْ﴾ فأضافه إلى الكثرة، وقال: ﴿لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾^(١).
 ومن جمع أراد ضرباً من المآثم مختلفة، فلذلك جمع.

قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع جرٍّ، لأنَّه صفة لـ ﴿الَّذِينَ﴾ في الآية الأولى بعد صفة في قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فذكر أنَّ من تمام صفاتهم اتِّباعهم للرسول ﴿النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ يعني محمداً ﷺ.

و «الأمِّي»: الَّذي لا يكتب، وقيل ^(١): إنَّه منسوب إلى «الأمَّة» والمعنى: أنَّه على جِيلةِ الأمَّة قبل استفادة الكتابة. وقيل: إنَّه منسوب إلى «الأمِّ» ومعناه: أنَّه على ما ولدته أمُّه قبل تعلُّم الكتابة.

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام ^(٢): أنَّه منسوب إلى مكَّة، وهي أمُّ القرى.

وقيل: إنَّه نسب إلى العرب، لأنَّها لم تكن تحسن الكتابة.

ومعنى: ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾: أنَّهم يجدون نعتَه وصفته، ولأنَّه مكتوب في التَّوْرَةِ: «أَتَانَا اللَّهُ مِنْ سِينَا، وَأَشْرَفَ مِنْ سَاعِيرٍ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ» وفيها: «سَأَقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فِيهِ، فَيَقُولُ لَهُمْ كُلَّمَا أَوْصِيَهُ بِهِ» وفيها: «وَأَمَّا ابْنُ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَارَكْتَ عَلَيْهِ جَدًّا جَدًّا، وَسَيَلِدُ اثْنِي عَشَرَ عَظِيمًا، وَأُوخِّرُهُ لَأُمَّةٍ عَظِيمَةٍ».

وفي الإنجيل بشارة بالفارقليط في مواضع، منها: «يعطيكم فارقليط آخر يكون معكم آخر الدهر كلَّه» وفيها: أنَّه «إذا جاء فنَدَّ أهل العلم» وفيها: «أنَّه يدبِّرُكم بجميع الخلق، ويخبركم بالأُمور المزمعة، ويمدحني ويشهد لي».

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ صفة للنبي ﷺ

(١) قاله الزَّجَّاج في المعاني: ج ٢ ص ٣٨١.

(٢) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٣١ ح ٨٦.

الأمِّي، وهو في موضع الحال، وتقديره: آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وسُمِّي الحقَّ معروفاً والباطل منكراً لَأَنَّ الحقَّ يعرف صحَّته العقل، إذ الاعتماد في المعرفة على الصحَّة، وينكر الباطل بمعنى: ينكر صحَّته.

﴿ويحلّ لهم الطيبات﴾ معناه: يبيح لهم المستلذّات الحسنة التي كانت حراماً عليهم ﴿ويحرّم عليهم الخبائث﴾ يعني: القبائح، وما تعافه الأنفس. ﴿ويضع عنهم إصرهم﴾ يعني: الثقل بأُمور محرّمة في تكليفها مشقّة، بتحريم العروق والغُدَد وتحريم السبت، وكانت كالأغلال في أعناقهم، كما يقولون: هذا طوق في عنقك. وقيل: ما امتحن به بنو إسرائيل من قتل نفوسهم، وقرض ما يصيبه البول من أجسادهم، والتزام المكاره في كلّ شيء يخالفون الله فيه.

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني: صدّقوا بهذا النبيّ ﴿وعزّروه﴾ يعني: عظموه بمنعهم كلّ من أراد كيده، وأصله: المنع، ومنه: تعزيز الجاني، وهو منعه بتأديبه من العود، وقال قوم: «عزّرت» معناه: رددته. وقال آخرون: معناه: أعتته. وقال بعضهم: عزّرت معناه: لمته وقال بعضهم معناه: نصرت. وقال آخرون: منعتهم ونصروه.

﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يعني: القرآن، سمّاه نوراً لَأَنَّهُ يُهْتَدَى بِهِ كَمَا يُهْتَدَى بِالنُّور. وأخبر عنهم بأنّ من فعل ما قلناه فأولئك هم المفلحون الفائزون بثواب ربّهم.

قوله تعالى:

قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخاطب الخلق، ويقول لهم ﴿إني رسول الله﴾ أرسلني إليكم يعني: إلى الناس أجمع ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ يعني: أرسلني إليكم الذي له التصرف في السموات والأرض من غير دافع ولا منازع ﴿لا إله﴾ يعني: لا معبود ﴿إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله﴾ أمر من النبي ﷺ للخلق بأن يصدقوا بتوحيد الله ويقرّوا بنبوة ﴿النبي الأمي الذي يؤمن﴾ يعني: يصدق ﴿بالله وكلماته﴾ وأمرهم بأن يتبعوه ويرجعوا إلى طاعته لكي يهتدوا إلى الثواب والجنة.

و ﴿جميعاً﴾ نصب على الحال من ضمير المخاطب الذي عمل حرف الإضافة فيه والعامل في الحال معنى الفعل في ﴿رسول﴾ إلا أنه لا يتقدم على حرف الإضافة، لأنه قد صار بمنزلة العامل.

وإنما وصفه بأنه ﴿يحيي ويميت﴾ لأنه لا يقدر على الإحياء إلا الله، ولا على الإماتة أيضاً سواه، لأنه لو قدر أحد على الإماتة لقدّر على الإحياء، لأن من شأن القادر على الشيء أن يكون قادراً على ضده. وإنما استعمل بمعنى «لتهتدوا» على الرجاء والطمع في الفوز به من العذاب. قوله تعالى:

وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ آية بلا خلاف. أقول: أخبر الله تعالى أن من قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون. قال ابن عباس والسدي: قوم وراء الصين. وقال أبو جعفر عليه السلام: «هم قوم خلف الرمل، لم يغيروا ولم يبدلوا».

وأنكر الجبائي قول ابن عباس، وقال: شرع موسى عليه السلام منسوخ بشرع عيسى عليه السلام وشرع محمد ﷺ فلو كانوا باقين لكفروا بنبوة محمد. وهذا ليس بشيء، لأنه لا يمتنع أن يكون قوم لم تبلغهم الدعوة من النبي ﷺ

فلا نحكم بكُفْرهم.

وقال الجُبَّائي يحتمل ذلك وجهين:

أحدهما: أنَّهم كانوا قوماً متمسكين بالحقِّ في وقت ضلالتهم^(١) بقتل أنبيائهم. والآخر - أنَّهم الذين آمنوا بالنبي ﷺ مثل: ابن سلام وابن سوريا وغيرهما.

وتقدير الكلام في معنى الآية إذا: كان من قوم موسى أمة يهدون بالحقِّ وبه يعدلون، قد مدَّحُوا بذلك وعُظِّمُوا، فعلى كلِّ أمة أن يكونوا كهذه الأمة الكريمة في هذا المعنى.

والأمة: الجماعة التي تؤمُّ أمراً بأن تقصده وتطلبه، وأمة محمد ﷺ تؤمُّ شريعته، وأمة موسى وعيسى مثل ذلك.

وليس في الآية ما يدلُّ على أنَّ في كلِّ عصر أمة هادية من قوم موسى، لأنَّ بعد نبوة نبيِّنا ﷺ لم يبقَ أحد يجب اتِّباعه في شرع موسى ﷺ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٢) ولا دلالة في ذلك على أنَّ تلك الأمة موجودة في كلِّ عصر، بل لو لم توجد هذه الأمة إلَّا في وقتٍ واحدٍ هادية بالحقِّ عادلة به صحَّ معنى الآية، على أنَّ عندنا: في كلِّ عصر لا يخلوون من قوم بهذا الوصف، وهم حجج الله على خلقه، المعصومون الذين لا يجوز عليهم الخطأ والزَّلَل، فقد قلنا بموجب الآية.

وصريح الآية يدلُّ على بطلان قول من قال: لا يهدي إلى الحقِّ إلَّا الله تعالى لأنَّ الله تعالى بيِّن أنَّ فيمن خلقه أمة يهدون بالحقِّ وبه يعدلون،

(٢) الآية: ١٨١ الآية.

(١) أي: وقت ضلالة قومهم.

وظاهر ذلك الحقيقة وصريح الآية بخلاف ما يقوله المخالف، ولا ينافي ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾^(١) لأنه يصح اجتماعه مع ذلك، المعنى: لأن المعنى مَنْ يَهْدِيهِ اللَّهُ إِلَى الْجَنَّةِ فَهُوَ الْمُهْتَدِي إِلَيْهَا، على أن قوله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ لا يمنع من أن يهديه أيضاً غير الله ويهتدي، لأنَّ المتعلق بذلك تعلق بدليل الخطاب. وهو ليس بصحيح عند أكثر العلماء، على أن مَنْ هَدَىٰ غَيْرُهُ إِلَى الْحَقِّ فَإِنَّمَا يَهْدِيهِ بِأَنْ يُنَبِّهَهُ عَلَى الْحُجَجِ الَّتِي نَصَبَهَا اللَّهُ عَلَى الْحَقِّ، فجاز أن يضاف ذلك إلى أَنَّهُ بهداية الله. وَمَنْ حَمَلَ قَوْلَهُ تَعَالَىٰ ﴿يَهْدُونَ﴾ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى «يَهْتَدُونَ» فَقَدْ غَلَطَ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ.

قوله عَزَّ وَجَلَّ:

وَقَطَّعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَسَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَیِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قد مضى تأويل معنى أكثر هذه الآية في سورة البقرة^(٢) فلا معنى للتطويل بذكر ما مضى، وإنما نذكر ما لم يُذكر هناك:

إِنَّمَا أَنتَ قَوْلُهُ: ﴿اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾ لِأَنَّ النِّتَةَ التَّقْدِيمَ وَالتَّأْخِيرَ، وَالتَّقْدِيرَ: وَقَطَّعْنَاهُمْ أُمَمًا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا، وَلَمْ يَقُلْ «سَبْطًا» لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ:

أحدها: أَنَّهُ بَدَلَ لَيْسَ بِتَمْيِيزٍ، وَالْمَعْنَى: قَطَّعْنَاهُمْ أَسْبَاطًا، ذَكَرَ ذَلِكَ الزَّجَّاجُ.

(٢) عند تفسير الآية: ٦٠ منها.

(١) الآية: ١٧٨ الآية.

الثاني: على أن كل قسم أسباط، لأن الواحد يقال له: سِبْط، فيجوز على هذا: عندي عشرون دراهم، على أن كل قسم منها دراهم، قال كُتِبَ (١):
 عليّ والثلاثة من بنيهِ هم الأسباط ليس بهم خفَاء
 فِسْبُطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ وَسِبْطُ غَيْبَتِهِ كَرْبَلَاءُ (٢)
 الثالث: أن يكون أقام الصفة مقام الموصوف، وتقديره: اثنتي عشرة
 فِرْقَةً أسباطاً.

والسِبْط: الجماعة التي تجري في الأمر بسهولة لاتفاقهم في الكلمة،
 على أنه مأخوذ من السُّبُوطَة، وقيل: إنه مأخوذ من «السَّبَط» ضَرْبٌ من
 الشَّجَر، فجعل الأب الذي يجمعهم كالشجرة التي تتفرع عنها الأغصان
 الكثيرة. وقال أبو علي: لأنهم كانوا بني اثني عشر رجلاً من ولد يعقوب
 وقيل: إنما فرّقوا أسباطاً لاختلاف رتبته.

والانبجاس: خروج الماء الجاري بقلّة، والانفجار: خروجه بكثرة،
 فكان يبتدئ بقلّة ثم يتسع حتّى يصير إلى الكثرة، فلذلك ذكره هاهنا
 بالانبجاس وفي البقرة: بالانفجار.

والظلّة: السُتْرَة التي تقي من الشمس، والأغلب عليها العلوّ، فجعل الله
 عزّ وجلّ لهم من الغمام ظلّة تكتهم لما احتاجوا إلى ذلك في التّيه كما
 أعطاهم المنّ والسّلوى. والمنّ: ضَرْبٌ من الحلاوة يسقط على الشجر،
 والسّلوى: طائر كالسماني.

(١) والمرجح أن أهله سمّوه كثيراً - بالتخفيف - والناس سمّوه كثيراً - بالتشديد - لقصر جثته،
 وفيات الأعيان ٣: ٢٧٠.

(٢) من أبيات يمدح أمير المؤمنين عليه وأولاده الثلاثة: الحسن عليه والحسين عليه ومحمد ابن
 الحنفية. راجع ديوان كثير عزة: ص ٢٥٠ (ملاحق).

وَأِنَّمَا أَنْتَ «اثْنَتِي عَشْرَةَ أُسْبَاطاً» مَعَ أَنَّ «السَّبِطَ» ذَكَرَ لِأَحَدٍ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ:

أحدها: اثنتي عشرة فِرْقَةً ثُمَّ حُذِفَ. الثاني: وقطعناهم قِطْعاً اثنتي عشرة، فحُذِفَ عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ. الثالث: أَنَّ «السَّبِطَ» لَمَّا وَقَعَ عَلَى الْأُمَّةِ أَنْتَ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وإِنَّ كِلَاباً هَذِهِ عَشْرُ أُبْطُنٍ وَأَنْتَ بَرِيءٌ مِنْ قَبَائِلِهَا الْعَشْرِ^(١)
وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ معناه: مَا نَقَصُونَا شَيْئاً وَلَكِنْ نَقَصُوا أَنْفُسَهُمْ، تَقُولُ الْعَرَبُ: ظَلَمْتُ سَقَاكَ إِذَا سَقَيْتَهُ قَبْلَ أَنْ يُخْرِجَ زُبْدَهُ، وَيُقَالُ: ظَلَمَ الْوَادِي إِذَا بَلَغَ الْمَاءُ مِنْهُ مَوْضِعاً لَمْ يَكُنْ نَالَهُ فِيمَا مَضَى، قَالَ الْفَرَّاءُ: وَأَنْشَدَنِي بَعْضُهُمْ:

يَكَادُ يَطْلُعُ ظُلُمًا ثُمَّ يَخْتَنِعُهُ عَنْ الشَّوَاهِقِ فَالْوَادِي بِهِ شِرْقُ
ويقال: هُوَ أَظْلَمَ مِنْ حَيَّةٍ، لِأَنَّهَا تَأْتِي جُحْراً لَمْ تَحْفَرْهُ فَتَسْكُنُهُ، وَيُقَالُ: مَا ظَلَمَكَ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا؟ أَيْ: مَا مَنَعَكَ، وَالْأَرْضُ الْمَظْلُومَةُ: الَّتِي لَمْ يَنْلِهَا الْمَطَرُ.
قوله عَزَّ وَجَلَّ:

وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ أَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَأَدْخُلُوا أَبْوَابَ سُجْدًا تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ آيَةٌ بِإِلَافٍ.
أَقُولُ: قَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَابْنُ عَامِرٍ وَيَعْقُوبُ: ﴿يُغْفِرُ﴾ بِالْبَاءِ وَضَمِّهَا،
وَفَتَحَ الْفَاءَ الْبَاقُونَ بِالنُّونِ وَكَسَرَ الْفَاءَ. وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَيَعْقُوبُ:
﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ عَلَى جَمْعِ السَّلَامَةِ وَرَفْعِ النَّاءِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ عَلَى التَّوْحِيدِ
وَرَفْعِ النَّاءِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ بِغَيْرِ هَمْزٍ عَلَى جَمْعِ التَّكْسِيرِ، الْبَاقُونَ

(١) أنشده في الطبري: ج ٩ ص ٦٠، ويُنسب للنَّوَّاحِ الْكَلَابِيِّ.

وهم ابن كثير وأهل الكوفة ﴿خَطِينَا تَكُم﴾ على جمع السلامة وكسر التاء. مَنْ قرأ ﴿يُغْفِر﴾ حمّله على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ... ادخلوا ... يغفر﴾ والتي في البقرة^(١): ﴿نَغْفِر﴾ بالنون، فالنون هناك أحسن لقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾.

ومن قرأ ها هنا بالنون كأنّه قيل لهم: «ادخلوا نغفر» أي: إن دخلتم غفرنا. وَمَنْ قرأ ﴿تَغْفِر﴾ بالتاء المضمومة فلائنه أسند إليها ﴿خَطِينَا تَكُم﴾ وهو مؤنث فأنث، وبني الفعل للمفعول به لأنّ بناء المفعول أشبه بما قبله، لأنّ قبله: ﴿وَإِذَا قِيلَ﴾. وَمَنْ قرأ بالنون فلقلوله: ﴿سنزيد المحسنين﴾. و «خطايا»: جمع «خطيئة» جمع تكسير، و «خطيأتكم» مسكناً لأنّه يكثر فيه السكون.

وُسُمِّيتِ الْقَرْيَةُ قَرْيَةً لِأَنَّ الْمَاءَ يَقْرِي إِلَيْهَا، يُقَالُ: قَرَيْتُ الْمَاءَ فِي الْحَوْضِ أَقْرِيهِ قَرْيًّا إِذَا جَمَعْتَهُ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا مِنْ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْهَا. وقد مضى تفسير مثل هذه الآية في سورة البقرة^(٢) فلا معنى لإعادته، وإِنَّمَا نَذَكِرْ جَمْلَ ذَلِكَ فَنَقُولُ: هَذَا خُطَابٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ إِذْ قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وَهِيَ بَيْتُ الْمَقْدَسِ عَلَى قَوْلِ الْجُبَّائِيِّ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ، وَقَالَ الْحُسَيْنُ: هِيَ أَرْضُ الشَّامِ. وَقَالَ قَوْمٌ غَيْرُ ذَلِكَ، وَقَدْ ذَكَرْنَا اخْتِلَافَهُمْ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لِأَنَّهُ كَانَ أَمْرُهُمْ بِدُخُولِهَا وَإِخْرَاجِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْكُفَّارِ وَغَيْرِهِمْ، وَوَعَدَهُمْ أَنْ يُوسَّعَ عَلَيْهِمْ فِيهَا الرِّزْقُ وَيُسَبَّحَهُمْ ذَلِكَ لِيَأْكُلُوا مِنْ حَيْثُ شَاءُوا مَا يَرِيدُونَ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَغْذِيَةِ وَالرِّزْقِ، وَقَالَ لَهُمْ: ﴿كُلُوا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ عَلَى كَثْرَةِ الرِّزْقِ

والغذاء في هذه القرية وفي كل ناحية منها.

وقوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ يعني: متواضعين، وكانوا أمروا بأن يدخلوا باباً منه معيَّناً في هذا الموضع [الذي، ظ] كانوا فيه، في قول الجُبَّائي، وقال: ذلك قبل دخولهم إلى بيت المقدس، قال: ولم يرد أن يدخلوا الباب سُجَّدًا منحنين.

قال ابن عباس: كان هناك باب ضيق أمروا بأن يدخلوه رُكْعاً فدخلوه على استأهمهم، وقيل لهم: ﴿قولوا حِطَّةً﴾ أي: مغفرة، فقالوا: حنطة! وقد ذكرنا اختلاف الناس في ذلك.

وقوله: ﴿وقولوا حِطَّةً﴾ معناه: قولوا حِطَّ عَنَّا ذُنُوبَنَا، وهو بمنزلة الاستغفار والتوبة. وقوله: ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ جواب الأمر وفيه معنى الجزاء، والتقدير: إنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطاياكم. وقوله: ﴿سنزيد المحسنين﴾ معناه: سنزيد المحسنين منكم نعماً وفضلاً في الدنيا والآخرة، ولا تقتصر لهم على نِعَمِ هذه القرية.

ورفع ﴿حِطَّةً﴾ على تقدير: مسألتنا حِطَّةً ومطلوبنا حِطَّةً، وإن نصب جاز بمعنى: حِطَّ عَنَّا [حِطَّةً]. وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ نصب على الحال من «دخول الباب». وقال أبو علي: ليس بحال لـ «دخول الباب» لأنَّهم بدَّلوا في حياة موسى.

قوله عزَّ وجلَّ:

فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين أمرهم بدخول القرية متواضعين، وأن يقولوا: حِطَّةً لذنوبنا: أنَّهم بدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم.

والتبديل: تغيير الشيء برفعه إلى بدل، فقال الحسن: قالوا: «حنطة» بدل «حِطَّة». وقال قوم: قالوا قولاً ينافي الاستغفار ويخالف التوبة، وقالوا ما يدلّ على الإصرار.

وأخبر تعالى أنّه أرسل عليهم عند ذلك ﴿رِجْزاً﴾ وهو العذاب والعقوبة جزاءً بما كانوا يفعلونه من معاصي الله تعالى ويظلمون بها أنفسهم، وأصل «الرجز»: الميل عن الحقّ، فمنه: الرِّجَازَةُ وما يُغْدَلُ به الجمل إذا مالَ عن خفّة، والرُّجْز: عبادة الوثنّ، والناقة الرّجْزاء: التي تميل في أحد شقيها لداءٍ يعرض لها في عجزها.
قوله تعالى:

وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ آية بلا خلاف.

أقول: القراء كلّهم على فتح الياء في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِتُونَ﴾ وروي عن الحسن ضمّها.

من قال: «أسبتوا» أراد: دخلوا في السبت، ومن فتح الياء أراد: يفعلون السبت أي: يقومون بأمره، كما يفعل المسلمون يوم الجمعة، ومثله: أجمّعنا أي: مرّت بنا جمعة، وجمّعنا: شهدنا الجمعة. قال القراء: قال لي بعض العرب: أترانا أشهرنا منذ لم نلتق؟ يريد: مرّ بنا شهر.

أمر الله نبيه ﷺ أن يسأل بني إسرائيل الذين كانوا في وقته عن القرية التي كانت حاضرة البحر وعن سبب هلاكها، سؤال تقرير وتوبيخ لا سؤال استفهام، كما يقول الرجل لغيره: أنا فعلت كذا؟ وأنت تعلم أنك لم تفعل، وإنّما تسأله لتقريره وتوبيخه، فوجه أمر النبي ﷺ أن يسأل

أهل الكتاب عن أهل هذه القرية مع ما أخبره الله تعالى بقصتها: لتقرّره
تقديم كفرهم وتعلّمهم ما لا يُعلّم إلا بكتابٍ أو وحي، وهو ﷺ لم يكن
ممن قرأ الكتب، فعلموا بذلك أنّ ذلك وحي أنزل عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ معناه: إذ يظلمون في السبت،
يقال: عَدَا فلان يَعْدُوا عُدْوَاناً، وَعَدَا عَدْواً: إذا ظلم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿يَعْدُونَ﴾.
والمعنى: سلّمهم إذ عَدَوْا في وقت الإتيان ﴿شُرْعاً﴾ أي: ظاهرةً.
و«الحيتان»: جمع حُوت، وأكثر ما يسمّي العرب السمك بالحيتان والنينان،
وكانت الحيتان تأتي ظاهرةً فكانوا يحتالون بحبسها يوم السبت ثم
يأخذونها في يوم الأحد، وقال قوم^(١): جأهروا بأخذها يوم السبت.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ﴾ أي: مثل هذا الاختبار الشديد
نختبرهم، وموضع الكاف نصب بقوله: ﴿نَبْلُوهُمْ بما كانوا يفسقون﴾ أي:
شدّت عليهم المحنة بفسقهم. قال الزجاج: ويحتمل أن يكون ﴿ويوم
لا يستبوتون لا تأتِيهم كذلك﴾ أي: لا تأتِيهم شُرْعاً، ويكون ﴿نَبْلُوهُمْ﴾
مستأنفاً. والأوّل قول أكثر المفسرين.

والوجه في تشديد المحنة التي هي التكليف: أنّ الله تعالى أمر بني
إسرائيل بإمساك السبت والتفرّغ فيه للعبادة، وأن لا يتشاغلوا بشيء من
أمر الدنيا فيه، فتهاون قوم ممن كان يسكن هذه القرية وهي «أَيْلَة» في
قول قوم من المفسرين، وقال قوم: هي مَدَيْن. ورؤيا جميعاً عن ابن
عبّاس^(٢) ولم يقوموا بما وجب عليهم^(٣) فشدد الله [على] من أخذه.

(١) منهم الحسن البصري. راجع تفسير الماوردي: ج ٢ ص ٢٧٢.

(٢) روى كلاهما الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٦٢. (٣) في الحبرية: لم يقيم بما وجب عليه.

قال الحسن: كانت تشرّع على أبوانهم كأنها الكباش البيض فيعدون فيأخذونها، وتبعد عنهم في باقي الأيام، مع ما أتاهم أن لا يصطادوا يوم السبت، فكان ذلك تشديداً للتكليف وتغليظاً للمحنة والبلوى، وكان ذلك عقوبةً على تهاونهم بما أوجب الله عليهم، فخالفوا فأرسلوا الشبّاك يوم السبت وأخرجوها يوم الأحد.

قوله عزّ وجلّ:

وَإِذْ قَالَتْ أُمّةٌ مِنْهُمْ لِمَ نَعْطُونَ قَوْمًا أَلَلَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ حفص وحده عن عاصم «معذرة» بالنصب، الباقر بالرفع. من رفع فعلى تقدير: موعظتنا معذرةً إلى ربكم، ومن نصب فعلى المصدر، كما يقول القائل لغيره: «معذرةً إلى الله وإليك من كذا» على النصب، والمعنى: قالوا: نعتذر معذرةً وإعذاراً، قال أبو زيد: عَذَرْتُهُ أَعَذَرْتُهُ عَذْرًا وَمَعَذَرَةً وَعَذَرَى.

والتقدير: واذكر إذ قالت أمةٌ منهم لطائفةٍ منهم: لِمَ نَعْطُونَ قَوْمًا علمتم أنّهم هالكون في الدنيا ويعذبهم الله عذاباً شديداً في الآخرة؟ فقالوا في جوابهم: وَعَظْنَاهُمْ إِعْذَارًا إِلَى اللَّهِ، أي: نَعْظُهُمْ اعْتِذَارًا إِلَى رَبِّكُمْ لئلا يقول لنا: لِمَ لم تعظوهم؟ ولعلّهم أيضاً بالوعظ يَتَّقُونَ ويرجعون.

وفي ذلك دليل على أنّه يجب النهي عن القبيح وإن علم الناهي أنّ المنهي لا ينزجر ولا يقبل، وأنّ ذلك هو ضدّ الحكمة والصواب الذي لا يجوز غيره.

واختلفوا في هذه الفرقة التي قالت: «لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم» هل كانت من الناجية أو من الهالكة عن الاعتداء في السبت؟ ذهب إليه

ابن عباس وقال: نَجَتِ الطائفتان من الهلاك: الناهية والتي قالت لها: لِمَ تعظون، وبه قال السُّدِّي.

وقال قوم: الفرقة التي قالت: ﴿لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم﴾ كانت من الفرقة الهالكة. ذهب إليه ابن عباس في رواية أخرى عنه.

وقال قَتَادَةُ عن ابن عباس: هم ثلاث فِرَقٍ الَّتِي وَعَظَتْ والموعوظة، فنجت الأولى وهلكت الثانية، والله أعلم ما فعلت الفرقة الثالثة وهم الَّذِينَ قالوا: ﴿لِمَ تَعْظُونَ﴾ واختاره الجُبَّائِي.

وقال الكلبي: هما فرقتان: الواعظة والموعوظة.

وقال الجُبَّائِي: لم يريدوا بذلك إِلَّا أَنْ نَهِيَهُمْ إِيَّاهُمْ عن ذلك القبيح ^(١) وإِنَّمَا قالوا ذلك على سبيل الإيَّاس من قبولهم منهم.

وقوله: ﴿لِمَ﴾ أصله: «لما» إِلَّا أَنَّهُ حُذِفَ الألف مع حرف الجرِّ نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ^(٢) ولم يقولوا: «عن ما».

قوله عَزَّ وَجَلَّ:

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ، أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو بكر إِلَّا العُلَيْمِي: ﴿يَبِئْسَ﴾ بفتح الباء وبعدها ياء ساكنة وبعدها همزة مفتوحة على وزن «فَعِيل» وروي عنه بكسر الهمزة، وقرأ أهل المدينة والداخوني عن هشام بكسر الباء وبعدها ياء ساكنة من غير همز، وقرأ مثل ذلك ابن عامر إِلَّا الداخوني عن هشام إِلَّا أَنَّهُ همز، الباقيون بفتح الباء وبعدها همزة مكسورة بعدها ياء ساكنة على وزن «فَعِيل»

وروى خارجة عن نافع بفتح الباء بعدها ياء بلا همز على وزن «فَعْل». قال أبو زيد^(١): قد بَوَّسَ الرجلُ يَبُؤُسُ بَأْساً إذا كان شديداً البأس. وفي «البؤس»: يَبُؤَسُ يَبُؤَسُ بؤساً بئيساً وبأساً، و«البأساء» الاسم. قال أبو علي: مَنْ قرأ على وزن «فَعِيل» يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون «فَعِيلاً» من بَوَّسَ يَبُؤُسُ إذا كان شديداً البأس، مثل: ﴿من عذابٍ شديدٍ﴾^(٢) قال أبو محمد الفَقَّعْسِي^(٣): أشعث غير حسن اللبوس باقي على عيشٍ له بئيس أي: شديد.

والثاني: أن يكون من: عذاب بئيس، فوصفه بالمصدر، والمصدر قد يجيء على «فَعِيل» مثل: «نَكِير» و «نَذِير» و «شَحِيح» و «عَذِير الحَي» والتقدير: من عذاب ذي بئيس، أي: عذاب ذي بؤس. وَمَنْ قرأ بكسر الباء من غير همز فإنه جعلها اسماً فوصفه به، مثل: قوله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ قِيلٍ وَقَالَ» ومثله: «مُنْذُ شُبِّ إِلَى دُبِّ». ونظيره من الصفة: «نَفْض» و «بَضْق».

وَمَنْ فتح الباء من غير همز فهو أيضاً «فَعْل» في الأصل وُصِفَ به، وأبدلت الهمزة ياء، وحكى سيبويه أنه سمع بعض العرب يقول: «بئس» فلا يحقق الهمزة ويدع الحرف على الأصل الذي هو «فَعْل» كأنه يسكن العين كما يسكن من «علم» ويقلب الهمزة ياءً إلا أنه [لأنه، ظ] لما أسكنها لم يجز أن يجعلها بين بين، فأخلصها ياءً. وقراءة ابن عامر مثل قراءة نافع إلا أن ابن عامر حقق الهمزة.

(١) حكاه عنه في اللسان: مادة «بأس» عن كتاب الهمز.

(٢) و «فَقَّعَس»: حي من بني أمد.

(٣) إبراهيم: ٢.

وقراءة أبي بكر على وزن «فَيْعَل» فإنه جعله وصفاً كـ «ضَيْعَم» و«حَيْدَر» وهذا البناء كثير في الصفة، ولا يجوز كسر العين من «بَيْس» لأن «فَيْعَل» بناء اختص به ما كان عينه ياءً أو واواً مثل: «سَيْد» و«طَيْب» ولم يَجِئ مثل: «ضَيْعَم» وجاء في المعتل حكى سيبويه^(١) «عَيْن» وأنشد لرؤبة:

ما بالُ عَيْنِي كالشَّعِيبِ الْعَيْنِ^(٢)

فينبغي أن يحمل «بَيْس» على الوهم عَمَّن رواه عن عاصم والأعمش بالكسر، وقد أنشد بعضهم:

كِلَاهُمَا كَانَ رَئِيساً بَيْئِساً يَضْرِبُ فِي يَوْمِ الْهِيَاجِ الْقَوَّسَا^(٣)
أعلى كل شيء قَوَّسُهُ

بكسر العين، فمن كسر العين حمله على هذه اللغة.

أخبر الله تعالى أنه لما ترك أهل هذه القرية الرجوع عن ارتكاب المعصية بصيد السمك يوم السبت بعد أن ذكَّروهم الواعظون ذلك، ولم ينتهوا عن ذلك: أنه أنجى الناهين عن ذلك، وأخذ الذين ظلموا أنفسهم بعذاب شديد، جزاءً بما كانوا يفسقون ويخرجون عن طاعة الله إلى معصيته.

وروي عن عطاء: أن رجلاً دخل على ابن عباس وبين يديه المصحف وهو يبكي وقد أتى على هذه الآية إلى آخرها، فقال ابن عباس: قد علمت أن الله أهلك الذين أخذوا الحيتان وأنجى الذين نهوهم، ولا أدري ما صنع بالذين لم ينهوهم ولم يواقعوا المعصية وهي حالنا.

و ﴿نَسُوا﴾ في الآية معناه: تركوا، ويحتمل أن يكون تركهم القبول في

(١) في الكتاب: ج ٤ ص ٣٦٦.

(٢) أنشده ابن قتيبة في أدب الكاتب: ص ٦٢٢، وفي اللسان: مادة «عين».

(٣) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٦٩ ونسبه إلى امرئ القيس بن عابس الكندي.

منزلة مَنْ نَسِيَ، ولا يجوز أن يكون المراد: النسيان الذي هو السهو، لأنه ليس من فعلهم فلا يذمّون عليه.

وقال الجُبَّائي: العذاب الشديد لحقهم قبل أن يُمَسَّخُوا قِرْدَةً خاسئين. قوله عزّ وجلّ:

فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنُوءِهِمْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: أخبر الله تعالى عن هؤلاء العُصَاة الَّذِينَ عصوا بصيد السمك في السبت، ونُهِوا فلم ينتهوا، وُوعِظُوا فلم يَتَّعِظُوا، وأنه أنزل عليهم العذاب الشديد، فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نَهَى الله وتمردوا في معصيته مسخهم الله قردة خاسئين. و «العاتي»: الشديد الدخول في الفساد، المتمرد الذي لا يقبل موعظةً، و «العتوّ»: الخروج إلى الجراءة على أفحش الذنوب.

وقوله: ﴿خاسئين﴾ معناه: مُبْعِدِينَ، من قولهم: خَسَّاتِ الْكَلْبِ إِذَا أَقْصَيْتُهُ، فَخَسّاً أَي: بَعْدَ. وقال الحسن: معناه: صاغرين، وقال الحسن: إن أهل المسخ يتناسلون. وقال ابن عباس: لا يتناسلون. وأجاز الزجاج كلاً الأمرين. وسئل أبو مالك: أكانت القردة والخنازير قبل أن يُمَسَّخُوا؟ قال: نعم، وكانوا فيما خلق الله من الأمم. وقول ابن عباس أصحّ، لأنّ المعلوم أنّ القردة ليست من ولد آدم، كما أنّ الكلاب ليست من ولد آدم. قال قتادة: صاروا قردةً لها أذنان تعاوي بعد ما كانوا نساءً ورجالاً.

وقوله تعالى: ﴿كونوا قردة﴾ صيغته صيغة الأمر والمراد به الإخبار: من أنّه جعلهم قردة على وجهٍ يسهل عليه ولم يتعب به ولم ينصب، كما قال تعالى: ﴿إنما قولنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾^(١). وقال:

﴿اِثْبِتْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) ولم يكن هناك أمر لأنه تعالى لا يأمر المعدوم، وإنما هو إخبار عن تسهيل الفعل، وأجاز الزجاج أن يكون قيل لهم ذلك بكلام سمعوه فيكون ذلك أبلغ في الآية النازلة بهم، لما يدل على وقوع الأول الذي تبعه الثاني، وليس كذلك إذا قلت: لما جاء المطر خرج النبات، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾^(٢) فلا يقع الرد أصلاً. قوله عز وجل:

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: التقدير: اذكر يا محمد ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ ومعنى «تَأَذَّنَ»: أعلم، والعرب تقول: تعلم أن هذا كذا، بمعنى: أعلم، قال زهير:

تَعَلَّمَ أَنَّ شَرَّ النَّاسِ حَيٌّ يُنَادِي فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ^(٣)
«يسار» اسم عبد. وقال زهير أيضاً:

فَقُلْتُ تَعَلَّمُ أَنَّ لِلصَّيْدِ غِرَّةً وَالْأُتُصِيْعَةُ فَإِنَّكَ قَاتِلُهُ^(٤)

وقال الزجاج: معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾: تآلى ربك ليعثن، وقال قوم: معناه: أمر من «أَذَنَ يَأْذَنُ» وقوله: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ قَسَمَ من الله تعالى أنه يبعث عليهم من يسومهم سوء العذاب، أي: من يوليهم سوء العذاب.

قال أبو جعفر عليه السلام وابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والحسن: أراد به أمة محمد ﷺ يأخذون منهم الجزية.

(١) فصلت: ١١.

(٢) الأنعام: ٢٨.

(٣) من قصيدة يهذو قوماً أسروا راعي إبله. راجع ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٣٣.

(٤) من قصيدة يمدح حصن بن حذيفة. راجع المصدر السابق: ص ٦٧.

فإن قيل: فقد جعلوا قردة كيف يبقون إلى يوم القيامة؟

قلنا: إن الذكر لليهود، فمنهم من مُسِّخَ فجعل منهم القردة والخنازير، ومن بقي قَمِيعَ بَذْلٍ من الله، فهم أذلاء بالقتل أو أذلاء بإعطاء الجزية، فهم في كل مكان أذلَّ أهلُه، لقوله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾^(١) أي: إلا أن يعطوا الذمة والعهد. وفي الآية دليل على أن اليهود لا يكون لهم دولة إلى يوم القيامة ولا عزٌّ لهم أيضاً^(٢).

وقيل في معنى «البعث» هاهنا قولان: أحدهما: الأمر والإطلاق، والآخر: التخلية وإن وقع على وجه المعصية، كما قال تعالى: ﴿أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تُوْزَّهُمْ أَرْأَخًا﴾^(٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ معناه: إِنَّ رَبَّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ لِمَنْ يَسْتَوْجِبُهُ عَلَى كُفْرِهِ وَمَعْصِيَتِهِ ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: صَفُوحٌ عَنْ ذُنُوبٍ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ مِنْ مَعَاصِيهِ وَرَجَعَ إِلَى طَاعَتِهِ، يَسْتَرُ عَلَيْهِمْ بَعْفُوهُ وَبِفَضْلِهِ رَحْمَةً بِهِمْ، فَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَصْرَّ وَيَأْمَنَ عِقَابَهُ، بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ سُرْعَةَ عِقَابِهِ فَيَبَادِرَ إِلَى التَّوْبَةِ^(٤) وَالِاسْتِغْفَارِ. قوله عزَّ وجلَّ:

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِمَّنْهُمْ أَصْلَحُوا وَمِنْهُمْ دُونُ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أخبر الله تعالى: أَنَّهُ قَطَعَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْنِي: فَرَّقَهُمْ فِرْقًا ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يَعْنِي: جَمَاعَاتٍ شَتَّى مُتَفَرِّقِينَ فِي الْبِلَادِ، وَهُوَ قَوْلُ

(٢) فتأمل.

(٤) فِي الْحَجَرِيَّةِ: فَتَبَادَرُوا التَّوْبَةَ.

(١) آل عمران: ١١٢.

(٣) مريم: ٨٣.

ابن عباس ومجاهد. وعلى أي وجه فرّقهم؟ قيل فيه قولان:
أحدهما: فرّقهم حتّى تشتّت أمرهم وذهب عزّهم عقوبةً لهم. والثاني:
فرّقهم على ما علم أنّه أصلح لهم في دينهم.

ثم أخبر عنهم فقال: من هؤلاء ﴿الصالحون﴾ يعني: من بني إسرائيل
الصالحون وهم الذين يؤمنون بالله ورسله ﴿ومنهم دون ذلك﴾ يعني: دون
الصالح، وإنّما وصفهم بذلك بما كانوا عليه قبل ارتدادهم عن دينهم، وقبل
كفرهم برّبهم، وذلك قبل أن يبعث قوم فيهم عيسى عليه السلام.

وقوله: ﴿وبلوناهم بالحسنات والسيّئات﴾ معناه: اخترناهم بالرخاء
في العيش والخفّض في الدنيا والدعة والسعة في الرزق، وهي الحسنات،
ويعني بـ ﴿السيّئات﴾: الشدائد في الحبس والمصائب في الأنفس والأموال
﴿لعلّهم يرجعون﴾ أي: لكي يرجعوا إلى طاعته، وينيبوا إلى امتثال أمره.
فإن قيل: كيف قال: لكي يرجعوا إلى الحقّ، وهم لم يكونوا عليه قطّ؟!
قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أنّهم ما زوّن على وجوههم إلى جهة الباطل، فدعّوا إلى
الرجوع إلى جهة الحقّ، لأنّ الانصراف عن الباطل رجوع إلى الحقّ.
والثاني: أنّهم ولّدوا على الفطرة وهي دين الحقّ الذي يلزمهم الرجوع إليه.
قوله عزّ وجلّ:

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا أَلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ
سَيَغْفِرَ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ أَلْكِتَابِ أَنْ
لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿٦٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى الآية: أنّ الله أخبر أنّه خلف بعد القوم الذين كان فرّقهم

في الأرض خَلَفَ، وهم قوم نشأوا بعدهم من أولادهم ونسلهم، يُقال للقرْن الذي يجيء في إثر قَرْنٍ خَلَفَ، و «الخَلَفَ» ما أُخْلِفَ عليك بدلاً ممَّا أُخِذَ منك. ويقال: في هذا: «خَلَفَ» أيضاً، فأَمَّا ما أُخْلِفَ عليك بدلاً ممَّا ذهب منك فهو بفتح اللام أَفْصَح. قال الفراء: يُقال: أعطاك الله خَلَفاً ممَّا ذهب لك، فأنت خَلَفٌ صدقٍ وخَلَفٌ سوءٍ، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾^(١) وأكثر ما يجيء في المدح بفتح اللام، وفي الذمِّ بتسكينها، وقد تُحَرَّك في الذمِّ وتُسَكَّن في المدح، فمن ذلك في تسكين اللام في المدح قول حسان بن ثابت:

لنا القَدَمُ الأولى إِلَيْكَ وخَلْفُنا
لأَوْلَنا في طاعةِ اللَّهِ تايِعُ^(٢)
ويُقال: خَلَفَ اللَّبَنُ إذا حَمُضَ من طول تَوَكُّه في السِّقَاءِ حتَّى يفسد، فالرجل الفاسق مشبَّه به، ومنه: خُلُوف فم الصائم وهو تَغْيِيرُه. وأمَّا بتسكين اللام في الذمِّ فقول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشِرُ فِي أَكْنافِهِمْ وَبَقِيَتْ في خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ^(٣)
وقيل: إِنَّ «الخَلْفَ» الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ في هذه الآية أَنَّهُمْ خَلَفُوا من قَبْلِهِمُ هم النصارى، ذهب إليه مجاهد. وهذا الَّذي قاله جائر، وجائر أيضاً أن يكون المراد به قوم خلفوهم من اليهود.

وقوله تعالى: ﴿ورثوا الكتاب يأخذون عَرَضَ هذا الأدنى﴾ قال قوم: كانوا يرتشون على الأحكام ويحكمون بجور. وقال آخرون: كانوا يرتشون ويحكمون بحق، وكلُّ ذلك عَرَضٌ خسيس.

(١) مريم: ٥٩.

(٢) من قصيدة يبيكي سعد بن معاذ ورجالاً من الصحابة. راجع ديوان حسان: ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) من قصيدة يمدح قومه بني جعفر، ويذكر أيامهم. راجع ديوان لبيد بن ربيعة العامري: ص ٣٦.

ومعنى ﴿هذا الأدنى﴾: هذا العاجل، و ﴿يقولون سيُغْفَر لنا﴾ معناه: أَنَّهُمْ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ يَقُولُونَ: اللَّهُ يَغْفِر لَنَا ذَلِكَ تَمَنِّيًّا مِنْهُمْ لِلْأَبَاطِيلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا قَوْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾^(١). وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُونَهُ﴾ دليل على إصرارهم، وَأَنَّهُمْ تَمَنَّوْا أَنْ يُغْفَرَ لَهُمْ مَعَ الْإِصْرَارِ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: وَإِنْ جَاءَهُمْ حَرَامٌ مِنَ الرِّشْوَةِ بَعْدَ ذَلِكَ أَخْذِهِ وَاسْتَحْلُوهُ، وَلَمْ يَرْتَدَّعُوا عَنْهُ، وَهُوَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمَجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَالسُّدِّيِّ وَابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ الْحَسَنُ: مَعْنَاهُ: لَا يَشْبَعُهُمْ شَيْءٌ.

وقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ معناه: أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُرْتَشِينَ فِي الْأَحْكَامِ، الْقَائِلِينَ: سَيُغْفَرُ لَنَا هَذَا إِذَا عَوْتَبُوا عَلَى ذَلِكَ؟ [و] ﴿مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾: هُوَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَهْدِ بِإِقَامَةِ التَّوْرَةِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا، فَقَالَ تَعَالَى لَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ قَصَّهْمُ تَوْبِيخًا لَهُمْ عَلَى خِلَافِهِمْ أَمْرَهُ وَنَقَضَهُمْ عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ: أَلَمْ يَأْخُذْ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ فِي كِتَابِهِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ، وَلَا يَضِيفُوا إِلَيْهِ إِلَّا مَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ مُوسَى فِي التَّوْرَةِ، وَلَا يَكْذِبُوا عَلَيْهِ.

وإِنَّمَا احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِمِيثَاقِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْعَقْلِ، لِيَعْلَمْنَا مَا لَا نَعْلَمُهُ مِمَّا هُوَ فِي كِتَابِهِمْ مِنْ أَدَلَّةٍ تَوْكَّدُ مَا فِي الْعَقْلِ. وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ المعنى: قَرَأُوا مَا فِيهِ وَدَرَسُوهُ،

فَضِيْعُوهُ وَتَرَكُوا الْعَمَلَ بِهِ. وَ «الدَّرْسُ»: تَكَرَّرَ الشَّيْءُ، يُقَالُ: دَرَسَ الْكِتَابَ إِذَا كَرَّرَ قِرَاءَتَهُ، وَدَرَسَ الْمَنْزِلُ: إِذَا تَكَرَّرَ عَلَيْهِ مَرُورُ الْأَمْطَارِ وَالرِّيَّاحِ حَتَّى يُمَحِّى أَثَرُهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [أي: ما أعدّه الله تعالى لأوليائه في دار الآخرة من النعيم والثواب، وَدَخَرَهُ لِلْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ الْحَافِظِينَ لِحُدُودِهِ ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ يعني: يَجْتَنِبُونَ مَعَاصِيَ اللَّهِ، وَيَحْذَرُونَ عِقَابَهُ.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فَمَنْ قَرَأَ بِالْبَاءِ مَعْنَاهُ: أَفَلَا تَعْقِلُ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا وَهُمْ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الدُّنْيَى عَلَى أَحْكَامِهِمْ وَيَقُولُونَ: سَيُغْفَرُ لَنَا، وَمَنْ قَرَأَ بِالتَّاءِ قَالَ: مَعْنَاهُ: قُلْ لَهُمْ: أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَنَّ الْأَمْرَ عَلَى مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ.

وَحُكْمِي: أَنَّ طَيْئاً تَقُولُ فِي جَمْعٍ «مِثَاقٌ»: مِثَاقِي، وَفِي جَمْعٍ «مِيزَانٌ»: مِيزَانِي، وَحُكْمِي [عَنْ] غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ أَيْضاً ذَلِكَ، وَأَنْشَدَ بَعْضُ الطَّائِفِينَ:

حِمْيٌّ لَا يَحِلُّ الدَّهْرُ إِلَّا بِأِذْنِنَا وَلَا تَسْلِي الْأَقْوَامَ عَقْدَ الْمِثَاقِ^(١)
قوله عز وجل:

وَالَّذِينَ يُمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾
آية بلا خلاف.

أقول: قرأ أبو بكر: ﴿يُمْسِكُونَ﴾ بتسكين الميم، الباقون بفتحها وتشديد السين.

(١) أنشده في اللسان: مادة «وثق» ونسبه إلى عياض بن دُرَّة الطائي.

مَنْ خَفَّفَ السَّيْنَ فَلَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ﴾^(١) وقوله: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾^(٢) [وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ﴾^(٣)]. وَمَنْ شَدَّدَ أَرَادَ التَّكْثِيرَ وَهُوَ أَوْلَى، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾^(٤) أَي: لَا تُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ بَلْ تُؤْمِنُونَ بِجَمِيعِهِ، وَيَقْوَى التَّشْدِيدُ مَارُوِيٍّ عَنْ أَبِي أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿وَمَسَّكُوا بِالْكِتَابِ﴾. وَمَعْنَى ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ أَي: يَأْخُذُونَ بِمَا فِيهِ مِنْ حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ.

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِمَا فِي الْكِتَابِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ مَعَ دُخُولِهَا فِي التَّمَسُّكِ بِالْكِتَابِ لَجَلَالَةِ مَوْقِعِهَا وَشِدَّةَ تَأْكُذِّهَا أَنَّهُ لَا يُضَيِّعُ جِزَاءَ عَمَلِهِمْ، وَيُشِيهِمُ بِمَا يَسْتَحَقُّونَهُ، لِأَنِّي لَا أُضَيِّعُ لِأَحَدٍ - أَصْلَحَ عَمَلُهُ فَعَمِلَ بِطَاعَتِي - أَجْرَ عَمَلِهِ، وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ زَيْدٍ وَمَجَاهِدٍ وَجَمِيعِ الْمُفَسِّرِينَ. وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ سَاقِطٌ، لِأَنَّهُ يُوقَعُهُ عَلَى خِلَافِ الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَحَقُّ بِهِ الثَّوَابَ.

وَيُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَيَمَسُّكُونَ وَيَتَمَسَّكُونَ وَيَسْتَمَسُّكُونَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، أَي: يَعْتَصِمُونَ بِهِ وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ، وَخَبِرَ «الَّذِينَ» قَوْلُهُ: ﴿إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ فَاسْتَغْنَى بِذِكْرِ الْعِلَّةِ عَنْ ذِكْرِ الْمَعْلُولِ. قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

وَإِذْ تَنْقُتَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوْا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَاءَ ابْتِئْسَاطِكُمْ بِقُوَّةٍ
وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٧٧﴾ آيَةٌ بِلَا خِلَافٍ.

أَقُولُ: هَذَا خُطَابٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ يَقُولُ اللَّهُ لَهُ: اذْكُرْ يَا مُحَمَّدُ الْوَقْتَ الَّذِي «تَنْقُتَا» فِيهِ «الْجَبَلَ» أَي: رَفَعْنَاهُ «فَوْقَهُمْ» حَتَّى صَارَ

﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ وقيل ^(١): إنه رفع الجبل على عسكرهم فَرَسَخاً في فَرَسَخٍ. وامرأة مُنْتَقٍ ونَاتِقٍ: كثيرة الولد، وقال ابن الأعرابي: النَاتِقُ: الرافع، والنَاتِقُ: الفاتِقُ، والنَاتِقُ: الباسط، وقال العجاج:

يَنْتُقُ انتِثاقَ الشَّلِيلِ نَتَقاً ^(٢)

يعني: يرفعه عن ظهره، وقال الآخر:

وَنَتَقُوا أَحْلَامَنَا الْأَثَاقِلَا ^(٣)

وقال النابغة:

لَمْ يُحَرِّمُوا حُسْنَ الْغِذَاءِ وَأُمَّتْهُمْ دَحَقَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقٍ مِذْكَارٍ ^(٤)
ويروى: طَفَعَتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقٍ. ويُقال: نَتَقَ السَّيْرَ إِذَا حَرَّكَه، ويُقال: مَا يَنْتُقُ بِرَجُلِهِ وَلَا يَرْكُضُ، و «النَّتَقُ»: [يقال، ظ] نَتَقَ الدَّابَّةَ صَاحِبُهُ يَعْنِي يَعْدُو بِهِ [بِهَا، ظ] وَسَعَهُ حَتَّى تَرْبُو، فذلِكَ [يذلِكَ، ظ] النَّتَقُ ^(٥). وقال بعضهم ^(٦): معْنَى «نَتَقْنَا الْجِبَلَ فَوْقَهُمْ» [وَسَعَهَا، ظ] فَرَفَعْنَاهُ يَنْتَقِيهِ نَتَقاً، قَالَ: وَسَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ: أَخَذَ الْجِرَابَ فَتَنَّتَقَى مَا فِيهِ إِذَا نَثَرَ مَا فِيهِ.

قال أبو عُبَيْدَةَ: أَصْلُ النَّتَقِ كُلُّ شَيْءٍ: قَلَعْتُهُ مِنْ مَوْضِعِهِ فَرَمَيْتُ بِهِ، يُقَالُ: مِنْهُ: تَنَّتَقَتْ نَتَقاً ^(٧).

(١) قاله الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٩٩.

(٢) أنشده الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٧٥ وفيه: «أقتاد» بدل «انتقاق».

(٣) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٣٢ ونسبه إلى رُوَيْبَةَ بْنِ الْعَجَّاجِ.

(٤) من قصيدة يذكر سجاله الفكري مع زُرْعَةَ بْنِ عِمْرٍ فِي عَكَازٍ وَكَانَتْ الْغَلْبَةُ لَهُ. راجع ديوان

النابغة الذبياني: ص ١٢٤.

(٥) في المطبوعة: و «النَّتَقُ»: نَتَقَ الدَّابَّةَ صَاحِبُهَا حِينَ تَعْدُو بِهِ وَتَتَعَبُهُ حَتَّى تَرْبُو فَذلِكَ النَّتَقُ.

(٦) منهم الفراء في معاني القرآن: ج ١ ص ٣٩٨، وأبو عُبَيْدَةَ فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ: ج ١ ص ٢٣٢.

(٧) فِي مَجَازِ الْقُرْآنِ: ج ١ ص ٢٣٢.

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ﴾ يعني به: غمماً من الظلال. وقوله: ﴿ووظَّئُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ قال الحسن: معناه: علموا. وقال الجُبَّائي والرُّمَّاني: هو الظنُّ بعينه، لأنَّه قَوِيٌّ في نفوسهم ذلك.

وقوله ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: قلنا لهم: خذوا ما آتيناكم بجِدٍّ، يعني: ما ألزمناكم من أحكام كتابنا وفرائضه فاقبلوه باجتهادٍ منكم في أوانه من غير تقصير ولا توان. وقال الجُبَّائي: معناه: خذوه بالقدرة التي آتاكم الله وأقدركم بها لأنَّهم لو لم يكونوا قادرين لما كلَّفهم الله ذلك، وذلك يفسد مذهب مَنْ قال: القدرة مع الفعل.

وقوله ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ معناه: ما في كتابه من العهود والمواثيق التي أخذناها عليكم بالعمل بما فيه، لكي تَتَّقُوا ربَّكم فتخافوا عقابه بترككم العمل به إذا ذكرتم ما أخذ عليكم فيه من المواثيق.

وكان سبب رفع الجبل عليهم: أَنَّ موسى ﷺ لَمَّا آتَاهُم بالتوراة ووقفوا على ما فيها من الأحكام والحدود والتشديد في العبادة أَبَوْا أَنْ يَقْبَلُوا ذَلِكَ وَأَنْ يَتَمَسَّكُوا بِهِ وَأَنْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهِ، وَقَالُوا: إِنَّ ذَلِكَ يَغْلُظُ عَلَيْنَا، فَرَفَعَ اللَّهُ الْجَبَلَ كَالظِّلَّةِ عَلَيْهِمْ. وَعَرَفَهُمْ مُوسَى أَنَّهُمْ إِنْ لَمْ يَقْبَلُوا التَّورَةَ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِمَا فِيهَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ، فَأَخَذُوا بِالتَّورَةِ وَقَبُولَ [قَبِلُوا، ظ] مَا فِيهَا، وَصَرَفَ اللَّهُ نَزُولَ الْجَبَلِ عَلَيْهِمْ.

قال ابن عباس: فلذلك صارت اليهود تسجد على قرنها الأيسر، لأنَّهم سجدوا كذلك ينظرون إلى الجبل، وكان^(١) سجدةً نصيهاً لله، وإنَّما اتَّخَذَتِ النَّصَارَى الْمَشْرِقَ قِبْلَةً، لِأَنَّ مَرْيَمَ ﷺ اتَّخَذَتْ مَكَاناً شَرْقِيّاً حِينَ حَمَلَتْ

(١) في المطبوعة: وكأَنها.

بعيسى عليه السلام.

وقال مجاهد: معناه: إن اتَّخَذْتُمُوهُ بَجْدًّ وَحَسَنَ نِّيَّةٍ وَإِلَّا أَلْقَى [الجبل] عليكم.

وقال أبو مسلم: إنَّ رفع الجبل كان ليظْلَهُم من الغمام. وذلك خلاف أقوال المفسرين وما يقتضيه سياق الكلام.
قوله عز وجل:

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وأهل الكوفة: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على التوحيد، الباقون ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ على الجمع. وقرأ أبو عمرو ﴿أَنْ يَقُولُوا، أَوْ يَقُولُوا﴾ بالياء فيهما، الباقون بالتاء.

و «الذَّرِيَّة» قد يكون جمعاً نحو قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾^(١) وقد يكون واحداً كقوله: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ... فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ... أَنْ اللَّهُ يَبْشُرُكَ بِيَحْيَى﴾^(٢) فهو مثل قوله: ﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً يَرثَنِي﴾^(٣) فقال الله: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾^(٤). فمن أفرد جعله اسماً واستغني عن جمعه بوقوعه على الجمع، ومن جمع قال: لَأَنَّهُ إِنْ كَانَ واقِعاً على الواحد فلا شك في جواز جمعه، وإن كان جمعاً فجمعه أيضاً حسن،

لأنَّه قدورد الجموع المكسرة وقد جُمِعَت نحو: «الطرقات» و «صواحبات يوسف». وحجّة من أفرد قال: لأنَّه لا يقع على الواحد والجميع [والجمع]. فأما وزن «ذَرِيَّة» فإنَّه يجوز أن تكون «فُعْلُوْلَة» من «الذَر» فأبدلت من الراء الَّتِي هي لام الفعل الأخيرة ياءً كما أبدلت من «دهرية» يدلك على البدل فيه قولهم: دَهْرُورَة. ويحتمل أن تكون «فُعَيْلَة» منه فأبدلت من الراء الياء، كما تُبدل من هذه الحروف في التضعيف وإن وقع فيها الفصل. ويحتمل أن تكون «فَعْلِيَّة» نسبة إلى «الذَر» وأبدلت الفتحة منها ضمة كما أبدلوا في الإضافة إلى «الدهر»: دَهْرِي، وإلى «سهل»: سهْلِي. ويجوز أن تكون «فَعَيْلَة» من: ذرأ الله الخلق، أجمعوا على تخفيفها كما أجمعوا على تخفيف «البرية». ويجوز أن تكون ^(١) من قوله: ﴿تذروه الرياحُ﴾ ^(٢) أبدلت من الواو الياء لوقوع ياء قبلها.

وحجّة أبي عمرو في قراءته بالياء: أنَّ ما تقدّم ذكره من الغيبة وهو قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ كراهية أن يقولوا أو لثلاً يقولوا، ويؤكد ذلك ما جاء بعد من الإخبار عن الغيبة وهو قوله: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾. وحجّة من قرأ بالتاء: أنَّه قد جرى في الكلام خطاب وهو قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا بلى شهدنا ﴿وَكَلَّا الْوَجْهَيْنِ حَسَنَ، لِأَنَّ الْغَيْبَ هُمُ الْمَخَاطَبُونَ فِي الْمَعْنَى.

وهذا خطاب للنبي ﷺ قال الله تعالى له: واذكر أيضاً الوقت الذي أخذ الله فيه من بني آدم من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ واختلفوا في معنى هذا الأخذ فيه وهذا الإشهاد:

(١) أي: على وزن «فُعْلُوْلَة». وبذلك تتم خمسة أقوال في أصل «ذَرِيَّة». (٢) الكهف: ٤٥.

فقال البلخي والرُّمَّاني: أراد بذلك البالغين من بني آدم وإخراجه إياهم ذرِّيَّة قرنًا بعد قرنٍ، وعصرًا بعد عصرٍ، وإشهادهم إياهم على أنفسهم تبليغه إياهم وإكماله عقولهم، وما نصب فيها من الأدلَّة الدالَّة بأنَّهم مصنوعون، وأنَّ المصنوع لا بدَّ له من صانع، وبما أشهدهم ممَّا يحدث فيهم من الزيادة والنقصان والآلام والأمراض الدالَّة بجميع ذلك على أنَّ لهم خالقًا رازقًا تجب معرفته والقيام بشكره. وما أخطر بقلوبهم من تأكيد ذلك والحثَّ على الفكر فيه، ثمَّ إرساله الرسل وإنزاله الكتب، لئلاَّ يقولوا إذا صاروا إلى العذاب: إنا كنَّا عن هذا غافلين، لم ينبَّه علينا ولم تقم لنا حجة عليه ولم تكمل عقولنا فنفكر فيه، أو يقول قوم منهم: إنَّما أشرك آبائنا حين بلغوا وعقلوا، فأما نحن فكنا أطفالًا لا نعقل ولا نصلح للفكر والنظر والتدبير.

وقال الجبَّائي: أخذ ذرِّيَّاتهم من ظهورهم أنَّه خلقهم نُطفًا من ظهور الآباء، ثمَّ خلقهم في أرحام الأمَّهات، ثمَّ نقلهم من خلقه إلى خلقه، وصورة إلى صورة، ثمَّ صاروا حيوانًا بأنَّ أحياءهم الله في الأرحام، وأتمَّ خلقهم، ثمَّ أخرجهم من الأرحام بالولادة.

وقوله تعالى: ﴿وأشهدهم على أنفسهم﴾ يعني: عند البلوغ وكمال العقل وعندما عرفوا ربَّهم، فقال لهم على لسان بعض أنبيائه: ﴿ألست بربِّكم؟﴾ فقالوا: ﴿بلىَّ شهدنا﴾ بذلك وأقرنا به لأنَّهم كانوا بالله عارفين أنَّه ربُّهم.

وقوله تعالى: ﴿أن تقولوا إنا كنَّا عن هذا غافلين﴾ معناه: لئلاَّ تقولوا يوم القيامة: إنا كنَّا عن هذا غافلين، فأراد بذلك: أني أنا قرَّرتكم بهذا لتواظبوا على طاعتي وتشكروا نعمتي، ولا تقولوا يوم القيامة: إنا كنَّا عن هذا غافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فنشأنا على شركهم، ففتحجوا يوم القيامة بذلك، فبين: إني قد قطعت بذلك حجَّتكم هذه بما قرَّرتكم به من معرفتي وأشهدتكم على أنفسكم بإقراركم وبمعرفتكم إياي.

وقوله: ﴿أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمَبْطُلُونَ﴾ من آبائنا، قال نزلت الآية على أنها مخصوصة في قوم من بني آدم وأنها ليست في جميعهم لأن جميع بني آدم لم يؤخذوا من ظهور بني آدم، لأن ولد آدم لصلبه لا يجوز أن يُقال: إنهم أخذوا من ظهور بني آدم، فقد خرج ولد آدم لصلبه من ذلك، وخرج أيضاً أولاد المؤمنين من ولد آدم الذين لم يكن آبؤهم مشركين، لأنه بين: أن هؤلاء الذين أقرؤا بمعرفة الله وأخذ ميثاقهم بذلك كان قد سلف لهم في الشرك آباء، فصَحَّ بذلك أنهم قوم مخصوصون من أولاد آدم.

فأما ما روي^(١): أن الله تعالى أخرج ذرِّيَّةَ آدم من ظهره وأشهدهم على أنفسهم وهم كالذر، فإن ذلك غير جائز، لأن الأطفال فضلاً عنهم هو كالذر لا حجة عليهم، ولا يحسن خطابهم بما يتعلّق بالتكليف. ثم إن الآية تدلّ على خلاف ما قالوه، لأن الله تعالى قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ وقال: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل: من ظهره، وقال: ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ ولم يقل: ذُرِّيَّتِهِ، ثم قال: ﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلَ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفْتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمَبْطُلُونَ﴾ فأخبر أن هذه الذرِّيَّة قد كان قبلهم آباء مبطلون وكانوا هم بعدهم.

على أن راوي هذا الخبر: سليمان بن بشَّار الجُهَنِّي، وقيل: مسلم بن

(١) كرواية الصدوق في العلل: ج ١ ص ٨٤ ح ٢، والعيَّاشي في تفسيره: ج ١ ص ٣٧ ح

١٠٣ و ١٠٤ و ص ٣٩ ح ١٠٩ و ١٠١ وغيرهما.

بشّار عن عمر بن الخطاب^(١). وقال يحيى بن معين: سليمان هذا لا يُدْرَى أين هو^(٢).

وأيضاً: فتعليل الآية يفسد ما قالوه، لأنّه قال: فعلت هذا لئلا يقولوا يوم القيامة: إنّنا كنّا عن هذا غافلين، والعقلاء اليوم في دار الدنيا عن ذلك غافلون.

فإن قيل: نسوا ذلك لطول العهد، أو لأنّ الزمان كان قصيراً، كما يعلم الواحد منّا أشياء كثيرة ضرورةً ثمّ ينساها كما [ينسى ما] فعله في أمسه وما مضى من عمره.

قلنا: إنّما يجوز أن ينسى ما لا يتكرّر العلم به ولا يشتدّ الاهتمام به، فأما الأمور العظيمة الخارقة للعادة فلا يجوز أن ينساها العاقل، ألا ترى أنّ الواحد منّا لو دخل بلاد الزنج ورأى الأفيلة^(٣) ولو يوماً واحداً من الدهر لا يجوز أن ينسى ذلك حتّى لا يذكره أصلاً مع شدّة اجتهاده واستذكاره؟! ولو جاز أن ينساه واحد لما جاز أن ينساه الخلق بأجمعهم. ولو جوّزنا ذلك للزمننا مذهب التناسخ، وأنّ الله كان قد كلّف الخلق فيما مضى وأعادهم: إمّا لينعمهم أو ليعاقبهم، ونسّوا ذلك، وذلك يؤدّي إلى التجاهل.

على أنّ أهل الآخرة يذكرون ما كان منهم من أحوال الدنيا ولم يجب

(١) كما في رواية أحمد في مسنده: ج ١ ص ٤٤، والترمذي في سننه: ج ٥ ص ٢٦٦ ح ٣٠٧٥ بسندهما عنه.

(٢) انظر ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٢ ص ١٩٧ وفيه عنه: «متّهم بوضع الحديث، قال ابن حبان: يضع على الإثبات ما لا يخصّ».

(٣) كذا. وفي اللسان: الفيل، معروف، والجمع أفيال وفُيُول وفَيْلَة، قال ابن السكّيت: ولا تقل أفيلة.

أن ينسوا ذلك لطول العهد، ولا المدّة التي مرّت عليهم وهم أموات، وكذلك أصحاب الكهف لم ينسوا ما كانوا فيه قبل نومهم لما انتبهوا مع طول المدّة في حال نومهم، فعلمنا أنّ هؤلاء العقلاء لو كانوا شاهدوا ذلك وحضروه وهم عقلاء لما جاز أن يذهب عنهم معرفة ذلك لطول العهد، ولوجب أن يكونوا كذلك عارفين.

وقال قوم - وهو المرويّ في أخبارنا^(١) - : إنّّه لا يمنع أن يكون ذلك مختصّاً بقوم خلقهم الله وأشهدهم على أنفسهم بعد أن أكمل عقولهم وأجابوه بـ «بلى» وهم اليوم يذكرونه ولا يغفلون عنه، ولا يكون ذلك عاماً في جميع العقلاء. وهذا وجه أيضاً قريب يحتمله الكلام.

وحكى أبو الهذيل في كتابه «الحجّة»: أنّ الحسن البصري وأصحابه كانوا يذهبون إلى نعيم الأطفال في الجنّة ثواب عن إيمانهم في الدنّ. وحكى الرّماني عن كعب الأخبار^(٢): أنّه كان يُخبر خبر الدنّ، غير أنّه يقول: ليس تأويل الآية على ذلك، وإنّما فعل ليجروا على الأعراق الكريمة في شكر النعمة والإقرار لله بالوحدانيّة، كما روي أنّهم ولدوا على الفطرة^(٣). ويدلّ على فساد قولهم: قوله تعالى: ﴿والله أخرجكم من بطون أمّهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾^(٤) فهم لو كانوا أخرجوا من ظهر آدم على صورة الدنّ كانوا أبعد من أن يعلموا أو يعقلوا، ومتى قالوا: أكمل الله عقولهم، فقد مضى الكلام عليهم.

(١) ذكره المرتضى في أماليه: ج ١ ص ٢٩. (٢) في الحجرية: ابن الأخبار.

(٣) رواه الترمذي في سننه: ج ٤ ص ٤٤٧ ح ٢١٣٨، وأبو داود أيضاً في سننه: ج ٤ ص ٢٢٩ و ٢٣٠ ح ٤٧١٤ و ٤٧١٦، والسيد المرتضى في أماليه: ج ٢ ص ٨٢.

(٤) النحل: ٧٨.

وذكر الأزهري وروى ذلك عن بعض من تقدم أن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ تمام الكلام، وقوله: ﴿شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حكاية عن قول الملائكة أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: شَهِدْنَا لثَلَا تَقُولُوا.

وهذا خلاف الظاهر، وخلاف ما عليه جميع المفسرين، لأنَّ الكلَّ قالوا: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول من قال: ﴿بَلَىٰ﴾ وإن اختلفوا في كيفية الشهادة، على أَنَّ الملائكة لم يجر لها ذِكْر فكيف يكون ذلك إخباراً عنهم؟! قوله عزَّ وجلَّ:

وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: المعنى إِنَّا كما بيَّنا لكم هذه الآيات كذلك نفصلها للعباد ونبيِّنها لهم. وتفصيله الآيات هو تمييز بعضها من بعض ليمكنوا من الاستدلال بكلِّ واحدة منها على جهتها، ويبيِّن أَنَّهُ فعل ذلك بهم ليتوبوا وليرجعوا عن معاصيه إلى طاعته وعن الكفر إلى الإيمان به. قوله عزَّ وجلَّ:

وَأَنذَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ آية .

أقول: هذا خطاب من الله تعالى لنبيه ﷺ يأمره بأن يقرأ على بني إسرائيل وغيرهم من أمته خبر الذي آتاه الله حججه وبيِّناته ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ وكان من جملة ﴿الغاوين﴾ الخائبين الخاسرين، وقيل ^(١) معناه: الضالِّين الهالكين.

واختلفوا في المعنيّ بقوله: ﴿آتيناه آياتنا﴾ فقال ابن عباس ومجاهد: هو بلعام بن باعر^(١) من بني إسرائيل، وقال: معنى ﴿فانسلخ منها﴾: ما نزع منه من العلم.

وَرَوَى^(٢) عن عبدالله بن عمر وعبدالله بن عمرو: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي أُمِّيَّةِ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ.

وقال مسروق وعبدالله: هي في رجلٍ من بني إسرائيل يقال له: بلعم ابن أبر. وقال قوم^(٣): هو رجل من الكنعانيين.

وقال الحسن: هذا مَثَلٌ ضربه الله للكافر، آتاه الله آيات دينه ﴿فانسلخ منها﴾ يقول: أعرض عنها وتركها ﴿فأتبعه الشيطان﴾ خذله الله وخلقى عنه وعن الشيطان، وهو مثل قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾^(٤) أي: كتب على الشيطان أَنَّهُ مَن تَوَلَّى الشيطان فَإِنَّ الشيطان يَضِلُّهُ.

وقال الجُبَّائِي: أراد به المرتدَّ الَّذِي كان الله آتاه العلم به وبآياته فكفر به وبآياته وبدينه من بعد أن كان به عارفاً، فانسلخ من العلم بذلك ومن الإيمان.

وقوله: ﴿فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ معناه: أَنَّ الشَّيْطَانَ أَتْبَعَهُ كَقَارِ الْإِنْسِ وَغَوَاتِهِمْ حَتَّى أَتَّبَعُوهُ عَلَى مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَبِآيَاتِهِ، وَقِيلَ: أَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِالْتَّرْزِيقِ وَالْإِغْوَاءِ حَتَّى تَمْسِكَ بِحَبْلِهِ وَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ الْخَائِبِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، قَالَ: وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ يُقَالُ لَهُ: بِلْعَامُ بْنُ بَاعُورًا. «أَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ وَأَتَّبَعَهُ» لَغْتَان، وَبِالتَّخْفِيفِ مَعْنَاهُ: قَفَاهُ، وَبِالتَّشْدِيدِ: حَذَا

(١) كذا في مخطوطة، وفي الحجرية: بلعام بن ماعر، المعروف بلعم بن باعورا.

(٢) قاله الطبري أيضاً في تفسيره: ج ٩ ص ٨٣.

(٣) قاله علي بن أبي طلحة ومقاتل. راجع تفسير البغوي: ج ٢ ص ٢١٣. (٤) الحج: ٤.

حَذُّوْهُ، وَإِذَا أَرَدْتَ: «اقتدينا بك» فبالتشديد لا غير.

فَأَمَّا مَا رُوِيَ ^(١): أَنَّ الْآيَةَ كَانَتْ النُّبُوَّةَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُؤْتِي نُبُوَّتَهُ مَنْ يَجُوزُ عَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَقَدْ دَلَّ دَلِيلُ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ عَلَى ذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَا هُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وَقَالَ: ﴿الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ﴾ ^(٣) فَكَيْفَ يَخْتَارُ مَنْ يَنْسَلِخُ عَنِ النُّبُوَّةِ.

وَقِيلَ ^(٤): إِنَّ الْآيَةَ كَانَتْ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ. وَهَذَا أَيْضاً نَظِيرُ الْأَوَّلِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُرَاداً، وَالْقَوْلُ هُوَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ: أَنَّ الْمَعْنَى بِهِ بَلَعَمَ بْنِ بَاعُورَا، وَمَنْ قَالَ: أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ قَالَ: كَانَ أُوتِيَ عِلْمَ الْكِتَابِ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ. وَالْوَجْهَ الَّذِي قَالَهُ الْحَسَنُ يَلِيْقُ بِمَذْهَبِنَا دُونَ الَّذِي قَالَهُ الْجُبَّائِيُّ: لِأَنَّ عِنْدَنَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَرْتَدَّ الْمُؤْمِنُ الَّذِي عَرَفَ اللَّهَ عَلَى وَجْهِ يَسْتَحِقُّ بِهِ الثَّوَابَ. وَ «النَّبَأُ»: الْخَبَرُ عَنِ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، وَمِنْهُ اشْتِقَاقُ «النُّبُوَّةِ»: «نَبَأَهُ اللَّهُ» جَعَلَهُ نَبِيًّا. وَإِنَّمَا آتَاهُ اللَّهُ الْآيَاتِ بِاللُّطْفِ حَتَّى تَعْلَمَهَا وَفَهِمَ مَعَانِيهَا، وَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ: الْآيَةُ فِي كُلِّ كَافِرٍ: يَبَيِّنُ اللَّهُ لَهُ الْحَقَّ فَلَمْ يَتَمَسَّكْ بِهِ.

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: فِي الْأَصْلِ «بَلَعَمَ» ثُمَّ ضُرِبَ مِثْلًا لِكُلِّ مُؤَثِّرٍ هَوَاهُ عَلَى هُدَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ^(٥).

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَنَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

(١) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٨٤ بسنده عن مجاهد والمعتز بن سليمان عن أبيه.

(٢) الدخان: ٣٢. (٣) ص: ٤٧.

(٤) قاله ابن عباس والسُّدِّي. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٨٣ - ٨٤.

(٥) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٢ ح ١١٨ عن سليمان اللبان.

بِأَيِّنَّا فَاقْصُصْ لَقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٧٦﴾ آية بلا خلاف.

أقول: الهاء في ﴿لرفعناه﴾ كناية عن الذي تقدّم ذكره، وهو الذي آتاه الله آياته فانسلك منها، فأخبر الله تعالى أنّه لو شاء لرفعه بتلك الآيات. واختلفوا في معنى هذه المشيئة، فقال الجبائي: المعنى: لو شئنا لرفعناه بإيمانه ومعرفته قبل أن يكفر، لكن أبقيناه ليزداد الإيمان فكفر.

وقال البلخي: هذا إخبار عن قدرته أنّه لو شاء لحال بينه وبين الكفر والارتداد. وهو الذي نختاره لأننا قد بينّا أنّ المؤمن لا يجوز أن يرتدّ، وقال الزجاج: معناه: لو شئنا أن نحول بينه وبين المعصية لفعلنا.

وقوله: ﴿ولكنّه أخلد إلى الأرض﴾ معناه: سكن إلى الدنيا وركن إليها ولم يسم إلى الغرض الأعلى، يقال: أخلد فلان إلى كذا وكذا وخلّد، وبالألف أكثر في كلام العرب، والمعنى: أنّه سكن إلى لذات الدنيا ﴿وأتبع هواه﴾ أي: لم نرفعه بالآيات لاتباع هواه. وقيل: معنى ﴿أخلد﴾ قعد. ويُقال: فلان مُخلد إذا أبطأ عنه الشيب، و «مُخلد» إذا لم تسقط أسنانه، هكذا ذكره الفراء. ومن الدوابّ: الذي تبقى ثنياه حتى تخرج رباعيته. وأخلد بالمكان: إذا أقام به، قال زهير:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيَتْهَا بِالْفَدَقِ

كالوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ^(١)

وقال مالك بن نويرة:

بِإِنْبَاءٍ حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مالِكٍ

وعَمرو بن يَرْبُوعٍ أقاموا فأخلدوا^(٢)

(١) من أبيات يمدح هرم بن سنان. راجع ديوان زهير بن أبي سلمى: ص ٢٥.

(٢) من أبيات له. راجع الأصمغيات: ص ٣٢٣ وفيه: بإنباء حق.

وقال أبو عُبَيْدَةَ: هو اللزوم للشيء والتقاعس^(١). وقال سعيد بن جُبَيْر: معناه: ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: معناه: سكن إليها. وقوله: ﴿فمثلُه كمثل الكلب﴾ ضرب الله مثل التارك لآياته والعاقل عنها بأخسّ مثلٍ في أخسّ أحواله، فشَبَّهه بالكلب، لأنّ كلّ شيء يلهث فإنّما يلهث في حال الإعياء والكلال، إلّا الكلب فإنّه يلهث في حال الراحة والتعب، وحال الصّحة وحال المرض، وحال الرّيّ وحال العطش، وجميع الأحوال، فقال تعالى: إن وعظته فهو ضالّ وإن لم تعظه فهو ضالّ، كالكلب إن طردته وزجرته فإنّه يلهث وإن تركته يلهث، وهو مثل قوله: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبِعوكم سواءً عليكم أَدْعَوْتُمُوهم أم أنتم صامتون﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿ذلك مثل القوم الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يعني: هذا المثل الذي ضربه بالكلب هو مثل الذين كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وقال الجُبَّائِي: إنّما شَبَّهه بالكلب لأنّه لمّا كفر بعد إيمانه صار يعادي المؤمنين ويؤذيهم، كما أنّ الكلب يؤذي الناس طردته أم لم تطرده فإنّه لا يسلم من أذاه.

وقوله تعالى: ﴿فاقصص القصص﴾ معناه: فاقصص على الناس ما نُبِّئْتَهُ لك لكي يتذكّروا ويتفكّروا فيرجعوا إلى طاعة الله وينزجروا عن معاصيه، وقال ابن جرّيج: مثله بالكلب، لأنّ الكلب لا فؤاد له فيقطعه الفؤاد، حملت عليه أو تركته، شبّه من ترك الآيات كأنّه لا فؤاد له. و«اللّهث»: التنفّس الشديد من شدّة الإعياء، وفي الكلب طِبَاع، يُقال: لَهَثَ يَلْهَثُ لَهْثًا، فهو لاهِثٌ وَلَهْثَانٌ.

قوله عز وجل:

سَاءَ مَثَلًا لِّلْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿٧٧﴾ آية بلا خلاف.
أقول: التقدير: ساء مثلاً مثل القوم، وحُذِفَ لدلالة الكلام عليه،
و﴿أنفسهم﴾ نصب بـ ﴿يظلمون﴾.

وصف الله تعالى هذا المثل الذي ضربه وذكره بآته ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ أي:
بئس مثلاً مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، وأنهم بذلك يظلمون أنفسهم
دون غيرهم، لأنَّ عقاب ما يفعلونه من المعاصي يحلَّ بهم، فإنَّ الله تعالى
لا يضره كفرهم ولا معصيتهم كما لا ينفعه طاعتهم وإيمانهم.
قوله عز وجل:

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٧٨﴾ آية بلا خلاف.
أقول: ﴿فهو المهتدي﴾ كُتِبَ هاهنا بالياء، ليس في القرآن غيره بالياء،
وأثبت الياء في اللفظ هاهنا جميع القراء.

وقال الجُبَّائي: معنى الآية: من يهديه الله إلى نيل الثواب كما يهدي
المؤمن إلى ذلك وإلى دخول الجنة فهو المهتدي للإيمان والخير، لأنَّ
المهتدي هو المؤمن، فقد صار مهتدياً إلى الإيمان وإلى نيل الثواب، ومن
يضلُّه الله عن الجنة وعن نيل ثوابها عقوبةً على كفره أو فسقه فأولئك هم
الخاسرون، لأنَّهم خسروا الجنة ونعيمها، وخسروا أنفسهم والانتفاع بها.

وقال البلخي: المهتدي هو الذي هداه الله فقلَّ الهداية وأجاب إليها،
والَّذي أضلَّه الله هو الضالُّ الذي اختار الضلالة فأضلَّه الله، بمعنى: خلَّى
بينه وبين ما اختاره وترك منعه بالخير، على أنَّه إذا ضلَّ عن أمر الله عند
امتحانه وتكليفه جاز أن يقال: إنَّ الله أضلَّه.

وقيل: معنى ﴿من يهدي الله﴾: من يحكم الله بهدايته فهو المهتدي، ومن حكم بضلالاته فهو الخاسر الخائب .

قوله عز وجل:

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْإِنسِ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧٩﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى ﴿ذرأنا﴾: خلقنا، يُقال: ذرأهم يذرؤهم، واللام في ﴿لجهنم﴾ لام العاقبة. والمعنى: أنه لما كانوا يصيرون إليها بسوء اختيارهم وقبح أعمالهم جاز أن يقال: إنه ذرأهم، والذي يدل على أن ذلك جزاء على أعمالهم قوله: ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ وأخبر عن ضلالهم الذي يصيرون به إلى النار، وهو مثل قوله تعالى: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾^(١) ومثل قوله: ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاًه زينته وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾^(٢) ومثل قوله عز وجل: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً﴾^(٣) وإنما التقطوه ليكون قرّة عين كما قالت امرأة فرعون عند التقاطه: ﴿قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾^(٤) ومثله قول القائل: أعددت هذه الخشبة ليميل الحائط فأسنده بها، وهو لا يريد ميل الحائط، ومثله قول الشاعر:

وللموت تَغذُوا الوالدُ بِسَخَالِهَا

كما لِخَرَابِ الدَّهْرِ تُبْنِي الْمَسَاكِينُ^(٥)

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) يونس: ٨٨.

(٣) و (٤) القصص: ٨ و ٩. (٥) أنشده في العقد الفريد: ج ٢ ص ٥٥ ونسبه إلى سابق البربري.

وقال الآخر:

أموالنا لِدَوِي الميراث نَجْمُهَا ودورنا لِخَرَابِ الدهرِ نَبِينِهَا^(١)

وقال الآخر:

وَأُمِّ سِمَاكِ فَلَا تَجْزَعِي فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ

وقال آخر:

لِدُوا لِلْمَوْتِ وَابْنُوا لِلْخَرَابِ فَكُلُّكُمْ يَصِيرُ إِلَى ذَهَابِ

وقوله: «لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها» معناه: أنهم لما لم يفقهوا بقلوبهم ولم يسمعوا بأذانهم ولم يبصروا بعيونهم ما كانوا يؤمرون به ويدعون إليه سمّوا بكماً عمياً صمّاً، ولما لم ينتفعوا بجوارحهم أشبهوا العمي البكم الصمّ، لأنّ هؤلاء لا ينتفعون بجوارحهم فأشبهوهم في زوال الانتفاع بالجوارح وسمّوا بأسمائهم، ومثله قول مسكين الدارمي:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي الْخِذْرُ
وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِي غَيْرُهُ وَقُرُ^(٢)

فجعل نفسه أصمّ وأعمى لما لم ينظر ولم يسمع، وقال آخر:
وَكَلَامٌ سَيِّئٌ قَدْ وَقَرْتُ أَذْنِي عَنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ
وقال آخر:

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(٣)

(١) البيت منسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام. راجع الديوان المنسوب إليه عليه السلام: ص ١٠٢.

(٢) أنشدهما الشريف المرتضى في أماليه: ج ١ ص ٤٤. كذا في المطبوعة والأماي. وفي الحجرية:

وَأَصَمَّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا سَمْعِي وَمَا بِالسَّمْعِ مِنْ وَقَرِي

(٣) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن: ج ١ ص ١٧٧ ونسبه إلى قُتَيْبِ بْنِ أُمِّ صَاحِبٍ.

وهذا كثير. ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿ذَرَأْنَا لَهُمْ﴾ معناه: مَيَّرْنَا، يُقال: ذَرَيْتَ الطعام والشعير أي: مَيَّرْتَ ذلك من التبن والمدَر، فلَمَّا كان الله تعالى مَيَّرَ أهل النار من أهل الجنة في الدنيا بالتسمية والحكم والشهادة جاز أن يقول: «ذَرَأْنَاهُمْ» أي: مَيَّرْنَاهُمْ، ثم وصفهم بصفةٍ تخالف أوصاف أهل الجنة يُعَرَّفُونَ بها فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ إلى آخرها. ويجوز أن يكون قوله ﴿ذَرَأْنَا﴾ بمعنى: سَنَدَرْنَا، كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾^(١) بمعنى: سِينَادُونَ، فكأنَّه قال: سَيَخْلُقُهُمْ خلقاً ثانياً للنار بأعمالهم التي تقدَّمت منهم في الدنيا، إذ كانوا استحقَّوا النار بتلك الأعمال.

ولا يجوز أن يكون معنى الآية: أَنَّ الله خلقهم لجهنَّم، وأراد منهم أن يفعلوا الكفر والمعاصي فيدخلوا بها النار، لأنَّ الله تعالى لا يريد القبيح، لأنَّ إرادة القبيح قبيحة، ولأنَّ مريد القبيح منقوص عند العقلاء، تعالى الله عن صفة النقص، ولأنَّه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢) فبَيَّنَّ أَنَّهُ خلق الخلق للعبادة والطاعة، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾^(٣) وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا﴾^(٤) وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(٥) وقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * تَتُومِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٦) ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى، فكيف يقول بعد ذلك: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِهَٰجِهِمْ﴾ وهل هذا إلا تناقض تنزَّه كلام الله عنه.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ يعني: هؤلاء الذين لا يتدبرون بآيات الله

(١) الآية: ٤٤ المتقدمة. (٢) الذاريات: ٥٦. (٣) النساء: ٦٤.

(٤) الفرقان: ٥٠. (٥) الحديد: ٢٥. (٦) الفتح: ٨ و٩.

ولا يستدلّون بها على وحدانيّته وصدق رسله أشباه الأنعام والبهائم التي لا تفقه ولا تعلم، ثمّ قال: ﴿بل هم أضلّ﴾ يعني: من البهائم، لأنّ في البهائم ما إذا زجرت انزجرت وإذا أرشدت إلى طريقٍ اهتدت، وهؤلاء لعنوّهم وكفرهم لا يهتدون إلى شيءٍ من الخيرات، مع ما ركّب الله فيهم من العقول التي تدلّهم على الرشاد وتصرفهم عن الضلال، وليس ذلك في البهائم، ومع ذلك تهتدي إلى منافعها وتتحرّز عن مضارّها، والكافر لا يفعل ذلك، ثمّ قال: ﴿أو لئنك هم الغافلون﴾ يعني: هؤلاء هم الغافلون عن آياتي وحججي والاستدلال بها والاعتبار بتدبرها على ما تدلّ عليه من توحيده، لا البهائم التي هي مسخرة مصروفة لا اختيار لها.

قوله عزّ وجلّ:

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ آية إجماعاً.

أقول: قرأ حمزة ﴿يُلْحِدُونَ﴾ بفتح الحاء والياء هاهنا وفي النحل^(١) والمصابيح^(٢) وافقه الكسائي وخلف في النحل، والباقون بضمّ الياء وكسر الحاء. فلقوله: ﴿ومن يُرِدْ فيه بالحداد﴾^(٣) وألحد أكثر في الكلام قال الشاعر:

ليس الإمام بالشحيح المُلحد ولا يكادُ يسمَع لأحد^(٤)

والإلحد: العدول عن الاستقامة والانحراف عنها، ومنه: «اللحد» الذي يُخَفَّر في جانب القبر، خلاف الضريح الذي يُخَفَّر في وسطه، فمعنى ﴿يلحدون في آياتنا﴾: يجورون عن الحقّ فيها، وروى أبو عبيدة عن الأحمر: لَحَدْتُ: جُرْتُ وَمِلْتُ، وَالْحَدْتُ: مَارَيْتُ وَجَادَلْتُ قَالَ: وَقَالَ

(٣) الحج: ٢٥.

(٢) الآية: ٤٠ مراده. «فصلت»

(١) الآية: ١٠٣.

(٤) أنشده في اللسان: مائة «لحد» ونسبه إلى حميد بن ثور.

أَبُو عُبَيْدَةَ: لَحَدَّثُ لَهُ وَالْحَدَّثُ لِلْمَيِّتِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

قال ابن جُرَيْجٍ: اشْتَقُّوا الْعَزَى مِنْ «الْعَزِيزِ» وَاللَّاتِ مِنْ «الله» وَكَانَ ذَلِكَ الْإِحَادًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْإِحَادُهُمْ: تَكْذِيبُهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: هُوَ شُرَكَهُمُ. وَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ تَسْمِيَتُهُمُ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا آلِهَةٌ.

أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَّ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الَّتِي تَلِيْقُ بِهِ، وَهِيَ الْأَسْمَاءُ الرَّاجِعَةُ إِلَى ذَاتِهِ أَوْ فِعْلِهِ، نَحْوُ: الْعَالَمِ الْعَادِلِ، وَالسَّمِيعِ الْبَصِيرِ الْمُحْسِنِ الْمُجْمَلِ، وَكُلِّ اسْمٍ لِلَّهِ فَهُوَ صِفَةٌ مُفِيدَةٌ لِأَنَّ اللَّقَبَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ. وَأَمَرَ تَعَالَى أَنْ يَدْعُوهُ خَلْقُهُ بِهَا، وَأَنْ يَتْرَكُوا أَسْمَاءَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَسْمِيَتِهِمْ أَصْنَامَهُمْ آلِهَةً وَلَا تَأْ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَالَ الْجُبَّائِيُّ: يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ تَسْمِيَتَهُمُ الْمَسِيحَ بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَالْعَزِيرُ بِأَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَقَالَ قَوْمٌ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ إِلَّا بِمَا سَمِيَ بِهِ نَفْسُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ فِيهِ تَهْدِيدٌ لِلْكَفَّارِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعَاقِبُهُمْ عَلَى عُدُولِهِمْ عَنِ الْحَقِّ فِي تَغْيِيرِ أَسْمَائِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مَعْنَاهُ: سَيَجْزُونَ جَزَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مِنَ الْمَعَاصِي بِأَنْوَاعِ الْعَذَابِ.

قَالَ الرُّمَّانِيُّ: الْاسْمُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى دَلَالَةَ الْإِشَارَةِ، وَالْفِعْلُ: كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى دَلَالَةَ الْإِفَادَةِ، وَالصِّفَةُ: كَلِمَةٌ مَأْخُوذَةٌ لِلْمَذْكُورِ مِنْ أَصْلِ مِنَ الْأَصُولِ لَتَجْرِي عَلَيْهِ تَابِعَةٌ لَهُ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ:

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ آيَةٌ بِلَا خِلَافٍ.

أقول: أخبر الله تعالى: أَنْ من جملة مَنْ خَلَقَهُ جماعةٌ يهدون بالحقّ، وهداهم بالحقّ: هو دعاؤهم الناس إلى توحيد الله وإلى دينه وتنبئهم إياهم على ذلك، وقال قوم: معنى ﴿يهدون﴾ يهتدون ﴿وبه يعدلون﴾ معناه: أَنَّهُمْ يعملون بالعدل والإنصاف فيما بينهم وبين الناس.

وهذا إخبار أَنْ فيما خلق قوماً هذه صفتهم، ولا يدلّ ذلك على أَنْ في كلّ عصر يوجد قوم هذه صفتهم، ولو لم يوجدوا إلّا في وقتٍ واحدٍ كانت الفائدة حاصلةً بالآية، فلا يمكن الاستدلال بها على أَنَّ إجماع أهل الأعصار حجة، على أَنْ عندنا: أَنَّهُ لا يخلو وقت من الأوقات مَنْ يجب اتّباعه وتثبت عصمته ويكون حجة الله على خلقه، فيمكن أن يكون المراد بالآية من ذكرناه.

وقال أبو جعفر عليه السلام وقتادة وابن جرّيج: الآية في أمة محمد عليه السلام وهو مثل قوله تعالى: ﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا﴾ ^(١) فكما أَنَّهُ لا يدلّ على وجود أئمة في كلّ وقتٍ فكذلك ما قالوه.

قوله عزّ وجلّ:

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٨٧﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: المعنى: أَنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي تَضُمُّهَا الْقُرْآنُ والمعجزات الدالة على صدق النبي عليه السلام وكفروا بها سيستدرجهم الله من حيث لا يعلمون استدراجاً لهم إلى الهلكة حتّى يقعوا فيها بغتةً من حيث لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿بل تأتيهم بغتةً فتبهتهم فلا يستطيعون

رَدَّهَا»^(١) وقال: ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٢) فيقولوا: هل نحن مُنْظَرُونَ؟ ويجوز أن يكون من عذاب الآخرة.

فَأَمَّا مَنْ قَالَ مِنَ الْمَجْبُرَةِ: إِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّ اللَّهَ يَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ، فَبَاطِلٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ قَبِيحٌ يَنَافِي الْحِكْمَةَ. ثُمَّ إِنَّ الْآيَةَ بِخِلَافِ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ يَبَيِّنُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَدْرِجُهُمْ كَفَّارٌ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِآيَاتِهِ، وَأَنَّهُ سَيَسْتَدْرِجُهُمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لِأَنَّ السَّيْنَ لَا تَدْخُلُ إِلَّا عَلَى الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا مَعْنَى لِقَوْلِهِ: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَى الْكُفْرِ، لِأَنَّهُمْ كَفَّارٌ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَا يَجِبُ فِي الْكَافِرِ أَنْ يَبْقَى حَتَّى يَوَاقِعَ كُفْرًا آخَرَ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَمِيتَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَبَانَ بِذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ: أَنَّهُ سَيَسْتَدْرِجُهُمْ إِلَى الْعَذَابِ وَالْعُقُوبَاتِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ، بَقَوْا أَوْ لَمْ يَبْقَوْا. عَلَى أَنَّ الاسْتَدْرَاجَ عَقُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ لَا يَعَاقِبُ أَحَدًا عَلَى فِعْلِ نَفْسِهِ، كَمَا لَا يَعَاقِبُهُمْ عَلَى طَوْلِهِمْ أَوْ قَصَرِهِمْ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْآيَةِ: أَنَّا نَعَاقِبُهُمْ عَلَى اسْتَدْرَاجِهِمْ لِلنَّاسِ وَإِغْوَائِهِمْ إِيَّاهُمْ، وَنَعَاقِبُهُمْ عَلَى كَيْدِهِمْ، فَجَعَلَ الْعُقُوبَةَ عَلَى الْاسْتَدْرَاجِ اسْتَدْرَاجًا، وَالْعُقُوبَةَ عَلَى الْكَيْدِ كَيْدًا. كَمَا قَالَ: ﴿سَخَّرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٣) وَقَالَ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٤) وَقَالَ: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾^(٥) وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾^(٦) وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: أَنِّي سَأَفْعَلُ بِهِمْ مَا يَدْرَجُونَ فِي الْفُسُوقِ وَالضَّلَالِ عِنْدَهُ، وَيَكُونُ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَنْ بَقَائِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ عِنْدَ إِمْلَانِهِ لَهُمْ، فَسَمِيَ ذَلِكَ اسْتَدْرَاجًا لِأَنَّهُمْ عِنْدَ الْبَقَاءِ كَفَرُوا وَازْدَادُوا كُفْرًا وَمَعْصِيَةً وَإِنْ

(٣) التوبة: ٧٩.

(٢) الشعراء: ٢٠٢.

(١) الأنبياء: ٤٠.

(٦) آل عمران: ٥٤.

(٥) النساء: ١٤٢.

(٤) البقرة: ١٥.

كان الله لم يرد منهم ذلك ولا بَعَثَهُم عليه، كما قال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرُ﴾^(١) كما يقول القائل: «أبظر فلان فلاناً بإنعامه عليه» و «لقد أبطرت النعمة وأكفرته السلامة» وإن كان المُنْعِم لا يريد ذلك بل أراد أن يشكره عليها.

ومعنى قوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: أَوْخَرَهُمْ هَؤُلَاءِ الْكَفَّارَ فِي الدُّنْيَا وَأَبْقَاهُمْ مَعَ إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، وَلَا أَعَاجَلَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ عَلَى كُفْرِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَفُوتُونِي وَلَا يَعْجِزُونِي، وَلَا يَجِدُونَ مَهْرَباً وَلَا مَلْجَأً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ معناه: إِنَّ عَذَابِي، وَسَمَاءَ كَيْدًا لَنَزُولِهِ بِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، وَقِيلَ: إِنَّهُ أَرَادَ: أَنَّ جَزَاءَ كَيْدِهِمْ، وَسَمَاءَ كَيْدًا لِلزَّدْوَاجِ عَلَى مَا بَيَّنَّا نَظَائِرَهُ. ومعنى ﴿مَتِينٌ﴾: شَدِيدٌ قَوِيٌّ، قَالَ الشَّاعِرُ:
عَدَلَنْ عَدُولَ الْيَأْسِ وَالشَّيْخَ يَبْتَلِي أَفَانِينَ مِنَ الْهُوبِ شَدَّ مُمَاتِي^(٢)
يعني: شَدًّا شَدِيدًا بَاقِيًا لَا يَنْقُطِعُ، وَ «الْمَتْنُ» أَصْلُهُ: اللَّحْمُ الْغَلِيظُ الَّذِي عَنْ جَانِبِ الصَّلْبِ، وَهُمَا مَتْنَانِ. وَ «الْكَيْدُ» وَ «الْمَكْرُ» وَاحِدٌ، وَهُوَ الْمِيلُ إِلَى الشَّرِّ فِي خَفِيٍّ، كَادَهُ يَكِيدُهُ كَيْدًا وَمَكِيدَةً، وَفُلَانٌ يَكِيدُ بِنَفْسِهِ.

وَأَصْلُ «الاستدراج»: اغْتِرَارُ الْمُسْتَدْرَجِ مِنْ حَيْثُ يَرَى أَنَّ الْمُسْتَدْرَجَ مُحْسَنٌ إِلَيْهِ حَتَّى يُوْزَطَهُ مَكْرُوهًا، وَ «الاستدراج»: أَنْ يَأْتِيَهُ مِنْ مَأْمَنِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ.

وَ «أُمْلِي» بِمَعْنَى: أَوْخَرُ، مِنْ «الْمَلْيِ» ثَقِيلَةُ الْبَاءِ، يُقَالُ: مَضَى عَلَيْهِ مَلْيٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَ: «مَلَاوَةٌ مِنَ الدَّهْرِ» بَفَتْحِ الْمِيمِ وَضَمِّهَا وَكُسْرُهَا، أَيِ: قِطْعَةٍ مِنْهُ. وَوَجْهُ الْحِكْمَةِ فِي أَخْذِهِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ: أَنَّهُ لَوْ أَعْلَمَهُمْ وَقْتُ

ما يأخذهم وعرفهم ذلك لأنموه قبل ذلك وكانوا مُعَرِّينَ بالقبيح قبله تعويلاً على التوبة فيما بعد، وذلك لا يجوز عليه تعالى. والاستدراج على ضربين: أحدهما: أن يكون الرجل يعادي غيره فيطلب له المكايده والختل من وجهٍ يغترّه به ويخدعه، ويدسّ إليه من يُوقعه في ورطهٍ حتّى يشفي صدره ولا يبالي كيف كان ذلك، فهذا سفيه غير حكيم.

والآخر: أن يحلم منه ويتأثّى ويترك العجلة في عقوبته التي يستحقّها على معاصيه كيداً ومكراً واستدراجاً، ألا ترى لو أن إنساناً عادى غيره فجعل يشتمه ويعيبه وذاك يعرض عنه ولا يكافيه مع قدرته على مكافاته جاز أن يسمّى ذلك كيداً واستدراجاً ومكراً وحيلةً، ولجاز أن يقال: فلان متين الكيد، شديد الاستدراج، بعيد الغور، محكم التدبير.

وقيل في معنى: ﴿سنستدرجهم﴾ سناًخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم، يقال: امتنع فلان على فلان وأبى عليه حتّى استدرجه أي: خدّعه حتّى حمّله على أن درجَ إليه درجاناً أي: أخذ في الحركة نحوه كما يدرج الصبيّ أول ما يمشي، ويقال: صبيّ دارج، ويقال: درجوا قرناً^(١) بعد قرن أي: فتّوا قليلاً قليلاً.

قوله عزّ وجلّ:

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ قِيَامُ يَوْمٍ هُوَ يَوْمٌ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ آيتان بلا خلاف.

هذا خطاب من الله تعالى للكفار الذين كانوا ينسبون النبي ﷺ إلى

الجنون، على وجه التوبيخ لهم والتقريع ﴿أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة﴾ أي: وليس بالنبي ﷺ جنة وهي الجنون، فإنه لا يأتي بمثل ما يأتي به المجنون، وهم يَرَوْنَ الأصحاء منقطعين دونه، وَيَرَوْنَ صحة تدبيره واستقامة أعماله، وذلك ينافي أعمال المجانين.

ويبين: أنه ليس ﷺ إلا المخوف للعباد من عقاب الله، لأن الإنذار هو الإعلام عن المخاوف، فبين لهم ما عليهم من أليم العذاب بمخالفته، ثم قال: ﴿أولم ينظروا﴾ ومعناه: يفكروا ﴿في ملكوت السموات والأرض﴾ وعجيب صنعهما، فينظروا فيهما نظر مستدلّ معتبر، فيعرفون بما يرون من إقامة الله السماوات والأرض مع عظم أجسامهما وثقلهما على غير عمد، وتسكينها من غير آلة، فيستدلّوا بذلك على أنه خالقها ومالكها، وأنه لا يشبهها ولا تشبهه.

وقوله: ﴿وما خلق الله من شيء﴾ يعني: وينظروا فيما خلق الله تعالى من أصناف خلقه فيستدلّوا بذلك فيعلموا بذلك على أنه تعالى خالق جميع الأجسام، وأنه أولى بالإلهية من الأجسام المحدثّة.

وقوله تعالى: ﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم﴾ معناه: أولم يتفكروا في أن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، وهو أجل موتهم، فيدعوهم ذلك إلى أن يحتاطوا لدينهم ولأنفسهم فيما يصيرون إليه بعد الموت من أمور الآخرة، ويزهدهم في الدنيا وفيما يطلبونه من فخرها وعزّها وشرفها، فيدعوهم ذلك إلى النظر في الأمور التي أمرهم بالنظر فيها.

وقوله تعالى: ﴿فبأيّ حديث بعده يؤمنون﴾ معناه: بأيّ حديث بعد القرآن يؤمنون مع وضوح دلالاته على أنه كلام الله، إذ كان معجزاً لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، وسمّاه: حديثاً لأنه مُخَدَّث غير قديم، لأنّ

إثباته حديثاً ينافي كونه قديماً.

وفي الآية دلالة على وجوب النظر وفساد التقليد، لأنَّ «النظر» المراد به: الفكر دون نظر العين، لأنَّ البهائم أيضاً تنظر بالعين، وكذلك الأطفال والمجانين، والفكر موقوف على العقلاء.

وقال الحسن وقتادة: سبب [نزول] الآية أنَّ النبي ﷺ وقف على الصفا يدعو قريشاً فخذاً فخذاً، فيقول: يا بني فلان، يا بني فلان، يحذِّرهم بأس الله وعقابه، فقال قائلهم: إنَّ صاحبكم لمجنون بأن يصوِّت على الصباح، فأنزل الله الآية.

و «الملوك» هو الملك الأعظم للمالك الذي ليس بمملك.

قوله عزَّ وجلَّ:

مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ آية بلا خلاف. أقول: قرأ أهل العراق: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء، وأسكن الراء منه حمزة والكسائي وخلف، الباقيون بالنون وضَمَّ الراء.

مَنْ قرأ بالنون قال: لأنَّ الشرط من الله، فكأنَّه قال: ﴿مَنْ يُضِلُّ الله ... فَإِنَّا نَذَرُهُمْ﴾ وَمَنْ قرأ بالياء رَدَّه إلى اسم الله تعالى وتقديره: الله يذرهم. وَمَنْ ضَمَّ الراء قطعه عن الأوَّل ولم يجعله جواباً، ويجوز أن يكون أضر المبتدأ وكان تقديره: ونحن نذَرُهُمْ، فيكون في موضع الجزم، ويجوز أن يكون استأنف الفعل فيرفعه.

وَمَنْ جَزَمَهُ فَإِنَّه عطفه على موضع الفاء وما بعدها من قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ لأنَّ موضعه جزم، فحمل ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ على الموضع، ومثله في الحمل على الموضع قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَقَ وَأَكُنْ﴾ ^(١) لَأَنَّهُ

لولم يلحق الفاء لَقُلْتُ: لولا أخرتني أصدق، لأنَّ معنى ﴿لَوْلا أَخَّرْتَنِي﴾^(١):
 أَخَّرْنِي أَصَدَّق، فحمل قوله تعالى: ﴿وَأَكُنْ﴾ على الموضع.
 ومعنى قوله: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهَ فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي: يمتحنه الله فيضللَّ عند
 امتحانه وأمره إِيَّاه بالطاعة والخير والرشاد ﴿فَلَا هَادِيَ لَهُ﴾ أي: لا يقدر
 أحد أن يأتيه من الهدى والبرهان بمثل الذي آتاه الله تعالى، ولا بما يقارنه
 أو يزيد عليه ﴿ويذرهم في طغيانهم﴾ بمعنى: يخلي بينهم وبين ذلك،
 وترك إخراجهم بالقسر والجبر، ومنعه إِيَّاه لطفه الذي يؤتاه من آمن
 واهتدى، وقيل: الوعظ. و «الطغيان»: الغلو في الكفر، و «العَمَّة»: التحير
 والتردد في الكفر.

ويحتمل أن يكون المراد: من يُضِلِلِ اللَّهَ عن الجنة عقوبةً على كفره
 فلا هادي له إليها، وأنَّ الله لا يحول بين الكافر وكفره بل يتركه مع
 اختياره، لأنَّ ما فعله من الزجر والوعيد كافٍ في إزاحة علة المكلّف.
 وقيل: معناه: مَنْ حكم الله تعالى بضلالته وسمّاه ضالّاً بما فعله من
 الكفر والضلال فلا أحد يقدر على إزالة هذا الاسم عنه، ولا يوصف
 بالهداية. وكلّ ذلك واضح بحمد الله تعالى.
 قوله عزَّ وجلَّ:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفِّيهِهَا
 إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْةُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا
 قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ آية بلا خلاف.

أقول: ﴿أَيَّانَ﴾ معناه: متى، وهي سؤال عن الزمان على وجه الظرف.
 أخبر الله تعالى: أَنَّ الكفَّار يسألون النبي ﷺ ﴿عن الساعة﴾ وهي

القيامة ﴿أَيَّانَ مَرَسَاهَا﴾ أي: وقت قيامها وثباتها، ومعنى ﴿أَيَّانَ﴾: متى، قال الراجز:

أَيَّانَ تَقْضِي حَاجَتِي أَيَّانَا أَمَا تَرَى لِنُجْحِهَا إِيَّانَا^(١)

و ﴿مَرَسَاهَا﴾ في موضع رفع بالابتداء، يُقال: رَسَا يَرْسُو إذا تَبَتَّ، فهو رَاسٍ، وجبال راسيات: ثابتات، وأرساها الله أي: ثَبَّتَهَا، وقيل: معنى ﴿مَرَسَاهَا﴾: الوقت الَّذي يموت فيه جميع الخلق. ومعنى سؤالهم عنها أي: متى وقوعها وكونها، فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يجيبهم ويقول لهم: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ لم يطلع عليه أحد، كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٢). وقوله تعالى: ﴿لَا يَجْلِيهَا لَوْقَتَهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها في وقتها إِلَّا اللَّهُ. وقوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: ثقل علمها على أهل السماوات والأرض، ذهب إليه السُّدِّي وغيره. الثاني: ثقل وقوعها على أهل السماوات والأرض، ذكره ابن جُرَيْج وغيره. ثم أخبر الله تعالى نبيّه ﷺ بكيفيّة وقوعها فقال: ﴿لَا تَأْتِيَكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ يعني: فجأةً.

وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ قيل في معناه ثلاثة أقوال: أحدها: إنَّ معناه وتقديره: حَفِيٌّ بها يسألونك عن الساعة ووقتها كأنَّكَ عالم بها. وقيل: معناه: كأنَّكَ فرح بسؤالهم عنها. يُقال: حَفِيت بفلان في المسألة إذا سأَلْتَهُ سؤَالاً أظهرت فيه المحبّة والبرّ، قال الشاعر:

سؤال حَفِيٍّ عن أخيه كأنّه بذكرته وسنان أو مُتواسِنُ^(٣)

وقيل: معناه: كأنَّكَ أكثرت السؤال عنها، ذكره مجاهد ثم أمر الله نبيّه

(١) أنشد أبو عُبَيْدَةَ في مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٣٤ ولم ينسبه لأحد.

(٢) أنشد الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٩٦ ولم ينسبه لأحد.

(٣) لقمان: ٣٤.

أن يقول: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا الله.
ويقال: أحفي فلان بفلان في المسألة إذا أكثر عليه، ويقال: حَفِيتِ الدَّابَّةُ تَحْفَى حَفًّا - مقصوفاً - إذا كثر عليها ألم المشي، والحَفَاءُ - ممدوداً -: المشي بغير نَعْلٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك لا يعلمه إلا الله، ويظنون أنه قد يعلمه الأنبياء وغيرهم من خلقه، وقال الجُبَّائي: معناه: ﴿لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لِمَ أَخْفَى الله تعالى عِلْمَ ذلك على التعيين على الخلق.

والوجه فيه: أنه أجزر لهم عن معاصيه، لأنهم إذا جَوَّزُوا في كلِّ وقتٍ قيام الساعة وزوال التكليف كان ذلك صارفاً لهم عن فعل القبيح، خوفاً من فوات وقت التوبة.

وقوله في أول الآية: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ يعني: علم وقت قيامها، وقوله في آخرها: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ معناه: على كَيْفِيَّتِهَا وشرح هيئتها وتفصيل مافيها لا يعلمه إلا الله، فلا تكون تكراراً لغير فائدة. وقال قَتَادَةُ: الَّذِينَ سَأَلُوا عَنْ ذَلِكَ قَرِيشٌ. وقال ابن عَبَّاسٍ: هم قوم من اليهود. وقال الفَرَّاءُ: في الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: يسألونك عنها كَأَنَّكَ حَفِيٌّ بِهِمْ.

قال الجُبَّائي: وفي الآية دليل على بطلان قول الرافضة من أن الأئمة معصومون منصوص عليهم واحداً بعد الآخر إلى يوم القيامة، لأنَّ على هذا لا بدَّ أن يعلم آخر الأئمة أن القيامة تقوم بعده ويزول التكليف عن الخلق، وذلك خلاف قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾.

وهذا الذي ذكره باطل، لأنَّه لا يمتنع أن يكون آخر الأئمة يعلم أنه

لا إمام بعده وإن لم يعلم متى تقوم الساعة، لأنّه لا يعلم متى يموت، فهو يجوز أن يكون موته عند قيام الساعة إذا أردنا بذلك أنّه وقت فناء الخلق. وإن قلنا: إنّ الساعة عبارة عن وقت قيام الناس في الحشر فقد زالت الشبهة، لأنّه إذا علم أنّه يفنى الخلق بعده لا يعلم متى يُحْشَر الخلق. على أنّه قدروي: أن بعد موت آخر الأئمة يزول التكليف لظهور أشراف الساعة وتواتر أماراتها نحو: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة وغير ذلك، ومع ذلك فلا يعلم وقت قيام الساعة، ولهذا قال الحسن وجماعة من المفسرين: بادروا بالتوبة قبل ظهور الست: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، والدابة، وغير ذلك ممّا قدّمناه، فعلى هذا سقط السؤال.

قوله عزّ وجلّ:

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْنُزْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول للمكلفين: إني ﴿لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله﴾ أن يملكني إياه، فمشيئته تعالى في الآية واقعة على تمليك النفع والضرر لا على النفع والضرر، لأنّه لو كانت المشيئة إنّما وقعت على النفع والضرر كان الإنسان يملك ما شاء الله من النفع، وكان يملك الأمراض والأسقام وسائر ما يفعله الله فيه ممّا لا يجد له عن نفسه دفعاً، ومعنى الآية: إني أملك ما يملكني الله من الأموال وما أشبهها ممّا يملكهم ويمكنهم من التصرف فيها على ما شاؤوا، وكيف شاؤوا. والضرر الذي ملكهم الله إياه هو ما مكنهم منه من الإضرار بأنفسهم وغيرهم، ومن لم يملكه الله شيئاً منه لم يملكه.

وذلك يفسد تأويل المجبرة الذين قالوا: معنى الآية: أن الله يريد جميع ما ينال الناس من النفع والضرر وإن كان ظلماً وجوراً من أفعال عباده. وقوله عز وجل: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ معناه: أني لو كنت أعلم الغيب لعلمت ما يربح من التجارات في المستقبل وما يخسر من ذلك، فكنت أشتري ما أربح وأتجنب ما أخسر فيه، فتكثر بذلك الأموال والخيرات عندي، وكنت أعدّه في زمان الخصب لزمان الجذب ﴿وما مسني السوء﴾ يعني: الفقر إذا فعلت ذلك، وقيل: وما مسني تعذيب. وقيل: وما مسني جنون، جواباً لهم حين نسبوه إلى الجنون. وقال ابن جرّيج: ﴿لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت﴾ من العمل الصالح قبل حضور الأجل، وهو قول مجاهد وابن زيد. وقال البلخي: لو كنت أعلم الغيب لكنت قديماً، والقديم لا يمسه السوء، لأنّ أحداً لا يعلم الغيب إلا الله.

وفي الآية دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل، لأنّ قوله: ﴿لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير﴾ يفيد أنّه كان قادراً لأنّه لو لم تكن القدرة إلا مع الفعل: لو علم الغيب لما أمكنه الاستكثار من الخير، وذلك خلاف الآية. وقوله تعالى: ﴿إنّ أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ معناه: لست إلا مخوفاً من العقاب، محدّراً من المعاصي، ومبشراً بالجنة حاثاً عليها، غير عالم بالغيب ﴿لقوم يؤمنون﴾ فيصدّقون بما أقول، وخصّهم بذلك لأنّهم الذين ينتفعون بإنذاره وبشارته دون من لا يصدّق به، كما قال: ﴿هدى للمتقين﴾^(١).

قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّيْهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْنَا صَاحِبًا لَنُكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا ءَاتَيْنَهُمَا صَاحِبًا جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَيْنَهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ آيتان بلا خلاف.

أقول: قرأ أهل المدينة وأبو بكر وعكرمة والأعرج: ﴿شُرَكَاءَ﴾ بكسر الشين منه، الباقون بضمّ الشين على الجمع. وقرأ ابن يعمر: ﴿فمرت﴾ بتخفيف الراء وهو شاذّ.

قال أبو عليّ الفارسي: من قرأ بكسر الشين منوناً حذف المضاف، كأنّه أراد: جعلاً له ذا شريك أي: ذا نصيب، أو ذوي شرك، ويكون كقول من جمع، فالقراءتان يؤولان إلى معنى واحد.

والضمير في قوله: ﴿له﴾ يعود إلى اسم الله، كأنّه قال: جعلاً لله شركاء. وقال أبو الحسن^(١): كان ينبغي لمن قرأ بكسر الشين أن يقول: جعلاً لغيره شركاً. وقول من قرأ: ﴿جعلاً له شركاء﴾ يجوز أن يريد: جعلاً لغيره فيه شركاء، فحذف المضاف، فالضمير على هذا أيضاً في ﴿له﴾ راجع إلى الله تعالى.

وقال أبو عليّ: يجوز أن يكون الكلام على ظاهره، ولا يقدر حذف المضاف في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَهُ﴾ وأنت تريد: لغيره، ولكن يقدر حذف المضاف إلى «شرك» فيكون المعنى: جعلاً له ذوي شرك، وإذا جعلاً له ذوي شرك كان في المعنى مثل: جعلاً لغيره شركاً، فلا يحتاج إلى تقدير:

جعلاً لغيره شركاً.

قال أبو علي: ويجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿جعلاً له شركاء﴾ جعل أحدهما له شركاء أو ذوي شرك، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، كما حذف من قوله تعالى: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾^(١) والمعنى: على رجل واحد من أحد رَجُلَي القريتين. وحكى الأزهري^(٢): أن «الشرك» و «الشريك» واحد ويكون بمعنى «النصيب». قوله: ﴿هو الذي﴾ كناية عن الله تعالى، وإخبار عن أنه الذي خلق البشر ﴿من نفس واحدة﴾ وهي آدم، وخلق ﴿منها زوجها﴾ يعني: حواء، وقيل: إنه خلقها من ضلع من أضلاعه. ويبين أنه إنما خلقها ﴿ليسكن إليها﴾ آدم ويأنس بها.

وقوله: ﴿فلما تغشاه﴾ معناه: لما وطمَّها وجامعها. وقيل^(٣): تغشاه بدنوها لقضاء حاجة، ففُضِيَ حاجته منها ﴿حملت﴾ ففي الكلام حذف ﴿حملت حملاً خفيفاً﴾ لأن «الحمل» أول ما يكون خفيفاً، لأنه الماء الذي يحصل في رحمها.

و «الحمل» بفتح الحاء: ما كان في الجوف، وكذلك ما كان على نخلة أو شجرة فهو مفتوح، وبكسر الحاء: ما كان من الثقل على الظهر. وقوله تعالى: ﴿فمرت به﴾ معناه: استمرت به وقامت وقعدت، وقيل^(٤): شكت له وآلمها ثقلها، ومن خفف الرءاء أراد: شكت ومارت فلم تذر هي حامل أم لا، وقال الحسن: أغلاماً أم جارية.

(٢) في التهذيب: ج ١٠ ص ١٧.

(١) الزخرف: ٣١.

(٣) قاله الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٩٧.

(٤) وهو قول ابن عباس. راجع تفسير الطبري: ج ٩ ص ٩٨.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَثْقَلْتُ﴾ أي: صارت ذات ثقل، كما يقال: أثمر أي: صار ذا ثمر، وذلك قرب ولادتها.

وقوله تعالى ﴿دَعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ يعني: آدم وحواء دعوا الله، أي: سألاه ﴿لئن آتيتنا صالحاً﴾ أي: لو أعطيتنا ولداً صالحاً. قال الجُبائي: ﴿صالحاً﴾ معناه: سليماً من الآفات، صحيح الحواس والآلات. وقال غيره: معنى ﴿صالحاً﴾: مطيعاً فاعلاً للخير ﴿لنكوننَّ من الشاكرين﴾ أي: نكون معترفين بِنِعْمِكَ علينا: نعمةً بعد نعمةٍ، تسديها إلينا.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ يعني: فلما أتى الله آدم وحواء ولداً صالحاً ﴿جعلاً له شركاء﴾ واختلفوا في الكناية إلى من ترجع في قوله: ﴿جعلاً﴾: فقال قوم: هي راجعة إلى الذكور والإناث من أولادهما أو إلى جنسين ممَّن أشرك من نسلهما، وإن كانت الأدلة تتعلَّق بهما، ويكون تقدير الكلام: فلما أتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذي تمنَّياه وطلباه جعل كفَّار أولادهما ذلك مضافاً إلى غير الله، ويقوِّي ذلك قوله تعالى: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾ فلو كانت الكناية عن آدم وحواء لقال: عما يشركان، وإمَّا أراد تعالى الله: عما يشرك هذان النوعان أو الجنسَان، وجمعه على المعنى، وقد ينتقل الفصح من خِطَاب مخاطبٍ إلى خِطَاب غيره، ومن كناية إلى غيرها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١) فانصرف من مخاطبة الرسول إلى مخاطبة المرسل [إلهم] ثم قال: ﴿وتعزَّروه وتوقَّروه﴾^(٢) يعني: الرسول، ثم قال: ﴿وتسبَّحوه﴾ يعني: الله تعالى قال الهذلي:

يَالْهَفَ نَفْسِي كَانَ جِدَّةُ خَالِدٍ وَبَيَاضُ وَجْهِكَ لِلتُّرَابِ الْأَغْفَرِ^(١)
 ولم يقل: وبياض وجهه، وقال كَثِيرٌ:
 اسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً
 لدينا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ^(٢)
 فخطبها ثم ترك الخطاب. وقال الآخر:

فدى لك ناقتي وجميع أهلي ومالي أَنَّهُ مِنْهُ آتَانِي
 ولم يقل: منك آتاني. وليس لأحد أن يقول: كيف يكتنى؟ عَمَّنْ لم يجز
 له ذِكْرُ، وذلك أَنَّ لَنَا عَنْهُ جَوَابَيْنِ:
 أحدهما: أَنَّهُ يجوز ذلك إِذَا دَلَّ الدليل عليه، كما قال: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ
 بِالْحِجَابِ﴾^(٣) ولم يتقدَّم للشمس ذِكْرُ، وقال الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءُ عَنِ الْفَتَى
 إِذَا حَشَرَجَتْ يَوْمًا وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ^(٤)
 ولم يتقدَّم للنفس ذِكْرُ. والجواب الثاني: أَنَّهُ تقدَّم ذكر ولد آدم في
 قوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وأراد بذلك جميع ولد آدم،
 يتقدَّم أيضاً في قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ لِأَنَّ معناه: ولداً صالحاً،
 ويريد بذلك: الجنس وإن كان لفظه واحداً، وإِذَا تقدَّم مذكوران وعقباً بأمرٍ
 لا يليق بأحدهما وجب أن يضاف إلى الآخر و«الشرك» لا يليق بآدم،
 لِأَنَّهُ نَبِيُّ نَزَّهَهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ وعن جميع القبائح، ويليق بكفَّار ولده ونسله
 فوجب أن نردّه إليهم.

(١) لأبي ذئيب الهذلي، تقدَّم ذكره عند تفسير الآية ٤ من الفاتحة.

(٢) من قصيدة يمدح صاحبته. راجع ديوان كثير عزة: ص ٥٧.

(٣) ص: ٣٢. (٤) أنشده في اللسان: مادة «حشر» ولم ينسبه لأحد.

وقال الزَّجَّاج وابن الأُخْشَاد: جعل من كلِّ نفس زوجها، كأنَّه قال: وجعل من النفس زوجها على طريق الجنس وأُضْمِر لتقدِّم الذِّكْرِ.

وقال أبو مسلم محمَّد بن بحر الإصْفهاني: الكناية في جميع ذلك غير متعلِّقة بآدم وحواء، وجعل الهاء في ﴿تَغْشَاهَا﴾ والكناية في ﴿دَعُوا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ و﴿آتَاهُمَا صَالِحاً﴾ راجعين إلى من أشرك، ولم يتعلَّق بآدم وحواء إلاَّ قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ والإشارة بذلك إلى جميع الخلق. وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثمَّ خَصَّ بها بعضهم، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾^(١) فخطب الجماعة ثمَّ خَصَّ راكب البحر، فكذلك أخبر الله تعالى عن جملة أمر البشر بأنَّهم مخلوقون من نفس واحدة وزوجها وهما آدم وحواء، ثمَّ عاد الذِّكر إلى الَّذي سأل الله تعالى ما سأل، فلمَّا أعطاه إِيَّاه ادَّعى له الشركاء في عطيَّته.

وقال قوم: يجوز أن يكون عنى بقوله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ المشركين خصوصاً، إذ كان كلُّ بني آدم مخلوقون من نفس واحدة، كأنَّه قال: خلق كلُّ أحد من نفس واحدة، خلق من النفس الواحدة زوجها، ومثله كثير، نحو: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾^(٢) والمعنى فاجلدوا كلَّ واحد منهم وقال قوم: إنَّ الهاء في قوله جعلاً له شركاء راجعة إلى «الولد» لا إلى «الله» ويكون المعنى: أنَّهما طلبا من الله تعالى أمثالاً للولد الصالح فأشركا بين الطلبتين، كما يقول القائل: طلبت منِّي درهماً فلمَّا أعطيت شركته بآخر، أي: طلبت آخر مضافاً إليه، فعلى هذا

يجوز أن تكون الكناية من أول الكلام إلى آخره راجعة إلى آدم وحواء.
فإن قيل: فعلى هذا فأَيُّ تعلق لقوله: ﴿فتعالى الله عما يشركون﴾
بذلك، وكيف ينزّه نفسه عن أن يطلب منه ولداً آخر؟!

قلنا: لم ينزّه نفسه عن ذلك، وإنما نزّها عن الإشراك به، وليس يمتنع
أن يقطع هذا الكلام عن حكم الأول، لأنّه قال بعد ذلك: ﴿أيشركون ما
لا يخلق شيئاً وهم يُخلّقون﴾^(١) فنزّه نفسه عن هذا الشرك دون ما تقدّم.
فأمّا الخبر^(٢) المدعى في هذا الباب فلا يلتفت إليه، لأنّ الأخبار تبني
على أدلّة العقول، فإذا علمنا بدليل العقل أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم
المعاصي تأولنا كلّ خبر يتضمّن خلافه أو أبطلناه، كما نفعل ذلك بأخبار
الجبر والتشبيه. على أنّ هذا الخبر مطعون في سنده، لأنّه يرويه قتادة عن
الحسن عن سمرّة، وهو مرسل، لأنّ الحسن لم يسمع من سمرّة شيئاً - في
قول البغداديين - ولأنّ الحسن قال بخلاف ذلك فيما روى عنه عروة في
قوله عزّ وجلّ: ﴿فلما آتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما آتاهما﴾ قال:
هم المشركون. ويعارض ذلك ما روي عن سعيد بن جبّير وعكرمة
والحسن وغيرهم من: أنّ الشرك غير منسوب إلى آدم وزوجته، وأنّ
المراد به غيرهما.

على أنّ في الخبر: أنّهما أشركا إبليس اللعين فيما ولد لهما بأن سمّياه
عبد الحارث، والآية تقتضي أنّهم أشركوا الأصنام التي لا تخلق وهي

(١) الآية: ١٩١ التالية.

(٢) الخبر أخرجه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ٩٩ بسنده عن قتادة عن الحسن عن سمرّة بن
جندب عن النبي ﷺ قال: كانت حواء لا يعيش لها ولد، فنذرت لئن عاش لها ولد لتسمّيته
عبد الحارث، فعاش لها ولد فسمّته عبد الحارث، وإنّما كان ذلك عن وحي الشيطان.

تُخْلَقُ، وَالَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ ضَرْأً وَلَا نَفْعاً وَلَيْسَ لِإِبْلِيسَ فِي الْآيَةِ ذِكْرٌ، وَلَوْ كَانَ لَهُ ذِكْرٌ لَقَالَ: «أَتَشْرِكُونَ مِنْ...» وَقَالَ فِي آخِرِ الْقِصَّةِ: ﴿اللَّهُمَّ أَرَجِلْ يَمْشُونَ بِهَا...﴾ أَوْ كَذَا، وَلَا يَلِيقُ ذَلِكَ بِإِبْلِيسَ.

وَيَقْوِي أَنَّ الْآيَةَ مَصْرُوفَةٌ عَنْ آدَمَ إِلَى وَلَدِهِ أَنَّهُ قَالَ: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ وَلَوْ كَانَ مَنْسُوقاً عَلَى النَّفْسِ الْوَاحِدَةِ لَقَالَ: «فَلَمَّا تَغَشَّتْهَا» لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْأَجُودُ وَالْأَفْصَحُ وَإِنْ جَازَ خِلَافُهُ.

وَحَكَى الْبَلْخِي عَنْ قَوْمٍ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَوْ صَحَّ الْخَبَرُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا إِشْرَاكاً فِي التَّسْمِيَةِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ بِكُفْرٍ وَلَا مَعْصِيَةٍ كَبِيرَةٍ. وَذَهَبَ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسَّرِينَ وَإِخْتَارَهُ الطَّبْرِي.

قوله عزَّ وجلَّ:

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَالِمُونَ ﴿١٩٣﴾ ثَلَاثُ آيَاتٍ بِلَا خِلَافٍ.

أَقُولُ: قَرَأَ نَافِعٌ: ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ وَفِي الشَّعْرَاءِ ^(١): ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ بِالتَّخْفِيفِ، الْبَاقُونَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهُمَا لُغَتَانِ، وَبِالتَّشْدِيدِ أَكْثَرُ.

قَالَ أَبُو زَيْدٍ: تَقُولُ: «رَأَيْتُ الْقَوْمَ فَاتَّبَعْتُهُمْ إِتْبَاعاً» إِذَا سَبَقُوكَ فَاسْرَعْتَ نَحْوَهُمْ، وَ«مَرُّوا عَلَيَّ فَاتَّبَعْتُهُمْ إِتْبَاعاً» إِذَا ذَهَبْتَ مَعَهُمْ وَلَمْ يَسْبِقُوكَ، قَالَ: وَتَبِعْتُهُمْ أَتَّبَعْتُهُمْ تَبِعاً مِثْلَ ذَلِكَ.

فِي الْآيَةِ تَوْبِيخٌ مِنَ اللَّهِ وَتَعْنِيفٌ لِلْمَشْرِكِينَ وَإِنْ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِسْتِفْهَامِ، بِأَنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ جَمَاداً لَا يَخْلُقُ شَيْئاً مِنَ الْأَجْسَامِ

ولا ما يستحقُّ به العبادة، وهم مع ذلك مخلوقون مُخَدَّثُونَ ولهم خالق خَلَقَهُمْ، ونهَّيهم بذلك على أَنَّهُ لا ينبغي أن يُعْبَدَ إِلَّا من يقدر على إنشاء الأجسام واختراعها، وخلق أصول النِّعَم التي يستحقُّ بها العبادة، وأنَّ ذلك لا يقدر عليه إِلَّا الله تعالى الَّذي ليس بجسم، والقادر لنفسه.

ثمَّ بَيَّن: أَنَّ هذه الأشياء التي يعبدونها ويتخذونها آلهَةً وأشركوا بها مع الله تعالى لا تقدر لمن عبدها واتخذها إلهاً على نفع ولا على ضرر ولا أن ينصروهم، ولا أن ينصروا أنفسهم إن أراد بهم غيرهم سوءاً، ومَنْ هذه صورته فهو على غاية العجز، ولا يجوز أن يكون إلهاً، وإنَّما يجب أن يكون كذلك من يقدر على الضر والنفع ونصرة أوليائه.

وقوله تعالى: ﴿وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتَّبِعوكم﴾ معناه: أَنَّ الأصنام والأوثان التي كانوا يعبدونها ويتخذونها آلهَةً إن دعوها إلى الهدى والرشد لم يستمعوا ذلك، ولا تمكَّنوا من اتِّباعهم، لأنَّها جمادات لا تفقه ولا تعقل، في قول أبي عليٍّ وغيره.

وقال الحسن: إنَّ ذلك راجع إلى قومٍ من المشركين قد عموا بالكفر فهم لا يعلمون.

ثمَّ قال: ﴿سواء عليكم أَدْعَوْتُمُوهم أم أنتم صامتون﴾ يعني: سواء عندها دعاؤها والسكوت عنها لكونها جماداً لا تعقل، وإنَّما قال: ﴿أم أنتم صامتون﴾ ولم يقل: «أم صَمْتٌ» ليكون في مقابلة ﴿أَدْعَوْتُمُوهم﴾ فيفيد الماضي والحال، لأنَّ المقابلة دلَّت على معنى الماضي، واللفظ يدلُّ على معنى الحال، وعليه أكثر الكلام، يقولون: سواء عليّ أقمت أم قعدت، ولا يقولون: أقمت أم أنت قاعد، قال الشاعر:

سواء إذا ما أَصْلَحَ اللهُ أَمْرَهُم علينا أَذْثُرُ مَا لَهُمُ أَمْ أَصَارِمُ^(١)
وَأَنشُدَ الْكَسَائِي:
سواءٌ عَلَيْكَ الْفَقْرُ أَمْ بَتَّ لَيْلَةٌ بأَهْلِ الْقِيَابِ مِنْ نَمِيرِ بْنِ عَامِرٍ^(٢)
وَأَنشُدَهُ بَعْضُهُمْ: «أَمْ أَنْتَ بَائِتٌ».
قوله عَزَّ وَجَلَّ:

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ آية بلا خلاف.

أقول: إِنَّمَا قَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ وهو يريد: الأصنام، لَأَنَّهَا لَمَّا كَانَتْ عندهم معبودة تنفع وتضرَّ جاز أن يَكْتَنِيَ عنها بما يَكْتَنِيَ عن الحيِّ، كما قال في موضع آخر: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾^(٣) ولم يقل: فعله كبيرها فاسألوها، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾^(٤) لَمَّا أَضَافَ السُّجُودَ إِلَيْهِمَا جَمَعَهَا بِالْوَاوِ وَالتَّوْنِ الَّتِي تَخْتَصُّ الْعُقْلَاءَ.

ومعنى ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾: غير الله، لَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مَدْعُوٍّ إِلَهاً غَيْرَ اللَّهِ ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ و ﴿مَنْ﴾ لابتداء الغاية في الدعاء دون دعاء الله إلى حيث انتهى إِنَّمَا هو لعباد الله، ثُمَّ قَالَ: ﴿عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ﴾ فَإِنَّمَا سَمَّاهَا كَذَلِكَ لِأَنَّ التَّعَبُّدَ: التَّذَلُّلَ، فَلَمَّا كَانَتْ الْأَصْنَامُ تَنْصَرِفُ عَلَى مَشِئَةِ اللَّهِ، وَهِيَ غَيْرُ مَمْتَنِعَةٍ عَمَّا يَرِيدُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا كَانَتْ بِذَلِكَ فِي مَعْنَى الْعِبَادِ، وَيُقَالُ: عَبَدْتُ الطَّرِيقَ إِذَا وَطَّأْتَهُ حَتَّى تَقَرَّرَ وَسَهَّلَ سُلُوكُهُ، وَمِنْهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾^(٥) أَي: ذَلَّلْتَهُمْ وَاسْتَخْدَمْتَهُمْ

(١) أَنشُدَهُ الْفَرَّاءُ فِي الْمَعْنَانِي: ج ١ ص ٤٠١ ولم ينسبه لأحد. في المعاني: النفر، وفي الحجريَّة: القفر.
(٢) أَنشُدَهُ الْفَرَّاءُ فِي الْمَعْنَانِي: ج ١ ص ٤٠١ ولم ينسبه لأحد. في المعاني: النفر، وفي الحجريَّة: القفر.
(٣) الْأَنْبِيَاءُ: ٦٣. (٤) يُوسُفُ: ٤. (٥) الشَّعْرَاءُ: ٢٢.

ضروباً من الخدم.

وقال الجُبَّائي وغيره: معنى ﴿عباد﴾ أي: أملاك لربهم كما أنتم عبيد له، فإن كنتم صادقين في ادّعاءكم أنها آلهة فادعوهم فليستجيبوا لدعاءكم، وهذه لام الأمر على معنى التهجين، كما قال: ﴿هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾^(١) فإذا لم يستجيبوا لكم - لأنها لا تسمع دعاءكم - فاعلموا أنها لا تنفع ولا تضرّ ولا تستحقّ العبادة.

فأما مَنْ قال: إنّ الأصنام تعبد الله على الحقيقة كما يعبد العقلاء وإن كنا لا نفقه ذلك فقد تجاهل، لأنّ العبادة ضَرْبٌ من الشكر، والشكر هو الاعتراف بالنعمة مع ضَرْبٍ من التعظيم، والعبادة وإن كانت شكراً فإنّه يقارنها خضوع وتذلّ، وكلّ ذلك يستحيل من الجماد.

ويحتمل من حيث إنّهم توهّموا أنها تضرّ وتنفع، ف قيل لهم: ليس يخرج [هؤلاء] بذلك عن حكم الله تعالى. وقال الحسن: معناه: أنها مخلوقة أمثالكم. والعبد المملوك من جنس ما يعقل، لأنّ الثوب مملوك ولا يسمّى عبداً.

وقيل: الدعاء الأوّل في الآية تسميتهم الأصنام آلهة، كأنّه^(٢) قال: إنّ الذين تدعون آلهة من دون الله فاطلبوا منهم المنافع وكشف المضارّ، فإذا كان ذلك مأیوساً منها فعبادتها جهل وسخف.

وقوله: ﴿إن كنتم صادقين﴾ قال الحسن: معناه: في أنّهم آلهة.

قوله عزّ وجلّ:

أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَنْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ اذْعُوا شُرَكَاءَ كُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ ﴿١٦﴾ آية بلاخلاف.

أقول: قرأ أبو جعفر: ﴿يَبْطِشُونَ﴾ و﴿يَبْطِشُ﴾^(١) بضمّ الطاء حيث وقع، الباقلون بكسرهما، وهما لغتان، والكسر أفصح وأكثر. و[قرأ] ﴿كيدوني﴾ بياء في الحالين الوقف والوصل الحَلَوَانِي عن هشام ويعقوب، وافقهما في الوصل أبو عمرو وأبو جعفر وإسماعيل و الداجُونِي عن هشام، الباقلون بغير ياء في الحالين. و﴿تنظروني﴾ بياء في الحالين عن يعقوب.

قال أبو عليّ الفارسي: الفواصل وما أشبهها من الكلام التام تجري مجرى القوافي، لاجتماعهما في أن الفاصلة آخر الآية، كما أن القافية آخر البيت، وقد ألزموا الحذف في هذا الباب في القوافي، كقوله:

فَهَلْ يَمْنَعُنْ ارْتِيَادِي الْبِلَادَ مِنْ قَدَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنَ^(٢)

والياء التي هي لام {الكلمة} كذلك، نحو قوله:

يَلْمَسُ الْأَحْلَاسَ فِي مَنْزِلِهِ بِسَيْدِيهِ كَالْيَهُودِيِّ الْمُصَلِّ^(٣)

أكد الله تعالى في هذه الآية الحجّة على المشركين في أنّه لا ينبغي لهم أن يعبدوا هذه الأصنام ولا يتخذوها آلهة، فقال: ﴿أَلْهَمْ أَرْجُلَ يَمْشُونَ بها﴾ لأنّ لفظه وإن كان لفظ الاستفهام فالمراد به الإنكار، أي: ليس لهم أرجل يمشون بها ولا لهم أيد يبطشون بها ولا أعين يبصرون بها ولا أذان يسمعون بها، فعرفهم بذلك أنّهم دون منزلتهم، وأنّ الكفّار مفضلون عليهم بما أنعم الله عليهم من هذه الحواس التي لم تُؤتِ الأصنام، وإذا كنتم مفضلين عليها وكنتم أقدر على الأشياء وأعلم فكيف يجوز لكم أن

(١) القصص: ١٩.

(٢) للأعشى من قصيدة يمدح قيس بن معد يكرب الكندي. راجع ديوان الأعشى: ص ٢٠٧.

وفيه: «حذر الموت».

(٣) قائله أبيد بن ربيعة من قصيدة يذكر فيها مآثره. راجع ديوان أبيد: ص ١٤٢.

تَتَّخِذُوهَا مَعَ ذَلِكَ آلِهَةً لَّأَنفُسِكُمْ؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تَنْظُرُونَ﴾ معناه: ادعوا هذه الأوثان والأصنام التي تزعمون أَنَّهَا آلِهَةٌ، وتشركونها في أموالكم فتجعلون لها حظاً من الأموال والمواشي، وتوجهون عبادتكم إليها إشراكاً بالله لها، واسألوهم أن يضرّوني وأن يكيدوني معكم، ولا تؤخّروا ذلك إن قدروا عليه، ومتى لم يتمكنوا من ذلك فتبيّنوا أَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ، لِأَنَّهَا فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ.

قوله عزّ وجلّ:

إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٩٩﴾ آية بلاخلاف. أقول: رَوَى ابْنُ حُنَيْسٍ عَنِ السُّوسِيِّ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ بَيَاءٌ مُشَدَّدَةٌ مَفْتُوحَةٌ، الْبَاقُونَ ثَلَاثُ يَاءَاتٍ: الْأُولَى سَاكِنَةٌ وَالثَّانِيَةُ مَكْسُورَةٌ وَالثَّالِثَةُ مَفْتُوحَةٌ عَلَى الْإِضَافَةِ.

وَمَنْ قَرَأَ مُشَدِّدًا حَذَفَ الْوَسْطَى وَأَدْغَمَ الْأُولَى فِي الثَّالِثَةِ، وَلَا يَجُوزُ إِدْغَامُ الثَّانِيَةِ فِي الثَّالِثَةِ، لِأَنَّهَا مَتَحَرِّكَةٌ وَقَبْلُهَا سَاكِنٌ لَا يُمْكِنُ الْإِدْغَامُ. أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهٖ ﷺ أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي﴾ يَحْفَظُنِي وَيَنْصُرُنِي وَيَحُوطُنِي وَيُدْفَعُ شَرَّكُمْ عَنِّي، هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَنِي وَإِيَّاكُمْ جَمِيعًا، وَيَمْلِكُنِي وَيَمْلِكُكُمْ ﴿الَّذِي نَزَّلَ﴾ الْقُرْآنَ، وَهُوَ يَنْصُرُ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَطِيعُونَهُ وَيَجْتَنِبُونَ مَعَاصِيَهُ تَارَةً بِالْحِجَّةِ وَأُخْرَى بِالدَّفْعِ عَنْهُمْ.

قوله عزّ وجلّ:

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٩﴾ آية

بلا خلاف.

أقول: هَذَا عَطْفٌ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى، فَكَأَنَّهُ قَالَ: قُلْ وَلِيََّ اللَّهِ الْقَادِرُ

على نصرتي عليكم وعلى من أراد بي ضرراً، والذين تتخذونهم أنتم آلهة لا يقدرّون على أن ينصروكم ولا أن يدفعوا عنكم ضرراً، ولا يقدرّون أن ينصروا أنفسهم أيضاً لو أن إنساناً أراد بهم سوءاً من كسرٍ أو غيره.

وإنما كرّر هذا المعنى لأنّه ذكره في الآية التي قبلها على وجه التقرّيع، وذكره هاهنا على وجه الفرق بين صفة من تجوز له العبادة من لا تجوز، كأنّه قال: إنّ ناصري الله ولا ناصر لكم من تعبدون.

وإنما قال: ﴿تدعون من دونه﴾ وهم يدعونه معه، لأنّ معنى «من دونه»: من غيره، ومع ذلك فإنّه بمنزلة من أفرد غيره بالعبادة في عظم الكفر والشرك.

قوله عزّ وجلّ:

وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾
آية بلا خلاف.

أقول: قال الفرّاء والزجاج: المعنى: إن دعوتهم هؤلاء الذين تعبدونهم من الأصنام إلى صلاح ومنافع لا يسمعون دعاءكم، وتراهم فاتحة أعينهم نحوكم على ما صورتموهم عليه من الصوّر، وهم مع ذلك لا يبصرونكم. قال الجبائي: جعل الله انفتاح عيونهم في مقابلتهم نظراً منهم إليهم مجازاً، لأنّ النظر حقيقة: تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئي طلباً لرؤيته، وذلك لا يتأتّى في الجماد، ويُقال في اللغة: «تناظر الحائطان» إذا تقابلا، وكلّ شيء قابلٌ غيره يُقال: نظر إليه.

وقال الحسن: المعنى: وإن تدع يا محمّد المشركين، فلم يجعل الكناية عن الأوثان. وقال الرّماني: الكناية عن الأوثان لأنّهم جعلوها تضرّ وتنفع، كما يكون ذلك فيما يعقل.

وفي الآية دلالة على أَنَّ النظر غير الرؤية، لأنَّه تعالى أثبت النظر ونَفَى الرؤية.

وقوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ وجه الخطاب إلى النبي ﷺ ولو كان أمره بخطاب المشركين بمعنى: قل لهم، لقال: وترونها. وقال السُّدِّي ومجاهد: أراد به المشركين. فعلى هذا يكون قوله: ﴿وإن تدعوهم﴾ خطاباً للنبي ﷺ أَنَّهُ إن دعا المشركين إلى الهدى لا يسمعون، بمعنى: لا يقبلوا وهم يرونه ولا ينتفعون برؤيته. قوله عزَّ وجلَّ:

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩﴾ آية بلا خلاف. أقول: أمر الله تعالى نبيَّه أن يأخذ مع الناس بالعفو، وهو التساهل فيما بينه وبينهم، وقبول اليسير منهم الَّذي سهَّله عليهم ويسرَّ فعله لهم، وأن يترك الاستقصاء عليهم في ذلك، وهذا يكون في مطالبة الحقوق الواجبة لله تعالى وللناس وفي غيرها، وهو في معنى الخبر عن النبي ﷺ: «رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء». ولا ينافي ذلك أَنَّ لصاحب الحقَّ والديون وغيرها استيفاء الحقِّ وملازمة صاحبه حتَّى يستوفيه، لأنَّ ذلك مندوب إليه دون أن يكون واجباً، وقد يكون العفو في قبول العذر من المعتذر وترك المؤاخذة بالإساءة.

وقوله: ﴿وأمر بالعرف﴾ يعني: بالمعروف، وهو كلُّ ما حَسَنَ في العقل فعله أو في الشرع، ولم يكن منكراً ولا قبيحاً عند العقلاء.

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وأعرض عن الجاهلين﴾ أمر بالإعراض عن الجاهل: السفیه الَّذي إن كلَّمه سَفِهَ عليه وآذاه بكلامه، وأمره إذا أقام عليهم الحجَّة وبَيَّن بطلان ما هم عليه من الكفر والمعاصي أن يعرض عنهم ولا يجاوبهم

في مكروه يسمعه، صيانةً لنفسه عنهم. وقال عطاء: ﴿العفو﴾ الفضل.
وقال مجاهد: العفو من أخلاق الناس، وعفو أموالهم من غير
تجسس^(١) عليهم، وقال: ما عفا لك من أموالهم، وذلك قبل فرض الزكاة.
وقال السُّدِّي: نسخ ذلك بآية الزكاة. وقال ابن زيد: أمره بالإعراض
عنهم ثم نُسخَ بقوله: ﴿واغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).
وروي^(٣) عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وأمر بالعرف﴾: أَنَّ جبرائيل قال
له: معناه: تَصِلُ من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عَمَّن ظلمك.
قوله عز وجل:

وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ آية بلاخلاف.
أقول: «النَزْغُ» أدنى حركة، تقول: «نَزَغْتُهُ» إذا حَرَكْتَهُ، والمعنى: إن
نالك يا مُحَمَّد من الشيطان أدنى نزغ من معاندة وسوء عشرة ﴿فاستعذ
بالله﴾ أي: سل الله أن يعيذك ويحفظك منه، فَإِنَّهُ سَمِيعٌ لِلْمَسْمُوعَاتِ وعالم
بالخَفِيَّاتِ، يسمع دعاء من يدعوه ويعلم دعاءه وما يستحقّه بذلك من الله.
و «النَزْغُ»: الفساد أيضاً، يقال: نَزَغَ فلان بيننا، أي: أَفْسَدَ، ومنه: قوله
تعالى: ﴿نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾^(٤) وَنَزَغُ وَنَغَزَ يَنْغَرُ:
إذا أَفْسَدَ.

وموضع ﴿ينزغَنَّكَ﴾ جزم بـ «إن» التي للجزاء إِلَّا أَنَّهُ لَا يَبِينُ فيه
الإِعْرَابُ، لَأَنَّهُ مَبْنِيٌّ مع نون التأكيد على الفتح، إذا كانت مشددة ولا بدّ من
تحريك ما قبلها في الجزم لالتقاء الساكنين.

(١) وكذا في تفسير مجاهد: ص ٣٤٩، وفي نسخة: «تحسّس» بالحاء المهملة.

(٢) التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩.

(٣) رواه الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ١٠٥ بسنده عن سفيان عن أبي. (٤) يوسف: ١٠٠.

و «النَزْع»: الإزعاج بالإغواء، وأكثر ما يكون ذلك عند الغضب، وأصل «النَزْع» [الإزعاج بالحركة، نَزَعْتُهُ أَنْزَعُهُ نَزْعًا. قوله عز وجل:

إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٥٠﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ ابن كثير وأهل البصرة والكسائي «طيف» بغير ألف وبغير همز، الباقيون بألف بعدها همزة.

قال الحسن: «الطيف» في كلام العرب أكثر من «طائف». وقال أبو زيد: طاف الرجل يطوف طَوْفًا إذا أقبل وأدبر، وأطاف يطوف طَوْفًا إذا جعل يستدير القوم ويأتيهم من نواحيهم، وطاف الخيال طَيْفًا إذا ألَمَّ في المنام. وقال أبو عبيدة: طَيفَ من الشيطان بأن يلَمَّ به لَمًّا، يُقال (١): منه: طَيفْتُ أَطِيفُ طَيْفًا. وقال قوم (٢): الطائف ما أطاف بك من وسوسة الباطل. والطيف: اللَّمَمُ والمَسُّ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الطَّيْف: الوَسْوَسَة.

وحكى الرَّمَانِي: أَنَّ «الطيف» أصله: «طَيْف» من الواو، مثل: «سَيِّد» و «مَيِّت» فحَقَّق، وأنشد أبو عبيدة للأعشى في الإلمام:

وَتُصْبِحُ عَنْ غِيبِ السَّرَى وَكَأَنَّمَا أَلَمَّ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجَنِّ أَوْلَى (٣)
وكان معنى الآية: إذا مَسَّهُم من ينظر لهم نظرة من الشيطان، ويكون «طائف» مثل: «العاقبة» و «العافية» ممَّا جاء المصدر منه على: «فاعل» و «فاعلة» فالطيف أكثر لأنَّ المصدر على هذا الوزن أكثر منه على وزن

(١) وهو ما قاله الزجاج في معانيه: ج ٢ ص ٣٩٦ أيضاً.

(٢) منهم الطبري في تفسيره: ج ٩ ص ١٠٧.

(٣) مجاز القرآن: ج ١ ص ٢٣٦، وراجع ديوان الأعشى: ص ١٢٣.

«فاعل» و «الطائف» ك «الخاطر». وقال الحسن: معناه: يطوف عليهم الشيطان بوساوسه، فيقبل بعض وحيه من يعصي الله.

وقوله ﴿تَذَكَّرُوا﴾ أي: تذكروا ما عندهم من المخرج والتوبة ﴿فَإِذَا هُمْ مَبْصُورُونَ﴾ قد تابوا. وقال مجاهد: هم المؤمنون إذا مسَّهم طيف أي: غضب.

وقال سعيد بن جُبَيْر: هو الرجل يغضب الغضب فيذكر فيكظم غيظه. وقال مجاهد: هو الرجل يهَمُّ بالذنب فيذكر الله تعالى فيتركه.

أخبر الله تعالى بأنَّ الَّذِينَ يَتَّقُونَ اللَّهَ بِاجْتِنَابِ مَعَاصِيهِ إِذَا وَسَّوسَ إِلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ وَأَغْرَاهُمْ بِمَعَاصِيهِ تَذَكَّرُوا، فعرفوا ما عليهم من العقاب بذلك فيجتنبونه ويتركونه. وقال مجاهد وسعيد بن جُبَيْر: «الطيف»: الغضب. وقال ابن عباس والسُّدِّي: هي الزَّلَّةُ الَّتِي إِنْ ارْتَكَبَهَا تَابَ مِنْهَا.

و ﴿إِذَا﴾ الأولى بمنزلة الجزاء ولها جواب، والثانية بمعنى المفاجأة، كقولك: خرجت فإذا زيد.

وقال ابن عباس: «الطيف»: النزغ. وقال أبو عمرو بن العلاء: الوَسْوَسة. وقال غيره^(١): هو اللَّمَم.

قوله عزَّ وجلَّ:

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي آَلَعٍ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٢٠٢﴾ آية بلا خلاف.

أقول: قرأ: ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ بضمَّ الياء وكسر الميم نافع، الباقون بفتح الياء وضمَّ الميم.

معنى الآية: أنَّ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ مِنَ الْكُفَّارِ يَمُدُّهُمْ الشَّيَاطِينُ فِي الْغِيِّ،

ومعناه: يزدونهم في العَوَايَةِ والإِضلال، ويزَيِّنون لهم ما هم فيه.
ثم أخبر: أَنَّ هؤلاء مع ذلك ﴿لَا يُقْصِرُونَ﴾ كما يقصر الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا
مَسَّهُمْ طَيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وهو قول ابن عَبَّاس والسُّدِّي وابن جُرَيْج وأبي
عليٍّ وأكثر المفسِّرين.

وقال مجاهد: وإخوان المشركين من الشياطين. وقال قَتَادَةُ: قوله:
﴿ثُمَّ لَا يَقْصِرُونَ﴾ يعني: الشياطين لا يقصرون عن استغوائهم ولا يرحمونهم.
و «قَصَرْتُ» و «أَقْصَرْتُ» لغتان، والقراءة على لغة: أَقْصَرْتُ. وَمَنْ ضَمَّ
الياء فلقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾^(١) وقوله عَزَّ وَجَلَّ:
﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهِةٍ﴾^(٢) وقوله: ﴿أَتَمِدُّونَنِي بِمَالٍ﴾^(٣) وَمَنْ فَتَحَ الياء
فلقوله تعالى: ﴿وَيَمِدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٤) و «أَمْدَدْتُ» فيما
يستحبُّ، و «مَدَدْتُ» فيما يكره. قال أبو زيد: أَمْدَدْتُ القائدَ بالجند،
وَأَمْدَدْتُ الدَّوَاةَ، وَأَمْدَدْتُ الْقَوْمَ بِالْمَالِ وَالرِّجَالِ.

وقال أبو عُبَيْدَةَ: ﴿يَمِدُّونَهُمْ فِي الْغِيِّ﴾ أي: يزَيِّنون لهم، يُقَالُ: مَدَّ لَهُ
فِي غِيٍّ. هَكَذَا يَتَكَلَّمُونَ بِهِ، وَوَجْهَ قِرَاءَةِ نَافِعٍ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

قوله عَزَّ وَجَلَّ:

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي
هَذَا بَصَآئِرٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠١﴾ آية بلا خلاف.

أقول: معنى الآية: أَنْكَ يَا مُحَمَّدُ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ يَقْتَرِحُونَهَا قَالُوا: لِمَ
لَا تَطْلُبُهَا مِنْ اللَّهِ فَيَأْتِينَا بِهَا؟

وقوله: ﴿لَوْلَا﴾ معناه: هَلَّا ﴿اجْتَبَيْتَهَا﴾ معناه: اختلقتها وافتعلتها من قَبْلِ نفسك، في قول الزَجَّاج والفَرَّاء والحسن والضَحَّاك وَقَتَادَةَ وابن جُرَيْج وابن زيد وابن عَبَّاس.

وفي رواية أخرى عن ابن عَبَّاس وَقَتَادَةَ: معناه: هَلَّا أَخَذْتُهَا مِنْ رَبِّكَ وَتَقَبَّلْتُهَا مِنْهُ. ويكون «الاجتباء» بمعنى «الاختيار».

وقال الفَرَّاء: اجتبيت الكلام واختلقته وارجلته إذا افتعلته من قَبْلِ نفسك. وقال أبو عُبَيْدَةَ: اخترعته مثل ذلك.

وقال أبوزيد: هذه الحروف تقولها العرب للكلام يبتدئه الرجل لم يكن أعدّه قبل ذلك في نفسه.

فأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ آتِي بِالْآيَاتِ مِنْ عِنْدِي، وَإِنَّمَا يَفْعَلُهَا اللَّهُ وَيُظْهِرُهَا عَلَى حَسَبِ مَا يَعْلَمُ مِنَ الْمَصْلُحَةِ فِي ذَلِكَ لَا بِحَسَبِ اقْتِرَاحِ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ.

وقوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني: هذا القرآن حجج وبراهين وأدلة من رَبِّكُمْ، و «البصائر» جمع «بصيرة» وهي البراهين الواضحة والحجج النيرة، وتكون «البصائر» جمع «بَصِيرَةٌ» وهي طريق الدم، و «البَصِيرَةُ»^(١): التُّرْسُ أيضاً وجمعها بصائر، ومعناها كلها: ظهور الشيء وبيانه.

وإنما قال: ﴿هَذَا﴾ فَوَحَّدَ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: الْقُرْآنَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهَدَى﴾ يعني: بيان وحجة ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فَأَضَافَهُ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمُ الْمُتَنَفِّعُونَ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَإِنْ كَانَ بَيَانًا لِلْكَلِّ. وَقَالَ الْجُبَّائِي: قَوْلُهُ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَصِفَاتِهِ وَعَدْلِهِ

وحكمته وصحة نبوة النبي وصحة ما أتى به النبي ﷺ.

قوله عز وجل:

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ آية بلا خلاف.
أقول: أمر الله تعالى المكلفين بأنه إذا قُرئ القرآن أن يستمعوا له
ويصغوا إليه ليفهموا معانيه ويعتبروا بمواعظه، وأن ينصتوا لتلاوته
ويتدبروه ولا يلغوا فيه، ليرحمهم بذلك ربهم وباعتبارهم به وإتباعهم
بمواعظه.

واختلفوا في الوقت الذي أمرُوا بالإنصات والاستماع، فقال قوم: أمروا
حال كون المصلّي في الصلاة خلف الإمام الذي يأتّم به، وهو يسمع قراءة
الإمام، فعليه أن ينصت ولا يقرأ ويتسمع لقراءته.

ومنهم من قال: لأنّهم كانوا يتكلّمون في صلاتهم ويسلم بعضهم على
بعض، وإذا دخل داخل وهم في الصلاة قال لهم: كم صليتم؟ فيخبرونه،
وكان مباحاً فنسخ ذلك، ذهب إليه عبدالله بن مسعود وأبو هريرة والزّهري
وعطاء وعبيد الله بن أبي عمير ومجاهد وقتادة وسعيد بن المسيّب وسعيد
ابن جبّير والضحاك وإبراهيم وعامر الشعبي وابن عباس وابن زيد واختاره
الجبائي.

وقال قوم: هو أمر بالإنصات للإمام إذا قرأ القرآن في خطبته، روي
ذلك عن مجاهد. وقال قوم: هو أمر بذلك في الصلاة والخطبة، روي ذلك
عن مجاهد أيضاً والحسن.

وأقوى الأقوال الأول، لأنّه لا حال يجب فيها الإنصات لقراءة القرآن
إلا حال قراءة الإمام في الصلاة، فإنّ على المأموم الإنصات لذلك
والاستماع له، فأما خارج الصلاة فلا خلاف أنّه لا يجب الإنصات

والاستماع، وعن أبي عبد الله عليه السلام: أنه في حال الصلاة وغيرها ^(١). وذلك على وجه الاستحباب.

وقال الجُبائي: يحتمل أن يكون أراد بالاستماع إذا قرأ النبي صلى الله عليه وآله عليهم ذلك، فإنه كان فيهم من المنافقين من لا يستمع لذلك والأول أكثر فائدة وأعم. وقال الزجاج: يجوز أن يكون الأمر بالاستماع للقرآن للعمل بما فيه، وأن لا يتجاوز، كما تقول: «سمع الله لمن حمده» بمعنى: أجاب الله دعاءه، لأن الله سميع عليم.

والإنصات: السكوت مع الاستماع، قال الطُّرُمَاح يصف وحشاً وحذرها الصيادين:

يُخَافَتُنْ بَعْضَ الْمَضْغِ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى

وَيُنْصِتُنْ لِلْسَّمْعِ إِنْصَاتَ الْقَنَاقِينِ ^(٢)

والقَنَاقِين: عَرَّافُ الْمَاءِ ^(٣).

قوله عز وجل:

وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٠٥﴾ آية بلا خلاف.

أقول: أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وآله أن يذكره على حال التضرع، والمراد به: الأمة، ونصب «تضرعاً» على الحال، وعلى وجه الخوف من عذابه، و«الخيفة» هو الخوف، ويكون دعاؤه خالصاً لله، ويفعل هذا الدعاء «بِالْغُدُوِّ» وهو أول النهار و«بِالْآصَالِ» وهو جمع «أَصْل» و«الْأُصْل»

(١) رواه العياشي في تفسيره: ج ٢ ص ٤٤ ح ١٣٢ عن زرارة.

(٢) أنشده في اللسان: مَادَّتِي «نصت» و«قنن» وفيهما: «انتصات». في الحجرية: العياقن عَرَّاف [عذاف] الماء. (٣) أي: الذي يعرف مواضع الماء تحت الأرض (اللسان).

جمع «الأصيل» فالآصال جمع الجمع، وتصغيره: «أَصِيلٌ» على بدل النون. وقال قوم^(١): هو جمع «أُصْل». و «الأُصْل» يقع على الواحد والجمع، ومعناه: العَشِيَّات، وهو ما بين العصر إلى غروب الشمس.

وقال ابن زيد: الخطاب متوجّه إلى المستمع للقرآن إذا تُليّ، ثم أكّد توصية له في الدعاء بقوله: ﴿ولا تكن من الغافلين﴾ والمعنى: لا تكن من الغافلين عمّا أمرتك به من الدعاء له والذكر لله.

وقال الجُبَّائي: في الآية دليل على أنّ الذين يرفعون أصواتهم بالدعاء ويجهرون بها مخطئون، على خلاف الصواب.

ومن قرأ: ﴿خُفْيَةً﴾ أراد: إخْفِ الدعاء واثركَ الإجهار، وهو تأكيد لما أمر به من الدعاء إخفاءً.

وقوله: ﴿ودون الجهر﴾ يعني: دعاء باللسان في خفاء الإجهار. وقال قوم: الآية متوجّهة إلى مَنْ أُمِرَ بالاستماع للقرآن والإنصات له، الذين كانوا إذا سمعوا القرآن رفعوا أصواتهم بالدعاء عند ذكر الجَنَّةِ أو النار، ذهب إليه ابن زيد ومجاهد وابن جُرَيْج، واختاره الطبري. والأولى أن يكون ذلك متوجّهاً إلى النبي والمراد به: جميع الأمة، فإنّه أكثر فائدة.

وإنّما أمر بالذكر في النفس وإن كان لا يقدر عليه العبد لأمرين: أحدهما: أنّ المراد به التعرّض للذكر من جهة الفكر، وهذا في «الذكر» المضادّ للسهو. الثاني: أنّه أمر بالذكر الذي هو القول فيما يخفى، كحديث النفس.

قوله عزّ وجلّ:

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ، وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٦٤﴾
آية بلا خلاف.

(١) منهم الفراء، نسبه إليه النحاس في إعراب القرآن: ج ٢ ص ١٧٣ ولم نجده في معاني الفراء.

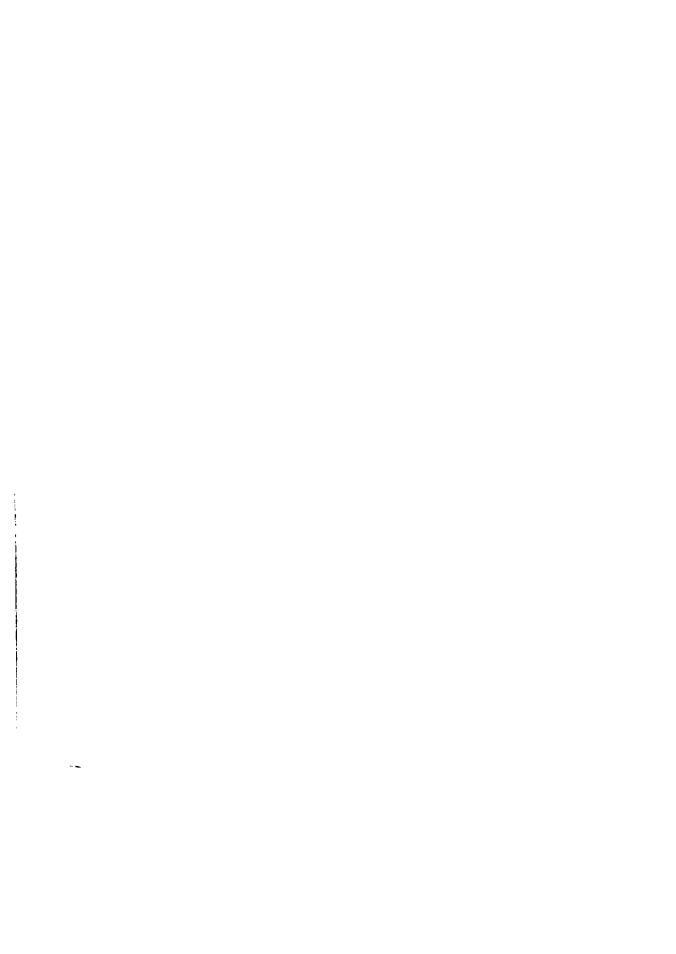
أقول: بين الله تعالى أن الذين عنده، وهم الملائكة، ومعناه: أنهم عنده بالمنزلة الجليلة لا يقرب المسافة، لأنه تعالى ليس في مكان ولا جهة فيقرب غيره منه، لأن ذلك من صفات الأجسام، وهذا حث منه على الطاعة والاستكانة والخضوع له، لأن الملائكة مع فضلها وارتفاع منزلتها إذا كانت لا تستكبر عن عبادته بل تسبحه دائماً وتسجد مثل ذلك فبنو آدم بذلك أولى وأحقّ ولهم أوجب وألزم.

قال الجبائي: معنى ﴿عند ربك﴾: أنهم في المكان الذي لا يملك فيه الحكم بين الخلق سواه، لأنه ملك عباده الحكم في الأرض على وجه حسن، قال: ويجوز أن يكون المراد بذلك أنهم رسله الذين يبعثهم في أمور الإنس، وإذا كانوا رسله جاز أن ينسبهم إلى نفسه فيقول: إنهم عنده، كما يقال: عند الخليفة جيش كثير، ولا يراد به في مكانه ولا بالقرب منه، وإنما يراد: أنهم أصحابه وإن كانوا متفرقين في البلاد.

وقال الزجاج: من قرب من رحمة الله وفضله فهو عند الله، أي: قريب من تفضله وإحسانه.

وهذه أول سجدة القرآن، وهي عندنا مستحبة غير واجبة، وفي ذلك خلاف بين الفقهاء ذكرناه في الخلاف^(١).

وسبب نزول الآية: أن قريشاً لما قالت: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟! نزلت هذه الآية.



الفهارس

فهرس الآيات المستشهد بها

فهرس الأحاديث

فهرس أسماء المعصومين عليهم السلام

فهرس الأعلام

فهرس الأشعار والأرجاز

فهرس المباحث العامة

فهرس الآيات

رقم الآية	البقرة (٢)	الصفحة
٢	هَدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ	١٧٥ و ٦١٦
١٥	اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ	٦٠٧
١٥	وَيُمْدُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ	٦٣٤
٢٦	وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ	٢٣٢ و ٦٩
٣٦	فَأَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ مِنْهَا	١١٤
١٢٢ و ٤٧	وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ	٤٤٧
٤٨	وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا	١١٨
٥٥	لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً	٥٣٦
٥٦	ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ	٤٨٢
٦١	وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ	٤٤١
١١٢، ٦٢	وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ	٥٤
٩٣ و ٦٣	وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ	٣٣٥
٦٥	كُونُوا قَرَدَةً خَاسِئِينَ	٣٨٢
٧٩	فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ ...	٥٨٤

٩٠	فباء وا بغضب على غضب	٤٤١
٩٥	ولن يتمّوه أبداً	٥٣٧
١٢٣	لا يقبل منها عدل	١١٣
١٢٤	وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلماتٍ فأتتهنّ	٢٠٩
١٢٥	فاذكروني أذكركم	٢٨٨
١٤٤	قد نرى تقلّب وجهك في السماء	٢٣١
١٤٥	ولئن أتيت الذين أوتوا الكتب بكلّ ...	٥٩
١٧٠	اتّبِعُوا ما أنزل	٣٠٨
١٧٨	فمن عفي له من أخيه شيء	٤٦٩
٢٢٣	نساؤكم حرثٌ لكم	٢٥٢
٢٢٩	فامسك بمعروف	٥٨٦
٢٤٥	من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ...	٣٠٥
٢٥٣	ولو شاء الله ما اقتتلوا	٣٩١
٢٥٥	لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم	١٨٢
٢٥٩	خاوية على عُروشها	٢٦٢
٢٦٠	ربّ أرني كيف تحيي الموتى	٥٣٧
٢٦١	مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل ...	٣٠٥
٢٧٥	فمن جاءه موعظة	٢٥٨ و ٢٥٠
٢٨٦	لا تحمل علينا إصراً	٥٦٣

آل عمران (٣)

١٣	قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في ...	٣٦٨
٢١	فبشّرهم بعذاب أليم	٣٨٧
٣٩ و ٣٨	هب لي من لدنك ذُرِّيَّةَ ... فنادته ...	٥٨٩
٥٤	والله خير الماكرين	٦٠٧
٦٢	إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ	٩٥
٦٢	وما من إله إلا الله	٤٢٣
١٠٦	يوم تبيضُّ وجوه وتسودُّ وجوه فأما الذين اسودّت ...	٣٨٠
١١٢	ضُربت عليهم الذلّة أيّما ثقفوا إلاّ ...	٥٨١
١١٢	وباءوا بغضبٍ من الله	٤٤١
١١٩	وتؤمنون بالكتاب كلّهُ	٥٨٦
١٤٣	ولقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن ...	٤٩
١٥٥	إنّما استزلّهم الشيطان	١١٤
١٧٨	إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً	٦٠١

النساء (٤)

٦	فإن آنستم منهم رُشداً	٥٤٣
١١	للذكر مثل حظّ الأنثيين	٤٤٨
٣٠	ونُدخلكم مُدخلاً كريماً	٣٥٨
١١٦ و ٤٨	إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ	٢٤١ -
٦٤	وما أرسلنا من رسول إلاّ ليطاع	٦٠٣
٦٦	أَنْ أَقْتُلُوا	٧٩
١٤٠	إنّكم إذاً مثلهم	١١٠

١٤٠	إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ	٣٠٣
١٤٢	يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ	٦٠٧
١٥٥	بَكَفَرَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا	٤٧٨
١٧٦	إِنَّ أَمْرًا هَلَكَ	٥٦٠
١٧٦	يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا	١٨٧

المائدة (٥)

٢	وَإِذَا حُلِّثْتُمْ فَاصْطَادُوا	٢١٤
٣	حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَمُ ...	٢١٦
٤	فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ	٥٨٦
٤	وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ	١٠٠
٥	وِطْعَامِ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلًّا لَكُمْ	٢٢٠
٩	لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ	٨٩
١٣	وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً	٣٥
١٦	يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ	٢٣٢
١٦	يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ	٦٩
٤٢	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ	٣٦٦
٦٧	يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ بَلِّغْ	٤٢٧
٩٨	وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ	٨٩

الأنعام (٦)

٢	قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلًا مُّسَمًّى عِنْدَهُ	١٢
---	---	----

٢٨	ولو رُدُّوا العادوا لما نهوا عنه	٥٨٠ و ٥٨٠
٣٤	كُذِّبَتْ رسل من قبلك	١٠١
١٣٠	ألم يأتكم رسل	٣٢٧

الأعراف (٧)

١٢	ما منعك ألا تسجد	١٩٥ و ٢٨٦
٢٣	ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا	٣٢
٢٩	فريقاً هدى وفريقاً حقَّ عليهم الضلالة	١٦٥
٣٢ و ١٧٤	نفصل الآيات	٩٥
٣٨	حتى إذا داركوا فيها	٣١٠
٤٣	الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ...	٢٣٢
٦٤ و ٧٢	فأنجيناه والذين معه	١٠٣
٨١ و ١١٣	أنكم لتأتون الرجال	٢٣
٩٦	لفتحنا	٧٧
١٠١	جاءتهم رسلهم بالبينات	١٠١
١١٥	سحروا أعين الناس	٤٩٣
١٣٦	وإن يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلاً	٩٢
١٣٧	وتمَّت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل	٢٠٩
١٤٣	سبحانك تُبْتُ إليك وأنا أول المؤمنين	١٩
١٦٩	ودرسوا ما فيه	١٨٧
١٧٦	أخلد إلى الأرض	٣٧٨
١٧٦	واتبع هواه	٢١٧

٥٠	سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ	١٧٧
٥٩٩	وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم ...	١٩٣
٢٨٩	إذا مستهم طائف من الشيطان تذكروا	٢٠١
١٠٥	تضرعاً وخيفةً	٢٠٥

الأنفال (٨)

٣٠٠ و ٢٣٠	وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى	١٧
١٥٦	لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا ...	٣١
٢٣١	ويجعل الخبيث بعضه على بعض	٣٧

التوبة (٩)

٣٠٣ و ١٨٩	أقتلوا المشركين	٥
٤٣٣	ثم أبلغه مأمنه	٦
١٢٣	إنما المشركون نجس	٢٨
٣٨٧	فبشرهم بعذاب أليم	٣٤
٩٠	ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له	٦٣
٥٠١	المؤتفكات	٧٠
٦٣١	واغلظ عليهم	٧٣
٦٠٧	سخر الله منهم	٧٩
٥٦١ و ٤٧٩ و ٣٤٣	فزادتهم رجساً إلى رجسهم	١٢٥
٥٦٠	أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو ...	١٢٦

يونس (١٠)

٣٩٢	وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين	١٠
-----	--------------------------------------	----

١٣	جاء تَهُم رُسُلهم بالبينات	١٠١
٢٢	حتَّى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريحٍ طيبةٍ	١٠
٢٢	وجاءهم الموج من كلِّ مكانٍ وظنّوا ...	٧٤
٢٢	هو الذي يسيّرکم في البرِّ والبحر حتّى ...	٦٢١
٢٧	والَّذين كسبوا السيئات جزاء سيئةٍ بمثلها ...	٣٧٢
٤٦	ثمَّ الله شهيد على ما تعملون	٣٣٥
٥٧	قد جاء تكم موعظة من ربّكم	٢٤٩
٦١	ولا أصغر من ذلك ولا أكبر	٦٨
٦٤	لا تبديل لكلمات الله	٢٠٩
٨١	ما جئتم به السحرُ	٤٩٣
٨٨	ربّنا إنّك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في ...	٦٠١
٩٠	حتّى إذا أدركه الغرق	١٨٢
٩٢	نُنَجّيك بيدنك	٥٣١

هود (١١)

١	الّر كتابُ احكمت	٢٠٨
١	أحكمت آياته ثمَّ فصل	٩٥
٣ و ٥٢ و ٩٠	استغفروا ربّكم ثمَّ توبوا إليه	٣٣٦
٤٦	يا نوح إنّهُ ليس من أهلک	٤٥٢
٥٢	يرسل السماء عليكم مدراراً	٤٧١
٥٧	فإن تولّوا فقد أبلغتكم	٤٢٧
٦٧	وأخذ الّذين ظلموا الصّيحة	٢٥٨ و ٢٥٠

٦٨	أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدَ لَثَمُودَ	٤٣٩
٧٢	يَا وَيْلَتَىٰ أَلُمُّوْا أَنَا عَجُوزٌ	٤٩
٨١	إِنَّهُ مَصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ	٤٥١
٨٤	وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا	٣٨٢
١١٧	وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ	٢٤٥

يوسف (١٢)

٤	نَقِصَّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصِّ	٩٥
٤	وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتَهُمْ لِي سَاجِدِينَ	٦٢٥
٣٠	وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ	١٠١
٨٢	وَسُئِلَ الْقَرْيَةُ	٥٣٨ و ٧٤
٩٠	أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ	٢٣
١٠٠	نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي	٦٣١
١٠٨	قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي	٩٢
١١١	لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا ...	٩٥

إبراهيم (١٤)

٢	مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ	٥٧٧
١٠	قَالَتْ رَسُلُهُمْ	١٠١
٢٧	وَيُضِلَّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ	٢٣٢ و ٦٩
٥٠	وَتَغْشَىٰ وَجُوهَهُمُ النَّارُ	٤١٠
٥٢	هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ	١٥٤

الحجر (١٥)

٣	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا	١٥٣
٢٢	وأرسلنا الرياح لواقحَ	٤١٦
٨٨	ولا تحزن عليهم	٥٤

النحل (١٦)

٢١	أمواتٌ غير أحياءٍ وما يشعرون أيان يبعثون	٢٢٢
٢٤	أساطير الأولين	١٨٨
٤٠	إنما قولنا لشيءٍ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون	٥٧٩
٥٧	ويجعلون لله البنات	١٧٦
٦٧	ومن ثمرات النخيل والأعناب	١٧١
٧٧	وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب	٣١٥ و ٣١٦
٧٨	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً	٥٩٤
٩٢	كألتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً	٥٢٤
١٢٢	فأذاقها الله لباس الجوع والخوف	٣٦٠
١٢٤	وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة	٤٢
١٢٧	ولا تحزن عليهم	٥٤

الإسراء (١٧)

٣	ذريةً من حملنا مع نوح	٥٨٩
٤	وقضينا إلى بني إسرائيل	١٢
١٥	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً	٤٤

٤٨٤	فحقّ عليها القول	١٦
٦٣	وما منعنا أن ترسل بالآيات إلا أن كذب بها ...	٥٩
٧٣	أرءيتك هذا الذي كرمّت على	٦٢
٢٠٤	واستفز	٦٤
١٩٦	كتاباً تقرؤوه	٩٠ و ٩٣
١٩٩	أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً	٩٢
٢٣٤	وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى	٩٤
٢١٤	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاً ما تدعوا فله ...	١١٠
٤	الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن ...	١١١

الكهف (١٨)

٣١٩	فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا ...	٦
٢١٣	لنعلم أيّ الحزبين	١٢
٤٢	وكلبهم باسطاً ذراعيه	١٨
٣٨٩	سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم	٢٢
٢١٧	واتبع هواه	٢٨
٢٦٢	خاوية على عروشها	٤٢
٥٩٠	تذروه الرياح	٤٥
٢٣٨	وحشّرناهم فلم تغادر منهم أحداً	٤٧
٣٦٤	أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو	٥٠
٢٠٠	العذاب قُبلاً	٥٥
٢٣٤	وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى	٥٥

٦٦	على أن تُعلِّمَ ممَّا علِّمتَ رشداً	٥٤٣
٧٨	هذا فراق بيني وبينك	١٥٨

مريم (١٩)

٥	فهب لي من لدنك ولياً يرثني	٥٨٩
٧	يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى	٥٨٩
٨	وقد بلغت من الكبر عتياً	٤٤٤
٥٩	فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة	٥٨٣
٥٩	فسوف يلقون غيًّا	٣٤٣
٦٦	إذا ما متَّ	٢٣
٦٧	أولا يذكر الإنسان	٢٨٩
٨٣	أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزاً	٥٨١

طه (٢٠)

٤	الرحمن على العرش استوى	٧٨
٣٠ و ٢٩	واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي	٥٠
٤٤	لعله يتذكر أو يخشى	٧٦
١٢٨ و ٥٤	لأولى النهى	٥٣
٥٦	ولقد أريناه آياتنا كلّها	٧٨

الأنبياء (٢١)

٤٠	بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردّها	٦٠٧
----	---	-----

١٥٤	إِنَّمَا أَنْذَرُكُمْ بِالْوَحْيِ	٤٥
٦٢٥	بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ	٦٣
٦٠٦	وَجَعَلْنَاهُمْ أَتَمَّةً يَهُودُونَ بِأَمْرِنَا	٧٣
١٩٥	وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ	٩٥
٤٦١	رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ	١١٢

الحج (٢٢)

٣٧٧	يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ ...	٢
٥٩٦ و ٩٠	كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يَضِلُّهُ	٤
٧	يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ...	٥
٣٣١	ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ	٦٢ و ٦
٢٦٢	خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا	٤٥
٩٦	وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ	٤٧
٤٥٥	النَّارَ وَعِدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا	٧٢

المؤمنون (٢٣)

٢٦	الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ	١١
٣٥٩	أَنْتُمْ مَخْرُجُونَ	٣٥
٩٠	أَيَعِدْكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً ...	٣٥
٢٤٩	فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ	٤١
٢٢٤	كُلِّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ	٥٤
٦٣٤	إِنَّمَا نَمِدَّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ	٥٥

٩٢	ما اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ	١٨٢
١٠١	فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ	٣٢٨
١٠٥	أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ	٣٢٧
١٠٦	رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا	٣٢

النور (٢٤)

٤	فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً	٦٢١
٣٦ و ٣٧	يَسْبَحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رَجَالٌ	٢٥٥

الفرقان (٢٥)

٤	إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ	١٨٧
٥	وَقَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ ...	١٨٧
٢٢ و ٥٣	حَجَرًا مَحْجُورًا	٢٥٧
٣٥	وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا	٥٠
٣٩	وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأُمُثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَتَبِيرًا	١٦٥
٤١	أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا	٢١
٥٠	وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا	٦٠٣
٦٢	وَالنَّهَارُ خَلْفَةً لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ	٢٨٩
٦٣	وَعِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا	١٥٧

الشعراء (٢٦)

٤	إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ ...	٦٠
---	--	----

٢٢	وتلك نعمة تمنّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل	٤٩٥ و ٦٢٥
٤٦	فألقي السحرة ساجدين	٤٩٣
٥١	إِنَّا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنّا ...	١٩
٦٢	فلَمَّا تراء الجمعان قال أصحاب موسى إِنَّا لمدركون	١٨٢
٨٣	والَّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين	٣٩٩
٨٤	واجعل لي لسان صدق في الآخرين	٢٩٤
١٥٣ و ١٨٥	إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ	٤٨٩
٢٠٢	فِيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ	٦٠٧

النمل (٢٧)

٨	نودي أن بورك مَنْ في النار ومن حولها	٣٩٣
١٢	بيضاء من غير سوء	٤٨٨
٢٣	وأوتيت من كلّ شيءٍ	٧٧ و ١٧٩
٣٦	أتمدّوني بمال	٦٣٤
٥٩	سلام على عباده الَّذِينَ اصطفى الله	٢١
٦٤	هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين	٦٢٦
٧٠	ولا تحزن عليهم	٥٤
٧٢	ردف لكم	٥٥٨
٨٨	صنع الله	٤١٨

القصص (٢٨)

٥	وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَظْعَفُوا ...	٢٠٩
---	--	-----

٨	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً	٨٧ و١٨٨ و٢٠٤
٨	فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً	٢٢٥ و٢٥٥ و٦٠١
٩	قوة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو...	٦٠١
١١	قالت لأخته قصّيه	٤٧٩
١٩	فلما أراد أن يبطش	٦٢٧
٨١	فخسفنا به وبداره	٧٩

العنكبوت (٢٩)

٢ و١	آلم ﴿٢٩﴾ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا...	٥٦٠
١٤	فأخذهم الطوفان وهم ظالمون	٥٢٠
٢٤	فأنجاه الله من النار	١٠٤
٢٩	إئتينا بعذاب الله	٩٦
٢٩	أنئكم لتأتون الرجال	٢٣
٣٦	وإلى مدين أخاهم شعيباً	٣٨٢
٥١	أولم يكفهم أننا أنزلنا عليك الكتاب	٦٣
٥٢	وارجوا اليوم الآخر	٥٢
٦٤	وإن الدار الآخرة لهي الحيوان	٥١
٦٩	والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا	٢٣٢

الروم (٣٠)

٤	الله الأمر من قبل ومن بعد	٢٤٦
٢٥	ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون	٣٥٩

٥٤٢	وهو أهون عليه	٢٧
٢٢٤	كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون	٣٢
٥٢٤	وإنّ تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم إذا هم يقنطون	٣٦
٤١٦	ومن آياته أن يُرسِل الرياح مبشّرات	٤٦
٤١٨	يرسل الرياح مبشّرات	٤٦
٤١٦	الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء	٤٨

لقمان (٣١)

١٤١	إنّ الشّرك لظلمٌ عظيمٌ	١٣
٥١٠	واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور	١٧
٥٤٠	إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير	١٩
٣٣١	ذلك بأنّ الله هو الحقّ	٣٠
٦١٣	إنّ الله عنده علم الساعة	٣٤

السجدة (٣٢)

٤٧٣	آلم * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين * أم ...	٣-١
-----	--	-----

الأحزاب (٣٣)

٣٨٣	يضاعف لها العذاب ضعفين	٣٠
٥٨٦	أمسك عليك زوجك	٣٧
٣٠٠	إنّ الذين يؤذون الله ورسوله	٥٧

سبا (٣٣)

٣٤٥	ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه	٢٠
-----	---------------------------	----

٣٢ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ٣٢٩

فاطر (٣٥)

٣ هل من خالقٍ غير الله ٤٢٤
 ٢٤ وإن من أمةٍ إلا خلا فيها نذيرٌ
 ٣٧ أولم نُعمِّركم ما يتذكَّر فيه من تذكَّر
 ٣٩ هو الَّذي جعلكم خلائف
 ٤٠ كذَّبت رسل من قبلك
 ٤٣ ولا يحقِّق المكر السيِّئ إلاَّ بأهله ١٥

يس (٣٦)

٩ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ٤١١
 ٢٢ ومالي لا أعبد الَّذي فطرني وإليه ترجعون ١٩
 ٣٠ يحسرة على العباد ٤٩
 ٤٠ وكلّ في فلك يسبحون ١٦٦
 ٥٠ فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون ١٩٥
 ٥٢ يا ويلنا من بعثنا من مَرَقَدنا هذا ٤٩
 ٦٠ ألم أعهد إليكم ٣٢٧
 ٧٧ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفةٍ فإذا ... ٣٢٥

الصفات (٣٧)

٣١ فحقّ علينا قول ربّنا ٤٨٤

١٥٨ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً

١٧٦

ص (٣٨)

٢٧ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً

١١٨

الزمر (٣٩)

١٥ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ ...

٢٦

غافر (٤٠)

١٦ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ

١٢٠

فصلت (٤١)

٥ وَمَنْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ

١٥٨

١١ ائْتِنَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً

٥٨٠ و ١١٨

١٤ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

١٠١

١٧ وَأَمَّا تُمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى

٢٣٣

١٨ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ

١٠٤

٢٩ رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ ...

٣٢

٤٠ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ

٢٥٠ و ٢٠٣

الشورى (٤٢)

١٤ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ...

١٣

٤٠	وجزاء سيئة سيئة مثلها	٤٠٥
٤٥	الذين خسروا أنفسهم	٢٦
٤٨	إن عليك إلا البلاغ	١١٢

الزخرف (٤٣)

١٩	وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً	١٧٦ و ٢٣١
٣١	لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم	٦١٨
٨١	قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين	١٩
٨٤	وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله	٨
٨٧	ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله	١٧

الدخان (٤٤)

٣	إنا أنزلناه في ليلة مباركة	٢٠٦
٣٢	ولقد اخترناهم على علمٍ على العالمين	٥٩٧
٤٩	ذق إنك أنت العزيز الكريم	٢٧

الجاثية (٤٥)

٢	تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	٢٠٦
٢٤	ما كان حجتهم إلا أن قالوا	٣٢٣

الأحقاف (٤٦)

٢	تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم	٢٠٦
---	------------------------------------	-----

٢٤	بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذاب أليم	٤١٧
٢٥	تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا	١٧٩
٢٩	وَلَوْ إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ	٢٤٣

مَحْمَد (٤٧)

٥٤	وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ...	٢٣٢
١٧	وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى	٦٩
١٩	لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ	٤٢٤
٣١	وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ	٥١٤

الفتح (٤٨)

٩ و ٨	إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا ...	٦٠٣ و ٦١٩
٩	وَتَعَزَّوْهُ وَتَوْقَرُوهُ	٦١٩
١٠	يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ	١٠١
٢٠	وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا	٣٠٨
٢٦	كَلِمَةُ التَّقْوَى	٢٠٩

الحُجرات (٤٩)

٩	إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ	٣٦٦
١٠	إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ	٤٩٣

ق (٥٠)

٢	أءَذَا مِتْنَا	٢٤
---	----------------	----

الذاريات (٥١)

٢٨٠	قتل الخراصون	١٠
٣٧١	إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ	١٥ و ١٦
٤١٦	وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ	٤١
٦٠٣ و ٢٢٥	مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ	٥٦

الطور (٥٢)

٦٣٤	وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ	٢٢
٣٢٨	وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ	٢٥

النجم (٥٣)

١١٤	وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى	٥٣
٤١١	فَغَشَّاهَا مَا عَشَّى	٥٤

القمر (٥٤)

٣٢٤	اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ	١
٢٣٧	هَلْ مِنْ مَدَّكَرٍ	١٥ و ١٧
٣٢٢	إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ	٤٩

الرحمن (٥٥)

١٦٦	وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ	٥
٢٤٣	يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ...	١٩ و ٢٢

٣٩ فيومئذٍ لا يسئل عن ذنبه إانس ولا جانّ ٣٢٧

الواقعة (٥٦)

٦٦ أُنّا لمغرمون ٢٣

٧٥ فلا أقسم بمواقع النجوم ٣٣٦

الحديد (٥٧)

١٢ يسعى نورهم بين أيديهم ٢٢٢

١٣ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا ... ٢٢٢

٢٢ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ... ٩٨

الحشر (٥٩)

٧ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ٦٦

٢٣ الجبار المتكبر ٣٤٠

الممتحنة (٦٠)

٨ إنّ الله يحبّ المقسطين ٣٦٦

الجمعة (٦١)

١٠ فإذا قُضيت الصلوة فانتشروا في الأرض ٢١٤

المنافقون (٦٢)

٤ كأنّهم خشبٌ مسندة ١٧١

١٠ لولا أخرتني إلى أجل قريب ٧٦ و١١٢

التغابن (٦٣)

١١ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ٢٣٢

التحریم (٦٤)

٨ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه ... ٤٠١

٩ واغلظ عليهم ٦٣١

١٢ وصدقت بكلمات ربها ٢٠٩

الملك (٦٥)

١٦ و١٧ ءأمنت من في السماء ٧٨

القلم (٦٦)

٣٠ فأقبل بعضهم على بعض يتلأومون ٣٢٨

الحاقة (٦٧)

٦ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ٤١٧

٩ المؤتفكات ٥٠١

١٤ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ٥٣٥

نوح (٦٨)

١١ يرسل السماء عليكم مدراراً ٤٧١

٢٨ ولا تزد الظالمين إلا تباراً ٥٢٩

الجن (٦٩)

٦ وأنه كان رجالاً من الإنس يعوذون برجالٍ من ... ٢٣٩
 ١١ وإنا منّا الصالحون ومنّا دون ذلك ١٦٠
 ١٥ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ٣٦٧
 ١٧ يسلكه عذاباً صعداً ٢٣٠

القيامة (٧٠)

١ لا أقسمُ بيوم القيامة ٣٣٦
 ١١ كلاً لا وزر ٣١٢
 ٢٢ و٢٣ وجوه يومئذٍ ناضرة * إلى ربّها ناظرة ١٨٣

الإنسان (٧١)

٢٤ ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً ٢٧٧ و٤٧٤
 ٣١ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين ١٦٥ و٣٦٨

النبا (٧٢)

٤٠ يا ليتني كنتُ تراباً ٦٧

النازعات (٧٣)

٢٤ أنا ربّكم الأعلى ٥١٠

٤٥ إنما أنت منذرٌ من يخشاها ١٥٣

الانفطار (٧٤)

١ إذا السماء انفطرت ١٩

الانشقاق (٧٥)

٢٤ فبشرهم بعذاب أليم ٣٨٧

الطارق (٧٦)

١٣ إنه لقول فصل ٩٥

الغاشية (٧٧)

١ - ٤ هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذٍ خاشعَةٌ * عاملةٌ ... ١٩٧

الفجر (٧٨)

٢١ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ٥٣٥

٢٢ وجاء ربك ٧٨ و ٣٠٠

البلد (٧٩)

١٠ و ١١ وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة ٢٣٤

١٧ ثم كان من الذين آمنوا ٣٣٥

الليل (٨٠)

١١ وما يُغني عنه ماله إذا تردى ٢٥٥

١٤-١٦ فأنذرتكم ناراً تَلَظَّى * لا يصلاها إلا الأُشقى * الذي ... ٣٨٠

الضحى (٨١)

٤ وللأخرةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأولى ٥١

الشرح (٨٢)

٢ ووضعنا عنك وزرك ٣١٣

البينة (٨٣)

٥ وذلك دين القيمة ٣٠٧

العصر (٨٤)

٢ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٤٤٥ و ٤١٦

٣ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ٤١٦

الفيل (٨٥)

١ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ٥٣٧

فهرس الأحاديث

النبي ﷺ:

- ٢٦٤ ابدأ بمن تقول
- ٤١٦ اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً
- ٥٧٧ إن الله نهى عن قيل وقال
- ٣٢٥ إن الله يسأل كل أحد بكلامه له، ...
- ٥١٩ إن من البيان لسحراً
- ٤٢٥ أولئك الملاء من قريش
- ١٥١ أليس في التوراة: أن الله يبغض الحبر السمين؟ ...
- ٣٠٠ بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، ...
- ٣٥٤ خاصف النعل في الحجرة
- ٦٣٠ رحم الله سهل القضاء سهل الاقتضاء
- ١٢١ كيف أنعم وقد التئم صاحب القرن القرن وحنى جبينه ...
- ٤٦ ما بال أهل النار عملوا في عمر قصير بعمل أهل النار ...
- ٤ ما نزل عليّ سورة من القرآن جملة غير سورة الأنعام، ...
- ٩٧ مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: إن الله عنده علم الساعة، ...
- ٢٥ من بلغه أني أدعو إلى لا إله إلا الله فقد بلغه

- ١٢٣ نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات، ...
 ٣٩٨ يا علي، كأتي بك يوم القيامة وييدك عصا عَوْسَج، ...
 ١١٠ يكفيك آية الصيف

الإمام علي بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام:

- ٥١ إِرْجِعْنَ مَوْزُورَاتٍ غَيْرَ مَاجُورَاتٍ
 ١٤٢ إِنَّ الْآيَةَ مَخْصُوصَةٌ بِإِبْرَاهِيمَ
 ٣٠١ فارقوا، في قوله تعالى: ﴿فَرَقُوا دِينَهُمْ﴾
 ١٠٣ كيف يحاسب الله الخلق وهم لا يرونه؟ ...
 ٥٤ ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾: بسكون الكاف وتخفيف الذال

الإمام محمد الباقر «أبو جعفر» عليه السلام:

- ٦٠٦ الآية في أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو مثل قوله تعالى ...
 ٢٨٦ أدنى الشريك الرياء
 ٥٨٠ أراد به أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم يأخذون منهم الجزية
 ٥٦٤ أنه منسوب إلى مكة، وهي أم القرى
 ٣٤٥ ﴿ثُمَّ لَا تَنِيَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه: أهون عليهم أمر الآخرة
 ٥٩٧ في الأصل «بلعلم» ثم ضرب مثلاً لكل مؤثرٍ هواه على هدى ...
 ٣٧٠ ﴿عند كل مسجد﴾: في الجمعات والأعياد
 ٥٣٣ كان أول ما قال لهم: إني أتأخر عنكم ثلاثين يوماً، ...
 ٤٣٥ ﴿وزادكم في الخلق بسطة﴾: كانوا كأنهم النخل الطوال، ...
 ١٢٥ ﴿وكذلك نري إبراهيم...﴾: كَشَطَ الله له الأرض حتى رآهن ...
 لَمَّا نَزَلَتْ ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ قال المسلمون:
 ١١٢ كيف نصنع ...

- ٢٨٧ ما ظهر: هو الزنا، وما بطن: المخالعة
- ٣٩٧ ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾: وهم الأئمة، ومنهم النبي ﷺ
- ٣٠٢ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾: هم أهل الضلالة والبدع من هذه الأمة ...
- ﴿وَمَنْ قَوْمَ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾: هم قوم خلف الرمل، لم يغيروا
- ٥٦٦ ولم يبدلوا

الإمام جعفر بن محمد الصادق «أبو عبدالله» عليه السلام:

- ٣٩٧ الأعراف: كتبان بين الجنة والنار، ...
- ٤٧٧ العلماء وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ
- ١٢٢ إِنَّ «آزَرَ» كَانَ جَدَّهُ لِأُمِّهِ أَوْ كَانَ عَمَّهُ
- ٥٥ ﴿لَا يَكْذِبُونَكَ﴾: لا يأتون بحقٍّ يبطلون به حقك

فهرس أسماء المعصومين عليه السلام

- آدم عليه السلام: ٥، ١٢٣، ١٧٠، ١٧٨، ٢٦٦، ٣١٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٥، ٣٥٦، ٥٩٥، ٦١٩، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣، ٦٢٤.
- نوح عليه السلام: ١٤٥، ١٤٦، ٤٢٦، ٤٢٧، ٤٢٨، ٤٥٣، ٤٧٢، ٥٣٠.
- إبراهيم عليه السلام: ١٠، ١٣، ١٨٥، ١١٩، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٤، ٢٣٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٣٠٩، ٣٧٠، ٣٨٥، ٤٠٠، ٤١٠، ٥٣٨، ٥٦٣، ٥٧٨، ٦٣٧.
- إسحاق عليه السلام: ١٤٥، ٢٩٤.
- يعقوب عليه السلام: ٢٠، ٢٨، ٢٩، ٤٠، ٥١، ٨٨، ١٠٣، ١٢٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٩٢، ٣٠٣، ٣٣٣، ٣٥٩، ٤٠٩، ٤٤٧، ٥٤٨، ٥٧١، ٦٢٨.
- داود عليه السلام: ١٣، ٩٥، ١٤٥، ٥١٥، ٥٢٦.
- سليمان عليه السلام: ١٤٥، ٥١٥، ٥٢٧، ٥٩٤.
- موسى عليه السلام: * ورد هذا الاسم المبارك في صفحات تجاوز ٥٥ مورداً.
- المسيح (عيسى) عليه السلام: ٧١، ٨٢، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٨، ٢١٥، ٢٧٧، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٨٢، ٦٠٥.

(*) إذا كان اسم من الأسماء المقدسة أو عُلِمَ من الأعلام مّا كثر ورودها في الصفحات فالظفر بها بالتورق أسهل من المراجعة إلى الفهرس، فرأينا فيما زاد على خمسين مورداً أن نكتفي بذكر عدد الصفحات التي ورد الاسم فيها.

• مريم بنت عمران عليها السلام: ٢٣، ١٧٨، ٢٨٩، ٣٤٣، ٤٤٤، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٨، ٥٨٩.
 محمد بن عبدالله - رسول الله - النبي صلى الله عليه وآله: ورد هذا الاسم المقدس في أكثر من ٨٠ صفحة.

الإمام علي عليه السلام: ٥١، ٥٤، ٥٥، ١٤٢، ٣٠١، ٣٩٨.
 الإمام محمد بن علي الباقر (أبو جعفر) عليه السلام: ١١٢، ١٢٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٣٠٢، ٣٤٥، ٣٩٧، ٤٣٥، ٥٣٣، ٥٦٤، ٥٦٦، ٥٨٠، ٥٩٧، ٦٠٦.
 الإمام جعفر بن محمد الصادق (أبو عبدالله) عليه السلام: ٥٥، ١٢٢، ٢٠٦، ٢٧٤، ٢٨١، ٣٩٧، ٤٧٧.

فهرس الأعلام

أبان: ٢٦٦.

إيليس: ١٧٦، ٢٠٢، ٢٢١، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٢، ٣٤٥، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٧، ٦٢٢.

ابن إسحاق: ١٢٣، ١٤٠، ١٤٥، ٤٤٠، ٤٥٣، ٤٦٦، ٤٩٧، ٥٥٩.

ابن جُرَيج: ١٤٠، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٦٤، ٢٧٦، ٢٨٧، ٢٩٧، ٣٤٤، ٣٦٢، ٣٧٢، ٣٨٥، ٤١٣، ٥٢٢، ٥٣٢، ٥٩٩، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦١٣، ٦١٦، ٦٣٤، ٦٣٥، ٦٣٨.

ابن زيد: ورد في أكثر من ٦٠ صفحة.

ابن شاهين: ٢٩.

ابن عامر: ورد في صفحات تناهز ٥٠.

ابن عباس: ورد في صفحات تناهز ١٢٠.

ابن عمر: ٩٧، ٥١٩.

ابن كثير: ٢٩، ٦٢، ١٥٠، ١٦٨، ١٨٦، ١٩٣، ٢٠٨، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٧٢، ٢٩٢، ٣٩١، ٣٩٢، ٤١٥، ٤١٦، ٤٩٠، ٥٠٠، ٥٠٥، ٥٧١، ٥٨٩، ٦٣٢.

ابن مسعود: ٨٥، ٩٦، ١٤٥، ١٧٠، ١٨٧، ٢٦٥، ٣٠٠، ٣٩٩.

أبو بكر (ابن أبي قحافة): ٢٤، ٢٩، ١٠٣، ١١٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٤٨، ١٥٣.

١٩٣، ٢١٦، ٢٢٨، ٢٤٩، ٢٥٨، ٢٨٨، ٣٨٣، ٣٨٤، ٤١٢، ٥٢٦، ٥٥٠، ٥٧٦، ٥٧٨، ٥٨٥، ٦١٧.

أبو بكر الرازي: ٢٦٦.

أبوبكر (أحمد بن عليّ الأخشيدي): ٣٣٥، ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٧٥، ٣٧٧، ٥٥١.

أبو بكر الهذلي: ٥٣٥.

أبو حمزة: ٢١٦، ٥.

أبو جعفر: ٧٧، ١٠٣، ١٥٧، ٢٥٨، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٩١، ٦٢٧.

أبو جهل: ٢٢٣.

أبو داود: ٣٣، ٥١٩، ٥٩٤.

أبو ذؤيب: ٥١٧.

أبو ريعة: ١٣٤، ١٣٥.

أبو سعيد: ١٢١، ٣٠١، ٣٠٦.

أبو صالح: ٣٥٧.

أبو طالب: ٣٩، ٥٦.

أبو العالية: ٩٤، ٢٦٤، ٣٥٨، ٥٥٣.

أبو العبّاس: ٢٥٥.

أبو عبيد: ١٩، ٤٩، ٧٧، ١٠٠، ١١٣، ١٧٤، ٢٠٥، ٤٥٧.

أبو عبيدة: ٤٩، ٧٧، ١٠٠، ١١٣، ١٧٤، ٢٠٥، ٢٥٧، ٥٨٧.

أبو عثمان: ٢٦٧، ٢٦٨.

أبو عليّ: ورد في ٧٦ صفحة.

أبو عليّ الفارسي: ٥٤، ٧٣، ٨٥، ٨٩، ١٢٧، ١٤٨، ١٩٩، ٢١٣، ٣٠٩، ٣٧٢، ٤٢٣، ٤٩١، ٥١٤، ٥٣٥، ٦١٧، ٦٢٧.

أبو عليّ الجُبّائي: ٤٢، ٤٥، ٨٧، ١٤٥، ١٤٦، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٣٢، ٢٧٥، ٢٧٨، ٣٣٥.

٣٥٧، ٣٧٥، ٣٩٧، ٤٠٠، ٤٩٠، ٥٣٩.

أبو عليّ النحوي: ١٦٧، ١٨٧، ٢٢٨.

أبو عمرو: ٢٤، ٢٩، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٩٤، ٩٥، ١٢٠، ١٢٦، ١٢٧، ١٥٠، ١٦٨، ١٨٦،

١٩٣، ٢١٥، ٤٢٦، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠٥، ٥٧٠، ٥٨٩، ٥٩٠، ٦٢٧.

أبو عمرو بن العلاء: ٣٣٧، ٤٣٧، ٤٥٠، ٥٤٣، ٦٣٢، ٦٣٣.

أبو القاسم: ٤٦.

أبو مالك: ١٦٣، ٥٧٩.

أبو محمّد الفُقْعَسِي: ٥٧٧.

أبو مسلم: ٢٩٤، ٥٨٩، ٥٩٧.

أبو مسلم محمّد بن بحر الإصفهاني: ٦٢١.

أبو وائل: ٢٥٦.

أبو هريرة: ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢.

أبو يزيد المَدَنِي: ١٢٢.

أبيّ بن كعب: ١٤١.

أحمد: ٣٨٤، ٥٩٣.

أحمد بن يحيى: ٧١، ١٧٥.

الأخفش (أبو الحسن): ٧٩، ٢٦٧، ٣٠٧، ٥٢٧، ٥٣٤، ٦١٧.

الأزهري: ١٨، ١٠٨، ١٤٢، ١٦٠، ١٨٥، ٣٨٧، ٤٨٩، ٥٩٥، ٦١٨.

الأعشى: ١٢٧، ١٧١، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٨٣، ٣٠٧، ٣٤٩، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٩٣، ٤١٧،

٤١٨، ٤٣٥، ٤٥١، ٥٢١، ٥٤٠، ٦٢٧، ٦٣٢.

امرؤ القيس: ١٨، ١٦٠، ٣٨٠، ٤١٩، ٤٤٣، ٤٦٧.

أنس بن مالك: ٤.

البلخي: ورد في صفحات تناهز ٦٥.

ثابت بن شماس: ٢٦٤.

جابر: ١٣٨، ٣٦٧.

جابر بن عبدالله: ٢٦٣.

الجُبَّائي (أبو علي): ورد في ١١٣ صفحة.

جبرائيل: ٤، ١٣، ٢٤، ١٨٤، ٥٤٨، ٦٣١.

جيرير: ٣٠، ١٥٨، ٢٦٥، ٢٩٨، ٣٢٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٤٤٥، ٤٥٧، ٤٨٦.

جعفر بن مبشر: ١١٠.

الحجاج: ٤٥٠، ٤٩٨.

الحسن (البصري): ورد في ١٦٣ صفحة.

حسان بن ثابت: ٥٨٣.

الحسين: ٥٦٩، ٥٧١.

الحسين بن عليّ المغربي: ٦٥، ١٠٠، ١٦٨، ١٨٧، ١٩٨، ٢٤٣، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٦٢.

٣٦٧.

الحسين النجّار: ٤٠٨.

حفص: ٢٩، ٤٠، ٥١، ١٥٨، ٢٠٥، ٢١٥، ٢٢٦، ٣٢٠، ٤٤٨، ٥٧٥.

حمّاد بن عثمان: ٢٧٤.

حمّاد بن زيد: ١٤١.

حمزة: ٢٩، ٤٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١١٤، ١١٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٤٤، ١٤٨،

١٧١، ١٩٤، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٧٢، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٢٠، ٣٥٩، ٣٨٤، ٣٩٢، ٤١٥،

٤٢٤، ٤٩٠، ٤٩٢، ٥٠٦، ٥٢٨، ٥٤٣، ٥٤٧، ٥٥٠، ٦٠٤، ٦١١.

خالد بن زهير: ٣٥٢.

الخليل (الفرهيدي): ٥٤، ٥٥، ٨٦، ١٩٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٥١٨.

داود: ١٣، ٩٥، ١٤٥، ٥١٤، ٥٢٦.

- الربيع: ١٦٦، ٢٦٥، ٢٩٤، ٣٣٥، ٣٦٧، ٣٨٠.
 الربيع بن أنس: ٢٦٣، ٢١٨.
 ريعة: ٢٩٠.
 الرثاني (علي بن عيسى): ٦٣٢.
 رؤبة: ٢٠٥.
 الزجاج: ورد في ١١٦ صفحة.
 زيد بن أسلم: ٢٦٣، ٢٩٠، ٥٢١.
 زيد بن ثابت: ٢٤٨.
 السدي: ورد في ٧٧ صفحة.
 سعد بن أبي سرخ: ١٥٥.
 سعد بن الضباب: ٣٨٠.
 سعد بن معاذ: ٥٨٣.
 سعيد: ٥٢١.
 سعيد بن جبير: ٦، ١٠٩، ١١٠، ١٢٦، ١٦٩، ١٨٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٣٣، ٢٦٣، ٢٧٥.
 ٢٧٦، ٣١٠، ٣٦٥، ٣٧٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٥٣.
 سعيد بن المسيب: ١٤١، ٢٦٣، ٦٣٦.
 سعيد بن عبدالعزيز: ١٢٣.
 سعيد الجهني: ٣٦١.
 سلمان: ١٢٦، ١٤١.
 سليمان: ١٤٥، ٥١٤، ٥٢٦، ٥٩٣، ٥٩٧.
 سليمان بن بشار الجهني: ٥٩٢.
 سماعة بن مهران: ٢٧٤.
 سبيويه: ٤٩، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦٥، ٧٦، ٨٥، ٨٦، ٨٩، ١٠٥، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٨، ١٥٩.

١٦٨، ١٧١، ٢٣١، ٢٥٤، ٢٦١، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٨٣، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣١٠، ٣٢٤، ٣٤٤،
٣٦١، ٣٦٤، ٣٨٠، ٣٨٤، ٣٨٧، ٣٩٢، ٣٩٣، ٤٧٤، ٥١٣، ٥٧٧، ٥٧٨.

الشافعي: ٤١٦.

الشعبي (عامر): ١٨٤، ٦٣٦.

شهر آشوب: ٣٥٤، ٣٩٨.

صالح: ٣٣٧، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٧١.

صفوان بن عسال: ٣٠١.

الضحاك: ٦، ٨٥، ١١٣، ١٢٥، ١٤٧، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٧٠، ١٧٣، ٢١٨،

٢١٩، ٢٢٣، ٢٤٣، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٨٧، ٢٩٠، ٣١٠، ٣٣٥، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٠، ٦٣٥،

٦٣٦.

طاووس: ٢٦٣.

الطبري (ابن جرير): ورد في صفحات تناهز ٩٠.

الطرمّاح: ٤٨٧.

عائشة: ١٨٤، ٣٠٢.

عاصم: ٢٩، ٨٨، ٩٤، ٢١٥، ٢٥٨، ٢٦١، ٣٤٦، ٣٨٣، ٣٩١، ٤١٥، ٤١٨، ٤٩٠، ٥٠٠،

٥٢٦، ٥٣٤، ٥٧٥، ٥٧٨.

عامر: راجع «الشعبي».

عبدالله بن زيد: ١٩٩.

عبدالله بن عمر: ٣٠٦، ٣٣٠، ٥٩٦.

عبدالله بن عمرو: ٥٩٦.

عبدالله بن سعد بن أبي سرح: ١٢٢.

عبدالله بن كثير: راجع «ابن كثير».

عبدالله بن مسعود: راجع «ابن مسعود».

- عبدالرحمن بن أبي بكر: ١١٦.
- عُتَيْبَةُ بن شهاب التبرُّوعي: ٥١١.
- العجّاج: ٣٥، ٥٣، ٣٢٧، ٥٥٩، ٥٨٧.
- عديّ بن زيد العبادي: ١٩٤.
- عليّ: ٤٧، ٥٠.
- عليّ بن إبراهيم القمي: ٥٥، ١٥٦، ٣٩٧.
- عليّ بن أبي طلحة: ١٢١، ٥٩٦.
- عليّ بن عيسى: راجع: «الرمّاني».
- عليّ بن الإخشاذ: ٣٢.
- عمّار بن ايمن: ٥٣.
- عمّار بن ياسر: ٢٢٣.
- عمر بن الخطّاب: ٢٢٣، ٢٣٠، ٢٣٣، ٥٩٣.
- عمر بن شبيبة: ٣٩٨.
- عمر بن شاش: ٢٨٩.
- عنتره: ٣٩١، ٤١٦.
- الفتح بن يزيد الجرجاني: ٢٧٥.
- الفراء: ورد في ٨٥ صفحة.
- الفراهيدي: راجع «الخليل».
- الفرزدق: ٣٠، ١٥٨، ٢٩٨، ٣٢٢، ٣٥٨، ٣٨٦، ٤٨٦، ٤٩٨، ٥٥٨.
- فرعون: ٣٦٣، ٤٩٥، ٤٩٧، ٥٢٧، ٦٠١.
- قتادة: ٤٤، ١٥٥، ٣٨٠، ٦٢٢.
- الكسائي: ورد في صفحات تناهز ٥٠.
- كليب الصيدأوي: ٣٠١.

لبيد بن ربيعة: ٣٣٩، ٤٦٩، ٥٨٣، ٦٢٧.

لدؤيد بن زيد القضاعي: ٤٢٩.

مالك: ٢٩٠.

المبرد: ٣٦٢، ٤٦٦.

مجاهد: ورد في صفحات تناهز ١١٠.

محمد بن أبي نصر: ٢٧٤.

محمد بن إسحاق: ١٢٣.

محمد بن كعب القرظي: ١٥١، ٣٨٧، ٥٢١.

محمد بن الحنفية: ٢٦٣، ٥٦٩.

محمد بن يزيد: ٩١.

مسروق: ٥٣٢، ٥٩٦.

معاوية بن أبي سفيان: ١٦٥.

المعتمر بن سليمان: ٥٩٧.

المؤرج: ٤٣١.

النابعة الذبياني: ١٧، ١٤٢، ١٦١، ٤٦٤، ٥٨٧.

نافع: ٢٩، ٥٤، ٥٥، ٧٠، ٨٩، ١٢٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢١٥، ٣٧١، ٣٩١، ٣٩٣، ٤١٥.

٤٢٣، ٤٣٤، ٤٨٤، ٥٣١، ٥٧٧، ٦٢٣، ٦٣٤.

الواقدي: ٤.

الوليد بن يزيد الأموي: ١٤٤.

وهب بن منبه: ٣٦٣.

الهذلي: ٣٥٢، ٦٢٠.

هشام: ٢٤، ١٠٣، ٢٥٨، ٢٦٧، ٤٤٨، ٤٩٠، ٤٩٤، ٥٧٦، ٦٢٧.

يحيى: ٩٩، ١٢٧، ١٢٩، ١٩٣، ٤٩٠.

يحيى بن آدم: ١٢٦.

يحيى بن يَعْمُر: ١٧٦.

يحيى بن كثير: ٣٤٩.

يحيى بن معين: ٥٩٣.

يحيى بن وَثَّاب: ٩٣.

يزيد: ٢٦٣.

يزيد بن رومان: ٣.

يزيد بن ضَبَّةَ الثقفي: ٤٧٠.

يزيد بن عبد الملك: ٢٦٥، ٣٨٦.

يزيد النهشلي: ٢٥٤.

يزيد بن مسهر الشيباني: ٢٤٠، ٢٤٥، ٣٤٩، ٣٩٣، ٤٠٤.

يزيد بن معاوية: ١٧٤.

يعقوب: ٢٠، ٢٨، ٢٩، ٤٠، ٥١، ٨٨، ١٠٣، ١٢٢، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٨، ١٦٧، ١٩١.

١٩٣، ٢٠٨، ٢٢٢، ٢٩٢، ٣٠٣، ٣٣٣، ٣٥٩، ٤٠٩، ٤٤٧، ٥٤٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٦٢٧.

يَعْلَى بن حكيم: ٣٤٩.

فهرس الأشعار والأرجاز

صدر البيت	القافية	الشاعر	الصفحة
[الألف]			
فَطِرْتُ	السَّريحا	سيبويه	٦٥
أَرَيْتَ	البرودا	الراجز	٧١
فلا تَقْعُدَنَّ	وَحَيْفًا		١٠٥
بني أَسَدٍ	أَشْنَعَا	...	١٠٥
كَذَبْتُكَ	خَيَالَا	الأخطل	١٣٤
فَجَالَ	يمانيا		١٤٨
هُونًا	ماتا		١٥٧
يُهِينُ	لَهَا		١٥٧
ورأيتُ	ورمحا	...	١٧١
فَأَنْتُ	أَحْمَرَا	امرؤ القيس	١٧٣
في قِبابٍ	يَنْعَا	...	١٧٤
دَرِينِي	مُخَلِّدَا	دُرَيْد بن الصِّمَّة	١٩٤

٢١٣	حاتم الطائي	خُدْلًا	فَحَالَفْتُ
٢٢٥		مَوْلَعًا	إِنَّ الْأَحَامِرَةَ
٢٢٥		مَرَدَعًا	الْحَمَرَ
٢٥٥		كِسَايَا	إِذَا الثُّرَيَّا
٢٦٧	سيبويه	عَادِيَا	بَنِيئُهُ
٢٦٨	ذِي الرُّمَّةِ	يُتْرَهَا	إِذَا
٢٦٨	أَبِي دُوَيْبٍ	وَأَنْتَارُهَا	وَعَادِيَّةٍ
٢٦٩	لَيْدٍ	وَقِرَامُهَا	مِنْ كُلِّ
٢٨٧		أَحَدًا	حَجَّ
٢٨٨		هَدَيْلًا	يُدْكَرُنِيكَ
٢٨٩	...	وَأَعْمَامَهَا	تَذَكَّرْتُ
٣٠٧	الأعشى	الشَّعِيرَا	حَيَاذُكَ
٣١٧		أَلَا فَا	نَادَوْهُمْ
٣٢٩		طَمًا	فَأَصْبَحْتُ
٣٣٢		يَقَوْمُهَا	وَإِنِّي لَقَوَامٌ
٣٤٢		لَأَيْمًا	فَمَنْ
٣٤٦	...	أَذِيْمُهَا	صَحْبَتُكَ
٣٥٢	الهُذَلِيُّ	نَشُورُهَا	وَقَاسَمَهَا
٣٥٤	الأعشى	صَنَعَا	قَالَتْ أَرَى
٣٦١		مَوْشِمًا	فَلَمَّا
٣٦١	سيبويه	لِمَامًا	وَرِيْشِي
٣٨٦	الْفَرَزْدَقُ	وَرَايَا	فَنَقِصْتُ
٤١٥	ذُو الرُّمَّةِ	هُبُوبُهَا	إِذَا هَبَّتْ
٤١٥		سُودًا	فِيهَا

٤١٦	المراد الفقَّسي	نَسِيْمُهَا	وَهَيْتَ
٤٢١		نَكِدًا	لَا تُنْجِزْ
٤٣٤		إِلَا	أَبْيَضُ
٤٤٠		مُبَوَّوْهَا	بُوَّتَتْ
٤٥٧	...	أَغْضَبَا	أَبْنِي حَنِيفَةً
٤٩٢	الراجِزِ	أَفْسَدَا	أُنْحَى
٤٩٥		نَبَلَا	أَفْرَحُ
٤٩٨	...	فَنَعَذَرَا	فَقُلْتُ
٤٩٨	ذو الرُّمَّةِ	اندمالها	فكيف
٥١١	عُتَيْبَةُ بن شهاب اليربوعي	تَوُوبَا	تَرَوَّخْنَا
٥١٥		سِينِيًّا	كَأَنَّ النَّاسَ
٥١٦		السَّيِّدَا	وَلَقَدْ
٥١٧	...	اجْتَنَبَاهَا	زَجَرْتُ
٥٢٠	أبو النّجم	بَرَدَا	قَدْ مَدَّ
٥٢١	الأعشى	مُؤَصَّدَا	قَوْمًا
٥٣٨	...	نَائِيَا	تَجَلَّى
٥٥٧	أبو النّجم	يَصِيحَا	وَهَمَّتْ
٥٥٨	غَيْلَان	الْحَيَا	فَقُلْتُ
٥٧٨	...	الْقَوْنَسَا	كِلَاهُمَا
٥٩٨	مَالِك بن نُوَيْرَةَ	فَأَخْلَدُوا	بِإِنْبَاءٍ
٦٠٢	...	نَبْنِيهَا	أَمْوَالُنَا
٦٠٢	مسكين الدارمي	أَذْنُوا	صُمُّ
٦١٣	الراجز	إِبَانَا	أَيَانَ

[الهمزة]

٢٠٤	...	إِصْغَاءُ	تَرَى
٢٢٢	ابن الرِّغْلَاءِ الْعَسَّانِي	الْأَحْيَاءِ	لَيْسَ
٣٩٦	...	وَأَنْثَاءِ	قِفَا
٥٦٩	كُثِيرٌ	خَفَاءُ	عَلِيٌّ

[الباء]

٣٣		وَتُخَلَبُ	كَذَّبْتُمْ
٣٩	...	الزَّبِ	جَعَلْتَنِي
٥٧	الْكُمَيْتِ	وَمُذْنَبُ	فَطَائِفَةٌ
١٠٥	...	أَشْهَبُ	فِدَى
١٣٠	عَبِيد	مَرْهُوبُ	وَحَرْقِ
١٣٤	ابن أبي ربيعة	وَالْتَرَابِ	ثُمَّ
١٤٨		ذِيبُ	هَذَا
٢١١		الشَّوَابِطِ	تَرَى
٣٤٤		التَّعْلَبُ	لَدُنْ
٣٤٤		يَصُوبُ	كَأَنِّي
٣٥٨		الْكَرْبِ	أَقَاتِلْ
٣٨٦		الْحَلِيبِ	إِذَا
٤٥٨		ذَنُوبُ	لَتَيْنِ
٤٦٠	...	الْحَلِيبِ	إِذَا
٤٧٥	ذو الرِّمَّةِ	وَالْقَصَبِ	عَجَزَاءُ
٥٠٧		وَالْعَصَبِ	عَجَزَاءُ
٥٥٢		مُجَابِ	يَا ابْنَ

٥٨٣	لَبِيد	الْأَجْرِبِ	ذَهَبَ
٦٠٢		ذهاب	لِدُوا

[التاء]

٤٩		الْبَغْتُ	وَلَكْنَهُم
١٥٩		خَوَاتِ	مِنْ
٢٢٥		رَاصِدَةً	فَأَقْسِمُ
٤٣٦		النَّاتِ	أَلَا
٤٤٩	...	وَأَسْبَكَرَتْ	وَأَشْعَتْ
٦٢٠	كُنْثِيرٌ	تَقَلَّتْ	أَسِيئِي

[الحاء]

٣٣	أبو داود الأزدي	بَرَحَ	قُلْتُ
٨٩	ابن مُقْبِلٍ	جَامَحُ	وَأَنْتِي
٢٥٤		الطَّوَائِحُ	لِيُبَيِّنَكَ
٣٢٧		رَاحَ	أَلَسْتُمْ
٤١٧		وَأَسْتَرِيحُ	إِنِّي

[الدال]

١٠٠	...	أَسَدٌ	إِنَّ
١٦١	نَابِغَةَ بَنِي دُبْيَانَ	الْفَرْدِ	مَنْ وَخَشَ
١٩٤	عَدِيَّ بْنَ زَيْدٍ	الْعَدِ	أَعَادِلُ
٢٥٢	الراجز	بِالتَّشْدِيدِ	وَقَدْ
٣٣٩		الْعَدَدِ	كُلُّ

٤١٤	عُرْوَة بن حِزَام	بعيدٌ	عَشِيَّةٌ
٤٢٢		والتاكيدِ	وأعطِ
٤٣٢	...	المُسَرَّدِ	فَقَلْتُ
٤٤٥	الأخْطَلُ	مَهْدُودٌ	إِذَا
٤٦٤	التابغة	وَتَوَدَّدِ	عُغَيْبَتٌ
٥١٩	...	المتجرَّد	وَحَدِيثُهَا
٥٢٠	الراعي	وَالزُّوْدُ	تُضْحِي
٥٥٢	...	شَدِيدِ	يَا ابْنَ
٥٩٨	زُهَيْر	المُخْلِدِ	لِمَنْ
٦٠٤		لأَحَدٍ	لَيْسَ

[الراء]

٦٥		طَائِرٍ	فَلَوَ
١٢١	...	الصُّورُ	لَوَا
١٣٤	أَوْس بن حَجَر	مِنْقَرٍ	لَعَمْرُكَ
١٦٠	مُهْلَهْل	جَرُورُ	كَأَنَّ
٢٤٨	نُصَيْبُ	الصَّغَارُ	وَلَوْلَا
٢٥٧	رُؤْبَة	مَخْجُورُ	فَبِتُّ
٢٧٠	سَيَّوِيه	مِنْقَرٍ	فَوَاللهِ
٢٧٥	...	وَحَافِرٍ	فَمَا
٣٨٠	امْرؤ القَيْسِ	سَكِرَ	سَمَاحَةً
٣٩٩		الْبَصَرُ	غُلَامٌ
٤١٢	...	الْفِرَارُ	وَلَا يُنْجِي
٤١٨	أَبِي عُبَيْدَةَ	النَّاشِرِ	حَتَّى

٤١٩	امرو القيس	الْقَطْرُ	كَأَنَّ
٤٥١	الأعشى	الغابر	عَصَّ
٤٥١	الأعشى	الغابر	وأبي
٤٦٥	حاتم طي	الدَّهْرُ	عُنِينَا
٤٦٥		سامِرُ	كَأَنَّ
٤٨٧		المُسَافِرُ	فَأَلَقْتُ
٤٩٥		مُضَرُّ	وَأَصْبَحْتُ
٥٠١		السَّاحِرُ	أَنْتَ
٥١٥		الذكور	سنيني
٥١٧	...	وَالزَّجْرِ	فَقُلْتُ
٥٢٠	الحسن بن عَرْفُطَةَ	المَطَرُ	غَيْرَ
٥٥٨	غَيْلان	الْأَبَاعِرُ	وَأَنْتَ
٥٧٠	...	العَشْرِ	وإنَّ
٥٨٠	زُهَيْر	يَسَارُ	تَعَلَّمْ
٥٨٧	النابعة	مِذْكَارِ	لم
٦٠٢	مسكين الدارمي	الْخِذْرُ	أَعْمَى
٦٢٠	الهُذَلِي	الْأَعْفَرُ	يَالْهَفَ
٦٢٠	...	الصَّدْرُ	لَعَمْرُكَ
٦٢٥	الكسائي	عَامِرٍ	سواء

[الزاي]

٣٩٧	الشَّمَاح	رَاكِزُ	وظَلَّتْ
٤٣٧	رُؤْبَةَ	بِالرَّجْرِ	كَمْ

[السين]

٧٧	رُؤْبَة	وإِبْلَاش	وَحْضَرَتْ
٢٥٧	الْمَتَلَمَّس	الدَّهَارِيْسُ	حَنَّتْ
٥٧٧	الْفَقْعَسِي	بَيْيس	أَشَعَتْ

[العين]

١٣	أَبُو ذُوَيْب	تُبَّعُ	وَعَلَيْهِمَا
١٧	النَّابِغَة	وَاسِعُ	فَانَّكَ
٩٥	الْهُذَلِي	تُبَّعُ	وَعَلَيْهِمَا

[الفاء]

٦٦	العُقَيْلِي	الرَّغَايِفُ [نب]	وَطِيرِي
١٦٥	ميسون بنت بحدل	الشُّفُوفِ	لَلْبَيْسِ
٢٠٥	رُؤْبَة	العَفِيفِ	أَعْيَا
٢٦٥		سَرَفُ	أَعْطُوا
٣٥٤	...	خَصَافُ	وَأَسْعَى
٣٩٧	الشَّمَاخ	الأَعْرَافِ	كَلَّ

[القاف]

١١٣	...	مُرَاقٍ	وإِسَالِي
١٨٧	ابن مِيَادَة	مِخْرَاقٍ	يَكْفِيكَ
٣٤٩	رُؤْبَة	العُقُقُ	وَسُوسَ
٣٥٢	أَعَشَى بني ثعلبة	لَا تَتَفَرَّقُ	رَضِيْعِي
٤١٠	الْبُعَيْثُ	مُهْرَاقٍ	ثَمَّ

٤٨٧	...	مُسَبَّرُقْ	فَجَاءَتْ
٥٧٠	الفراء	شِرْقُ	يَكَادُ
٥٨٥	بعض الطائيين	المياثيقِ	حِمَى
٦٣٢	أبو عُبَيْدَةَ للأعشى	أُولُقْ	وَتُصْبِحُ

[الكاف]

١٣٠	ذو الرُّمَّة	الدَّوَالِكِ	مَصَابِيحُ
-----	--------------	--------------	------------

[اللام]

٣٠		الباطلِ	ذَاكَ
١١٦	...	سَبِيلِ	أُرِيدُ
١٦٢	أبي النّجم	المَخُولِ	أَعْطَى
٢٤٥	...	وَيَنْتَعِلُ	فِي
٢٨٩	أبو زيد	بِتَضَالِ	تَذَكَّرْتُ
٣٣٧		وَفُيُولُ	مَا
٣٤٩	...	زَجَلُ	تَسْمَعُ
٣٧٤	ابن الأنباري	بالرجال	شَرِبْتُ
٣٩٣	الأعشى	وَيَنْتَعِلُ	فِي فَنِيَّةٍ
٤٣٩	...	أَوْقَالَ	لَمْ
٤٦٤	النابعة	وَوَصَالِ	وَلَقَدْ
٤٦٧	امرؤ القيس	وَتَحْمَلِ	وَقُوفاً
٤٨٦	...	الصَّيْقَلِ	تَصِفُ
٤٩٢	الراجز	بالطُّولِ	لَسْتُ
٦٢٧	أبو عليّ الفارسي	المُصَلِّ	يَلْمَسُ

[الميم]

١٨	عَلَقَمَة بن عبدة	مَخْرُومٌ	وَمُطْعَمٌ
٣٣		قَائِمٌ	كَذَّبْتُمْ
٣٥	...	صَمَمٌ	وَكَلَامٌ
١٣٠	الهُذَلِيُّ	الأَذْهَمُ	وَمَاءٌ
١٣٥	الطبري	هُمُ؟	رَفَوْنِي
١٩٥	دُرَيْد بن الصِّمَّة	الخِيَامِ	هَلْ
٢٤٠	...	سَائِمٌ	لَقَدْ
٢٨٣	الأعشى	صُرِمٌ	وَكَانَ
٢٩٥	الكسائي	العَلَمِ	إِنَّ
٢٩٨	...	العَوَامِ	لَوْ
٤٤٥	جَرِير	الجُثُومِ	عَرَفْتُ
٤٦٩		كُومٌ	وَلَكِنَّا
٤٨٦	...	سَنَامٌ	وَأَنَا
٤٨٩	ذو الرُّمَّة	الأُرُومُ	وَسَاحِرَةٌ
٥٢٥	...	الرُّومُ	دُؤَيَّةٌ
٥٤٠	الأعشى	العَجَمِ	مَقَادَكَ
٦٢٥		أَصَارِمٌ	سِوَاءَ

[النون]

١٣٠	...	مُخْتَرَسَانِ	فَلَمَّا
١٣٤	الأخطل	بَشْمَانِ	لَعَمْرُكَ
١٥٧	ذو الإضبع العدواني	الهُونِ	أَذْهَبَ
٣٢٤		فَيَهُونُ	وَأِنْ

٣٣٠	الأخطل	الميزان	وإذا
٣٥٨		لا حين	وما
٥١٢		تريان	فإن
٥١٥	...	والسنون	وأموال
٥١٧	الأعرابي	التمين	وإني
٦١٣	...	متواسن	سؤال
٦٢٧	أبو علي الفارسي	يأتين	فهل
٦٣٧	الطرماح	القنقن	يخافن

[الهاء]

١٨	امرو القيس	كبره	مطعم
٥٧		وملا عبه	وأسقيه
٨٧	...	الوالده	فأم
١٢٩	الأخطل	وجداوله	إذا
١٤٤		كاهله	وجدنا
١٦١	...	صواهله	تري
١٩٥	أبو النجم	شوائه	قلت
٢٥٤	أبو الحسن	مزاده	فرجبتها
٣٣٦		لمه	سالت
٣٥٣		تكليه	كان
٣٦٢	...	الرجله	خرقوا
٣٦٥	العامرية	أجله	اليوم
٤٦٧	...	المحلة	كلمون
٤٧٤	رؤية	ضحاؤه	الحمد لله

٥٣٥	حميد	بُهْمُهُ	يَدُكُ
٥٨٠	زُهَيْر	قَاتِلُهُ	فَقُلْتُ
٦٠٢		الوالِدَةُ	وَأُمِّ

[الياء]

٦١		تُنَادِي	لَقَدْ
١٣٨		مَالِي	لَيْتِي
١٣٩		تُخَوِّفِينِي	أَبَالمَوْتِ
١٨٥	...	وَأَيَّ	جَاءَوا
٢١٣	الخنساء	تَسْرِي	الْقَوُومُ
٣٢٢	الْفَرَزْدَقُ	عِشَارِي	كَمْ
٣٤٣		عَوَى	مُعْطَفَةٌ
٤٦٢	...	غَنِيٍّ	أَلَا
٤٩٠	عَنْتَرَةَ	دَمِي	الشَّائِمِي
٥١١	الراجز	ظَهَرْتِي	يَا مُضَرَ
٦٠٨		مُمَاتِي	عَدْلُنْ

فهرس المباحث العامة*

سورة الأنعام

- ٦ تحقيق في معنى «الأجل» وأنَّ المقدَّر لا يكون أجلاً
- ١٠ معنى «قَرْن» من أُمَّة، وذكر الأقوال في مداه
- ١٢ بطلان قول من قال: اللطف ليس بواجب
- ١٣ تصوُّر المَلَك بصورة البشر للأنبياء والأولياء عليهم السلام
- ١٩ معنى «فاطر» وسائر مشتقاتها
- ٢٣ اختلافهم في الهمزتين إذا كانت الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، نحو: إذا... ٢٤
- ٢٤ صحّة توصيفه تعالى بأنّه شيء
- ٢٧ كيف يصحّ أن يكون الكفّار عارفين بالله وبنبيّه، ثمّ يموتون على الكفر؟
- ٣١ هل يصدر الكذب أو سائر القبائح من أهل الآخرة؟
- ٣٣ بطلان قول من قال: المعارف ضروريّة
- ٣٥ معنى: أسطورة، إسطارة، أساطير
- ٣٩ إيمان أبي طالب عليه السلام
- ٤٠ بطلان قول من قال: معرفة الله ضرورة

(*) أي: المباحث غير المختصّة بالتفسير.

- ٤٢ كيف يصحّ من أهل العذاب تمنّي الردّ إلى الدنيا مع علمهم بأنّهم لا يردّون؟
- ٤٦ كيف يصحّ الخلود في النار بذنوب محدودة في عمر قصير؟
- ٤٩ معنى النداء في مثل قولهم: يا حسرتنا! يا ويلتنا! يا عجباه!
- ٥٣ العقل، والحجّ، والنهي
- نهي النبيّ عن الجهل والشرك لا يدلّ على جواز صدورهما منه، بل يدلّ
- ٦٠ على قدرته عليهما
- ٦٣ لا يلزم إظهار المعجزات بحسب اقتراح المقترحين
- ٦٧ استدلال قوم من التناسخيّة بالآية على أنّ البهائم والطيور مكلفة
- ٧١ الفرق بين قولهم: «أرأيت» وقولهم: «أرأيتك»
- ٨٣ استدلال الجبائي والبلخي وغيرهما بالآية على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء
- ٩١ «السلام» في اللغة
- ١١٠ استدلال الجبائي بالآية على أنّه لا يجوز على الأئمة التقيّة
- ١١١ جواز السهو والنسيان على الأنبياء عليهم السلام في غير ما يؤدّونه عن الله تعالى
- ١١٥ لا يقدر أحد من الشياطين على إذهاب عقل أحد
- ١٢٠ معنى «الصور»
- ١٢٢ اسم أبي «إبراهيم عليه السلام»: «آزر» وتاريخ والبحث في معنى «آزر»
- ١٢٣ إجماع الفرقة المحقّقة على أنّ آباء النبيّ صلى الله عليه وآله إلى آدم كانوا موحدّين
- ١٢٤ الأقوال في معنى «الملكوت»
- ١٣١ وجوه أربعة حول ما قاله إبراهيم عليه السلام عند رؤية الكوكب والقمر والشمس
- ١٤٠ فساد قول من يقول بالتقليد وتحريم النظر والحجاج في الدين
- استدلال قوم بقول تعالى: ﴿فبهذا هم اقتنوه﴾ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان متعبداً
- ١٤٩ بشريعة من قبله من الأنبياء

- ١٦٣ المراد بإخراج الحيّ من الميت
- ١٦٤ بطلان قول من قال: إنّ الله تعالى يحول بين العبد وبين ما دعاه إليه
- ١٦٩ المستقرّ والمستودع
- ١٧٧ الفرق بين الابتداع والاختراع
- ١٨٠ أنّه تعالى لا يُدرّك بالأبصار
- ١٨٢ أنّه تعالى إذا تمدّح بنفي شيء عن نفسه فإثباته له يكون نقصاً
- ١٩١ الفرق بين «الحفيظ» و«الوكيل»
- ١٩٢ أقوال أربعة حول تزيين الله تعالى لكلّ أمة عملهم
- ٢٠١ دلالة الآية على أنّ إرادة الله محدثة
- ٢٠٧ كيف يصحّ وصف الكفّار بأنهم يعلمون الحقّ؟
- ٢١٠ توصيفه تعالى كلامه بالتمام والعدل يدلّ على أنّ كلامه تعالى محدث
- ٢١١ الفرق بين الأكثر والأعظم
- ٢١٥ دلالة الآية على أنّ ذبائح الكفّار لا يجوز أكلها
- ٢١٧ اختلافهم في مقدار ما يجوز تناوله من الميتة عند الاضطرار
- ٢١٩ وجوب التسمية على الذبيحة
- ٢٣١ معنى الهداية والإضلال
- ٢٣٤ ما معنى ضيق قلب الكافر وانشرح صدر المؤمن؟
- ٢٣٩ وجه استمتاع الجنّ بالانس
- ٢٤٢ الفرق بين «ذلك» و«ذاك»
- ٢٦٤ إنّ السرف يكون في التقصير كما يكون في الزيادة
- استدلال قوم بآية ﴿قل لا أجد في ما أُوحي إليّ محرماً...﴾ على إباحة ما عدا الأشياء المذكورة
- ٢٧٤

- ٢٨٠ إن الله تعالى لا يشاء المعاصي والكفر
 ٢٨٤ وجوه اتخذ الهوى مذهباً
 ٢٨٥ دلالة الآية على فساد التقليد
 ٢٩٠ اختلافهم في حدّ الأشدّ
 ٣٠٤ كلّ ما لم يتميز بالصورة، جمعه يدلّ على الاختلاف، مثل رمال ومياه
 كيف يُجمع بين قوله تعالى: ﴿... فله عشر أمثالها﴾ وبين قوله: ﴿... كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كلّ سنبله مائة حبة﴾؟
 ٣٠٥

سورة الأعراف

- ٣١٧ الكلام في الحروف المقطّعة الواقعة في أوائل السور
 ٣٢٤ «الدعوى» و«الدعاء» واحد، وفرّق قوم بينهما
 ٣٢٧ السؤال في اللغة على أربعة أقسام
 ٣٣٠ ما قيل في معنى «الوزن»
 ٣٣١ ما يُهمز من الجموع مثل «مدائن، مسائل» وما لا يُهمز مثل «معايش»
 ٣٣٤ الفرق بين «الشكر» و«الحمد»
 ٣٣٥ معنى سجود الملائكة لآدم
 ٣٣٩ فرق بين «الهبوط» و«النزول»
 ٣٤٠ الوجه في مسألة إبليس الإنظار
 ٣٤١ هل يجوز إجابة دعاء الكافر؟
 ٣٤٨ عندنا: الأكل من الشجرة لم يكن محرّماً على آدم وزوجه
 ٣٥٠ فرق بين «وسوس إليه» و«وسوس له»
 ٣٥١ الشجرة التي نُهي عنها آدم

- ٣٥٥ إِنَّ آدَمَ لَمْ يَرْتَكِبْ قَبِيحاً مُحَرَّمًا
- ٣٦٤ هل الجنّ قابل للرؤية؟
- ٣٧٠ وجه تعريضهم في الطواف
- ٣٧٣ معنى التحريم والتحليل
- ٣٧٥ فرق بين أن تقول: «لكلّ أمة أجل» وبين «لكلّ أحد أجل»
- ٣٧٨ لفظة «اتَّقَى» لا تُطلق إلّا للمؤمن
- ٣٨٣ الفرق بين «الضعف» و«المضاعف»
- ٣٨٣ لفظة «أَفْعَل» على ثلاثة أوجه
- ٣٩٣ الفرق بين «أَنَّ» و«إِنَّ»
- ٣٩٧ الأقوال في الذين هم على الأعراف
- ٤٠٣ وجه توعّد الله تعالى بالعقاب بالنار، دون غيرها من الآلام
- ٤٠٨ بطلان مذهب المجبرة في تكليف أهل الآخرة
- ٤٠٩ ما قيل من الوجوه في خلق السماوات والأرض في ستّة أيام
- ٤١١ تجاهل من استدللّ بقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ على أن كلام الله قديم
- عامة ما جاء بلفظ «الرياح»: السقيا والرحمة، وما جاء بخلاف ذلك جاء
- ٤١٦ بلفظ «الريح»
- للإنسان أن يزكي نفسه عند الحاجة إليه، لقول هود عليه السلام: ﴿وَأَنَا لَكُمْ
- ٤٣٣ ناصح أمين﴾
- ٤٣٥ ما قيل في الفرق بين «قالوا» و«تكلّموا» وبين «المجيء» و«الإتيان»
- عدم جواز دعاء المسلم للكافر بالخير لقول شعيب عليه السلام: ﴿فَكَيْفَ آسَى
- ٤٦٧ على قومٍ كافرين﴾
- ٤٧٠ معنى «لو» و«لولا»

- ٤٧١ المقتول ظلماً لو لم يُقتل لم تجب إمامته
- ٤٨٩ معنى «السحر»
- ٤٩٩ الفرق بين «لو» و«إن»
- ٥٠٤ ردّ ما قاله الرّماني: من جواز نبّين في وقت وعدم جواز إمامين في وقت
- ٥٠٩ الفرق بين «النقمة» و«الإساءة»
- ٥١٤ الفرق بين «الآل» و«الأهل»
- ٥١٦ دلالة الآية ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين...﴾ على بطلان مذهب المجبرة
- ٥١٨ الفرق بين «ما» و«مهما»
- ٥٢٣ الفرق بين «البلوغ» و«الوصول»
- ٥٢٥ كيف جاء الوعيد على «الغفلة» وليست من فعل البشر؟
- ٥٣٣ الفرق بين «الميعات» و«الوقت»
- ٥٣٥ وجه مسألة موسى عليه السلام الرؤية، مع أنّ الرؤية بالحاسه في حقّه تعالى محال
- ٥٣٩ ما وجه قول موسى عليه السلام: ﴿سبحانك تُبّت إليك﴾ إن كان سؤال الرؤية جائزاً؟
- ٥٤٣ الفرق بين «الرشد» و«الرشد»
- ٥٤٩ بطلان قول من يقول: لا محجوج إلّا عارف
- ٥٥١ الفرق بين «العجلة» و«السرعة»
- ٥٦٤ معنى «الأمي»
- ٥٦٦ لا نحكم بكفر قوم لم تبلغهم دعوة النبي ﷺ
- ٥٦٧ بطلان قول من قال: لا يهدي إلى الحقّ إلّا الله تعالى
- ٥٧٥ وجوب النهي عن القبيح وإن علم الناهي أنّ المنهي لا ينزجر
- ٥٨١ دلالة الآية على أنّ اليهود لا يكون لهم دولة إلى يوم القيامة ولا عزّ لهم أيضاً
- ٥٩٠ اختلاف المفسرين في معنى «الأخذ» و«الإشهاد» في آية الذرية

- ٥٩٢ ردّ ماروي: أنّ الله تعالى أخرج ذرّية آدم من ظهره وهم كالذرّ
- ٦٠١ تحقيق في معنى ﴿ولقد ذرأنا لجهنّم﴾
- ٦٠٥ تسمية الله بما لم يسمّ به نفسه
- ٦١١ دلالة الآية على وجوب النظر وفساد التقليد
- ردّ ما ادّعاء الجبائي من دلالة قوله تعالى: ﴿قل إنّما علمها عند ربّي﴾
- على بطلان قول الرافضة: من أنّ الأئمة معصومون منصوص عليهم إلى
- ٦١٤ يوم القيامة
- إذا علمنا بدليل العقل أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم المعاصي تأوّلنا كلّ
- ٦٢٢ خبر يتضمّن خلافه أو أبطلناه
- ٦٣٦ اختلافهم في الوقت الذي أمروا بالإنصات والاستماع ﴿إذا قرئ القرآن﴾